مجلة الأزهر

٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سقيفة الصفا العلمية

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

٥٩

المجلد الثاني والخمسون ـ القسم الأول

السنة ١٤٠٠هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف

مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف
١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م

SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail: info@saqifat-alsafa.org

مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

[stamp]
ص ١٢
٢٢٢٢٦

الجزء الأول ـ السنة الثانية والخمسون ـ محرم / صفر ١٤٠٠ هـ ـ ديسمبر ٧٩ ـ يناير ٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

على هامش المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية

دكتور عبد الودود شلبى

فى الدوحة .. عاصمة دولة قطر . انعقد المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية .

لم يكن تصورى عن هذا المؤتمر ـ قبل السفر ـ يزيد عن تصورى لغيره من المؤتمرات التى ذاعت وانتشرت فى أخريات هذا القرن. وفود تحضر ، واجتماعات يلتئم فيها الشمل .. ثم تصدر بعد ذلك قرارات وتوصيات يتم تكفينها وتحنيطها قبل أن تعلن !

غير ان الأمر اختلف هذه المرة. فقد أعلن الشيخ عبد الله الأنصارى رئيس المؤتمر أن دولة قطر قد تعهدت بتنفيذ احدى التوصيات الهامة .

حدث ذلك قبل أن تذاع القرارات ، وفى مفتتح الجلسة الختامية التى أعلنت فيها هذه التوصيات .

لقد تميز هذا المؤتمر عن غيره من المؤتمرات بسمات بارزة من أهمها :

أولا : كان المدعوون اليه نخبة من كبار المفكرين والساسة ورجال الحكم .

ثانيا : لم تغفل سكرتاريةالمؤتمر أية هيئة اسلامية فى الشرق أو الغرب •

ثالثا : كثرة البحوث المقدمة وتنوعها فى كل مجال من مجالات العلم والفكر •

رابعا : دقة التنظيم والتنسيق التى تميز بها هذا المؤتمر فى دولة صغيرة العدد والحجم •

خامسا : اخلاص القائمين على هذا المؤتمر واقبالهم على العمل فى حماسة وجد •

أكثر من ثلاثمائة عالم وباحث ومفكر • رؤساء وزراء سابقون ونواب رؤساء وزراء ، ووزراء وزعماء مسلمون حضروا من كل فج • حتى ولاية « لكسمبورج » هذه الدويلة التى لا يكاد يسمع بها الكثيرون هنا فى مصر كانت ممثلة بأحد المفكرين من رجال الاقتصاد والفكر •

ومن المفارقات اللطيفة التى سمعت بها فى هذا المؤتمر أن دولة « سرى لانكا » سوف تحتفل فى شهر يناير القادم احتفالا دوليا بمناسبة انتهاء القرن الرابع عشر الهجرى ، وقد أصدرت حكومتها « البوذية » طابعا تذكاريا لهذه المناسبة وان المسلمين فى « جنوب أفريقيا » يستعدون ايضا للاحتفال بهذه المناسبة •

وكانت الظاهرة البارزة عند جميع المشتركين فى هذا المؤتمر هو الاحساس والثقة بأن العالم الاسلامى مقبل على مرحلة حاسمه ، وأن القرن الخامس عشر الهجرى يجىء فى وقت تتطلع فيه الانسانية الى الخلاص من نير الأنظمة المادية التى تتحكم فى العالم بقوتها الغاشمة •

واذا كان الله سبحانه يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها • فقد بقى على المسلمين أن يعوا جيدا هذه الحقيقة ، وأن يوقن كل مسلم ومسلمة أن مجد الاسلام وعزته رهينان بقوة العقيدة ، والحفاظ على هذه العقيدة •

دكتور عبد الودود شلبى

البيان الختامى

للمؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية المعقود فى الدوحة

خلال الفترة من ٥ - ١٠ محرم ١٤٠٠ هـ
الموافق ٢٤ - ٢٩ نوفمبر ١٩٧٩م

متابعة للجهود المشكورة التى بذلت من قبل ، بعقد مؤتمرى السيرة النبوية فى اسلام أباد بالباكستان سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) وفى استنبول بتركيا سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

واستجابة للدعوة الكريمة الموجهة من دولة قطر ، باستضافة المؤتمر الثالث بالدوحة فى مستهل المحرم سنة ١٤٠٠ هـ ، ليكون فاتحة للاحتفالات العالمية بنهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجريين .

وتجاوبا مع الرغبة التى أبداها السادة العلماء المشتركون فى المؤتمرين السابقين ، باضافة موضوع السنة النبوية الى السيرة فى تحديد اختصاص المؤتمر .

فقد انعقد فى مدينة الدوحة ، المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية خلال الفترة من ٥ — ١٠ محرم ١٤٠٠ هـ (الموافق ٢٤ — ٢٩ نوفمبر / تشرين الثانى / ١٩٧٩ م) .

وحضر المؤتمر واشترك فى أعماله ٢٦٧ من الوزراء والعلماء وكبار المسئولين عن الشئون الاسلامية والقضاء الشرعى والافتاء فى العالم الاسلامى ، والمشتغلين بأمور الدعوة والدراسات والفكر الاسلامى الذين وفدوا من سبع وأربعين دولة . وقد وردت أسماؤهم والجهات التى وفدوا منها فى الملحق المرافق لهذا البيان .

كما حضر المؤتمر عن المنظمات الاسلامية الدولية كل من معالى السيد / ظفر الاسلام الأمين العام

المساعد لمنظمة المؤتمر الاسلامى ، ومعالى الشيخ / محمد على الحركان ، الأمين العام لرابطة العالم الاسلامى ، ودولة الدكتور معروف الدواليبى رئيس مؤتمر العالم الاسلامى لتمثيل منظماتهم والمشاركة فى أعمال المؤتمر .

وفى يوم السبت الخامس من محرم ١٤٠٠ هـ ، وبعد استهلال بتلاوة عطرة من آى الذكر الحكيم افتتح المؤتمر نيابة عن صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر ، سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثانى ولى العهد ووزير الدفاع بكلمة رحب فيها بأعضاء المؤتمر مؤكدا أن قدوم القرن الخامس عشر الهجرى يقف بالأمة الاسلامية على مفترق الطرق ويتطلب منها أن تتبوأ مكانتها ، وتقيم موازين القسط بين الشرق والغرب ، وتحرر أرضها وتستعيد مقدساتها وعلى رأسها القدس الشريف والمسجد الأقصى الذى بارك الله حوله .

كما أهاب بعلماء المسلمين أن يبذلوا قصارى جهودهم كى يقدموا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته للبشرية منهجا وقدوة .
هذا وقد تعهد سموه باسم دولة قطر برعاية مقررات المؤتمر وتوصياته .

وألقى فضيلة الشيخ عبد الله ابن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر كلمة بين فيها عظمة الشريعة الاسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان وأوضح أن السنة النبوية هى شقيقة القرآن ومبينته ، ودعا الى الاقتداء بسيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

وتحدث معالى ظفر الاسلام الأمين العام المساعد لمنظمة المؤتمر فرحب بالمؤتمر باعتباره فاتحة الاحتفالات العالمية بالقرن الخامس عشر .

ثم ناب عن الوفود سماحة الشيخ أبى الحسن الندوى ، رئيس ندوة العلماء بالهند ، فشكر لدولة قطر أميرا وحكومة وشعبا حفاوتها بالمؤتمر ، وتوفيرها أسباب النجاح له مؤكدا أن البعثة المحمدية هى

نعمة الله الكبرى على الأمة الاسلامية وأساس حضارتها وعزتها فى ماضيها ، ومرتجى وحدتها وقوتها فى مستقبلها .

واختتم حفل الافتتاح فضيلة الشيخ عبد الله الانصارى مدير الشئون الدينية بدولة قطر ورئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر مرحبا بأعضاء المؤتمر ومنوها بأهمية اضافة السنة النبوية قرينة للسيرة فى موضوعات المؤتمر وأبحاثه .

وفى أعقاب ذلك عقد أعضاء المؤتمر جلسة عمل برئاسة معالى الشيخ محمد على الحركان الأمين العام لرابطة العالم الاسلامى واختاروا الهيئة الادارية التالية :

١ ـ فضيلة الشيخ عبد الله الانصارى رئيسا للمؤتمر

٢ ـ فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوى نائبا أول للرئيس .

٣ ـ فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى نائبا ثانيا للرئيس

٤ ـ الدكتور عز الدين ابراهيم مقررا عاما

لجان المؤتمر :

ضمانا لتيسير أعمال المؤتمر ولكى يتسع وقته لمناقشة الأبحاث العديدة التى قدمت له ، فقد تقرر أن ينبثق عن المؤتمر أربع لجان تنعقد فى ظلال السيرة النبوية والسنة المشرفة ، وقد تم اختيار هيئاتها الادارية على النحو التالى :

١ ـ لجنة السنة مصدرا للتشريع ومنهاجا للحياة :

الدكتور الحبيب بلخوجه رئيسا

الاستاذ مناع القطان نائبا للرئيس

الشيخ صلاح أبو اسماعيل مقررا

٢ ـ لجنة التربية والشباب :

الدكتور كامل الباقر رئيسا

الدكتور عبد الهادى التازى نائبا للرئيس

الدكتور أحمد رجب عبد الحميد مقررا

٣ ـ لجنة الدعوة والاعلام :

الشيخ محمد الغزالى رئيسا

الدكتور أديب الصالح نائبا للرئيس

الدكتــور ابراهيم زيد الكيلانى مقــررا

٤ ـ لجنة التراث والمصادر :

الشيخ عوض الله صالح رئيسا

الدكتــور أكرم ضياء العمــرى نائبــا للرئيس

الدكتور محمد مصطفى الأعظمى مقــررا

ابحاث المؤتمر ودراساته :

عكف المؤتمر من خــلال لجانه الأربع على دراسة الأبحاث العلمية المستفيضة التى تقــدم بها السادة العلماء ورجال الفكر الاسلامى فى العــالم والتى تم اعدادها خــلال العام التحضيرى للمؤتمــر ، وبلغ عدد الأبحاث ثلاثة وسبعين بحثــا غطت جوانب عديدة من موضوعات السيرة والسنة النبوية .

وقد درست اللجان المجتمعة هذه الأبحــاث وناقشتها بروية وجهــد دؤوب واستخلصت منها التوصيات الواردة فيما بعد .

وفى الملحق المــرافق ثبت واف بأسماء هذه الأبحــاث وأصحابها ، ولكى يعم النفع المرجو من هــذه الأبحاث ، وتقديرا لقيمتها العلمية ، فان المؤتمر يوصى بمايلى :

١ ــ طباعة الأبحاث مع خلاصة المناقشات التى دارت حولها ونشرها تباعا على نطاق واســع ، وترجمة مختارات منها الى اللغات الأخرى .

٢ ــ أن تتجه المؤتمرات القادمة نحو التخصص ما أمكن ، بجعل كل مؤتمر مختصا بجانب محــدد من جــوانب السنة والسيرة ، تتــوافر جميــع الدراسات على استيفائه مع الأصالة والعمق والابداع ــ وذلك حرصا على تعميق هذه الدراسات وتجاشيا للتكرار فى تناولها .

التوصــــيات :

تدارس المؤتمر من خلال لجانه ، وفى ضوء الأبحاث التى قدمت اليه ، شئون السنة والتشريع ، والتربيــة والشباب ، والدعوة والاعــلام ، والتراث والمصادر والشئون العامة للعالم الاسلامى ، وأصــدر بشأنها التوصيات الآتية :

(أولا) ـ التوصيات المتعلقةبالسنة والتشريع

١ ـ يؤكد المؤتمر أهمية السنة باعتبارها المصدر الثانى للتشريع ، وأنها قرينة القرآن ، فالقرآن وحى الله لفظا ومعنى ، والسنة وحى الله لفظا ومعنى ، وجحود أحدهما ردة عن الاسلام .

لذلك فان المؤتمر يشجب بكل قوة أى تنكر للسنة ، أو تهجم عليها أو تشكيك فيها . كما يستنكر أى دعوة لفصل الدين عن السياسة والدولة .

٢ ـ يناشد المؤتمر الحكومات الاسلامية أن تنص فى دستورها على أن دين الدولة هو الاسلام ، وأن الشريعة الاسلامية بمصدريها الأساسيين : القرآن والسنة ـ هى المصدر الأصيل والوحيد للتشريع .

٣ ـ يهيب المؤتمر بدول العالم التى توجد بها جاليات اسلامية ، أن تعترف بالاسلام ضمن الآديان المعترف بها رسميا فى مجتمعاتها ، وأن تكفل لمعتنقيه كافة الحقوق المقررة لاتباع الأديان الأخرى ، بما فى ذلك حقوق التعبد والتعليم والاحوال الشخصية وفقا لأحكام الاسلام .

٤ ـ يوصى المؤتمر الحكومات الاسلامية بتمويل طبع أمهات كتب السنة ومعاجمها المفهرسة وتيسير اقتنائها ، وتكوين لجنة متخصصة لاصدار « موسوعة للسنة » وترجمتها الى اللغات الحية ، وتعميم نشرها .

٥ ـ يوصى المؤتمر باتخاذ الوسائل الكفيلة بتوجيه الدعاة الى تحرى الاستدلال بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان ارتباط التشريع والحياة بالسنة والاهتداء بها فى اصلاح المجتمعات والأخذ بيدها الى مدارج الرقى والتقدم والازدهار فى مجالات الحياة المختلفة .

٦ ـ يوصى المؤتمر الحكومات العربية أن تعمل على نشر اللغة العربية الفصحى بين غير العرب ، وأن تمد يد المساعدة الى الجاليات الاسلامية فى البلاد الاجنبية بمدرسى اللغة العربية ، لتمكينهم

من فهم الكتاب والسنة ، والحفاظ على شخصية أبنائهم الاسلامية .

٧ — يوصى المؤتمر بضرورة التصدى اليقظ لكيد أعداء الاسلام ودحض شبهاتهم ، ومتابعة ما ينشر عن السنة والسيرة من مفتريات للرد عليها ، وبيان الحقائق الاسلامية بشتى أساليب البيان المكتوب والمسموع والمرئى وسائر وسائل الاعلام .

٨ — يوصى المؤتمر باحياء كتب تراث السيرة والسنة رواية ودراية ، وتحقيقها تحقيقا علميا بوساطة الهيئات والمؤسسات العلمية الموثقة ، والعناية بالدراسات والبحوث التى تبرز جهود العلماء قديما وحديثا فى وضع قواعد الحديث وأصوله متنا واسنادا ، مما خص الله به هذه الأمة .

٩ — يرى المؤتمر ضرورة رصد الجهود التى تبذل باستمرار من أجل وضع أحكام الشريعة الاسلامية فى صيغة مقننة ، وجمعها وجعلها فى متناول كل دولة اسلامية ، لتفيد منها فى تطبيق الشريعة الاسلامية .

١٠ — يوصى المؤتمر — احياء لسنة النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته الجامعة يوم عرفات — أن تذاع فى هذا اليوم الخالد من موقفه العظيم ، خطبة جامعة ، تتولى اعدادها لجنة متعاونة من العلماء المشهود لهم بالورع والعلم والمعرفة الواسعة يبينون فيها مبادىء الاسلام وأحكامه وهديه وأحوال العالم الاسلامى وقضاياه . وتذاع هذه الخطبة على أوسع نطاق .

(ثانيا) — التوصيات المتعلقة بالتربية والشباب

نظرا لأهمية التربية فى اعداد الأجيال اعدادا شموليا متكاملا ، ليتولوا قيادة مجتمعاتهم فى المستقبل بوعى وكفاية وفاعلية فان المؤتمر يوصى بمايلى :

١ — أن تكون أهداف التربية والتعليم فى البلاد الاسلامية مستمدة من الكتاب والسنة والسيرة النبوية ، وأن تركز على الاتجاه الايمانى للناشئة ، وأن تكون الكتب المدرسية خالية تماما من الأفكار الهدامة المناقضة للاسلام أو المناهضة له .

٢ ــ أن يكون للتربية الاسلامية المستقاة من سيرة النبى الكريم وسنته نصيب كبير من الحصص الأسبوعية ، وأن تشمل : القرآن الكريم حفظا وتلاوة وتفسيرا ، والحديث الشريف ، والفقه ، والتوحيد والسيرة النبوية ، والشخصيات الاسلامية ، وبعض البحوث والدراسات الاسلامية •

وأن يكون اختيار الأساتذة على أساس الكفاءة والايمان برسالة الاسلام قولا وعملا • وأن تعمل كليات التربية على تطوير أساليب التدريس استفادة من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى التربية ومن جهود المفكرين المسلمين •

٣ ــ الاهتمام باعداد المعلمين وتعميق المعانى الخلقية لديهم ، وأن يكون للتربية الاسلامية نصيب كبير فى مناهج اعدادهم ، وأن يختاروا من ذوى الكفاية والاخلاص والايمان والخلق الاسلامى • وأن يحرص على تحسين الظروف الموضوعية ــ المادية والمعنوية ــ لهم ، ليولوا مهمتهم كل اهتمامهم •

٤ ــ القيام بحملات توعية توضح دور الأسرة فى تربية النشء لتكمل دور المدرسة فى تربية الأبناء تربية اسلامية واعية مع تكليف الجهات المعنية بالتخطيط لذلك على ضوء النظرية الاسلامية فى التربية ، وبخاصة لأطفال ما قبل المدرسة •

٥ ــ احياء نشاط المسجد فى كل مناحى الحياة وبخاصة التربوية والثقافية ، والعمل على انشاء مساجد فى جميع المدارس ودور العلم والكليات الجامعية •

٦ ــ أن تعمل الدول الاسلامية على النهوض بالتعليم الجامعى فى اطار اسلامى من حيث : تنويعه : واستكمال تخصصاته ، وتطوير مناهجه ، وتحديث أساليبه مع تطوير البيئة الجامعية بحيث تشبع حاجات الشباب فى التعليم والبحث العلمى وبما يجعلهم يفضلون جامعات الدول الاسلامية على غيرها ، ويراعى أن تكون نظم

القبول فى هذه الجامعات مرنة لتتيح التحرك الطلابى بينها وتستوعب أبناء الأقليات الاسلامية فى البلاد غير الاسلامية .

كما يوصى المؤتمر بأن تستكمل الجامعات التخصصات التى تهم الفتاة المسلمة ، وأن تنشأ كليات خاصة بالبنات . وأن تكون الدراسات الاسلامية المتعمقة أساسا للمناهج الجامعية ، مع التأكيد على ضرورة العمل على استعادة العلماء المسلمين بكل الوسائل المادية والمعنوية والحيلولة دون هجرتهم .

٧ ــ الاهتمام بتأكيد التمايز بين الفكر الاسلامى والتيارات الفكرية الوافدة وذلك بتشجيع البحث والتأليف فى فلسفة التربية الاسلامية ، وعلم أصول التربية الاسلامى ، وعلم النفس الاسلامى ، وعلم الاجتماع الاسلامى بقصد تدريسها فى كل من جامعات الدول الاسلامية . مع العمل على انشاء أقسام للدراسات العليا فى التخصصات الاسلامية حتى لا يبتعث الطلاب لدراستها فى بلاد غير اسلامية .

٨ ــ تعميق معانى التربية الجهادية فى نفوس شباب الأمة الاسلامية وذلك بمايلى :

أ ــ اعتماد العقيدة العسكرية الاسلامية ــ دون غيرها ــ فى الجيوش الاسلامية ، والعمل على اصدار كتب فيها ، وتطبيق أصولها فى التدريب والتعليم والسلوك العسكرى ، مع الاهتمام بانتقاء الضباط من العناصر المؤمنة حرصا على القدوة الطيبة ، واختيار العلماء المخلصين لتولى الارشاد فى الجيش ، والحرص على بناء المساجد فى ثكناته ومعسكراته .

ب ــ ادخال التدريب العسكرى فى المدارس والمعاهد والجامعات لاعداد الشباب عسكريا ، وتعويدهم الطاعة والانضباط والنظام ، والحرص على اقامة معسكرات سنوية لهم .

جـ ــ العمل على اصدار موسوعة عن التاريخ الحربى الاسلامى طبقا للمنهج العلمى وتخصيص جوائز سنوية لأحسن البحوث فى جوانب العسكرية

الاسلامية ، والتأكيد على تدريس مادة الدعاية النفسية فى الكليات المختلفة .

٩ ــ التأكيد على نظرية الاسلام التربوية التى تؤكد استمرارية التعليم من المهد الى اللحد ، وذلك بالاهتمام الشديد بتربية أطفال ما دون سن المدرسة ، وانشاء مؤسسات حكومية ذات كفاية للقيام بذلك مع تدعيم المؤسسات الأهلية المهتمة بهذا الأمر .

كما يوصى المؤتمر بتنظيم برامج تربوية وثقافية للآباء والأمهات ، وتدعيم جهود محو الأمية وتعليم الكبار ، مع العمل على تنشيط دور المسجد الرائد فى هذا المضمار .

١٠ ــ أن يهتم التعليم بالمهارات العملية ، واشباع ميول الناشئة المهنية ، والارتقاء بنظرتهم للعمل اليدوى والمهنى ، ولتحقيق ذلك يراعى أن تكون الجوانب المهنية والعملية جزءا من برامج التعليم فى مراحله المختلفة ، مع توفير الامكانات المهنية المادية والبشرية التى تكفل تحقيق ذلك .

١١ ــ اصدار مجلات الأطفال وكتبهم والنشرات الخاصة بتوجيههم فى البلاد الاسلامية ، وعدم الاقتصار على المترجم منها مع الحرص على اصدار كتب اسلامية تناسب السن العقلى للأطفال والشباب وتقاوم الأفكار الوافدة الهدامة ، وأن تقدم المواد الملائمة للاطفال بأسلوب مشوق جذاب ، يستخدم منجزات العصر التقنية ، وأن تكون البرامج التليفزيونية والأفلام السينمائية ملتزمة بالأخلاق الاسلامية من احتشام وانضباط ألفاظ ، وسلامة اتجاه ، وتوجيه هادف .

١٢ ــ تكامل دور كل من المؤسسات التربوية والثقافية والاعلامية فى تربية النشء ، بالتخطيط للبرامج التى تقدمها هذه المؤسسات لخدمة التوجيه والتربية الاسلامية للأجيال ، وازالة أى تناقض بينها ليكمل دور كل منها دور الآخر ، وتتمكن من تقديم برامج مشتركة اسلامية هادفة ، وترعى نشاطات الشباب العلمية

والسلوكية بعرضها بأسلوب مشوق جذاب .

١٣ ـ تنقية المناخ الاجتماعى العام ، وواقع الحياة المحيط بالشباب المسلم من المؤثرات التى قد تؤدى الى انحرافه عقائديا أو سلوكيا مع تدعيم كل جهد بناء للمؤسسات والجمعيات الاسلامية فى تربية هؤلاء الشباب تربية اسلامية متكاملة .

١٤ ـ تقديم كل عون ممكن لاتحادات الطلاب والشباب المسلم فى أوروبا وأميركا وتبنى انشاء مدارس لمختلف المراحل وكليات جامعية فى تلك البلاد ليتربى أبناء المسلمين فى بيئات اسلامية ، مع امدادها بمدرسين أكفاء وبخاصة لمادتى التربية الاسلامية واللغة العربية ، وكذلك بالكتب والمصادر والمراجع والأجهزة التى يحتاجونها .

كما يوصى المؤتمر بأن توجه هذه المعونات أيضا الى أبناء الجاليات والأقليات الاسلامية فى بلدان غير اسلامية وبخاصة فيما يتعلق بالمصاحف الشريفة وكتب السيرة والسنة النبوية المترجمة الى اللغات السائدة لديهم ، ويؤكد المؤتمر على أن تكون البعثات الدبلوماسية للدول الاسلامية فى هذه البلاد على مستوى رفيع من الخلق الاسلامى تحقيقا للقدوة الطيبة .

١٥ ـ تيسير انشاء وتدعيم الجمعيات والنوادى الاسلامية للشباب ، وموالاة تدعيمها وتطويرها وتوجيهها الى المنهج الاسلامى السليم ، وتنويع نشاطاتها لتشمل كل مجالات الحياة .

١٦ ـ تدعيم المؤسسات التعليمية فى البلدان الاسلامية المحتلة والتصدى لمحاولات الطمس والتشويه التى تتعرض لها حضارة الاسلام ، مع فتح أبواب المدارس والجامعات أمام أبناء المهاجرين المسلمين الذين اضطروا لترك ديارهم كمهاجرى أفغانستان ، والفلبين واريتريا وقبرص وبلدان شرقى آسيا وغيرهم .

١٧ ــ بذل أقصى عون ممكن للجامعات الاسلامية الناشئة فى كل من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتيسير التبرع لها حكوميا وشعبيا وامدادها بما تحتاجه من كفايات وخبرات وأجهزة ، والاعتراف بهذه الجامعات وشهاداتها وامدادها بالبحوث والدراسات الاسلامية أولا بأول .

كما يوصى المؤتمر بأن تعامل الدول الاسلامية أبناء الفلسطينيين المقيمين فيها والوافدين اليها معاملة أبنائها فى مدارسها ومعاهدها وجامعاتها .

١٨ ــ تخصيص كراسى استاذية للسيرة والسنة النبوية فى كل من جامعات البلاد الاسلامية تشجيعا للبحث العلمى المعمق فيهما .

١٩ ــ العمل على تصفية المدارس ذات الاهداف التبشيرية الموجودة فى أى بلد اسلامى . مهما كان انتماؤها واحكام الرقابة على أى مدارس اجنبية ، حتى لا تتحول الى عوامل هدم فى البلاد الاسلامية .

٢٠ ــ اعلان الاسبوع الأول من كل عام هجرى اسبوعا للسيرة والسنة النبوية فى جميع مدارس ومعاهد وجامعات البلاد الاسلامية ، ربطا لطلابها بسيرة وسنة نبيهم ، وحفزا لهم على الاقتداء بهما .

٢١ ــ أن تعمل مؤسسات التعليم العالى والاعلام والهيئات العلمية فى الدول الاسلامية على تنفيذ (الجامعة المفتوحة) الذى يعتمد على الاذاعة والتليفزيون تمكينا لربات البيوت ومن فاتهم ركب التعليم النظامى من استكمال دراساتهم بوساطتها ، مع الاهتمام بالدراسات الاسلامية ومنها السنة والسيرة النبوية .

(ثالثا) ــ التوصيات المتعلقة بالدعوة والاعلام

نظرا لما تتطلبه الدعوة الى الله ، من تجديد دائب فى وسائلها وأساليبها ، ومما للاعلام وأجهزته من تأثير بالغ فى توجيه الرأى العام ، فان المؤتمر يوصى بمايلى :

١ ــ ضرورة اهتمام الحكومات والهيئات الاسلامية برسم سياسة

اعلامية مستمدة من روح الاسلام الحنيف ، باعتباره عقيدة وشريعة ونظام حياة ، تلتزم بها أجهزة الاعلام والتوجيه فى الدولة مع اقتراح تشكيل مجلس أعلى للتنسيق بين هذه الاجهزة يشارك فى نشاطه متخصصون فى الشئون الاسلامية .

٢ ـ تأكيد حاجة العالم الاسلامى الى وكالة أنباء اسلامية ، تضطلع بعبء الاعلام الاسلامى على المستوى العالمى وتتصدى لأساليب الاعلام المعادى ، وتوفر النموذج الأمثل لتقديم الخبر الموثق ، ونظرا لأن منظمة المؤتمر الاسلامى قد اتخذت بعض الخطوات لاقامة وكالة أنباء اسلامية فان المؤتمر يناشد الدول الاسلامية ان تدعم هذه الوكالة أدبيا وماديا وبشريا لتستكمل مقومات وجودها ولتقوم بأداء رسالتها على نحو فعال .

٣ ـ مطالبة الدول الاسلامية بتخصيص برامج خاصة دائمة عن فلسطين والقدس بوصفهما حقا اسلاميا مغصوبا وان تبرز بطولات المقاومة والمرابطة فى الارض المحتلة وتكشف مخططات الصهيونية الهادفة الى اخلاء الأرض وتهويدها .

٤ ـ انطلاقا من الايمان بوحدة الأمة الاسلامية فان المؤتمر يوصى الدول الاسلامية بالاكثار من البرامج التى تعرف المسلم بوطنه الاسلامى الكبير وتحارب النزعات الاقليمية والانفصالية وتوثق عرى الوحدة والاخوة بين الشعوب الاسلامية .

٥ ـ مطالبة الدول الاسلامية بدعم منظمة الاذاعات الاسلامية بجدة ومد يد العون لها حتى تقوم باداء رسالتها فى انتاج البرامج الاسلامية والتنسيق بين اذاعات الدول الاسلامية بأعلى كفاية ممكنة .

٦ ـ مطالبة ذوى الطاقات الفكرية الاسلامية أن يسهموا اسهاما جادا فى تقديم برامج اذاعية وتليفزيونية هادفة تشتمل على كل ألوان النشاط الفكرى والابداع الفنى : من قصة وتمثيلية وبحث وتحليل ونقد وتعليق .

٧ ـ حث مسئولى الاعلام فى البلاد الاسلامية أن يعملوا على تنقية برامج البث الاذاعى والاعلامى من كل ما يتعارض مع القيم الاسلامية .

٨ ـ نظرا لما للصحافة من تأثير واسع الانتشار فى تكوين الرأى العام فان المؤتمر يوصى رجال الصحافة فى العالم الاسلامى أن يرتفعوا الى مستوى الكلمة المسئولة الشجاعة وان ينأوا عن نشر كل ما يثير الحساسيات والاقليميات ويذكى عوامل الفرقة والانقسام بما يخدم أهداف الاعداء .

٩ ـ حفاظا على تنشئة الاجيال على معانى الاسلام وقيمه العليا فان المؤتمر يوصى بأن تقدم الاذاعات وأجهزة التليفزيون والصحافة فى البلاد الاسلامية برامج متخصصة تحسن عرض الاسلام بلغة الزمن وثوب المعاصرة بما يثبت قدرته .

١٠ ـ أن تحرص أجهزة الاعلام خاصة فى البلاد العربية على الالتزام باللغة العربية الصحيحة صياغة وأداء ، وأن تصل الجماهير بالمأثور من آداب اللغة العربية الرفيعة شعرا ونثرا ، والا تسرف فى استعمال العامية وتمجيدها ؛ وذلك لتعميق صلة المسلم بلغته الفصحى الاصيلة ـ لغة القرآن الكريم والحديث الشريف .

١١ ـ الاهتمام بالسينما والمسرح ، وتوظفيهما فى انتاج أفلام وتمثيليات ومسرحيات هادفة ؛ تعرض مثل الاسلام وتاريخه وأنماطا من بطولاته ، وتعالج مشكلات الحياة فى ضوء توجيهات الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح .

١٢ ـ الاهتمام بانشاء معاهد للدعوة يختار لادارتها والتدريس فيها ذوو الكفاءة من الموجهين لتخرج دعاة واعين يتحلون بالملاءة العلمية ، وقوة الشخصية ، ومرونة الاتصال ، والحذق فى اللغات الحية ـ بما يمكنهم من الدعوة الى الله باقتدار وتأثير وحكمة .

١٣ ـ مناشدة الحكومات الاسلامية تشجيع الكتاب والصحفيين الاسلاميين ، وتوفير المناخ الذى تترعرع فيه الكلمة الحرة المسئولة ، والفكر الهادف المبدع ، والعمل على ايجاد رابطة للكتاب تصون مصالحهم ، وتنسق جهودهم ، وتذيع انتاجهم •

١٤ ـ الأمة الاسلامية أمة مميزة لها شخصيتها المستقلة ولذا يوصى المؤتمر جميع الدول والشعوب الاسلامية باعتماد التاريخ الهجرى فى تقاويمها ومعاملاتها ، كما يوصى بمراعاة الأعياد الاسلامية وتوحيدها وتأكيد يوم الجمعة للعطلة الاسبوعية •

(رابعا ـ التوصيات المتعلقة بالتراث والمصادر

يوصى المؤتمر بمايلى :

١ ـ انشاء مركز بحوث للدراسات المتعلقة بالسيرة النبوية ، يعنى بتجميع مصادر السيرة المخطوط منها والمطبوع ، واختيار محققين أكفاء للقيام بمهام التحقيق العلمى والنشر الأنيق • كما يقوم هذا المركز باخراج دراسات مرجعية (بيبليوجرافية) مفصلة ، تعرف الباحثين بمصادر السيرة ومراجعها وكافة المطبوعات والمقالات والدوريات المتعلقة بها ، وكذلك بالقيام بالدراسات الجغرافية والأثرية لارض الرسالة النبوية ومواقع الغزوات وأحداث فترة النبوة •

ويأمل المؤتمر أن تتبنى دولة قطر التى استضافت دورته الثالثة ، مشروع هذا المركز •

٢ ـ اصدار دائرة معارف اسلامية يقوم على ادارتها وتحريرها علماء مسلمون أثبات ، وذلك لامداد الباحث المسلم بمصدر رئيسى موثق للمعرفة الاسلامية ، ويصونه عن الرجوع الى دوائر المعارف والقواميس الاسلامية المشبوهة التى أصدرها باحثون متحاملون على الاسلام وتاريخه •

٣ ـ تشجيع متاحف البلاد الاسلامية على تخصيص قاعات للسيرة النبوية تضم المخطوطات

والآثار والنماذج المجسمة والخرائط المفصلة المبينة لسيرة الاسلام فى الفترة النبوية .

٤ ــ تشجيع ترجمة معانى القرآن الكريم والحديث الشريف وأهم الكتب التى توضح مزايا الاسلام الى اللغات الحية ولاسيما لغات الشعوب الاسلامية ، وتعريب الكتب الهامة فى السيرة النبوية الشريفة والمكتوبة بلغات غير عربية وفى مقدمتها كتابا العالمين السيد سليمان الندوى ومولانا أبى الأعلى المودودى . وكذلك دراسة الترجمات الموجودة فعلا لمعانى القرآن الكريم والحديث الشريف للتثبت من ضبطها وسلامتها من التحريف والتحذير مما يثبت انحرافه منها .

٥ ــ الاستفادة من الوسائل العلمية المعاصرة مثل الحاسب الآلى (الكمبيوتر) فى دراسات السيرة والسنة النبوية .

٦ ــ مناشدة الحكومات والجامعات الاسلامية تشجيع الدراسات العليا فى موضوعات السيرة والسنة بتخصيص منح دراسية لمن يتخصصون فيها ، مع العمل على نشر أبحاثهم ورسائلهم لتعميم النفع بها .

٧ ــ يزكى المؤتمر الاقتراح المتعلق بانشاء مراكز للمعلومات والوثائق عن العالم الاسلامى ومعاهد علمية تهتم باعداد الدراسات فى الحضارة والتراث والعلوم الاسلامية ، ويناشد الدول الاسلامية القادرة على توفير الأموال اللازمة لانشاء هذه المراكز والمعاهد .

٨ ــ يؤكد المؤتمر ضرورة اعادة كتابة التاريخ الاسلامى بصورة صحيحة موثقة ، وأن يتولى ذلك نخبة من المؤرخين الأثبات الملتزمين بتعاليم الدين الحنيف .

٩ ــ تشكيل لجنة من العلماء المعتمدين ، ترشحهم لجنة المتابعة ، لكتابة كتاب جامع عن السيرة النبوية ، متبعة فيه أصول البحث العلمى الدقيق ، وينشر هذا الكتاب باللغة العربية ، ولغات

العالم الاسلامى الأخرى ، واللغات الغربية .

(خامسا) ـ التوصيات العامة

ونظرا لأن انعقاد هذا المؤتمر يجىء فاتحة لنشاط يعم العالم الاسلامى كله حفاوة بمقدم القرن الخامس عشر الهجرى ، فان المؤتمر يقف فى هذه المناسبة وقفة اهتمام أمام عدد من قضاياه وهمومه واهتماماته ويوصى بمايلى :

١ ـ ان قضية فلسطين قضية اسلامية والعدوان عليها عدوان على دار من ديار الاسلام ، وأمر تحريرها مسئولية المسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض والجهاد لتحريرها فريضة اسلامية مقدسة .

واذا كان المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله هو قلب هذه الدار الاسلامية ، فان كل شبر من ترابها هو مناط اهتمام المسلمين جميعا . وان أى تفريط فى ذرة من تراب فلسطين ، أو فى حق من حقوق أهلها انما هو تفريط فى حق من حقوق الله ، ومن يرتكب اصر ذلك فانه يحاد الله ورسوله ويشذ عن اجماع المسلمين ويتجنب سبيل المؤمنين .

وبما أن أهل فلسطين قد أجمعوا على اختيار منظمة التحرير لتضطلع بعبء قيادة جهادهم فان المؤتمر يؤكد أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى وهى قائدة جهاده .

كما يوصى المؤتمر قادة المنظمة أن يجعلوا الله رائدهم فى جهادهم وأن يعملوا على ترسيخ القيم والمبادىء والأخلاق الاسلامية فى نفوس شبابهم المجاهدين وأن يحفظوا لفلسطين وثورتها ومجاهديها الوجه الاسلامى المشرق .

كما ينبغى على جميع المسلمين أن يتنبهوا الى أن ما جرى فى فلسطين انما هو تمهيد لامتداد العدوان الاستيطانى الى البقاع المجاورة لفلسطين ، وما يجرى الآن فى جنوب لبنان انما هو شاهد صدق على ذلك ، وعليه فان واجب المسلمين أن يتصدوا لاحباط

المؤامرة التى تحاك ضد الجنوب اللبنانى .

٢ ـ وان المؤتمر يستحضر فى هذه المناسبة صور كثير من ديار الاسلام التى تتعرض لأنواع مختلفة من المظالم من أمثال الفلبين وأفغانستان ، وأريتريا ، وقبرص وغيرها ، فمنها ما تحتل قوى البغى دياره عنوة من أجل امتصاص خيراتها ، ومنها ماتجتاحه موجات رهيبة منظمة من التبشير لتحويل أهله عن وجهة الاسلام ، ومنها ما يتعرض للتقتيل والتنكيل وأفانين التعذيب بغية طمس عقيدته بالقوة ، ومنها ما يتعرض لحروب نفسية وعلمية واقتصادية بغية اخضاعه لارادة الباغين ، ومنها مايتعرض للتهديد بالعدوان المباشرة لتطويعه وتسييره فى ركاب مصالح غير المسلمين ، وكل ذلك يجرى ، مع الأسف الشديد ، بتشجيع وترتيب من قبل الدول الكبرى التى لا تزال سياسة بعضها العدوانية ضد الاسلام والمسلمين تشكل جريمة مستمرة .

وواجب المسلمين ، دولا وحكومات وشعوبا وأفرادا أن يقفوا مع هذه الشعوب الاسلامية المظلومة وقفة انتصار ، يساهمون فيها بدفع الظلم عنها وبمساعدتها على امتلاك ارادتها وحريتها وان المؤتمر يهيب بالحكومات الاسلامية ، بشكل خاص وبالمنظمات الاسلامية أن تبذل قصارى جهدها فى دعم هذه الشعوب ، وفى تأييد حركات التحرير الاسلامية .

وأن المؤتمر يحذر كل من تسول له نفسه الاقدام على أية خطوة عدوانية على الشعب المسلم فى ايران بأن الشعوب الاسلامية فى العالم تعتبر ذلك عدوانا عليها جميعا ، يجب التصدى له ودفعه .

٣ ـ كما أن المؤتمر يطالب بحزم لوقف الاضطهاد الواقع على العاملين للاسلام فى بعض الدول ويرى أن من واجب الدول الاسلامية أن تدفع الأذى عن الدعاة الى الله وألا تقف موقفا سلبيا من حملات الاضطهاد .

٤ ــ ولا ينسى المؤتمر أحوال الأقليات والجاليات والتجمعات الاسلامية فى جميع أنحاء العالم ، هذه الجماعات التى يجب أن تنال حقها الطبيعى فى الحياة الكريمة وفى تمتعها بكافة الحقوق المشروعة للانسان ، وفى حريتها فى ممارسة عبادتها ، وفى تطبيق الشريعة الاسلامية فى حياتها الاجتماعية ، وفى تنشئة أبنائها وفقا لمعتقداتها الاسلامية ، كما يؤكد تعاطفه مع تطلعاتها الى بلوغ هذه الأهداف .

٥ ــ وان المؤتمر ينظر بعين التقدير الى اتجاه بعض الدول الاسلامية الى تأكيد هويتها الاسلامية وتبنيها للشريعة الاسلامية مصدرا للحكم ونظاما للحياة . وان المؤتمر يبارك خطواتها ، ويعلن تأييده لها فى هذا السبيل .

٦ ــ ان المد الاسلامى يشق طريقه ، بحمد الله لدى الأفراد ولدى الشعوب الاسلامية ، على الرغم من جميع ظروف الاضطهاد المنظم التى تحيط به . وسوف يكون حلول القرن الخامس عشر الهجرى ــ بالاهتمام الذى يستقبله به المسلمون ــ أروع مناسبة لتأكيد التعاطف الاسلامى ، والاهتمام بشئون المسلمين .

وان المؤتمر ليتوجه الى المسلمين عامة ، والى حكامهم خاصة أن يستهلوا هذا القرن برجعة حقيقية الى الاسلام ، فيحلوا ما أحل الله ، ويحرموا ما حرم الله ، ويعلنوها حياة اسلامية صريحة ، يحكمها كتاب الله وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبهذا يستحقون تأييد الله تعالى ونصره الذى كتبه للمؤمنين « ولينصرن الله من ينصره .. ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

قرارت ختامية

ويقرر المؤتمر بمناسبة اختتام أعماله مايلى :

١ ــ تكليف فضيلة رئيس المؤتمر بتشكيل لجنة متابعة تكون مهمتها مايلى :

أ ـ ابلاغ ما انبثق عن هـذا المؤتمر من مقـررات وتوصيات الى جميع الجهـات المعنيـة من حـكومات وهيئـات واتحـادات ووزارات متخصصة • ومناشـدة هذه الجهات العمل على وضعهـا موضع التنفيذ •

ب ـ متابعـة تنفيـذ هـذه القـرارات •

ج ـ التعـاون مـع الدولة المضيفة للمؤتمر الرابع فى الاعداد له • على أن تستمر هذه اللجنة فى عملهـا حتى بداية المؤتمـر القادم •

٢ ـ قبـول الدعوة الكريمـة الموجهـة من المملـكة المغربيـة باستضافة المؤتمـر الرابع للسيرة والسنة النبوية مع توجيه الشكر الى دولة الامارات العربية المتحدة على تنازلهـا عن دعوتهـا السابقة باستضافة المؤتمر القادم لشقيقتها المملكة المغربية •

٣ ـ يحدد تاريخ المؤتمر القادم بالاتفاق مع الدولة المضيفة على أن يكون فى مطلع العـام الهجـرى ١٤٠٢ باذن الله •

٤ ـ تسـجيل الشكر الوفـير الى دولة قطـر أميرا وحـكومة وشعبـا لحسـن الاستقبال وكرم الضـيافة وما وفرته من امكانات ساعدت على انجاح هذا المؤتمر •

كما يقرر توجيـه الشكر الى فضيلة الاسـتاذ الشيخ عبـد الله الانصارى رئيس المؤتمـر لدوره الرئيسى فى اقامة هـذا المؤتمـر والاشراف على جميع تنظيمـاته ، كما يوجه الشكر الى جميع السادة معاونيه فى اللجنة التحضيرية •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العـالمين •• „

الأبحاث التى قدمت للمؤتمر

مسلسل	موضوع البحث	مقدمـــــه
١	فن الذكر والدعاء عند خاتم الانبياء	الشيخ محمد الغزالى ـ السعودية
٢	الجانب الروحى من أخـلاق الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال عباداته وادعيته	الدكتور سليمان آتش ـ تركيا
٣	الجانب الخلقى للنبى الكريم	الدكتور الحاج عبد الملك عبد الكريم أمر الله ـ أندونيسيا
٤	الجانب الخلقى للنبى الكريم	الدكتور مصلح سيد بيومى ـ قطر
٥	الجانب الخلقى للنبى الكريم	الدكتور محمد طلحة حســـن ـ اندونيسيا
٦	الجانب الخلقى للنبى الكريم	الاستاذ فتحى يكن ـ لبنان
٧	الجانب الخلقى للنبى الكريم	الشيخ محمد يونس عبد الجبار ـ بنجلاديش
٨	العسكرية الاسلامية : تاريخ جيش النبى صلى الله عليـه وسلم	اللواء الركن محمود شيث خطاب ـ العراق
٩	الجانب العسكرى من حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم	اللواء الركن محمد جمال الـدين محفوظ ـ مصر
١٠	الجانب العسكرى من حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم	الشيخ عبـد اللطيف زايد ـ قطر
١١	الرسول والقدوة العليا	الشيخ عليوة مصطفى عليوة ـ قطر
١٢	عظمة محمـد صلى الله عليه وسلم مجمع العظمات	الاستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ـ الاردن

مسلسل	موضوع البحث	مقدمه
١٣	الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيته	الدكتور عبد العظيم الديب ـ قطر
١٤	تربية الناشئة فى ضوء السيرة	الاستاذ محمد محمد على الابشيهى ـ قطر
١٥	خصائص التربية النبوية	الاستاذ محمد الشاذلى النيفر ـ تونس
١٦	تصور لتدريس سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى مناهج التاريخ المدرسية	الدكتور سر الختم عثمان ـ السعودية
١٧	مشكلات الشباب وحلولها فى ضوء الكتاب والسنة	الاستاذ على القاضى ـ قطر
١٨	الجانب الخلقى للنبى الكريم	السيد عنتر حشاد ـ قطر
١٩	رسالة العلامة ابى الاعلى المودودى	مولانا الشيخ ابو الاعلى المودودى ـ باكستان
٢٠	الدراسات المتعلقة برسائل النبى صلى الله عليه وسلم الى الملوك فى عصره	الدكتور عز الدين ابراهيم ـ الامارات
٢١	الاسلام ومستقبل الانسانية	الدكتور عبد الحميد احمد أبو سليمان ـ السعودية
٢٢	أثر الرسالة الاسلامية فى الحضارة الانسانية	الدكتور عمر فروخ ـ لبنان
٢٣	رسالة سيرة النبى الامين الى انسان القرن العشرين	مولانا الشيخ ابو الحسن على الحسنى الندوى ـ الهند
٢٤	أثر الرسالة الاسلامية فى الحضارة الانسانية	الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ـ الكويت
٢٥	الرسالة الاسلامية فى مواجهة الفساد العالى قديما وحديثا	الاستاذ محمد المجذوب ـ السعودية
٢٦	معركة النبوة مع الزعامة	الاستاذ محمد عزه دروزة ـ سوريا
٢٧	المجتمع المدنى قبل الهجرة وبعدها	الدكتور اكرم ضياء العمرى ـ السعودية
٢٨	معركة النبوة مع أهل الكتاب	الاستاذ محمد عزه دروزة ـ سوريا

مسلسل	موضوع البحث	مقدمه
٢٩	الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية	الدكتور عبد العـزيز كامـل ـ الكويت
٣٠	التفرقة العنصرية والاسلام	الدكتور محمد البهى ـ مصر
٣١	الاسلام والتسامح الدينى	الدكتور أحمد النتو ـ الفلبين
٣٢	موقف النبى صلى الله عليـه وسلم من الاديان الثـلاثة : الوثنيـة ـ اليهـودية ـ النصرانية	الشيخ حسن خالد ـ لبنان
٣٣	الطب النبوى	الدكتور صـلاح الدين كشريد ـ تونس
٣٤	الطب النبوى	الدكتور نجيب الكيلانى ـ الامارات
٣٥	الطب النبوى	الدكتور غلام كريم ـ جنوب افريقيا
٣٦	الرسول والعلم	الدكتور يوسف القـرضاوى ـ قطر
٣٧	الرسول وموقفه من العلم	الشيخ حسين جوزو ـ يوغوسلافيا
٣٨	موقف الاسلام من العلم واثر الرسـالة الاسـلامية فى الحضارة الانسانية	الدكتور محمد معروف الدواليبى ـ السعودية
٣٩	حول الادب النبوى	الاستاذ أحمد العنانى ـ قطر
٤٠	الرسـول فى الادب العـربى الحديث	الدكتور ماهر حسـن فهمى ـ قطر
٤١	الرسول بلغة المحبة والشعر	الاستاذ سعيد حوا ـ الاردن
٤٢	القدس مسرى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ومكانتها فى الاسلام	الدكتور ابراهيم زيد الـكيلانى ـ الاردن
٤٣	لمحات حول الاعلام فى الاسلام	الاستاذ محمد عبـده يمانى ـ السعودية
٤٤	سنة الرسول شقيقة القرآن	الشيخ عبد الله بن زيد المحمود ـ قطر
٤٥	صلة السنة بالقرآن	الشيخ محمد نجيب المطيعى ـ مصر

م	موضوع البحث	مقدمه
٤٦	صلة السنة بالقرآن	الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ السعودية
٤٧	صلة السنة بالقرآن	الشيخ محمد طيب القاسمى ـ الهند
٤٨	السنة المصدر الثانى للتشريع	الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ السعودية
٤٩	السنة المصدر الثانى للتشريع	الاستاذ مقتد حسن محمد ياسين ـ الهند
٥٠	السنة المصدر الثانى للتشريع	الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ـ سوريا
٥١	السنة المصدر الثانى للتشريع	الاستاذ أحمد الفحصى ـ المغرب
٥٢	دراسة للمعاهدات فى العهد النبوى	المفتى عتيق الرحمن العثمانى ـ الهند
٥٣	دراسة المعاهدات فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم	الدكتور خالد كيبا ـ اليابان
٥٤	بعض مقومات الحضارة ونظم الحكم الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم	الدكتور عبد الشافى غنيم ـ قطر
٥٥	الحدود فى الاسلام	القاضى محمد أفضل شيمة ـ باكستان
٥٦	الشبهات الواردة	المستشار على على منصور ـ الامارات
٥٧	ردود على الشبهات	الدكتور عبد الكريم زيدان ـ العراق
٥٨	السنة النبوية فى مواجهة شبهات الاستشراق	الاستاذ أنور الجندى ـ مصر
٥٩	ردود على الشبهات الواردة	الدكتور جمعة على الخولى ـ السعودية
٦٠	دحض الشبهات الواردة	الشيخ عبد التواب هيكل ـ قطر

	موضوع البحث	مقدمه
٦١	حول غزوة بنى قريظة	الشيخ سعيد احمد أكبر أبادى ــ الهند
٦٢	سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ غزواته مع اليهود	الدكتور احسان ثريا صيرما ــ تركيا
٦٣	مشكل الحديث فى ضوء أصول التحدث رواية ودراية	الدكتور سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى) ــ الكويت
٦٤	وجوب العمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفر من أنكرها	سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ــ السعودية
٦٥	السيرة النبوية فى القرآن الكريم	الشيخ محمد على الحركان ــ السعودية
٦٦	السيرة النبوية فى القرآن الكريم	الدكتور التهامى نقرة ــ تونس
٦٧	تدوين السنة وأطواره	الشيخ ابراهيم القطان ــ الاردن
٦٨	المنهج العلمى فى تدوين الحديث النبوى	سماحة الشيخ احمد عبد العزيز المبارك ــ الامارات
٦٩	المنهج العلمى فى تدوين السنة	الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر قطر
٧٠	دراسة لكتب السيرة القديمة ومصادرها الاولى	الدكتور تقى الدين الندوى ــ الامارات
٧١	البخارى والجامع الصحيح	الدكتور حسن عيسى عبدالظاهر ــ قطر
٧٢	مشروع لجمع السنة وتصنيفها بواسطة الحاسب الآلى	الدكتور عبد العظيم الديب ــ قطر
٧٣	محاولة لوضع اطلس للسيرة النبوية الشريفة والعصر النبوى	الدكتور حسين مؤنس ــ مصر

بيان الدول المشاركة فى المؤتمر

مسلسل	اسم الدولة	عدد		اسم الدولة	عدد
١	المملكة العربية السعودية	٢٠	٢٥	باكستان	٦
٢	رابطة العالم الاسلامى	٣	٢٦	أفغانستان	٣
٣	الامانة العامة لمنظمة المؤتمر الاسلامى العالى	٥	٢٧	الهند	١٠
٤	الكويت	١٤	٢٨	بنجلاديش	٢
٥	الامارات العربية المتحدة	١٧	٢٩	اندونيسيا	٤
٦	البحرين	٧	٣٠	الفلبين	٣
٧	سلطنة عمان	٢	٣١	تايلاند	١
٨	اليمن الشمالية	٢	٣٢	ماليزيا	٢
٩	العراق	٣	٣٣	سيريلانكا	٢
١٠	سوريا	٢	٣٤	سنغافورة	٢
١١	الاردن	٨	٣٥	هونج كونج	١
١٢	فلسطين	٢	٣٦	كوريا الجنوبية	٣
١٣	لبنان	١٠	٣٧	اليابان	٤
١٤	مصر	١٥	٣٨	استراليا	١
١٥	السودان	٤	٣٩	بريطانيا	٦
١٦	ليبيا	١	٤٠	اليونان	١
١٧	تونس	٧	٤١	فرنسا	١
١٨	المغرب	١٠	٤٢	لكسمبرج	١
١٩	غينيا	١	٤٣	المانيا الغربية	٢
٢٠	مالى	٤	٤٤	بلجيكا	١
٢١	جنوب افريقيا	٥	٤٥	الولايات المتحدة الامريكية	٢
٢٢	موريشيوس	١	٤٦	الارجنتين	١
٢٣	تركيا	١٠	٤٧	الدولة المضيفة ـ قطر	٥٣
٢٤	قبرص	١		المجموع	٢٦٦

م	الاسم	الوظيفة
	(أ) المملكة العربية السعودية :	
١	الاستاذ احمد محمدالعامودى	مدير عام الشئون الدينية ــ المملكة العربية السعودية
٢	الدكتور أكرم ضياء العمرى	الجامعة الاسلامية ــ المدينة المنورة
٣	الدكتور جمعة على الخولى	الجامعة الاسلامية ــ المدينة المنورة
٤	حسن محمد باجودة	جامعة الملك عبد العزيز ــ الرياض
٥	الشيخ حسن عبد الرحيم الانصارى	المدينة المنورة
٦	الدكتور عبد العزيز الفدا	جامعة الرياض
٧	الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	جامعة الامام محمد بن سعود ــ الرياض
٨	الدكتور سر الختم عثمان على	استاذ مساعد بكلية التربية ــ جامعة الرياض
٩	الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد	الجامعة الاسلامية ــ المدينة المنورة
١٠	الدكتور محمد أديب صالح	جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض
١١	الشيخ محمد حسن الدريعى	هيئة الدعوة ــ الرياض
١٢	الشيخ محمد الغزالى	جامعة الملك عبد العزيز ــ مكة المكرمة
١٣	الشيخ محمد الصواف	رابطة العالم الاسلامى
١٤	الشيخ محمد المجذوب	الجامعة الاسلامية ــ المدينة المنورة
١٥	الدكتور محمد مصطفى الاعظمى	جامعة الرياض
١٦	الدكتور معروف الدواليبى	الديوان الملكى ــ المكتب الخاص
١٧	الاستاذ حيدر كامل حسين	صحفى
١٨	الاستاذ مناع القطان	جامعة الامام محمد بن سعود
١٩	الشيخ احمد بن على المبارك	سفير بوزارة الخارجية ــ جدة

م	الاســـم	الوظيفة
٢٠	الاستاذ ابراهيم محمـــد سرسيق	صحفى
	(٢) رابطة العالم الاسلامى :	
١	سماحة الشيخ محمـد على الحركان	الامين العام للرابطة
٢	الدكتور عبد الصبور مرزوق	المدير العام للرابطة
٣	الاستاذ محمد محمود حافظ	مدير ادارة الصحافة والنشر
	(٣) المشاركون فى الامـــانة العـامة لمنظمـة المؤتمر الاسلامى العـالمى :	
١	سعادة السفير ظفر الاسلام	الامين العام المساعد
٢	السيد حاج سيجاج ساماتير	مدير ادارة الشئـــون الثقافيـــة والاجتماعية
٣	السيد محمد حسن الحيفى	المدير المساعد
٤	السيد انعام الله خان	امانة المؤتمر الاسلامى العالمى
٥	السيد محمد الحاج سوسيه	مسئول المؤتمرات
	(٤) الـــكويت :	
١	الدكتـــور سعد محمد محمد الشيخ المرصفى	وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية
٢	الاستاذ عبد الحليم محمـد أحمـد	مدير دار القلم
٣	الاستاذ عبد الرحمن راشـد الولايتى	رئيس تحرير جريدة البلاغ
٤	الاستاذ عبد الرحمن فارس	سكرتير وزير الاوقاف
٥	الدكتور عبد العزيز كامل	خبير بمكتب ولى العهد
٦	الشيخ عبد الله العلى المطوع	جمعية الاصلاح الاجتماعى
٧	الاستاذ فيصل المقهوى	مدير مكتب وزير الاوقاف للشئون الاسلامية

م	الاسـم	الوظيفة
٨	الاستاذ عبـد الرزاق السيد هاشم	مندوب اذاعة الكويت
٩	الاستاذ سعيد العازمى	مرافق
١٠	الاستاذ فهمى هويدى	مدير تحرير مجلة العربى
١١	الدكتور محمد عبد الهـادى أبو ريدة	جامعة الكويت
١٢	الاستاذ محمد ناصرالحمضان	وكيل وزارة الاوقاف والشئـون الاسلامية
١٣	معالى الشيخ يوسـف جاسم الحجى	وزير الاوقاف والشئون الاسلامية
١٤	الشيخ يوسف السيد هاشم الرفاعى	وزير سابق ـ ورئيس مجلس ادارة معهد الايمان للعلوم الشرعيـة

(ه) الامارات العربية المتحدة :

م	الاسـم	الوظيفة
١	الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك	رئيس القضاء الشرعى
٢	الدكتور تقى الدين الندوى	قاضى القضاء الشرعى
٣	الاستاذ جابر رزق جابر	مندوب المجلات الاسـلامية بدول الخليج
٤	الاستاذ سعيد عبد الله حارب	الامـين العـام المسـاعد لجامعـة الامارات العربية المتحدة
٥	الاستاذ محمد السيد اسماعيل	صحفى وكالة أنباء دولة الامارات
٦	الاستاذ محمـد سيف النصر المصرى	باحث بديوان سمو رئيس الدولة
٧	الاستاذ صقر المرى	وكيل وزارة العـدل والشئون الاسلامية
٨	الدكتـور عبـد الرحمن على الحجى	الاستاذ بجامعة الامـارات قسم التاريخ
٩	الشيخ عبدالله بن على المحمود	مدير الاوقاف والشئون الاسلامية
١٠	الدكتور عز الدين ابراهيم	المستشار الثقـافى لرئيس دولة الامارات العربية المتحدة
١١	الاستاذ فؤاد حسن أيوب	جريدة الاتحاد ـ ابو ظبى

م	الاسم	الوظيفة
١٢	الاستاذ على محمد العجلة	مدير تحرير مجلة منار الاسلام
١٣	الاستاذ السيد على الهاشمى	المحكمة العليا وزارة العدل ـ أبو ظبى
١٤	الاستاذ احمد محمد البيلى	مستشار
١٥	معالى الاستاذ محمد الرحمن البكر	وزير العدل والشئون الاسلامية
١٦	الدكتور محمد المهدى البدرى	مدير المعهد الدينى ـ عجمان
١٧	الدكتور نجيب الكيلانى	مدير الثقافة الصحية ـ دبى

(٦) البحرين :

١	الاستاذ احمد حجازى	مجلة الهداية
٢	الاستاذ تاج الاسلام	صحفى
٣	الشيخ مبارك الخاطر	ادارة الاوقاف
٤	الاستاذ محمد حسين بطى	مجلة الهداية
٥	الشيخ محمد عبد اللطيف آل سعد	محكمة الاستئناف الشرعية
٦	الشيخ يوسف احمد الصديقى	محكمة الاستئناف الشرعية
٧	الاستاذ أحمد محمد المحمود	صحفى

(٧) سلطنة عمان :

١	الشيخ احمد الخليلى	مفتى سلطنة عمان
٢	الشيخ سالم عبد الله الحارثى	وزارة العدل ـ مسقط

(٨) اليمن الشمالية :

١	الشيخ اسماعيل بن على الاكوع	رئيس الهيئة العامة للارشاد ودور الكتب
٢	ناصر محمد الشيبانى	مدير مكتب التوجيه والارشاد بلواء تعز

م	الاسم	الوظيفـة
	(٩) العـراق)	
١	الدكتور حسن امين	رئيس اتحاد المؤرخين العرب
٢	الدكتور عماد الدين خليل	جامعة الموصل
٣	اللواء الركن محمود شيث خطاب	عالم ومفكر اسلامى
	(١٠) سوريا :	
١	الاستاذ عمر عبيد حسنة	نائب رئيس تحرير حضارة الاسلام
٢	الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى	جامعة دمشق
	(١١) الاردن :	
١	الدكتور ابراهيم زيد الكيلانى	الجامعة الاردنية
٢	الشيخ ابراهيم القطان	قاضى القضاة
٣	الشيخ اسعد بيوض التميمى	مدير المسجد الاقصى
٤	الاستاذ حسن التل	مدير تحرير جريدة اللواء
٥	الاستاذ عـز الدين الخطيب التميمى	وكيل وزارة الاوقاف والشئـون الاسلامية
٦	الاستاذ محمد سليم رشدان	رئيس تحرير مجلة الاسراء
٧	الدكتور محمود نادى عبيدات	كاتب ومفكر اسلامى
٨	الاستاذ مصطفى الزرقا	الجامعة الاردنية
	(١٢) فلسطين :	
١	السيد حيدر الحسينى	الريـاض
٢	الدكتور كامل الدقمر	جامعة الامام محمد بن سعود
	(١٣) لبنـان :	
١	الاستاذ شريف الانصارى	ناشر اسلامى
٢	الاستاذ محمود علايا	المشرف العام على مدرسى الفتوى

م	الاسم	الوظيفـــة
٣	الاستاذ ابراهيم المصرى	رئيس تحرير مجلة الامان
٤	الشيخ حسن خالد	مفتى الجمهورية
٥	الاستاذ زهير الشاويش	مدير المكتب الاسلامى
٦	الشيخ طه الصابونجى	القاضى الشرعى
٧	الدكتور عمر فروخ	دكتـــور فى الفلسفة وعضـــو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٨	الاستاذ فتحى يكن	مدير مؤسسة البحوث والمشـــاريع الهندسية الاسلامية
٩	الاستاذ عبد المجيد سالم	مدير مجلة الفكر الاسلامى
١٠	الاستاذ محمود حطب	مدير عام الاوقاف الاسلامية

(٤) مصر :

م	الاسم	الوظيفة
١	الشيخ احمد أبو العلا خليل	مرافق وزير الاوقاف
٢	الاستاذ انور الجندى	عضـــو المجـلس الاعـلى للشئون الاسلامية
٣	الدكتور حسين مؤنس	رئيس تحرير مجلة الهلال
٤	السيد شمس الدين محمـــد ابراهيم	مرافق وزير الاوقاف
٥	الشيخ صلاح ابو اسماعيل	عضو مجلس الشعب المصرى
٦	الدكتور عبد الودود شلبى	رئيس تحرير مجلة الازهر
٧	الدكتور عبد المنعم النمر	وزير الاوقاف وشئون الازهر
٨	الدكتور محمد احمد عاشور	رئيس تحرير مجلة الاعتصام
٩	الدكتور محمد البهى	عالم ومفكر اسلامى
١٠	اللواء الركن محمد جمـــــال الدين على محفوظ	مفـكر اســـلامى ـ متخصص فى الدراسات العسكرية الأسلامية
١١	الاستاذ عبد الخالق محمـــــد عبد الوهاب	وكيل اذاعة القرآن الكريم

م	الاسم	الوظيفـــة
١٢	السيد محمد محمود حمدان	مرافق وزير الاوقاف
١٣	الشيخ محمـــد محمـــود الطبلاوى	قارىء القرآن الكريم
١٤	الشيخ محمد نجيب المطيعى	مؤلف اسلامى
١٥	الاستاذ احمد بهجت	صحفى ــ الاهرام

(١٥) السـودان :

١	الشيخ عوض الله صالح	مفتى السودان
٢	الدكتور كامل الباقر	مدير جامعة ام درمان
٣	الدكتور مالك بدرى	جامعة الخرطوم
٤	الدكتور محمد احمد ياجى	مدير المركز الاسلامى الافريقى

(١٦) ليبيـا :

١	الشيخ محمود صبحى	امين عـام جمعيـة الدعـوة الاسلامية

(١٧) تونـس :

١	الدكتور التهامى نقره	جامعة تونس
٢	الاستاذ راشد الفنوشى	رئيس تحرير مجلة المعرفة
٣	الدكتور صلاح الدين كشريد	صيدلى ــ مفكر اسلامى
٤	الدكتور محمـــد الحبيـب بلخوجه	مفتى تونس
٥	الدكتور محمد الشاذلى النيفر	عميد كلية الزيتونة
٦	الشيخ مصطفى كمال التارزى	مدير الشئون الدينية
٧	الاستياذ الحبيب اللمسى	ناشر اسلامى

(١٨) المغـرب :

١	الاستاذ أبو بكر القادرى	عضو اللجنـة التنفيذية لحـزب الاستقلال

م	الاسم	الوظيفـــة
٢	الاستاذ اسماعيل الخطيب	رئيس تحرير جـــريدة النــور ـ تطوان
٣	الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله	مدير مـــكتب تنسيق التعـــريب بالمنظمة العربية للتـــربية والثقافة والعلوم
٤	الدكتور عبد الكريم الخطيب	عالم ومفكر اسلامى
٥	الاستاذ عمـــر بهـــاء الدين الاميرى	دار الحديث ـ الحسنية ـ الرباط
		عالم ومفكر اسلامى
٦	الشيخ علال احمد بشر	
٧	الدكتور عبد الهادى التازى	سفير المغرب بايران
٨	الاستاذ محمد الفاسى	رئيس رابطة الجامعات الاسلامية
٩	الدكتور المهدى بن عبود	عالم ومفكر اسلامى
١٠	الاستاذ مصطفى القرشاوى	صحفى
(١٩) غينيا :		
١	معالى الحاج فودى سوريبا كامارا	وزير الشئون الاسلامية والاميـــن العام للمجلس الوطنى الاسلامى
(٢٠) جمهورية مـــالى :		
١	الحاج سعد عمر تورى الفوتى	وفد علماء مالى
٢	الشيخ عثمان خلابو	وفد علماء مالى
٣	الحاج محمد السنوسى	وفد علماء مالى
٤	سعادة سيدى محمد يوسف ديرى	سفير جمهورية مالى بجده
جنـــوب افريقيـــا :		
١	سليمان الندوى	رئيس قســم الدراســـات الاسلامية « جامعة دربان »
٢	الدكتور سيد حبيب الحـق الندوى	استاذ بجامعة دربان وستفيل

م	الاسم	الوظيفة
٣	الدكتور غلام كريم	عضو المجلس الاسلامى
٤	الاستاذ محمد امين بلبليا	نائب رئيس المجلس الاسلامى ومدير العلاقات الدولية
٥	عبد الرحمن سيد الندوى	
	(٢٢) موريشيوس :	
١	الدكتور احمد سويلى كسنيالى	أستاذ بجامعة موريشيوس ومفكر اسلامى
	(٢٣) تركيا :	
١	الدكتور نجم الدين اربكان	رئيس حزب ملى سلامة
٢	الدكتور احسان ثريا صيرما	استاذ بكلية العلوم الاسلامية ـ جامعة أتاتورك
٣	الاستاذ اغزوخان اصيل ترك	سكرتير حزب ملى سلامة
٤	الاستاذ صالح اورجان	رئيس تحرير مجلة الهلال
٥	الدكتور صالح طوغ	مدير المعهد للدراسات الاسلامية
٦	الدكتور عثمان اوزتورك	استاذ تاريخ الحضارة الاسلامية بالمعهد الاسلامى العالى اسطنبول
٧	الاستاذ عثمان سراج	مشاور وزارة الثقافة
٨	الدكتور مصطفى بيلج	استاذ بكلية الآداب ـ جامعة اسطنبول
٩	الاستاذ برنت رفعى	مرافق
١٠	الاستاذ مصطفى محمد الطحان	مرافق للبروفسور نجم الدين اربكان
	(٢٤) قبرص	
١	الدكتور رفعت مصطفى رفعت	مفتى قبرص
	(٢٥) باكستان :	
١	**الدكتور حكيم محمد سعيد**	المستشار الطبى لرئيس الجمهورية

م	الاسم	الوظيفة
٢	الاستاذ خليل الحامدى	رئيس دار العروبة للدعوة الاسلامية
٣	الاستاذ خورشيد احمد	استاذ بمعهد الدراسات السياسية
٤	القاضى محمد أفضل شيمه	رئيس مجلس الفكر الاسلامى
٥	الشيخ محمد تقى العثمانى	نائب مدير دار العلوم ــ كراتشى
٦	الشيخ ميان طفيل محمد	أمير الجماعة الاسلامية

(٢٦) افغانستان :

١	الشيخ صبغة الله المجددى	رئيس الجمعية الوطنية لانقاذ افغانستان
٢	الاستاذ عبد الستار سيرت	استاذ بجامعة الملك عبد العزيز
٣	محمد هاشم المجددى	عالم ومفكر اسلامى

(٢٧) الهند :

١	الشيخ ابو الحسن على الندوى	الامين العام لندوة العلماء
٢	الاستاذ سعيد احمد أكبر ابادى	رئيس قسم الدراسات الاسلامية بالجامعة الاسلامية عليكرة
٣	الاستاذ عبدالله حسن الندوى	مرافق للشيخ أبو الحسن الندوى
٤	الاستاذ عبد الرحمن عبيد الله الرحمانى	مرافق مع والده
٥	الشيخ عبيد الله عبد السلام الرحمانى	مؤلف ومفكر اسلامى
٦	الشيخ محمد سالم القاسمى	نيابة عن مدير دار العلوم / ديوبند
٧	الشيخ محمد يوسف	أمير الجماعة الاسلامية
٨	الشيخ مختار احمد الندوى	مدير الدار السلفية
٩	الشيخ مقتدا حسن محمد يس	وكيل الجامعة السلفية ــ بنارس
١٠	الاستاذ سيد! واساف فاسفى	صحفى

م	الاسم	الوظيفـة
	(٢٨) بنجـــلاديش	
١	المفتى عبد الرحمن بن صان مياه	امين التعاليم للجامعة الاسلامية
٢	الشيخ محمد يونس عبـــد الجبار	رئيس الجامعة الاسلامية
	(٢٩) اندونيسيـا	
١	الدكتور عبد الملك عبد الكريم أمر الله	الرئيس العـــام بمجلس العلمـــاء الاندونيسى
٢	الدكتور محمد رشيدى	نائب الدكتور محمـد ناصر رئيس المجلس الاعلى الاندونيسى
٣	الدكتور محمد طلحه حسن	عضــو المجلس الاعـلى الاندونيسى
٤	الاستاذ عبدالرحمن باسبورتا	صحفى
	(٣٠) الفلبيـــن :	
١	الشيخ احمد بشير	رئيس جمعية اقامة الاسلام
٢	الدكتور أحمـد دوماكاوالنتو	الرئيس الفخـرى لجـامعة الفلبين الاســلامية وعضـــو رابطة العـــالم الاسلامى
٣	الاستاذ عبد الرافع سيدى	استاذ بمعهد الدراسات الاسلامية
	(٣١) تايـــلاند :	
١	الشيخ على عيسى محمد على سالم	مدير دار الرابطة ، ومبعوث رابطـة العالم الاسلامى ، بانكوك
	(٣٢) مـــاليزيا :	
١	الدكتور عبد الجليل حسن	مدير مكتب رابطة العالم الاسلامى
٢	الدكتور عبد المجيد مكين	رئيس قسم الدراسات الاســلامية جامعة ماليزيا

م	الاسم	الوظيفة
	(٣٣) سرى لانكا :	
١	الحاج سابلدن بصير جلال الدين	مدير الدعوة ـ المجلس الوطنى لجمعية شباب المسلمين
٢	سعادة السيد محمد حنيفة محمد	وزير المواصلات ـ وعضو المجلس الدستورى
	(٣٤) سنغافورة :	
١	الاستاذ محمد زين احمد	مستشار اتحاد الشباب المسلمين
٢	الاستاذ معروف صالح	رئيس اتحاد الشباب المسلم
	(٣٥) هونج كونج :	
١	الاستاذ يوسف يو	نائب عميد الكلية الاسلامية
	(٣٦) كوريا الجنوبية :	
١	الدكتور ابوبكر جونى‌سون‌كيم	اتحاد المسلمين الكوريين
٢	الحاج صبرى جوه سوه	اتحاد المسلمين الكوريين
٣	الاستاذ عبد العزيز آل شوه	اتحاد المسلمين الكوريين
	(٣٧) اليابان :	
١	الاستاذ خالد كيبا	المركز الاسلامى ـ طوكيو
٢	الدكتور عبد الباسط السباعى	المركز الاسلامى ـ طوكيو
٣	الدكتور يوسف ايمورى	جمعية المسلمين
٤	الاستاذ عبما نبيل عبدالرحمن	صحفى
	(٣٨) استراليا :	
١	الاستاذ ابراهيم‌السيدابراهيم	رئيس المجلس الاسلامى ـ سيدنى
	(٣٩) بريطانيا :	
١	الاستاذ افضال الرحمن	رئيس دار الوقف الاسلامى

م	الاسم	الوظيفـة
٢	الدكتور سيد عزيز باشا	امين الاتحاد والجمعيات الاسلامية فى بريطانيا وايرلندا
٣	الاستاذ عاشور الشامس	سكرتير دار الرعاية الاسلامية
٤	الدكتور محمـد عبد الحليم احمد	استاذ الدراسات الاسلامية / جامعة لندن
٥	الدكتور وليد عرفات	رئيس قسم الدراسات الاسلامية (جامعة لنكستر)
٦	الاستاذ ادريس بيرز	صحفى
	(٤٠) اليونـــــان :	
١	الشيخ رشدى ادهم امام	واعظ ومرشد لمسلمى اليونان
	(٤١) فرنســـا :	
١	الدكتور عبـد الحليم خلدون الكنانى	مدير مكتب رابطة العالم الاسلامى بباريس
	(٤٢) لوكسمبرج :	
١	الدكتور جمـال الدين عطيـة	رئيس تحرير مجلة المسلم المعاصر
	(٤٣) المانيا الغربية :	
١	حسن حسين هاوت	رئيس الجمعية الاسلامية الالمانيـة
٢	الدكتور فؤاد سيزكين	عالم ومفكر اسلامى
	(٤٤) بلجيـــكا :	
١	الشيخ محمد العلوينى	مدير المركز الاسلامى والثقافى
	(٤٥) الولايات المتحـــدة الامريكية :	
١	الدكتور انيس احمد	رئيس اتحاد علماء الاجتماع المسلمين بلاين يلد ــ انديانا
٢	الدكتور محمد عبد الرؤوف	مدير المركز الاسلامى ــ واشنطن

م	الاسم	الوظيفة
	(٤٦) الارجنتيـــن :	
١	الشيخ ساطع بن الشيخ احمد رفيق الجميلى	مدير معهد التربية الاسلامية
	(٤٧) قطـــــر ـ الدولة المضيفة :	
١	الاستاذ ابراهيم محمد على	رئيس قسم الترجمة ـ ادارة الشئون الدينية
٢	الدكتور ابو الفرج العش	جامعة قطر
٣	الدكتور أحمد رجب عبد المجيد	مدير البحوث الفنية ـ وزارة التربية والتعليم
٤	الاستاذ أحمد العنانى	الديوان الاميرى
٥	السيد احمد نصار	جامعة قطر
٦	السيد احمد الحمادى	جامعة قطر
٧	السيد احمد عبد الرحيم الانصارى	مدير ادارة المساجد ـ رئاسة المحاكم الشرعية
٨	الشيخ جاسم حسن جاسم السيد	موجه العلوم الشرعية ـ وزارة التربية والتعليم
٩	الدكتور جابر عبد الحميد جابر	جامعة قطر
١٠	الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر	جامعة قطر
١١	الاستاذ خليل حمد	رئاسة المحاكم الشرعية
١٢	الشيخ رافت وافى	وزارة التربية والتعليم ـ موجه العلوم الشرعية
١٣	الاستاذ السيد عبد العال السيد	رئيس التوجيه التربوى ـ وزارة التربية والتعليم
١٤	الشيخ عبد التواب هيكل	مكتب الدعوة والارشاد السعودى
١٥	الاستاذ عبد الجواد عبارة	رئيس قسم المكتبات ـ ادارة الشئون الدينية

م	الاسم	الوظيفـة
١٦	الاستاذ عبدالحميد طه حسن	رئيس مدارس تحفيظ القـــرآن الكريم ــ ادارةالشئونالدينية
١٧	السيد عبد الرحمن عبد الله المولوى	مدير ادارة المحفـــوظات ــ وزارة التربية والتعليم
١٨	الدكتور عبد الشافى غنيم	جامعة قطر
١٩	الدكتور عبد العظيم الذيب	جامعة قطر
٢٠	الشيخ عبد القـــادر العماوى	المحـكمة الشرعية
٢١	الشيخ عبد اللطيف زايد	وزارة التربية والتعليم
٢٢	فضيلة الشيخ عبد الله ابراهيم الانصارى	مدير الشئون الدينية
٢٣	فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار	رئيس توجيــه العلوم الشرعية ــ وزارة التربية والتعليم
٢٤	السيد عبـــد المعين محمـــود عبارة	رئيس قسم الطباعةوالنشر ــ ادارة الشئون الدينية
٢٥	الدكتور على جماز	جامعة قطر
٢٦	السيد على القاضى	جامعة قطر
٢٧	فضيلة الشيخ عليوة مصطفى	توجيــه العلوم الشرعيــة ــ وزارة التربية والتعليم
٢٨	السيد عنتر حشاد	جامعة قطر
٢٩	الاستاذ فتح الله خليف	جامعة قطر
٣٠	الدكتور كمال ناجى	وزارة التربية والتعليم
٣١	الدكتور مازن المبارك	جامعة قطر
٣٢	الدكتور ماهر حسن فهمى	جامعة قطر
٣٣	الدكتـــور محمـــد ابراهيـــم الفيـــومى	جامعـــة قطر
٣٤	الدكتور محمد ابراهيم كاظم	مدير جامعة قطر
٣٥	السيد محمد احمد سليمان	جامعة قطر

م	الاسم	الوظيفة
٣٦	الاستاذ محمد عبد الله الانصارى	مدير الشئون الفنية – وزارة التربية والتعليم
٣٧	السيد محمد محمد الابشيهى	توجيه اللغة العربية – وزارةالتربية والتعليم
٣٨	الدكتور محمد منير مرسى	جامعة قطر
٣٩	السيد محمد محمد مقلد	جامعة قطر
٤٠	الدكتور محمد عبد الغفار حمزة	توجيه اللغة العربية – وزارةالتربية والتعليم
٤١	السيد محمود عبد العزيز	جامعة قطر
٤٢	الشيخ معجب الدوسرى	مكتب الدعوة والارشاد السعودى
٤٣	الاستاذ مصطفى الصيرفى	مدير معهد الادارة والتجارة الثانوية وزارة التربية والتعليم
٤٤	السيد محمد الشافعى صادق	م. مدير الشئون الدينية
٤٥	الدكتور يوسف القرضاوى	عميد كلية الشريعة – جامعة قطر
٤٦	الاستاذ يوسف المظفر	وزارة الاعلام – مدير التلفزيون
٤٧	الدكتور يوسف عبد المقصود	جامعة قطر
٤٨	الاستاذ يوسف الملا	مدير محو الامية وتعليم الكبار – وزارة التربية والتعليم
٤٩	الدكتور القصبى زلط	جامعة قطر
٥٠	الدكتور احمد حمد	وزارة التربية والتعليم
٥١	الدكتور محمد الشبينى	اليونسكو – نائبا عن المدير العام
٥٢	الدكتور مصلح سيد بيومى	جامعة قطر
٥٣	الدكتور محمد عبد الله السنباطى	جامعة قطر

التفرقة العنصرية والإسلام

دكتور محمد البهى

مقدمـــة :

التفــرقة العنصرية تقــوم على ادعاء : أن شــعبا من الشــعوب أو قوما من الأقوام أو جنسا من الأجنــاس البشرية ، أو قبيلة من القبائل ، أو عشيرة من العشــائر أو مجموعة من الناس خاصة .. وتتميز فى صفاتها الجسمية والعقلية عن ما عداها .

وانها لذلك صاحبة الفضل فى بناء الحضارة الانسانية والمدنيــة ومؤهلة من أجــل هــذا السبب للقيادة والامارة على الآخرين .

هل الاسلام بدعوته ومبــادئه يقــوم عــلى التمييز العنصرى ؟ انــه يفــرق حتمــا بين الأفــراد والمجمــوعات ، بينما يسوى بين الناس جميعا . فعــلى أى أساس يفــرق ؟ وعلى أى أســاس آخر يسوى ؟

وبعض المســلمين فى مراحــل ايمانهم بالاسلام على عهد الرسول عليه السلام وبعده ، كان لا يخفى النــزعة الى « القبيــلة » أو « العشيرة » .. هــل عدم اخفاء هذه النزعة يعد مساوقا للايمان ، أو يعتبر تغاضيا عن دعوته ؟

ان الاســلام كمــا سنرى فى البحث يدعو الى : « الانسانية » وقيمها العليا وهو من أجــل ذلك يعادى « العنصرية » كما يعــادى الشر والجاهلية .

وظهور النزعة « العنصرية » فى وقت ما ، أو فى مرحلة ما ، عنــد بعض المسلمين ، لا يدل على أن الاسلام يهــادن العنصرية لسبب

من الأسباب وانما يدل على ضعف هذا البعض من المسلمين ، أو على أن المجتمع يأخذ طريقه شيئا فشيئا بعيدا عن الاسلام ومبادئه .

والله الموفق »

فى النصوص الاسلامية :

رسالة الرسول عليه السلام — **وهى ما أوحى بها الله فى** القرآن — جاءت لتعيد الى القيم الانسانية اعتبارها — جاءت لترفع من شأن هذه القيم فى العلاقات بين الناس والأفراد ، ويكون لها وزنها ، بحيث تحل محل الروابط المادية وهى روابط المنفعية والمبادلات المصلحية ، التى تكون نفاق الانسان فى التفكير والسلوك ، والمواقف بالنسبة للآخرين .

ولكى يفسح الاسلام المجال للقيم الانسانية فى ترابط الناس بعضهم ببعض : نحى عن هذا الترابط اختلاف نظرة الناس **بعضهم الى بعض ، واختلاف تقديرهم وتقييمهم على أساس من « العنصرية » .. أى على أساس** من « الشعوبية » .. و « القبلية » **.. و« والذكورة والانوثة » ..** على أساس **من « الأصل »** و « **الجنس** » ..يقول الله تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا** تفرقوا » (١) فيأمر المؤمنين بأن ينتقلوا بالترابط فيما بينهم ويرتفعوا به الى دائرة الهداية بكتاب الله . وهى دائرة أسمى من دوائر الترابط التى كانت سائدة قبل الاسلام ، ودائرة أعم فى الشمول من أية دائرة أخرى كان لها اعتبارها بين الجاهليين أو الماديين أو غير الاسلاميين .

وبالانتقال الى هذه الدائرة الأسمى والأدعم فى الترابط يجنب القرآن المؤمنين : الفرقة على أساس الاختلاف فى القبيلة ، أو الشعب ، أو اللون ، أو الجنس من الذكورة والأنوثة . ولكى يقنعهم بأن يكون الترابط فى

(١ ، ٢) آل عمران : ١٠٣

العــلاقات على صلة بهــداية الله وحدها ، يذكرهم بأحداث الماضى فى العــلاقات البشرية التى كانت تنشــأ على أساس مادى ضيق ، كما يذكرهم بآثارها السلبية فتقول الآية مســتمرة فى الحــديث :

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (١) والعداوة التى كانت قائمــة ليست هى فقط العداوة التى كانت بين قبيلتى الأوس والخزرج ، كمــا يذكر كثير من المفسرين • وانمــا هى كل عداوة عنصرية قبليــة ، أو شــعوبية ، تنشــأ على أساس الدم والقرابة فيــه ، وليس على أساس التوجيه الانسانى والهداية الالهية وهى عداوة تتكرر كلمــا تكررت الروابط واشتـــدت على أساس العنصرية •

وتعتبر الآية الكريمة أن الدعوة الى الانتقال بالترابط بين النــاس الى دائرة الهداية الالهيــة ، هى دعوة لانقاذ البشرية من الهــلاك المحقق ، وتمتن بها على المؤمنين ، مؤملة أن يأخذوا بها فى حياتهم ، كى يكونوا على طــريق الســلام والأمان دائمــا •

واذ ينحى الاســلام عن ترابط الناس بعضهم ببعض قيام هــذا الترابط على أساس « العنصرية » فانه يوصــل المبــدأ الذى يؤكد مساواة الناس جميعا فى الاعتبــار البشرى ويرد كل سبب آخـــر للتفرقة العنصرية ، فيقول :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٢) فالناس جميعا خلقوا من ازدواج الذكورة والأنوثة • ولا يتخلف فــرد واحد منهم فى نشأته عن هذا الأصل فالناس اذا متساوون فى الأعتبــار البشرى ، كمــا هم متســاوون فى النشأة والأصل هنا ويوضح ذلك قــوله تعالى فى سورة الانسان •

« هل أتى على الانسان حين من الدهــر لم يكن شيئا مذكورا »

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .
(٢) سورة الحجرات ١٣ .

أى أنه جاء وقت لم يكن الانسان مخـلوقا •

« انا خلقنا الانسان من نطفــة أمشــاج نبتليــه فجعلناه سميعا بصيرا »(١) وعندما خلقه الله سبحانه وتعالى خلقه من نطفة مشتركة من الذكورة والأنوثة • وخلقه على هــذا النحو : لا يتبــدل بسبب اختــلاف المــكان ، والزمــان ، واللغــــة ، والعــرق والذكورة والأنوثة ، واللون •

وتأتى ســورة النســاء فى أول آية منها فتذكر أن الطبيعة الانسانية التى خلق منها النــاس جميعــا ، وخلق منها الذكر والانثى ، هى طبيعة واحدة ، يقول الله تعالى :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم » ــ فتجنبوا ما تبــاشرونه ضــد الضعفاء فيكم أو ضد المستضعفين لديكم ، وهم النساء ، واليتامى •

«الذى خلقكم من نفس واحدة» وهى الطبيعة البشرية • وما يقوله بعض المفسرين هنــا فى النفس الواحدة : أنها نفس آدم ، فذلك قصة التوراة •

« وخلق منها زوجها » أى خلق من الطبيعــة البشرية الذكــورة والأنوثة •

« وبث منهمــا رجــالا كثيرا ونساء » ثم انتشر خلق الرجــال والنساء فى تعمير الكون من نطفة أمشاج ، اختلط فيهــا ما للذكــر وما للأنثى •

ومن هذه الآيات يتضــح أن المساواة فى الاعتبــار البشرى بين الذكر والأنثى قائمة بالفعل ، وأن مصدرها : وحدة الأصل والنشأة بين النوعين •

فاذا جــاءت آية الحجــرات السابقة وأضافت الى شقها الأول قول الله تعالى وجعلنــاكم شعوبا وقبائل لتعارفوا •• فانهــا تضم الى المساواة فى الاعتبار البشرى بين الأفراد بين الذكر والأنثى ، المســاواة فى الاعتبار البشرى بين الشــعوب ، والقبــــائل ، وكل

---

(١) سورة الانسان ١ و ٢ .

المجموعات الأخرى التى تقوم على عصبية الدم أو وحـدة اللغـة ، أو تجانس اللون فهذا الشق الثانى من الآية يريد أن ينفى أن اختلاف الشعـوب يوصـل الى اختـلاف اعتبارهم البشرى ، بل هو مصدر للتقارب والتعارف فيمـا بينهم ، أى هو مصدر لجذب بعضهم الى بعض لحاجة كل منهـم للآخـر ، فالاختلاف بين الذكورة والأنوثة عامل جذب ، وليس عامل تضاد .. والاختلاف بين الغنى والفقير عامل مشاركة وحاجة متبـادلة وليس عامل خصومة ومطاردة .. وهكذا .. فالأفراد البشرية والجمـاعات البشرية لا فـرق بين بعضـها فى الاعتبار البشرى فى نظر الاسلام ، ومن هنـا يمـكن أن يقال : ان الاسلام ضد « التفرقة العنصرية » وأنه ينظر الى الناس جميعـا نظرة المساواة فى الاعتبارى البشرى . فلا يفضل انسانا على آخر ولا شعبا ، ولا قبيلة على قبيلة ولا جماعة من النـاس ترابطت على أسـاس غير انسانى ، على جمـاعة أخـرى ترابطت أيضـا على أساس آخـر هو غير انسانى كذلك .

ولكن الاسلام فى الوقت نفسه يميز بين الافراد والجماعات بعـد اقـراره بالمساواة فى الاعتبـار البشرى ــ بمـا تنتهى به آية الحجرات السابقة ، وهـو قوله تعـالى :

« ان أكرمكم عنـد الله أتقاكم ان الله عليم خبير » .. فتذكـر الآية أن مقياس التفضيل للافراد والجمـاعات عند الله لا يرجع الى « العنصر » والعرق بل هو التقوى .. هو تجنب المعاصى والآثام هو تجنب المنكر والفواحش .. هـو أداء الواجبات المختلفة .. هـو أداء العبـادات .. هو الوفـاء بالعهود .. هو الصبر فى البأساء والضراء وفى تحديد المتقيـن . بقول الله تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البـر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب ، والنبيين وآتى المـال على حبه ذوى القربى واليتـامى ،

والمساكين ، وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة . والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس وأولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (١) ..
فالمتقى هو صاحب الايمان بما طلبت الآية هنا الايمان به ، وهو المؤدى للواجبات والتكاليف حسبما يدعو القرآن فيها كذلك ، وهو صاحب الصفات النفسية القائمة على القيم الانسانية العليا والثبات عليها : من الوفاء بالعهد ، والصبر والتحمل فى الشدة اذا استمرت ، ووقت مفاجآتها (وحين البأس) .

والتقوى التى يتميز بها فرد عن فرد أو مجموعة من الناس على مجموعة أخرى هى جماع هذه الأنواع من الصفات التى ذكرت فى آية البرهان .

والاسلام بذلك يفرق بين شيئين لا يستلزم أحدهما الآخر .. يفرق :

أ ـ بين المساواة فى الاعتبار البشرى ، على أساس الوحدة فى أصل النشأة البشرية .

ب ـ وبين التميز فى السلوك الانسانى ، والارتباط بالقيم الانسانية العليا فى الحياة على أساس من الايمان وتأثيره على الفكر ، والوجدان ، والعمل الادارى .

***

وعندما تبدر بادرة اختلاف بين المؤمنين فى جماعتهم تشير الى الرجوع الى الاعتزاز أو التفاخر « بالأصل » فيهم يتجه الاسلام فورا الى النهى عن طريق ذلك ويذكر بالرباط القائم بينهم الآن بديلا عما كان فيقول : «انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ .

أخـــويكم واتقـــوا الله لعلـــكم ترحمون » (١) .. فيطالب بالصلح على أساس الأخـــوة فى الايمـــان بالله وليس على أساس عنصرى . ثم ينهى عن مبـــاشرة الآثار التى تترتب على اعتبار العنصرية باقيـــة كما كانت فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » وفى العمل والسلوك ،

« ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولاتلمزوا أنفسكم » ولا تذكروا عوب بعضكم بعضـــا فى غيبتهم ،

« ولا تنابزوا بالألقاب » أى لا يلقب بعضـــكم بما يكـــره أن يسمعه .

« بئس الاسم الفسوق بعـــد الايمان » أى بئس الخـــروج عن الايمان بعد الدخول فيه .

فينهى القرآن هنا عن أن يسخر أحد من آخر ذكر أو أنثى بسبب وضاعة النسب أو بأى سبب من الأســـباب التى كانت فى المـــاضى يستندون اليهـــا عنـــد التنقيص ، أو السخرية من أحد . لأن ذلك لا يتفق اطلاقا مع قيـــام المساواة فى الاعتبـــار البشرى بين النـــاس جميعا التى يطلبها الاسلام ويصر على طلبها .

كما ينهى عن انتهـــاك الحرمات فى غيبة أصحابها بما يسىء اليهم ، وعن مواجهتهم بمـــا يكرهون من الأسماء والألقاب . ويجعـــل أى سبيل من سبل الانتقاص المذكورة فسوقا وخـــروجا من الايمـــان ، أو هو بمثابة الارتداد عن الايمان . فالســـخرية والاساءة الى الانسان بالتنقيص من خلقه ، ودعـــوته بما يكره من الألقاب : أمور لا تجرح الاحســـاس الانســـانى فقط بمن

---

(١) سورة الحجرات ١٠ .

يسخر منه ، أو يساء اليه من خلفه ، أو فى مواجهته وانما قد يصل جرح الاحساس الى ما يعوقه عن التفكير السليم ، ومباشرة العمل ، ويحول بينه وبين النظرة المتفائلة فى الحياة .. هى أمور قد تؤدى الى أن يكره الانسان نفسه ويتهرب بوسيلة ، أو بأخرى من لقاء الناس ، فضلا عن أن يستمتع بهم عند اللقاء .

ولكى يبعد الاسلام سوء الظن بالآخرين ، اعتمادا على تقليد كان قائما على تفرقة قبلية يطلب الابتعاد عنه من قريب أو بعيد فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا ،

« اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم ،

« ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا » (١) ..

والواقع أن القرآن الكريم يطلب فى هذه الآيات الثلاث فى سورة الحجرات : أن يتجنب المؤمن كل أسباب الايذاء النفسى لمؤمن آخر . وهى أسباب كانت سائدة فى الجاهلية ، وتسود فى كل عهد مادى . والقرآن اذ يطلب أن يتجنبها المؤمن يطلبها لكى يفسح مجال العلاقات بين المؤمنين الى الايمان بالله ، والأخوة على أساس منه : فسخرية انسان من انسان ،

وتنقيص انسان من انسان آخر وراء ظهره ،

ودعوة انسان انسانا آخر بما يكره من ألقاب أمام آخرين ،

وتجسس انسان على أسرار انسان آخر ،

وغيبة انسان لانسان ..

كلها عوامل تحول قطعا دون صفاء النفوس ، وتماسك بنيان المجتمع — وهى لا تشيع الا اذا كانت « التفرقة العنصرية قائمة » بوجه من الوجوه .

الاسترقاق ليس تفرقة عنصرية :

واسترقاق الأسرى فى الحروب بين المسلمين وأعدائهم اذا باشره

---

(١) سورة الحجرات ١٠ — ١٢

الامام وأصبح هناك بين المؤمنين أرقاء من غـيرهم يجـوز بيعهم وشراؤهم : لا يعـد « تفـرقة عنصرية » فعـدم مساواة الأرقاء بالأحرار فى المجتمع الاسلامى فى الاعتبـار الانسانى ، وجعلهم على النصف فى أمور عديدة ، مما يجب على الحر ، أو مما يجوز له ، هو اجراء ضرورى لابعاد خطر الاعتداء والحروب عن المؤمنين من أعدائهم وهو « سياسة » يجب أن تستخدم لتحـذير الأعـداء والمغـامرين بالحروب •

ثم الاسـترقاق هـو بديل عن قتـل الأسير فى ميـدان القتال ، أو بعد أسره فقد يجوز أن يقتـل فى الميدان ، كما يجـوز للامام أن يقتله بعد أن يؤسر ـ وقـد كان عمـر رضى الله عنـه يرى ـ والمسلمون ضعفاء ـ أن الأسير ينبغى قتله ، ولا يجوز أن تقبـل منه فدية ، فضلا عن أن يمن عليه الامام باطلاق سراحه • وفى رأيه جاء قوله تعالى :

« ما كان لنبى أن يكون لـه أسرى حتى يثخـن فى الأرض » ـ حتى يتمـكن ويكون قـويا « تريدون » أى بالفدية • وقـد كانت الفدية رأى أبى بكر لحاجة المؤمنـين الى المـال « عـرض الدنيـا » •

« والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ،

« لولا كتاب من الله سبق » أى لولا قضاء من الله سبق فى علمه : بالعفو عن الرسول عليـه السلام والمؤمنين معـه من أجـل قبول الفدية بادىء ذى بدء « لمسـكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١) •

ومع أن الرقيق يفرق بينه وبين الحر فى مجالات عديدة فى الحياة ، وبالأخص فيمـا يتعلق بالقيمـة الانسانية ، ومع أن الاسلام يرى فى التفريق بينهما ضربا من ضروب التـأديب للأسـير الذى أصـبح رقيقا ، لكنه لا يرى فى هذا التفريق أية صلة تعود بهـا الى ما يسمى

---

(١) سورة الانفال ٦٧ و ٦٨ .

« بالتفـرقة العنصرية » .. لأن الاسـلام لا ينقصه « لأصـله » أو « عـرقه » أو « جنسـه » أو « شعبه » أو « قبيلتـه » .. أو غير ذلك مما يعـده الماديون أو الجـاهلون ـ سـببا فى « التمييز » و « التفـرقة » .. أو سببا فى التنقيص والخسة كما واجه قوم نوح رسولهم بأن سبب كفـرهم برسـالته : أنهم من « الأشراف » وأن من عداهم من الذين آمنوا به من « الوضعاء » .

قالوا : « أنؤمن لك واتبعـك الأرذلون ؟ » (١) فهم يأنفون أن يكونوا فى مستوى واحـد مـع الأراذل أو الوضعاء ، فى الايمان برسالة نوح .

والتفرقة العنصرية دائما ظاهرة من ظواهر المادية ، مهما قيـل فى شأن المساواة « أو ادعائها فى ظل طغيان المادية » . أما « التجريد » من الاعتبار الانسانى الذى يسلكه الاسلام مع الرقيق ، فلا يقوم على شيء سـوى استنكار العـدوان والاعتداء ، وحمـل المعتدى على التفكير طويلا قبل اعتـدائه على المؤمنين .

***

والآن تمر بنا فى الاسلام اربعة امور :

الأمر الأول : أن الاسلام يرى المساواة فى الاعتبار البشرى أساسا جوهـريا فى النظـرة الى النـاس جميعـا .

الامر الثانى : أن هنـاك فى الاسـلام ـ بعـد ذلك ـ فروقا فردية تنشـأ عن قـوة الايمـان وضعفه ، وحسن السلوك ، ومدى مطابقته لمـا يأمر أو ينهى عنـه الاسلام ، وهى فروق يتميز بهـا فرد عن آخـر أو مجمـوعة عن أخـرى .

الامر الثالث : أن الاسترقاق ومعاملة الارقاء ، والنظـرة اليهم لا تتصـل بمعنى « التفـرقة العنصرية » .

الامر الرابع : أن المسئوليـة الفردية هى مسئولية للناس عامة .

---

(١) سورة الشعراء ١١١ .

والناس جميعا يتساوون فى حمل هذه المسئولية ، كما يتساوون فى الاعتبار البشرى •

والحديث الشريف يذكر المسئولية الفردية فيما يروى عن الرسول عليه السلام فى قوله :

« كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ،

« والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ،

« والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم ،

« وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه » •

« ألا : كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » •• فالسيد والرقيق •• والذكر والأنثى كل فى دائرة مسئوليته مطالب بأداء المسئولية ورعايتها •

والروح الاسلامية عامة تتجاوز كل مظاهر « التفرقة العنصرية » وأسبابها كذلك تستهدف السلوك الانسانى الكريم وتحقيق مستواه الفاضل •

« واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » ــ مما يخص القبائل والعشائر ــ •

« ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم » ــ فارتفعتم به فى السلوك والمعاملة عن كل أسباب الخصومة • وهى أسباب تعود غالبا الى « العنصرية » ــ •••••

« وكره اليكم الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، أولئك هم الراشدون » (١) • وطالما يبتعد الانسان عن الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، فهو بعيد كذلك عن كل ما يؤذى فى العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض • وهو رشيد كذلك فى مسلكه وتصرفه •

***

* فى توجيه الرسول :

والرسول عليه السلام يبغض فى العصبية الجاهلية • وهى التى

---

(١) سورة الحجرات ٧

تقـــوم على أســـاس قبـلى (أو عنصرى) لنصرة عضـو فى القبيلة ، ولو كان ظـالما ، ضـد مظلوم آخر فى قبيلة أخـرى .. ويروى عنه عليه الصلاة والسلام فى هذا الشأن قوله :

« ليس منـا مـــن دعـا الى عصبيـــة » ـ أى ليس مـــن المؤمنين من جعـل العصبية سبيلا الى نصرة الظالم ـ .. « وليس منا من قاتل على عصبية » ـ .. أى اشتبك فى القتال على أساس العصبية وليس عـلى أســـاس نصرة الله ـ .....

وفى رواية جبير بن مطعم :

« خيركم : المدافع عن عشيرته ، مالم يأثم » ـ أى مالم يتجـاوز الحد فى الدفاع ـ فينصر الظـالم لأنه فقط مـن عشـيرته ـ .. فالرسول عليه السـلام لا ينـكر الترابط على أســاس العصبية . لأن ذلك شأن طبيعى فى الانسان . ولكن ينكر فقط أن يوجه هـذا الترابط لارتكاب الآثام والمظالم ، بسبب العشيرة والانتساب اليها .

ولذا يروى فى هـذا الشـأن عن عبد الله رضى الله عنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « قال : من نصر قومه على غير الحق فهـو كالبعير الذى ردى ، فهـو ينزع بذنبه » (١) ووجه الشبه هنـا أن انقاذه صعب مما وقع وتردى فيه ، ويندر أن ينقـذ حيا فالذى ينصر قومه على غير الحق يخطىء خطـأ جسيما فى حق نفسه ويؤدى بهـا الى الهلاك ـ . فالعصبية ذاتهـا أمر طبيعى . ولكن يجب أن تسير فى ظل الايمان بالله ودين الله . أى يجب أن تكون تعـاليم الرسـالة الالهيــة هى صـاحبة التوجيــه لطـاقات الانســان وترابطــه .

بينمـا « العنصرية » القائمـة الآن لا تفترق اطـلاقا عن العصبية الجاهلية التى يمقتهـا الاسلام . فهى نصرة للشريـك فى الجنس والعنصر فى ظلمــه وباطله قبـل حقــه وعــدله .

---

(١) التاج ج ٥ ص ٤٧ .

واذا كان يروى عن الرســول عليه السلام قوله فى تمجيــد بنى هاشم :

« ان الله اختار العرب من بين سائر الناس ،

« واختار قريشا من العرب ،

« واختار بنى هاشم من قريش

واختــارنى من بنى هاشم .. فأنا أفضــل النــاس » .. فليس يعنى عليه السلام التمييز العنصرى .. والا لمــا كانت رسالته رسالة عالمية.. ولما كانت دعوته الى تحقيق القيم الانسانية العليــا فى حيــاة المؤمن . يعنى فقط التنبيــه الى « صفاء » نسبه وشرف منبتــه ، وهــذا أمر يتصــل « بالوراثة » ومالهــا مــن أثر على الســلوك والتوجيــه واذا كان الرســول يصطفى من البشر فان اختيار الله جل شأنه لرسول ما يدخل فيــه ماضيه وما ينطوى عليه من عناصر طيبــة وخيرية . وسلسلة النسب التى يشير الحديث هنا اليها تعطى لأى كاتب فى سيرته عليه السلام : أنه عليه السلام حتما كان يتحلى بصفة الأمانة ، تلك الصفة التى لها صلة وثيقة بالعصمة فى تبليغ الوحى ورسالة الله الى الناس جميعا .

وفيما يروى عــن أبى هــريرة رضى الله عنــه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « تجدون الناس معادن : خيارهم فى الجاهلية خيــارهم فى الاســـلام .. اذا فقهوا .. وتجدون خير الناس فى هذا الشأن : أشدهم له كراهيــة قبل أن يقع فيه ، وتجــدون شر النــاس ذا الوجهــين الذى يأتى هــؤلاء بوجــه ، ويأتى هــؤلاء بوجه » (١) .. يشــير كذلك الى « الوراثة » وأثرهــا فى توجيــه الأفراد ، دون أن يقصد الى معنى « التفــرقة العنصرية » فالوراثة أمر جوهرى فى الفــروق الفردية بينما « اللون » مثلا وهو أساس من أسس « التفرقة العنصرية » ــ القائمة اليوم لا يفرق بين فرد وفرد أو مجموعة ومجموعة أخرى على نحو ما يدعيه أصحاب هــذه

(١) كتاب التاج جـ ٣ ص ٤٣٥

التفرقة . فاللون الأسود لا يرتبط بضعف مستوى الذكاء فى صاحبه ، كما أن اللون الأبيض لا يدل دلالة لازمة على رفع مستوى الذكاء فيمن هو أبيض اللون . قد يكون للجو وللطبيعة فى برودتها وحرارتها أثر على نشاط الانسان — . ولذلك يختلف نشاط من يسكن المنطقة الباردة فى مستواه وفى طول أمده عن ذلك الذى يسكن المنطقة الحارة أو الرطبة . ولكن لا ينبغى أن يرتبط اختلاف النشاطين فى المستوى وفى المدى ، باللون الأسود والأبيض ، اذا كان الأسود هو الذى يسكن المنطقة الحارة أو الرطبة ، بينما الأبيض يسكن المنطقة الباردة .

***

* فى موقف عمر :

ان عمر رضى الله عنه وهو من هو ، فى الجاهلية والاسلام ، كان يقول عن بلال بن رباح الحبشى ، مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يروى عن جابر رضى الله عنه : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا — ويعنى بلالا — .. وبلال حبشى الأصل ، أسود اللون ، وكان مملوكا لبنى جمح ، فلما سمع بالاسلام بادر اليه فصار أسياده يعذبونه عذابا شديدا على الاسلام فلا يرجع . وكان أمية بن خلف يوالى تعذيبه ويغرى به الولدان يطوفون به فى شعاب مكة يعذبونه ويشهرون به ، فلا يفتر لسانه عن قول أحد .. أحد . وكان هلاك أمية هذا على يديه . فلما اشتد تعذيبه ودفنوه فى الحجارة حيا اشتراه أبو بكر بخمس أواق ، وأعتقه لله تعالى .

فتكريم عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبلال الأسود الحبشى ، بالتعبير عنه بأنه « سيده » .. يدل دلالة واضحة على أن روح « التفرقة العنصرية » لم تكن قائمة فى التطبيق العلمى فى المبادىء الاسلامية على الأقل حتى عهد عمر . قد تكون مترسبة فى أعماق بعض النفوس . ولكن ليس بترسبها هذا مع ذلك تغيير فى مجريات الأمور حسبما يرشد الاسلام بروحه الانسانية العامة :

يروى :

« أن أبا سفيان قبل اسلامه » مر على سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى فى نفـر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله مـن عنـق عـدو الله مأخـذها (ويقصـدون أنه كان يجب أن يزول أبو سفيان عدو الله من هذا الوجود ، وقاية للاسلام من شره وعـداوته) • فقـال أبو بكر : أتقـولون هـذا لشـيخ قريش وسيدهم : (يعنى أبا سفيان) ؟ وأتى النبى عليه السلام فأخبره • فقال : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ ان كنت أغضبتهم فقـد أغضبت ربك • فأتاهم أبو بكر فقـال : يا اخوتاه أ أغضبتكم ؟ فقالوا : ما غضبنا • يغفر الله لك » •

فالثـلاثة : سلمان الفـارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، من « عروق » و « أجنـاس » ثلاثة • وأبو سفيان قرشى • فرد أبى بكر وهو قرشى أيضـا على الثـلاثة ربما يوقظ فى نفوسـهم معنى « العنصرية »•• يوقظ أن قريشا تتميز على غيرها من قبائل العـرب ، والأجنـاس الأخـرى عداها • وهذا مما يثـير الفتنـة أو روح الفرقة من جديد أو على الأقل بما يضعف روح الأخـوة الاسـلامية القـائمة على الروح الانسانية العـامة والتى هى فوق الجنسيات والعنصريات •

ولذا كان رد الرسـول عليـه السلام على أبى بكر : أنه ربمـا أغضبهم بما قال • وطلب اليه أن يرضيهم ويطمئنهم على أن الروح الانسانية العامة ــ وليست روح العنصرية ــ هى السـائدة فى المجتمع الاسـلامى ، وأن المسلم أخ المسلم فى الايمـان والاعتبار وأمام المسئولية •

ووصية عمر رضى الله عنـه لمن يخلفه ــ وهو مصاب باصابته ــ تدل أيضا على عدم وجـود نزعة نحو « التفرقة العنصرية » يستلهم منها المسلمون اتجاهاتهم فى الحياة تدل على أن الاسـلام بمبـادئه الانسـانية لم يـزل صـاحب السيادة •

فـيروى : أن بعض الرجـال استأذنوا فى الدخول عليه رضى الله

عنه فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين .. استخلف .. قال :

« ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم .

« فسمى عليا » و « عثمان » و « الزبير » و « طلحة » و « سعدا » و « عبد الرحمن » وقال : « يشهدكم عبدالله بن عمر .. وليس له من الأمر شىء .

« فان أصابت الامرة سعدا فهو ذاك . والا فليستعن به أيكم ما أمر فانى لم أعزله عن عجز ، ولا خيانة .

ثم قال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين : أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم .

وأوصيه بالأنصار ، الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن سيئاتهم .

وأوصيه بأهل الأمصار خيرا . فانهم ردء الاسلام ، وجباة المال ، وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم الا فضلهم ، عن رضاهم .

وأوصيه بالأعراب خيرا فانهم أصل العرب ، ومادة الاسلام : أن يأخذ من حواشى أموالهم ، ويرد على فقرائهم .

وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله : أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا الا طاقتهم .

فان وصيته رضى الله عنه هنا بجميع طوائف المؤمنين وأهل الذمة فى الأمة لا تدل فقط على حنكة فى التجربة السياسية . وانما أيضا تدل على السمو فوق القبلية والعنصرية .

لأنه رضى الله عنه فيما يعلل به وصيته لكل طائفة يذكرها بفضلها فى الاسلام ، وفضل اسهامها فى قوة الأمة وخيرها .

*** بعد وفاة الرسول عليه السلام**

والرسول عليه السلام صاحب التبليغ بالوحى الالهى ، وصاحب الرسالة ، والدعوة اليها ، وصاحب التطبيق الجاد والصادق لمبادئها فى

حياته . ولذا كان قوله حجة وتطبيقه حجة كذلك . ومن ثم كانت قدوته قدوة حسنة ، يجب على المؤمنين برسالته أن يتبعوها .

وكما رأينا فى القرآن الكريم : أن روح الاسلام روح انسانية عامة فوق العنصرية والشعوبية .. وأن « لا اله الا الله » .. هو شعارها والله وحده هو معبود الخلق أجمعين .

ولكن الى متى تظل « العنصرية » بعيدة عن مجال الحياة الاسلامية التى سادت فيها القيم الانسانية : هل انتهت الروح « العنصرية » من نفوس المؤمنين وقلوبهم ، وهم عرب لهم قبائلهم ، أو عجم لهم تاريخهم وحضارتهم ؟ أم كبتت هذه الروح وترسبت فى العمق وتظل مترسبة الى حين ؟ حتى اذا ضعف غطاء الايمان بالله ابتدأت تعلوا على السطح الى أن يبدو أثرها فى السلوك والمواقف، ثم فى الفرقة والاختلاف بين الطوائف والجماعات فى الأمة ؟

بعد وفاة النبى عليه السلام أراد الأنصار أن يؤمروا « سعد ابن عبادة » وقالوا للمهاجرين : منكم أمير ومنا أمير — أى من الأنصار .. وهذا رجوع بالروح الاسلامية العامة الى الروح القبلية .

ومنا أمير .. ومن الخزرج أمير .

فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه : سمعت رسول الله عليه السلام يقول :

« الأئمة من قريش » فيبقى على الأعتزاز بقريش . فكان القرشيون أهل زعامة وثنية على عهد الكهان ، وليبقوا كذلك أهل الامامة فى الاسلام .

ويروى ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يزال هذا الأمر (وهو الامارة) فى قريش ما بقى منهم اثنان .. وهذا وذاك من الأحاديث التى يجب أن تكون موضع نظر للمؤمنين .

فأبو بكر وابن عمر – وهما من أجلاء الصحابة – يحدثان المؤمنين بما ينسب للرسول عليه السلام من وقوفه بالامامة أو الخلافة فى قريش وحدها .

هل معنى ذلك أنه عليه السلام كان يميز قريشا على ما عداها من القبائل العربية الأخرى فضلا عن الأعاجم الذين دخلوا الايمان بالله وشاركوا فى مسئولية بقاء الأمة الاسلامية ؟ هل هذا التمييز ينتهى الى أن تكون الامامة أو الخلافة عربية دائما ، دون أن تكون اسلامية يوما ما ؟

ويستمر الرأى بوجوب كون الامام من قريش وحدها فترة أخرى من الزمن بين المسلمين كما يذكر البذدوى فيقول : يجب أن يكون الامام أفضل علما وتقوى وشجاعة ونسبا ، ويجب أن يكون من قريش ، وهو قول أهل القبلة ، واستنادا الى حديث أبى بكر السابق « الأئمة من قريش » .. والى أن الصحابة أجمعوا على خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، ولم يكونوا من بنى هاشم .

ثم تقوم آراء أخرى معارضه لهذا الرأى :

فالروافض يقولون : يجب أن يكون من بنى هاشم ، ولا يجب أن يكون من قريش ، لأنهم أنصار لعلى رضى الله عنه .

والمعتزلة عامة يرون : أنه يجب أن يكون تقيا عالما بكتاب الله ، ولا يجب أن يكون من قريش .

والخوارج يرون أنه يجب أن يكون من غير قريش ، ويوجهون رأيهم بأن الامام قد يظلم وقد لا يمتنع عن المعاصى فتقع الحاجة الى عزله . فان كان قرشيا يكون ذا تبع كثير فلا يمكن عزله ، فيؤدى الى فساد العالم . فيجب أن يكون من غير قريش حتى يمكن عزله .

وبعد الخلفاء الأربعة قال : « أبو بكر الأصم » من المعتزلة ،

وبعض الخوارج : انه لا يجب أن يكون هنـاك امام بل يجب على الناس أن يعملوا بكتاب الله تعالى ففيه الكفاية عن الامام .

والـرأى الآن فى ذلك الوقت بين المسلمين فى شأن الامامة :

يجب أن يكون هنـاك امام . ولـكن هل يجب أن يـكون من قريش ؟ أو من بنى هاشم ؟

أو يجب أن لا يكون هنـاك امام اكتفاء بالعمل بكتاب الله ؟

ان اختيار قريش أو بنى هاشم مؤهلا للامانة الكبرى لا يخلق من نزعة قبلية .. وان القـول بالغاء الامامة والاستعاضة عنها بكتاب الله يدل على كراهية للانتماء الى أية قبيلة فى اختيار الامام وكراهة الانتماء الى القبيلة عند اختيـار الامام تدل عـلى البغض الأعمى للعرب ، وللمسلمين جميعا . فرأيهم تصـاحبه الفـوضى فى التطبيـق وتفـكك المسـلمين فى الاتجـاه والتوجيه معا .

وهـذه النزعة القبليـة التى ظهرت بعـد وفاة الرسول عليـه السلام وأسـند أمرهـا فى بعض الأحاديث اليه فى آخر حيـاته : من غير شك بداية لضعف المجتمع الاسلامى ، فى غده ، وسيره فى مراحل التفرق ، والاختلاف بعـد أن اكتمل فى القوة التماسك عنـد فتح مـكة . اذ قـد مضى عليـه منذ نشأته المدة التى يبلغ فيهـا نهاية تطـوره كمجتمـع انسانى فالمجتمعات الانسانية تمر بمراحل التطـور التى يمر بهـا الفرد من الانسان . فاذا بلغت نهاية المرحلة الاخيرة تبتـدىء من جـديد فى النزول . ثم تصعد مرة أخـرى لتصـل الى قمـة التطـور .. وهـكذا .

والمجتمع الاسلامى هو مجتمع انسـانى . على معنى أنه يأخـذ بالقيم ... الانسانيـة العليـا فى السلوك ، والمعاملات والمواقف . وقمة تطوره هو بلوغه فى الأخـذ بهـذه القيم بلوغا يوصـله الى المستوى الرفيـع فى الانسانية . فاذا ابتدأ يضعف أخذ فى التنازل عن بعض هـذه القيم الانسـانية العليا شيئا فشيئا .. حتى يصـل

الى صفة المجتمع المادى وهى صفات الجاهلية . وكلها تدور فى فلك الاقتصاد وتمجيده .

وبعض « الأنصار » كان يرى فى قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى سفيان عندما اشتكى من هلاك قريش فى فتح مكة .

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن ألقى السلاح فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن » .. عاطفة خاصة وميلا خاصا من الرسول عليه السلام نحو عشيرته ورغبة فى قريته وهى مكة .

وقد أجاب الرسول عليه السلام على هذا التصور عند الأنصار بقوله :

« هاجرت الى الله واليكم . فالمحيا محياكم والممات مماتكم » . وبهذا الجواب ضعفت النزعة الى « العشيرة » وهى ولا شك نزعة « عنصرية » . ومع ذلك فاللمحات القبلية أخذت تظهر فى التوجيه ، كما تظهر فى الحديث والمحاورة . وان كان شأنها لم يكن ذا خطر على الأمة اذ ذاك .

وحديث حذيفة رضى الله عنه :

« كان الناس يسألون رسول الله عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن يدركنى ، فقلت يارسول الله : « انا كنا فى جاهلية وشر » أى كان مجتمعنا مجتمع عادات جاهلية وهى العادات التى يغلب عليها استضعاف الضعيف ، وحب المال حبا جما والاستغناء به والطغيان عن طريقه .. وهو مجتمع شر . لأنه يقوم على الأنانية وحب الذات وحدها) فجاءنا الله بهذا الخير (وهو الاسلام . والمجتمع الاسلامى مجتمع انسانى يؤثر الروابط الانسانية بين الأفراد على تلك التى تتصل بالمادة وحدها) .

« فهل بعد هذا الخير من شر ؟ (أى فهل يذهب هذا المجتمع الخير وهو المجتمع الاسلامى بعد فتح مكة ، ويضعف حتى لا ترى فيه الا العادات الجاهلية من جديد وهى التى تمثل الشر فى الانسانية ؟) .

« قال : نعم » (وعلى هذا السؤال يجيب الرسول عليه السلام بأن

المجتمع الاسلامى الذى قام منذ الدعــوة بمكة ، وازدهر وقــوى بالمدينــة ، واشتد أزره وقــوى ساعده عند فتح مكة ، سيضعف وسيزول خيره شيئا فشيئا ، ويحل بدل الخير فيــه : شر هــو الذى يصاحب ظواهر المجتمع المــادى أو الجاهلى . فالمجتمع الاسلامى القــائم عنــد فتــح مكة سيتغير وسيتحول الى المجتمع المقابل له . وهو المجتمع المادى أو الجاهلى) .

« قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال نعم (ويعيد حذيفة نفس السؤال ويجيبه الرسول عليه السلام بنفس الجواب ، مما يدل على أن المجتمع البشرى لا يبقى على وضع واحد . وانما هو يتقلب بين وضعين متقابلين . اما أن يكون مجتمعا انسانيا تسود فيــه القيم الانسانية . وعندئذ يكون مجتمعا اسلاميا وخيرا على البشرية كلها . واما أن يكون مجتمعــا جاهليــا ماديا . وعنــدئذ يكون شرا على البشرية كلها) ..

وتأسيسا على هــذا التحول ، وعلى انه مبدأ اجتماعى اذا اختفت ظاهرة « التفرقة العنصرية » فى المجتمع الاسلامى ، أى فى المجتمع الذى يسود فيــه الاسلام والقيم الانسانية العليا فانها حتما ستظهر ، وربما ستكون فى ظهورها قوية فى المجتمع المادى أو الجاهلى ، اذا آل اليه المجتمع الاسلامى أو الانسانى يوما ما و « التفــرقة العنصرية » اذن ظاهرة اجتماعية تسود المجتمع المــادى ، وتختفى أو تكبت فى المجتمع الانســانى أو الاسلامى . وهى من الظواهر الواضحة التى يعرف بها اتجاه المجتمع البشرى : ان كان نحــو المادية .. أو نحــو الانسانية .

واذا كان المجتمع الاسلامى على عهد الرسول محمد عليه السلام هو مرآة صدق لمبادىء الاسلام ، ولتطبيق هذه المبادىء فانه يشك كثيرا فيما ينقله الرواة عن ملامح « القبلية » أو « العشيرية » .. مما يتصــل بالتفــرقة العنصرية ، منسوبا الى الرسول ذاته أو الى

بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم .

ولكن بعد وفاته عليه السلام لا يستبعد ظهور اشارات تشير الى ما كان عليه العصر الجاهلى من أمارات .. ومن أهم أماراته « التفرقة العنصرية » فالتفرقة العنصرية ظاهرة المجتمعات المادية أو الجاهلية دائما ، والمجتمعات الأوربية المعاصرة — مسيحية أو غير مسيحية — وهى مجتمعات « البيض » تحاول فقط أن تخفى « العنصرية » كأسلوب فى الحياة العامة . ولكن أساس نظرة البيض أو الشعوب الأوربية الى الملونين أو الشعوب الافريقية والآسيوية ، هو نظرة عدم المساواة فى الخصائص الانسانية وبالأخص العقلية منها . وربما كان استعمار « البيض » للملونين فى أفريقية وآسيا فى القرن التاسع عشر فترات طويلة ، سببا فى تقدير هؤلاء الملونين تقديرا لا يرقى الى مستواهم هم .

فالبيض يعتبرون « الملونين » متخلفين ، ليس فى العلم ولا فى الصناعة فقط وانما مع ذلك فى الطاقات البشرية ، والقدرة على الانجاز ، وحل المشاكل والخبرة فى شئون الحياة .

وكثير من الكتاب الأوربيين ملأوا العالم بصيحاتهم فى القرن التاسع عشر عن « ميزات العقل الآرى » .. ويرون أنه — دون غيره صانع الحضارات البشرية والتاريخ الانسانى .

فمن هؤلاء الكتاب Gobineau يؤكد فى كتابه : محاولة توضيح عدم المساواة بين الأجناس البشرية «فى سنة ١٨٥٣ » : أهمية العناصر العقلية فى علم الأجناس ويشير الى استخدام التاريخ العالمى . ويذكر أن سقوط الشعوب الكبيرة كان بسبب الاختلاط بين الأجناس التى منها حملة المدنية كالعنصر الآرى .

وهو كاتب فرنسى عاش ما بين ١٨١٦ ــ ١٨٨٢ وله غير ما سبق من كتاب : « بيان القيم الذاتيــة للأنسان الآرى » .. وكتــاب : « عدم التساوى بين الناس » وله تأثيره على « نيتشه » الفيلسوف الألمانى ، و « فاجنر » الموسيقى الألمــانى الــكبير وكــذلك على Chamberlain الكاتب الأنجليزى وصاحب كتاب « القرن التــاسع عشر فى أهميــة العقــل الآرى (١) فى تاريخ المدنية » .. وقــد عاش هــذا الكاتب ما بين ١٨٥٥ ــ ١٩٢٧ .

وفى بداية نشأة علم الأجنــاس كانت تحدد « العنصرية » بأنهــا اعتقــاد بأن الأجنــاس البشرية بفطرتها تحدد حضارتها . وتنطوى هذه الحضارة عادة على فكرة : أن جنسا خاصا يتميز على غيره ، وأن الحق فى أن يحكم الآخرين .

كما كان البعض الآخر يحــدد « العنصرية » فى علم الأجنــاس البشرية بمجموعة كبيرة من الناس يرتبط بعضــها ببعض عن طــريق رباط مشترك عام من خصائص : جسمية وعقلية .. وتنفصــل عن غيرهــا من المجمــوعات ، وتتميز عنها بهذه الخصائص كذلك .

وكانوا يذكرون من عــــلامات الجنس / طول الجسم ــ وصورة الوجه ــ وشكل الرأس ــ ولون العينين ــ ولون البشرة ــ ولون الشعر ــ وفروق الدم .

Blumanback فى القرن التــــاسع عشر كــان يحـــدد العنصريات :

بالعنصر القوقازى ،

والعنصر المونجولى ،

والعنصر الماليزى ،

والعنصر الهندى ،

بينما Cuvier وهو عالم فرنسى فى وراثة الحيوان ، وعاش مــا بين ١٧٦٩ ــ ١٨٣٢ ــ كان يحــددها :

(١) والآرى هــو الشريف أو السيد وفق نظر Gobineau والجــــــرمانى الشمالى : الالمانى أو صاحب القرابة مع ــه فى الدم من الاوربيين .

بالبيض ،
والصفر ،
والسود ،

وتخصص الأوربيين فى « علم الأجناس » وكتاباتهم الواسعة فى « العنصريات » تعطى اهتمامهم الكبير بما يميزون به أنفسهم كصانعى « الحضارة الانسانية » .. وحملتها بالتالى تعطى ما يريدون أن يقولوه للآخرين غيرهم من البشر وهو : أن على هؤلاء أن يلقوا بزمام القيادة اليهم فى طوع ، حتى لا تنطفىء شعلة الحضارة الانسانية .

والتفرقة العنصرية كاتجاه رسمى اليوم فى جنوب افريقيا ، وفى روديسيا ، هى قائمة فى واقع الأمر فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى الاتحاد السوفيتى الذى يزعم « العالمية » فى سياسته فحكام القوقاز وأوكرانيا مثلا لا بد أن يكونوا من « الروس البيض » .

***

بعد الخلفاء الراشدين :

وليس من الغريب بعد عصور الخلفاء الراشدين : أن يظهر فى الأمة الاسلامية : « اتجاه العنصرية » فى الحكم ، كمؤشر لسيادة الاتجاه المادى فى المجتمع الاسلامى واحلاله محل القيم الانسانية التى كانت سائدة على عهد الرسول عليه السلام ، وفى فترات على عهد الخلفاء الراشدين بعده .

ليس من الغريب أن يظهر اتجاه الفرس فى تمجيد حضارتهم وتاريخهم ، فى مواجهة العرب والأجناس الأخرى .

ولا يفسر ظهور هذا الاتجاه بأن دعوة الاسلام من الأصل بقيت على هامش حياة المسلمين ، دون أن تصل الى العمق فى نفوسهم ، كما يدعى بعض المستشرقين والناقلين عنهم فيما كتبوه فيما يسمى : « الفتنة الكبرى » ..

وانما التفسير السليم : أن الدعوة الاسلامية بعد أن وصلت الى العمق فى نفوس المسلمين على عهد الرسول عليه السلام . أخذ المجتمع الأسلامى يتحول بعد

وفاته من مستوى القمة فى تطبيق القيم الانســانية .. الى مجتمــع يميل رويدا الى أوضاع المجتمــع المادى ، فظهرت العصبية أو بمــا يسمى بالتفــرقة العنصرية كأمارة من أمارات هذا المجتمع المادى .

وهــذا التحــول سنة طبيعيــة اجتماعيـــة اذا ضعف الــرباط الانسانى الذى قام عليه وتماسك على الأخذ بقيمــه ، وهــو ذلك الرباط الذى يتمثــل فى مبــادىء الاسلام وتوجيهه .

وكما أن الخير والشر موجودان فى عالم الانسان ، فكذلك الاسلام والتفرقة العنصرية موجــودان فى عالمه أيضا . ولكن السؤال الذى يسأل بعد هذا الوجود الضرورى لكل من الطرفين هو :

ــ هــل السيادة فى المجتمــع للاسلام والقيم الانسانية ، التى تغطى على الأمارات المادية ، ومنها التفرقة العنصرية ؟

ــ أم أن الســيادة للمــادية والجاهليــة التى تبرز التفــرقة العنصرية كظــاهرة رئيســية من ظواهرها .

عندما سأل حذيفة الرسول عليه السلام عن الخــير والاســلام من جانب ، والشر والجاهلية من جانب آخــر ، كان يقصــد السؤال عن امكانية التحول للمجتمع من وضع الى وضع آخر نقيض له .

فعند سيادة الاســلام تختفى « العنصرية » وعنــد ضعفه تبرز « العنصرية » ويكون لها شأن فى التوجيــه .

فرباط الاسلام أعم وأشمل . ولذا يطوى أى رباط آخر مهمــا كان قويا من قبــل ، ويخفيــه فلا تظهر له سمة من سماته . وان ظهر بعضها فلمدة موقوتة وقصيرة .

بينما رباط « العنصرية » أضيق مهما كان عدد مجمــوعته . ولذا يظهر عندما يزول من فوقه ما كان حاجبا له بعمومه وشموله .

الاســلام يعــادى « التفــرقة العنصــرية » . « والتفــرقة العنصرية » صــــنو للمـــادية والجاهليــة .

دكتور محمد البهى

أثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية

للدكتور عمر فروخ

« أثر الرسالة الاسلامية فى الحضارة الانسانية » موضوع جليل مفيد ، ولكنه موضوع واسع جدا . ان الحضارة نمط من أنماط المعيشة الانسانية . وأنماط المعيشة الانسانية كثيرة جدا . وكل هذه الأنماط تمثل حضارات لا يزال معظمها قائما الى اليوم ، فى أقطار العالم التى نسميها متمدينة متقدمة والتى هى متوحشة (كما يقول ابن خلدون : أى بعيدة عن الحضر) متخلفة . وكل حضارة من هذه الحضارات — على اختلاف أنواعها وتعدد أشكالها — تنطوى على وجوه كثيرة من النشاط الانسانى فى الدين واللغة والعلم والفن والأدب ثم فى السياسة والاقتصاد والتعليم والطعام واللباس والسلوك وما الى ذلك . ولأضرب على ذلك مثلا واحدا :

قال لى أستاذى يوسف هل (١٨٧٥ — ١٩٥٠ م) ، رحمه الله : ان لوثر لما وضع أسس الاصلاح الدينى للنصرانية — ما يعرف بالحركة البروستاتينية — كان ، بلا ريب ، يضع أمامه نسخة من القرآن الكريم . ان القرآن الكريم كان قد نقل الى اللغة اللاتينية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد : نقله روبرت أوف تشستر الانكليزى وهو مانوس دالماتا الفرنجى . ولا ريب فى أن هذه النسخة كانت موجودة ومعروفة فى أيام لوثر ، فانها قد نشرت فى سنة ١٥٤٣ م ، قبل وفاة لوثر بثلاث سنوات واذا نحن درسنا خصائص البروستاتينية

من رفض السلطة البابوية والغـــاء الرهبنة واقرار الطلاق بالاضـــافة الى التخلى عن الرموز كالصـــور والصلبان ، وعن الثياب الخاصـــة بالأساقفة والقسس مما كان معروفا فى الديانات الوثنيـــة والمجوســـية واليهودية والنصرانيـــة ، ومما جاء الاسلام بابطاله ، لم تشـــك لحظة فى أن هذه الوجوه من الاصـــلاح قد جاءت من الاسلام ، والا فمن أين يجب أن تكون قد أتت ؟ ثم ان النصرانية التى ما زالت تعادى الاسلام قرونا كثيرة لأسباب مختلفة وتتهم الاسلام بالقسوة من أجـــل الطـــلاق ، عادت تلك النصرانيـــة نفسها ، فى جميع أقطارها ، وفى روما حاضرة الفـــاتيكان نفسها ، الى اجازة الطلاق .

فاذا كان الاصـــلاح الدينى فى أوروبة المســـيحية أثر مـــن آثار الرسالة الاسلامية ، فكم يجب أن يكون اتساع البحث الذى يتناول أثر الاسلام فى القـــارات الخمس وعند جميع الأمم وفى وجوه الحياة كلها ؟ من أجـــل ذلك أحببت أن أقصر بحثى على أثر الاســـلام فى الحركة العلمية وحدها . وكذلك رأيت من المفيد أن أستعرض آراء نفر من المسلمين حاولوا تبيان أثر الاسلام فى العـــلم وفى الحيـــاة الانسانية .

***

أما الاسلام وحثه للمسلمين على العلم فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف فلن أتكلم فيه لأنه ليس من الموضوع المطلوب وكذلك لن أتناول بالكلام تفاصيل المعـــارف فان حديث ذلك يطول . ولكننى سأقف على المعالم التى بدّل بهـــا الاسلام حياة البشر تبديلا لا سبيل الى انكاره أو تجاهله لأنه ظاهر للعيان معروف فى التاريخ .

والعرب كانوا حملة الاسلام يوم جاءتهم الرسالة الاسلامية فانتشروا فى العالم ونشروا فى العالم حضارة لا عهد للعالم بها من قبل . كان العـــرب — من قبـــل — فى شبه جزيرتهم أهل قوة وعصبية ، وكان لهم أدب زاهر وعلم بالفلك والطب وتتبع الأثر باهر ، ولكن ذلك كله لم يخـــرج بهم من جـــزيرتهم ولم

ينشىء لهم فيها حضارة مادية نافعة ، بل حملتهم قوتهم وعصبيتهم على أن يتقاتلوا أو على أن يغزوا بعضهم بعضا . فلما جاء الاسلام جمع شملهم وحزم أمرهم فبدل نفوسهم فخرجوا من شبه جزيرتهم يحملون الاسلام الى الناس والحضارة الى الأمم . ومن أغرب ما نعالج فى تعليل التاريخ — أو فلسفة التاريخ ، اذا شئت — تفسير تلك الظاهرة التاريخية : أمة قليلة العدد والعدد لم تعرف حضارة مادية مستقرة ولا مستبحرة نازلت أمتين ذواتى عدد وعدد وتاريخ طويل فى العلم والفن والحرب فتغلبت عليهما وابدعت حضارة عفت على حضارتيهما . وأعجب من ذلك فى التاريخ : أن الرومان بنوا أمبراطوريتهم فى ألف عام — وكانوا أمة على علم ونظام وقوة فى الحرب وبراعة فى العمران — ثم عصفت بهم ريح البرابرة الجرمان فزال كل أثر للأمبراطورية الرومانية فى أقل من قرن واحد . أما العرب الذين حملوا الاسلام فقد فتحوا من العالم أيضا أوسع من الامبراطورية التى بناها الرومان — فتحوا من كاشغر على حدود الصين الى شواطىء البحر الأخضر أو البحر المحيط المعروف عندنا اليوم بالمحيط الأطلسى أو الأطلانطيكى .

ثم زالت الدولة العربية والخلافة الاسلامية من عالم السياسة ، ولكن بقى الاسلام ولغة الاسلام ونظام الاسلام وحضارة الاسلام وثقافة الاسلام وروح الاسلام فى هذا العالم الفسيح منذ أربعة عشر قرنا . وأعجب من ذلك كله أن أقواما لم يدخلوا فى الاسلام قد تكلموا لغة الاسلام أو تأثروا بلغة الاسلام فى استخدام الحروف العربية واستعمال الألفاظ العربية واتباع النظم الاسلامية . فكيف اتفق هذا الاثر البالغ فى تاريخ الحضارة الانسانية ؟

جاء الاسلام فرأى فى العالم نظما وقوانين غير معقولة ولا محمودة فدعا الى ابطالها فبطل أكثرها بعد زمن قصير أو زمن طويل .

فمن الأمور التى دعا الاسلام الى ابطالها :

ــ الوثنيــة

ــ الرق

ــ العصبية ، أو مـا يسمى فى العصر الحاضر بالعنصرية

ــ ثم الفسق والقمـار والخمر والخنزير وغيرها •

واذا أنا تكلمت على هذه بايجاز فلن أتكلم عليها من الناحية الدينية أو الفقهية ، بل من الناحية العلمية الاجتماعيـة ، من حيث أثرهـا فى الحضارة الانسانية • وسأؤكد أن الدعـوات المستمرة بهـذا الشأن انما كان بأثر الاسلام وأثر الرسالة التى جاء بها الاسلام الى النـاس أجمعين •

ومـع أن نفـرا كثـيرين مـن المسلمين ــ ومن زعمـاء المسلمين أيضا ــ لا يزالون يعمـلون بمـا دعا الاسلام منذ أربعة عشر قرنا الى ابطاله ، فان الاسلام لا يحمل وزر هـؤلاء ، فان من القـواعد التى جاء بها الاسلام قول الله تعالى (١٧ : ١٥ ، سورة الاسراء) : ــ « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومـن ضـل فانما يضـل عليهـا ولا تزر وزارة وزرا أخـرى • وما كنـا معـذبين حتى نبعث رسولا » •

ثم ورد هذا المعنى فى عدد آخر من الآيات الكريمة (٤٦:٦ سورة الانعام ، جـ٣ : ١٨ سورة فاطـر ، ٧:٣٩ سـورة الزمر ، ٥٣ : ٣٨ سورة النجم) •

وكما أن الاسلام قـد دعا الى ابطال المساوىء فانه قد دعا أيضا الى المحـاسن ، فممـا له صـلة بموضوعنا فى اطاره من الحضارة الانسانية :

ــ التوحيـد

ــ الكرامة الانسانية

ــ العـدل

ــ السلم

ــ العـلم

رغب الاسلام فى ابطال الوثنية لانها لاتليق بالعقل الانسانى :

ليس مـن المعقـول ولا مـن الصحيح أن يعبد الانسان الحجر أو الشجر أو التمساح أو الثـور

أو البقر . ولكن أقواما فعلوا ذلك ، ولا يزال عدد من هذه الأقوام يفعل ما كان يفعله أسلافهم الأقدمون . ان الاعتقاد « بالله » فى الاسلام والتعبد له بالقلب واللسان والجوارح (أعضاء البدن) يرجع الى الشعور بأن الله القوى الحكيم القدير هو واهب الوجود ومسير الأمور ومثبت النظام الاجتماعى الذى به عمران العالم وصلاحه .

وليس فى التوحيد خرافات من الصور والرموز ونسبة أعمال الى الله لا تليق به نسبة أعمال الى البشر ليست من خصائصهم ، بل هى راجعة الى الله وحده .

ولما جاءت الرسالة الاسلامية كان العالم غريقا فى الأحوال الوثنية . من أجل ذلك قامت أعمال الاصلاح فى الأديان . وقد كنا أشرنا الى الحركة البروستاتينية فى مطلع هذا المقال . غير أن الحركة البروستاتينية لم تكن الحركة الاصلاحية الوحيدة فى النصرانية وفى اليهودية . ولكن يكفى هنا الى أن نشير الى أن الاسلام هو الذى حث المصلحين النصارى واليهود على العمل فى دياناتهم بالرجوع الى العقل ، والا فكيف يقبل العاقل أن يبيع باباوات رومة بقاعا من السماء للأغنياء فينجوا أولئك الاغنياء — ولو كانوا فى الحياة الدنيا أشرارا — من عذاب الآخرة بينما الصالحون من الفقراء لا يمكن أن يجدوا لهم مكانا فى نعيم الآخرة لأنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا ثمنه بمال كسبوه فى حياتهم الدنيا بطرق شريفة أو بطرق غير شريفة ؟ وكيف يمكن أن يقبل اليهودى العاقل ماجاء فى التوراة الموجودة بأيدى الناس من أن الرب الاله صنع لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما (تكوين : ٣ : ٢٠) . من أجل هذه الآية ومثيلاتها عمد نفر من المفسرين اليهود الى تفسير توراتهم تفسيرا رمزيا . وكان فى ذلك أيضا شىء من الاصلاح الدينى . وكان هذا أيضا من أثر الرسالة الاسلامية .

ولما جاء الاسلام كان الرق فى جميع الأمم معروفا ومألوفا ، عند غير العرب وعند العرب أيضا •

كان الرق فى العالم القديم عند الوثنيين وعند اليهود وفى النصرانية ثم فى البيئة الجرمانيـة المتخلفـة والبيئتين : اليونانية والرومانيـة المتقدمتين نظاما اجتماعيـا مقبولا لا يثير تساؤلا : بعض الناس يولد عبدا وبعضهم يستبعد فى الحـرب أو يشترى من السوق ، وبعضهم يعجز عن وفاء دين عليه فيستعبده الدائن بشرع العـالم القـديم ، وربما افتقر أب فباع بعض أولاده عبيدا أرقاء •

وجاء الاسلام فحرم الاسترقاق ودعـا الى « تحـرير الرقـاب » (تحرير العبيد الأرقاء) ومع انه قد ظل فى المسلمين من يجد وجها من الحيلة فى اتخاذ الرقيق ، فان قيمة الرقيق أصبحت كبيرة ومعاملته أضحت حسنة ومكانته أعلى ممـا ينتظر فى مثل هـذه الأحـوال •

ثم اننا اذا علمنا أن العبيد نالوا فى الاســلام مــراتب سامية ، اذ أصبح كافور الأخشيدى مثــلا ، ملكا فى مصر ثم أصبح المماليـك سلاطين فى الشام ومصر ، أدركنا أن منزلة الأرقاء فى الحياة عنـد المسلمين قد اختلفت كثيرا مما كان يعرف فى غير العالم الاسلامى•ولن أحدثك عن الجـارية التى بيعت بمليون دينار لأن مثل هذه الأنثى ليست جـارية رقيقـة مستعبدة بالمعنى الذى عرفه العـالم القديم والعالم الحديث الى القرن التاسع عشر •

ونشأ فى العالم الغربى حركات لتحـرير العبيـد • سأشـير الى أشـهرها : الحـرب الأهليـة فى الولايات المتحدة • أعلن ابراهيم لنكولن الغاء الرق (عام ١٨٥٩م) فثارت الحـرب الأهليـة ، عام ١٨٦١م ، ودامت خمسة أعـوام انتهت بأنصـار الدعاة الى تحـرير الرقيق • لم يكن ذلك بحافز من التـوراة واليهـودية ولا بدافع من الانجيـل والنصرانيـة • ان الاسترقاق كان قاعدة من قواعـد الحياة المألوفة فى البيئة اليهـودية وفى البيئة المسيحية • فاذا لم يكن

ابراهام لنكولن وأنصاره فى حركة تحرير العبيـد قد تأثروا بالتوراة أو بالانجيـل ــ أى باليهـودية أو بالنصرانيـة ــ فلا بد من أن يكون تأثرهم قد جاء من الاسلام لأن الاسلام هو الذى جاء بالدعوة الى «فك الرقاب» من أسر الرق .

وربما اعترض ناقد فقـال : ان ابراهام لنكولن لا نعلم عنـه انه عرف ذلك من الاسلام ، والمفروض انه جاء بذلك من دافع فى انسانيته ومنطق من عقله . فنحن نقـول حينئذ : وهذا أيضـا من فضـل الاسلام . اذا كان الاسلام قـد جاء قبل أربعة عشر قرنا بقـاعدة بنيت على الدافع الانسانى والمنطق العقلى ثم طبقها رجل عاقل بعـد ثلاثة عشر قرنا ، فمعنى ذلك أن الاسلام لم يضع هـذه القـاعدة لزمـانه ومكانه ، ولكنـه وضعها لكل زمان ومكان : انه وضـعها للانسـان . واذا كانت قواعـد حركة من الحركات تعمل من غير أن يعرف الذين يعملون بها انهـا موجودة ، فتلك فضيلة جـديدة لتلك القاعدة العاقلة الحكيمة .

وكذلك كانت العصبية قاعـدة اجتماعية مألوفة فى البيئات القديمة كلها قبـل الاسـلام . وفى شبه جزيرة العرب أيضا .

كل أمة كانت تنظـر الى نفسها على أنهـا من طينة غير طينة سائر الأمم ، ان أسلافنا قبـل الاسلام قسموا النـاس قسمين : عـربا (يفصحون فيفهمون اذا تكلموا) وعجمـا (لا يفهم العـرب عنهم ما يقـولون) . وكذلك اليهـود قسموا الناس ثلاثة أقسام : دعوا أنفسهم اليهـود العبرانيين (لأنهم من نسـل عبـرانى) ، ودعـوا الداخـلين من غـير نسـلهم فى اليهودية « الصابئين المتهودين » ودعـوا جميـع من هم غير ذلك أميين (أى من أمم غير أمتهم) . واليـونان قسـموا البشر يونانا وبربرا ، والرومان جعلوا النـاس أيضا رومانيين وبربرا ، واذا بلغ أهـل شعب الى أن يصـلوا فى الحضـارة والعـلم الى مستوى الرومان سموهم مواطنين .

ولقد عاش اليهود على هـذه العصـبية الجنسية الى اليـوم ،

وهم يطبقون ذلك اليــوم فيمـا يسمونه اسرائيـل . فاليهـودى الغـربى من الدرجـة الأولى . واليهودى الشرقى من درجة أدنى منها . أما العرب فالله أعلم بحالهم هنالك . وكذلك النصارى عاشوا الى اليـوم على العصبية الجنسية أو العنصرية فى جنوب افريقيـة وفى زيمبباوى روديسيا . ما عهد هتلر منا ببعيد . والسود والبيض فى الولايات المتحدة متساوون فى النصوص المكتوبة فى القوانين ، ولكن الأبيض فى الحياة الاجتماعية العملية فوق الأسود فى كل شىء .

ورأى اليهـود والنصـارى فى الرق يرجع الى قول فى التـوراة الموجودة بأيديهم هو أن الله جعل أولاد حام الكنعايين عبيدا لأولاد سام ، زعمـوا أن نوحـا غضب على ابنه فدعا عليه بأن يجعل الله أولاده عبيدا . وكان من أثر دعوة نوح على ابنه حام أن أصبح أولاد حام أيضـا سود البشرة . هـذه الخرافة جعلت نفرا من علماء العرب منهم الجاحظ ومنهم ابن خلدون يتهكمون بهذه البدائيـة القاصرة والدالة على جهل واضعها بالغفلة عن أثر المناخ وعوامل الطبيعة من حر وبرد فى ألوان البشر .

أما الاسلام فلم ينظر الى البشر مـن حيث لونهم أو مـن حيث نسبهم أو من حيث قطرهم بل من حيث قيمتهم الذاتيـة ومن حيث عملهم . ففى القـرآن الكريم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعـارفوا . ان أكرمكم عنـد الله أتقاكم . ان الله عليم خبير » . (٤٩ : ١٣ سورة الحجـرات) :

وأما فى الحـديث فالكلام فى ذلك متسع جدا . من ذلك مثـلا قوله صـلى الله عليـه وسلم : « ليس منا من دعا الى عصبية » . والاسلام لم يجعل تلك القـواعد نظـريات ، بل سلكها فى الحيـاة فنحن نجد فى كرام صحابة رسول الله طلحة العربى وسلمان الفارسى وصهيبا الرومى وبلالا الحبشى . ونجد فى القادة العظام عمرو بن العاص العربى والافقشنى والتركى وعبد الله بن طاهر الفارسى وصلاح

الدين الكردى والظاهر بيبرس الجركسى . وفى الملوك العظام نجد المأمون وأمه فارسية ثم المعتصم وأمه تركية كما نجد قبلها عبد الرحمن الداخل وكانت أمه بربرية ثم جاء بعده الخليفة الحكم المستنصر وكانت أمه بشكنسية (من أهل الشمال من الأندلس) .

فالاسلام هو الذى ساعد على بناء حضارة واسعة شاملة تستفيد من جميع جهود بنى الانسان أو من جهود جميع بنى الاسلام .

قامت الحضارة التى أرسى الاسلام قواعدها على أربعة مدارك : على الكرامة الانسانية وعلى العدل وعلى السلم وعلى العلم وعلى العمل .

١ ـ فى الكرامة الانسانية :

ان الاسلام لم يعرف الطبقات الاجتماعية ، أو هو عرفها عند الأمم الأجنبية ثم دعا الى هجرها :

ـ ان اليهودية اعتقدت أن شعوبا هى فى العبيد الأرقاء منذ الولادة ومن الجنس أيضا . وأما النصرانية فانها تعتقد أن الانسان يولد نجسا مذنبا لما لحقه من الخطيئة المميتة ـ خطيئة آدم ، فيما زعموا ، لما اتصل بحواء ـ ثم هم يعتقدون أن المسيح جاء ليحمل عن البشر خطيئاتهم . وأما المجوس فى الهند فلا يزالون الى اليوم يعتقدون أن البشر طبقات فى أسفلها المنبوذون ، فاذا مس أحد هؤلاء المنبوذين هنديا ممن يعتقدون فى أنفسهم الشرف لتحدُّرهم من البراهمة أو من الفرسان والطهارة ، وجب على هذا المعتقد شرف نفسه أن يقتل ذلك المنبوذ ، ثم يتطهر مما كان قد علق به من الدنس لما مسه أخوه فى الدين والوطن .

أما الاسلام فأعلن أن الانسان يولد على الفطرة الزكية الطاهرة . ثم الانسان يولد كريما مستحقا للاحترام . ففى القرآن الكريم فى هذا النطاق قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(سورة الاسراء ١٧ : ٧٠).

لا يستطيع أحـد أن ينكر أن العصبية أو مـا يسمى فى أيامنـا « التمييز العنصرى » سبب مـن الأسـباب المسـئولة عن الحيـاة الانسـانية المضـطربة فى الشرق والغرب ، كما لا يستطيع أن ينكر أن هذا الاضـطراب مسؤول عن بقاء جانب كثير من العالم الانسانى فى حال من التخـلف المعيب • ان النظرة الانسانية الشاملة التى جاء بها الاسلام ساعدت على استقرار الأمن • وفى ظل الأمن وحده ترقى الحضـارة ، ولا يمكن أن تنشـأ حضارة ــ كما لا يمكن أن تستمر حضارة اذا كانت قـد نشأت من قبل ــ الا اذا كان فى البلاد أمن • وأهـل لبنـان اليوم ، والذين يزورون لبنان اليوم ، وكانوا قـد زاروه من قبل ، يدركون قيمـة الامن فى نشـأة الحضـارات وفى حياتها • ان الحياة اليوم فى لبنان تتقهقـر نحو البـداوة باضطراب الأمن فيه • والمسلمون فى لبنـان وفى كثـير من البـلاد العربيـة ، مسؤولون عما يجرى فى لبنـان ويخشى أن يحدث فى غير لبنـان ما يحدث فى لبنان • وسبب ذلك أن جانبا كبيرا من العرب قد نسى أنه جـزء من الأمة الاسـلامية ، فالنزاع دائر فى البلاد ، فى المشرق والمغرب ، وفى قلب عدد من البلاد نفسها • أن الذى جمعه الاسلام بالتوحيد وبالاعتصام بحبل الله قد فرقه انتساب جماعات من العرب الى آراء سياسـية واجتمـاعية واقتصـادية ليست من الاسـلام ولا من العقـل ولا من السياسة ولا مـن الاجتمـاع ولا مـن الاقتصاد •

هـذا يدخـل فى باب الكرامة الانسانية التى جاء بها الاسلام • والعرب الذين يعمـلون بدوافع عصبية قد نسوا هذه القاعدة التى تقوم عليها الـكرامة الانسانية ، أو تقوم عليها الحياة الانسانية • أن زعماء الأحزاب اليوم ــ فى كل مكان فى الشرق وفى الغـرب ــ يصدرون عن أن قومهم هم الذين ينتسبون الى حزبهم ، ولو كانوا لهم من قبل أعداء • هـذا موضـوع طويل أخشى أن ينقل البحث فيه من العـلم المنطقى الى السياسات

المحلية • من أجل ذلك سأنتقل الى قاعدة تالية من قواعد الاسلام فى بناء الحضارة الانسانية •

٢ — العدل :

العدل الاسلامى هو العنصر الثانى الذى نشأت به الحضارة فى بلاد الاسلام وفى البلاد التى حكمها الاسلام • هذا العدل الاسلامى مختلف مما يسمى « عدلا » فى كثير من البلاد الاجنبية وفى البلاد الاسلامية نفسها • أن عددا من الشعوب وعددا من الجماعات يعتقدون أن العدل يجب أن يكون القريب والنسيب والحبيب • ان هذا العدل تجارة • أما العدل الاسلامى فانه مبذول لجميع الناس من صديق أو عدو ومن قريب أو غريب ، ذلك لأن العدل يدل على القيمة الذاتية فى نفس العادل عينه ، تلك القيمة التى تمكنه من أن يسير فى الحياة سيرا صحيحا صالحا نافعا • وان الاعتقاد بأنك أنت وحدك على حق وأن كل انسان آخر مخطىء يدل على نقص فيك أنت ثم يمنعك من أن ترى الأمور كما هى •

لقد علمنا الاسلام هذا العدل فى آيات كثيرة من آى القرآن الكريم قال الله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(سورة النساء ٤ : ٥٨) • ان الله سبحانه وتعالى لم يقل « واذا حكمتم بين المسلمين » ولا « واذا حكمتم بين الأقربين » ، بل قال عز من قائل : « واذا حكمتم بين الناس » ، أى بين كل فريقين من الناس • وهذا التفسير واضح من الآية الكريمة التالية •

« يأأيها الذين آمنوا ، كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط • ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا • اعدلوا ، هو أقرب للتقوى • واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » •

(٥ : ٨ سورة المائدة)

فى هذا المدرك للعدل الانسانى لا أريد أن أناقش الموضوع من ناحيته النظرية ، بل من جانبه

العملى ، ان قصـــة اسرائيـــل مع العالم العربى خاصة ومع العـــالم الاسلامى عامة معروفة . ولعـــل خطأنا الأول فيما وصلنا اليه أننا لم نكن عادلين فى النظر الى أنفسنا نحن . نحن كنـــا نسميها « دولة مزعومة » ثم نخفى الحقائق المتعلقة بنا وبها عن أعيننـــا وأعين الذين ولاّنا الله أمرهم وجعلنا مسئولين لديه عنهم . ولم نكتف بكتمـــان أخبارها ، بل كنا دائما نصغر من شأنها ونهون من أمرهـــا ونغمض بأيدينا عيوننا وعيون قومنـــا عن شرهـــا . وبين ليـــلة وضـــحاها أصبحت هى حيث هى وأصـــبحنا نحن حيث نحن .

بلغت الحضارة الاسلامية ذروة من ذرواتها فى أيام الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، وهو معروف فى تاريخنا بأنه « الامام العادل » . وفى أيام عمر بن عبد العزيز كان المسلم يحمل زكاته فى كفّه ويطوف بها بلاد الدولة الاسلامية فلا يرى من يستحق أخـــذها لأن الازدهار الاقتصادى كان عاما . لقـــد كان ذلك فى أيام عمر بن عبـــد العزيز لأنه كان عادلا فى قومه وعادلا فى غير قومه . ومما يجب علينا نحن اليوم أن تتعلمه فى الحياة السياسية سلوك عمر بن عبد العزيز .

كان بنو أمية قد أخذوا الخلافة من بنى هاشم فى حـــديث طويل يعرفه المسلمون وغير المسلمين . وكان الخلفاء الأولون من بنى أمية ضيقى الأفـــق فى هـــذا الشأن : كانوا فى خطبـــة صـــلاة الجمعـــة يسبون بنى هاشم (والسبب هنا كلام فى الآراء السياسية ـــ ممـــا نعرفه اليوم من الأخذ والرد بين الأحزاب السياسية : بين الرأسمالية والاشتراكية ، بين الديمقراطيـــة والاستبداد ومـــا أشبه ذلك) . فلما جاء عمر بن عبد العزيز نظـــر الى الخلافة بعين العقـــل والحق ، ولم يرض أن تكون المنابر أماكن للسب والشتم ، ولا رأى من العقل أن يغمض الناس عيونهم عن حقائق الحياة ، فأمر بابطال اللعن ـــ أو السب أو الشتم ، وكلهـــا هنـــا بمعنى ـــ وبأن يقرأ الخطباء بعـــد

الخطبة الأولى فى صلاة الجمعة قوله تعالى

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

(سورة الاسراء : ١٦ : ٩٠) .

وليس مستغربا أن يقال فى الحكم السائرة والقواعد الدائرة على الألسن : « العدل أساس الملك » . ان العدل أساس الحياة . ولولا العدل ــ وضع الأمور مواضعها وأداء الأمانات الى أهلها ــ أو كما يقال فى اللغة السياسية الحاضرة : وضع الرجل الكفء فى المكان المناسب لفسدت الحضارة وانقلب البشر كلهم الى همجية مطلقة .

هذه القاعدة الحكيمة التى جاء بها الاسلام أقرت الحضارات فى العالم كله وحينما يذهب أحدنا الى البلاد التى نسميها متقدمة فاننا نجد هذا العدل الذى تعلموه ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، من الاسلام . ودليل ذلك ــ فى الأعم الأغلب ــ أنك اذا تقدمت بطلب ما فى تلك البلاد ، فان هذا الطلب ينتقل فى الدوائر من تلقاء نفسه ، بقطع النظر عن صاحب الطلب ومكانته .

نحن نعلم أيضا أنه قد يحدث فى البلاد الغربية الراقية شذوذ عن تلك القاعدة من العدل ، ولكن العدل فى ذلك ــ أى سير المعاملات الحكومية من تلقاء نفسها ــ ولكن هذا الشاذ هناك هو ، مع الأسف القاعدة عندنا .

٣ ــ السلم :

والسلم أيضا من أسس الحضارة . ولا شك فى أن الأمم كلها منذ أقدم الأزمنة قد تقلبت فى الحرب والسلم ، ولكن العالم لم يعرف دينا قبل الاسلام وضع للحرب وللسلم قواعد انسانية . والاسلام وحده هو الذى عرف السلم المسلح : وهو الاستعداد للحرب الذى يرهب الخصوم فلا يثيروا على الناس حروب اعتداء . هذه السياسة التى يقال انها جديدة فى عالمنا قد جاءت مع الاسلام .

ففى مكان واحـد من القـرآن الـكريم ، فى سـورة الأنفـال (٨ : ٥٦ ــ ٦٢) بسط لفلسـفة الحـرب والسـلم ولسياسـتهما ثم للعنصر الانسانى الذى جاء به الاسلام . ويحسن هنا أن نورد الآيات الخمس ففيها الحلف ونقض الحلف واعلان الحرب وعقد السلم وخيانة العدو ومطاولته فى خيانتـه الى جانب التـلويح بالسلم قبـل الدخول فيه . كل هـذا من علم السياسة الدوليـة ومـن أسس السياسة التى تناجز الدول القوية بهـا أرباب الدول المستضعفة . هـذه السياسة الحكيمة أخـذها الأغيار من الاسلام ثم أهملنا نحن العمل بها . قال الله تعالى :

« الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ، فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ، واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سـواء ، ان الله لا يحب الخائنين ، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، انهم لا يعجزون ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ترهبـون به عـدو الله وعـدوكم وآخـرين مـن دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمـون ، وان جنحوا للسلم فاجنح لهـا وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم . وان يريـدوا أن يخـدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

ثم تأتى ثلاث عشرة آية ، الى آخر سورة الانفال ، فيها قـواعد تتعـلق بالمسلمين مما يمكن أن يسمى فى أيامنـا بأمن الجبهـة الداخلية . ولكنى أكتفيت هنـا بايراد الآيـات الخمس المذكـورة فقط . ان هـذه الآيـات الخمس تضع لنا القواعد التى تمكننا ــ اذا نحن فهمناها وعملنا بها ــ من أن نسـاوى بها خصـومنا فى الشرق والغرب وفى قلب العالم الاسلامى أيضا . ومن عجب أن خصـومنا اليهـود والنصـارى والمجـوس والملحدين يستمعون الى القـرآن الـذى نزل الينـا وينصتون لـه

ويفهمـــونه ويدركون جـــواهره ثم يطبقونه ، فيما يتعلق بمصالحهم .. علينا بينمـــا نحن ، وأقصـــد كبـــراءنا من القـــراء للقـــرآن فى المجالس العامة ومن غيرهم أيضـــا قد علموا عوام ناسنا أن يصيحوا عقب كل آية يرفع قارؤهم بهـــا صوته بأصوات يصيحون بمثلها اذا هم استمعوا الى مغنية من المغنيات أو الى مشنـــعبذ من المغنـــين . فعلى الذين حمـــلوا القـــرآن أن يدركوا أنهم حملوا القرآن نعمـــة من الله عليهم ورسالة الى النـــاس لا تجـــارة بآيات الله . وما أحسن ذلك القارىء الذى يرتل القـــرآن الكريم على مهل فتصغى الى قراءته الآذان وتخشع لها القلوب وتنتفع بها الأفهام .

٤ ــ العلـــم :

والعـــلم من دعائم الحضـــارة ثم هو زينة لها أيضـــا . لما ظهـــر الاسلام وجاء بالعلم ورفع مكانة العلماء ، كانت أوروبة كلها والعالم المعروف يومذاك فى ظـــلام دامس من الجهل والتخلف . وبعد قرنين من الزمن كانت اللغـــة العربيـــة والأدب العربى والدولة الاسلامية ، كما كان العلم فى الاســـلام والفن والصناعة والتجارة والبنـــاء وكل ما يمت الى الحضارة بسبب قريب أو بعيد فى الذروة . وقـــد كانت أوروبة فى ذلك الحين ومن قبله ومن بعـــده فى العصـــور التى سماها المؤرخـــون الاوروبيـــون أنفسهم « العصـــور المظلمة » . ومن أول دلائل الحياة الثقافية فى أوروبة أن الامبراطـــور شارلمان الذى توفى عام ٨١٤ للميـــلاد ــ سنة ٢٠٠ للهجرة ــ كان قد أنشأ فى قصره مدرسة لتعليم أبناء الأمراء مبادىء القراءة والكتابة .

وظلت أوروبة عـــلى مثـــل ذلك حتى جاءت الحروب الصليبية ولم يكن لهؤلاء الصليبيين الاوروبيين ، من فرنجة وايطاليين وألمان وانكليز ــ ولا تتكلم على الدنمرك وأسوج ونروج وعلى الصقالبة الروس فى شرقى أوروبة ــ الا فضيلة القوة البدنية فى القتال ، كما قال أسامة ابن منقذ .

وانتهت غارات الافـرنج على العـالم الاسلامى ــ أو الحروب الصليبية ، كما يسميها المؤرخـون الغربيون بانتصارين للاسـلام : بانتصار عسكرى فى ميادين القتال ثم بانتصار ثقافى فى ميدان الحياة الانسانية • لقـد رجع هـؤلاء الفرنجة من ميادين القتال بثروات ثقافية وحضارية لا تقـدر بثمن • أخـذوا تلك الاشـياء الثقافيـة والحضـارية بأسمائها : فهم كلهم ــ فى جميع لغاتهم ــ يقولون : سـكر ، الجبر ، صـوفا (من العربية : صفة) ، داماسك (من لفظة : دمشق لنوع من النسيج) ، شراب (ويلفظونه : سيروب ، لأن اللغـة اللاتينيـة التى استعارت الألفاظ من المسلمين لم يكن فيها شين » ، ليمون (ليمـون) ، الغول (لنجم معروف) ، كيمياء ، (ويقـولون الشيمى ، الكمى ، شيمى ، كمستـرى) ومئـات أخرى من الكلمات التى أخـذوها لما أخذوا العلوم والأدوات المسماة بها ، كما أخذنا نحن منهـم فى عصرنا الحاضر : تلفون ، راديو ، تيلون ، وأخذنا معها الأسماء التى كانوا هم قد سموها بها •

أما حديث العلم عامة فسنقتصر منه على جمل فيهـا مقـارنة بين المـدرك القـديم فيها والمـدرك الاسلامى الجديد ، وسنقتصر على الاشارة ، لأن كل فرع من فروع العلم يحتاج الى كتاب :

ــ كان اليونان ــ وهم أهـل العلم فى زمانهم ــ كما كانت الأمم الأخـرى ــ يعتقـدون كلهم أن النجوم تعرف الغيب فيلجأ أولئك الناس اليها فى استطلاع الغيب ، وكان اليونان خاصة يعتقدون أن للنجـوم نفوسـا وأرواحـا وأن النجوم الكبرى ، وهى التى تدل عنـدهم عـلى الغيب ، مسـاكن للآلهـة •

وجاء الاسلام فحرم التنجيم ، اذ لا يعلم الغيب الا الله • ثم جاء فى القرآن الكريم ان هذه النجوم أجسام مسـيرة تدل على السنين والشـهور وتنتقل فى أفلاكهـا بحسبان مقـدر ، كل ذلك لنتعلم منهـا عـدد السنين والحساب •

فأنشأ المسلمون المراصد وقاموا بالارصاد ونظموا الجداول .

وأخذ الغربيون ذلك كله من المسلمين وأضافوه الى ثقافتهم وخدموا به الحضارة ، كما كان أسلافنا قد خدموا الحضارة .

ولم يكن للاثنين رموز يدونون بها الارقام ، بل كانوا يكتبون الارقام كتابة أو يرمزون اليها بخطوط أو بأحرف . وكل ذلك لم يكن يساعد على تطور العلوم الرياضية ، فلا يساعد على تدوين الاعداد الكبيرة ولا يمكن من بناء المعادلات .

ولما جاء الاسلام جمع عبقريات الأمم ووضع قاعدة للثقافة والحضارة فى القول المأثور : الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها . ووجد محمد بن موسى الخوارزمى عند الهنود رموزا للأرقام مختلفة من الرموز للأحرف . ولكن الهنود لم يكونوا يستخدمون هذه الرموز فى تدوين الأعداد ولا فى حل المسائل . ومع أن الهنود كانوا مجوسا فان محمد ابن موسى الخوارزمى لم يتحوب من أن يأخذ عنهم وجها من وجوه العلم ، ما دام الاسلام قد قال بأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها . وبفضل الخوارزمى الذى تناول الأرقام من الهنود وطورها واستخدمها فى الوجوه التى نستخدمها نحن فيها الآن أصبح بمقدورنا أن ندون الأعداد الكبيرة وان نبنى المعادلات الطوال ونحل المسائل المعقدة . ولم ينس العالم فضلنا فى ذلك ، كما لم ننس نحن فضل الهنود فيه . نحن نسمى هذه الارقام « الأرقام الهندية » لأننا تناولناها من الهنود . والعالم الغربى يسميها الأرقام العربية لأنها تعلم استخدامها منا .

وللاسلام فضل آخر فى هذا السبيل ، كما كان لذلك القول المأثور « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها » نفع آخر .

لما فتح المسلمون أعينهم على العالم الخارجى وجدوا عند الأمم القديمة كتبا فى كثير من أبواب العلم فأحبوا أن ينقلوا هذه الكتب الى اللغة العربية ، مع أن هذه

الكتب كان قد وضعهـا وثنيـون ومجوس ونصـارى . ولم يكن المسلمون أيضا يعرفون اللغـات القـديمة من يونانيـة وهنـدية وسريانية فيستطيعوا قـراءة تلك الكتب .

فلجأوا الى نفر كانوا يعرفون هذه اللغات . ولقد اتفق أن يكون أولئك كلهم من المجوس أو الصابئة أو النصارى أو اليهود . فاستعان العـرب المسلمون بأولئـك النفر لينقلوا ذخائر العلم القـديم الى لغة القرآن ، فان العلم نعمة من الله . فاذا أراد انسان ان يسيء الى تلك النعمة فانما يسيء بذلك الى نفسه . ولا يكون لهذه الاساءة أثر فى تلك النعمـة . لقـد تعلم المسلمون ذلك من رسول الله . لقد كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قد أمر نفرا من أصحابه أن يتعلموا العبرية لأن من تعلم لغة قوم أمن مكرهم .

وبعـد أمد طـويل استفاقت أوروبة من سباتها ثم احتـاجت الى العلوم القـديمة ، وقـد كان كثـير من كتب تلك العلوم قـد ضاع بعوامل الزمن المختلفـة . فالتفت الاوروبيون الى الـكتب التى كان العرب قـد نقلوها عن القـدماء فنقلوها هم الى لغـاتهم فاستمر موكب الحضارة الانسانية فى سيره من الامم الموغلة فى القدم الى اليـونان الى المسـلمين فالى النصارى من أهل أوروبة .

والاسلام علّم المسلمين الحرية فى التفكير . وليس معنى الحـرية هنا الانعتاق من قيود العقل أو من قيود الخلق . ولكن الحـرية فى التفـكير هنـا استقلال المفكر فى اتجاهه المنطقى وفى القيـاس على الاحـوال المحيطـة به فى مكانه وزمانه والمثـل المشـهور فى ذلك هو مسألة تأبير النخل .

جاء نفر الى رسول الله وسألوه أيؤبرون نخـلهم أو لا يؤبرونه ؟ فقال لهم لا تؤبروه ، اعتمادا على أن الله هـو الذى يرسـل الرياح التى تحمل اللقـاح من شـجرة النخيل الذكر الى شـجرة النخيل الأنثى . وترك أولئـك النفر فى ذلك العام تأبير نخلهم ــ أى نقل

اللقاح بأيديهم من الشجرة الذكر الى الشجرة الأنثى ـ فلم يعط نخلهم فى ذلك العام كما كان يعطى فى الاعوام السابقة . كان فى ذلك العام عندهم فى عذق النخل حبات يانعة وحبات غير يانعة . ورجعوا الى الرسول فيما اتفق لهم . فقال لهم : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

نحن لا نؤبّر التفاح ولا الليمون ولا التين فالنحل والريح يتوليان ذلك عنا ولكن للنخل حالات خاصة يحسن معها نقل غبار اللقاح من شجرة الى شجرة باليد وكان قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يتناول القاعدة العامة . فلما وجد الرسول أن بعض النخل الذى لم يؤبر لم يؤت أكله تاما قال للناس من أصحاب الاختصاص فى الزراعة : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

ان هذا الحادث اليسير يكشف لنا عن اتجاه فى العلم لم يكن معروفا من قبل . ان معرفة اللقاح بين النبات تعلمه البشر من القرآن من قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » (١٥ : ٢٢ ، سورة الحجر) .. ذلك لأن اليونان لم يعرفوا ذلك . واذا كان أحد العلماء القدماء قد خطر له ذلك ، فانه لم يترك أثرا فى الثقافة الانسانية وذلك راجع الى أن أرسطو وهو كبير المفكرين فى الفلسفة القديمة وأعظم المفكرين أثرا فى تاريخ العلم القديم ، قد أنكر أن يكون فى النبات ذكورة وأنوثة . فالذين قالوا بلقاح النبات تعلموا من الاسلام ولم يعرفوه من مصدر آخر .

وفى علم الحياة أمر آخر عرفه العالم من الاسلام ، هو تخلق الجنين فى الرحم . قال الله تعالى

« خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك ، لا اله الا هو . فانى تصرفون » .

(٣٩ : ٦ ، سورة الزمر) :

هذا أيضا شىء تعلمناه نحن من القرآن الكريم ثم تعلمه منا سائر

النـــاس لأنه لم يعـــرف حتى ذلك الحين الا من القــرآن الكريم . أن هذا الجنـــين الذى يتقلب فى الرحم خلقــا من بعــد خلق انه جنين حى يتطور فيمر فى أطـــوار ثلاثة . تلك حقيقة من حقــائق علم الحياة لم يكن من الممكن أن يعرفها البشر ــ فى ذلك الحين ــ الا من الوحى الالهى الذى جاء بالرسالة الاسلامية . ودليلنا على ذلك أن اخوان الصفا وهم جماعة سرية نشأوا فى البصرة فى القــرن الرابع للهجرة (العاشر للميــلاد) أرادوا أن يقيموا للبشر كلهم دينا على الفــكر والاخــلاق ، فألفوا رسائل تطبع اليوم فى أربعة أجزاء كبار جمعوا فيها ما كان معروفا فى أيامهم مــن المعــارف العلميــة والفلسفية ، وأكثر اهتمــامهم ، كمــا كانوا يقولون ، كان بالعلم اليــونانى . ان اخــوان الصــفا يذكرون فى رسائلهم (٢ : ٣٥٧ ــ ٣٥٩) : وفى الشهر الثالث (لحمل الجنين) يصبح التدبير (التأثير على الجنين) للمريخ . فاذا كمل الشهــر الثالث ، انتقــل الجنيــن (فى الشــهر الــرابع) الى تدبير الشمس ــ وهى رئيسة الكواكب وملكة الفلك وقلب العالم فتنفخ (فى الجنين) روح الحياة وتسرى فيه النفس الحيوانية) . ومعنى هذا عندهم أن النطفة حينما تستقر فى الرحم تكون ميتة لاحياة فيها ، ولا تبدأ الحياة فى الجنين الا فى الشهر الرابع . ومن هنا جاءت الخرافة الدائرة بين النساء من أن الجنين « يتحرك » فى الشــهر الرابع . والحقيقة أن الجنين يتحرك منــذ أول الحمل (لأنــه كائن حى) ، ولكن حركته تكون آنذاك خفيفة لا تشعر بها المرأة الحامل . وبما ان رسائل اخوان الصفا قد جمعت المعارف العلمية عند اليونان وعند غير اليونان فمعنى ذلك أن الامم القديمة لم تكن تعــلم أن الجنين يكون حيا منذ اللحظــة الاولى لسقوط النطفــة فى الرحم . ولو عرفت الامم القديمة ذلك لذكره اخوان الصفا فى رسائلهم فهذا اذن شىء آخر تعلمه الاطباء من الاسلام أو انتقل اليهم من أثر الاسلام .

وعلى كل حال ، يحسن ألا يسبق الى الذهن أننى هنا أقيم موازنة بين الاسلام والعلم عند الامم القديمة . لا قدر الله ذلك . هذه من تحصيل البشر العاجزين وذلك وحى من الله العزيز القدير . ولكنى قصدت أن القرآن جاء وكل مافيه بما فيه من مفردات العلوم الطبيعية التى يظن معظم الناس أنها من نتاج العقل - الانسانى الحديث - صحيح صادق . ثم قصدت أيضا أن أقول ان الناس ، قديما وحديثا من المسلمين ومن غير المسلمين ، قد تعلموا من الوحى الالهى الذى نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقد يسأل بعض الناس فيقول : اذا كان هذا الوحى كله - سواء أنزل على محمد عليه السلام أو نزل على الأنبياء الذين كانوا من قبل - من عند الله ، فلماذا لا نجد هذه المعارف العلمية فى كتب الوحى الأخرى ؟

الجواب على ذلك يكون من جانبين :

أولا : ان الكتب السماوية القديمة ، كالتوراة والانجيل ، مرفوعة ، أى ضائعة من يد الذين نزلت على أنبيائهم ، فلا نستطيع الحكم عليها .

ثانيا : لا ينتظر أن تكون هذه الأشياء العلمية موجودة فى كتب الوحى القديمة ، لقوله تعالى « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

(١٤ : ٤ سورة ابراهيم) :

والبشر من قبل لم يكونوا كلهم قد بلغوا من العلم مبلغا يمكن معه أن يخاطبوا بكثير من حقائق العلم مما لا يمكن أن يبينه الرسول لعامة قومه فى زمانه . ان الحضارة الانسانية العامة لم تكن بعد مهيأة لتقبل المعارف العميقة فى الحياة .

ان هذا الموضوع : « أثر الرسالة الاسلامية فى الحضارة الانسانية » موضوع واسع جدا ،

كما قلت فى صدر مقالى هذا . من أجـــل ذلك أشرت الى رؤوس المعارف فيـــه اشارات سريعة ، والا فكل نقطة من نقاطه تحتـــاج الى مقال مستقل .

غير أنى لا أريد أن أفرغ من مقالى هذا قبل أن أشير أيضا الى نقطة أخرى فى هذا الموضوع هى أن أثر الاسلام فى التفكير الانسانى ـــ والتفكير جانب من جـــوانب الحضارة ـــ قد تبـــدى للمفكرين منذ جاء الاسلام . ففى أيام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يأتى الى الرسول ـــ مرة بعد مرة ـــ أناس يســـألون أسئلة من هذا الباب ، فكان من هذه الأسئلة ما تحسن الاجابة عليـــه فى ذلك الحين كما كان بعضها الآخر ممـــا يحسن السكوت عنه . ففى مثـــل ذلك نزل قوله تعالى : « ياأيهـــا الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم . وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم . عفا الله عنها ، والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » (٥ : ١٠١ ـــ ١٠٢) .

ويجب أن ننسى أيضـــا ان « علم الكلام » ـــ وهو علم كانت غايته الموازنة بين ما جاء به الدين وما كان يشغل العقل الانسانى ـــ قد تعرض ، منـــذ القـــرن الأول للهجـــرة ، لمثـــل تـــلك البحـــوث ولم يحصـــل النـــاس مـــن ذلك كله على طائل . ان علم الكلام يمثـــل مرحلة من مراحـــل تطور العقـــل الانسانى ، كانت منـــه تتف فى اليهـــودية والنصرانيـــة ثم فى المجوســـية فيمـــا أحسب ولـــكن قواعد هذا العلم رست فى الاسلام ، وكذلك فروعه تبسطت فى الاسلام أيضا ، ومع ذلك فقـــد قال ابن خلدون فى مقدمته ان هـــذا العلم يفيدنا تاريخا للجدال أكثر ممـــا يفيدنا ايقانا بالعقائد ، كما كان المقصود بهذا العلم أولا . وخطر لابن خلدون رأى الناس فى صلة المعارف التى وردت فى القـــرآن الكريم بحقائق العـــلم المقصودة ، فقال لنا فى مقـــدمته قولا أشرت اليـــه من قبل . هـــذا القول هو (مقدمة ابن خلدون) ان القرآن جاء لتعليم الفقه والاخـــلاق ولم

يأت لتعليم الطب والعلوم العادية (القديمة) غير أن كل ما ذكر فى القرآن من المعارف صحيح ، ولكن ليس فى القرآن كل ما جاء به العلم قديما وحديثا • من أجل ذلك لا يجوز لنا أن نحمل آيات القرآن الكريم فوق ما يحتمله معناها الذى قصدت به ، فان فى ذلك خطرا كبيرا جدا يحسن أن ننظر اليه من جانبين •

ربما كان الذى يجيل فكره فى هذا الميدان (ميدان العلم وما جاء منه فى القرآن الكريم) ليس من أهل الاختصاص فى القرآن أو فى العلم أو فيهما كليهما وحينئذ يقع ذلك الشخص فى خبط كثير ثم هنالك أمر أشد من الخطر • ان العلم يتطور ويتبدل • وربما قال العلماء شيئا اليوم ثم قالوا غيره أو ضده غدا • فاذا أتى شخص وربط بين آية من القرآن الكريم ورأى من آراء العلم ثم سوى احدها بالآخر أو بنى أحدهما على الآخر ، وبعدئذ تبين أن ذلك الرأى فى العلم كان فاسدا أو قاصرا ، فما يكون موقفنا من ذلك الربط بين الآية الكريمة والرأى الذى ظهر بعد أمد أنه خطأ ؟

من أجل ذلك أريد أن أمر بعدد من الكتب الحديثة التى عرض أصحابها لمثل هذا الموضوع • وقد اتفق لى أن تناولت هذه الكتب التالية من غير تقص ٍّ لما ألف فى هذا الباب :

١ — جواهر العلوم ، تأليف طنطاوى جوهرى ، مصر ١٣١٩ هـ =١٩٠١ م •

٢ — التاج المرصع بجواهر القرآن الكريم ، تأليف طنطاوى جوهرى ، مصر ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦ م •

٣ — الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ، تأليف طنطاوى جوهرى ، مصرى ١٣٤١ هـ = ١٩٢١ م •

٤ — القرآن الكريم والعلوم العصرية ، تأليف طنطاوى جوهرى ، مصر ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣ م •

٥ — أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى : محاضرة لعبد العزيز جاويش ألقيت فى مصر • طبعت

فى بيروت بعيد ١٣٤٩ هـ=١٩٢٣! م

٦ ــ تنبيه العقول الانسانية لما فى آيات القــرآن مــن العــلوم الكونية والعمرانية تأليف محمـــد بخيت المطيعى (ت ١٣٥٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) ، طبعـــة جديدة حلبى (بلا تاريخ) •

٧ ــ القرآن والعلم الحديث ، تأليف عبد الرزاق نوفل ، مصر ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م •

٨ ــ نهـــاية الكون بين العلم والقـــرآن ، تأليف محسن عبـــد الصاحب المظفر ، النجف ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨ م •

٩ ــ العلوم الطبيعية فى القرآن ، تأليف يوسف مـــروة ، بـــيروت ١٣٨٧ هـ=١٩٦٨ م •

١٠ ــ لفتات علمية من القرآن تأليف يعقـــوب يوسف ، جـــدة ١٣٩٠ هـ=١٩٧٠ م •

١١ ــ نقـــد الفهـــم العصرى للقـــرآن ، تأليف عاطف أحمـــد ، بيروت (١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م) •

١٢ ــ القرآن وعلم النفس ، تأليف محمـــد مصطفى زيدان ، بيروت ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م •

لعل أول الذين أغرموا بهـــذا الوضوع طنطاوى جوهرى ، وهو مؤلف مصرى ولد سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) وكانت وفـــاته فى سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٤٠م) • تعلم فى الأزهر وتعلم شيئا من اللغـــة الانكليزية وقرأ أشياء من العلوم الرياضـــية والطبيعيـــة ثم علم فى المدارس الابتدائيـــة وحـــاضر فى الجـــامعة المصرية وكان اهتمـــامه الأول منصبا على رؤية مفـــردات المعـــارف الانســـانية فى القـــرآن الكريم •

ان « التفسير » الذى وضعه طنطاوى جوهـــرى للقرآن الكريم يقع فى ستة وعشرين جزءا تتألف من نحـــو ســـتة آلاف وخمسمائة صفحة من القطع الكبيرة • وأنت تستطيع أن تجد فى هـــذا التفسير كل شيء من مطـــالع القصـــائد الجاهليـــة (١ : ٢١) وأبعـــاد الكواكب عن الشمس (١ : ٤١) وفتـــــوح الدولة الرومانيـــــة (١ : ٦٥ ــ ٦٦) ، وان مـــرات التصـــديق (فى المنطق) أربعـــة (١ : ٧٧) ولغـــز قابس وهـــو

فيلسوف يونانى عاش قبل الميلاد بخمسمائة سنة (١ : ١١٤) وعجائب العلم والسياسة فى القرآن (١ : ١٢١) والمادة وتنوعها وعلم الحيوان والنبات (الحيوان مذكور قبل النبات) وجرى السفن بالكهرباء (١ : ١٢٤ — ١٣٥) والحب والعشق والشوق (١٣٥) وسباق الخيل — رمى الحمام — التيرو — يانصيب — اللوترية (١:١٧١—١٧٢) وعناصر مختلفة فى القطن والقمح والبرسيم وغيرها (١ : ٢٠١ — ٢٠٥) وأنواع النبات الموجودة فى البلاد المختلفة (١ : ٢٢٨ — ٢٣٠) الخ .

أما الحكايات والخرافات والاسماء الأجنبية وأمثالها فكثيرة كثرة لا تحصى . وبامكانك ان تقول ان « تفسير طنطاوى جوهرى » يحتوى على كل شىء الا على تفسير القرآن . انه مؤلف من مواد تتداعى على غير نظام وتذكر لمناسبة ولغير مناسبة . والكتاب فى جملته صورة للفوضى الكاملة .

لا شك فى أن طنطاوى جوهري قد أحب أن يحبب الاسلام الى الناس بما كان يقول من أنك تستطيع أن تعرف من القرآن مثلا مقدار البوتاسيوس فى نبات البرسيم أن الرجل محمود لحسن نيته ، ولكن تفسيره الذى مضى عليه الآن نحو ثمانين سنة أصبح لا قيمة عملية له ، لا فى العلم ولا فى التفسير . أما كتبه الباقية . جواهر القرآن (٣٤٠ صفحة) ، التاج المرصع (١٩٠ صفحة) القرآن والعلوم العصرية (٩٠ صفحة) والصفحات من القطع الصغيرة فمنهاجها منهاج تفسيره .

أما عبد العزيز جاويش المتوفى سنة ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م ، فهو أديب وكاتب وخطيب اشتغل فى مصر بالصحافة فكتابه (محاضرات تقع فى نحو ستين صفحة من القطع الصغير) أراد به أن يوازن بين موقف الاسلام من العلم وموقفه النصرانية خاصة ، وهو يلح على أن المسلمين اهتموا بالفلسفة اليونانية أكثر من اهتمام النصارى

الاوروبيين بها ، مع أن الاوربيين أقرب الى اليـونان من المسلمين الى اليونان . ومع ان المـادة فى محاضرات عبـد العـزيز جاويش لا تختلف من تفسـير طنطـاوى جوهرى كثيرا فانها أحسن ايجازا وتنسيقا وأبين مغزى وتنظيما .

وأما كتاب الشيخ محمد بخيت المطيعى المتـوفى سنـة ١٣٥٤ هى (١٩٣٥ م) فقد كان مفتيـا فى مصر فى مدى سبع سنوات أولهـا سـنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) — والمطيعى أكثر وعيا لحقائق العلم من طنطاوى جوهرى وأكثر حذرا فى اقـامة الموازنات بين المظـاهر الطبيعيـة والآيات . وفى كتـاب المطيعى معرفة أكثر ممـا فى كتب طنطـاوى جـوهرى وممـا فى محاضرات عبد العزيز جاويش . غـير أن فى الـربط بين الفحم الحجرى والآية الكريمة : « وهو الذى أخرج المرعى فجعله غثـاء أحوى » (٨٧ : ٥ سورة الاعلى) تمحلا بعيدا ليس المقصـود من الآية الكريمة .

واذا نحن نظـرنا الى كتـاب عبـد الرزاق نوفل « القـرآن والعلم الحديث » من الجانب العملى الذى هو حث على التأمل فى آيات القرآن وفى شمولها لأحوال البشر ، فالكتاب يكون جيدا ومفيدا . ويبدو أن عبد الرزاق نوفل قـد تنـاول قصـة الفحم الحجـرى (ص ٧٥) من الشيخ محمد بخيت ثم زاد فى التوسع فيهـا . وكلام عبـد الرزاق نوفل عن البروتين (البروتئين) لا يستقيم فى الدين « فى سورة البقرة » (٢ : ٦١) يخاطب الله اليهود فيقول :

« واذا قلتم ياموسى ، لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنـا ممـا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفـومها وعدسهـا وبصلهـا . قال أتستبـدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير »

ويعلق عبد الرزاق نوفل على ذلك بقوله : ان طعـام بنى اسرائيـل (مـع موسى فى صـحراء سيناء أيام تيههم) كان المن (وهو مادة حلوة تتكاثف على أغصـان شجر بعينه (فى العـراق وفارس ..)

بعـد سقوط النـدى على تلك الاشـجار ومن السلوى (طـير السمانى) • أما أن فى عـدد من البقول (التى تنضج فتصبح حبوبا كالعدس والفول) من البروتئين أكثر مما فى المن فهـذا صحيح • وأما أن يكون فى القثاء ، وهـو نوع من البطيـخ ومن الخيـار (المعجم الوسـيط ٧٢٢) ، مـن البروتئين أكثر مما فى لحم السمانى •• فلا أظنه صحيحا •

ثم ان اليهـود لم يطلبـوا من موسى أطعمـة أكثر تغـذية ، بل قالوا له : « لا نصبر على طعام واحد » • هم كانوا قد ملوا من أكل لحم الطير فأرادوا أن يأكلوا أشياء أخرى • ثم لو أننا قبلنا أن يكون موسى قد قصـد أن يقول لقـومه (كما يرى عبـد الرزاق نوفل) ان العدس والبصل وأنواع البقل أقل قيمة غذائيـة من المن ومن السلوى أيضا ، لما كان نبى الله مـوسى عارفا بطبـائع تلك الاطعمـة • وأما حشـر علم الديناميكا (ص ٩٧) والكلام على نيوتن واينشتين فى مجـال تفسير الآية الكريمـة : « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقـداره خمسين ألف سنة » (٧٠ : ٤ سورة المعارج) للـكلام على نظـرية النسبية فشىء خارج عن اختصاصى ••ومع قلة معـرفتى بالرياضيات العالية فأنا لا أرى فى هـذه الآية اشارة الى أن الزمن المذكور فيها هو الحد الرابـع الذى قصـده اينشتين • أما النسبية (اللانسبية) الحقيقيـة التى تدل عليهـا الآية ــ كما أفهمهـا أنا ، وأرجـو ألا أكون مخطئا ــ فهى ان الله دائم الوجود وأن وجودنا نحن فى العالم محدود • فمهما تطل عيشتنا على الأرض فانها بالاضافة الى دوام الله الأبدى شىء ضئيل • لقـد كان بالامكان أن يقول الله تعـالى : « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره » مائة ألف سنة أو خمسمائة ألف سنة من غير أن يتبدل المقصود الاخلاقى من الآية الكريمة •

ويبدو أن محسن عبد الصاحب المظفر قد درس الرياضيات والفلك

دراسة مقصودة ، وهو يخـالف (ص ١٤٢ ــ ١٤٥) عبـد الرزاق نوفل فى تفسير الآيتـين اللتـين تذكران اليوم الالهى مرة بألف سنة ومـرة بخمسـين ألف سـنة ، بأن معنى ذلك ان سرعة الارض فى دورانها كان من قبل أكبر مما أصبح فيما بعد . ومعنى ذلك بعيد أيضـا .

ان القرآن الكريم قـد خاطب العرب بهاتين الآيتين ، وقال لهم (فى القرن السابع للميلاد) فى مرة أن اليوم عنده يساوى خمسيـن ألف سنة من أيامهم ثم قال لهم مرة ثانية أن اليوم عنده يساوى ألف سـنة . ان تفسير محسن عبد الصاحب المظفر كان معقـولا لو أن احدى الآيتين قد نزلت بعد الآية الأخرى ببليون سنة فقد كان من الممكن أن يقصر اليوم الارضى حتى يصبح جزءا من خمسين ألفا بعد أن كان مرة جـزءا من ألف فقط .

غير أننـا اذا تابعنـا محسن عبد الصاحب فى كتـابه «نهـاية العالم بين العلم والقرآن » أدركنا التعثر فى أدلتـه . هـو يرى أن القرآن الكريم وأن العلم الحديث يقولان بنهاية هذا العالم (راجع ص ١٧٩ وما بعـد) . ولـكن مامعنى نهاية العالم عنده ؟

ان الجبال اذا نسفت (ص١٦٨) وان نهاية الكون بانشقاق السماء (ص ١٨٤) .. وغير ذلك لا يدل الا على تبدل المادة من صـورة الى أخرى . وهذا التبـدل ليس فناء ولا نهاية ، كما يقول محسن عبد الصاحب نفسه (ص ١٨٦) : (كون تحطم وحل محله كون آخر) .. وقول القرآن الكريم واضـح فى ذلك ، وهو : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ... » (١٤ : ٤٨ سورة ابراهيم) .

ونحن جميعا نؤمن أن هذا العالم سينتهى : ستنتهى حيـاة البشر فيه . ولكن الأدلة التى يقدمهـا صاحب كتاب « نهـاية الكون » ليست مقنعة لا من جانبها الدينى ولا من جانبها العلمى ..

وتتعاظم شكوك القارىء حينما يقرأ فى كتاب « نهـاية الكون »

هذا المقطع (ص ١٤١) : « يقول علماء الفلك : ان الأرض منذ (يقصد : بعد) انفصالها عن الشمس كانت تدور حول نفسها بسرعة أكبر مما هى عليه فى الوقت الحاضر ، وان دورتها حول الشمس كانت تتمها بفترة زمنية مقدارها أربع ساعات (كذا) . وقد بدأ من ذلك الحين النقص التدريجى فى سرعة دوران الأرض حول الشمس . فلم يعد الليل والنهار ليستغرق (ليستغرقا) أربع ساعات فى كل دورة ، بل تغيرت الحال تبعا لذلك . ان طولهما (يعنى : طول الليل والنهار) يقاس ومقدار الفترة الزمنية التى تستغرقها الأرض فى دورانها حول الشمس ، فقد أصبح طولهما (طول الليل والنهار) من بعد ذلك خمس ساعات ثم ست ساعات ، وهكذا حتى بلغت الارض وضعها الحالى . فهى الآن تتم دورتها حول الشمس بفترة أربع وعشرين ساعة وهى مقدار طول الليل والنهار الحاليين » .

ان محسن عبد الصاحب المظفرى يعتقد أن الليل والنهار يتشكلان من دورة الأرض حول الشمس فى أربع وعشرين ساعة . وأظن أن أطفال المدارس يعرفون أن دورة الأرض حول الشمس تتشكل منها الفصول الأربعة وان الليل والنهار يتشكلان من دوران الارض حول نفسها .

فما قيمة هذا الكتاب كله بعد ذلك ؟

ثم يأتى بحسب تاريخ نشر الكتب المذكورة آنفا كتاب « العلوم الطبيعية فى القرآن » ، تأليف يوسف مروة المولود فى السابع والعشرين من جمادى الاولى من سنة ١٣٥٣ هـ (٧/١٠/١٩٣٤م) .. علم الكيمياء والفيزيا والرياضيات ، يحمل شهادة الهندسة الكيماوية (١٩٦١ م) ، ولكن يبدو أن معظم نشاطه منصب على الفيزياء (راجع ص ٨ — ١١) . وفى كتاب يوسف مروة فصول هى :

(١) رسالة المؤلف الى فقهاء المسلمين حول رصد الأهلة يقترح

فيها على دار الافتاء فى بيروت أن تشترى تلسكوبا فلكيا من الحجم المتوسـط ينصب فى دار الافتـاء ليستخدمـه رجـال الديـن فى المناسبات التى يكثر فيها الخلافات حول رؤية الهلال . حتى اذا كانت السماء ملبدة بالغيـوم فى فصـل الشتاء .. ولا يمكن للعين المجردة أن ترصد الهلال « فما المانع اذن من اسـتخدام المرقب كوسـيلة للرصد والرؤيا ؟ »

وليوسف مروة نظـرة صحيحة حينما يذكر أن ولادة الهلال تحدث فى البلاد المختلفة فى أوقات مختلفة ، باختلاف وجود تلك البـلاد على خطوط الطول وخطوط العرض . ولكنه يخطىء حينما يقـول على لسان رجال الدين : اذا ولد الهلال فى بلد فهـو مـولود فى جميـع البلدان . « الذى يقوله الفقهـاء العلماء اذا رأى أهل بلد الهـلال فيحسن بجميع المسلمين أن يصوموا برؤية ذلك البلد » (من الناحيـة العملية) وبين القولين فرق كبير .

٢ ـ مقـدمة للسـيد موسى الصدر : لقاء العلم والدين وتوزيع الصلاحيات (ص ١٣) .

٣ ـ تقـديم للمرحوم الشيخ مصطفى الغلايينى (ت ١٣٦٤ هـ =١٩٤٤ م) .

فى العـلم والـدين (نشرت فى سنـة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م) . (ص ٤١) .

٤ ـ مدخل للدكتور صـادق جلال العظم (ص ٦١)

٥ ـ مقدمة المؤلف (ص ٦٧)

٦ ـ الفصـل الأول : القرآن دين وعلم (ص ٧١) وزع المؤلف فيه جانبا من آيات القرآن بحسب الموضوع العلمى الذى تعالجه .

٧ ـ الفصل ٢ : العلوم الحديثة فى القرآن (ص ٨٣) : مجمـوع من الآيات ورد فيها ألفاظ تتعلق بالعلوم المختلفـة أو توهم أنهـا تتعلق بالعلوم .

٨ ـ الفصـل ٣ : الـذرة فى القرآن (ص ١٦١) : يريد يوسف مروة أن يرجع بالنظـرية الذرية الى ألف ومائتى عام قبل الميلاد .

وأنا أعتقد أن فى استعراضه لتطور نظرية « المادة الأولى » أو الجوهر الفرد أو الذرة (أو الجـزءالذى **لا يتجزأ** » أشـياء من الخطـأ التاريخى واللغوى • ومن أخطائه فهم كلمة ذرة فى القـرآن الكريم **بالمعنى الحديث «آتوم»** • والذرة هى النمـلة الصـغيرة الحمـراء (راجع قواميس اللغة) ـ وقال الشاعر يصف امرأة برقة جلدها ولينه :

لو يدب الحولى من ولد الذر
عليهـا لأندبتهـا الـكلوم

(الحولى : الذى لم يمر عليـه سنة بعد • أندبه : ترك فيه ندوبا أى جروحا • الكلم بفتح الكاف : الجـرح) •

ومن الخطأ عنـده جعله كلمـة آتومى فينيقية أخذها اليـونان عن الفينيقيين وهذه اللفظة آ ـ توم يونانية (معنـاها : لا يقسم) ، ومن هنا جاء وصف الجوهر الفرد بأنه « الجزء الذى لا يتجزأ » • ثم يستغرب المؤلف اهمال المسلمين للكلام على تجزئة الذرة (بالمعنى العـلمى اليـونانى ، لا بالمعنى القـرآنى) • فيحسن بالمؤلف أن يرجع الى علمـاء الكلام فى ذلك والى رسائل اخوان الصفا •

٩ ـ الفصل ٤ : غزو الفضـاء (لو قال المؤلف : « وصف الفضاء » •• لكان قوله صوابا) •

١٠ ـ الفصـل ٥ : النسبية فى القـرآن (مر قولى فى ذلك : يحسن أن يقال النسبة) • وكذلك **لا يحسن أن نقول السنة الالهية** والثانية الالهية ، بل السنة عند الله والثانية عند الله • ولو أنا قبلنـا قـوله : يوم الهى ويوم أرضى (بشرى) لكان الموضـوع هـو النسبة (اضافة عـدد الى عـدد آخر) لا النسبية (اختلاف حجم الجسم الواحد باختـلاف أبعـاده المنتوجة من سيره فى زمن) •

** اذا أخطأت أنا فى هـذا التعـريف أو كان تعريفى ناقصـا أو قاصرا فأنا معـذور لأنى لست من أهل الاختصاص فى الرياضيات والفيزياء النظرية • أما خطأ أهـل الاختصاص فى هذين الفـرعين من العلم فليس لهم فيه عذر •

١١ ــ الفصـل السـادس : النظام الرياضى الكونى (وفيـه أشياء من علم العدد أو خـواص الاعداد مما نعرفه فى المتواليـات الحسابية والهندسية وفى المربعات السـحرية . ونجـد هـذا الفن مبسوطا فى كتاب المدخـل الى علم العـدد من وضـع نيقوماخوس الجرشى ، وقد نقله الى العربيـة ثابت بن قرة فى العصر العبـاسى . وكذلك نجد هـذين الموضوعين مبسوطين فى رسائل اخوان الصفا ، ولكنى لا أرى لذلك صـلة بمـا يرد فى القرآن الكريم . وفى هـذا الفصل أيضا قضايا من المحـالات المعروفة فى الجدل الكلامى نحو : هل يستطيع الله أن يخلق عالما آخر أو أن يخلق كائنا أقوى منه أو أن يفنى نفسه .

١٢ ــ الفصل٧ : الله والعـلم الحديث (ص ٢٢١) : متفـرقات شخصية فى الله وقدرته وعظمتـه مأخوذة من الملاحظـات الشخصية ومضافة الى العلم الحديث وليس عندى رد على هذا الفصل الا ماقاله استاذ المؤلف للمؤلف وهمـا فى المختبر وقد أثار المؤلف مثل هذا الموضـوع (ص ٢٢٦) « أخشى أن يتحول بحثنا من ميدان الفيزياء الى ميدان اللاهوت وتتخـلى عن صـفتنا كفيزيائيـين لنصبح لاهوتيين » .

١٣ ــ ملحق : آراء حول الدين والعـلم (ص ٢٤١) مـن كونفوشيوس (ت ٤٧٩ ق‌حق.م) الى المؤلف نفسه .

١٤ ــ ملحق ٢ : آراء حـول الاسلام .

ان هذا الكتاب كتبـه رجـل يشـتغل بالعـلم ، ومع ذلك فلم يوف الموضوع حقه اذشغل نفسه بأشياء جانبية لا قيمة لها . اذا كان عنوان الكتاب « العلوم الطبيعيـة فى القرآن الكريم » ، فمـا صلة ذلك بقـول ميخائيـل نعيمـة (ص ٢٥٨) : « ..... كأن يكون ذلك المعبـود عاديا ضيقا وضيعا محدودا عند الوضعاء المحـدودين من البشر ومسمعنا فى العبقـرية والرحابة والتعالى واللامحـدودية عند الذين نفذوا بقواهم الانسانية

الخلاقة من برودة الشائع الظاهر فى الكون الى دفء أسراره المكنونة » .

يبدو لى أن المؤلف قد تخيل الموضوع أهون مما يجب . فلما بدأ التأليف ووجد وعورة المسلك ملأ كتابه بفصول لا صلة لها بالموضوع . ونسى المؤلف العالم ان العلم يقوم على البراهين وأن أقوال الناس : قال فلان وقال فلان لا يقوم لها فى العلم وزن ، الا اذا كانت هى نفسها قائمة على برهان وكان برهانها مصاحبا لها والا فما قيمة هذا القول للمفكر الفرنسى باسكال (ص ٢٤٢) : « ماهو هذا الانسان فى هذه الطبيعة : انه عدم تجاه اللانهاية » . ما الحقيقة التى يقرها هذا القول وماالمشكلة التى يمكن أن يحلها ؟

وهنالك « لفتات علمية من القرآن من تأليف يعقوب يوسف ، وهو كتاب موجز عام تغنى قراءته عن كتاب يوسف مروة لأن مؤلف اللفتات العلمية أشار الى حقائق العلم فى الآيات الكريمة اشارات قريبة واضحة ولم يدخل فى التفاصيل المتشابهة فيقع فى ورطات يصعب الخروج منها .

ويأتى فى هذا النسق كتاب محمد مصطفى زيدان « القرآن وعلم النفس » وهو كتاب صغير موجز لا تزيد كلماته فى العد على ثلاثة آلاف كلمة . والمؤلف لم يشغل باله ولا شغل قراءه بأقوال الرجال وتفتيت النظريات . ثم ان موضوع علم النفس (وهو موضوع تربوى أخلاقى) أكثر اتصالا بالدين من العلوم الطبيعية. والكتاب جيد ومفيد .

وكنت أود أن أتكلم على كتاب « نقد الفهم العصرى للقرآن » من تأليف عاطف أحمد . ثم وجدت أن هذا الكتاب رد على مصطفى محمود فى كتابه : « القرآن : محاولة لفهم عصرى » . ثم ان كتاب مصطفى محمود ليس بين يدى الآن . وفوق ذلك فالذى يبدو بوضوح أن كثيرا من موضوعات الكتابين موضوعات نظرية قابلة للجدل وكثير منها

متعلق بالألفاظ أخذا وردا . والذى يبدو لى من خلال الكتاب الثانى أن مصطفى محمـــود كان يحمـــل النص القرآنى فوق مـــا يجب أن يحتمل ، وان عاطف أحمد يريد أن يقيد نفسه بظاهرة اللفظ أيضا .

خلاصة هذا الموضوع

فى القرآن الكريم أشياء كثيرة من العلم : من العلم الطبيعى ، ومن العلم الاجتمـــاعى ، ومن علم النفس ، ومـــن السياســـة ، ومن الاقتصاد ، ومن الاخـــلاق وسوى ذلك .

وكل هذا الذى ذكر فى القرآن الكريم من مفردات هـــذه العلوم ومن أسسها العامة صحيح ثابت . غير أنه لا يجوز لنـــا أن نحـــاول البحث عن جميع وجوه العـــلم فى القرآن الكريم وان نحمل الآيات الكريمة فوق ما يجوز أن تحتمل .

ولا يجوز أن يجعـــل القرآن الكريم موضوعا للمقـــارنة بشىء آخر . ثم ان القرآن الكريم كتاب سماوى غايته الأولى تعليم الدين والتربية على الخلق الكريم .

يجـــوز أن تتخـــذ من الآيات الكريمة سندا للدعوة الى العلم ، ويجب أن نفعل ذلك كما تتخـــذ القرآن الكريم حجة فى أمور العقيدة والعبادة وفى المعاملات أيضا .

ان القرآن الكريم لما أتى بوجوه العلم أتى بهـــا على سبيل العظـــة ولتبيان عظمـــة الله وقدرته وللحث على أن يقوم الانسان بما ينفعـــه فى حياته الدنيا وفى حياته الأخرى .. ولم تكن وجوه العلم المختلفة مقصودة لذاتهـــا ، الا اذا كانت هى موضوع الكلام .

وقد تعرض لهذا الموضوع — العـــلم فى القـــرآن الكريم نفـــر كثـــيرون : منهـــم من شطت به حماسته فتأول آيات القرآن على خلاف ما فهمـــه المفسرون كلهم ، لأنه حملتهم حماستهـــم للفن الذى يعرفونه على أن يجدوا فى القرآن الـــكريم كل ما تعـــلموه فى فنهم المخصوص .

وهنـــالك نفر كتبوا فى هـــذا الموضوع من مطالعاتهم الشخصية . هم ليسوا من رجال العلم ولكنهم

قرأوا أشياء من العلم المبسط فخيل اليهم أن كل آية وردت فيها كلمة « شمس » أو « قمر » هى من علم الفلك . ومنهم من لا يحفظ شيئا من القرآن الكريم ، كالذى رأى كلمة « ذرة » فى القرآن الكريم ــ ومعناها « النملة الصغيرة الحمراء » فظن أنها الذرة التى ذكرها ديموقريطوس اليونانى من أحياء القرن الخامس قبل الميلاد أو الذرة التى عالجها روذ رفورد عام ١٩١٩ م .

غير أن هذا كله لا يمنع من القول ان القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى جاء بالعلم على النحو الذى يجب أن يكون عليه العلم ، وانه دعا الى العلم بينما جميع الاديان غير الاسلام كانت تحول بين أتباعها والدين لأنها كانت تدرك أن العلم يبطل الاعتقاد بالاسرار التى كانت تلقيها على أتباعها الغازا أو كالألغاز .. ان العلم فى الديانات التى جاءت قبل الاسلام كانت احتكارا للكهنة لا يصل اليها عوام الناس . أما الاسلام فليس كذلك . فى الحديث الشريف : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وفى القرآن الكريم .

« أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب » .
(٣٩ : ٩ سورة الزمر)

دكتور عمر فروخ

دراسات قرآنية

أيـها المسلمون

ماذا أعددتم لوداع القرن الرابع عشر الهجرى ؟

فضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصـركم ويثبت أقدامكم » (١) •

وقال سبحانه : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٢) •

البيـان

أيها الاخوة المؤمنون فى أرض الله ، هذا هو العام المتمم للقـرن الرابع عشر الهجرى قد أطل علينا بهلاله ، فماذا أعددتم لوداع هذا القرن ؟ ان الله أمركم بالتمسـك بكتابه وعدم الفرقة فيما بينـكم فقال : « واعتصموا بحبـل الله جميعا ولا تفرقوا » ولكنكم تركتم كتابه وتفرقتم ، وان رسوله صلى الله عليه وسلم يوصيكم بأن يشـد بعضكم أزر بعض ، ليقوى كل منكم بأخيـه ، ولا يضعف أمام الطامعين فيه ، ولكنكم شـددتم أزر الأعداء ، وتخليتم عن اخوانكم الأوليـاء فاستـذلكم الأولون واستغلوكم ، وتمكنوا بوسائلهـم الشيطانية ، ووعودهم الـكاذبة ، من احتكار ارادتكم ، والاستيلاء على أرضكم ودياركم ، وكم لهم فى الغدر بكم من دروس وعبر ، ولكنكم لم تنتفعوا بها لأنكم لم تعوها ، ولم تتدبروا فى الفـرق الهائل بين أقـوالهم وأعمـالهم ، وصـدقتم معاذيرهم فى خلفهم لوعـودهم ، ولا زلتم تتعلقـون

---

(١) سورة محمد : ٧ (٢) سورة الحجرات : ١٠

بأذيالهم ، وتمشون فى ركابهم ، وهم معجبون بسلامة نيتكم ، وأنكم من الغفلة الى درجة انكم لا تفرقون بين الصديق والعدو ، و لابين من يقصد بمودته منفعة نفسه ، أو منفعة من يبذل له الود الزائف ، وترونهم يقدمون لكم الأسلحة الضعيفة لكى يغروكم بالتبعية لهم ، ويجعلوكم دائمى الاحتياج اليهم ، لكى تستكملوا الناقص فى أسلحتهم ، فمتى تفيقون أيها الاخوة المسلمون من سكرة الاعتزاز بأعداء الأديان ، والاغترار بما يقولون من الهذيان ، وأنتم سلالة الغر الميامين ، وأبناء الليوث المغاوير ، أفلم تقرءوا قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذو عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » (١) •

انكم قوة لا يستهان بها لو اجتمعتم ، فأنتم تربون على ثمانمائة مليون ، ولكنكم متنافرون متقاطعون ، فلا الدين يجمعكم ، ولا المصالح المشتركة تربط بينكم ، ولا الخطر المنتظر يخيفكم ، أفلا تعلمون أن الذئب يأكل الأغنام المتباعدة « انما يأكل الذئب من الغنم القاصية » •

وأنتم أيها الاخوة العرب •

خبرونى : أية دولة فيكم لها قوةذاتية ،و منعة عددية وحربية ، وقدرة علمية على الصعيد العالمى، كل واحدة منكم دولة صغيرة أو دويلة ، وقد باع بعضكم عزة دينه وكرامة أمته لدولة معادية لكل الأديان ، وليس لها دين الا المال والمصنع والترسانةالحربية ، وابتزاز الضعفاء والقضاء على كيانهم الاجتماعى ومثلهم العليا ، وليس لديها قيم تعتز بها سوى زرع الأحقاد بين الاخوة المتدينين ، واغراء أصحاب النزوات وطلاب الزعامات ، بما يحقق رغباتهم وآمالهم ، حتى اذا حققت لهم طموحاتهم الجوفاء ، كافؤوها بمراكز استراتيجية فى بلادهم ، لتتحكم فى أرضهم ، ولتهدد منها

---

(١) سورة الممتحنة

أولئك المؤمنيـــن الذين لا يزالون حذرين من الوقوع فى شباكها .

(درس من ليبيا)

انك لا تجد دولة أو دويلة من تلك التى استجابت لداعيها ، الا مصدر شقاء لنفسها ، ومتـــاعب لاخوتها فهى نقطة تهديد لهـم ، ومركز وثوب عليهم ، فأية فائـدة حققتها ليبيا من لياذها بالشيوعية ، لا شىء الا أن تزعمها مغرور عديم الكفاية العقلية والخلقية ، ففتـح خزائن بلاده للابتزاز الشيوعى ، والصرف على اثارة الفتن بين جيرانه الأقارب والأباعد ، والبحث عـن مثيرى الفتن فى المشارق والمغارب ليصرف عليهم ، ويرضى غـــروره بأنه قادر على اثارة الفتـــن فى مختلف الامم وشتى البقاع ، وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ومن عجب أن فشله المتتابع فى كل حرب شنها على جيرانه ، وهزيمته فى كل مكان ، لم تعرفه حجمــه ، ولم تصرفه عن غروره ، فانه لا يــزال على زعم القدرة على ما يشاء ولو على حرب امريكا ، لأن المـــرتزقة الكبار والصغار يزينون له مزاعمه، وينفخون قربتـه ، الجـوفاء ، ليملؤوها من الهواء ، فهذا الأخرق الملتات ان لم تدركه رحمة من الله فسيأتى على أرزاق أمته ، ويجعلها من نصيب شياطين المرتزقة .

وما أحوج شعب ليبيا العـزيز الى أمواله ، ليصرفها فى استنباط المياه من أجواف أرضه ، واستزراع وهاده ونجاده ، ليستغنوا عـــن استيراد كل أقواتهــم من خارج بلادهم ، لهذا نرجو أن يهدى الله هذا الشاب ويرده عن غـــروره ، ويبصره بمصـــالح دينه وأمته ، ويوفقه لكى يحسن الجوار مـع جيرانه ، ويطرح فكرة الزعامــة التى ستورده موارد الهـلاك أو الخبال ، ومن طلب الزعامة وهــو غير أهــل لها فلن يوفقه الله ، فان انتزعها كانت وبالا عليه ، ومــن أوتيها دون طلب لها أو كان يطلبها وهو أهل لها أعانه الله عليها .

(درس من اليمن الجنوبية)

وهذه اليمن الجنوبية ما حاجتها الى الارتماء فى أحضان الشيوعية ؟

وكيف تمكن لدولة تعادى الأديان من بلادها ؟ وهى مركز استراتيجى بين العالم الاسلامى ، وما هى المصلحة التى تعود عليها من جعلها ترسانة لأسلحة الملحدين ، ومركزا لبث الفتنة بين المؤمنين ، ومرقبا لمراقبة الدول العربية والتجسس عليها ، وموقعا لبث الرعب واخافة الدول المجاورة .

أين الاسلام فى بلادكم ياحكام اليمن ؟ لقد قتلتم العلماء ، وحاربتم المؤمنين وائتمرتم بأوامر الملحدين ، وتآمرتم على اليمن الشمالية ، وقتلتم حكامها غيلة ، أمن الاسلام ما تصنعون ؟ أمن العروبة هذه الاشواك التى تزرعون ؟ أمن الأخلاق ما تبيتون للعروبة وللمسلمين ؟ أمن الوفاء أن تكونوا عونا لأعداء الأديان على الاخوان والجيران ؟ ماذا كسبتم من مجاملة الملحدين على حساب المؤمنين ؟ أيرضيكم أن تكونوا أداة الغاصبين ، ولعنة على العرب أجمعين .

الى أى منتهى ستنتهون ؟ والى أية غاية ستصيرون ؟ انكم مهما علوتم فأنتم هالكون ، ومهما وطأتم لأنفسكم من مركز وجاه فأنتم زائلون ، وعلى ربكم تعرضون ، وعلى أعمالكم وجرائمكم محاسبون ، الى جانب ما تتركونه من سوء السيرة ولعنة التاريخ ، وستدول دولتكم ، ويأتى بعدكم من هو خير منكم : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم . ثم لا يكونوا أمثالكم » .

ومع هذا لا يزال الوقت متسعا لتدارك ما فات ، والعودة من متاهة الفرقة ، الى رحاب التجمع والحب والوحدة ، فدعوا أعداء الله ، وعودوا نادمين الى الله ، واستغفروه يغفر لكم « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » (الزمر ٥٣ ــ ٥٥) .

(دول الرفض)

وأنتم يا حــكام دول الرفض ، ماذا فعلتم برفضكم ، وعــدائكم لاخوانكم وأصفيائكم ، هل حللتم برفضــكم قضية فلسطين ، واذا كان رفضكم لم يسفر عن نتيجة ، فلماذا رفضتم التعاون مــع مصر فى طلب السلام وانهاء الحرب مع اسرائيل ، هل لكم خطة غير السلام توصلكم الى القــاء اسرائيــل فى البحار ، أو قذفها بآلات الفنــــاء والدمار ، فان كان لديكم طــريق سواه فلماذا لم تسلكوه ؟

لقد أجمعتم فى مؤتمر بغــداد على مقاطعة مصر لأنها طلبت السلام ، ولكنكم لم تتبعوا تلك المقــاطعة ببيان عما ستصنعون بدون مصر ، ولم يكن لمقاطعتكم اياها أثر فى حل قضية فلسطين ، ولم يبد منكم ما يعكر صفو اسرائيل ، واذا لم يكن لمقاطعتكم مصر أثر فى ازعاج اسرائيل ، ولم تكن لكم خطة غير مسالمتها ففيم كانت مقاطعتــــكم لأختكم الــــكبرى ، التى رفعت بانتصارها فى حرب رمضان شأنكم ، وأعلت فى العالمين قدركم ، ونشرت فنون العلم فى ربوعــكم ، وردت الصليبيـــــن بالأمس البعيد عــن بلادكم ، وهى اليوم ، وحدها جاهدة فى اجلاء اليهود عن أراضيــكم ، فماذا فعلتم بدونها ، وماذا تريدون أن تفعلوا فى المستقبل بغيرها .

ان مصر تبارك خطواتكم ، فان كانت لكم خطــة جــادة تعينها فى مسيرتها فاسلكوها ، فلن ترفض أى جهد من اخوتها يحقــق لهــا ولهم الآمال .

لقد حاربت مصر فتركتمـــــوها فى الميدان وحــــدها ، وخسرت مليارات الجنيهات فلم تعوضوها ، وهلك فى سبيلكم الغر الميــامين من أبنائها فلم ترحموها ، بل تفرقتم عنها وتركتموها وتنكــــرتم لها ، وقــابلتم تضحيــاتها بالدعــاوى الجوفاء ، والجعجعة الرعناء ، فى أجواز الفضاء .

لماذا تأبون الصلح والسلام أيها الاخوة المسلمــون ، ألم يصــالح النبى صلى الله عليه وسلم قريشــا صلح الحديبية ؟ ــ مــع ما كان يبدو من ظاهره أنه ليس فى مصلحة

المسلمين ــ وقد جعله الله بعد ذلك مغنما لا مغرما ، لو كانت اسرائيل وحدها لانتهينا منها فى حــــرب رمضان ، ولكنها مؤيدة من أمريكا حربيا وماليا وعاطفيا ، ولهــــذا دخلت الحــــرب ضدنا بعــد أن شاهدت هزيمتها ، وكما أنها مؤيدة من أمريكا فهى مؤيدة من الدول التى تساير أمريكا فى سياستها أو تخشى معـــاداتها ، ومن الصنف الثانى روسيا الحمــراء ، فانهـــا تصوت لصالحها ، ولكنها تدفــع الصغار الى اللعب بالنار ، والفناء فى مهالك الأغبياء ، ولا عليها أن تفعل ذلك مادامت تبيعهم السلاح التافه ، وتأخذ منهم أمـــوالهم ، وتخرج لسانها فى ظهورهم سخرية بهم ، فالصلح مع اسرائيل أجــدى على العرب من الاستمــــرار فى معاداتهم ، وكـــذلك فعلت مصر اقتداء برسول الله صلى الله عليــه وسلم فى صلح الحديبية ، وهــو أولى من الموقف الهــزيل الذى وقفتموه بالأمس وتقفونه اليوم من اسرائيل ، انكم تعادون مصر لغير جــريرة ، امتثالا لأمــر السوفييت الذين يفرقون بين الأشقاء شفاء لما فى صدورهم من غل تعرفون أسبابه ، فلماذا يقف المؤمنون بعضهــم من بعض موقف العداء بلا جريرة ؟

لقد جعلتم موسكو كعبة لكم ، فلا تبرمون أمــرا الا بمشورتها ، ولا تنقضون أمرا الا بارادتهــا ، فأنتم أبواقها ودعاتهــا ومنفــذوا أوامرها ، تلعنـــون من تريد أن تلعنهم ، وتمــدحون من تريد أن تمدحهم ، يا للعار ، يا خير أمــة أخرجت للناس ، أين أنتم من قوله صلى الله عليه وسلم : « مثـــل المؤمنين فى توادهم وتراحمهــم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهـــر والحمى » .

خبرونى أيها الاخوة ، هل أنتم فى جبهة الرفض خلصاء أصفيــاء بعضكم لبعض صديق . هل أنتم متعاونون على الخير ، كلا فلا شىء من ذلك نراه ، فكل دولة منــكم تمضغ الضريع والزقوم من شريكتها فى الرفض ، فهل يوجد أشد من ذلك غباء وصغارا ؟

لماذا تدورون فى فلك الأعداء ، ولاتطوفون حول القرآن والسنة ، لقد حرضتم دولا أخرى على معاداة مصر بأمر موســكو ، ومن عجب أنهم قوم جبلوا على الخير ، وكان يتوقــع منهــم أن يكونوا دعــاة اتحاد ، ولكنهـــم استجـــابوا لتحريضكم ، حذرا من تهديدكم ، فيا للعار فى خير أمــة أخــرجت للناس •

الى صحوة اسلامية فى ختام هذا القرن

أيها المسلمــون فى أرض الله ، ان الالحاد يزحف عليــكم فى كل مكان ، وهؤلاء اخــوان لكم فى الافغان ، رمـــاهم الشيــوعيون بحكام افغانيين ، بدّل السوفييت من ايمانهم كفرا ، وسلطوهم على مواطنيهم المؤمنين هناك ، فقامــوا قومة رجل واحد ، يدافعون عــن دينهم، مع قلة ذات يدهم، وضعف مواردهم ، وانا لنســأل الله ناصر المؤمنين ان ينصرهم ، ويرد عنهــم كيد الملحدين •

والامثلة كثيرة على نشـــاط الشيوعيين فى بلاد الاسلام عدوهم الأكبر ، فان لم تكونوا يدا واحدة ، وعيونا حذرة ، فسيضرب بعضكم بعضا لحساب الشيطان ، وانمـا يأكل الذئب من الغنم القاصية •

فارجعوا عن فرقتكم ، واجمعوا شملكم ، ولموا شعثكم ، ووحدوا كلمتكم ، وأصلحوا بين أخويكم ، ولينشط علماؤكم فى أداء رســالة الاسلام وتوحيد كلمة المسلمين ، والتحذير من الشيوعيين •

أيها الاخوة العرب : أنتم كثير اذا اجتمعتم ، ولكنكم لا شىء اذا تفرقتم ، انكم حينئذ تكــونون حميلا كحميل السيل ، وغثاء كغثاء الفيضان •

ان الفرقة التى بينــكم ليست على دماء ، ولكنها فتنة من الاعداء ، وكل أمة منكم لا تغنيها مواردهــا وحدها ، ولا تستطيع أن ترد بها خصومها ، فلا بد من التجمـــع والترابط ، فهذه الولايات المتحدة مع عظم قوتها ومواردها ، ليســت واثقة وحدها ، ولا تحب أن تكون كذلك ، لما فى العزلة من المخاطر، فلذلك جمعت حولها الأصــدقاء ، وأنشأت معهــم حلف الاطلانطى ، وكـــذلك فعلت روسيا ، حيــث أنشأت فى مقابله حلف وارسو •

واذا كان الأقوياء يهتمـــون بالتحالف والتجمـــع ، فما بالكم وأنتم الضعفاء لاتتجمعون ، انكم اذا اجتمعتم على حب وتعـــاون وايمان وتقوى ، فلن يغلبـــكم غالب ، وليكن اجتماعكم على سلام لجميع أهل الأرض ، فالسلامة فى الحياد وحسن التعامل مع جميـع الدول •

وليكن اجتماعكم على كلمة الله وتقواه خير توديع للقــرن الرابع عشر الهجرى فى عامه الأخيــر ، لكى تستقبلوا القـــرن الخامس عشر وأنتم كالبنيان المرصـــوص يشد بعضه بعضا ، أيدكم الله بروح من عنده ، وجمع فرقتكم وكبت أعداءكم ، ورفـع فى العالميـــن لواءكم واعلموا أن نبينا محمـــدا صلى الله عليه وسلم ، انتقل الى الرفيق الأعلى وقد أرسى قــواعد التوحيد فى الجزيرة العربية ، حيث جمع الناس فيها على دين واحد ، وأمة واحدة ، يسود العــدل بين قويهم وضعيفهم ، ويتجلى المجتمع الفاضل بينهم ، أمرهم جميـــع ، وكلمتهم واحدة ، لا طمع يفــرق بينهم ، ولا حقد يشق صفوفهم ، رهبان بالليل ، فرسان بالنهـــار ، ان طمع فيهم طامع هبوا سراعـــا لتأديبه وردعه ، وان سالمهم مسالم كانوا الى الســـلام أسرع منه ، وبهذه النخوة والشهامة ، وقــوة الايمان والحب فى الله ، والاجتماع على كلمة الله عز المسلمون وعلا شأنهم ، وخافهم الأعداء فى ديارهم ، وكانت لا ترد لهـــم راية ، ولا يستطيع أن يطمـع فيهم طـامع ، وبهذه الفضائل اتسع نطاق الاسلام ، وانتشر نوره فى العالمين •

أيها الاخوة العرب اذا لم يتيسر اجتماعكم فى حكومة واحدة كما كان ذلك فى صدر الاســلام ، فلا أقل من أن تجتمعوا على التعاون والحب وتبادل المصـــالح ، وترك التنابذ والحقد والبغض •

انى ادعـــوكم بدعاية الله : « ولا تكونوا كالذين نســوا الله فأنساهم أنفسهم » ومن تنـــكر لكتاب الله وسنة رسوله ، ضربهم الله بالذل وسلط عليهم عدوهم ، وصدق الله اذ يقول : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » •

مصطفى محمد الحديدى الطير

المسلمون والقرن الخامس عشر الهجرى

دكتور رءوف شلبى

يستعد المسلمون من الآن للاحتفال ببدء القرن الخامس عشر الهجرى بعد أن مضى عليهم قرن اختلت فيه الموازين والمعايير ، ولعل حياة الامة الاسلامية فى القرن الماضى لم تسعفها للقيام بدور ايجابى نحو حياة أفضل كان القرآن الكريم قد شرعها وطبقها فى الصدر الأول .

وبالقاء نظرة فاحصة على خارطة العالم الاسلامى والمعاصر نجده يمثل طائرا له رأس وجناحان .

غاية الأمر أن واحدا من الثلاثة لا يغنى عن الآخر فى أهميته ، وفى استراتيجيته للعمل الجاد نحو الحياة الأفضل التى ينشدها المسلمون جميعا .

فالقلب : مجموعة الدول العربية فى شبه جزيرة العرب ومايجاورها على الساحل الغربى للبحر الاحمر : السعودية ، ودول الامارات ، وقطر ، والكويت ، وسوريا ، ولبنان ، ومصر ، والسودان ، والاردن ، وفلسطين ، واليمن ،

وهى بلاد قد تحررت من مساوىء الاستعمار العسكرى ، وظهرت فيها معادن وامكانات بترولية وأخرى من المواد الخام الصناعية تستطيع أن تلعب بها دورا رئيسيا فى الحركة الاسلامية .

والجناح الايمن : وهو الجناح الشرقى : وهو مجموعة دول : ايران وافغانستان ، وباكستان وماليزيا وأندونيسيا وفطانى فهو يمتد من حدود العراق الى المحيط الهادى .

ولهذا الجناح أهميته فى ارتباط الاستراتيجية العربية فى المحيط

الهندى والخليج العربى بالمحيط الهادى من ناحية أخرى فى القيمة الاقتصادية الكامنة فى هذا الجناح من حيث النفط والمعادن الكثيرة المتنوعة والهامة • وأيضا الغلات الزراعية والتوابل بشتى انواعها ، وكثافة المسلمين فى هذا الجناح ضعف كثافة المسلمين فى القلب ، وقد تحرر هذا الجناح كذلك من السطو العسكرى بكل آلوانه الشرقية والغربية •

والجناح الأيسر : أو الجناح الغربى ويشمل مجموعة دول شمال أفريقيا : ليبيا ، وتونس ، والجزائر والمغرب ، وموريتانيا وهو الجناح المواجه لدول أوربا ، وهو الجناح الذى عبرت منه الدعوة الاسلامية الى الاندلس وعدة جزر فى البحر الأبيض المتوسط ، وهو غنى كذلك بثرواته ، وكثافة السكان فيه لها أهمية فى اعزاز بناء الامة الاسلامية •

فالامة الاسلامية المعاصرة تمتد من المحيط الهادى شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا ومن البحر الأبيض شمالا الى ما وراء المحيط الهندى جنوبا ، وتتمركز فى منطقة متوسطة تعلو خط الاستواء بين مدارى الجدى والسرطان فهو حزام الكرة الأرضية يشمل أفريقيا وآسيا وبعضا من دول أوربا ، وتطل على البحر الأبيض ، والبحر الأحمر ، والمحيط الهادى ، والمحيط الهندى ، والأطلسى وتمتلك مضايق مائية هامة :

- قناة السويس •
- باب المندب •
- مضيق ملاكا
- مضيق جبل طارق •
- البسفور والدردنيل •

فعناصر القوة فى الأمة الاسلامية مكفولة :

أ — جغرافيا •

ب — بشريا •

جـ — اقتصاديا •

وقد تحررت عسكريا ولكنها مازالت مهشمة منذ ألحق بها عدة فواجع :

الفاجعة الاولى : —

سقوط الخلافة الاسلامية ، وكان

من ألمع مظاهر سقوطها هو التمزق الذى أصاب الامة وحـولها الى دويلات ، وكان من أول أسـباب سقوطها ظهور فكرة القـوميات : تلك الأوبئة التى أثارها الصهاينـة من أجل بناء دولة اسرائيل كدولة قومية خاصة بهم .

الفاجعة الثانية :

بناء دولة اسرائيل على مسمع من القوى العـربية والاسـلامية بكلكلها الـكثيف (الضعيف) واستراتيجيتها الحساسة (المعطلة) واقتصادها الضخم (المحبوس) .

الفاجعة الثالثة :

سيطرة العلمانية على الحكم فى جميـع أنحـاء العالم الاسـلامى ومحاولة تغريب الشعب المسلم .

الفاجعة الرابعة :

ارتباك الحركة الاسـلامية فى جميع الوطن الاسلامى فيما يتعلق بوضع خطة لمواجهـة العلمانية المسيطـرة حتى أصيبت الحـركة الاسلامية بشلل كامل :

* ففى أندونيسيا : قضى على الحزب الماشومى وهو الصـورة الصادقة للنظـافة فى الحـكم الاسلامى المعاصر .

* وفى مصر والبلاد العربية : قضى على جماعة الاخوان المسلمين كتمهيد لعربدة العلمانية فى تحديد مصير القضـايا المملاة عليهـا ، والاخوان المسلمون أنصع صفحات التاريخ العربى ، وطنية ، وجهادا ، واخلاصا ، ونظاما .

* وفى الهنـد وباكستان ، حطموا الجماعة الاسلامية وهى أفقه حركة اسـلامية فى شبه القـارة الهندية ومايجاورها ، حتى لا تشب حركة فى الجنـاح الشرقى للعالم الاسلامى قد تساعد على وثبة من القلب أو من الجناح الغربى .

وينتهى القـرن الـرابع عشر الهجرى بهذه المآسى :

ـ علمانيـون يتحكمون فى مقاليد الحـكومات والعـالم الاسلامى .

ب ـ حركات اسلامية مخنوقة : أو مـوءودة ، أو متضـاربة أو متشاكسة مختلفـة على لا شىء

تناقش القشور وتتعمد نسيان اللب .

جـ ـ تسلل شيوعى الى مناطق حساسة فى جسم الامة الاسلامية مثل : عدن ، والجزائر ، وافغانستان .

د ـ ظهور نوع من التسلط والاستفزاز لبعض الاقليات الحاقدة بطبعها دون سبب شرعى أو خلقى ، أو سياسى ، بل ودون سبب دينى واضح ، أو شبه واضح .

هـ ـ زعزعة الثقة فى امكان حل صحيح لقضايا الوطن الفلسطينى دولة ، وشعبا ، أرضا ، وتراثا حضارة ، وثقافة .

ولقد استطاع الاستعمار بشتى وسائله ودوله أن يزرع اسرائيل فى وسط قلب الامة الاسلامية ليربك العرب وهم قلب العالم الاسلامى ـ فى التوصل لوضع حل لهذه القضايا .

ولقد ارتبك العرب فعلا عسكريا ، وسياسيا فى وضع استراتيجية موحدة ودائمة وممكنة التنفيذ لحل قضية الدولة الفلسطينية .. وما زالوا مرتبكين ، وسيظل الاستعمار السياسى يربك العرب حتى لا يفيقوا الى جدية العمل للدعوة الاسلامية خوفا من عودة الاسطول الاسلامى يجوب المحيطات من جديد وفوقه راية الاسلام الحنيف ترفرف بالرخاء والأمن والايمان والحرية وحقوق كرامة الانسان للناس أجمعين .

وما من شك أن الأمة العربية ثم بقية الأمة الاسلامية بما لهم من كثافة سكانية هائلة تجعل منهم أمة عسكرية من الدرجة الأولى وبما لهم من قوة اقتصادية كبيرة هى أصل للتقدم الصناعى عالميا تجعلهم فى محل القدرة على تصنيع عسكرى راق متطور فائق ، وبما لهم من قوة استراتيجية حساسة ودقيقة وهامة هى الحزام الجغرافى للقارات كلها .

العرب والامة الاسلامية بهذه الامكانات .. وبفضل الله وحوله وقوته يقدرون على صنع سياسة دولية ومحلية يحولون بها أيام القرن الخامس عشر الهجرى القادم

الى مثل أيام القرن الهجرى الاول وما ذلك على الله بعزيز •

والنظـــرة التى يجب أن يتطلع بها شباب المسلمين والمسلمـــون اليوم الى مشاهد العمل الاسلامى فى ظل القرن الخامس عشرالهجرى هى :

أولا : فىمجال التعليموالتربية : توحيد الفكر الاسلامى ، وانتزاع فتيل الخـلافات المذهبى لا سيما فى تلك الفروعيات التى لا طائل من وراء المناقشة فيها ، والتركيز على بناء الشخصية الاســـلامية والتصـــدى للتيارات المعادية للاسلام•

ثانيا : فى مجال الشباب توحيد عمـل الشباب الاســلامى بحيث يرفض جميـــع الايديولوجيات القديمة والأفـــكار التى مضت وتركيز جهوده فى :

ا ــ السيطرة على القيادات فى المجال الجـامعى ، والاعـــلامى والتــربوى والاقتصـــادى ثم الشرطة •

ب ــ الالتزام بلب الاســلام فيما يتعلق :

ــ بحفظ القرآن الكريم •

ــ وحفظ السنة المطهرة •

ــ وعودة الخلافة الاسلامية •

جـ ــ وضع سياسة للتصنيــع الحربى ، وسياســـة للاتفـــاق الاقتصادى •

د ــ وضع سياسة ســـلوكية تضمن عدم المواجهة مع الحـــكام العلمانيين وفى نفس الوقت تبنى قيادات شرعية عن طــريق قانونى توطئة لاقامة دويلات اســـلامية نظيفة •

هـ ــ عندما تتــكون هـــذه الدويلات الاسلامية يمكن تكوين مجلس للخـلافة الاســـلامية من رؤساء هــذه الدويلات ، وتكون رياستــه بالانتخـــاب الــدورى لمدة معينة تضمن استقرار نظــام الحكم فى الدويلات الاســلامية واستقرار الحكم فىمجلس الخلافة الاسلامية •

وعندئذ يمكن توحيد التعليم والجيش والقضاء والاقتصاد والشرطة فى دويلات الخلافة الاسلامية •

وعندئذ يمكن وضع سياسة داخلية لهذه الدويلات من حيث :

الخدمات ، والصحة ، والتنمية والرعاية الاجتماعية ، وحقوق الاقليات •

والايمان بالتبعية للخلافة •

وفى نهاية التصور والرؤية للشباب المسلم وجماعات المسلمين فان عليهم واجبا هو الاخلاص النقى ، والتوكل الصادق فى الاعتماد على نصر الله وعونه ، والغاء النظرة الشخصية للمكاسب الفردية للاشخاص والاقطار ، والغاء الحساسية القومية والنزعات العرقية واللغوية •• والله من وراء القصد ، ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم • ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز •

هذا وبالله التوفيق •

دكتور / رءوف شلبى

((الصبر))

قال على ــ كرم الله وجهه ــ : لا يعدم الصبور الظفر وان طل به الزمن .

وقل أيضا : الصبر مطية ، لاتكبو وسيف لاينبو .

وقال خالد بن الوليد : ان الصبر عز ، وان الفشل عجز ، ولن النصر مع الصبر .

وقال حكيم : الضعيف الطيور قوى بصيره ، والقوى الجزع ضعيف بجزعه .

أحلامنا في محرم ١٤٠٠ هـ

للأستاذ السيد حسن قرون

ليست الهجرة من المواسم التى تنقضى معطياتها بانقضاء الاحتفال بيوم ذكـراها ، وليست الكلمات التى تلقى فى منـاسبتها بالكلمات العابرة ، وليس التعبير عنها مباراة فى اظهار البراعة وسلامة المنطق ، انها فوق ذلك كله وان كان مايقال ويلقى ويمثل أيضا مفيدا ورشيدا يبين عن معالم البـذل والفـداء ، وقوة الايمان التى ترتفع بالانسان الى مواطن السماء ، فتشيـر الى العبرة من ذكراها ، واستلهام العمل من جدواها ، ورفع المسلم الـذى أسلم وجهه لله وهو محسن الى التأمل فى عطائها ، والأخذ بهداها ، فقد أقامت دولة دستورهـا قرآن منزل الى نبى مرسـل فما أن استقر النبى محمد صلى الله عليـه وسلم حتى كانـت الدولة الاسـلامية بدعوتها وقضائها وجنودها وأتباعها يوحدون الله بين عـالم نسى الله فأنساه نفسه ، فارتطم بعبـادة الأوثان والطغاة من بنى الانسان .

والمسلمون فى بهجة الذكـرى يتجهون الى حلول النبى فى المدينة بين الأناشـيد والترحيب الحار ، ولا ينظرون الى خلفيتها ، ولا الى الجهاد الكبير الذى كان بمكة قبل الهجرة . لم تقم الدولة الاسلامية الفتية فجأة بين ليلة وضحاهـا ، بل سبقتها تضحيات جسام منـذ نزل قوله تعالى : « اقـرأ باسم ربك الذى خلق » ثلاثة عشر عاما من الجهاد الصادق يلفه نور الهداية من بين يديه ومن خلفه ، رسـول الله يعرض عليه الملك والسيـادة والمال فيأباه أيما اباء ، وأصحابه لا يزيدهم الاضطهاد الا اعتزازا

بالله ، ومضـــاء فى سبيل الله ، وتحديا للكفر وأهله ، والسادرين فى عماية الجهـالة والتعظم بالآباء والأجـداد ، والتقـاليد الفاسدة المتوارثة ، وهان عليهم فراق الأهل والولد والوطن ، فهجر صفوةمنهم مكة طلبا للأمـــن فى الحبشة ، ليعبدوا الله جهارا نهارا وليلا بعيدا عن الطغاة العصاة الذين لا يرعون رحما ولا اخاء ولا مودة ، وسلط العذاب على من بقى منهم ، وكتبت قريش صحيفتها الظالمة التى تمنـع التعامل والتـزاوج من بنى هاشم وبنى المطلبوالمؤمنين ممن انحازوا الى شعب أبى طالب ، نهاية جليلة فى الاستجابةلداعىالله ، والرسول لا يفتر عن الدعوة ، ولا يركن الى أهواء قريش ، ولا الى رقة عمـه أبى طالب وحدابه عليه ، وخوفه من فراق قومه ، فعرض نفسه على القبائل فى المواسمومواطن التجمع علّه يجد قـوما يهيئون له الجو ليقـوم بأداء رسالات الله وقريش تتصدى له فى كل مـكان يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهـــم ، وأفواههم لا تبلغ من الدعوة قليلا ولا كثيرا .. تجاوبت الجـزيرة العربية بما يحدث بمكة بين صاحب الدين الجـديد ،وأصحـاب الموروثات والتقاليد ، والناس من حولهـم يسمعـون أو يخبـرون فيفكرون فى موقف هؤلاء وهؤلاء ومهما عارض الانسان الحقوحاربه فللحق قوته ووثبته وظهـــوره ، وليس أدل على قوة سنوات الجهاد بمكة من الشعر الذى يطير فىآفاق الجزيرة العربية كل مطير ، يشرق ويغرب ويأتى الشمال كمـا يأتى الجنوب ، انطلق الشعر من مكـة ونجد ويثرب ،كان شعر أبى طالب فيه الوعد والوعيد ، والتواضـع والكبرياء ، ينوه بفضل ابنأخيه ، ويعلن أنه معه فى الضراء والسراء قائلا :

لقد علموا ان ابننـــا لا مكذب
لدينـا ، ولايعنى بقـول الاباطل
فاصبح فينا (احمد) فى اروحة
تقصـــر عنــه ســورة المتطـاول
حـديت بنفسى دونـه وحميتـه
ودافعت عنــه بالـــذرا والكلاكل

وأبو السلت الأوسى من يثرب يبدى رأيه فى الأحداث شعـرا ، وكان يحب قريشا وله صهر فيهم ، فزوجته (أرنب بنت أسد) رهط

خديجة رضى الله عنها ، ومن شعره تلمح تعظيمه لحرمة مكة ، ونهيه قريشا عن الحرب فيها ، ويذكرهم بفضلهم وأحلامهم ويأمرهم بالكف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ، ودفعه الفيل وكيده عنهم قائلا لهم :

أعيذكم بالله من شر صنعكم
وشر تباغيكم ودس العقارب
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
هى الغول للاقصين او للاقارب
تقطع ارحاما وتهلك امة
وتبرى السديف من سنام وغارب
فاياكم والحرب لا تعلقنكم
وحوضا وخيم الماء مر المشارب

ويقول حكيم بن أمية السلمى حليف بنى أمية وقد أسلم ينهى قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيهم شريفا مطاعا :

هل قائل قولا من الحق قاعد
عليه وهل غضبان للرشد سامع ؟
وهل سيد ترجو العشيرة نفعه
لاقصى الموالى والاقارب جامع ؟
تبرأت الاوجه من يلمك الصبا
واهجركم ما دام مدل(١) ونازع
وأسلم وجهى للاله ومنطقى
ولو راعنى من الصديق روائع

كل ذلك والرسول فى مكة يتلقى أذى قومه صباح مساء ، ويرمونه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، يبادلهم مايكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه اياهم على كفرهم . وضاق ذرعا بهم بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، وخذلان الطائف له وتعرض أصحابه العائدين من الحبشة للقسوة البالغة ، والتفنن فى الايذاء والمحاربة . فوجهه الله الى يثرب حين اهتدى جل أهلها على أثر لقاءات بينه وبينهم على مدى ثلاث سنوات ، هنا أذن لأصحابه بالهجرة الى المدينة فخرجوا أرسالا ، ولم يبق فى مكة الا هو وصاحبه أبو بكر ، وعلى ابن أبى طالب ، ومن منع من ضعفاء أصحابه .

وتآمرت قريش على قتله ، فكشف الله لرسوله أمرهم ، وأمره بالهجرة ، فنفذها رسول الله على أروع ما ذكره التاريخ وقد ضرب رسول الله لصحبه وأتباعه وأمته

---

(١) المدلى : المرسل دلوه فى البئر والنازع : الجاذب لها .

مثلا عاليا فى الأخذ بالأسباب فلم يتواكل ، ويخرج مهاجرا دون احتياط وحذر ، ونحن نعلم أنه أمر عليا بأن ينام مكانه فى ليلة تنفيذ المؤامرة ويتسجى ببرده الأخضر ، واتفق مع أبى بكر على الهجرة ، وكان أبو بكر قد أعد راحلتين اختار لهما عبد الله ابن أريقط من الدئل بن بكر ليكون دليلهما فى تلك الرحلة الشاقة ، وهذا الدليل وان كان كافرا فيه صفات الرجولة والمروءة والاحتفاظ بالعهد ، وجعلا من عبد الله بن أبى بكر وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر سبيلهما الى الأمان كان الأول عينا على قريش والثانى للرعى ، ليستفيد منهما بالأخبار وطمس المعالم بالغنم ، ونفذت الخطة على أحسن حال ، وفى اليوم الثالث وافاهما ابن أريقط بالراحلتين وراحلة له وودعتهم أسماء بنت أبى بكر ، ونالت لقب ذات النطاقين ، لأنها شقت نطاقها نصفين علقت بأحدهما الطعام ، وانتطقت بالآخر ، ورحل معهم عامر بن فهيرة .. وتمت الهجرة والتقى الرسول بأنصاره والمهاجرين من قومه وغيرهم .

على أثر الهجرة العظيمة قامت تلك الدولة العظيمة ، القرآن والايمان والاخاء والمسجد سداها ولحمتها ، فنشرت النور فى الآفاق ورفعت عن الانسان الآصار والأغلال ، وكشفت عن عينه الغطاء فارتبط بالرحمن ووسائل النعيم فى قلبه وروحه وجسمه راضيا بدنياه متطلعا فى ثقة الى أخراه .

وأعطت الهجرة عطاءها ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا حين جاء نصر الله والفتح ، وظهرت الجزيرة العربية فى ثوب قشيب من التقوى والمعرفة وأنكار الذات ، وذهبت العصبية أدراج الرياح ، وعرفت الانسانية نوعا من الحكم لا مثيل له فى العدالة والحق والايثار . وعرف المسلمون فضلها على عهد عمر فأرخوا بها ، واستمرت فى عطائها فدانت لهم البلدان ، وانتصروا على الدولتين العظميين : فارس والروم فى ذلك الزمان ، وقامت خلافة رسول الله على الحب

والاخاء والعمل لصالح الأمـــة ، فاتنقلوا بها من قلة الى كثرة ومن ذلة الى عزة ، ومن فقـر الى غنى ومن رعى الغنم الى رعاية الشعوب والأمم ، فكانوا مضرب المثـل فى الحفاظ على ميزان العدل ، وجمعوا الى الهـداية العمـران ، فنشروا الحضارة شرقا وغربا دون منّ على الانسانية شأن الهداة البناة الذين لا يرجون على احسانهم جزاء ولا شكورا ، وكان المنتظر ممن عرفوا الشورى ومميزاتها التى تمـلأ النفوس بالثقة ، والتعامل الكريم بين الحاكم والمحكوم أن يطوروها ويمدوا فى أسبابهـا تبعـا لسنة التطور ، فلا تنتكس فى مسيرتها، ولا تعوق برياسة الفرد أو الأسرة ، فتستقر الديمقراطية الاسلامية على أسس ثابتة ، وأصول راسخة ، ولا جدال فى أن بنى عبد مناف من أمية وهاشم مسئولون عن تعويق المسيرة ووضع الجنادل فى طريقها .

اننا اليوم نبكى السلف الصالح على عهد الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ونحـلم بأيامهما وحكمهما والمجد الذى ارتفع بهما فقد كانا قمة فى رعاية الأمة ، وقدوة صالحة للاقتداء والاهتداء فى كل ما يتعلق بشئون الدين والسياسة، والقصص الذى دار حـول ايمان أبى بكر وعمر وسهـــرهما على مصالح الرعية ملأت كتب التاريخ والأدب ، وزهدهما فى زهرة الحياة الدنيا لا نظير له كما قالت الكتب التاريخية والأدبية ، والأمر لا يخفى على المتأمل أن كثرة الالحاح فى الحديث عن الشيخين والكتابة فى نهجهما قديما وحديثا يمثل أحلام الشعوب فى الحياة الكريمة ، وفى المدينة الفاضلة ، وقد وجدوها فى عهد النبى وصاحبيه فهم يتوقون الى رؤياها ، وأن تعود اليهم بنضارتها وسذاجتها بعيدة عن التعقيـــد ، والحيل الملتوية أو المعتدلة ، وبعيدة عن رفع المصاحف ، واللعب بالدين فى سبيل الدنيا ، والنظـــرة الى العاجلة على أنها الأهم وما عداها يسمى صاحبها « وقذته العبادة » أو أنه يتبع « المثالية » ، أو أنه « لا بصر له بمطالب السياسة »،

وجذب الجماهير الى كثير مما حدث ويحدث على توالى العصور من الانغماس الى الأذقان فى الرذائل والخبائث ، والعبث بمصائر الشعوب .

وقد كان الشيخان يعلمان علم اليقين متاع الحياة ، وأطايب الطعام ، وجميل الهندام ، ولكنهما نأيا عن أن يذهبا طيباتهما فى هذه الحياة الدنيا ترفعا عنها ، وطلبا لما هو أسمى منها وهو نعيم الآخرة.

وانظر معى الى أبى بكر الصديق ماذا ترك بعد وفاته ؟ وكيف رضى بالفاقة بعد المال الكثير والتجارة الرابحة ؟ وضع بجانبه مملوكا عاش فى مصر على عهد (الناصر محمد ابن قلاوون) اسمه (سلار) ماذا ترك من مال حين هلك ؟ ليعذرنى القارىء اذا وازنت بين الرجلين، فلا يقل شتان بين صاحب رسول الله وأول من أسلم من الرجال ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار وبين مملوك اشتراه مملوك مثله ، ووضعته الظروف فى موضع السلطة، فصار (نائب السلطنة) فى مصر زمن آل قلاوون من المماليك البحرية ، لأن الايمان لا يفرق بين عصر وعصر ،ولا بين مسلم ومسلم ، فعمل المرء يدنيه من الله ان كان خيرا ، ويبعده عنه ان كان شرا ، والشريعة فى أحكامها لا تنظر الى العصور ، وانما تنظر الى الأعمال الصالحة ، وحديث رسول الله «خير القرون قرنى ثم الذى يليه ... » لا يدفع ما نقول ، لأن قرنه شرف به ، وفى عصرنا من الظالمين من هو أقل ظلما من قتلة الحسين رضى الله عنه ، فقد بلغ من قسوتهم وشهوتهم للتنكيل أنهم مروا على جسده عشر مرات بالخيول وهو ميت ، ولم يراعوا حرمة الموت ولا قرابته القريبة ممن يحكمون بشريعته ، ويصلون عليه وعلى آله ، فالموازنة فى نظرى سليمة ، وبعد هذا العذر أجيب عن السؤالين لنرى الفرق بين الرجلين ، وهما مثالان ، ولك من التاريخ أمثلة كثيرة للزاهدين والطامعين والمثاليين والنفعيين .

قال أبو بكر لابنته عائشة بعد أن أفاق من الاغماء وهو يحتضر : يا أمه (ناداها بأمه ، لأنها زوج

الرسول وأم المؤمنين وهو واحد منهم) هــذا يوم يخلى لى عــن غطائى ، وأشاهد جزائى ، ان فرحا فدائم ، وان ترحـــا فمقيم ، أنى اضطلعت بأمانة هؤلاء القوم حين كان النكوص اضاعة ، والخــذل تفريطا ، فشهيدى الله ما كان يقيلنى اياه ، فتعلقت بصحفتهم ، وتعللت بدّرة لقحتهم ، وأقت صلاتى معهم ، لا مختالا أشرا ، ولا مــــكاثرا بطرا ، لم أعد سد الجـــوعة ، وورى العورة ، وقواتة القــوام ، حاضرى الله من طوى ممغص تهفو منه الأحشاء ، وتجف له الأمعـــاء واضطررت الى ذلك اضطــــرار المــريض الى المعيف الآجــن . فاذا مت فردى اليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم (١) ورحـــاهم ، ودثارة ما فوقى اتقيت بها أذى البـــرد ، ودثارة ما تحتى اتقيت بهـــا أذى الأرض كان حشوها قطع السعف .

هذا ما كان عنـــــده رده الى المسلمين ، وخرج من الدنيـــا لم يترك شيئا وهو الغنى السرى الذى كان فى الجاهلية منعما ويقـــوم بحمل الديات والمغارم عن قريش فأنفق كل ما له على المسلمين بشراء الأرقاء والانفاق على الغـزوات . قال الرواة : ودخل عليه عمــــر فقال : يا خليفة رسول الله ، لقــد كلفت القوم بعدك تعبا ، ووليتهم نصبا ، فهيهات من شق غبــارك ، فكيف اللحاق بك ؟ يقول هــــذا القول عمــر الزاهد الذى ارادته الدنيا ولم يردها كما قال عنــــه معاوية بن أبى سفيان اعجابا بزهده وتحريا لما أسند اليه من مال .

هذا جوابى عما ترك أبو بكر ، أما جوابى عمـــا تركه المملوك (سلار) فهو كما جاء فى بدائع الزهور لابن اياس . (سلار) من التتار واخترته من بين المماليك ، لأنه كما قال ابن اياس خيرٌ يعطف على الفقراء ، ولأنه رفض السلطنة حين عرضت عليه بعد أن خلـــع الناصر محمد بن قلاوون نفسه منها للمرة الثانية وحلف بالطــلاق ثلاثا لا يقبلها ، وبقى نائبـــا للسلطنـــة

(١) ناقة كان يشرب من البانها .

أحدى عشرة سنة ، ولما عاد الى السلطنة الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثالثة خلع على (سلار) وطلب اليه البقاء فى النيابة ،ولكنه أبى وطلب من السلطان أن يعفيه منها ، وأن يقيم (بالشوبك) لأنها واقعة فى أرض اقطاعه ، فأجابه السلطان الى طلبه ، وخلع عليه خلعة السفر ، وكان (سلار) يود أن يعيش فى أملاكه آمنا مطمئنا بعيدا عن مضايق السياسة والحكم وكفاه ما هو فيه من الثروة والجاه ، ولكن الانسان يقدر وتضحك منه الأقدار .. فما هى الا أيام قلائل حتى قام بعض الأمراء بثورة على السلطان للاطاحة بحكمه ، ولكن الثورة أو المؤامرة أخفقت وقبض السلطان على المتآمرين ومن بينهم أخو (سلار) فأرسل السلطان يستدعى (سلار) وجاءه فقبض عليه وزج به فى السجن دون تحقيق أو مساءلة أو مواجهة ، والرجل معروف بالعزوف عن السلطنة وله رصيد فى رفضها حز القبض فى نفسه ، فأضرب عن الطعام ، فبعث اليه السلطان بطعام من عنده فرفضه ، فتركه السلطان للجوع ، والجوع كافر كما نقول ، فلما اشتد عليه الجوع « أكل أخفافه ... ولما بلغ السلطان ذلك رق له ، وأرسل من يقول له : ان السلطان قد رضى عليك ففرح وقام ومشى خطوات ثم وقع ميتا من شدة الجوع » هكذا يؤرخ ابن اياس . لكن ماذا ترك ؟ هكذا يجىء السؤال عن كل من هلك . شكلت لجنة لجرد ممتلكاته ، وحددت أياما للجرد ، لأن يوما واحدا لا يكفى . فماذا وجدت اللجنة ؟

اليوم الأول كان (الأحد) الموافق السادس عشر من جمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة من الهجرة (٧١٠ هـ) : من جرد هذا اليوم صناديق افرنجى مصفحة بنحاس ضمنها فصوص ، منها فصوص ياقوت أحمر كهرمان رطلان ، وفصوص بلخش رطلان ونصف ، وفصوص زمر بابى عشرون رطلا ، وفصوص ألماس وعين الهر ثلثمائة قطعة ، ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة ،

وصناديق فيها ذهب عين مائتـــا ألف دينار ، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم ، وواحـــد وسبعـــون ألف درهم .

وفى اليوم الثانى (الاثنين) وجد له من الذهب العين خمســة وخمسون ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف درهم ، ومن الفصوص المختلفة رطلان ، ووجد له مصوغ من ذهب ما بين خلاخيل وأساور وزن أربعة قناطير مصرى ، ووجد عنده طاسات فضة وأطباق وأهوان ذهب ، وطشوت فضة الوزن ستة قناطير .

وفى يوم (الثلاثاء) وجد له من الذهب العيـــن خمســـة وأربعـــون ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف وثلاثون ألف درهم .

ووجد عنـــده طلعات فضـــة للصناجق ، وقطريات فضة ثلاثـــة قناطير .

وفى يوم (الاربعاء) وجد عنده من الذهب العين ألف ألف دينار، ومن الفضة ثلثمائة ألف درهم ، وأقبية حرير عمل الدار ملون بفرو سنجاب .. العدة أربعمائة قباء ، ومن السروج الذهب مائة سرج ، وكلها بمياثر زركش على مخمل أحمر ووجد له عند صهـــره (الأميـــر موسى) ثمانية صنـــاديق لم يعلم ما فيها ، ووجـــــد له من الشقق الحرير ألف شقة ، ووصل صحبته من الكرك من الذهب العين مـــائة ألف دينار ، ومن الدراهم أربعمائة ألف درهم ، ومن الخـــلع الملونة ثلثمائة خلعة ، ووجد عنده مـــن الخيام ست عشرة نوبة .. ووجد عنـــده من الخيول ثلثمائة رأس ، ومن البغال مائة وعشرون قطارا ، ومن الجمال مائة وعشرون قطارا .

قال الراوى : هذا كله خارج عما وجد له من الأمـــــلاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوارى .. ووجد عنده من الأغنـــام والأبقار ما لا يحصى ، ومن الغلال ثلثمـــائة ألف اردب فى الشون .. وهـــــذا الجرد موثق بخط القاضى (جمال الدين بن الغويرة) نقله الشيـــخ محمد الكتبى المؤرخ وأخذه عنه

ابن اياس . كان كل هذا عندالامير (سلار) على حين كان الشعب يعانى من الضائقة المالية ، وقد فرضت عليه الضرائب ولم يتم وفاء النيل ، فقال الشاعر نصير الدين الحمامى :

ان عجل النوروز قبل الوفا
عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمعهم ما جرى
وما جرى من نيلهم ما كفى

وصنع العوام كلاما فى مثل هدا ولحنوه فلقوا الأمرين من تلحينهم وشكواهم ، ولم تمتد يد (سلار) بما عنده من المال والطعام ليعين الشعب على بلواه ، وقد ضمت هذه الأموال الى بيت المال ، ومات جائعا يقضم خفه بأسنانه ،ويعلق ابن اياس على ما سجله من هذا الجرد العجيب قائلا : « ومن العجائب أن الأمير (سلار) أقام فى نيابة السلطنة احدى عشرة سنة .. فكيف حوى هذه الأموال العظيمة فى هذه المدة اليسيرة ؟ والذى يظهر لى اما أنه كان قد ظفر بكنز من كنوز القدماء ، وأما أنه كان قد أخذ هذه الأموال والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه الملك الناصر الى الكرك . وقد كانت مفاتيح بيت المال بيد (سلار) لا يمكن منها الناصر بشىء .. » ان الرجل مكث احدى عشرة سنة نائبا عن السلطنة وكان قوى البأس مفروضا على الدولة فأخذ من بيت المال ومن الشعب فى مصر والشام ومن السلطان نفسه فى المناسبات .

فأى الرجلين أحسن حالا ومآلا أبى بكر أم (سلار) ؟ ان أبا بكر صاحب مبادىء وحامى دولة يهمه أمرها ويعنيه علو شأنها بجانب ذلك ايمانه وخوفه من الله . أما (سلار) فهو بعيد عن التربية الخلقية والاسلامية ويرى أنه صاحب الأمر وليس للشعب الا فتات الموائد ، ولو كانت لنا رقابة شعبية (مجلس شورى ؟ مابلغ (سلار) من احتجان المال وتجويع الشعب ، فاذا كان كل من جاء بعده سلك مسلكه فمعجزة ان يبقى الشعب المصرى الى اليوم على حين أن سادة المماليك ورأسهم صلاح الدين الأيوبى لم يكونوا كذلك ، بل

كانت تركة صلاح الدين عند وفاته أربعين درهما كما سجلها الجبرتى فى تاريخه .

واليوم ونحن نذكر هذا ، وننظر حولنا فى البلاد الاسلامية ماذا نرى ؟ ان النظرة السطحية المتعجلة تدفعك الى اليأس دفعا ، تسيطر على العيون مناظر التفرق والتمزق والارتماء فى أحضان الاجنبى ، وترى مصائرهم واتجاه حياتهم مشدودة الى غير آفاقهم — يستوردون الأفكار والنظم والتقاليد كما يستوردون السلاح والعطور والآلات الكهربية ، واذا فكروا أو كتبوا كانت مراجعهم من غيوم الغرب لا من صفاء سماء الشرق، وعلوم وفنون وآثار زائفة حتى اذا كل تراثنا ومخلفاتنا من آداب قال فيها باحث أو كاتب أو مستشرق رأيا طيبا شعرنا بالعزة وهزتنا الكلمة ثم تهدأ هدوء البحر بعد انقضاء أثر الحجر الذى ألقى فيه ، فنعود الى الغرب منوهين بما يستحدث ومن الغريب أننا نأخذ القشور وتترك اللباب لأن القشور براقة تعجب الأطفال ولا تعجب الرجال .

واذا تحدثنا عن الشورى أو كما تسمى الآن الديمقراطية قام نفر منا يلبسون ثياب التقوى يقولون : ان الاسلام يعرف « أهل العقد والحل » ولا يعرف رأى الرعية أو الشعب كما يقال اليوم وظهرت فى الدنيا مقالات جديدة علينا ، فتركتنا الخلافة الاسلامية أو الدولة الاسلامية أو العالم الاسلامى وصرنا شيعا ودولا وكتلات مثل الأمة العربية ، أو مسلمى آسيا ومسلمى أفريقية ، وابتعدت بعض الدول عن أسمائها القديمة فصرنا نستخدم كلمة (ايران) بدل كلمة (فارس) و (باكستان) بدل الهند والسند ، وتغيرت مفاهيم الاسلام عند كل فريق ، فعندنا الشيعة والسنة والوهابية والقاديانية والبهائية الى كثير مما يفرق ولا يجمع ، ويبغض ولا يحبب . ويقرأون جميعا : « انما المؤمنون اخوة » والدين رحم مقدم على كل الأرحام ، ولكن أتباعه فى خصام لا يدانيه خصام .

وتذاع مذكرات تتحدث عن العروبة أو الاسلام فترانا فيها ضالعين مع غيرنا محاربين لأهلنا، ثائرين على دعاة الايمان والحالمين بعودة شعوبنا الى الاسلام . هل نيأس ؟ هل نبتئس ؟ هل نذوب فى الشعوب وتندثر لغة القرآن ؟ اننى لا أومن بحكاية أهل « العقد والحل » كما لا أومن باغفال تراثنا لأن الغرب تقدم علينا ، فحكاية أهل « الحل والعقد » (١) هى التى ألقت بجموع الرعية الى الظل ، وجعلتهم يتوارون شيئا فشيئا حتى صاروا قطعانا من الغنم ، يحسن الرعاة حينا اليها ، ويسيئون فى أغلب الأحايين اليها . بدأت حكاية أهل « العقد والحل » منذ أواخر خلافة عمر رضى الله عنه ، فقد بلغه مقالة تتصل بالدين وسياسة الدولة وكان بمكة فى موسم الحج ، فأراد الاجتماع بحجاج بيت الله ليقول لهم رأيه فيما بلغه ، ويضع لهم الحقائق أمام أعينهم واستشار عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقال : « يا أمير المؤمنين لا تفعل (١) فان الموسم يجمع رعاع الناس وغوغائهم ، وانهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم فى الناس ، وانى أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطير بها أولئك كل مطير ولا يعوها ولا يضعوها على موضعها ، فامهل حتى تقدم المدينة ، فانها دار السنة ، وتخلص بأهل الثقة وأشراف الناس فتقول ما قلت بالمدينة متمكنا ، فيعى أهل الثقة مقالتك ، ويضعوها على مواضعها » فقال عمر : أما والله — ان شاء الله — لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة . ولما رجع الى المدينة خطب فى مسجد رسول الله فى شأن المقالة التى بلغته ، والمقالة التى بلغته تحتوى أمرين : الأول خاص بمسألة رجم المحصن والمحصنة ، والآخر خاص بخلافة أبى بكر وأنها كانت فلتة (٢) . فأى ضير على جموع المسلمين فى موسم الحج أن تعرف هذين الأمرين ؟ ..

.. ولكن عبد الرحمن بن عوف جعل ذلك من شأن « أهل الثقة » وأهل الثقة يجب أن يكونوا فى

(١) حـ ٤ سيرة ابن هشام (٢) لامجال هنا لذكر ماقاله

حاضرة الدولة ، ونشــأ من هــذا الموقف أهل « العقد والحل » ، وأخــذت الفكرة تضيق وتضيق ، فأصبح أمر المسلمين حــكرا على الأسرة الحــاكمة ومن يعمــل فى خدمتهم .. وهكذا بعدنا عن قوله تعالى لنبيــه الذى لا ينطــق عن الهوى : « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شــورى بينهم » ولم يخصص الله قوما بأعيانهم .. فكل المسلمين مخــاطبون بما أنزل على رسوله .

فى مطلع القرن الخامس عشر نحلم بتغيير جغرافية التفكير الاسلامى، وعودتنا الى المنبع الأول قبل أن يقول ابن عوف مقالته ويحول بين الخليفة والجماهير ليبثهم ما يجول فى رأسه ، ويشاركهــم فى ابداء الرأى ، ويضعهم معه فى الصورة.

وقد كانت الخلافة خلافة قريش كلها والمسلمين جميعا على عهــد الشيخين ، ولكن ابن عوف عفا الله عنه هو صاحب فكرة ارضاء بنى عبد مناف ، فقال لكل واحــد من أهل الشورى بعد مقتل عمر : وهم سعد والزبير وعلى عثمان وطلحة ابن عبيد الله قال لكل واحد : فى هذه المرة ، الخلافة لابنى عبــد مناف : (على أو عثمان) ، ثم خلع ما فى رقبته من شأن الخلافة ووضعه فى عنق عثمان . ومعنى ذلك عند بنى عبد مناف أنه الملك، فقام ملك بنى أمية ثم مــلك بنى هاشم (العباسيين) وضاع مبــدأ الاختيار ومبدأ الشورى ، فالخلافة وراثية ، والشورى لأهل العقــد والحل ، أو أهل الثقة على حــد تعبير ابن عــوف . فاذا تفاءلنا ، وضربنا باليأس عرض الحائط فلنعد الى أحكام القرآن فى عبــاداته ومعاملاته وشئون الحكم فيه .. لقد جربنا التنائى عن أحكام الدين والشريعة الاسلامية دهرا فلم نجد فى قوانيننا رادعا فلنجرب مــن جديد شريعتنا ، وليكن رسول الله أسوتنا فى جميع أحوالنــا سائرين على طريقة أبى بكر وعمــر فى الاتباع والارتفــاع عن مغــريات الدنيا ويومئذ نكون الاخــوة ، ونعتصم بحبل الله ولا نتفــرق فنصبح ســادة الدنيا كما كنا فى العهد الاول .

السيد حسن قرون

في مواجهة الإلحاد المعاصر:

عدم كفاية العلم في مجال المعرفة

للدكتور يحيى هاشم

(٦)

عجز العلم عن تحقيق الموضـوعية أو الواقعيـة ..

يقول أمير بوترو :

(من المهم التمييز بين الواقعة العلمية ، والواقعة الخام) •

فالواقعة الخام من جهة مصدرها ليست الا النسيج الذى يقتطع منه العـلم ـ بطريقتـه الخاصـة ـ ما يسميه الوقائع •

أما الواقعة العلمية فانها جواب العلم عن استفسار أساسه سلسلة القوانين والفروض التى سبق أن تخيلهـا الذهن لشرح ظواهر من جنس واحد • اننا نقرر ونحـدد وندرك الوقائع التى نسميها علمية بواسطة نظرياتنا وتعاريفنا العلمية الموجودة من قبل •

وكمـا صيغت النظريات بحيث تلائم الوقائع ، فان الوقائع صيغت بحيث تلائم النظريات •

فاتفاق النظـريات مع الوقائع هو من بعض الوجوه اتفاق هـذه النظريات مع نفسها •

وذلـك لأن العقـل البشرى لا يسـتطيع أن يعمـل الا فكريا وتنطوى طريقة فعـله وقـد ركب من صور ومقـولات معينة ، على التساؤل : أيمكن أن تمثل فى هذه الصـور والمقـولات الأشياء التى تقدم اليه ؟

فهولا يعرف ولا يدرك الا بشرط حصـوله من قبـل على قـوالب للمعرفة وللادراك •

فما هو الأصـــل الأول لهـــذه المعارف السابقة ؟

وما الذى تمثله وما قيمتها ؟

ان المشكلة تتجـاوز نطـاق الوقائع العلمية •

وكل ما نعرفه هـــو أن معرفتنا وادراكنـا لا يمـــكن أن يـــكون الا ترجمة بلغتنـا للحقـائق التى تقـدم الينـا •

والوقائع كالقـــوانين فى هـــذا الصـــدد ، بل يجب بكل تأكيـــد القـــول بأن الوقائع لا تعطى لنـا الا بسبب قوانين معينة ما دامت تلك الوقائع لا يمـــكن ان تدرك الا اذا أرجعها الشعور الى نماذج موجودة من قبل •

ولن يتمكن العلم من التخلص من هذا الشرط العـــام للمعرفة • ذلك أن العلم هـــو أيضا لغـــة ، ولا يمكن أن يكون الا لغـــة ، بفضلها يعقل العقـــل أكبر عـــدد ممكن من الأشـــياء ••• فكيف تصنع هذه اللغة ، وأى جزء من الحقيقة هو أهل للتعبير عنهـــا ؟ وبأى درجة من الأمانة ؟

هذه الأسئلة من الواضح انها محيرة ، ما دام العقل لا يمكن أن يبحث فيها الا بمعونة ، وباسم ، الأفكار السابقة ••

وما يستخلص من هذا هو أن العلم ليس أثرا تحدثه الأشياء فى عقل منفعـــل ، بل مجمـــوعة من العلاقات التى يتخيلها العقل : (أ) لتأويل الأشياء بواسطة مفـــاهيم موجودة من قبـــل يصعب عليـــه ادراك أصلها (ب) ولكسب القدرة بهذه الطريقـــة على استخدامها فى تحقيق أهدافه (١) •

ثم يزيد أميـــل بوترو توضيحه للاواقعيـــة القـــوانين والفـــروض العلمية فيقول : (تميل الفـــروض العلمية بوجه عام الى أن تضع فى العـــــالم الوحـــــدة والبســـاطة والاتصال (٢) •

---

(١) العلم والـــدين ص ١٩٥ : ١٩٦

(٢) انظر ماذكرناه عن بيرس من لا تجريبية الهندسة.

وهذه الخصائص ليست وقائع من ثمرة الملاحظة بل انه ليعسر التوفيق بينها لأن عالمنا ما دامت كثرة أجزائه لا نهاية لها فان ترغب فى أن يكون واحدا كأنك تتطلب من كل أجزائه أن يؤثر بعضها فى بعض ، وان يتأثر بعضها ببعض مما يجر الى تعقيد لاخلاص منه . فهنا يبدو التناقض بين الوحدة والبساطة .

والأمر كذلك فى البحث عن الاتصال لأنه ابتعاد عن البساطة التى من الأفضل أن تضمنها كثرة من المقولات تتميز فيما بينها تماما .

فما هى اذن هذه الغايات التى ينشدها العلم ان لم تكن قوانين يفرضها العقل على الآشياء ؟ لأنه بمقتضى طبيعته لا يستطيع أن يتمثلها كما تعطى له بالتجربة البحتة ..) (١) .

(والعلم فى هذا الصدد كاللغات التى أحسن الأستاذ بريال القول فيها ، فذهب الى أنها ليست كائنات يوجد مبدأ وجودها وتطورها خارج العقل البشرى ، فعقل الانسان وذكاؤه وارادته هى وحدها العلة للغة ولا تستطيع اللغة أن تتجرد من هذا كله) (٢)

وهذا هو ما دفع كارل بيرسن الى أن يقول :

(القانون العلمى ليس كشفا لعلاقات موجودة فى طبيعة الأشياء ، وانما هو اختراع لهذه العلاقات) (٣) .

ويقول الدكتور هـ . ايزنك (التكوينات التى تفهم الظواهر الطبيعية فى ضوئها هى أبتكار من صنع الانسان ، واكتشاف أحد القوانين العلمية ما هو الا مجرد اكتشاف : ان احدى أفكار الانسان تصلح لتبسيط وتوحيد وفهم نوع معين من الظواهر الطبيعية ، وينبغى ألا يتبادر الى الذهن أن للقانون العلمى وجودا مستقلا بذاته عثر

---

(١) العلم والدين ص ٢٢٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٤
(٣) مجلة تراث الانسانية العدد ١٢ المجلد ٣ ص ٩٢٢ .

عليه أحد العلمـاء ممن أسعدهم الحظ بالصدفة ، فالقانون العلمى ليس جزءا من الطبيعة ، بل هـو سبيل الى فهمها فقط •) (١) •

ويقول برتراندرسل :

(حينما ينظر فردان من أفراد الناس الى شيء معين تحدث فروق بين ما يشهدان وفقـا للمنظـور ، وللطريقة التى يسقط بها الضوء • وليس هنـاك من سبب يدعونا الى أن نختـار أحـد المشاهدين باعتباره يرى الشيء كما هـو فى « الواقع » •

ونحن بناء على هذا لا نستطيع أن نزعم أن الشيء الفيزيقى هـو ما يراه أى انسان • هذه حقيقـة عادية بالنسبة لعالم الفيزياء ••

على ان عالم وظائف الأعضاء لا يقـل عن عالم الفيزياء تخييبا لآمالنا • فهو يقرر على نحو واضح ان هنـاك سلسلة سببية محكمة تمتد من العين الى المخ فاذا أمكننا أن نحدث نفس الحـالة فى المخ بأسباب أخـرى غـير الأسباب العادية فانك قـد تتلقى أحساسا بصريا غير مرتبط على النحو المعتاد بالشيء الفيزيقى ولا يقتصر هـذا الأمر عـلى الاحسـاس البصرى خاصة :

اذ هناك المثال المألوف للرجـل الذى يحس ألما فى ابهـام قـدمه بالـرغم مـن أن قـدمه قـد بترت) (٢) •

ويقول الأستاذ ليـكونت دى نوى :

(ان مقياس الملاحظة من وجهة نظر الانسان هـو الذى يخـلق الظواهر • فعنـدما نغير مقيـاس الملاحظة نشاهد ظواهر أخرى •

ففى نطاق مقيـاس ملاحظاتنـا تكون حافة الموسى خطأ مستقيما أما تحت المجهر فتبدو منقطعة ، أما فى المقياس الكيميائى فان الذى أمامنا جواهر من الفحم والحديد ، وفى مقياس الجواهر يوجد أمامنا

---

(١) مشكلات على النفس ص١٨ •

(٢) فلسفتى كيف تطورت ص ١٢٦ •

الالكترونات فى حـالة أبدية تسير بسرعة عدة آلاف من الأميال فى كل ثانية ..

وجميع هذه الظواهر هى وجوه للظاهرة الاساسية .. وهى وجوه اختلفت باختلاف مقياس الملاحظة الذى نستعمله) .

ويقـــول :

(انه فى الطبيعة لا توجد عدة مقاييس ..

وانما هناك ظاهرة واحـدة ، متناسقة

ضخمة ، على مستوى لا يدركه الانسان .) (١) .

ويقول الأستاذ جورج جاموف :

(لا نستطيع الجزم بأن نتـائج القياس والمشاهدة تصف بالفعـل ما كان قـد يحـدث لو اننا لم نستخدم وسائل القياس .

فالراصد ومعداته كلاهما يصبح جزءا متكاملا مع الظـاهرة التى تدرس ، وحتى من حيث المبـدأ لا يوجد شىء مثل ظاهرة طبيعية مطلقة . وفى جميع الحالات يوجد تأثير متبادل لا يمكن تجنبه على الاطـــلاق بين الراصـــد والظاهرة .) (٢) .

ويقول لويس دى بروجلى :

(لم تعد فيزياء الكم تقـودنا الى وصـف موضـوعى للعـالم الخارجى متفـق مع المثل الاعلى للفيزياء الكلاسيكية . انها لم تعد تمدنا بشىء سـوى العـلاقة بين حالة العالم الخارجى ومعرفة كل راصـد . وهى عـلاقة أصبحت لا تعتمد على العـالم الخـارجى وحده بل وأيضا على المشاهدات والقياسات التى يجريها الراصدون .. وهكذا يفقد العـلم جزءا من طابعه الموضوعى ، اذ لم يعد العلم تأملا سلبيا لكون مثبت ، انمـا أصبح عراكا بالأيدى ينال الباحث بغيته اذ يختطف من العالم الفيزيائى الذى يود أن يتـأمله معـلومات معينة ، وهى دائما جزئية ، تسمح له بأن يتنبـأ تنبؤات ناقصـة ،

(١) مصير البشرية ص ٢٠ .
(٢) قصة الفيزياء ص ٣٤٤ .

ليست ــ عـلى العمـوم ــ الا « محتملة الوقوع » (١) .

(ليس هناك أدنى شك فى أن نظرياتنا العلميـة ينبغى أن ترتبط ــ بالقواعد التى يجرى عليهـا أداء عقولنا وبناء فكرنا ــ وكذلك بالتصورات التى لدينا .

ان ذلك أمـر لم يسـتطع أى عالم له عقل يفكر حتى ولو كان ضعيف النقد جـدا ان يتخلص منه أبدا .

ان علم الانسان بشرى ولا يمكن أبدا أن يكون غير ذلك) (٢) .

ويقول : أيضا :

(لا شـك أن وصف العـالم الفيزيائى الذى يقدمه كائن ما ، قوامه العقـلى أو أعضـاء حسه تختلف اختلافا عميقا عنا .. سوف يكون شديد الاختلاف عن وضعنا له . لقـد قيـل عـن الفـن انه « الانسان مضافا الى الطبيعة » ، ونفس التعريف ينسحب أيضا على العلم .) (٣) .

ويقول وليم جيمس :

(انه لمن البديهى ان يقـال انه ليس لنا من القـوى ما ندرك به النظام الخارجى كمـا تقـدمه لنا الحواس . فالعالم الخارجى كمـا نحس به الآن موضـوعيا هـــو مجموعة ما فيـه الآن من كائنات وحـادثات . ولسـنا نقـدر أن نفكر فى كل هذه المجموعة فهـل يمكننا أن ندرك مثـلا التقـاء أجزاء الوجود بعضها عند نقطـة معينة من الزمن ؟ فبينما أنا اتكلم الآن يزن ذباب ، ويصـيد طـائر بحرى سـمكة عند مصب نهـر الامـازون ، وتسقط شـجرة فى مجاهل ادروتداك ، ويعطس رجل فى ألمانيا ، ويمـوت حصـان فى تارتارى ، ويولـد توأمـان فى فرنسا ؟

فما معنى كل هذا ؟ هل يؤدى تقارن هذه الأشياء الزمنى بعضها مع بعض ومـع ملايين من أشياء أخرى منفصلة عنها الى ربط منطقى

(١) الفيـزياء والمـكروفيزيا ص ١٤٦

(٢) الفيـزياء والمـكروفيزياء ص ١٢٧ .

(٣) الفيـزياء والمـكروفيزياء ص ٨٨ : ٨٩

بينها لتكون وحدة تسمى عالما ؟ ذلك اقتران مصادفي فحسب ، وهو النظام الواقعي للعالم . انه نظام لا نقدر أن نفعل نحوه شيئا الا أن نخلص منه سريعا . وكما قلت : نحن نمزقه أربا . فنمزقه الى تواريخ ، ونمزقه الى فنون وعلوم ، وعندئذ نشعر بالهدوء والطمأنينة ونمزقه الى آلاف من النظم ، وتتجاوب مع كل واحد منها متجاهلين الأخرى كأنها لا وجود لها ، ونكتشف بين جزئياتها المتعددة علاقات لم تدركها الحواس ونذهب أبعد من هذا فنعتبر قليلا منها ماهية جوهرية ثم تتجاهل الباقي . نعم هي علاقات جوهرية وأساسية ، ولكنها كذلك لغرضنا نحن ، والعلاقات الأخرى واقعية مثلها ، وغرضنا هو أن تفهم المستقبل ونعرفه . أو ليس مجرد الفهم والادراك – وتعرف المستقبل غايات ذاتية صرفة ؟

انه لا ييأس كل من الرجل العملي والعلمي عندما يخفق ، بل يحاول ثانية قائلا : لا بد وأن تخضع المحسات لي وأن تتحول الى ما أبغيه من أشكال ونظم . فهما يفترضان انسجاما بين الارادة وطبائع الأشياء .) (١) .

ويقول أيضا :

(ليست العلوم الطبيعية الا فصلا واحدا من أدوار الشعوذة العظمى التي تلعبها قوانا الادراكية مع نظام الوجود كما تمثله لنا الحواس .. فهي تحول ذلك المستوى الميت والاستمرار الممل في عالم الحس الى عالم آخر فيه كثير من المفارقات الحادة ، والطبقات التي يخضع بعضها لبعض . والغرض من ذلك التحويل هو ارضاء رغباتنا وميولنا الذاتية.) (٢) .

---

(١) العقل والدين ص ٨٧ – ٨٨
(٢) العقل والدين ص ٩٧

عجز العلم عن التفسير :

يقول الأستاذ اسماعيل مظهر :

(لم تشرق شمس القرن التاسع عشر حتى برز العلم من ثنايا الفكر الانسانى بمستكشفات راح ذوو العلم يبالغون فى قيمتها مبالغة جرتهم الى القول بأن مغاليق الوجود قد فتحت أمام العقل من طريق العلم وان الانسان لا محالة دالف بقدمه يوما الى حدود المعرفة المطلقة التى استغلقت عليه القرون الطوال وانه سوف يصل الى حل رموز الكون وأسرار الوجود فى أقرب حين .

ساد اذ ذاك الاعتقاد بأن ليس أمام الانسان من طريق يوصله الى ذلك سوى الركون الى الطريقة العلمية ..

ولا تزال هـذه الفـكرة ذات أثر كبير فى عقول بعض البـاحثين فى هذا العصر اذ طالما يسمع طلاب الفلسـفة ودارسـو الـدين بأن طريقتهم التى يعكفون عليهـا فى تفسـير حقـائق الحيـاة طريقـة « غير علمية » وان ليس لشىء فى العالم من حق الوصـول الى ذلك المدى القصى من المعـرفة سـوى المعرفة العلمية .

واذا كان القرن التاسع عشر لم يشرف على الختـام حتى ودعـه العلماء بعدة مستكشفات خطيرة فى الفيزيقـا والـكيمياء والتـاريخ الطبيعى ــ فان أعظم استكشاف وصل اليه العقل البشرى خـلال القرن التاسع عشر ــ تيقن أهـل العـلم بأن للعـلم حـدا يقف عنـده .) (١) .

ويقول الأستاذ بيتى كروزيار :

(اذا قذف الحجـر الى أعلى يعود الى الأرض .

لماذا ؟ يقول العلم :

لأن جاذبية النقل تجذبه ثانيـة الى أسفل .

هذا : كمـا لو قلت : لأن كل الأشياء الأخرى ترى تجرى عائدة الى الأرض تحت تأثير الظـروف المحيطة بذلك الحجر ولكنك اذا تساءلت : لـماذا تسقط الأشـياء أصلا ؟

---

(١) ملقى السبيل ص ١١٠ : ١١١

ولماذا يكون للجاذبية ضلع فى نظام العالم ؟)

وما هى الجـاذبية ؟

لم تجد جوابا من العلم (١) •

ويقـول الأسـتاذ ادوار • ج • هيوى :

(اننـا نعـلم ما الذى تفعـله الكهرباء ، ونعـلم كيف تعمـل ذلك ••• ولكننا لا نعلم بالضبط :

لماذا تعمل الكهرباء ما تعمله ••

اننا فى الحقيقة لا نعـلم ما هى الكهرباء •

اننا نستعمل الكهرباء ولكننـا لا نستطيع أن نفهمها تماما •) (٢)

ويقول برتراند رسل :

(كل ما تتيحـه لنـا الفيزياء لا يعدوا بعض المعـادلات التى تقـدم لنـا بعض مـا تتصف به تغيرات الحوادث من خواص • أما ما هى هذه التغيرات ، ومن والى أى شىء تتغـير فان الفيزياء لا تحير جوابا •) (٣) •

ويقول كارل بيرسن :

(تقتصر مهمة القانون فى معناه العـلمى عـلى وصف الادراكات الحسية عن طريق اختزال ذهنى • ولما كان العلم يقتصر على الوصف ولا يفسر شـيئا ، فمـن الطبيعى ألا ننتظر منه تعليلا للترتيب الذى تحـدث به هـذه الادراكات ، أو ايضـاحا لعـلة تكرار هـذا الترتيب ••) (٤) •

ومع هذا فان الالحـاد المتشح بالعـلم ينكر الدين لأنه لا يفسر كيف تقع بعض الحقائق التى يؤمن بهـا ؟ ويفضـح كروزيار هـذا الموقف المتناقض مدافعا عن الدين فيقول : فيما يلخصه عنه الأستاذ اسماعيل مظهر :

---

(١) ملقى السبيل ص ٨٤ : ٨٥

(٢) كيف تدور عجلة الحياة ص ٦٠ : ٧٢

(٣) فلسفتى ص ١١

(٤) تراث الانسانية .

(لست أجد من ضرورة تقضى على بأن أظهـــر كيف أن عقـــلا أو ارادة تكون علة للعالم .

كمـــا انى لست أعلم كيف أن دقيقة من المادة تجذب أخـــرى فى حين انها تدفعهـــا ومع ذلك فانى مقســـور عـــلى الاعتقـــاد بسنتى الجذب والدفع .

كمـــا انه ليس فى مستطاعى ان أعرف كيف يتحد العقـــل مع مادة المخ ومع نشاط دقائقه وحركتها .

ولا يمكن أن نضع موازنة بين ذلك الشىء الغـــامض المبهم الذى نسميه العقل وبين القـــوة ومادة المخ مثـــلا .

ويكفى لدى انى يجب أن أعتقد بحقيقة العلاقة الكائنة بينهمـــا . فلست أعرف مثلا كيف أن ارادتى تكون سببا دافعا لى لاحـــداث حركاتى البدنية ولكن يكفى عندى أن أعتقـــد فى حقيقـــة ان ارادتى تدفعنى عـــلى القيـــام بحـــركاتى الجسمانية .

وعلى هـــذه السنن وعلى تلك القـــاعدة ذاتها يكفى عنـــدى ان الزم الاعتقاد فى وجود الخـــالق ، من غير ان أجد نفسى مضطرا لأن أظهر كيف انه السبب فى وجـــود الأشياء وكيف انه علتها) (١)

وفى هـــذا رد ــ ليس فحسب على الالحاد الذى يشترط معرفة « كيف أو لماذا .. » لكى يؤمن ولـــكن أيضـــا ــ على الفلسفة الالهية التى أقحمت نفسها فى مجال لم تكن مضطرة اليه وهو معرفة كيف أوجد الله العالم .؟ فوضعت نظريات ، ووقعت فى خـــلافات ، أفادت خصـــومها ، بأكثر ممـــا أفادت به قضيتها ..

ان العلم ــ والفلسفة أيضا ــ اذ يعجزان عن التفسير ، أو عن التفسير الصحيح فانه لا بد من اللجوء الى القول بالارادة الالهية .. ثم نقف .

يقول الدكتور ف.هـ. منرام :

(انك لا تجد علمـــاء الأحياء كلهم يقفون جنبا الى جنب مـــع

---

(١) ملقى السبيل ص ٨٣

نظرية التطور . فها هو ذا ا.س. رسل يرى ان علم الحياة لا غنى له عن ان يفترض وجود قوة حكيمة موجهة مقابل القول بقانون الانتخاب الطبيعى لتفسر لنا الحقائق عن ميكانيكية نمو الأنسجة والاعضاء والكائنات لا سيما حين يصيبها ضرر أو يعوق نموها عائق .

خذ مثلا قطعة من نسيج غضروفى أخذت من فقس بيضة ، ووزعت فى حوض ملاحظة زجاجى ، كيف يتسنى لها أن تعرف كيف تنمى وتشكل العقد والنتوءات الضرورية لعظمة فخذكامل الخلقة والنمو ؟

نعم كيف يتسنى للداروينية الحديثة تفسير هذه المعميات ؟

لا شك انها تقف مبهوتة تترنح .) (١) .

(٨)

عجز العلم عن التعميم :

لا يقتصر عجز العلم على عدم قدرته على التفسير ، بل انه فى مجال الوصف الخاص به لا يمكنه أن ينتقل — بحسب حدود منهجه — من مجال الملاحظة الى مجال وضع « القواعد العامة » . يقول الدكتور ليونيل روبى :

(ان التعميم بيان أو عبارة أو قول يتجاوز الملاحظة الفعلية الى قاعدة أو قانون يغطى الحالات الملاحظة والحالات التى لم تلاحظ بعد .

وهذا التجاوز يسمى « القفزة الاستقرائية » .

والقفزة الاستقرائية هى « قفزة فى الظلام » لأن التعميم قد لا يكون صحيحا على الرغم من أن الملاحظات التى بنى عليها التعميم صحيحة .) (٢) .

ولكى لا يتسرع البعض فيقول : وهذا تعميم أيضا فهل تثقون بصحته ؟

نقول انه لابد من التعميم ، لكن السؤال هو : هل يتم ذلك فى نطاق العلم ؟

---

(١) الاساس الجسمانى للشخصية ص ٢١٤

(٢) فن الاقناع ص ٣٧٤ .

يقول اوجست كونت :

(ان التفكير التجريبى المطلق تفكير عقيم ، بل لا يمكن تصوره على وجه الدقة ..) (١) .

ويقول فى موضع آخـر (ان المعــرفة التجريبيــة التى تقتصر اقتصارا تاما على مجرد ملاحظــة الظواهر لا أكثر ولا أقل : هــذه المعرفة ليست أقل مضــادة لروح العلم من التصوف) (٢) .

واذا كان كــونت يــرى أن الفلسفة الوضعية ستكتسب بسبب انشاء علم الاجتماع طابع العموم الذى مازال ينقصها والذى مايزال أيضا احتكارا للفلسفة اللاهوتيــة والميتافيزيقية .

فهــل يمكننــا أن نرى فى هذه الدعوة الى « التعميم » انسجاما مع مقتضيات المنهج الوضعى مهما كانت مبررات تلك الدعوة ؟

الواقع أن التعميمــات الوضعية لا يمــكن أن تخضــع للفحص التجريبى فهى خارجة عن نطــاق التجربة بهــذا الاعتبار . فليست علما بل هى لاهوت أو فلسفة ، أو اعتقاد .

والاعتذار بأن المعرفة الانسانية لا يمكن أن تقتصر على المعــرفة التجريبية البحتة : هذا الاعتذار لا يؤدى بنا الى أن نعطى العــلم وظيفة خاصــة بغــيره من الدين أو الفلسفة ، بل انه يؤدى الى أن المعرفة الانسانية لا يمكن أن تقتصر على المعرفة العلمية . وهناك فارق هام أصيل بين أن نعمم فى نطــاق العــلم وبين أن نعمم فى نطــاق العقيدة أو الفلسفة ، فان العــلم فى الحالة الاولى لا يعطينا المبررات الكافية لهذا التعميم نظرا لقصور منهجه عن القيــام بهــذه المهمة ، أما العقيدة أو الفلسفة فان لهمــا طبيعتهما الخاصة التى تبيح لهمــا تبرير ذلك « التعميم » بمالها من منهــج ايمــانى أو « ماورائى » لا يحتاج الى التجربة أو لا يقتصر عليهــا .

(١) السابق ص ٣٨١ .

(٢) فلسفة أوجست كونت لليفى بريل ص ٤٩

يقول الدكتور جون كيمنى :

« اننا لما كنا لا نستطيع سوى مشاهدة حقائق منفردة فاننا عندما تتحقق نفعل ذلك بالنسبة للمترتبات المنفردة لنظرية ما وليس للنظرية بالذات . » (١) .

ومن هنا كان العلم لا يستغنى عن الايمان وقد ذكرنا ذلك فى موضعه .

(٩)

عجز العلم فى مجالات علمية اخرى :
أولا — فى الفيزيقا :

ان لنا ان نشك فى صلاحية المنهج التجريبى للبحث فى عالم الطبيعة أصلا ..

وقد يبدو هذا التشكك شاذا أو غريبا ، لما هو شبيه بالمسلمات من أن عالم الطبيعة هو الميدان الأصيل للمنهج العلمى التجريبى ، الذى ترفع اليه التوسلات كى يقتصر عليه ولا يتعداه الى غيره .

لكن هذه الغرابة تزول اذا انتبهنا الى القضية التى يقررها علم الفيزيقا الحديث القائلة بأن العلم التجريبى يعجز عجزا مطلقا عن ملاحظة الجزئى الا فى حالة شاذة من أحواله وهى حالة التصادم ، وفيما عدا ذلك فان ملاحظته مستحيلة استحالة مطلقة .

وذلك لأنه كما يقول رايشينباخ :

(من الضرورى لكى نرى جزيئا أن نضيئه ، واضاءة جزىء شىء يختلف كل الاختلاف عن اضاءة بيت ذلك لأن الشعاع الضوئى عندما يقع على جزىء يخرج به عن طريقه ، واذن فما نلاحظه صدمة ، وليس جزيئا يسير فى طريقه دون أن يعترضه شىء .

واذن لا يكون بوسعك أن تعرف ماذا كانت تفعله قبل الملاحظة .) (٢) ان هذا يعنى نتيجة فى منتهى الأهمية والخطورة :

---

(١) ص ١٤٩ الفيلسوف والعلم .

(٢) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٦٤

هى ان المنهــج التجــريبى غير صــالح بطبيعتــه للبحث فى عالم الجزيئات . فماذا نقول اذا كان عالم الجزيئــات هــو ما يكون عــالم الفيزيقا ؟

ومــن هنــا حق لبرتراندرســل أن يقول :

(ليس العلم وحده هو الذى يكون مستحيلا اذا نحن اكتفينــا بمعرفة ما يمكن أن يقع فى خبرتنا ، وما يمكن أن تتحقق من صــدقة فقط ، ولكن قدرا كبيرا مما لايشك أحد مخلصا فى كونه معرفة يصبح مستحيلا .) (١) .

لكن اذا كان الأمر كذلك فما الذى يدعو رســل الى انكار الله أستنادا الي « العــلم الجــاهل » هــذا ؟

عجز العلم فى مجــال علم الحيــاة والنفس والاجتماع :

(١٠)

يقول جون كيمنى :

ان أعظم منجزات العلم يتــأتى فى الغالب ، من الطبيعة الصماء ، وحين كان الأمر يتطلب ، خــلال هذا الكتاب (٢) تقديم أمثلة عن النظريات العلمية كنت فى غالبيــة الاحيان أتجه الى الفيزياء ، منجبة العلوم الأخرى . أما الآن فلابد من أن أسأل عما يستطيع العــلم قوله بالنسبة للحيــاة ، مع علمى بأننى سأجــد نفسى حالا اتخبط وسط عدد من الخلافات . غير أنه يمكننا كخطوة مبدئية أولى أن نصنف المهتمين بهذه القضية الى فئتين هما الحيــويون والآليون ، واذا نحن رجعنــا الى « قاموس الفلسفة » وجدنا تعريف الفلسفة الحيوية بأنها « المذهب القائل بأن لظاهرات الحياة طبيعــة منفــردة تجعلها مختلفة جذريا عن الظاهرات الفيزيائية الكيميائية » .

---

(١) فلسفتى ... ص ٢٣٣ .

(٢) الفيلسوف والعلم ص ٢٨١ ، ص ٢٨٢ .

ويقابل الفلسفة الحيوية مذهب الآلية البيولوجية الذى يؤكد انه يمكن تفسير جميع الظاهرات الحية بواسطة المفاهيم الفيزيائية الكيميائية دون غيرها ..

نحن ندرك ، بلا شك ، أن العلم قد حقق بعض التقدم فى دراسة الحياة لكننا نميل الى اعتبار ذلك متعلقا فى معظمه ، بأشكال الحياة الدنيا وان هذا التقدم يغدو أقل شأنا كلما تدرجنا صعودا فى سلم النشوء والارتقاء على أن هذا التقدم لا يقارن بحال من الأحوال بالانتصارات التى حققها علم الفيزياء .. وان التقييم الصحيح الموضح الحالى فى العلم أن تقول بأن الفيزياء والكيمياء عملاقان أمام البيولوجيا والعلوم الاجتماعية .

ويقول الدكتور ميخائيل كيرونسيك الأستاذ بكلية الطب بجامعة كاتشارلز .

(ان أى نموذج « باراسيكولوجى » يفسر بالآساليب التقليدية على نحو مماثل للادراك البصرى يكون قاصرا عن تفسير ظاهرة الاتصال بالتخاطر فالنموذج الوضعى يشوه الواقع فى حقيقة الأمر ولا يشمل الواقع الذى توضع فيه تلك الظواهر) .

ويقول الأستاذ الكسندر دوبروف بأكاديمية العلوم السوفيتية ..

(ان الطابع الفريد فى علم السيكوترونات الحديث يكمن فى أنه يحمل فى طياته انكار الأسس العلمية التى انبثق عنها والتى يمكن اعتباره تطورا منطقيا لها .

والحقائق العلمية المثبتة لعلم السيكوترونيات والظواهر التى يعنى بها لا يمكن تفسيرها فى نطاق الأسس التقليدية لعلوم الفيزيقا والكيمياء والبيولوجيا) (١) .

---

(١) ص ٤٠ : ٦٠ من العلم والظواهر الخارقة .

ويقول الدكتور محمـد مهران عن رسـل : انه لم يتخـل على الاطلاق عن ثنائية القوانين العلمية ولم يدع ان كل ما يمكن أن يقال فى علم النفس وقوانينه الذهنيـة يمكن ان يقال فى حدود الفيزيقا وقوانينها الفيزيقية • فهو يؤكد أن هنـاك معـرفة فى علم النفس لا يمكن مطلقا أن تكون جزءا من الفيزيقـا •

فعلم النفس متميز عن الفيزيقا والفسيولوجيا ومستقل عنهما جزئيا فكل معطيات الفيزيقـا هى أيضـا معطيات لعلم النفس الا ان العكس غير صحيح ، وهذا يعنى ان هناك معطيات لا يمـكن أن تخضـع للقـوانين الفيزيقيـة ، بل تخضع فقط للقوانين الذهنية التى يعالجها علم النفس :

ان الفيزيقا ـ فى رأى رسل ـ لا تغطى كل مناطق المعرفة الانسانية بل هناك مناطق معينة تظل بمنأى عن نفوذ الفيزيقا • (١) •

ولا يغيب عنـا محاولة أوجست كونت اقـامة العـلوم الانسانية والاجتمـاعية على نفس النسـق التجريبى المادى الذى يقوم عليـه علم الفيزيقا ، واعتباره ان هـذه المحاولة تبـدأ بوضـع « قانون الاحوال الثلاث » وقد بينا انهيار هذه المحاولة بانهيار هذا القانون •

كما بينا الاتجـاهات الحديثـة فى العلوم الاجتماعية التى استقرت عـلى التفـرقة بين النمـــوذج الانسـانى ، والنمـوذج الفيزيقى أو البيولوجى أو التعليمى (٢) •

بل انه فى مجال العلم الواحـد ـ بله حملة العلوم ـ لا يستطيع العلم أن ينتظر الى أن يعرف كل شىء عن موضع بحثـه ، وذلك لأنه كما يقول برتراندرسل (انه اذا لم يكن فى وسعنا ان نعـرف شيئا ما الا اذا عرفنا كل شىء فاننا لن نستطيع أن نعـرف أى شىء على الاطلاق ولا يصـدق هـذا على الحوادث الجزئية فحسب ،

---

(١) برتراند رسـل للدكتـور محمد مهران ص ٩١ .

(٢) انظر ختام مبحثنـا عن مذهب التطور الاجتماعى .

ولكنه يصدق أيضا على القوانين التى تصل الحوادث (١)

ومن هنا يمكننا أن نقرر بصفة عامة عجز العلم عن الاثبات ، من ناحية وعجزه عن وضع نظرية دقيقة من ناحية أخرى •

ففى عجز العلم عن الاثبات : يقول الدكتور جون كيمنى :

(ان العلم يمكن له أن يؤكد بطلان بعض النظريات العامة ولو انه لا يستطيع البرهان القاطع على صحتها والواقع ان هذه القواعد تفترض تحليلا مفرطا فى البساطة الطبيعية للنظريات العلمية ، واذا تصفح القارىء (أى كتاب فى العلم فانه سوف يلاقى صعوبة فى العثور على نظريات معبر عنها بلغة الأسباب والنتائج ذلك لأن نظريات كهذه لا تكون مشوقة الا فى مراحل العلم المبكرة) (٢) •

عجز العلم عن وضع نظرية دقيقة

يقرر جون كيمنى انه بالاستناد الى مبدأ هاينزنبرج المشهور فان **هنالك حدا للدقة التى يمكن لنا أن نجمع بها معلوماتنا** •

(اننا اذا عمدنا ، مثلا الى قياس سرعة كهيرب ما بأقصى دقة ممكنة ، أى فى حدود خطأ قدره ١٠ بالمئة ، فإن تقديرنا لمكانه فى أية لحظة سيكون على خطأ كبير ، ذلك أن الخطأ فى تقدير الموقع بالرغم من كونه ضئيلا يبلغ قدرا كبيرا من الضخامة بالنسبة لحجم للكهيرب حتى ليمكن مقارنته بخطأ فى قياسات الانسان يبلغ حوالى الميل الواحد ، وليس ثمة وسيلة بحسب مبدأ هايزنبرج لرأب هذا الصدع (٣) •

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(وقد توصل علماء الفيزياء استنادا الى ذلك — الى القول باستحالة وضع النظرية الدقيقة •) (٤) •

د يحيى هاشم حسن فرغل

---

(١) فلسفتى ص ٢٤٢ •
(٢) الفيلسوف والعلم ص ١٧٤ •
(٣) الفيلسوف والعلم ص ١٢٦
(٤) الفيلسوف والعلم ص ١٢٩ : ١٣٠ •

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية
بقلم الدكتور محمد شامه

— ٥ —

١٠ — انهيار السلطة العثمانية

بدأ انهيار السلطة العثمانية من الجانب الاقتصادى ، عندما أخذت البرتغال المبادرة فى هذا المجال ، ونجحت فى تحويل مسار السفن التجارية عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن هذا التاريخ بدأ كسر احتكار تجارةالحرير والتوابل فأصبحت لشبونة المركز التجارى الرئيسى لهذه البضاعة المهمة ؛ فقضت على استراتيجية البحر الأبيض المتوسط التجارية ، التى ظلت ملازمة له فى العصر القديم والعصور الوسطى ، نعم ! ظل طريق القوافل عبر سوريا الى أوربا كما كان من قبل ، لأن البرتغاليين — على الرغم من حاميتهم العسكرية فى الخليج — لم ينجحوا فى فرض سيطرتهم على البحر الاحمر .

* لم تنتظر انجلترا طويلا ، فقد بحثت عن أسواق جديدة للتنك والصوف فرسمت خططها على أساس تبادل سلعها ببضائع شرقية فبينما كان الوضع بالنسبة لفرنسا فى بلاط السلطان لايعود عليها بفائدة كبيرة ، نجحت انجلترا فى استمالة السلطان الفارسى الى جانبها ، فأبحرت سفنها فى الخليج ، ودخلت فى صراع مع القواعد البرتغاليةفى البحرين وهرمز . وبينما بدأت سلطة البرتغال تتهاوى ، فشجعت انجلترا ، فسيطرت على طريق رأس الرجاء الصالح ،كما أخرجت البرتغال من الخليج فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى .

* بدأت بواعث فرنسا تتحرك الى تكوين مستعمرات لها فى عهد « لودفيج » الرابع عشر .. ثم

يمضى المؤلف فى تناول أحداث الصراع بين انجلترا وفرنسا على المستعمرات بالتحليل ، وبيان نجاح انجلترا فى السيطرة على المناطق المجاورة لفارس ونجاح فرنسا فى غلق أبواب سوريا أمام التجارة الانجليزية •

* بينما قام مجد الدولة العثمانية بمجهود سليمان الشخصى ، لم يستطع سليم الثانى أن يضيف شيئا سوى استيلاؤه على بغداد • ومن الأحداث التى اشتهر بها عهده هزيمة أسطوله عند « ليبانتو » (١) هزيمة ساحقة أمام القوات النمساوية بقيادة دون جوان ، وللأسف لم يستغل المسيحيون ــ هكذا يقول المؤلف ــ هذه الفرصة واكتفوا بفرض سيطرتهم على الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط •

* لعب سوء الحالة الداخلية دورا فى اخفاق الدولة العثمانية فى المجال الخارجى فمنذ عام ١٤٠٠ م تقريبا واغتيال الأشقاء فى مجال الصراع على السلطة يكاد يكون من الأمور العادية ، فقد كان البقاء للأقوى ، ولكنهم اتفقوا فى عام ١٦١٧م على أن يلى العرش أكبر أبناء الخليفة الراحل ، فترك الخلفاء تسيير امور الدولة لوزرائهم وانشغلوا بملذاتهم من نساء وغناء ولهو • ومنذ القرن السابع عشر لم يخرج خليفة بنفسه على رأس جيشه فى أى معركة ، فوقعت الدولة تحت سيطرة الفرق الانكشارية ، التى كانت تعد أنفاس الخليفة وتتحكم فيها بواسطة براعتهم وتكاتفهم فى المجال السياسى كذلك أصبح حكام الولايات ملوكا فى ولاياتهم فكثرت الثورات ، وانتشرت الرشوة لدرجة أن سلطة الموظفين المدنيين فاقت سلطة العسكريين ، فأصبحت مصالح الشعب تحت رحمة المنافع الشخصية • ووصل الفساد الى ذروته فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى •

١) « ليبانتو » : مدينة فى اليوتا على خليج « ليبانت » .

* نشـــــط الوزراء مـــن آل « كوبرولو » (١) فبسطوا سلطانهم على المجال السياسى بعد مـــوت ســـليمان حتى ابرام معاهـــدة « كارلوفيتس » فى عام ١٦٩٩م ، ويرجع الفضل اليهم فى مـــكاسب الدولة فى جزيرة كريت ، وغـــرز « پودوليا » (٢) فى عام ١٦٧٢م ، كذلك بذلوا جهـــودا محمودة فى المجال العسكرى ، ولكن لم يمكنهم هذا من وقف تدهور الدولة ..

وبعد أن يسرد المؤلف أحداث حصار فيينا ، ونجاح الاوربيين فى فكه يقول : « ومنذ ذلك التاريخ تتحكم البلاد القريبة فى سيـــر الاحـــداث فى المجالين : السياسى والعسكرى فقبل سبعة عشر عامـــا من حصار فيينا ، وصلت الدولة الى ذروتها فى التوســـع الاقليمى وذلك عندما أجبرت بولنـــدا على التنازل عن « پودوليـــا » ولكنها أدركت أنهـــا بدأت فى التقلص .

وبعد فك حصار فيينا أصبح المدافع مهاجما ، اذ كونت النمسا وبولندا وفينيسيا حلفا ضـــد العثمانيين ، فاستطاعوا بعد موقعة «موهاكس» فى عام ١٦٨٧ م تحرير المجـــر ، ثم استولوا على بلجـــراد فى ٦ سبتمبر ١٦٨٨ م ، وهاجمـــوا « نيس » فأخذوها فى عام ١٦٨٩م وكانت هزيمـــة الأتراك ساحقة فى عام ١٦٩٧م لدرجـــة أنهم وسطوا

---

١) « كوبرولو » : اسرة تركية ، تولى عدد منهـــا منصب الوزارة فى الدولة العثمانية : محمد : (١٥٨٣ ــ ١٦٦١ م) مؤسس العائلة ، ارتفع من خدمة المطبخ الشـــاهمانى الى الصدارة العظمى بعد تعاقب الوزراء وانتشار الفســـاد . خدم الدولة بنزاهة ونشاط ، وقمع التعصب ، ورد الى الحكم هيبته .

فاضل أحمد : (١٦٣٥ ــ ١٦٧٦ م) ابن محمـــد وخلفـــه ، جمع فى استامبول : مكتبة ، اشتهرت باسم « كوبرولو » فتح مدنا فى المجر واقريطش ، وجدد الامتيازات الفرنسية .

مصطفى : (١٦٣٧ ــ ١٦٩١ م) ابن محمد ، تسلم الصدارة (١٦٨٨م) ، فأصلح المالية ، وفتح بلجراد . قتل فى الحرب .

حسين : ابن أخى محمد ، تولى الوزارة من ١٦٩١ ــ ١٧٠٢ م عقـــد معاهدة كارلوفتس فى عام ١٦٩٩م

٢) پودوليا » : ولاية فى غرب أوكرانيا ، خضعت للحكم التركى من عام ١٦٧١ م حتى ابرام معاهدة (كارلوفيتس فى عام ١٦٩٩ م) .

انجلترا وهولندا فى عقد معاهدة صلح ، فأبرمت معاهدة « كارلوفيتس » فى عام ١٦٩٩م ، فأكدت للنمساويين والبولنديين والسلافيين والروس أيضا ضعف تركيا فتحفزوا جميعا لاستغلال هذا الضعف .

١١ ـ الضغط الروسى :

* اندلع النزاع بعد توقيع معاهدة « كارلوفيتس » بين حاكم المجر « فرانس فون راكوكس » والنمسا ولم يستطع أحمد الثالث تقديم اية مساعدة له . ولم يتخذ نفس الموقف مع كارل الثانى عشر ملك السويد ـ الذى وجد ملجأ حصينا عند العثمانيين بعد هزيمته أمام الروس فى موقعة « پولتاو » ـ فقدم له مساعدة مكنته من هزيمة القيصر عند « بروث » لكن رشوة الصدر الأعظم انقذت روسيا من توقيع معاهدة سلام مهينة .

* حالف الحظ العثمانيين فاستطاعوا استرداد بعض مناطق من الفينيسيين لكن حلفاءهم النمسويين ساعدوهم على انزال الهزيمة بالجيش العثمانى .. ويمضى المؤلف فى سرد أحداث الحروب والمعاهدات التى أُبرمت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، ومحاولة العثمانيين اصلاح الجيش بواسطة الاستعانة بالخبرة الفرنسية وظهور النزعة القومية ، ورد الفعل المضاد من العثمانيين باحياء العاطفة الدينية على أساس حماية مركز الخليفة الدينى ، وتقوية الروح الاسلامية فى المجتمع فأدى ذلك الى نوع من الترابط فى مواجهة الرعايا غير المسلمين ، وخاصة اليونانيين وبهذا اكتسبت المجالات السياسية والعسكرية طابعا دينيا .

* أعجب مصطفى الثالث الذى تولى الحكم فى عام ١٧٥٧ م بـ « فردريك الأكبر » فاتخذ واقعيته نموذجا له ، غير أن الروس فى عهد « كاترينا الثانية » أفسدوا خططه ، اذ تسبب ادعاؤهم بأن لهم الحق بالتدخل لحماية المسيحيين الأرثوذكس ـ ليس

فقط فى البلقان ، بل فى داخـل تركيا أيضا ــ فى اندلاع حـرب مع الدولة العثمانية ، استمرت من عـام ١٧٦٨ ــ الى ١٧٧٤ م ، ففقدت فيها تركيا أسطولها كما خرجت شبه جزيرة القرم (١) من تحت سيطرتها ، وهكذا انفصلت منطقة اسلامية ــ طبقا لمعاهـدة « كوتشك » ــ عـن السلطـة العثمانية ، مع بقاء زعامة الخليفة الروحية لسـكانها ، الا أن روسيا أعلنت فى عام ١٧٨٣ م أن القـرم جزء لا يتجزأ من المملكة الروسية، ولا يجوز لأحد التدخل فى شئونها اطلاقا . وبذلك فقد الخليفة حقـه فى ممارسة زعـامته الروحيـة لسكانها . ثم انتـزعت روسـيا لنفسها الحق فى أن تبحر سفنهـا فى البحر الأسود ، وان كانت تركيا قد استطاعت فيما بعد أن تستـرد حقها فى الرقابة على حركة الملاحة، كذلك تسبب هجوم النمسا وروسيا على تركيا أثر نزاع على الحـدود فى القـوقاز فى القضـاء على الأسطول التركى فى عام ١٧٨٨م وأجبـر المسلمون فى عام ١٧٩٢م على الاعتراف فى معاهدة « ياسا » بـ « ستر » كخط للحدود .

* أضعفت الهزائم المتتالية مركز تركيا فى مجال السياسة الخارجية والداخلية فلم تستطع وقف تقهقرها من مناطق البحر الأبيض المتوسط، التى انتهى بخروج مصر من دائرة سلطانها . ويرجع صمودها طويلا فى هذا الوضع الى النـزاع الذى كان قائمـا بين القـوى العظمى (انجـلترا وروسيا وفرنسا ، اذ كانت مشاكل الدردنيـل وقنـاة السويس سببا فى ظهور ما يسمى بـ « المسألة الشرقية » على مسرح السياسة الدولية وهى من المشاكل التى كانت تهم أوربا بالدرجـة الأولى ، ومن هنـا كانت السياسة الأوربية مهتمـة بخلق توازن بين القوى ، لمنع روسيا من ارث تركيا فى حالة انهيارها انهيارا كليا ، وعليه فقد التزمت بالمحافظة على بقاء تركيا أكبر وقت ممكن ، وتضمنت خطتها

---

١) القرم : شـبه جزيرة تقع بالقرب من شاطىء البحر الاسود .

ألا تسمح بتفككها الا فى حالة ضمان توزيعها بالتساوى ، لكن هجوم نابليون على مصر حول اهتمام انجلترا نحو مصر ، فشغلها عن مراقبة الضغط الروسى لعدة أعوام تالية .

* * *

١٢ ـ طريق مصر الى الاستقلال :

* كان المقصود من الحملة الفرنسية التى نجحت الى حد ما قطع طريق انجلترا الى الهند ، فبضائع الهند كانت تنقل عبر البحر حتى السويس ، ثم تنقل برا الى البحر الأبيض المتوسط ، ثم تنقلها السفن الى أوربا ، فأرادت فرنسا ــ وهى المنافس الرئيسى لانجلترا فى مجال التجارة الدولية ــ مضايقتها ، فأرسلت حملة الى مصر بقيادة نابليون لأنه لم يكن من الممكن ــ فى مجال الصراع الدولى ــ أن تشن حربا على الجزيرة البريطانية . لم تحرز هذه الحملة نصرا عسكريا ــ باستثناء معركة غرب القاهرة عند سفوح الأهرامات ــ ولكنها وضعت أساسا لتوطيد العلاقة الفرنسية مع مصر . لم تمكث القوات الفرنسية فى مصر طويلا ، فقد أجبرتها قوات تركية بقيادة ابن السلطان سليم الثالث على الجلاء عنها فى عام ١٨٠١م ، ويرجع الفضل فى نجاح القوات التركية فى مصر الى ضابط ألبانى اسمه محمد على ، رقى فيما بعد الى رتبة جنرال تقديرا لجهوده العسكرية .

* استطاع محمد على أن يطغى على نفوذ الباشا ، الذى عينه السلطان واليا على مصر ، فنصب نفسه حاكما على جنوب مصر ، ووافق أصحاب الرأى فى القاهرة على توليته هذا المنصب . وفى عام ١٨٠٦ م بسط نفوذه على القطر المصرى كله ، فعينه السلطان واليا عليه .

* أحرزت الدبلوماسية الفرنسية أول نصر لها فى هذه الفترة اذ نجح رسول نابليون فى اقناع تركيا بالخروج من التحالف مع انجلترا وروسيا ، فنتج عن ذلك قيام حرب بينها وبين روسيا ،

ساعدت فيها انجلترا روسيا ، وذلك بانزال كتيبة على شاطىء مصر فى عام ١٨٠٧م ولـكن محمـد على انتصر عليهم وردهم على أعقابهم، كان لهذه الحملة آثار بعيدة المدى فى رسم طريق المستقبل لمصر ، اذ لم يستحسن المماليك ازدياد نفوذ محمد على بعـد انتصـاره على انجلترا ، كذلك لم يغفر هـو لهم محـاولة استغـلال الموقف لصالحهم أثنـاء المحـاورات مع انجلترا ، فدبر لهم مذبحة وتخلص منهم نهائيا ثم اتجه الى بناء الدولة متخذا الطراز الفـرنسى نموذجـا له ، وكان اهتمامه فى هذا المجال مركزا على بنـاء جيش وأسطول والنهوض بمصر لتلحـق بالحضارة الأوربية • ولكن المبادرة تركزت فيما بعد على تحقيـق مصـالح شخصية ، فتحولت الى دكتاتورية قاسية عانى منها الشعب ــ وخاصة الفلاحون ــ معاناة لا حدود لها ، فقد كانت كل المشروعات الاصلاحية ــ بما فيها المدارس والمصانع ــ موجهة لبناء القوات المسلحة فقط ، لأن هدف محمد على كان الاستقلال عن تركيـا ، وان تظـاهر بالولاء والطاعة للسلطان •

* تركز اهتمام محمد على باشا على النجاح فى العمليات العسكرية، لأنه رأى أنها طريقه الى المجد ، والى امكانية استقلاله بمصر عـن تركيا ، ولذا لم يتأخر فى تلبيـة طلب السلطـان منه اخضـاع الوهابيين •• ويمضى المؤلف فى بيان :

رأى الوهـابيين فى الاصلاح ونجاحهم العسكرى ثم هزيمتهـم أمـام قوات محمد على • وقيام الثـورات فى البلقان ، وارسـال محمد على ابنه ابراهيم ــ بنـاء على طلب السـلطان ــ على رأس جيش مصرى الى اليونان ، فاستولى على « ميسولونجى » على خليـج « كورنث » فى عام ١٨٢٦م ثم سقطت « اكروبوليس » فى عـام ١٨٢٧م فقـررت انجلترا وفرنسا وروسيا فى معاهدة لندن مساعدة اليـونان ، فأرسـلوا انذارا الى محمـد على بسحب قـواته فلم

يستجب ، فضربوا أسطوله فى موقعة « نوارين » ثم وافق فى ٨ أغسطس سنة ١٨٢٨م على الانسحاب من اليونان • وفى بروتوكول لندن عام ١٨٢٩م ، أعلنت القوى الاوربية العظمى استقلال اليونان عن تركيا ، ولكن لم تعترف تركيا بهذا الاستقلال الا فى معاهدة « ادريانوبل » •

* لم يف السلطان بوعده لمحمد على باعطائه سوريا مكافأة له على اشتراكه فى الحرب ، فجرد حملة استولى بها على عكا ودمشق وحلب ، ثم ضرب الجيش التركى ضربة قاصمة عند قونيا فى عام ١٨٣٢ م فتحركت الدبلوماسية الانجليزية والفرنسية ـ بدافع من خوفها من وصول روسيا الى المضايق بعد أن رسى الاسطول الروسى فى القسطنطينية ـ لحماية السلطان ـ فتوصلت الى اجلاء محمد على عن سوريا وانسحاب الروس من القسطنطينية •

* وثق محمد على بالسياسة الفرنسية ، فاقتربت انجلترا من السلطان ، وعندما وصل محمد على عام ١٨٣٨/٣٧م الى الخليج ، سارعت انجلترا باحتلال عدن لمنعه من مواصلة التوسع •• ثم بعد فشله فى محاولة استرداد سوريا قرر مؤتمر لندن الذى اشتركت فيه انجلترا وروسيا وبروسيا أن يكون الحكم فى مصر لأبناء محمد على يرثونه من بعده ، وفى مقابل هذا ينسحب محمد على من جزيرة كريت ومن سوريا ومكة والمدينة وبهذا انفصلت مصر عن تركيا عمليا وان ظلت تبعيتها للسلطان اسمية لا أثر لها •

* * *

١٣ ـ الرجل المريض عند البوسفور :

* استطاع الوزير رشيد باشا أن يقنع السلطان عبد المجيد بمواصلة تنفيذ البرامج الاصلاحية ، التى بدأها أبوه محمود الثانى • فقد استعان محمود بخبراء عسكريين من بروسيا لاصلاح الجيش • كما اتخذ النظام الأوربى نموذجا له فى الاصلاح الادارى •

واصل عبد المجيد دفع عجلة الاصلاح ، وتبنى الأفكار الليبرالية فأصدر مرسوما نال بمقتضاه الشعب حقه فى الحرية والملكية ، كما وضع خططا اصلاحية ضخمة فى مجال القضاء والتعليم والرعاية الصحية ، ولكن لم يكن لهذه السياسة صدى فى أوربا فقد تأخر الاعتراف بمماثلة تركيا للقوى الأوربية ، اذ كان ينظر اليها فى هذه الحقبة على أنها الرجل المريض عند البوسفور . فعندما زار القيصر « نيكولاوس الأول » انجلترا فى عام ١٨٤٤ م تناولت المباحثات الاجراءات المشتركة التى يجب اتخاذها فى حالة الانهيار السياسى لتركيا فى المستقبل القريب .

* واتت الرجل المريض — الذى حفرت قطع أوصال مملكته جروحا عميقة فى جسمه فتسببت فى نزيف داخلى حاد — فرصة لتضميد بعض جراحه ، وكان ذلك بعد الانتهاء من حرب القرم . بدت ملامح هذه الفرصة ، عندما طلبت روسيا منحها حق ممارسة زعامتها للمسيحيين الأرثوذكس ، المقيمين داخل الدولة العثمانية . فرفضت تركيا وأيدتها انجلترا فى هذا الرفض . فتحركت روسيا وفرضت حمايتها على ادارة الدانوب فأعلنت تركيا الحرب ضد روسيا ، وساعدتها فى هذه المرة انجلترا وفرنسا اذ حرس اسطولهما الشواطىء التركية فأمن حركة التجارة فى البحر الأسود . ثم عقدت معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ م ، ونص فيها على التزام القوى العظمى بعدم الاعتداء على تركيا ، وتحييد البحر الأسود وانهاء الحماية الروسية على امارة الدانوب ، كما اعترفوا فى المعاهدة بسيادة تركيا على « فولدافيا » و « فالاخيا » و « الصرب » فنجت تركيا مرة أخرى من التقسيم بسبب الاختلاف بين القوى العظمى على تقسيم تركة الرجل المريض .

* شعرت الدولة العثمانية ، بفضل أوربا عليها ، فازداد اقترابها فى سياستها الداخلية من النموذج الاوربى الليبرالى ، فصدر دستور

١٨٥٦ م الذى ســـوى فيه بين المواطنين ـ بما فيهم المسيحيين ـ فى الحقوق المدنية ، وكفل حـرية الأديان .. وقضى على التفرقة فى كل المجالات المهنية والوظيفية سواء كانت عنصرية ، أو طائفية ، فليس هناك سوى عثمانى فقط ، وبهذا انتهى ـ رسميا ـ عهد اضطهـاد الطـوائف الأخـرى كما سمح للأجانب بالحيازة الملكية .

* أدت الحـروب وبرامـج الاصلاح ـ بالاضافة الى تفشى الرشوة بشكل مخيف ، لا يتوقف عن الانتشار فى المجتمع والى بذخ السلطان ـ الى وقوع تركيا فى عام ١٨٧٤م فى أزمة مالية عصيبة .

* وتسببت الثورات فى البلقان فى اقلاق مضاجع الأتراك ، فاستعملوا أسلوبا قاسيا معهم ، أثار حفيظة زعيم المعارضة فى انجلترا ، فطالب بطرد الأتراك من المناطق الأوربية .

* تطورت الأحداث الى أن عقد مؤتمر برليـــن فى عام ١٨٧٨ م فحصلت فيـه انجلترا رسميا على قبرص ، واستقل شمـال بلغاريا فأصبح امارة ذات سيادة واعترف باستقلال منطقـة الجبل الأسـود (موتتنجرو Montenegro) وضمت اليونان مناطق جديدة الى ادارتها ، كما أخذت روسيا ولاية «بسارابيا» من رومانيا فى مقابل أن تحصـل رومانيا على « دوبروجيا » الخ .. لقـد خطت أوربا فى تقسيم تركة الرجل المريض خطـوات نحـو الأمام ولكن لم تخرج تركيا من كل مناطق البلقان ، ومن هنا استمرت القلاقل التى تدفع القوى العظمى المتنازعة الى وضع خطة .

* * *

١٤ ـ مصر على الطريق البحـرى الانجليزى :

* وقعت مصر فى أزمـة مالية بسبب المشروعات الاصـــلاحية المتعددة ، والتدخل فى منطقــة البحر الأحمر والسودان ، ولم يجد الخديوى مخرجا منها سوى بيع أســهم الدولة فى شــركة قنــاة السويس لانجلترا ، وبهــذا ازداد نفوذها فى البــلاط الخــديوى ،

فأرسلت هى وفرنسا هيئـة رقابة مالية الى مصر لمـراقبة الميزانية ، تم عين وزيران : أحدهما انجليزى والآخر فـــرنسى فى وزارة نوبار باشا ، ولكن حين اشتد ضغــط التيار القـــومى عزل السلطان الخديوى لعدم استطاعته التصدى للتدخل الانجليــزى والفـرنسى تطورت الأحداث بعد ذلك ، فثار الجيش ضد الخـديوى وأجبره على تعيين وزارة محمود سـامى التى كان أعضاؤها واقعـين تحت تأثير الأفغانى الذى يعتبر الآن الأب الروحى للحركات الوطنية ، فتدخلت انجلترا بحجة حماية الخـديوى ، وأدى هذا التدخل الى احتـلال انجلترا لمصر فى عام ١٨٨٢م وبهذا خرجت مصر من محيط التأثيـــر الفـرنسى ودخلت فى دائرة النفوذ الانجليزى .

وهكذا ازداد التفتت فى أجـزاء الدولة العثمانية ، فقبل هذا بعام واحـد ـ أى فى عام ١٨٨١م ـ دخلت تونس فى دائرة النفـــوذ الفرنسى .

١٥ ـ المهدى لعبـــة صغيرة بين الاحداث الكبرى :

تستقر الأحوال أيضـا فى السودان منذ حركتها طائفة دينية بقيادة الدرويش محمد بن عبد الله فى عام ١٨٧٠ م . فقد منع المهدى أتباعه من ممارسة كل ما يخـالف تعاليمه فى مجال العقيدة ، وحرم عليهم ، التدخين ، وشرب الخمر ، كما تصدى لمحاربة التدخل الأجنبى بجميع صـوره ، وفى عام ١٨٨١م أعلن الجهاد وزحف بجيشه حتى وصل الخرطوم حيث وقع الحـاكم البريطانى « جوردون » قتيـــلا بسيوف أتباعه . وفى عهـد خليفة المهـدى هاجم أتباعه الحبشة ، ولكن « اللورد كيتشنر » استطاع فى عام ١٨٩٨م التغلب على هؤلاء . « الأعداء المتعصبين » ـ هكذا يقول المؤلف ـ ويقضى على المملكة المهدية قضاء نهائيا .

١٦ ـ المبادرة الالمانية لانشاء الخط الحديدى :

* وجد السلطان نفسه فى موقف حرج ، فكلما انتشرت القلاقل فى المملكة ازداد خوفه :

من تدبير المؤامرات ضد الدولة •

ومن تضييق الدائرة عليه داخل مقر حكمه •

ومن ارتفاع معدل الاتفاق على أجهزة النظام البوليسية •

ولكى يضمن الاستمـــرار فى السيطرة ، فقد رغب فى توسيـع شبكة المواصـلات حتى يتمـكن من احكام الرقابة على كل أجـزاء الدولة ، فاختـــار مهندسين ألمانيين للقيام بهذا العمل ، ولم يكن هذا الاختيار عشوائيا ، فهو لم يثق فى الانجليز بعد استيلائهم على قبرص وموقفهم العدائى فى مصر • ولذا فضل الاستعانة بالألمان •

* ازداد التـأثير الألمانى فى المملكة دون أن يحرك ذلك شكا عند البريطانيين ، اذ قدم الألمان مساعدة لتركيا فى بناء الخط الحديدى فى البلقان ، وأرسلوا فى عام ١٨٨٣م بعثة عسكرية الى تركيا ، وعقدوا معاهدة تجـارية فى عام ١٨٨٩م ، كمـا حصلوا فى عام ١٨٨٨م على اذن بتوصيل الخط الحديدى حتى أنقرة • دفعت انتصارات الألمان على فرنسا فى عام ٧٠/١٨٧١م السلطان منح الشركة الألمانية عقدا لبناء خط بغداد وقبل نهاية القرن بقليل وقع عقد لتوصيل الخط الحديدى الى حلب عن طريق « قونيا » •

* لم تتحرك انجلترا الا عندما حاولت الحكومة الألمانية الحصول على اذن من شيخ الكويت بتوصيل الخط حتى الخليج • وبناء مينـاء عليه ، فقام أسطولها بمظاهرة حربية فى الخليج ، لكن المفاوضات طالت وتعسرت الى أن وافقت انجلتـرا على مد الخط حتى البصرة ، كذلك اصطدم مشروع بناء خط الحجاز بمعارضة انجلترا •

* أفسد الاهتمـام الألمـانى ــ الذى لم يعرف أحد ما يخفى وراءه ــ سياسة التوازن فى الشرق لأن خطوط المواصـلات ساعدت تركيا على ارسال قواتها للدفاع عن سيادتها فى المناطق الثائرة • كان هدف السياسة الالمانية وضـع اسفين بين القـوى العظمى ••

للحصول على ما يمكن الوصول اليه ، ومن مكاسب هذه السياسة قيام صداقة متينة بين تركيا وألمانيا، تلك الصداقة هى التى دفعت تركيا الى دخول الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا بمجرد اندلاعها .

* * *

١٧ ـ استيلاء الشباب التركى على الحكم :

* ارتفعت الاصوات فى المملكة مطالبة بعودة الدستور الذى وضع مسودته مدحت باشا فى عام ١٨٧٦م وتحت ضغط الاضطهاد تكونت لجان سرية فى كل مكان داخل الأراضى التركية ، وبين المنفيين خارجها ، وانضم اليها تدريجيا بعض أفراد من الجيش ، وكان هدف هذه اللجان :

ـ الاصلاح طبقا للنموذج الأوربى .

ـ الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية

* اشتد غضب أعضاء هذه اللجان من تدخل الأوربيين فى مقدونيا ، فقاموا بأول ثورة لهم ، وكان ذلك فى ٥ يوليو سنة ١٩٠٨ ، وفى نهاية الشهر أعلنوا فى سالونيكى عودة الدستور ، واحتلوا القسطنطينية ، فاضطر السلطان الى الاذعان لمطالبهم .

* كانت أغلبية البرلمان الذى افتتح فى ديسمبر من نفس العام من الشباب التركى ، غير أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان وجدت أيضا لها بين المحافظين انصارا . فاستطاع السلطان أن يوجه ضربة الى الشباب التركى ، ولكن الجيش زحف من مقدونيا على القسطنطينية فخلع السلطان ، وعين أخاه محمد الخامس مكانه .

* وافقت الأحزاب الليبرالية على أن يكون للسلطان الحق فى تعيين كبير الوزراء واختيار الوزراء الذين يتحملون المسئولية أمام البرلمان ، ولكن ليس للسلطان الحق فى حل هذا البرلمان .

* ولكن لم تستطع الحكومة الجديدة أن تمنع انهيار المملكة العثمانية .

١٨ ـ الحرب العالمية الاولى :

* لم تتردد تركيا فى الدخول فى الحرب بجانب ألمانيا ، وفشلت جهود الحلفاء فى حملها على اتخاذ موقف حيادى ، كما ضاعت أيضا جهود السلطان فى حمل العالم الاسلامى على الوقوف بجانبه عن طريق محاولة اقناع المسلمين بأنها جهاد فى سبيل الله لحماية الدولة الاسلامية ، اذ انتهز العرب هذه الفرصة للتخلص من سيطرة الحكم التركى عليها وكان هدفهم قيام دولة عربية ، فنسوا فى سبيل الحصول على هذا الهدف كل الروابط الدينية التى تربطهم بتركيا ، فاشتركت قواتهم ـ بجانب القوات الانجليزية ـ فى محاربة اخوانهم فى العقيدة .. ويمضى المؤلف فى سرد أحداث القتال فى جبهات عدة مبينا نشاط الشريف حسين و « لورانس » والوهابيين واستيلاء « أللنبى » على فلسطين ووعد «بلفور» بانشاء وطن قومى لليهود ، كما وضح أن القوات التركية أثبتت جدارتها فى القتال ، فقد ألحقت بطارية الجيش التركى الهزيمة بالأسطول الفرنسى الانجليزى عند هجومهما على الدردنيل فى عام ١٩١٥ ، وأرغمتهما على التقهقر ، كما فشلت محاولة البريطانيين لانزال قواتهم فى « جاليولى » ، ويرجع الفضل فى ذلك الى براعة مصطفى كمال العسكرية .

* عقدت محادثات فى أبريل سنة ١٩١٦م بين انجلترا وفرنسا وروسيا ، فكان من بين بنود الاتفاق السماح لروسيا ـ بعد انتهاء الحرب ـ بضم أرمينية وجزء من شمال الأناضول وكردستان اليها .

* تكبدت تركيا فى العام الرابع للحرب خسائر فادحة ، فبد عليها الانهاك ولاح فى الأفق أن النهاية قد قربت ، فلم تستطع المملكة أن تتحمل العبء أكثر من هذا ..

فانتهت الحرب وفتحت المضـايق المائية أمام الحلفاء فى ٣٠ اكتوبر ١٩١٨م كمـا وزعت التـركة ، فأصرت انجلترا على استمــرار حمايتها لمصر ، وأسندت اليها عصبة الأمم الوصاية على فلسطين ، والى فرنسا الوصاية على سوريا ، وصارت كل الدول العربية تابعة للقـوات الأوروبيـة ، وان اختلفت صـورة التبعية من قطر لآخر •

* نزل الايطاليون واليونانيون الى آسيا الصغرى فى أوائل عام ١٩١٩ م أملا فى الحصول على نصيبهم من الغنائم فقد كانوا كلهم يفكـرون فى تقسيم باقى التركة العثمانيـة على أنفسهم ، ولكن لم تتحقـق أطماعهم فى آسيا الصغرى •

* * *

١٠ ـ مصطفى كمال اتاتورك :

* ظهر مصطفى كمال فى وقت حرج بالنسبة لتركيا ، اذ كانت تواجه عالما منتصرا يريد أن يمزقها اربا ، وكان ظهوره رد فعل للنزعة الوطنيـة التركيـة ازاء مـوقف الحـكومة التركية المتخاذل أمـام القـوى المنتصرة ، فأيقظت شجـاعته فى جبهات القتال الوعى القومى عنـد الأتراك لمقاومة محـاولات القوى العظمى بخس الدولة واهانتهـا ، فدعا الى اجتماع وطنى طالب فيه بالمحـافظة على وحـدة الأراضى التركية •

* كان احتلال الحلفاء للقسطنطينية فى عـام ١٩٢٠م هـو السبب فى اندلاع لهيب هذه النزعة القوميـة الخطيرة ، اذ كان رد فعل مصطفى كمال على هـذا العمـل تأليف حكومة فى أنقرة ، وعقد معاهدة عسكرية مع روسيا ، ورغم هـذا انهـزم الوطنيون الأتراك المنهكة قواهم أمام اليونانيين الذين دفعهم الحلفاء بعد انتصارهم فى معركة Aleasehir الى احتـلال « بروسة » و « ادريانوبل » •

* وقعت الحكومة المتهالكة فى القسـطنطينية فى ١٠ أغسـطس ١٩٢٠م معاهدة « سرفاى » التى نص فيها على تنازل تركيا عن كل المناطق غير التركية ووضع «أزمير»

والمنطقــة الواقعــة وراءها تحت الادارة اليونانية لمدة خمس سنوات ومنح ايطاليا «رودس» ومايجاورها من الجــزر الاثنتى عشرة ، كمــا اعترف فيها باستقلال « أرمينية » كما أعلن أن المضايق المائية مناطق منزوعة السلاح ، وخاضعة لرقابة دولية . ولم يبق لتــركيا من أوربا سوى منطقة صغيــرة حــول القسطنطينية .

* لم يــكتف مصطفى كمــال بالمعارضة السلبية لهذه المعاهدة ، بل استعد لحرب فى « أرمينية » لكنه لم يحصل منها الا على منطقة « ايــريوان » الصغيــرة ، لأن « أرمينية » صارت فى ذلك الوقت احدى جمهــوريات الاتحــاد السوفييتى .

* أمن الأتراك ظهورهم بصداقتهم للاتحاد السوفييتى ، واتجهوا الى مقاومة العالم الغربى ، ومما ساعد مصطفى كمال على انتزاع حقــوق تركيا من المنتصرين الاعتراف الذى حظيت به حكومته من كثيــرين ، وخروج ايطاليا من الأناضول مقابل حصولها على امتيازات اقتصادية ، وانتصار تركيا على اليــونان فى خريف عام ١٩٢٢م وفشل محاولة انجلترا حمل ايطاليا وفــرنسا على التدخل ضد تركيا ، فاستــردت تركيا منطقة شرق تراقيا فى البلقان مقابل موافقتها على تدويل المضايق المائية .. ويمضى المؤلف فى بيان سيــاســة الحــكومة التركيــة ، وانتهازها فرصة الخلاف بين انجلترا وفرنسا للحصول على قدر أكبر من المكاسب السياسية والاقليمية الى أن وصل الى اعلان مصطفى كمال الغاء الخلافة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م فلم يعد الاسلام دين الدولة . ومن الطبيعى حدوث صدى فى العالم الاسلامى لهذا الاجراء خاصة فى الهند ، فقد كان المسلمون هناك يرغبون فى المحافظة على الخلافــة لتكون لهم سندا يمكنهم مــن الوقوف فى وجه السياسة الانجليزية فى الهنــد ، كذلك تسبب الغــاء الخلافة فى احياء النــزعة القومية عند الأكراد فقامــوا بثورة ضــد الحكم التركى للمطالبة باستقلالهم

داخل دولة كردية تفرض سلطانها على جميع المناطق الكـــردية فى المنطقة لكن الحكومة التركيـــة أخمدتها بعنف فسالت الدمـــاء أنهارا فى مسرح العمليات وأعدم الشيخ المسئول عن اندلاع الثورة فى أنقرة ولكى تقضى الحـكومة على مقاومة المتحمسين للاســلام فقد حلت التنظيمات الصــوفية ، واقفلت زوايـــاهم • وفى بداية الثلاثينات من هذا القرن صـــدر قرار من الحكومة بألا تقل المسافة بين مسجـــدين عن ٥٠٠ متر ، وتحول مسجد الحاجة صوفيا الى متحف،كما حل القانون السويسرى محـــل قانون الأحـــوال الشخصية فحرم تعدد الزوجات تحريما قاطعا ـــ وهو أمر لم يعـــرفه الشرق الاســلامى حتى الآن ـــ وأعطى للمرأة حق الترشيح والتصويتفى الانتخابات •

✽ أراد مصطفى كمـــال بنـــاء الدولة على الطراز الأوربى وساعده الشعب ـــ على الأقـــل سـكان المدن ـــ ظاهريا على ذلك فارتدى الملابس الأروبية ، واستبدل غطاء الرأس الوطنى بالقبعـــة • وطبقا لقـــانون ١٩٢٩م حلت الحـــروف اللاتينيةمحل العربية ، فمنع استعمال العربى والفـــارسى فى المدارس ، كما حرم على المطابع استعمـــال الحروف العربية فى طبـــع الأدب التركى ، وبهذا عزل الأدب التركى عن الآداب الأجنبية التى تشترك معه فى عقيدة واحدة •

✽ كذلك اتخذ اجراءً لم يكن من الممكن أن يتخذه رجال الحكم السابقون ، ولو علقوا على المشانق ذلك هو ترجمة القرآن الى اللغة التركية ، واستعمال الترجمـــة فى المساجـــد ، والسماح للمـــواطنين بالردة واعتناق المسيحية ، ولكن لم يحدث شىء من هذا فى الواقـــع العملى ، اذ لم يسمع أحد أن خرج مسلم عن دينه واعتنق المسيحية •

✽ أصبحتتركيا عضوا فىعصبة الأمم فى عام ١٩٣٢م ، وفى عام ١٩٣٤م كرم البرلمان التركى مصطفى كمال فأطلق عليه لقب « أتاتورك » ومعنـــاه : أبو الأتراك ، تقـــديرا

لخدماته لدولة تركيا الحديثة ..
وبعد أن يستعرض المؤلف علاقات تركيا مع الاتحاد السوفييتى والعالم الغربى فى المجالات السياسية والاقتصادية يقول : مات مصطفى كمال فى ١٠ من نوفمبر ١٩٣٨م تاركا وراءه دولة قوية ، تخلصت قيادتها من أحلام اللاواقعية .

* * *

٢٠ ــ نهضة فارس فى عهد الشاه رضا خان :

* استطاعت فارس أيضا أن تنجو من ضغط القوى العظمى بعد الحرب العالمية الأولى فقد رغبت انجلترا فى بادىء الأمر فرض سيطرتها عليها بعد ما أعلن الاتحاد السوفيتى تنازله عن كل حقوقه فى فرض الحماية على أى منطقة خارج حدوده ، لكن البرلمان الفارسى رفض التوقيع على معاهدة الحماية، فاضطر البريطانيون الى التراجع لأنهم لم يكن لديهم الاستعداد لاراقة المزيد من الدماء بعد الحرب، فسحبوا قواتهم .

* ثم ظهر فى فارس رجل ذو نزعة تقدمية هو : رضا خان . كان ضابطا فى الجيش ، أبدى شجاعة واقداماً فى حرب الحدود ضد البلشفيين ، وبعد توقيع المعاهدة مع روسيا ، زحف على طهران فأصبح قائدا عاما للجيش ووزيرا للدفاع فاستغل مركزه فى بناء جيش قوى ، وتسليحه بأحدث الأسلحة . وفى عام ١٩٢٣م أصبح رئيسا للوزراء . ويمضى المؤلف فى سرد تاريخه : حتى أصبح الرجل الأول فى الدولة ، فأراد أن يعلنها جمهورية ، ولكن التقاليد الدينية الشيعية لم تمكنه من تنفيذ رغبته، فنصبه البرلمان فى عام ١٩٢٥م ملكا، له كل حقوق الشاه فى فارس ، وغيَّر اسمه فأصبح يعرف باسم رضا بهلوى ، كما غيَّر اسم فارس فيما بعد فصارت تعرف باسم : ايران .

* قام رضا بهلوى بنهضة شاملة فى البلاد فعوضها مافقدته عبر مئات

السنين ولم يكن للبرلمان ســـوى الموافقة الروتينية على كل مايعرضه من مشروعـــــات وخطط ، ومن المشروعات الرئيسية لنهضة البلاد ربط المناطــق بطــرق مواصلات حديثة ، وانشاء الخط الحديدى بين بحر قزوين والخليج . وحظيت الآداب والتاريخ والتعليم باهتمام الحكومة اهتمامــــا لا يقــل عن اهتمامها بالنواحى الاقتصادية ،كما انتهجت سياسة مع شركات البترول، ضمنت لها ربحا أكبــر ، واعتنت بالزراعة ، فأنشأت المعاهد الزراعية ووضعت خطة لتوطيــن البـــــدو الرحل.

* سقط حجاب المرأة رسميا فى عام ١٩٣٦م ، وان كانت التقاليد حالت دون سقــوطه عمليا لعدة أعوام لاحقة ، ولكن الحــــركات النسائية أيقظت المرأة من ثباتها .

بقى الاسلام فى صيغته الشيعية دين الدولة فى فارس ، فاحتفظت بصداقة البلاد الاسلامية ، وحاولت اقامة علاقات ودية معهـــا ، كى لا تنقطع مشاركتها فى المجــــالات الدينية والأدبية فى منطقة الشرق ، كما احتاجت ايران فى تنفيـــــذ البرامج الاصلاحية الى اقامــــة علاقات طيبة مع القوى العظمى فى العالم ، ومع الدول المجــاورة لها فعقدت معاهدة صداقة مع القــوى العظمى ، كما نص فى معاهدة سعد أباد التى عقــدت فى عام ١٩٣٧م مع تركيا والعراق وأفغانستان على الاعتراف بالحدود القائمة وعــدم التدخل فى الشئــون الداخلية . وعدم الدخول فى أحلاف عسكرية مع القوى الأُخرى وحل المشكلات التى تظهــر على مسرح الأحداث مستقبلا سلميا .

* قامت النهضة الفارسية على أُسس مشابهة لما انتهجته تركيا فى مسار نهضتها ولكن لم تستطـــع التقدم بخطوات سريعة مثل تركيا بسبب اختلاف تكـــوين الدولة الظاهرى وبسبب ارتبــاط الشعب الفارسى بالدين والتقاليد ارتباطـــا وثيقا وعميقا.ورغم هذا فقد وصل الشاه بشعبه الى مرحلة من التقدم لم يصل اليها من قبل قط ، وخاصة

فيما يتعلق بمسألة التخلص من النفوذ الأجنبى ، اذ ظلت انجلترا وفرنسا تمليان على فارس — على مدى عدة قرون — انتهاج السياسة التى كانت تحدد مصيرها .

٢١ — مصر أمة حرة :

* كان كفاح مصر ضد الحماية البريطانية طويلا ومعقدا ، فقد عارض الشعب المصرى الحماية البريطانية فور اعلانها مباشرة ، فلم يلب نداء التطوع فى الحرب ضد الجيش العثمانى ، فاتخذ الانجليز اجراءات صارمة ، اذ انتزعوا الفلاحين من قراهم تاركين وراءهم أُسرا تحتاج الى من يعولها .. ويمضى المؤلف فى سرد أحداث الحرب وموت السلطان ، وعدم استطاعة انجلترا تنفيذ الفكرة التى كانت تراودها ، وهى ضم مصر الى الامبراطورية البريطانية ، ولذا فقد وافقت على تعيين أحمد فؤاد سلطانا على مصر ، وقيام ثورة ١٩١٩م واعلان الدستور والملكية، وتعاقب تشكيل الوزارات المختلفة ، واعلان استقلال مصر فى معاهدة ١٩٣٦م مع احتفاظ الانجليز بحق مرابطة قواتها فى منطقة قناة السويس . ويبين فى معرض حديثه عن المجتمع والأحزاب : ان الاختلاف الطبقى فى الحزب الذى قاد البلاد سياسيا كان كبيرا ، فقد ضم الحزب مجموعة من الاقطاعيين والأثريا بجانب الفقراء المعدمين ، ولم يفكر أعضاء الحزب فى برنامج يقضى على هذه الفوارق الكبيرة ولكن جماعة الاخوان المسلمين هى التى نادت بالاصلاح الاجتماعى القائم على الأُسس الاسلامية .

* تبوأ بعض علماء الأزهر مكانة الزعامة الدينية ، فكان ينظر اليهم على أنهم نواب الشعب ، يعبرون عن آماله ، ويرفعون شكواه الى المسئولين ويطالبون بحقوقه وليس هناك شك فى أن مصر تزعمت العالم الاسلامى بعد انهيار الدولة العثمانية ، وان برامج الاصلاح التى أعلنت — بعد أن عزل الجيش بقيادة اللواء محمد نجيب الملك فاروق — تقوم فى أغلب بنودها على أفكار الاخوان المسلمين فى

مجال تحقيق العدالة الاجتماعية • بين أفراد المجتمع • وهذه عوامل كان لهـا أثر بالغ فى تقوية مركز مصر الاسلامى •

٢٢ ـ النضال ضد وصـاية القوى العظمى :

* انشغلت كل البلادالعربيةفيما بين الحربين العالميتين بمقاومـــة اقليمية ضد وصاية القوى العظمى، فقد فشلت الفـــكرة الخيالية التى كانت تستهدف قيام دولة عـــربية كبرى تضم كل المناطق العربية ، على صخرة الواقع السياسى الذى أرغم كل قطر عربى على اتخاذ طريق طويل مختلف عن الآخر ، أدى الى قيام دويلات عربية ، مستقل بعضها عن بعض •

* أخذتسوريا طريقها فىوقت مبكر للتخلص من القيود الأجنبية بعد الحـــرب مبـــاشرة ، وذلك بتنصيبفيصل ـ أحد أبناء الشريف حسين ، امير مكة ـ ملكا عليها ولكن قضى على هذه الرغبةبطريقة مهينة ، اذ عندما باشرت فرنســا حمايتها بعد الحرب مباشرة عــلى سوريا ولبنان ، طردت « الملك » من البـــلاد • ثم تولت السلطات الفرنسية تسيير شئون الدولة فى ظل الأحكام العـــربية التى أعلنت عند اندلاع الحرب ، وبقيتسارية المفعول بعد انتهائها • ســـــارت الأمور سيرا حسنا حتى عام ١٩٢٥م حينمـــا انفجـــر غضب الشـــعب فاندلعت الثورة مبتـــدئة بالقبائل الدرزية ، ثم عمت جميع أنحـــــاء سوريا ولبنـــان ولم تستطع فرنسا اخمادها الا بعد أن تلقت مساعدة من الحلفاء واستخدمت الطائرات فى قمعها •• ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث ما بعد الثـــورة حتى انتهاء الحرب العالمية الثانيةوحصول سوريا على الاستقلال الكامل فى عـــام ١٩٤٦م كـــذلك تنـــاول ـ بالتفصيل ـ المقاومـــة الوطنية فى العراق ضد الحمايةالانجليزية ، وحصول العراق على استقلاله فى أوائل الثلاثينات ، وقبوله عضـــوا فى عصبة الأمم المتحدة والامتيازات التى حصلت عليهـــا انجلتـــرا فى

العراق أثناء الحرب العالمية الثانية بفضل صداقتهم لنورى السعيد •

* * *

٢٣ ـ فلسطين والجامعة العربية :

* اصطدمت مسألة فلسطين داخل العالم العربى بصخرة عاتية ، فقد تعارض فرض وصاية بريطانيا على هذا البلد ـ وهو عربى بحكم القانون الدولى ـ مع الوعد بانشاء وطن قومى لليهود ، فعلى الرغم من أن وثيقة هذه الوصاية لم تتضمن وعدا باعطاء اليهود حقوقا خاصة ، الا ان الحركة الصهيونية بذلت جهدا كبيرا فى سبيل الوصول الى هدفها فحاولت ـ ما أمكنها ـ دفع اليهود المبعثرين فى العالم الى الهجرة الى فلسطين ليكونوا محور وأداة قيام الوطن القومى اليهودى • ازداد عدد المهاجرين الى فلسطين عاما بعد عام ـ خاصة بعد ظهور الاتجاه النازى المعادى للسامية ـ فغضب السكان العرب وثارت ثائرتهم • وعندما رفضت سلطات الانتداب فى عام ١٩٣٥م طلبهم وقف هجرة اليهود الى فلسطين أعلنوا الاضراب العام ، وظلت الثورة العارمة متأججة بين صفوف العرب على امتداد ثلاثة أعوام ، فلم يستطع البريطانيون السيطرة على الموقف الا بشق الأنفس • فقد كان الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين هو الزعيم الروحى لهذه الثورة ، استمدوا منه قوتهم واستمرارهم فى مقاومة المخطط الصهيونى وعلى الرغم من نفى الانجليز له خارج البلاد فقد استمرت القلاقل وفشلت جهود بريطانيا فى اقناع الطرفين بقبول مبدأ المصالحة حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية •

* وكانت خيبة الأمل فى السياسة البريطانية فى فلسطين دافعا قويا لانحياز مفتى فلسطين الى جانب هتلر ، ومحاولة تقديم مساعدة لقواته فى شمال افريقيا ، ولكن انتصار « مونتجمرى » ضيع على المفتى كل أمل كان ينتظره من انتهاج هذه السياسة •

* شغلت الحرب العالمية الثانية القوى العظمى ، فلم تتدخل فى

شئون دول الشرق الا بطريق غير مباشر ، فتركيا تعلمت من درس الحرب العالمية الأولى ، فلى تورط نفسها ، وبريطانيا انشغلت فى البلاد الواقعة تحت سيطـرتها بتدريب القوات وارسـالها الى جبهـات الحرب ، وايران ـ بحكم علاقتها مع روسيا ـ اضطرت الى السماح بانزال قوات الحلفاء فى أرضها ، ولم يكن لدى العالم وقت يسمح له بالاهتمام بمشـاكل العرب الداخلية .

* أعقب الهدوء المفروض بقوة السلاح نشاط كبير نتج عنه قيام « الجامعة العـربية » فاختيـرت القاهرة مقرا لها ، وكان أعضاؤها فى بدء تـكوينها هم : مصر ، وسوريا ، والأردن ، والعـراق ، والمملكة العربية السعودية ، وانضم اليها فيما بعد ليبيا والسـودان . وكان الهدف من هذه المنظمة تبادل المساعدات دون المساس بحـق استقلال كل قطر عن الآخر ، والعمل المشترك فى مجال الاقتصـاد . وهـكذا ظهر على المسرح الدولى كتلة دوليـة ، فهى وان كانت لا تقاس من ناحية القوة بالكتـل العالمية الأخرى . الا أن قيامها كان شعلة نشرت ضـوءها على العالم العربى والاسلامى : سياسيا وفكريا ولعبـت دور السند والمعيـن للمستعمرات الافريقية فى كفاحهـا على طريق الاستقلال .

* هذا هـو الوجه الخارجى للجـامعة العـربية ، أمـا الداخـلى ، فقـد دارت فيها بعض مناورات ومصادمـات صغيرة فى مجال محاولة فـرض الوصاية عليها ، وعند النزاع على منـاطق اقليمية ، وأزواء المشاكل الاقتصادية ، اذ لم تظهر التناقضات فى مجال النزاع على الحدود أثناء الحـكم العثمانى واضحـة ولكن بعد سقوط الخـلافة ، لم تظهـر النزعات القومية الاقليمية فقط ، بل أصبح التفكير فى قيام دويلات مستقل بعضها عن بعض واضحا ، كما ظهرت انقسامات حادة داخـل الاقطـار بين الشعوب والملوك ، وبين الشعوب والحكومات ، وبين

الطـــوائف المختلفـــة الآراء والاتجـاهات داخـل المجتمـــع الاسلامى .

نسى العرب خـــلافاتهم أمـام مواجهةالعدو المشترك : اسرائيل، ولكن الجامعة العربية فشلت فى أول امتحان لها فى مجال الصراع العربى الاسرائيلى ، ويرجع فشلها الى عـدم الجـــدية الى مساندة أعضائها بعضهم البعض ،كما يرجع الى الضعف العسكرى ، اذ بينما كانت تحصل اسرائيل على الأسلحة من كل بلاد العالم — على الرغم من حظـر الأمم المتحـدة لتوريد الأسلحة الى المنطقـة — اعتمـد العرب على أنفسهم فقط فلم يتلقوا مساعدة من أحد ، حتى بريطانيـا نفسها ، لم تمد لهم يد المساعدة .

* تسبب الضعـف الداخـلى والخارجى فى شل حركة الجامعـة العربية فلم تستطع القيام بالدور الذى كان يأمل بعض السياسيين أن تقوم به ، غير أن وقوع معظم أعضائها فى القارة الآسيوية ، صنع منها — ككل — أداة ربط فى منظمة الدول « الأفرو آسيوية » ولهذا بدت — رغم التناقضات الداخلية — فى مجال السياسة العالمية ، كمـا لو كانت قوة ثالثة ، تغمز باحدى عينيهـا للشرق ، وبالأخرى للغرب للحصول على مكاسب من كلتـــا الناحيتين .

* * *

٢٤ — أمال العالم الاسـلامى فى عودة مجده العالمى القديم :

* ليس غريبا أن يقابل كل تدخل بشىء من الشك والارتياب ، بعد ما قاست الدول كثيراً من المتاعب فى سبيل الحصول على استقلالها، فقد أرادت الدول أن تستقل بتدبير شئونها ، والسيطرة على ما يقوم داخل حدودها من مـؤسسات ، ولهذا جاهدت فى سبيل السيطرة على شئون البترول الذى يمثـل الانتاج العربى منه ربع انتاج العالم كذلك بدأ الخطر واضحا من الشرق، عندمـــا طالب الشعب فى ايران بتأميم البترول اذ كادت الجماهير المنادية باتخاذ هذا الاجراء أن تدفع

البلد الى أحضـــان الوصـــاية السوفييتية ، لولا أن حالت بريطانيا والولايات المتحدة دون وصـــول السوفييت الى الغاية التى لم تغمض أعينهم عنها لحظة ، ألا وهى تحقيق أطماع روسيا القديمة فى ايران .
كذلك دخلت الولايات المتحدة بعد الحرب بثقلها فى المنطقة ، فقامت بالدور الذى عجزت بريطانيا عـــن القيام به ، بعـــد خروجها منهـــكة من الحرب العالمية الثانية .

* تشير ظواهر الأحداث الى أن لدى مصر أسبابا تدعـــوها الى الوقوف ضد سياســـة الولايات المتحدة ، فهى وان ساعـــدتها على استعادة قناة السويس الا أنها وقفت أيضا بجانب اسرائيل . ودافعـــت عنهـــا ، فكانت بمثـــابة شوكة فى جنب العلاقات مع العالم الغربى . ولهذا فليس غريبا أن ينظر العرب الى كلتا القوتين العالميتين بحذر .. وأن يراقبوا أخطارهما بعين مفتوحة ويساوموا للحصول على ما ينفعهم من كلتا القوتين .

* تطمع كل الدول الاسلامية فى الوصـــول الى الاستقـــلال الاقتصادى ، وتكوين قوة سياسية تمتد من الشاطىء الشرقى الافريقى حتى الشرق الأقصى ، ولذا فهى تحتاج الى الخبرة الأجنبية للكشف عن مواردها الاقتصادية واستغلالها ، وتأمل فى تكوين « كومنـــولث » اسلامى ، وقد أعلنت عن ذلـــك مرارا فى مؤتمرات اقتصادية ، عقدت فى كراتشى وطهران واشتركت فيها كل البلاد الاسلامية ، معلنة عزمها وتصميمها على العمل المشترك فى المجال الاقتصادى داخل اطـــار التعاليم الاسلامية .

* يتجـــه الترابط الدينى بين الشعوب الاسلامية — داخل اطار التحول الحضارى — الى اعـــادة المجد العالمى القديم ، فقد ارتفعت أصوات فى آسيا تنادى بتطبيـــق أحكام القرآن ، ففى باكستان ، تلك الدولة التى أعلنت الاســـلام دينا رسميا للدولة يحاول المسلمون تطبيـــق أحكام القرآن للنهـــوض بالمجتمع ، فهم يتخذون القـــرآن

أساسا لنهضتهم الحضارية ، كذلك طبعت جماهيـــر الشعـــب فى اندونيسيا الدولة بطابع اسلامى ، على الرغم من الجهود الجبارة التى تبذلها بعثات التبشير المسيحية فى ظل ضمان حرية العقيدة التى كفلتها الدولة للجميع كما يعيش الناس فى أفغانستان طبقا لتعاليم القرآن فى ظل دولة اسلامية ، حتى فى الفلبين والصين واليابان ، يعيش ملايين المسـلمين ، وعلى الرغم من أنهم أقلية ، فهم لا يكفون عن التفكير فى محـاولة تطبيق أحكام القرآن — ما أمكن — فى شئون حياتهم .

* انضم شمال افريقيـا الى الجامعة العربية ، وأسهمت دوله فى الحركة الاسلامية الجديدة ، كما يعيش ملايين المسلمين فى افريقيا السوداء ولهم نشاط ملحـوظ فى تأييدهم ودعم الاتجاه الاسلامى . فاذا خرجنـا من هـذا الحـزام الاسلامى فى افريقيا وآسيا قابلنا قوى اسلامية أخرى ، تركها الحكم العثمـانى فى دول البلقـان : يوغوسلافيا ، وألبانيا ، وبلغاريا ، واليونان ، اذ يرى المرء معالم الطابع الاسلامى بين شعوب هذه الدول ، وخاصة يوغوسلافيا ، ويلمس تعلقها عاطفيا بما يجرى فى البلاد الاسلامية كذلك يعيش داخل حدود الاتحاد السوفييتى أكثر من عشرين مليون مسلم ، يمارسون الآن عبـاداتهم — طبقا لأحدث التقارير — فى هدوء بعد أن اجتازوا مرحلة اضطهـاد النظام الشيوعى لهم .

لا زال الشرق الاسلامى يكوّن وحدة سياسية وثقافية ودينيـة ، على الرغم من ظهور الاتجـاهات القومية المتعددة فى أقطاره منذ نهاية القرن التاسع عشر ، اذ يشعـر المسلمون أن ترابطهم يتجاوز حدود الدول السياسية ، فالدين — بالنسبة لهم — ليس أمرا شخصيا ذاتيا ، ينفصل عما عـداه من النظـم الاجتماعية التى ترتضيها الاغلبيـة أساسا لحياتها داخل اطار الدولـة السياسى ، بل هو القانون الأساسى الذى يشكل كل جوانب حيـاة المسلمين ، وعليه فمن يتحدث عن روح الاسـلام ، فيجب عليه أن

يراعى الرحدة الكلية : الروح أو (العقل) والطبيعة أو (الجسم) والثقــافة • فحيــاة المسلمين التى تحكمها التعاليم الدينية تختلف عن حياة الناس خــارج المجتمعات الاسلامية ، ســواء فى الشرق أم الغرب ، فطبيعة المسلم ترفض المادية المجردة رفضها لانكار وجود الله •

* يتطلب التقدم الحضارى فى هذه البلاد التغلب على عقبــات كأداء ، اذ يجب على ســكانها أن يسلكوا طريقا آخر فى التنمية غير الطريق الأوربى ، لأنهم لا يملكون من الصناعات ما يمكنهم من سلوك طريق أوربا ، وفضلا عن ذلك فهم مشغولون بتغييــر نظــام الأسرة القديم المتخلف ، وتغييــر أسلوب الحياة القبلية ، الذى ارتضى الأفراد تقسيمه الاجتماعى على أنه ارادة الله • فليس من السهل ادخــال الآلة الحديثة للمساعدة فى اعــادة تكوين مجتمع حــر ، فقد قامت ثورة فى أفغانستان فى عام ١٩٤٨م لأن بعض النساء خلعن الحجــاب ومشين فى الشارع سافرات الوجه •

* لن تدرك الجماهير فى القريب العاجل الملاءمة بين القرآن وبين النظم الحديثة فى مجال العدالــة الاجتماعية ، وكذلك بينه وبين بناء الدولة العصــرية ، اذ لا يزال الشرق يمر بمــرحلة التفاعــل والتصدع ، ويجب عليه معالجــة التصدع أولا ، فهل سيكون الغرب هو الطبيب المناسب ؟

* سوف يجيب المستقبل على هذا السؤال !!!

* لم يستطع المؤلف التخلص من رواسب الماضى كله ، فهو وان أشار فى مقدمة الكتاب الى روح التعصب التى سيطرت على البحــوث التى كتبت عن الاسلام ، وأنه لن يسير على منهجها ، الا أنه كان يميل فى سرده لتاريخ الاسلام السياسى الى اتخاذ الموقف الأوروبى فى مواجهة الاسلام والمسلمن ، ذلك أن ملامح التوجس والخوف بدت واضحــة كلما ظهرت قوة الاسلام كعقيــدة على مسرح السياسة الدوليــة ، فأثبتت الدولة الاسلامية وجودها

فى المناطق التابعة لها اداريا ، وتحكمت حركة التجارة العالمية .

* فاذا ضعف التيار الاسلامى أو اهتز سلطان الدولة ، فلم تستطع السيطرة على مجرى الأحداث دوليا ومحليا ، ارجع ذلك الى التخلف الحضارى الذى كان السبب فيه التمسك بتعاليم الاسلام . غير أن أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية أثبتت أن تخلف دول الشرق لا يرجع الى الاسلام كما تصور ذلك الأوربيون ، فقد تخلصت تركيا — بايعاز وتخطيط من الغرب — منه ، لتلحق — كما أوهموها — بركب الحضارة الغربية لتكون دولة قوية . ولكنها لا زالت ضعيفة حتى الآن ، فهى تعانى من أزمات اقتصادية مزمنة . ولم ينقذها التعلق بأذيال الغرب ، بل ان الغرب هو الذى امتصها فقد صرح الغربيون أنفسهم بـ « أن تركيا تمر بأزمة اقتصادية لا يعرف أحد كيف تنتهى .. » واذا كانت تركيا قد أكتسبت فى النصف الأول من القرن العشرين اسم « رجل أوربا المريض » .. فانها يمكن أن تسمى الآن بـ «رجل أوربا المحتضر» ويظلم الغرب تركيا حين يرجع حالتها السيئة الى « التخلف » الشرقى .. فالواقع أن ما تعانى منه تركيا فى الواقع هو مرض غربى .. فقد تبعت تركيا باخلاص أعمى « الوصفات » الغربية للتنمية الاقتصادية فى الثلاثين عاما الماضية والنتيجة : تضخم لا يتوقف (٦٠٪ سنويا) ، بطالة (٢٥٪) ، اعتماد على استيراد الطاقة (٨٠ ٪) والديون الأجنبية (١٧ر٧ مليار دولار) .

* وتحاول تركيا التخلص مثل سمكة وقعت فى شباك الصيادين من رجال البنوك الغربيين ، وخبراء صندوق النقد الدولى ، الذين لا يقبلون سوى الاستسلام بدون قيد أو شرط مهما كانت الخسائر السياسية أو الاجتماعية (١) .

---

(١) جريدة الأخبار القاهرية بتاريخ ٧ /٨/ ١٩٧٩ م عن : نيويورك تايمز وفينانشيال تايمز .

* ولم يتحرر من الفكرة المسيطرة على عقــول الأوربيين ، وهى أن حجاب المرأة عقبة فى طريق التقدم الحضارى ، ولــذا يجب التخلص منه .

*ونسى أن هذا ليس أمرا جوهريا فى مجال البحث عن أسباب التخلف فى المجتمعات ، اذ يرجع التخلف فى المقام الأول الى :

الاستعباد الفردى والجماعى .

* وقد حرمه الاسلام ..

تراخى المجتمعات وكسل أفرادها فى مجال الانتاج .

* وقد حث الاســـلام على العمل ..

اتنشار الاختلاسات فى أموال الدولة .

* والاسلام يحــرم ذلك .. و .. و .. الخ .

* فلو طبق الاسلام كما ينبغى ــ بعيدا عن التعصب الكهنوتى ، ومحررا من سيطرة أنصاف العلماء والمنافقين على تحديد مفهوم مبادئه التشريعية والتوجيهية ــ لدفعــت عجلة التقدم فى العــالم الاسلامى دفعا ، ولرفرف علم الرخاء والعدل الاجتماعى على المسلمين .

للحديث بقية ..

دكتور محمد شامة

« من الهداية المحمدية

● ما كرهت أن تواجه به أخاك فهو غيبة .

● ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفســك اذا خلوت .

هجوم لا مبرر له

الأزهر وأيام طه حسين

للدكتور محمد رجب البيومي

أسف المنصفون أسفا شديدا حين شاهدوا حلقات الأيام تعرض عرضا مغرضا مريبا على شاشة التليفزيون حيث تتجافى الحقيقة الى مبالغات زائفة تهدف الى تشويه ما يتصل بالدين من مكاتب تحفيظ القرآن الكريم أولا ، ومن موقف الازهر من صاحب الأيام ثانيا ، وهو تشويه يهز المعاني النبيلة في نفوس من يعرفون لرجال الدين مكانتهم اللائقة بهم، لا سيما وهم في حقيقة أمرهم برءاء مما يقذفهم به المفترون ، اذ حملوا أمانة العلم في الحلقات الدراسية ، وثاروا على المستعمرين ثورة عاتية كان مصدرها الدائم أزهرهم الشريف ، وسنناقش في هدوء موقف هؤلاء الذين شاءوا أن يمسخوا الحقائق ، لا لشيء سوى أنهم لا يتقيدون بمنطق العدل ، وأن القائمين على الاخراج المسرحي لا يلتزمون بالحق الواقع، بل لا يكادون يحسون له أدنى التزام .

ان فقيه الكتاب كما صوره الدكتور طه حسين ، ليس الصورة العامة للفقيه ، ولا يخلو الأمر من أحد شيئين ، اما أن يكون شاذا في أنانيته فهو لا يمثل طائفته ، وأما أن يكون الدكتور طه قد بالغ في تشويه سمعته ليبرىء نفسه من اهمال الحفظ ، وترك التلاوة ، حتى نسي كتاب الله ! ونحن اليوم نعرف تمام المعرفة أن اختفاء فقيه الكتاب قد ساعد على الامية العلمية ، وجعل طالب المدرسة وطالب الازهر الذي لا يحفظ كتاب الله أقل منزلة في لغته وثقافته ودينه وعربيته من

زميله الحـافظ لكتاب ربه ، ماذا أريد أن أقـول ؟ انى أعـرف أن ضياع اللغة العربية على ألسنة من يلتزمون العامية فى أحاديث الاذاعة وبعض مقـــالات الصحف ، فاذا حاولوا التزامها تقاذفتهم الأخطاء ، وتعاورتهم العجمة ، وان ضيـــاع اللغة على هذه الصورة كان مـن بعض أسبابه ابتعاد المتحدثين عن حفظ كتـــاب الله ، ولو انتشرت كتاتيب تحفيظ القرآن كعهدهـــا السابق لما انحدر مستوى التعليـم فى عصرنا الراهن عما نعهد مـن قبل ، ولو كان لدى المشرفين على حلقات الأيام التزام أدبى بمشكلات الدولة الثقافية ما تجاوزوا الواقع الى مبالغات تدعـو الى التنفير من حفظة كتاب الله ، وهم بين شيئين اما أنهم لا يعرفون اتجاه الأمـة نحو ضرورة اعادة هذه الكتاتيب، فهم منقطعون عن رصد التيـــار التعليمى فى مصر ، واما أنهـــم يقرأون ما تكتبــه الصـحف من ضرورة قيام هذه الكتاتيببدورها الثقافى ، ويريدون محاربة هـذا الاتجاه ، اذ يساعد على انشـــاء جيــل مثقف يقيم لسانه ، ويحفظ لغته ودينه ، وأكثرهم عن ذلك كله بمنأى بعيد .

أما موقف الدكتـــور طه حسين من الأزهر ، فاننا سنجعل ما كتبه بنفسه فى الأيام قاضيا بيننا وبينه ، سـنأخذ من أقـواله التى سجلها هو بمحض اختياره ما يدلعلى أنه جابه الأزهر بالانتقاص والتشهير، وملأ الصحفهجاء منكرا لأساتذته وقـد عفوا عنـه فلم يهموا ببعض ما يستحق ، ثم شاء صاحب الأيام أن يواصل هجومهعليهم دون مبرر معقول ، وقد بدأ وهـــو الطالب الناشىء بالتشهير بهم ماستطاع ، وسجل ذلك على نفسه ليكـــون شاهدا ناطقا بمقطع الرأى فى غرابة موقفه ، فكيف يكون الأزهـر قد ظلمه وضاق به ؟ وهو المتحـــرش المهاجم الجرىء ؟ !

فى الجزء الثانى من كتابالأيام فصل يكشف نفسية الدكتور طـه حسين ، ويفسر سلوكه الهجومى فى مجتمعه تفسيرا سافرا لا يقبل

أدنى شك ، فقد سطر الفصل السادس عشر من الأيام ليقول ما ملخصه انه رجع الى قريته للمرة الأولى بعد اتسابه للأزهر فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما يجده أخوه الكبير ، بعد رجوعه المتكرر من اغترابه فى القاهرة طالبا للعلم ، مبرزا بين قرنائه ، وقد غاظه هذا الاهمال ، فجعل يهاجم الناس فى أفكارهم ، فاذا تحدث فقيه الكتاب مثلا فى شيء من العلم وثب عليه واتهمه بالجهل ، واذا قرأ والده بعض المأثورات هز رأسه وقال عن قراءته انها عبث لا غناء فيه ، واذا تحدث الناس عن علم القاضى بالمحكمة الشرعية قال طه : انه أعلم من القاضى بالشرع ، وأفقه منه بالدين ، وأحق منه بالقضاء ! كل ذلك ولم يقض فى الدراسة غير سبعة أشهر !! واذا تحدثت العامة عن ولى شهير فى اقليمه رفع الطالب الناشيء صوته بما يدل على المعارضة الشديدة ! ثم انهى الدكتور طه تفصيل ذلك كله بقوله ص ١٢٨ من الفصل السادس عشر :

« وعلى كل حال فقد انتقم الصبى لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه ، والتفكير فيه وتغير مكانه فى الأسرة ، مكانه المعنوى ان صح هذا التعبير ، فلم يهمله أبوه . ولم تعرض عنه امه وأخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق ، بل على شيء أكثر وآثر عند الصبى من الرحمة والاشفاق » .

هذا الذى كتبه الدكتور عن نفسه يفسر سلوكه المهاجم للأزهر فى جميع مراحل حياته ، فقد اتسع له صدر الأزهر ، وتقبله مدرسوه ببشاشة وعطف ، ولكنه كان يريد أن يلفت الناس له ، فاصطنع الخلاف ، وآثر الشقاق ، وفزع الى الصحف ليهاجم من يعلمونه ، وماذا يبتغى بعد ذلك كله منهم ؟ وقد آذاهم بالباطل دون انصاف وسنعرض شذورا مما قاله هو وسجله على نفسه ، ليرى اتساع

الصدر الرحب لدى كثير ممن قسا عليهم دون مبرر .

لقد استمع الطالب الى مدرس النحو يشرح قول المؤلف « وعلامة الفعل قد » قال طه : « وقد أتقن صاحبنا ـ أى طه نفسه ـ ما أثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والأجوبة ، وأتعب شيخه حوارا وجدالا ، حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار ، ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكره قط الا ضحك منه ورق له : « الله يحكم بينى وبينك يوم القيامة » قال ذلك فى صوت يملؤه السأم والضجر ، ويملؤه العطف والحنان ، وآية ذلك أنه بعد أن أتم الدرس، وأقبل الصبى ليلثم يده كما كان الطلاب يفعلون ، وضع يده على كتف الصبى ، وقال له فى هدوء وحب : شد حيلك ، الله يفتح عليك !

فالصبى يحاول بعد سبعة أشهر فقط من انتسابه للأزهر وهى مدة لا تتيح له مهما كانعبقريا أنينازل شيخا قضى فى العلم والتدريس أكثر من أربعين عاما !! ومن المعلوم أن سبعة أشهر لا تجعل الطالب يحصل مضمون متن الأجرومية فى اتقان ، ولكن طه يعترض ويسرف حتى يصيح شيخه « الله يحكم بينى وبينك » ومعنى ذلك أن الاستاذ يتوجه الى من يعلم حقيقة اللجاج ليثنى هذا المكابر عن اسرافه لم ينتقصه الشيخ ، ولم يغضب عليه وقد اتسع المجال للتبرم ، ولكن طه لا يرعوى بل يحاول اثارة أساتذته ، وهم راحمون ، فاذا تحدث عنهم فى هذا الفصل أخذ يصفهم بالغيبة والنميمة والدس ، وينقل أقوال الطلاب عنهم ، وقد نسى أن الأزهر مجتمع انسانى يجمع أمثال طه ، وأمثال من هم على نقيضه ! فاذا وجد الصالح فقد وجد معه الطالح ، ففيم اللجاج فى أمور مشتهرة ، لا يخلو منها مجتمع من مجتمعات الحياة ؟ ومن قال ان العلماء ملائكة لا يخطئون !

كان طه مع هذا التهجم ومقابلة الأساتذة بما يغيظهم ، وضع عطفهم،

يتحدث أنه أرسل للامتحان الأول ذات مرة ، ليعلو قدره ان نجح ، ويزيد عطاؤه من الجراية ، قال طه ما نصه : « وأرسل الى الامتحان ذات مساء ، ومعه كتاب الى الممتحن فلما أدخل الفتى على الممتحن حياه ، وأخذ منه الكتاب فنظر فيه ، ثم ألقى عليه سؤالا ورد الفتى جواب السؤال خطأ أو صوابا ، لم يدر ، ولكن الممتحن قال له انصرف يا علامة !! فانصرف راضيا — ص ١٤٨ » فماذا تقول فى شعور الاستاذ نحو الطالب الضرير ، لم يرهقه فى شىء وقال له انصرف يا علامة !! « لأنه يرى مثله موضع العطف ، وهو أولى من سواه بالعطاء ، فنال الفتى ضعف ما يأخذ من الجراية ، ونال خزانة فى الرواق لملابسه وكتبه بعد هذا الامتحان الهين ؟ .. والطالب بعد لجوج عنيد يعارض الأساتذة ويسرف فى التهكم والاستنكار !

والشيخ بخيت المطيعى من كبار فقهاء عصره ، وقد رشح لمشيخة الأزهر أيام كان طه فى عامه الثانى من الطلب ، هذا الفقيه الكبير لا يثبت لمناظرته فى الفقه طويلب صغير ، لم يكد يكمل عامه الدراسى لأن دروسه فى الاصول والمنطق والفقه والتوحيد ، وتصدره لدرس التفسير بعد الاستاذ الامام مما يجعل كل مناقش يقدر الخطو لقدمه قبل أن تزل ، ولكن طه يقول عنه «وكان الفتى — يريد نفسه — ربما جادل الشيخ فأطال الجدال ، وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسينى أن حسبك فقد نفد القول ، فأجابه الشيخ فى غنائه الظريف : لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون ، ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ، فقدكان هو أيضا حريصا على أن يدرك القول قبل أن ينفد » ص ١٥٠ .

وقد تكرر الهجوم على الشيخ بخيت مرات فى الأيام ! وطبيعى أن نقاش طه بعد عام واحد من انتسابه للأزهر لأمثال الشيخ بخيت لا يتطلب ايضاح الحق ، فمهما كان معتزا بعقله ، فهو لم يبعد عن الشاطىء فى مسائل الفقه ، ولكن

الفقيه الأصــــولى يفسح صدره ويصد المتضـــايقين من الطلاب ويقول فى ابتسام : لا والله حتى يقتنع هــذا المجنــون ! وأنا أسأل محبى الدكتور طه من طلابه : أكان الدكتور الكبير وهو عميــد كليــة الآداب يأذن لطالب فى القســـم الابتدائى أن يقاطعه فى المحاضرة حتى يضيـــق طلابه ويتصايحوا منكرين ! ! ولو حصل ذلك حقيقة هل يصبر الدكتور على الفتى الناشىء ويدعه يسترسل فيما يجهــل دون انكار ؟

لقد تعرض الدكتور مرات الى الشيخ بخيت كما قلنا ، وذكر فى ص ١٦٢ أنه مع نفر من أصــدقائه « لم يكونوا يسمعون للشيخ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب ، وانما كانوا يسمعون ليضحــكوا منه ، وليقيدوا عليه أغـــلاطه ، وكانت كثيرة اذا اتجهت الى اللغة، والأدب ، وليشنعوا عليه بهـــذه الأغلاط بعد الدرس ، وليعرضوا هذه الأغلاط على شيخهم المرصفى فيقدموا اليه مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيوخ»

ثم زاد طه فى اغتيـــاب الاساتذة وفى التهجم على كبـــار العلماء ، وعلى أعضاء مجلس الأزهر ، بالذات تهجما سافرا أمام الطلاب فى ساحة الأزهر ، حتى تطايرت الأنباء اليهم اذ ذهب أحد الطلبة الى الشيـــخ الأكبر فأخبره بما قال طه ورفقاؤه عن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى ، ومنهـــم الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين العــدوى ، والشيخ راضى ، وكانوا جميعـــا فى ادارة الأزهر حين بعث الشيخ الأكبـــر يستقدم هؤلاء الشاتمين الهازئين، فيحضرون الى مجلسه ليستعمـــوا ما قال عنهم الطالب ، قال طه ص ١٦٩ :

« وكان هذا الطالب ماهرا حقا ، فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيرا جدا مما كانوا يعيبون به الشيوخ ، ومما كانوا يعيبـــون به الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين ، والشيخ راضى ، والشيخ الرفاعى، وكانوا جميعا حاضرين ، فسمعـــوا بآذانهم آراء هؤلاء الفتية فيهم ، وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب فى كل ما قال ، وسئـــل

الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئا ، ولكن الشيخ لم يحاورهم ، ولم يداورهم ، وانما دعا رضوان — كاتبه — فأمره أن يمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر، لأنه لا يريد مثل هذا الكلام الفارغ » .

ثم قال طه بعد كلام متصل : « ثم لم يلبث أن يتبين الفتى وتبين معه صاحباه أن شيخ الجامع الأزهر لم يعاقبهم ، ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر ، وانما أراد تخويفهم ليس غير » ص ١٧٣ .

فماذا يرى القارىء فى سلوك الشيخ الأكبر وزملائه الكبار ، أمام طلاب جاهروا بانتقاصهم ورموهم بالجهل وحب المنصب والرياء والجمود (وأقر الطلاب بما قالوا دون انكار) ثم مال هؤلاء الكبار حقا الى العفو والاغضاء ، لم يمحوا أسماءهم ولم ينكروا مقامهم فى الأزهر ، ورأوا فيهم ما يرى الآباء أمام نزق الأبناء ! غضب وغفران ؟ أما والله لو جرؤ طالب على انتقاص الدكتور العميد ما احتمل بقاءه معه فى الجامعة ؟ وما حديث الدكتور زكى مبارك معه بمنسى مجهول ؟ وهو أستاذ مثله ؟ فأين هو من هؤلاء الأعلام ! اننا ننقل هنا ما خطه الدكتور بقلمه فلا سبيل الى الانكار !

ونأتى الى سقوط الدكتور طه حسين فى امتحان العالمية بالأزهر ! هذا الرسوب الذى عده السطحيون ظلما صريحا للطالب الشهير ، وباطلا متعمدا دبره الشيوخ بليل، فاذا حللنا أحداثه تحليلا صريحا وجدناه نتيجة طبيعية لا محيد عنها ولا منصرف ، اذ أن الطالب طه حسين قد انصرف — كما قال عن نفسه — عن دروس الأزهر انصرافا تاما حين فتحت أبواب الجامعة المصرية لمثله ، ولنظرائه من عاشقى الطريقة الحديثة فى التعليم ، فهو اذن بعد انقضاء أربع سنوات من عمره بالأزهر لم يشأ أن يستفيد من دروسه شيئا وخص دروس الجامعة بكل اهتمامه وكان حينما يفرغ من دروس الجامعة لا يلم الا بدروس المرصفى فى الأدب

واللغــة ، نائيا عن دروس المنطق والفقــه والأصــول والتوحيــد والوضع والتفسير والحديث نأيــا تاما لا اتصال من بعــده ، بل ان الصحف اليومية قد اتسعت لقلمــه كى ينقد دروس الأزهــر الشريف وأساتذته نقدا متكررا تدفعه الى ذلك نفســه الناقمــة ــ لا لشيء سوى الدوى والاشتهار ــ مــن ناحية ، ويدفعه الشيخ عبد العزيز جاويش الى قسوة الهجوم المتكرر على الشيوخ من ناحيةثانية ، حتى عــرف القــاصى والدانى كراهــة الطالب للأزهر والأزهريين ! وبعد انقضاء عشر سنوات عليه منـــذ التحــاقه بالأزهر شاء أن يتقــدم لنيل العالمية ! وطبيعى أن يستعــد طالب هذه الاجـــازة لها فيتسلح بمعرفة كتبها المعقدة وفهم موادها العلمية ، لأن نيل العالمية بالنسبة لكل طالب ــ لا بالنسبة لطهحسين وحده ــ كان فى ذلك الحين أمرا شاقا عسيرا ، بحيث لم يكن يحصل على النجاح غير أربعة طلاب فى العام الواحد ، على حين يتقــدم من هؤلاء عشرون طالبا فأكثر ، فالاختبار دقيق ، والمواد متعــددة ذات صعوبة ، والأساتذةالممتحنون من كبــار العلمــاء فى الأزهــر ، وممن لا يعــلو على آرائهــم رأى بوجه أو يشير ، وقد تهيأ الدكتور طه للامتحان وهو لا يجيد غير علوم العربية وحدها ، انه يجيــد النحو والصرف والبلاغة واللغة والأدب ، ولكن هناك علوما صعبة عويصة لم يجلس الى الاساتذة كى يستظهرها أو يلم بمضمونها ويصل الى ما يبلغه طريق الفوز فى امتحانها ، هنــاك التوحيد والفقه والأصــول والمنطق والحــديث والتفســير والوضــع والمقولات ، ولكل عــلم أبوابه الصعبة ولا بد أن ينجح الطالب فى العلوم جميعها بحيث لو رسب فى مادة واحدة لاستحال عليه أن يظفر بالشهادة ! جاء الطالب الى لجنة الامتحان يسبقه تاريخه الأليم فى سب الأزهر والأزهريين ، واحتقاره الصريح لكل مايدرسونويتناولون من أساليب الشرح والتقــرير ، وهو بعد لا يعلم فى غيــر دروس العربية شيئا غير ذى بال ! لقد كان عليه حين أراد أن يظفر باجـــازة

الازهر ان يستوعب علوم الازهـــر أما أن يتعـــالى على هـــذه العلوم ثم يشنع على اصحابها فى الصحف والمجتمعات ، ويرى من حقـــه ان يظفر بالنجاح فيها دون تعمـــــق فهذا ما لا يرتضيه منصف ! ! قد يكون الدكتور صادقا فيما بينه وبين نفسه حين يميل الى التهوين من شأن هذه العلوم ، ولكن كان عليه ألا يتقدم الى الامتحـــان فى علوم لا يعتقد فى جدواها ، ولا يؤمن بالقائمين على تدريسها ! امــــا أن يسب وينقـــد ثم يطلب النجـــاح دون استعداد ، فاذا تعذر عليه واصـــل الهجوم والتهكم ، وكتب مقـــــاله الشهير « ســـــاعة بيـــن العمائم واللحى » فهذا ما لا يرضاه منصف محايد ، يضع الامور موضعهــــا الصحيح •

لقد كان الدكتور زكى مبارك أقرب الى الحق ، وآثر للانصاف من الدكتور طه حسين ، اذ تقدم الدكتور زكى مبارك لنيل اجـــازة العالمية مباهيا بمكانته المشتهرة فى الأدب والصحافة واللغة ، وانعقدت هيئة امتحان برياسة الاستاذابراهيم الجبالى رحمه الله ، وكان الجبـــالى على علم بمنزلة الطالب الممتحن ، فقابلته اللجنة بالابتسام المشجع ، وعرض عليه الشيخ الجبالى أن يختار هو ما يريد أن تناقشه اللجنة فيـــه من أبواب الفقه والأصول والمنطق والتوحيد فتحير الطالب ثم اختار فى قلق ما رغب فيه ، فأخذت اللجنة تسأله فيما اختار ، مترفقة تسأله فى الأصول فلا يجيب ، وفى المنطق فلا يرد ، وكذلك فى الفقه والتفسير حتى اعترف بنفسه أنه لم يلم بعلوم الأزهر ، وخرج ليكتب مقـــاله ، ذاكرا أن علوم الأزهر هـــذه لن تفيده ، وأن الرسوب من حقه اذ لم يجد ميلا الى استيعابها ، فأين موقفه من موقف طه حسين !!

ثم ماذا ؟

لقد تعرضت الحلقات التليفزيونية الى قضية الشعر الجاهلى لتحمـــل على الازهـــر وزرا لم يكتســـبه ، حين صورت علماءه فى وضـــــع منكر يدين بالوصولية ، ويهـــادن فى أمور الدين ابتغاء عـــــرض الدنيـــا ، ومـــع أن كتـــاب الأيام لم يلم بقضية الشعر الجاهـــلى ،

وكان المعقــول أن تقتصر الحلقات على ما جاء بالكتاب ، فان المشرفين على الاخراج شاءوا أن يتحدثوا من لدن أنفسهم عن قضية الشعــر الجاهلى حديثا يوهم المشاهد أنهم ينقلون عن طه حسين ، فعرضـــوا شيخا أزهـــريا يتشـــدد فى ضرورة مؤاخذة الدكتور طه ، ثم يتراجع حـــين يلوح له المسئولون بعـــرض زائل من أعراض الحيـــاة ، وذلك محض افتراء صارخ لم يقل بـــه أحد ، واذا أراد القارىء أن يعرف موقف الأزهر من قضية الشعـــــر الجاهلى فليعلم أنه مــــوقف كل مسلم يغار على كتاب الله ، فقـــد تورط المؤلف تورطا منكرا حيـــن قال فى كتاب « الشعر الجاهلى » ان التوراة قد تحدثت عن ابراهيم ، وان القرآن قد تحدث عن ابراهيم ولكن حديث التوراة والقـــرآن لا يكفى لاثبات وجوده ! ! ماذا كان ينتظر المسلمون فى بقاع الأرض من الأزهر الشريف حيـــــن يرى استاذا جامعيا لا يطمئن الى حقائق القـــرآن ، بل يعلن شكه فى هـــذه الحقائق على مئـــــات من الطلاب المسلمين فى الجامعة ثم ينتقل بقوله الى آلاف القراء حين يصدر باطله الصريح فى كتاب يتداوله الناس ! ماذا كان ينتظر المسلمون من رجال الأزهر غير أن يقفوا فى وجه من يشك فى حقائق كتاب الله ، ويحاول أن يزلزل عقائد الشبيبة الاسلامية فى الجامعة ؟ أكانوا ينتظرون أن يسكتوا عن هـــذا الافك الجرىء ليرضوا أعداء الاسلام ، أم أنهـــم ينتظرون أن يهب العلماء فى طليعة المستنكرين لما أريد من الطعن فى حقائق القرآن ؟ أليس من العجب أن يثور البرلمان وأن يثور أساتذة المدارس الثـــانوية والابتدائية ، وأن يثـــور أرباب الاقـــلام فى الصحف اليومية على من ينـــكر صدق الحقائق القـــرآنية ثم يراد بعلماء الأزهر أن يلجموا أفواههم فلا تتكلم ، وأن يمنعـــوا أقـــلامهم فلا تنطق ، ليرضوا طائفة مـــــن الملحدين يسرهم أن يتزعــــزع الاسلام فى نفوس معتنقيه ! لقـــد قام علماء الأزهـــر بواجب الدفاع عن القرآن تأدية لفريضة محتومـــة

أناطها الاسلام بأعناقهم اذ كانوا حملة شريعته ومفسرى قرآنه ، ورسل هدايته الى الناس ! ولم يكن من بينهم من تراجع عن موقفه لينال منصبا دنيويا حقيرا كما شاء المخرج أن يفترى على الشرفاء بغيا دون حق ، ولو علم هذا المتجرىء على الأطهار أن علماء الأزهر هم الذين أوقدوا ثورة سنة ١٩١٩ وفتحوا صدورهم لنيران المدافع حين تزعموا الثورة المصرية أثناء اعتقال سعد وصحابته حتى كان منبر الأزهر أداة الاعلام خلال هذه الثورة العظيمة وحتى اشتهر أسماء خطبائه الكبار من أمثال على سرور الزنكلونى ومحمود أبى العيون ومحمد عبد اللطيف دراز ، ومصطفى القاياتى وابراهيم سليمان ومن لا نحصى من هؤلاء الأطهار ممن جاوزوا القول الى العمل فألفوا اللجان وجمعوا الأموال وطبعوا المنشورات وقادوا المظاهرات ثم تلقفتهم ظلمات السجون فوجدوا من تلاميذهم من حملوا الراية ، وواصلوا الجهاد !

لو علم هذا المتجرىء على الأطهار كم بذل هؤلاء الاخيار من نفوسهم وأموالهم ودماء أبنائهم فى نصرة الحرية ، ما أخرج هذا المشهد الآفك الذى ابتكره خياله الضال ، ليؤذى حملة الدين وحماة القرآن ! فكان من الآفكين المفترين ، وانى أحذر هؤلاء البغاة أن يعودوا لمثل هذا التخرص الكاذب على العلماء مرة ثانية لأن الايغال فى الباطل لن يترك دون ثأر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه •

« ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » • صدق الله العظيم •

د• محمد رجب البيومى

اللغة الأردية :

نشأتها وتطورها

للدكتور سمير عبد الحميد ابراهيم

— ٢ —

الاصول اللغوية

عرضنا فى المقال السابق نبذة مختصرة عن تاريخ شبه القارة الهندية الباكستانية وركزنا على المناطق التى نشأت فيها اللغة الأردية ، كما أوضحنا أثر الاسلام والعوامل المؤثرة فى نشأة اللغة وتطورها •

ونناقش الآن فى مقالنا الحالى الأصول اللغوية للغة الأردية• فرغم أنها لغة نشأت حديثا ولا يتجاوز عمرها خمسمائة عام الا أن جذورها تمتد عبر التاريخ الطويل للمنطقة فلا يعقل أن تنشأ لغة فى سنوات قليلة بل يحتاج هذا الى فترة تطول لا يمكن تحديدها بنسبة معينة أو وقت معين •

فى سنة ١٩٢٤ م اهتزت دنيا العلم الجديدة بأنباء جاءتها من الهند ، تعلن اكتشاف آثار حضارة يبدو أنها أقدم عهدا من أية حضارة أخرى يعرفها المؤرخون •

وقد اكتشفت هذه الآثار فى وادى « موهن جودارو » على الضفة الغربية لنهر السند (بباكستان) وتنهض الدلائل على أن « موهن جودارو » كانت فى ذروتها حين شيد خوفو الهرم الأكبر وعلى أنها كانت تتصل مع سومر وبابل بصلات تجارية ودينية وكان العالم « جونز » قد أدهش — قبل ذلك — دنيا العلم حين أعلن أن اللغة « السنسكريتية » متحدة فى أصولها مع لغات أوربا ، وتكاد هذه النتائج تكون البداية الأولى لعلم اللغات ، وفى سنة ١٨٠٥ م

كتب « كـوليرول » عـن الأدب الهندى كما نشر « برنوف » مقالته فى اللغة البالية عام ١٨٢٦ م وهى اللغة التى كتبت بها وثائق البوذية ، ثم خصص « رايس ديفندر » كل حياته لعـرض الادب البـوذى وهـكذا بدأت الدراسـات عن الاصول اللغوية فى شبه القارة .

من العجيب أن تظـل الكتابة ضئيلة القدر جـدا فى التعـليم الهندى حتى القـرن التاسع عشر ويمكن أن يكون مرجع ذلك الى أن الكهنة لم يكن فى صالحهم أن يجعلوا من النصـوص المقدسـة سرا مكشوفا للجميع وقـد كان التعـليم الشـفوى هـو وسيلة الاحتفاظ بتاريخ البـلاد وشعرها ووسيلة نشرهـا بين النـاس (١) ومن هنا وجد الازدواج اللغـوى فى الهند قديما ، لغة مكتوبة يعرفها الخاصة ، ولغة منطوقة غير مكتوبة يتحدثها الناس ويتعاملون بهـا ، كانت اللغـة المكتوبة هى اللغـة السنسكريتية التى اتخـذت صبغة دينية خالصة بينمـا أطلق على لغة الحديث اسم « براكرت » أو اللغة البراكرتيـة .

وقبـل أن تتحـدث عن هـذا الازدواج اللغوى ــ ان صح هذا التعبير ــ نقف قليلا على منعطف التاريخ اللغوى فى شبه القارة . فنقـول ان اكتشـاف اللغـة السنسكريتية أحـدث انطلاقة فى البحث فى مختلف اللغات ، فقـد وجد الأوربيون فى التراث الهندى أول دراسـة وصـفية للغـة من اللغات ، وبدأت الدراسات اللغوية الحـديثة بمقـارنة اللغـة السنسكريتية باللغـة اليونانيـة واللغة اللاتينية .

ترجع هذه اللغة فى أصولها الى مجموعة اللغات الهندو أوربيـة ، وقد ازداد الاهتمام بدراسة هـذه المجموعة اللغوية فى القرن التاسع عشر (٢) ويرى معظم علماء اللغـة أن موطن أسرة اللغـات الهنـدو

---

(١) ولى ديورانت ، قصـة الحضـارة جـ ٣ . ط الثانية ١٩٥٧!
ترجمة د. زكى نجيب محمود

(٢) د. محمود حجازى ، اللغة العربية عبر القرون ط القاهرة

أوربية ليس آسيا الوسطى بل هو وسط أوربا ، وقـد انفرط عقـد هذه الاسرة ، ويرى « براندنستين » أن الاختلاف بين اللهجات الهندو أوربية لم يكن كبيرا كما أنها لم تكن تمثـل مجمـوعة بذاتهـا ، ثم انتقل الناس وتفرقوا واتخـذوا لأنفسـهم مواطن متبـاعدة ومن هنـا اتسعت اللهجـات وتطـورت الى درجـة أن أصـبحت لغات منفصلة ، وما يهمنـا هنـا هو أن سكان وسط آسيا وسكان وسط أوربا كانوا يتحدثون لغـة تنجت عنها جميع اللغات الهندوأوربية .

وجميع العلمـاء يتفقـون على أن اللغة الدراورية والآسترك ــ وهى أهم لغات أوربا وآسيا ــ فروع من أسرة المجموعة الهندوأوربية ، وقد خرجت منها اللغة الانجليزية والفرنسية والالمانيـة والايطاليـة وغيرها ، وترتبط اللغة الايرانيـة والطورانيـة والارمينيـة وغيرها بعـلاقة وطيدة معها . ومن أهم فروع مجموعة الهندواوربية نذكر مجموعة اللغات الهندوايرانية لأنها ترتبط ارتباطا وطيدا ببحثنا هذا .

وهى تعد مرحـلة من مراحـل تطور مجموعة اللغات الهندوأوربية ثم تطورت الى مرحلة ثالثة ليطلق عليهـا اسم مجمـوعة اللغـات الهندوأوربية .

ظهـرت مجمـوعة اللغـات الهندوايرانية قبـل مولد المسيح بألفى عام . وتبعثر الناطقون بهـا فوصل بعضهم الى ايران وتطورت لغتهم ، واتجه البعض الآخر الى الهنـد ، وتطـورت لغتهم هى الأخرى ، فاللغتان فى أصلهما كانتا لغة واحـدة ولهذا يوجـد بينهما تشابه واضح . وتمثل « الاوستا » Avesta أو كما كان يطلق عليها العرب « الابستاق » الكتاب الدينى للباريسـيين أهم أشـكال اللغات الهنـدوايرانية ، كمـا أن اللغة الفارسية الحاليـة متمخضة عنها بعـد أن مرت بالعـديد من مراحل التطور .

تطورت المجموعة الهندوايرانية وانتشرت فى ثلاث صـور تمثلت الاولى فى اللغة الايرانية ويتحدثها

أهل ايران ، ولغة بشاجة أو بشياجة ويتحدث بها أهل كشمير ومن حولها ، والصورة الثالثة تمثلت فى الهندوآرية ، وكانت تروج بين أولئك الآريين الذين وصلوا الى الهند حاملين ميراثا لغويا يضمهم جميعا ، ومن هنا بدأت اللهجات الهندوآرية التى تمخضت عنها اللهجات المحلية التى يطلق عليها اسم « براكرات » تلك اللهجات التى تطورت ونتج عنها لغة « برج بهاشا » التى أنتجت لنا فيما بعد اللغة الهندوستانية أو الهندية أو اللغة الاردية التى هى موضوع دراستنا هذه ٠

ويقسم علماء اللغة مراحل تطور اللغة الهندية الآرية الى ثلاثة أطوار عبر عنها العالم الهندى الدكتور « سنيتى كمارجترجى » بالهندية الآرية القديمة (ما قبل عام ٦٠٠ ق٠م) ، والهندية الآرية الوسيطة (من ٦٠٠ ق٠م٠ حتى ١٠٠٠ م) وأخيرا الهندية الآرية الجديدة (سنة ١٠٠٠ م حتى العصر الحاضر) ، ويقصد بالمرحلة الأولى السنسكريتية ، والثانية البراكرت والثالثة البهاشا ، التى تطورت الى الهندوستانية أو الأردية كما ذكرنا ٠ وهكذا قسم الدكتور محيى الدين قادرى — وهو عالم لغوى له عديد من الأبحاث المنشورة بباكستان والهند — أيضا هذا التطور اللغوى فأطلق على المرحلة الأولى « ويدى أو سنسكرت » وعلى المرحلة الثانية « براكرت » وعلى المرحلة الثالثة « بهاشا » ٠

كان من أسباب انتشار البراكرتية أنها تمثل لغة الشعب فى حين اقتصرت السنسكريتيةعلى رجال الدين والعلماء وكان التقسيم الطبيعى داخل الهند لا يسمح لغير علماء الدين والعلماء بتعلم السنسكريتية ومن هنا ظلت هذه اللغة مخنوقة داخل المعابد بينما تأثرت البراكرتية بالثقافات المختلفة داخل الهند وانتجت مجموعة من اللهجات أطلق عليها اسم « بهاشا » ٠

ويتفق الباحثون جميعا على أن هذا التطور اللغوى قـد تتج عن دخول المسلمين الهند ، من الشمال والشرق فى أواخر القـرن العاشر الميلادى ، حتى الباحثون الهنادكة لم يتمكنوا من اخفاء هذه الحقيقة فيقول سنيتى كمـارجترجى (١) : « لو لم يفتـح المسلمون الهنـد لتطورت رغم هذا اللغات الهندية الآرية ولا يريدالرجل أن يبتعد عن الحقيقة حتى لا يفقد مكانته كباحث فيتراجـع قليـلا عن رأيه قائلا : « .. ولكن لم يكن لهذه اللغات أن تحصل على مكانتهـا الأدبيـة العالمية ... فقد كانت تحتاج الى فترة طويلة من الزمان لتصل الى ما وصلت اليه » .

ويقول الدكتور مسعود حسين خان وهو من علماء اللغة بالهنـد : « بعد دخول المسلمين الهند ظهرت الى الوجود حضارة جديدة وثقافة جديدة ونشأت لغة جديدة ، فقد قام المسـلمون بجمـع متفرقات السنسكريتية ليجعلوا منهـا لغـة جديدة للهند ، وأخذوا يعلمونهـا للأجيال التالية وبدأ مسلمو شمال الهند فى احتضان اللهجات الهندية الآرية فى القـرنين السـادس عشر والسـابع عشر بشـغف ونهم ، وتولدت نتيجة عنهذا فى ق ١٧ ، ١٨ اللغة الهندية أو الهندوستانية (الهنـدوستهانية) وهى الأردية (بشكلها الاسلامى) ، وكان مولد هذه اللغة بمثابة معاهدة أملتهـا الظروف فقد بدأ رجال التصـوف فى نشر أفكارهم بواسطة هـذه اللغة وسط المناطق التى لا يعرف أهلهـا اللغـة الفارسـية وذلك حوالى ١٥٠٠ م حين قام كل من « ملك محمـد جائسى » (متـوفى ١٥٤٥ م) « وشاه برهـان الدين جانم » (متوفى ١٥٨٢ م) وغيرهما فى استخدام اللغـات الاقليميـة للتعبير عن أفكارهم فى سبيل نشر الاسلام بين سـكان الهند وهـذا هـو السبب فى بقاء حوالى ٥٠٪ من الألفـاظ السنسكريتية داخـل بعض اللغات الهندية الآرية الرائجة بشبه القارة الهنـدية الباكستانية حتى اليـوم .

(١) فى كتابه « الهندية الآرية واللغة الهندية » (بالاردية) .

احتلت اللغـة الفارسية فى ذلك الوقت مكانة عالية فى الهند نتيجة لكونها اللغـة الرسمية للحكومة وحاول الهنادكة بدورهم اجادتهـا حتى ينالوا الوظائف الراقية داخل بلاط السلاطين وسـاعد ذلك على رقى اللغة المختلطة (من الفارسية والأردية) واتخـذ رقيها طـريقا سريعا ، وبدأت الألفـاظ الفارسية تحتل مـكانتها داخل اللغة الأدبية الهندية ، وحتى القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم تحـدث بالهنـد أية محاولة منظمة لتغريس وتقريب ذخيرة ألفاظ اللغات الهندية الآرية ، رغم أن ملك محمـد جائسى كتب (منتصف ق ١٦) قصـة صوفية بلغة تختلف عن اللغة التى استخدمها « تلس داسى » فى كتاباته والسبب هو أن « جائسى » استخدم عناصر اللغـة البراكرتيـة أكثـر مـن « داسى » لأن « داسى » كان بنفسه علما من علماء السنسكريتية ولم يكن هذا متوفرا « لجائسى »

فى الدكن (نهاية ق ١٦) ازداد تأثير الفارسـية عـلى اللغـة الهندوستانية (الاردية) الدكنيـة حين بدأ استخدام الخط الفارسى (العربى) فى كتـابة تلك اللغـة الهندوستانية ومع هـذا فلم تبتعد هذه اللغة الهندوستانيةالدكينية عن لغة الهنادكة العامة ويتضح هـذا فى أشعار السلطان الشاعر محمـد قلى قطب شاه سلطان كولكنده (متوفى ١٦١١ م) ومعاصريه من الشعراء المتصوفة ، تلك الاشعار التى تحمل نسبة كبيرة من الألفاظ الهندية والسنسكريتية الخالصة .

وفى القرن الثامن عشر والتـاسع عشر بدأ الأدباء والشعراء أصحاب الاتجاه التفريسى احداث ثورة فى بيان اللغة الاردية ومزاجها حتى أن بعض علماء اللغـة الهنـادكة أطلقـوا على الاردية اصـطلاح « لغة المسلمين الهندية » .

النظريات المختلفة لنشاة اللغة الأردية

يستلزم الحديث عن نشأة اللغة الاردية وتطورها عرضـا سريعـا لأحداث النظريات المتعلقة بنشـأة اللغة الأردية وحين نقول الأردية فاننا نقصد أيضا الهنـدوستانية أو كما قال أحد العلماء الهنـادكة

« لغة المسلمين الهندية » ويعـد العالم الفرنسى جارسان دى تاسى من أوائل من كتبـوا عن تاريخ الأدب الهندوستانى فى شبه القارة كما نشر كل من جون جلكرائيست وشكسبير وفـاربس واستيوارت وغيرهم أبحاثا عن هذه اللغة ومن علماء شبه القارة يصادفنا ميرأمن فى مقدمتهلكتابه « باغ وبهـار » أى الحـديقة والربيع وكـذلك ما كتبه العالم الاديب محمد حسين آزاد فى مقدمـة كتـابه بالأردية (آب حيـات) أى ماء الحيـاة وهـو فى تـاريخ اللغـة والأدب الأردى وكذلك أضاف سيد أحمد خان بعض الأفكار الجـادة فيمـا يتعلق بنشأة هذه اللغة .

وقد أشار آزاد فى كتابه أن لهجة « برج بهاشـا » هى المنبع الذى خرجت منـه الأردية ، ففى الوقت الذى كانت فيه الأردية لا تزال فى مهـدها كانت لهجـة « برج بهاشا » قـد وصلت الى مرحـلة الاكتمال « وبرج بهاشا » لهجـة ظهرت من حيث تركيبها وبنائها من داخل اللهجات المتعـددة للهنـدية الآرية المتمخضة بدورها عن لهجـة « شـورسينى و آب بهـرنش » الرائجة حول دهلى . الا أن الفرق الواضـح فى الأسـماء والأفعـال والصفات ، وكذلك فى الأصـوات بين الأردية ولهجة « برج بهاشا » يجعلنا نتردد فى قبول هذه النظرية ونرفض القول بأن لهجـة « برج بهاشا » هى بمثابة الأم التى ولدت الاردية ، وقد أشار الدكتور شوكت سبزاورى (١) الى التقـارب بين الأردية « وبرج بهاشا » ومثل هذا التقارب بأن اللغتين شقيقتان وليست لهجة « برج بهاشا » بأم للأردية ،

ومن هنا يمكن القـول بأن الأردية الأخت الصغرى قد استفادت كثيرا من لهجة « برج بهاشـا » الأخت الكبرى وخاصة ابتـداء من زمان « اللودهيين » وحتى زمـان شاه جهان (١٦٤٧ م) فبعد هذا الزمان بدأت مـلامح اللغـة الأردية فى الوضـوح وابتعـدت كثـيرا عن « برج بهاشا »من الناحية الصوتية واللغـوية .

---

(١) شوكت سبزاورى : اردوزبان كا ارتقا ط الهند (باللغة الاردية) .

وقد عرض العديد من العلماء مثل جريرسن وسينتى كما رجترجى، ود. احتشام الحق ود. شوكت سبزاورى ود. محيى الدين قادرى زور وبروفر محمد شيرانى ود. مسعود حسن خان وغيرهم .

نظريات وأفكار مختلفة تجمع كلها على أن ظهور اللغة الاردية كان نتيجة لاختلاط الهنادكة بالمسلمين الا أنها اختلفت فى مكان هذا الاختلاط وكيفيته وبالتالى فى النتيجة التى وصلت اليها هذه النظريات فالبعض يرى أن بداية اللغة الهندوستانية كانت فى الدكن، فحين قدم التجار المسلمون الى الهند عبروا سواحل مالابار واستقروا حولها وهنا وضع حجر أساس لغة جديدة نتيجة لاختلاط الهنادكة والمسلمين، وكانت هذه اللغة هى الصورة الابتدائية للغة الأردية الا أن هذه النظرية ضعيفة فاللغة الأردية آرية، كما أن مالابار وما حولها خضعت لتأثير اللغات الدراوارية، فلو أن الأردية بدأت من هناك لكانت آثار اللغات الدراوارية واضحة عليها وكذلك كان لا بد من وجود العناصر العربية ويرى البعض الآخر أن المسلمين أقاموا بالسند عدة قرون وعلى أرضه ظهرت هذه اللغة الجديدة التى أطلق عليها فيما بعد « اللغة الأردية » وهذه النظرية لا يمكن قبولها لأن النماذج الأولى للغة السندية مملوءة بالتأثيرات العربية وهذا من الناحية اللغوية يتعارض مع نشأة اللغة الأردية .

ومن ناحية أخرى كتب البروفسير محمود شيروانى أن اللغة الأردية أقرب الى اللغة البنجابية منها الى لغة « برج بهاشا » وهو يرى أن التطور النحوى والصرفى لكل من البنجابية والأردية متماثل الى حد كبير وأن اللغتين تشتركان معا من حيث التغير اللفظى والصوتى، فحين غزا محمود الغزنوى فى أواخر القرن العاشر الميلادى البنجاب ترك هذا الغزو أثره على المنطقة لفترة زادت على مائتى سنة .

وخلالها ظهرت الى الوجود لغة جديدة عرفت فيما بعد باسم اللغة

الاردية ، وما بذله الاستاذ محمود شيرواني لاثبــات نظريتــه كشف النقاب عن الكثير من مراحل تطور اللغـــة الأردية فى مراحلهـــا الأولية الا أن قضية اعتبار البنجابية هى المنبع الذى خرجت منــه الأردية لا يمــكن التسليم بهـــا لعـــدة اعتبارات منها الفرق الواضح بين الأردية والبنجـــابية من حيث لهجة كل منها كما أن التحليـــل اللغوى لكل من اللغتين يوضح أن الأردية قد أعطت البنجابية الكثير وسبقتها من حيث التطـــور الصرفى أيضـــا وليس من الضرورى قبول هـــذه النظرية لأن العـــلامة المصـــدرية « نا » موجودة فى كل من اللغتين ولأن الاسم والفعل والصفة تنتهى بألف ، لأن هذا ليس من خصائص البنجـــابية والأردية فقط فتشترك معهما اللغة الهريانيـــة ، بينما نرى اشتراك لهجة كهـــرى بولى وهى من لغات الهند الغربية مع الهريانية فى كـــون الاســـماء والأفعـــــال والصفات تنتهى بألف .

وهناك نظـــرية تقـــول بأن أثر الفارسية قـــد ازداد بعـــد فتـــح السلطان محمـــد الغورى لدلهى ، وكانت اللغة الهندية تروج فى دهلى ومن هنـــا حـــدث التـــزاوج بين الفارسية والهندية لتولد بالتـــالى اللغة الأردية وظل أثرهـــا ينتشر مـــع بداية القـــرن الثـــانى عشر الهجـــرى ، وحتى زمان حـــكومة محمد تغلق أى القرن الرابع عشر الهجرى ، وحـــين انتقلت العاصمة من دهلى الى الدكن انتقلت اللغة بالتالى الى الدكن . ولكن هذه النظرية غير مقبولة لأن المخطوطات الأردية القديمة يرجع تاريخها الى ما قبـــل دخـــول المسلمين لهـــذه المنطقـــة .

وعلى كل حـــال فان ظهـــور لغة كاللغة الأردية لا يمكن أن يكون تم فجأة أو بالطريقـــة السريعـــة التى يعرضها أصـــحاب النظريات المختلفة ، ولكن ظهور مثل هذه اللغة لابد وأن يكون نتيجة حتمية لحركات حضـــارية وسياسية على مدار المئات من السنوات ولا يمكن القطع برأى فيما يتعـــلق بالنسبة التى ظهرت فيها حتى اللغات التى كونت نواة اللغـــة الاردية الا أن

نماذج هذه اللغات الممثلة فى اللغة البراكرنية ولغة آب بهرانشى ترجع الى القرن الرابع عشر بل الخامس عشر الميلادى ، الفترة التى بدأت فيها اللهجات الجـديدة تبرز الى حيز الوجـود ، وسيطر المسلمون على السند والبنجاب ، ومن هنـا جاء تأثير الفارسية على هذه المناطق أما أين ازدهـرت هـذه اللغـة ؟ أو أين ظهرت نتائج التفاعل الذى انتج هـذه اللغة التى عرفت فيما بعد بالأردية ؟ فيمكن ترجيح منطقة دلهى وما حولها ، نظرا لما تتميز به من موقع جغرافى ، فقد كانت هذه المنطقة بوتقـة للغـات واللهجات المختلفـة مثـل : برج بهـاشا ، هـريانى ، كهربى بول وميواتى (وهى لهجة منطقة راجستهانى) ولأن اللغة البنجابية قريبة من هذه اللهجـات الهنـدية الغـربية فهى تمـاثل اللغـة الأردية والدكنيـة القديمة وفى العهد المغـولى ازداد تأثيـر برج بهاشـا وكهـرى بول وتراجع تأثير البنجابية الى حد ما .

ومن هنـا نشـأت اللغـة الهندوستانية التى تضم كلا مـن الأردية والهندية بالمفهوم الحاضر وخضعت اللغة الأردية فى تطورها خضـوعا تاما للتطـور التـاريخى لشـبه القـارة الهنـدية وتركت التغيرات الاجتمـاعية والسياسية للهند أثرهـا العميق على اللغـة الأردية وهكذا يمكن القول أن اللغة الأردية ليست لغة دخيلة على الهند ولم تظهر فى السند ولا فى الدكن ولم تنشـأ من البنجابيـة أو البرج بهاشـا ، ولكن التقـاء الألفاظ الفارسية العربية واللهجـة الغربية الهندية المسماة كهرى بول مع اللهجات الرائجة حـول دلهى أنتج لغـة جـديدة أثرت عليهـا البنجابية تأثيرا كبيرا فى البـداية وبالتدريج تسللت لهجـة كهرى بولى داخل أثواب الأردية . وكان لها مكانة خاصة فى بلاط الملوك المسلمين ومن هنـا نالت أهميـة كبيرة أما صورة كتـابة اللغـة الأردية ومتى بدأت وكيف نشأت وتطورت ؟ فهـذا ما سأناقشه فى المقال التالى ان شاء الله .

د. سمير عبد الحميد ابراهيم

النظرية الإسلامية فى المخابرات الحربية

للواء محمد جمال الدين محفوظ

ان أخطر ما تتعرض له الأمم ، أن تؤخذ على غرة • •تلك حقيقة لا تنازع ،ويشهد بها التاريخ الحربى على مر العصور •

ولعل أقرب الأمثلة التاريخية الى الاذهان ذلك الهجوم اليابانى المفاجىء على « بيرل هاربر » خلال الحرب العالمية الثانية ، والذى كان له وقع الكارثة على الولايات المتحدة الامريكية اذ فقدت بسببه جانبا لا يستهان به من أسطولها البحرى وقت الحرب •

من أجل ذلك كان من الضرورات الحيوية لأمن الأمة وسلامتها فى حاضرها ومستقبلها أن تحصل على أكبر قدر من المعلومات عن الدول الأخرى وخاصة الدول المعادية لها أو تلك التى تدخل فى عداد « العدو المحتمل » •

وتناط هذه المهمة الخطيرة (الحصول على المعلومات عن الدول الأخرى بأجهزة المخابرات (أو الاستخبارات) •

مفهوم المخابرات :

هناك تعاريف متعددة للفظ المخابرات كما يلى على سبيل المثال :

* المخابرات : هى المعرفة والعلم بالمعلومات التى يجب أن تتوفر لدى كبار المسئولين من المدنيين والعسكريين ، حتى يمكنهم العمل لتأمين سلامة الأمن القومى •

* المخابرات : هى نتيجة جمع وتقييم وتحليل وتفسير كل مايمكن الحصول عليه من معلومات عن أى ناحية من النواحى لدولة أجنبية أو مناطق العمليات والتى تكون لازمة لزوما مباشرا للتخطيط •

* المخابرات : هى الخطة المتناسقة المدروسة والموجهة لاستخدام كل الوسائل المتيسرة للحصول على كافة أنواع المعلومات وتصنيفها وتقديرها ، لامداد المسئولين بالحقائق والتقديرات الواقعية فى الوقت المناسب لوضع استراتيجيةالدولة ، ورسم سياسات معينة ، ولاتخاذ القرارات السليمة التى تكفل سلامة الأمن القومى للدولة ، وللعمل ضد عمليات المخابرات المعادية لمنعها من الحاق الضرر بالدولة فى أية صورة من الصور •

ومن هذه التعاريف يمكن استخلاص العناصر التى تنطوى عليها المخابرات وهى :

(١) الحصول على المعلومات عن العدو •

(٢) فرز وفحص وتقييم هذه المعلومات وتقدير مدى صحتها •

(٣) تفسير هذه المعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها •

(٤) امداد المسئولين بهذه المعلومات والنتائج المستخلصة منها •

(٥) الافادة من هذه المعلومات وما يستخلص منها فى التخطيط واتخاذ القرارات •

(٦) مقاومة أعمال مخابرات العدو •

ارتباط المخابرات بالأمن :

لا مراء أن السعى للحصول على المعلومات عن العدو (وهو عمل المخابرات) يرتبط ارتباطا وثيقا باجراءات الوقاية من نشاط المخابرات المعادية ، ويعتمد نجاح كل من المهمتين بدرجة كبيرة على الأخرى •• اذ كيف تتصور أننا نسعى للحصول على معلومات عن العدو لكى تتمكن من مفاجأته مثلا ، بينما تترك الفرصة لمخابرات العدو تحصل على ما تريد من معلومات عنا وعن نوايانا ؟ انه لأمر بدهى أننا بذلك لن نحصل على المفاجأة على الاطلاق •

وبسبب هذا الرباط الوثيق بين المخابرات والأمن فان العلم

العسكرى يقسم نشاط المخابرات الى نوعين هما :

الأول : وهـــو النشـــاط « **الايجابى** » : للمخابرات الـذى يستهدف الحصول على المعلومات عن العدو .

والثانى : وهـــو النشـــاط « **الوقائى** » للمخابرات أو مايعرف «بالمخابرات الوقائية» أو «المخابرات المضادة » وهو يعبر عن كل مايتعلق بمواجهة نشاط مخابرات العـــدو مثل حرمانه من الحصـــول على المعلومات والأسرار ومنع التجسس وكشف أعمال الخيانة الى غير ذلك مما يؤدى الى الاضرار بالدولة .

وبذلك تتضـــح لنا أهميـــة المخابرات وعلاقتها المبـاشرة بأمن الدولة وسلامتها ويعبر عن هـذا المعنى بكل وضوح قـول الجنرال آيزنهاور عام ١٩٥٩م :

« ليس هنـاك فى سياســـة الولايات المتحدة ما هو أهم مـن جمـع المعلومـــات بواسطـــة المخابرات » .

ويحتوى تقـــرير اللجنة التى شكلتها الحكومة الامريكية عـام ١٩٥٥ لدراســـة وتقييم نشـاط المخابرات الامريكية والتى عـرفت بلجنة هوفر ، كثيـرا من الدروس فى هذا المجال نذكر منها ما يلى :

« لقد كان الهجوم المفاجىء على بيرل هاربر **هو الذى خلق ادارة المخابرات** كمـا أن التحقيق الذى أجرى بعد الحرب ، أثبت أن عدم وجود مخابرات قوية كان هو سبب الفشـــل الذى منيت به القـوات العسكرية من حيث عدم حصولها على انذار حاسم وسريع تستطيع به عرقلة « الهجوم اليابانى » .

أنواع المخابرات :

وتنقسم المخابرات بالنظـــر الى المستوى والمجال والتأثير الى نوعين : مخابرات استراتيجيـــة ومخابرات تكتيكية .

*** فالمخابرات الاستراتيجية :**

تتعلق بالمعلومات المتعلقة بالمسائل الكبرى مثل المعلومـات عن نوايا الدولة الاجنبية (أو العدو) وقدراتها

العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمعنوية ، وعن مواطن الضعف والقوة لديها .

*** والمخابرات التكتيكية :**

تتعلق بالمعلومات ذات الطابع المحلى المحدود أو ذات طابع التخصص فى ناحية محددة .

المخابرات العسكرية الاسلامية :

وترشد المدرسة العسكرية الاسلامية الى عدة مبادىء وقواعد تشكل فى مجموعها نظرية كاملة ومحكمة للمخابرات الحربية :

١ ـ المخابرات ضرورة حيوية للتخطيط والقتال :

وذلك بعض ما يفهم ويستوحى من قوله تعالى : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم » (الملك ٢٢) .

*** فالقائد :** يجب عليه أن يحصل على أكبر قدر من المعلومات عن عدوه من حيث قوته وأسلحته وقدراته وأوضاعه وحركاته ونواياه، حتى يكون تخطيطه للمعركة سليما وعلى أساس متين .

*** والجيش :** يجب أن يعرف قدرا معينا من هذه المعلومات بحسب ما يراه القائد لازما ، حتى يدخل رجاله المعركة بخطى واثقة وقلوب ثابتة ، أما اذا حارب الرجال فى موقف يلفه الغموض والجهل « بما وراء التل » فسوف تضعف قدراتهم وكفاءتهم القتالية الى حد كبير فضلا عن تعرضهم للمفاجأة أو الخسائر الشديدة فى الارواح والمعدات وللهزيمة فى النهاية .

٢ ـ المخابرات من أسباب القوة :

وعلى أساس أن معرفة المعلومات عن العدو مطلب حيوى للتخطيط السليم وللقتال أيضا ، تصبح المخابرات من أسباب القوة ومظهرا من مظاهرها . يقول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (الأنفال ٦٠) .

٣ ـ المخابرات مطلب أساسى للرباط :

وهى أيضا أساس الرباط الذى أمر به الاسلام فى الآية السابقة ، وفى قوله تعالى : « يأيها الذين

آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (آل عمران ٢٠٠) .

والرباط والمرابطة حراسةويقظة وتأهب لرد عدوان العدو ، ولا يتم ذلك بنجاح وفاعلية الا بمعرفة ما يدور على الجانب الآخر (جانب العدو) ولذلك كان الرباط نوعا من الجهاد له وزن كبير وشأن خطير فى تقدير الاسلام كما يظهر من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم :

* عن سهل بن سعد رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » (أخرجه الشيخان) .

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : :

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » (رواه الترمذى) .

* وروى الطبرانى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه ممن صام وصلى »

٤ ـ المخابرات من مظاهر الحذر واليقظة :

ويقرر الاسلام أن المخابرات من مظاهر الحذر ودليل عليه لمنع العدو من المفاجأة وهو ما أمر به الاسلام فى قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » (النساء ٧١) .

وقوله جل شأنه : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » (المائدة ٩٢) .

٥ ـ المخابرات توفر الانذار :

والمخابرات ـ بما توفره من معلومات عن نوايا العدو وحركاته ـ توفر الانذار المبكر للقيادة لكى تستعد وتتخذ اجراءات المواجهة اللازمة وتفوت على العدو هدفه . يقول الله تعالى : « ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (التوبة ١٢٢).

٦ ـ المخابرات وقاية من الخطر والهلاك :

والمخابرات ـ بما تؤديه من دور مزدوج بتوفير المعرفة عن العدو ، ومقاومةأعمالمخابراته ـ تحقق الوقاية للأمة والجيش من الهزيمة أو الهلاك ولذلك فان اهمالها أو التراخى فى ممارستها انما هو تعريض للأمة للتهلكة وهو ما نهانا الاسلام عنه فى قوله تعالى :

« ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » (البقرة ١٩٥) .

وقد جسد القرآن الكريم عواقب الغفلة والاضرار البالغة التىيتعرض لها المسلمون من جرائها ، فى قوله تعالى :

« ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » (النساء ١٠٢) .

المخابرات الاستراتيجية فى عهد النبوة :

أولا ـ العيون والأرصاد :

كان للنبى صلى الله عليه وسلم عيون وأرصاد خارج المدينةيبلغونه بالمعلومات عن كل ما يتعلق بغير المسلمين وله علاقة بأمن المسلمين وسلامتهم :

(١) ففى مكة (مركز قريش الرئيسى) وهى تبعد عن المدينة بحوالى ٤٠٠ كيلومتر ، كان عمه العباس ، وبشير بن سفيان العتكى .

(٢) وكانت له عيون وأرصاد فى القبائل العربية الأخرى فىأنحاء شبه الجزيرة العربية فكانمنهممثلا عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى فى قبيلة هوازن .

(٣) وكانت له عيون وأرصاد أيضا فى بلاد فارس وبلاد الروم (بيزنطة) .

ثانيا ـ أمثلة للمخابرات الاستراتيجية :

ومن أمثلة نشاط المخابرات الاستراتيجية فى عهد النبوة ما يلى :

(١) قبل غزوة أحد أرسل العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم (وكان من رجال مخابراته

فى مكة كما تقدم) رسالة يخبره فيها عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قوات قـريش ، فأسرع حامل الرسالة بايصال تلك الرسالة الى النبى صلى الله عليـه وسلم ، حتى انه قطع المسافة بين مــكة والمدينة فى ثلاثة أيام ،فلما قـرأ أبى بن كعب الرسالة على النبـى طلب ألا يبوح بمضمونها لأحد .

(٢) وقبل غـزوة الخندق التى عبـأ فيهـا المشركون عشرة آلاف مقاتل عدا اليهود لمهاجمة المدينـة كان النبى صلى الله عليه وسلم على علم بنوايا أعدائه من خلال رجـال مخابراته فى مكة والقبائل العربية ، وقد حفر المسلمون خندقا حـول المدينة كان مفاجأة للمشركين لما رأوه حتى قالوا : « والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ».

وهذه الواقعة لا تدل على يقظة وكفاءة مخابرات النبى الاستراتيجية التى عرفته بنوايا أعدائه مبـكرا فحسب ، بل تدل كذلك على عجز مخابرات الأعـداء على المستويين الاستراتيجى والتكتيكى معـــا ، وذلك على الرغم من أن حفـــر الخندق استغرق عشرين يومـا فى المتوسط كانت كافية جدا لرجـال المخابرات لكشفه والاعلام عنه .

وتدل تلك الواقعة كذلك على كفاءة « المخـابرات الوقـائية » للمسلمين وعلى مدى كتمانهـــم لسر خطتهم الحربية وحرمان العدو من الحصول على معلومات عنها . وهذا ما عبر عنه خبير المخابرات والجاسوسية العالمى لاديســلاس فاراجو فى قوله (١) : «عندما قرر المكيون (قريش) أن يتخلصوا من محمد عليه الصلاة والســلام نهائيا ، عبأوا ضده قوة تتكـون من عشرة آلاف مقاتل ، ولم ينزعج النبى ، لأنه كان قد ترك فى مكة عملاء أكفاء أبلغوه بخطط أعدائه ، أما خصومه فلم يكن لهم عمـلاء عنـده ، ولذلك فعنـدما وصـل المكيون الى المدينة ، أذهلهم أن

---

(١) الجاسوسية بين الوقاية والعـلاج– احمد هانى .

يجدوا خندقا وجـــدارا يحيطان بالمدينة احاطة الســوار بالمعصم ، وقد حميا محمدا عليه الصـــلاة والسلام وأتباعه من العدوان ».

(٣) وبعد فتح مكة قررت بعض القبائل العربية أن تغــزو المسلمين قبل أن يغزوهم وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم نبأ تجمع هــوازن وثقيف لمهاجمته ، فأرسل عبد الله ابن أبى حدرد الأسلمى ، ليأتيـــه بالمعلومات اللازمـــة .. قال ابن اسحاق : « ولما سمع بهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بعث اليهـم عبد الله بن أبى حـــدرد الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيـــه بخبرهم . فانطلق ابن أبى حدرد ، فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حـــرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من مالك (مالك بن عوف النصرى قائد هوازن) وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبـــل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وســلم فأخبره الخبر » .

وقد عـــرف النبى من هـــذه المعلومات نوايا الأعداء ، ومـــكان تجمعهم ، فقرر مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين .

المخابرات التكنيكية فى عهد النبوة :

* وعلى المســتوى التكتيكى كان للنبى صلى الله عليـــه وسلم عيون وأرصاد فى داخل المدينـــة يطلعونه على كل صغيرة وكبيـــرة تضر بالمصلحة العامة للمسلميـــن فى السلم والحرب على حد سواء فاختار مثـــلا حـــذيفة بين اليمان العبسى ليأتيه بأخبـــار المنـــافقين ونواياهم .

* وفى غزوة بدر بعث النبى صلى الله عليـــه وسلم اثنـــين من الصحابة للحصـــول على معلومات عن قافلة قريش . وعند بئر بـــدر سمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : « عندمـــا تأتى العير (أى القافلة) غدا أو بعد غد سأقوم بخدمتها ثم أقضيك الذى لك » فأســرع الرجـــلان فأخبرا الرسول صلى الله عليهوسلم بما سمعا .

* كما بعث عليــه الصـــلاة والسلام مفرزة استطلاعية للحصول على معلومات عن قريش وقافلتهــا (فى غزوة بدر أيضـــا) كانت تتـــألف من على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، وعند ماء بدر وجــدت غلامين لقــريش يستقيان ، فأتت بهمــا الى النبى فتولى عليه الصـــلاة والســـلام استنطاق [١] الغلامين ، فعلم منهما أن قريشا وراء الكثيب (بالعدوة القصوى) ،ولما أجابا بأنهمـــا لا يعرفان عـــدد رجال قــريش سألهما : « كم ينحرون من الجزر (أى الابل) كل يوم ؟ » . فقالا : يوما تسعة ويوما عشرة ، فاستنبط الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف (لأن العرب على عادتهم يخصصون بعيرا لكل مائة) كذلك عــرف الرسول من الغلامين أن أشراف قريش جميعا خرجوا للقتال .

تعلم لغــة العــدو :

ومــن الضرورات الحيــوية فى مجال المخابرات والحرب النفسيــة معرفة لغة العدو واجادتها ســواء من حيث التحدث بها أو الكتابة .

ولقد عنى الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود . وفى هذا يقـــول زيد : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال : انى والله ما آمن يهود على كتابى ، ثم يقول زيد : فوالله ما مر بى نصف شهــر حتى تعلمته وجدت فيه ، فكنت اكتب له اليهم ، وأقرأ له كتبهم اليه » .

١) اســـتنطاق « او استجواب » الاسير هو عمل من اعمـــال المخابرات للحصول منه على المعلومات من خلال اجاباته على الاسئلة التى توجه اليـــه عقب أسره ، وهو عمل يتطلب ممن يقوم به ذكاء وصبرا وقـــدرة عاليـــة على الاستنباط وقوة الملاحظة .

وصدق من قال : « من عرف لغة قوم أمن شرهم » .

استخدام الرمز « الشفرة » (١) :

فى مجال المخابرات عادة ماتحول لغة الرسائل سواء الشفوية أو المكتوبة الى لغة أخرى تستخدم فيها الرموز بحيث لا يستطيع فهم مضمونها سوى مرسلها والمرسلة اليه وهو ما يعرف باسم الرمز أو الشفرة .

واستخدام الشفرة أمر حيوى لاخفاء محتويات الرسائل عن الأعداء ، ومن المعروف أن كل طرف من الأطراف المتحاربة ، يضع لنفسه شفرة خاصة ، ويسعى جاهدا — فى الوقت نفسه — بكل الوسائل لكشف سر الشفرة التى يستخدمها الطرف الآخر (أى حل رموزها) ومن أجل ذلك فان الجيوش الحديثة لا تستخدم شكلا واحدا من أشكال الشفرة لمدة طويلة خشية أن يتمكن العدو خلالها من حل الرمز الذى تستخدمه فتفقد الرسائل سريتها ، ولذلك تقوم الجيوش بتغيير الشفرة من حين لآخر وقد يصل الأمر الى اجراء هذا التغيير عدة مرات فى اليوم الواحد .

ولقد عنى النبى صلى الله عليه وسلم باستخدام هذا الاسلوب (أسلوب الرمز) الذى تبدو فكرته واضحة تماما فى الواقعة التالية :

فى غزوة الخندق ، علم النبى صلى الله عليه وسلم أن يهود بنى قريظة قد نكثوا عهدهم الذى كان بينهم وبين المسلمين ، وذلك فى الوقت الذى أحاط بالمدينة عشرة آلاف مقاتل من قريش والقبائل العربية الأخرى .

(١) الشفرة : تعبير عن أسلوب تحويل لغة الرسالة من لغة مفهومة الى لغة غير مفهومة يكون قد تم الاتفاق عليها وعلى رموزها بين المرسل والمرسل اليه مسبقا ، ولذلك يطلق عليها رسالة شفرية ، فاذا التقطها العدو على موجات الاثير أو وقعت فى يديه بصورة ما ، لا يستطيع فهمها الا اذا كان على علم برموز حل الشفرة « أو مفتاح الشفرة » التى تحولها الى رسالة مفهومة ، أو بعد محاولات مضنية من المتخصصين فى حل رموز الشفرة ، وقد استحدثت فى العصر الحديث أجهزة ووسائل الكترونية لهذا الغرض .

وقد تحرج موقف المسلميـــن كثيرا ــ وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل ــ بعد أن نكث بنو قريظة عهدهم (وهم داخل المدينة) فأصبح الخطر يهدد المسلمين من داخل المدينة ومن خارجها ..فبعث النبى صلى الله عليه وسلم سعــد ابن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بن جبير الى بنى قريظة ليقفوا على جليـة الأمر ، وأمرهم بأن « يلحنوا »(١) بالقول حين يعودون ولا يفصحون فى حالة تأكدهم من خبر نكث بنى قريظة للعهد .

ولقد كان سبب حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على استخدام هــذا الاسلوب من أساليب الرمز (الشفرة) هو خوفه على معنويات المسلمين من الانهيار ، وحرصه على كتمان الخبر حتى يستكملوا اعداد الخندق وسـائر استعداداتهـم العسكرية قبل أن يعلمهم به . ولو أنه عليه الصلاة والســلام سمح باذاعة هذا النبأ الخطير قبـل أن يعد المسلمون كل متطلبات القتال لانهارت معنويات الجيش .

لواء / محمد جمال الدين محفوظ

---

(١) لحن « بفتح اللام والحاء » له لحنا : قال له قولا يفهمه عنه ، ويخفى على غيــره فهــــو لاحن « وبابه قطع » . وفى الحـديث : « اذا انصرفتما فالحنا لى لحنــا » : أى عرضا لى بما رأيتما ولا تفصحا .

ولحن القول عنه : فهمه ــ والملاحن : مسائل كالألغـاز يحتاج فى حلها الى فطنة . « المعجم الوسيط » .

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

متى تجب الهجرة ؟ وما هو واجب مسلمي هذا العصر حيالها ؟ وفيمن نزل قول الله تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا »(١).

ج : يجيب عن هذا ويبسط القول فيه فضيلة الامام الشيخ محمود شلتوت رحمه الله فى كتابه الفتاوى فيقول : ينبغى أن يعلم أولا أنه لما اشتد ايذاء الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم وصحبه فى مكة ، وتهيأت له عوامل النصر والتأييد فى المدينة ، عزم على الهجرة اليها ، وأمر بها أصحابه ، فرارا بدينهم ، وحفظا لأرواحهم وحريتهم ، وتكتلا مع القوة الجديدة التى هيئت لهم فى المدينة .

وأمام فكرة الهجرة هذه كان الذين ظهروا فى مكة بالاسلام على طوائف :

١ — الأقوياء :

وهم طائفة كثيرة العدد قوية الايمان ، شديدة الحرص على دينها وحريتها ولديها من وسائل القوة على الهجرة ما لديها . لبت الدعوة وهاجرت الى المدينة ، مضحية بعشيرتها ومساكنها وأموالها فى

(١) الآيات من ٩٧ — ٩٩ من سورة النساء .

سبيل ايمانها وعزتها ، وفى سبيل التكتل مع اخــوانهم المؤمنين • وهؤلاء هم الذين وعدهم الله فى كثير من الآيات بالرحمة الواسعة ، والعزة الخالدة ، والحياة الطيبة ، والنصر المؤزر : « ثم ان ربــك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ان ربك مــن بعدها لغفور رحيم » (١) •

٢ ـ المستضعفون :

وهم طائفة ثانية قوية الايمــان كالأولى ، لا تأبه بعشيــرة ، ولا تكترث بأهل ولا مال • ولكنهـــا عاجزة عن الهجـــرة ، لضعف أو شيخوخة أو فقر ، فقعدت بمكةعلى مضض تستعذب العذاب فى سبيل تمسكها بدينها وحريتها ، وهؤلاء هم الذين عنــاهم الله بقــوله : « الا المستضعفين من الرجـــال والنساء والولدان لا يستطيعــون حيلة ولا يهتدون سبيلا » • وقد شــد أزرهم وأطعمهم فى رحمتــه وعفوه بقوله تعالى « ومـــا لكم لا تقـــاتلون فى سبيــــل الله والمستضعفين من الرجال والنســاء والولدان الذين يقــولون ربنـــا أخرجنـــا من هذه القرية الظـــالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » (٢) •

٣ ـ الراضون بالاقامة فى دار الكفر والاضطهاد :

وكان وراء هــاتين الطــائفتين طائفة ثالثة لم يكن ايمانهــا قويا كايمان الأولى ولم يكن لديها من مواقع الهجرة ما عنــد الثــانية ، وانمــا آثرت الاقامة بين العشيرة والأهـــل ، وأهمتهم أنفســهم وأموالهــم ، فقعدوا فى مــكة ، وأخلدوا الى السكون ، ورضــوا بالحرمان من الحرية واقامة الدين، ولم يعملوا بالهجــرة على تخليص أنفسهم من قوى الذل والاضطهاد مع المقدرة عليها ، وهـــؤلاء هم الذين نزلت فيهــم هــذه الآية : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » •

---

(١) الآية ١١٠ من سورة النحل . (٢) الآية ٧٥ من سورة النساء .

وقد صور الله فيها جنايتهم على أنفسهم ، وكذبهم فى اعتذارهم ، وسجل عليهم سوء العاقبة بقوله : « فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » .

وقد أرشدت الآية الى أنهم بموقفهم هذا ليسوا فى شيء من درجات الدين ، والى أن أقل درجات الدين تأبى على صاحبها المقام على الذل والاضطهاد ، والى أن الرضا بالذل والاقامة فى جوه مع القدرة على التخلص منه بالهجرة الى مواطن العزة والكرامة مما يخرج الانسان عن الايمان . ويجعل جهنم فى حكم الله مأواه .

تطبيق الآية فى عصرنا الحالى :

وهذا أصل قرره القرآن الكريم فى صحة الايمان والاعتداد به ، وجاءت فيه آيات كثيرة صريحة . وأبرزها آية السؤال : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » الآية .

وهو مبدأ قائم الى يوم الدين. ويمكن أن يطبق فى عصرنا الحاضر على الحالات الآتية :

أولا : أفراد مسلمون « يقيمون فى بلاد يضطهد سلطانها المسلمين» يشدد عليهم الخناق فى اقامة دينهم ، ويمنعهم حديثهم ، وهم قادرون على الهجرة الى حيث يقيمون الدين ويتمتعون بالحرية ، فهؤلاء يجب أن يهاجروا ، وان رضوا بالمقام على الذل والاضطهاد فى تلك المواقع مع قدرتهم على الهجرة حق عليهم وعيد الآية ، وكانوا لأنفسهم ظالمين .

ثانيا : بلاد اسلامية استعمرها الأعداء ، فسلبوا أهلها الحكم والسلطان ، وحبسوهم بجنسيتهم ، وضيقوا عليهم حياتهم ، ومنعوهم شعائر دينهم ، والحرية فىأموالهم، ومن أهل هذه البلاد جماعة أهمتهم أنفسهم ومراكزهم فى حكومة المستعمرين ، ورأوا أن فى ممالأة المستعمرين على بلادهم عزةلأنفسهم وسلطانا به يتحكمون !!! فهؤلاء الجماعة يجب عليهم ــ ان كانوا مؤمنين ــ أن يبادروا فيخلعوا أنفسهم من تأييد المستعمرين ، ويهاجروا بقلوبهم وجهودهم الى

اخوانهم الوطنيين أهـل البـلاد ، ويكونوا يدا واحدة ، وعلى قلب رجل واحد لاخـراج المستعمـر ، وتطهير البلاد من الذل والاستعمار، فان أبت هذه الجماعة ورضيـت بالمقام فى تأييد المستعمر حق عليها وعيد الآية : « مأواهم جهنم وساءت مصيرا » وحق عليهـم فوق ذلك قوله : « ومن يتولهم منـكم فانه منهم ان الله لا يهـدى القـوم الظالمين » (١) .

ثالثا : بلاد اسلامية متفـرقة ، تسلط على كل بلد منها جماعة من الأعداء ، وليس فى وسع واحدة من تلك البلاد أن ترد عن نفسهـا فضلا عن غيرها من أخواتها . فاذا خضعت كل بلد منها لمستعمرها — ولم يهاجروا بقلوبهم وتفكيرهم ، وتوحيد كلمتهم ، وتكوين جامعتهم التى بها يصدون العدوان عـن أنفسهـم وعـن بلادهم ، كانوا جميعـا ببقـائهم فى التفرق عونا للاعـداء على امتـلاك بلادهم ، وضياع دينهم ، وحـرمانهم مـن حريتهم ، وكانوا بذلك لأنفسهـم من الظالمين .

هذا ما توحى به الآية الكريمـة الى مسلمى هذا العصر ، وقد تبين منه ما يجب على كل مـن ناله الاضطهاد فى دينه وحريته ، فـردا كان أو جماعة ، فى بلاد اسلامية أو غير اسـلامية ، وتبـين حكم من يقصر فردا كان أو جمـاعة فيما يفرض عليه من العمل على التخلص من الذل والاضطهاد له ولجماعته، احتفاظا بالحرية ، واقامـة للدين وصيانة للعزة والكرامة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » (٢) .

الهجرة من بلاد المنكرات :

وقد كان كثير من رجال الاسلام الأولين — المكلفين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — يرون أن الآية توجب عليهم الهجرة من بلادهم ، وان كانت اسلامية ، متى فشـت فيها المنكرات ، وكثرت البـدع ، ولم يمكن لهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(١) من الآية ٥١ من سـورة المائدة .
(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

وفى هذا يقـــول الامـــام الزمخشرى المتـــوفى سـنة ٥٣٨ هجرية وهو بصـــدد الكلام على هذه الآية الكريمة : « وهذا دليل على أن الرجـل اذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من اقامة أمر دينـه كما يجب ، أو علم أنه فى غيـــر بلده أقومُ بحق الله ، وأدومُ على العبادة ، حقت عليه المهاجرة » •

وبالنسبة للهجرة التى نزع اليها يتجه الى ربه ويقول : « اللهم ان كنت تعلم أن هجرتى اليك لم تكن الا للفرار بدينى فاجعلها سببا فى خاتمة الخير ، ودرك المرجـو من فضلك ، والمبتغى من رحمتـك ، وصل جوارى لك بعكوفى عنـد بيتك بجوارك فى دار كرامتـك يا واسع المغفرة » •

آين نحن اليوم ؟

أما بعد : فأين نحـــن معشر المسلمين ، أفـــرادا وجماعات ، وقد رضينا بالتفرق ، وأيَّد فريق منـا سـلطان المستعمر ، ومزقت ديننا الأهواء ، وطمست معالمـــه الشـــهوات ، وسُلِبْنا العـزة والكرامة ؟

فيم نحن من الايمان ، وفيـم نحن من هؤلاء الذين آمنوا وعرفوا قدر الايمان واتخذوا الى ربهـــم سبيلا ؟

اللهم ارحمنا واهـدنا صراطك المستقيم •• آمين •

عبد الحميد شاهين

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« ان ربك بالمرصاد »

دخل عمرو بن عبيد على المنصور يوما ، فقال له المنصور عظنى فقرأ عمرو : « بسم الله الرحمن الرحيم . والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ، الم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الاوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، أن ربك لبالمرصاد » .

فقال المنصور : لمن ؟ قال : لمن عصاه ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ، فان أمامك نيرانا تتأجج لمن لا يعمل بكتاب الله ولا بسنة رسول الله .

فقال له سليمان بن مخلد : اسكت ، فقد غممت أمير المؤمنين . فقال له عمرو : ويلك ، أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ، حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه ، ثم قال : اتق الله يا أمير المؤمنين ، فان هؤلاء لن ينفعوك أبدا ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، أما والله لو علم عمالك انه لا يرضيك منهم الا العدل ، مابقى منهم على بابك أحد ، ولتقرب اليك بالعدل من لا تريده .

« ذهبوا »

ألح سائل على اعرابى ان يعطيه حاجة لوجه الله ، فقال الأعرابى : والله ليس عندى ما أعطيه للغير فالذى عندى أنا أولى الناس به وأحق !!

فقال السائل : أين الذين كانوا يؤثرون الفقير على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

فقال الاعرابى : ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس الحافا .

« قناعة »

قال أبو دلف العجلى :

حججت فرأيت أبا العتاهية واقفا على أعرابى فى ظل ميل (١) ، وعليه شملة اذا غطى بها رأسه بدت

(١) الميل : منار يبنى للمسافر

رجلاه ، واذا غطى رجليه بدا رأسه فقال أبو العتاهية : يا هذا ، لولا أن الله أقنع بعض العباد بشر البلاد ، ما وسع خير البلاد جميع العباد ثم قال له : فمن أين معاشكم ؟ قال : منكم معشر الحاج ، تمرون بنا فننال من فضولكم (١) ، وتنصرفون فيكون ذلك ، فقال له : انما نمر وننصرف فى وقت من السنة ، فمن أين معاشكم ؟ فأطرق الاعرابى ، ثم قال : لا والله لا أدرى ما أقول ، الا انا نرزق من حيث لا نحتسب (٢) أكثر مما نرزق من حيث نحتسب ، فولى أبو العتاهية وهو يقول :

الا يا طالب الدنيا
دع الدنيا لشانيكا !
وما تصنع بالدنيا
وظل الميل يكفيكا

« لو لم يكن »

انتقد الشريف المرتضى يوما شعر المتنبى ، وكان ابو العلاء المعرى حاضرا ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبى من شعر الا قصيدته :

(لك يا منازل فى القلب منازل)
لكفى فضلا :

فغضب الشريف وأمر بسحب أبى العلاء من مجلسه ، وقال لمن بحضرته : ان أبا العلاء أراد بذلك قول المتنبى فى تلك القصيدة :
واذا أتتك مذمتى من ناقص .
فهى الشهادة لى بأنى كامل

« فى وفاة عمر بن عبد العزيز »

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة ، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انك قد فغرت أفواه ولدك من هذا المال فلو أوصيت بهم الى والى نظرائى من قومك فكفوك مئونتهم !.

فلما سمع مقالته قال : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال : قد سمعت مقالتك يا مسلمة ، أما قولك : انى قد فغرت أفواه ولدى من هذا المال ، فو الله ما ظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئا لغيرهم ، وأما ما قلت فى الوصية ، فان وصيتى فيهم : « الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » ، وانما ولد عمر بين احد رجلين : اما رجل صالح فسيغنيه الله ، واما غير ذلك فلن اكون أول من اعانه بالمال على معصية الله .

ادع لى بنى : فأتوه ، فلما رآهم ترقرقت عيناه ، وقال : بنفسى فتية تركتهم عالة لا شىء لهم وبكى .

يا بنى انى تركت لكم خيرا كثيرا لا تمرون بأحد المسلمين واهل ذمتهم الا راوا لكم حقا ، يا بنى انى قد ميلت (٣) بين الأمرين : أما أن تستغنوا وادخل النار ، او تفتقروا الى اخر الأبد وادخل الجنة . فأرى ان تفتقروا فذلك أحب الى ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقكم الله !

---

(١) فضول الغنائم : ما فضل منها .
(٢) أى من حيث لا نقدر .
(٣) ميل بين الأمرين : تردد فى أيهما يفعل .

« فضـل الأدب »

تكلم رجـــل بين يدى المأمون فأحسن ، فقــال له ابن من انت ؟ قال : ابن الأدب يا أمير المؤمنين . قال : نعـم النسب انتسبت اليه ، ولهذا قيل : المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ومن حيث يوجد لا من حيث يولد قال الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا
يغنيـك محمـوده عـن النسب

وقال بعض الحكماء : من كثـر ادبه كثر شرفه وان كان وضيعا ، وبعــد صيته وان كان خاملا ، وساد وان كان غريبـا ، وكثرت حوائج الناس اليه وان كان فقيرا وقيل اربعة تسود العبـد : الأدب والعلم ، والصدق ، والأمانة .

وقيل أيضا ثلاثة لاتتم الا بثلاثة : لا يتم الحسب الا بالأدب ، ولا يتم الجمال الا بالحلاوة ، ولا يتم الغنى الا بالجـود ، وقال بعض الأعاجم مفتخرا :

مالى عقـــلى وهمتى حسبى
ما أنا مـولى وما انا عـربى
اذا انتمي منتم الى احــــد
فانني منتـــــم الى ادبى

« ثمانيـة أمور »

سئل الامام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ ، عن ثمانية أمور : واجب واوجب وعجيب واعجب ، وصعب واصعب ، وقريب واقرب ، فأجاب بقوله :

من واجب الناس أن يتوبوا
لكن ترك الذنوب أوجب
والدهر فى صرفه عجيب
وغفلة الناس عنه أعجب
والصبر فى النائبات صعب
لكن فوات الثواب اصعب
وكل ما ترتجى قريب
والوقت من دون ذاك أقرب

« قوة اليقين »

حج الرشيد ، فعلم أن رجـــلا انفرد لعبادة الله ، بجبل ابى قبيس وظهرت على يديه بعض الكرامات ، فطلب الى أميـــــر مكة أن يصحبه لزيارته ، فذهبا اليه فى صومعته واستأذنا فى الدخول عليه ، فأذن لهما ، ولما دخلا وسلما عليه ، أومأ اليهما بالتحية ، ثم أشــــار اليهما بالجلوس فجلســـا ، فقال له أمير مكة : ان الجالس بين يديك أمير أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فأومأ برأسه محييا وظل على صمته فلم يتكلم ، فقال له الرشيد : عظنى ، فالتفت اليه ولم يتكلم ، ثم أمسك بعصـــاه ، وخط بهـا على الأرض : « انى أستحى أن ألقى الله وقـــد أمرتك فأطعتنى بعد أن أمرك هــو فعصيته » .

فتأثر الرشيد ، وبكى بكاء شديدا وقال : والله لقد رأينا منك ، اكثر مما سمعنا عنـــك ، واستأذن فى الانصراف مع صاحبه فأذن لهما .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

رســـالة

الجواب المقنع المحرر في الرد على من طغى وتجبر بدعوى أنه عيسى أو المهدى المنتظر

تـأليف

علامة زمانه ووحيد دهـره وأوانـه
الشيخ محمد حبيب الله الجكني الشنقيطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وفق للخير من وفقه بفضله ، وخذل من شاء خذلانه بعدله ، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، والصلاة والسلام على نبيه المخبر بما كان وما يكون ، وعلى آله وأصحابه الناقلين لأقواله الصادقة ، والذابين عن سنته جميع المبتدعين الزنادقة ..

أما بعد ــ فيقول الفقير لرحمة ربه محمد حبيب الله بن الشيخ سيدى عبد الله بن ما يأبى الجكنى وفقه الله ، قد طلب منى بعض العلماء الأجلاء الأخيار ، لما كثرت دعاوى الضالين المضلين الأشرار ، أن أكتب له فى شأن المهدى وعيسى بن مريم عليهما السلام ما هو الحق الذى لا غبار عليه ، وما اعتمده أهل العلم فى ذلك وركنت نفوسهم اليه ، فأجبته فيما به أشار على مستعينا بالله ومفوضا أمورى كلها اليه ، وراجيا منه أن يكون جوابى ردا عن السنة المطهرة البيضاء ، ومنيلا سعادة الدارين ورضى الله الأكبر يوم اللقاء وممتثلا قوله تعالى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) الخ الآية وقول النبى صلى الله عليه وسلم : (من كتم علما يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) رواه أبو داوود والترمذى وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححاه من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : انه حسن صحيح ففى ذلك قلت وبالله تعالى استعنت ، ينحصر المقصود من هذا الجواب فى مقدمة وفصلين وخاتمة .

المقدمة ــ فى بيان تواتر أحاديث المهدى وذكر بعض من ألف فيه :

(الفصل الأول) فى تخريج بعض الأحاديث التى صرحت به وبيان صفته وعلاماته ..

(الفصل الثانى) فى تخريج بعض أحاديث عيسى بن مريم وبيان اجتماعه مع المهدى وقتله الدجال .

(الخاتمة) فى بيان أن خروج المهدى قبل الدجال بسبع سنين وأن الدجال يخرج على رأس مائة وعيسى بعده بقليل، وذكر الأحاديث الواردة فى كثرة من يدعى الرسالة فى آخر الزمن ورفع القرآن من الصدور والمصاحف وصفة عيسى عليه السلام ومدة مكثه بعد الدجال وما يتعلق بذلك .

المقـــدمة :

اعلم أنه من المتـــواتر عنـــد المحدثين وكافة العلماء المجتهـــدين ان المهـــدى غير عيسى وأن الرواية التى فى سنن ابن ماجه انه لا مهدى الا عيسى اسنادها ضعيف ، وقد تواترت الاخبار واستفاضت بكثرة رواياتها عن المختار صلى الله عليه وسلم بمجئ المهـــدى وأنه مـــن أهـــل بيته وانه سيملك سبع سنين على أكثر الروايات وقيل أربعـــين سنة نظير مدة عيسى عليـــه وعلى نبينا الصـــلاة والسلام وأنه يمـــلأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وانه يخرج قبـــل عيسى وينزل عليـــه عيسى وهو امام المسلمين فيساعده على قتل الدجال ببـــاب لد بأرض فلسطين قريب من بيت المقـــدس وأنه يؤم هذه الأمة وعيسى يصلى خلفه أول مرة ثم يكون هو الامام بعد ذلك وانه أى المهـــدى يذبح السفيانى ويخسف بجيش السفيانى الذى يرسل الى المهدى بالبيـــداء بين مكة والمدينة فلا ينجـــو منهم الا من يعطى الخبر ، وقد ألف فى شأنه وجمع الأحاديث الواردة فيه جماعة من الحفـــاظ منهم جـــلال الدين السيوطى له فيه رسالة عجيبة سماها (العرف الوردى فى أخبار المهدى) ومنهم العـــلامة الدراكة الشيخ أحمد بن حجر الهيثمى له فيه رسالة سماها (القول المختصر فى علامات المهدى المنتظر) أجاد فيها ورجح أن مـــدته فى الأمـــر ســـبع سنين على أكثر الروايات ومنهم العـــلامة ابن حسام الدين تلميذ ابن حجر له فيه رسالة سماها (البرهان فى علامات مهدى آخر الزمان) ومنهم صاحب عقد الدرر فى أخبـــار المهـــدى المنتظر ومنهم شيخنا العلامة الشيخ عبد القـــادر ابن محمد سالم الشنقيطى فقـــد أفرده بباب من نظمـــه الواضـــح المبين الذى ذكر فيه أشراط الساعة وحرر المقام فيه وفى شرحه وقـــد عقد أبو داود فى سننه بابا لأخباره وكذلك فعـــله الترمذى فى سننه ورواية ابن ماجه لا مهدى الا عيسى ابن مريم ، قال القرطبى وغيره : ان اسنادهـــا ضعيف والأحـــاديث فى خروجـــه وانه من عترته من ولد فاطمة ثابتة صحيحة متواترة فقد

عد الحفاظ أحاديثه من الأحاديث المتواترة قال فى الواضح المبين تواترت به الأحاديث الصحاح فيما روى أهل الفلاح والنجاح ومنهم القاضى العلامة المحدث الشوكانى له فيه رسالة سماها التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر والدجال والمسيح قال فيها والاحاديث الواردة فى المهدى التى أمكن الوقوف عليها منها خمسون فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر وهى متواترة بلا شك ولا شبهة بل يصدق وصف التواتر على ما دونها على جميع الاصطلاحات المحررة فى الأصول وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدى فهى كثيرة أيضا لها حكم الرفع اذا لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك ا هـ . قال أبو الحسن السنجرى تواترت الاخبار عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بمجىء المهدى وانه من أهل بيته وذكر جملة من أحواله وصفته وقال القرطبى والأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى التنصيص على خروج المهدى من ولد فاطمة ثابتة فالحكم بها دون رواية ابن ماجه لا مهدى الا عيسى ، ثم قال القرطبى وغيره ويحتمل أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام لا مهدى الا عيسى ان فرضنا عدم ضعفه أى لا مهدى معصوما كاملا الا عيسى ، قال وبهذا تجتمع الأحاديث ويرفع التعارض أى فلا ينافى أن يكون غيره مهديا أيضا ، قال ابن كثير بل يكون المراد من ذلك ان المهدى حق المهدى مهدى هو عيسى ابن مريم فاذا تمهد عندك ما قدمناه من أن المهدي غير عيسى عليه السلام فلا بد من ايراد بعض الأحاديث الواردة فيها وعزوها الى مخرجيها فى الفصلين الآتيين :

(الفصل الاول)

قد أخرج السيوطى فى الجـامع الكبير عنه عليه الصـلاة والسلام (لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين الى يوم القيامة فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا فيقول لا ان بعضكم على بعض أمير تكرمة الله لهـذه الأمة) وأخــرجه أحمــد ومسلم وابن جرير وابن حبـان عن جابر ابن عبد الله عنه عليـه الصــلاة والسلام وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة عنه عليه الصــلاة والسلام (كيف أتتم اذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم) والذى عليه المحــدثون ان هــذا الأمــام المشار اليه فى الصحيحين هو المهدى المنتظر لحمل الاحاديث المصرحة به على غيرها كما هو الأصل المعروف وصرح نعيم فيمـا أخــرجه بأنه المهدى ولفظــه عن أبى سعيد قال قال رسول الله صــلى الله عليــه وسلم : (ينــزل عيسى ابن مــريم فيقول أميرهم المهدى تعال صــل بنا فيقول لا) ..الخ .. وأخرج أبو نعيم عــن ابن عبــاس قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : (لم تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخــرها والمهــدى فى وســطها) ا هـ ، قال ابن حجــر الهيثمى وأريد بالوســط قــريب آخــرها حتى لا ينــافى الروايات المصرحة بأنه فى آخرها ولتقــدمه بيسير على عيسى وصفه بأنه وسط ووصف عيسى بأنه آخر و أخــرج نعيم بن حماد قال المهــدى : الذى ينزل عليه عيسى بن مريم ويصلى خلفه عيسى وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن ســيرين قال المهدى من هذه الأمة وهو الذى يؤم عيسى بن مريم عليه الســلام وأخرج بن ماجه والرويانى وابن خزيمــة وأبو عــوانة والحــاكم وأبو نعيم واللفظ له عن أبى أمامة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الدجــال وقال فتنفى المدينة الخبث كمـا ينفى الكير خبث الحــديد ويدعى ذلك اليوم يوم الخــلاص ، قــالت أم شريك فأين العرب يا رسول الله يومئذ قال هم يومئذ قليل وجلهم ببيت

المقدس وامامهم المهدى رجل صالح فبينما امامهم المهدى قد تقدم يصلى بهم الصبح اذ نزل عيسى ابن مريم وقت الصبح فيرجع ذلك الامام ينكص يمشى القهقرى ليتقدم عيسى فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له تقدم فصل فانها لك أقيمت فيصلى بهم امامهم .. اهـ .. وفى حديث طويل أخرجه نعيم عن كعب فاذا بعيسى بن مريم فتقام الصلاة فيرجع امام المسلمين المهدى فيقول عيسى تقدم ذلك أقيمت الصلاة فيصلى بهم تلك الصلاة ثم يكون عيسى اماما بعده .. اهـ .. وقد أخرج أبو داود وابن ماجه والطبرانى والحاكم عن أم سلمة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (المهدى من عترتى من ولد فاطمة) .. وأخرج الحاكم وابن ماجه وأبو نعيم عن أنس ابن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (نحن سبعة ولد عبد المطلب سادة سادة أهل الجنة أنا وحمزة وعلى وجعفر و الحسن و الحسين والمهدى) ، وأخرج الترمذى وصححه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى » وأخرجه أبو داود أيضا وأخرج الترمذى وصححه عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلى) ..

وأخرج أبو داود عن أبى اسحق رضى الله عنه قال قال على كرم الله وجهه ونظر الى ابنه الحسن رضى الله عنه قال ان ابنى هذا سيد كما سماه النبى صلى الله عليه وسلم ويخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم صلى الله عليه وسلم يشبهه فى الخلق ولا يشبهه فى الخلق ثم ذكر (يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا) وأخرجه فى المشكوة وأخرج الترمذى وحسنه عنه عليه الصلاة والسلام « ان فى أمتى المهدى يخرج يعيش خمسا أو سبعا والشك من الراوى

قال قلنا وما ذاك قال سنين قال فيجىء اليه الرجل فيقول يا مهدى أعطنى أعطنى قال فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمـله » اهـ ..

وأخرج أبو داود عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا منى أو من أهـل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يمـلأ الأرض عدلا كما ملئت جورا) ، وأخرج الطبرانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المهدى منا يختم الدين به كمـا فتح بنا) رواه الطبـرانى وأخـــرج نعيم ابن حماد عن أبى سعيد عنه عليه الصلاة والسلام (المهـدى منـا أجلى الجبهة أقنى الانف) وأخرج أيضـا عن ابن جبير قال المهـدى (أزج أبلج) الحـديث وأخـرج الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم عن ابن مسعود قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم (يخرج رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى وخلقه خلقى يملؤها قسطا وعـدلا كما ملئت ظلما وجورا) وأخـرج الطبرانى فى الأوسط من طـريق عمرو بن على عن على ّ بن أبى طالب رضى الله عنـه انه قال للنبى صلى الله عليه وسلم أمنا المهدى أم من غيرنا يارسول الله ؟ (قال بل منا ، بنا يختم الله كمـا بنـا فتـح وبنـا يستنقذون من الشرك وبنـا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة الشرك)

وقد ورد انه يأتى مدينة فيها ألف سوق فى كل سوق مائة الف دكان ثم يأتى مدينة يقال لها (القاطع) وهى على البحـر الاخضر المحيط بالدنيا وطول المدينـة ألف ميـل وعرضها خمسمائة ميـل فيكبرون الله عز وجل ثلاث تكبيرات فتسقط حيطانهـا فيقتلون بهـا الف ألف مقـاتل ثم يتـوجه الى القـدس الشريف فى ألف مركب) اهـ ..

وورد أنه يأتى روميـة فيكبرون أربع تكبـيرات فيسقط حـائطها فيقتلون ستمائة ألف ويستخرجون منها التابوت الذى فيـه السكينة ومائدة بنى اسرائيـل ورضاضـة الألواح وعصـا مـوسى ومنبـر سليمان وأخـرج نعيم بن حمـاد

عن كعب قال المهدى يبعث بقتال الروم يعطى فقه عشرة ثم يستخرج التابوت وهو تابوت السكينة من غار انطاكية وأخرج أيضا عن كعب الأحبار قال : انما سمى المهدى لأنه يهدى لأمر قد خفى يستخرج التابوت من أرض يقال لها انطاكية قال صاحب البرهان فى علامات مهدى آخر الزمان رومة أم بلاد الروم ، وكل من يملكها يقال له الباب وهو الحاكم على دين النصرانية بمنزلة الخليفة فى المسلمين وليس فى بلاد الروم مثلها كثيرة العجائب ا هـ ..

وأخرج نعيم عن على قال اذا بعث السفيانى الى المهدى جيشا فخسف بهم البيداء وبلغ ذلك الشام قال لخليفتهم قد خرج المهدى فبايعه وأدخل فى طاعته والا قتلناك فيرسل اليه بالبيعة وحين يرسل الى المهدى يسير المهدى حتى ينزل ببيت المقدس وينقل اليه الخزائن ويدخل العرب والعجم وأهل الحرب والروم وغيرهم فى طاعته من غير قتال حتى يبنى المساجد بالقسطنطينية وما دونها ا هـ ..

المراد منه وأخرج نعيم بن حماد لا يبايع المهدى حتى يكفر بالله جهرا وأخرج نعيم أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال يبعث المهدى بعد ابىاس وحتى يقول الناس لا مهدى ونصرته من أهل الشام عددهم ثلاثمائة وخمسة عشر رجلا عدد أصحاب بدر يسيرون اليه من الشام حتى يستخرجوه من بطن مكة من دار عند الصفا فيبايعونه كرها فيصلى بهم ركعتين عند المقام ثم يصعد المنبر وأخرج أيضا لأبى هريرة قال يبايع المهدى بين الركن والمقام لا يوقظ نائما ولا يهرق دما وأخرج عن قتادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يخرج المهدى من المدينة الى مكة فيستخرجه الناس من بينهم فيبايعونه بين الركن والمقام وهو كاره) وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو لم يبق من الدنيا الا ليلة لطول الله تلك الليلة حتى يملك رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يملؤها قسطا وعدلا

كمــا ملئت جــورا ظلمــا ويقسم المــال بالسوية ويجعــل الغنى فى قلوب الأمة فيمكث سبعا أو تسعا ثم لا خير فى عيش الحياة بعــد المهدى) وأخــرج ابن أبى شيبة والطبرانى فى الأفــراد وأبو نعيم والحاكم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم (بشراكم بالمهدى رجل من قريش من أمتى على اختــلاف من الناس وزلازل فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما ويرضى عنه ســاكن السماء وســاكن الارض ويقسم المال صحاحا بالسوية بين الناس ويملأ قلوب أمة محمد غنى ويسعهم عدله حتى انه يأمر مناديا فينادى من له حاجة الى فما يأتيه أحد الا رجل واحد يأتيه فيسأله فيقول ائت السادن يعطيك فيأتيه فيقول أنا رسول المهــدى اليــك لتعطينى مالا فيقول احث فيحثى فلا يستطيع أن حمله فيلقى حتى يكون قــد ما يستطيع أن يحمله فيخرج به فيندم فيقول أنا كنت أجشع أمة محمــد صلى الله عليه وسلم نفسا كلهم دعى الى هــذا المال فتركه غيرى فيرده فيقول انا لا نقبل شــيئا أعطيناه فيلبث فى ذاك ستا أو سبع أو تســع سنين ولا خير فى الحيــاة بعــده) ..

وأخرج البزار عن جابر رضى الله عنــه قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : (يكون فى أمتى خليفة يحثو المــال حثوا لا يعــده عدا) وأخرج الدارقطنى فى الافراد والطبرانى فى الأوســط عــن أبى هــريرة رضى الله عنــه عن النبى صلى الله عليه وسلم : (يكون فى أمتى المهدى ان قصر عمره فسبع والا فتسع سنين ينعم أمتى فيهــا نعمة لم ينعموا بمثلها منهم البــار والفاجر يرســل الله عليهم السماء مدرارا ولا تدخر الأرض شيئا من النبات ويكون المال كدسا يقــوم الرجل يقــول يا مهــدى اعطنى فيقول خذ ا هـ .) قــوله كدسا هو بوزن قفل جمعه أكداس كقفل وأقفال ما يجمع من الطعــام فى البيدر ، وكذلك مايجمع من دراهم وغيرها كما فى المصباح وقد تقدم حديث الصحيحين عنه عليه الصلاة والســلام (كيف بكم اذا نزل

ابن مريم فيكم وامامكم منكم) وقد تقدم عن علماء الحـديث ان ذلك الامام هو المهدى وانما قالوا ذلك لورود الاحاديث بأنه يسبق الدجـال ونزول عيسى من السماء بسبع سنين فيساعد عيسى على قتل الدجال وأخـرج ابن الجوزى فى تاريخه عن ابن عبـاس رضى الله عنهما قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم (ملك الدنيا أربعة مؤمنان وكافران ، فالمؤمنـان ذو القـرنين وسليمان ، والـكافران نمروذ وبختنصر وسيملكها خامس من أهل بيتى) وأخرج نعيم عن طاووس قال اذا كان المهدى يبذل المال ويشتد على العمـال ويرحم المساكين) وأخـرج الطبرانى أن النبى صلى الله عليه وسلم أخـذ بيد على رضى الله عنه فقال يخرج من صلب هذا فتى يمـلأ الأرض قسطا وعدلا فاذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمى فانه يقبـل مـن المشرق وهو صاحب راية المهدى .

وأخـرج ابن ماجـه والطبرانى مـرفوعا يخـرج ناس من المشرق فيوطؤن للمهدى سلطانه . وأخرج الدانى عن حذيفة مرفوعا فى حديث طويل فيفرح به أهل السماء وأهل الأرض والطير والوحوش والحيتان فى البحر وتزيد المياه فى دولتـه وتضاعف الأرض أكلها ويستخرج الكنوز وأخرج أبو داود (المهدى أزج أبلج يجىء من الحجاز حتى يستوى على منبر دمشـق) وعن على رضى الله عنه انه فى وجهـه خال (وأخرج أبو عمر والدانى فى سننه عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يلتفت المهدى وقـد نزل عيسى بن مريم كأنمـا يقطـر من شعره فيقـول المهدى (١) تقـدم صل بالنـاس فيقول عيسى انما أقيمت الصلاة لك فيصلى خلف رجل من ولدى وأخرج أبو عمر والدانى رحمـه الله تعـالى فى سننه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنـه قال قال

---

(١) قوله كأنما يقطر ــ من شعره أى من منابت شعره والذى يقطر منه ماء كالجمان كما تفسره الاحاديث الآتية أن شاء الله تعـالى قاله مؤلفه أ.هـ ..

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تزال طائفة من أمتى تقاتل على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم عند طلوع الفجر ببيت المقدس ينزل على المهدى فيقول المهدى تقدم يا نبى الله فصل بنا فيقول هذه الأمة امراء بعضهم على بعض) وقد ذكر بعضهم ان وجه امتناع عيسى أولا من الامامة فى أول صلاة بعد نزوله وصلاته بالمهدى مع كونه رسولا اظهار أنه حاك لشرع نبينا عليه الصلاة والسلام كأحد أصحابه اذ يصدق عليه حد الصحابى كما قرروه لأنه أجتمع به حيا بخلاف غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فاجتماعه بهم بعد الموت وقد ألغز ابن السبكى فى ذلك بقوله :

من باتفاق جميع الناس افضل من
خير الصحاب ابى بكر ومن عمر

ومن على ومن عثمان وهو فتى
من امة المصطفى المختار من مضر

فاجبت لغزه بقولى

عيسى بن مريم فى الصحب الكرام ومن
أجل رسول الاله صفوة البشر

(وقد نظم شيخنا وشيخ مشايخنا العلامة المحقق الشيخ عبد القادر بن محمد سالم) فى نظمه الواضح المبين ما يكفى ويشفى من صفة المهدى وعلاماته وسائر أحواله فقال أصلح الله منا ومنه الحال والمآل ..

وأخبر النبى بالمهدى
السيد القطب الزكى المرضى
تواترت به الاحاديث الصحاح
فيما روى أهل الفلاح والنجاح
وسبقه الدجال قد جزم به
مؤلف الارشاد قدما فانتبه
له علامات بهأ المختار
اخبرنا جاءت بها الاحبار
فى وجهه خال أزج اباج
اقنى وهو للانام فرج
ويفرح الاملاك والانسان
والطير والوحوش والحيتان
وهو براق الثنايا يولد
بحرم الرسول نعم المولد
تظله غمامة فيها ملك
يأمر باتباعه فيما سلك
تظهر منها راحة تشير
اليه بالبيعة ذا المأثور
وتهبط الطير عليه واقعة
من الهواة أمره مطاوعة
منها اخضرار يابس الاغصان
غرسه فى موضع عطشان
تقع بين الركن والمقام
بيعته الهجرة نحو الشام
على مقدمته جبريل
فى ساقة يكون ميكائيل
بيده راية سيد مضر
كما روى ذاك نعيم فى خبر
تنصره عدة أهل بدر
رهبان ليلهم أسود أجر
ويسمع الناس المنادى فى السما
بأمره كما اتى عمن سما
يدخل ما دخل ذو القرنين
ينمى الى الحسن والحسين
وجده العباس حائز الندا
وخاتم الهجرة محمود احمدا
وهو لدولة الشريعة ختام
اذ هو من بيت به كان الختام

يـــؤم عيسى خصـــه تكرمـــا
بذاك من أولى العبـــاد النعمـــا
وملكه اختلف فيـــــه الاثـــر
وكونـــه سبع سنين الاكثـــر
علمـــه محمـــد واحمـــد
أبـــوه عبـــد الله نعم السيـــد
قائـــد جيشـــه الرئيس من تميم
شعيب (أ) بن صالح الندب الزعيم
تسبقـــه حـــوادث عظـــام
وفتن خطوبهـــا جســـام
من هولهـــا تنفطـــر الأكبـــاد
من حرهـــا تنقطع الاجســـاد
كحمـــرة تنشر فى الســـماء
تظهـــر في افقهـــا للـــرائى
ليســـت كمثـــل الشـــفق المعتاد
بمشق فوق سورها ينـــادى
كمـــا أتى المنـــادى ويل للعـــرب
من شر ذكـــر قـــوله قـــد اقترب
ويظهـــر النجم يضيء كالقمـــر
بمشرق وقـــال فى عقـــد الـــدرر
يعطف حتى يلتقى أو يقتـــرب
ومعظم البلاد اذ ذاك خـــرب
ويـــوقظ النـــائم صـــوت يسمع
فى رمضـــان ان ذا لمقـــزم
فى ليلـــة النصـــف وشمس تكسف
فى نصـــفه والبدر قالوا يخسف
أولـــه وتـــان الآيتـــان
لم تقعـــا فى غابـــر الازمـــان

الخ ما ذكره فيه وقوله سابقا وجده العباس الخ أشار فيه الى ماورد فيه من أن العباس رضى الله عنه جدله من جهة قال ابن حجـــر الهيتمى مـــا ورد من كـــونه ولد من كونه من ولد العباس لا ينافى انه من ذرية نبينا صلى الله عليـــه وسلم لأنه يمكن أن يكون للعباس فيه ولادة من جهة ان فى امهـــاته عباسية والحاصل ان للحسن فيه الولادة العظمى لأن أحاديث كونه من ذريته أكثر وللحسين فيه ولادة أيضا وللعباس فيه ولادة أيضـــا (تنبيـــه لطيف) ممـــا فضلت به فاطمة الزهـــراء على أخـــواتها ان المهدى المبشر به فى آخـــر الزمان من ذريتها كما جزم به السهيلى فى الروض الأنف فهى مختصـــة بذلك عنهن والاحاديث فى أمر المهـــدى كثيرة وقد جمعها أبو بكر بن أبى خيثمة فأكثر ومن أغربهـــا اسنادا ما ذكره أبو بكر الاســـكافى فى فوائد الاخبـــار مسندا الى مالك ابن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : (من كذب بالدجال فقد كفر ومن كذب بالمهدى فقد كفر) وقال فى طلوع الشمس من

---

(١) قوله شعيب بن صالح بتنوين شعيب وكسره دون حذف للـــوزن وهو جائز كمـــا فى قراءة عاصم والكسائى عزير بن الله حكاية عن اليهـــــود لعنهم الله بابقاء التنوين وكسره فى الشاطبية وغيرها أ.هـ مؤلفه .

مغربهـا مثـل ذلك فيما أحسب أ هـ • ملخصـا من الروض الأنف للسهيلى واعلن ان المهـدى يبايـع وهو كاره فلا يطلب البيعة بل يهرب منها قال العلامة ابن حسام الدين فى تأليفه (البرهان فى علامات مهدى آخر الزمان) وعن أبى جعفر قال يظهر المهدى يوم عاشوراء وكأنى به يوم السبت العـاشر من المحـرم قائم بين الـركن والمقـام وورد انهم يأتونه بمكة فيقولون له أنت فلان ابن فلان فيقول بل أنا رجـل من الانصـار فيفلت منهم فيصـفونه لأهل الخبرة فيقولون هو صاحبكم الذى تطلبونه قـد لحق بالمدينـة

فيطلبونه بها فيخـالفهم الى مكة فيصيبونه بها فيقولون له أنت فلان ابن فلان وأمك فلانة بنت فلانة وفيك آية كذا وكذا وقـد انفلت منا مرة فمد يدك نبايعـك فيقول لست بصـاحبكم وينفـلت منهم فيطلبونه بالمدينة فيخالفهم الى مكة فيصيبونه عنـد الركن ويقولون اثمنا عليك ودماؤنا فى عنقك ان لم تمد يدك نبايعـك هـذا عسكر السفيانى قد توجه فى طلبنا عليهم رجل من حزم فيجلس بين الركن والمقام فيبايع فيلقى الله محبته فى صدور الناس فيصير مع قوم أسد بالنهـار ورهبـان بالليـل (وفى القسطلانى) أن ظهور المهدى قبل الدجال بسبع سنين وأن الدجـال يخرج على رأس مائة وان قبـله مقدمات تكون فى سنين كثيرة وانه قبـل طلوع الشمس من مغربهـا وجزم السيوطى ان الدجال يسبق نزول عيسى والله أعلم • (وقـد حاول ابن خـلدون) فى مقـدمة تاريخه تضعيف أحاديث المهـدى الواردة فيه بكل حيلة أمكنته ومع ذلك لم يمكنه الطعن الا فى بعضها لا فى جلها وكثـير من اعتراضـه وطعنـه لا يسلم له ، وعلى تسليمه فأحاديث المهدى الواردة فيه أكثر من ذلك فقـد بلغت حـد التواتر وكثرتها قاضية بصحتها والقطـع بها قال فى مراقى السعود :

واقطع بصـــدق خبـــر التواتـر
وســو بين مســلم وكافــر

فهى لكثرتها بعضها يعضد بعضا وقوله عليه الصلاة والسلام الثابت فى الصحيحين (كيف أنتم اذا نزل

ابن مريم فيكم وامامكم منكم) محمول على المهدى كما عليه المحققون لورود الاحاديث المصرحة بأن نزول عيسى عليه الصلاة والسلام يقع والمهدى موجود فى الأرض وانه يؤم عيسى عليه الصلاة والسلام فى أول صلاة اجتمعنا عندها وبعد ذلك يصير عيسى هو الامام وهذا أعظم دليل على أنه

الخليفة الذى يكون فى آخر الأمة كما فى صحيح مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يكون فى آخر أمتى خليفة يحثى المال حثيا لا يعده عدا) خلافا لما زعمه ابن خلدون من أنه لا دليل يقوم على انه أى المهدى المراد بهذا والله أعلم .

(الفصـــل الثـــانى)

قد أخرج البخارى فى صحيحه فى شأن عيسى عليه الصلاة والسلام ما لفظه (باب نزول عيسى بن مريم عليهمـــا لســـلام) حدثنا اسحـــق أخبرنا يعقوب ابن ابراهيم حدثنا أبى عن صالح عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمـــا عـــدلا فيكسر الصليب ويقتـــل الخنزير ويضـــع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها) ثم يقول أبو هريرة واقرءوا ان شئتم (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيـــامة يكون عليهم شـــهيدا) ا هـ بلفظـــه وقـــوله اقرءوا .. الخ.. يشير به البخارى الى أن أبا هـــريرة يفسر الآية بأن ايمان أهـــل الكتاب به قبل موته واقع بعد نزوله وتفسير أبى هريرة بذلك فى غاية الحسن وفى البخارى بعد الحديث الاول باسناد متصل عن أبى هريرة (كيف أنتم اذ نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم) وفى صحيح مسلم (والله لينزلن ابن مريم حكمـــا مقسطا فيكسر الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض وليدعون الى المال فلا يقبله أحد) ا هـ .. وفى هذا الحديث اشارة الى كثرة سكة الحديث فى آخـــر الزمان والاستغناء بها عن القلاص حيث تتـــرك ولا يســـعى عليهـــا للاستغناء عنهـــا بالســـكة فهـــذا الحـــديث من أعـــلام نبوته صلى الله عليه وسلم والى هـــذا المعنى يشير أيضا قوله تعالى : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » أى مثل فلك البحر فمثـــله فلك البر وفى صحيح مسلم انه أى عيسى ينزل عنـــد المنـــارة البيضـــاء شرقى دمشق ا هـ .. وفى سنن الترمذى فى باب ما جـــاء فى نـــزول عيسى ابن مريم عليهما السلام ان رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم قال : (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا

فيكسر الصليب ويقتــل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المــال حتى لا يقبله أحد) ا هـ .. وفيه فى حديث الدجال الطويل فبينما هو كذلك اذ هبــط عيسى بن مريم عليــه الســلام بشرقى دمشق بين مهرودتين واضعا يده على أجنحــة ملكين اذا طأطأ رأسه قطــر واذا رفعه تحدر منه جمــان كاللؤلؤ قال ولا يجد ريح نفسه يعنى أحد الا مات وريح نفسه منتهى بصره قــال فيطلبــه أى فيطــلب عيسى الدجال حتى يدركه بباب لد فيقتله قال فيلبث كذلك ما شاء الله الخ الحديث وهو طويل وفى آخره انه فى زمنه يقــال للارض أخــرجى ثمرتك وردى بركتك وان البركة يحصل منهــا ما فيه عبــرة لأولى الالباب وقوله بين مهرودتين روى بالذال المعجمة والمهملة أى ثوبين مصبوغين بالورس ا هـ .. وقــد ورد فى نزوله ومــدة مكثــه فى الارض بعــد الدجال كثــير من الاحاديث تركنا بعضه اختصــارا للقطع بأمــره لأنه نص القــرآن العظيم وسيأتى فى الخاتمة ان شاء الله قريبا ذكر زيادة من الاحاديث الواردة فيه وفى مدته ، وقد نظم مجدد العلم ببلادنا سيدى عبد الله ابن الحــاج ابراهيم فى روضــة النسرين حاصل خبره ونزوله من السماء بقوله رحمه الله تعالى :

نزولــه للارض مثــل الشــمس
لانــه ســما مقــام الحــدس
ينكح للتى ســـماها راضــــيه
وفى بنى كلف تراهــا راســـيه
خمســـــا وأربعين فى المنتظم
وغيـــره يمكث نجــل مــريم
أو مكثه ســبع كما فى مســلم
أو أربعين والصــحيح قــدم
وللوفــاق جنح الســـيوطى
وكونــه يلــد فى المضــبوط
ودفنــه مع النبى المطهـــر
تضــعيفه ثبت لابن حجــر
آخــر من جــدد ذا النبى
وقبــل انــه هــو المهــدى

قوله لأنه سما مقام الحدس أى علا على الظن فالحدس هو الظن وقوله وقيل انه هو المهدى اشارة الى رواية ابن ماجه وقــد تقــدم الكلام عليها فراجعه ان شئت فى المقدمة (الخاتمة رزقنا الله حسنها) قد تقدم ان ظهور المهــدى قبــل الدجال سبع سنين وان الدجــال يخرج على رأس مائة وان قبــله مقدمات تكون فى سنين كثيرة وانه قبــل طلوع الشمس من مغربهــا وجزم السيوطى بأن الدجال يسبق نزول عيسى والله أعلم .

وقد جاء فى الحديث أن الدجال يخرج على رأس مائة ويقتله عيسى ابن مريم وفيه كما تقدم أن عيسى يجتمع مع المهدى ويتعاونان على الجهاد ، فقد أخرج ابن أبى حاتم فى التفسير كما قاله السيوطى فى كتاب (الكشف عن مجاوزة الأمـة الألف) عن عبد الله بن عمـرو قال ما كان مذ كانت الدنيا رأس مائة سنة الا كان على رأس المائة أمر فاذا كان رأس مائة يخرج الدجال وينزل عيسى بن مـريم فيقتـله وأخـرج الطبرانى عن عبـد الله ابن سلام قال تمكث الناس بعـد الدجال أربعين سنة تعمـر الأسواق ويغرس النخـل وأخـرج الطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينزل عيسى بن مريم فيمكث فى الناس أربعين عاما » وأخرج أحمد فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » : (يخرج الدجال فينزل عيسى بن مريم فيقتـله ثم يمكث عيسى فى الأرض أربعين سنة اماما عادلا وحكما مقسطا) وأخـرج أحمد فى الزهد عن أبى هريرة قال يمـكث عيسى بن مـريم فى الأرض أربعـين سـنة لو يقـول للبطحاء سيلى عسلا لسالت وأخرج الحـاكم فى المسـتدرك عن ابن مسعود رضى الله عنـه عن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : (بين أذنى حمار الدجال أربعون ذراعا فذكر الحديث الى أن قال وينزل عيسى ابن مريم فيقتله فيتمتعون أربعين سنة لا يموت أحد ولا يمرض أحد ويقول الرجل لغنمه وللذئاب اذهبـوا فارعوا وتمر الماشية بين الزرعين لا تأكل منـه (١) سنبلة والحيات والعقارب لا تؤذى أحدا والسبع على أبواب الدور لا يؤذى أحدا ويأخذ الرجل المدمن القمح فيبـذره بلا حـرث فيجىء منـه سبعمائة فيمـكثون فى ذلك حتى يكسر سـد يأجـوج ومأجـوج فيمرحـون ويفسدون فى الأرض فيبعث الله دابة من الأرض فتدخل

---

(١) قوله منه اى الزرع المفهوم من ذكر الزرعين لان الكل هو مرجع الضمير ا.هـ مؤلفه .

آذانهم فيصبحون موتى أجمعين وتنتن الارض منهم فيؤذون الناس بنتنهم فيستغيثون بالله فيبعث الله ريحا يمانية غبراء ويكشف ما بهم بعد ثلاثة وقد قذفت جميعهم فى البحر ولا يلبثون الا قليلا حتى تطلع الشمس من مغربها • وأخرج أبو الشيخ فى كتاب الفتن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال فيمكث فى الارض أربعين عاما فيعمل فيهم بكتاب الله وسنتى ويموت ويستخلفون بأمر عيسى رجلا من تميم يقال له المقعد فاذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال ومصاحفهم) وأخرج مسلم والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يخرج الدجال فيمكث فى أمتى أربعين يوما ثم يبعث الله عيسى عليه السلام فيطلبه حتى يهلكه ثم يبقى الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يبعث الله تعالى ريحا باردة تجىء من قبل الشام فلا تدع أحدا فى قلبه مثقال ذرة من الايمان الا قبضت روحه حتى لو أن أحدكم دخل فى كبدجبل لدخلت عليه حتى تقبضه ثم يبقى اشرار الناس فيجيئهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الاوثان فيعبدونها) ، وأخرج أبو يعلى والرويانى فى مسنديهما وابن قانع فى معجمه والحاكم فى المستدرك والضياء فى المختارة عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان لله ريحا يبعثها على رأس مائة سنة تقبض روح كل مؤمن) اهـ •• (وفى تحفة المجددين لجلال السيوطى ما نصه) :

وآخر المئين فيها يأتى
عيسى نبى الله ذو الآيات
تجدد الدين لهدى الامة
وفى الصلاة بعضنا قد أمه
وبعده لم يبق من مجدد
ويرفع القرآن مثل ما بدى
وتكثر الاشرار والاضاعه
من رفعه الى قيام الساعة

ومراده بقوله بعضنا قد أمه المهدى المنتظر كما أقره فى غير هذا من مصنفاته رحمه الله وفى آخر

حديث الدجال الطويل وقتل عيسى له مانصـه ويبقى شرار النـاس يتهارجون تهارج الحمـر فعليهم تقـوم السـاعة رواه مسلم فاذا تأملت ما سـطرناه من أحـاديث عيسى والمهـدى المنتظـر مع أنه قليل بالنسبة لما تركناه مـع صفة عيسى بن مريم الآتية ان شـاء الله فى حـديث الموطأ والبخـارى — ووقفت على أحاديث صفة المهدى المنتظر وسعة علمه وخوارق العادة التى تحصل له وقبـله علمت أن كل دعوى مثل هـذه الترهـات الباطلة لا يلتفت اليها ولا يصغى عاقل ذو بصيـرة أحوى مسلم ذو عقيدة صحيحة اليها وحديث الموطأ هو مالك عن نافع عن عبد الله بن عمـر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رأيتنى الليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجـال له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم قد رجلها فهى تقطر ماء متكئا على رجلين أو على عواتق رجلين يطوف بالكعبة فسألت من هذا فقيل هذا المسيح بن مريم ثم اذا أنا برجل جعـد قطط أعور العـين اليمنى كأنها عنبة طافية فسألت من هذا فقيل لى هذا المسيخ الدجال) ا هـ .. ونحوه فى صحيح البخـارى وزاد فى صفة الدجال قوله أقرب الناس به شبها ابن قطن رجل من خزاعة ، وفى الحـديث ان عيسى عليه السلام أحمر ربعة أى متوسط بين الطول والقصر فاذا تحصـل ما قررناه عندك وتأملتـه من أوله الى آخره وتدبرت فى أن المهـدى يسبق الدجال كمـا تقـدم بسبع سنين والدجال يخـرج على رأس مائة كمـا فى الأحـاديث السابقة وعيسى عليه السلام يدرك المهدى ويجتمع معه ويقتل الدجال معـه علمت أن هذا كله متأخر الى رأس مائة آتية والله أعلم بهـا هل هى هذه الآتية أى الخامسة وهو ظاهر كلام السيوطى فى رسالة الكشف عن مجـاوزة الأمة الألف أو هى مائة أخرى آتية فعلم ذلك الى الله وأما دعاوى الدجاجلة لذلك فكثير ما تقع بدون دليل ويكفيك ان الله تعالى يفضح كل من أدعى ذلك ، اما بمـوت قبـل اظهار ما ادعى

أو عجز واضح أو اختبال أو غير ذلك وهذه الدعاوى الباطلة أخبر بها النبى الصادق صلى الله عليه وسلم ، ففى البخارى فى باب علامات النبوة عنه صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم انه رسول الله) اهـ ..

بلفظه وقد أخرجه الترمذى أيضا بهذا اللفظ وأخرج الترمذى وصححه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين وحتى يعبدوا الاوثان وأنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابون كلهم يزعم انه نبى وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى) ، والى هذا المعنى أشار الاخضرى فى الجوهرة القدسية بقوله :

قد جاء الحديث عن خير الورى
لن يأتى الدجال اعنى الاكبرا
حتى تجىء قبله دجاجله
كل يلوذ بطريق باطله

وقد وقع ذلك فى أقطار البلاد قديما وحديثا نسأل الله بمنه العصمة من الضلال والنجاة من شرور الأهوال واذا كان مما علم من الدين ضرورة انه لا نبى بعد نبينا صلى الله عليه وسلم الا ما أخبر به من نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان حاكما بشرعنا لا بشرعه الأول ولا بشرع جديد فى آخر الزمان كان نزول عيسى غير مناقض للآية الشريفة وهى قوله تعالى : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ، وقوله عليه الصلاة والسلام كما فى صحيح البخارى « وأنا خاتم النبيين » وقوله « لا نبى بعدى » كما فى الترمذى وغيره وذلك لأن القرآن أثبت البعدية للنبى صلى الله عليه وسلم على عيسى قال تعالى حكاية عنه : (ومبشرا برسول يأتى من بعد اسمه أحمد) ،

فنزوله آخرا غير مناف لذلك لأن المعتبر زمن تشريعه ونزول الأنجيل عليه قبل رفعه كما هو ضرورى وأما زمنه الأخير فهو أمر آخر أراده الله تعالى تشريفا لهذه الأمة ونفعا لها برفع كثير من الشر عمن أدركه عيسى منها واظهارا للموجود من أهل الكتاب اذ ذاك أن قوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه

ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه) ، وقوله : « وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا » حق لا مرية فيه الى غير ذلك من الاسرار التى الله أعلم بها .

وقد سئل :

ابن حجر الهيثمى كما فى الفتاوى الحديثية له عن وجه حكم عيسى عليه السلام بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام هل هو باجتهاد أو بمذهب أحد المجتهدين ؟

فأجاب :

بقوله عيسى صلى الله عليه وسلم منزه عن أن يقلد غيره من بقية المجتهدين بل هو أولى بالاجتهاد ثم علمه بأحكام شرعنا أم بعلمها من القرآن فقط اذ لم يفرط فيه من شيء وانما احتجنا لغيره لقصورنا وقد كانت أحكام نبينا صلى الله عليه وسلم كلها مأخوذة من القرآن ، ومن ثم قال الشافعى رضى الله عنه كل ما حكم به النبى صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن فلا يبعد ان عيسى صلى الله عليه وسلم يكون كذلك أو برواية السنة عن نبينا صلى الله عليه وسلم فانه اجتمع به فى حياته مرات ومن ثم عد من الصحابة ثم ذكر عدة أحاديث مصرحة باجتماعه مرات نبينا صلى الله عليه وسلم ولا نقص على عيسى فى نسخ شرعه بشرعنا كما لا نقص فى نسخ بعض شرعنا لبعض فالكل من عند الله تعالى لحكم اقتضت ذلك ونظر مصالح عباده وتفرده تعالى بالربوبية والفعل بالاختيار لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

وأما المهدى فشريف النسب يكون مجتهدا مطلقا وقطبا فى الباطن تأتى معه علامات وخوارق كما هو منصوص فمن لم يكن فى وصفه اذا ادعى انه هو فضحته شواهد الامتحان قال الشاعر :

كل من يدعى بما ليس فيه
كذبته شواهد الامتحان

وقال الابوصيرى

والدعاوى مالم تقيموا عليها
بينات ابناؤها ادعياء

فاذا كان الأمر كما علمت تبين لك ولكل واقف على هذه النصوص القاطعة ان مثل هذه الترهات المعزوة الآن لمن يدعى انه عيسى أو المهدى مع ما هو منسوب له ومسطور عنه من الكذب وتناقض الأقوال وتحريف الكلم عن مواضعه واللحن الفاحش الذى يأمن منه من قرأ المقدمة الاجرومية بل من خالط أدنى مخالط للسان العرب لا ينبغى أن يلتفت الى تضييع ساعة من نهار فى مطالعته بل لا يلتفت اليها الا سخفاء العقول ، ويقال فى حق من أصغى اليها « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل » ، (فان قيل) لابد من رد مثلها لئلا يضل أغبياء الأمة وينتشر الباطل لأن له صولة فى أوائل أمره قبل الاضمحلال (قلنا) قد كتبنا من النصوص القواطع ما عسى الله أن يقذف به على ما هنالك من الكفر والضلال قال تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) ، قال كاتبه وجامعه محمد حبيب الله ابن الشيخ سيدى عبد الله ابن ما يأبى الجكنى أصلا الشنقيطى اقليما المدنى مهاجرا نزيل مكة كالا هذا آخر ما قصدنا تحريره فى هذه النازلة ان كان وضع أدلته فى محالها صوابا فمن الله وجود صوابه والا فمن محل الخطأ وجرابه (وسميت ما فى هذه الاوراق بالجواب المقنع المحرر فى الرد على من طغى وتجبر بدعوى انه عيسى أو المهدى المنتظر) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وأصحابه أجمعين ❊ وكان الفراغ منه وقت آذان صلاة العشاء مستهل صفر الخير سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة بعد الالف قبالة بيت الله الحرام رزقنا الله بسبب ختمه حسن الختام ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، انتهى بحمد الله وحسن توفيقه وتأييده جعله الله مقبولا ونافعا للأمة آمين .

فهـــرس العــــدد

الموضـــوع	صـفحة
على هامش المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية	
دكتـور عبـد الـودود شـلبى	١
البيان الختامى للمؤتمر العالمى الثالث	
للسيرة والسنة النبوية...	٣
الابحـاث التى قـدمت للمؤتمر	٢٢
التفـرقة العنصرية والاسـلام	
للدكتـور محمـد البهى	٤٤
أثر الرسالة الاسلامية فى الحضارة الانسانية	
للاسـتاذ الدكتـور عمـر فروخ	٦٩
أيها المسلمون ماذا اعددتم لوداع القرن الرابع عشر الهجرى ؟	
فضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير	١٠٤
المسلمون والقرن الخامس عشر الهجرى	
دكتـور رءوف شـلبى	١١٢
احلامنا فى محرم ١٤٠٠ هـ	
للاسـتاذ السـيد حسن قـرون	١١٨
فى مواجهة الالحاد المعاصر عدم كفاية العلم فى مجـال المعرفة	
للـدكتور يحيى هاشـم	١٣١
الاسلام فى الفكر الاوروبى	
عرض وتحليل لمؤلفات اوروبية بقلم الدكتور محمد شامة ...	١٤٨
هجـوم لامبـرر له (الأزهر وأيام طه حسين)	
للدكتـور محمد رجب البيـومى	١٧٧
اللغة الاردية : نشأتها وتطورها	
للدكتور سمير عبد الحميد ابراهيم	١٨٨
النظرية الاسلامية فى المخابرات الحربية	
للواء محمد جمال الدين محفوظ	١٩٨
بـاب الفتـاوى	
للاستاذ عبـد الحميد شاهين	٢٠٩
حكـم .. وطـرائف	
اعداد الاستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم	٢١٤
(كتاب الشهر) رسالة الجواب المقنع المحرر فى الرد على من طغى وتجبر	
الشيخ محمد حبيب الله الجكنى الشنقيطى	٢١٧

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة

الجزء الثانى ـ السنة الثانية والخمسون ـ ربيع الاول سنة ١٤٠٠ هـ ـ فبراير ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات قرآنية :

النبى الأمى الذى ملأ الأرض رحمةً وعدلاً وإشراقاً ونوراً

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

قال الله تعالى فى سورة الأعراف (١٥٨)

« قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

البيان

فى صبيحة اليوم الأغر ـ الثانى عشر من ربيع الأول ـ ومن مشرق الهدى والسنا والجلال أشرق جبين المصطفى الهادى على الربى والبطاح ، ليطوى بنور هداه ظلمات الوثنية والجهالة ، ويكشف للناس آفاق العلم والعرفان ، ويرشدهم الى مناهج الخير ، ومسالك السعادة فى الدنيا والآخرة ، ورحم الله العباس بن عبد المطلب اذ يقول فى ذلك :

وانت لما ولدت اشرقت الارض ... وضاءت بنورك الافق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النور ... وسبل الرشاد تخترق

وكان ميلاده الشريف بعد حادثة الفيل بخمسين يوما ، تلك الحادثة التى جعلها الله ارهاصا لنبوته ، وتكريما لقبلته ، حيث أرسل على غزاتها « طيرا أبابيل

ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » .

طيب منبته

كان صاحب الذكرى العطرة ، رفيع الحسب ، عظيم النسب ، جليل المنبت ، طاهر الأصول ، اذ تبرأ أصله ونسبه الشريف من سفاح الجاهلية ، ولم يعرف لوليد مثل آبائه الغر الميامين ، فيعوالى الهمم ، ومحاسن الشيم ، ونظافة الأعراض .

عن على كرم الله وجهه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم الى أن ولدنى أبى وأمى ، ولم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شيء » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يلتق أبواى قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة ، الى الأرحام الطاهرة مهذبا ، لا تنشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » .

وفى صحيح مسلم عن واثلة ابن الأسقع رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

اليهود كانوا يتوقعون ميلاده

كانت الكتب السماوية تبشر بقرب مولد رسول من ولد اسماعيل ، موطنه وادى فاران بمكة .

وقد ذكرت علاماته التى يتميز بها ، وفى جملتها أن بين كتفيه خاتم النبوة .

وكان اليهود يتوقعون ظهوره فى الفترة التى ولد فيها ، فقد كانوا يزاولون حساب النجوم ، وقد ظهر لهم من حسابهم أنه يولد فى ليلة معينة .

روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « كان بمر الظهران راهب يسمى عيصا من أهل الشام ، وكان يقول : يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود تدين له العرب ، ويملك العجم

ـ هــذا زمانه ـ فكان لا يولد مولود الا ويسأل عنه ، فلما كانت صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خــرج عبــد المطلب حتى أتى عيصـا ، فناداه فأشرف عليه ، فقال عيصا : كن أباه ، فقــد ولد ذلك المولود الذى كنت أحــدثكم عنــه يوم الاثنــين ، ويبعث يوم الاثنــين ، ويموت يوم الاثنــين ، ثم قال : فما سميته ؟ قال محمــدا ، قال : والله لقــد كنت أشتهى أن يكون ذلك المولود فيكم يا أهل هــذا البيت بثلاث خصال : أنه طلع نجمه البارحة ، وأنه ولد اليــوم ، وأن اسمه محمد » •

وعن عائشة أنها قالت : (كان بمكة يهودى يتجــر فيها ، فلمــا كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : يا معشر قريش • هــل ولد فيكم الليلة مولود ؟ قالوا لا نعلمــه ! قال : ولد الليلة نبى هــذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيــه علامة فيهــا شــعرات متــواترات كأنهن عرف فرس ، فخــرجوا باليهودى حتى ادخلوه على أمه ، فقالوا : اخرجى لنا ابنك ، فأخرجتــه وكشفوا عن ظهره ، فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودى مغشيا عليه ، فلمــا أفاق قالوا : ما لك ويلك ؟ قال : ذهبت النبوة من بنى اسرائيــل) رواه الحــاكم •

وهذه العلامة التى تحدث عنها اليهودى هى خاتم النبوة الذى بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم ، روى البخارى فى صحيحه أن هذا الخـاتم كان كَـزِرِّ الْحَجَلَـةِ ، وانه كان ينم مسكا ، أى تخرج منه رائحة المسك بقدرة الله تعــالى ، لكى يكون ذلك عــلامة مميــزة لنبوته صلى الله عليه وسلم ، كما وردت فى الكتب السماوية ، قبل أن يعبث بها العابثون •

العــالم قبــل مولده الشريف

كان الناس قبل مولده صلى الله عليه وسلم يتخبطــون فى الظلام ، ويعيشون فى الأوهام ، ويقضمون الضريع والزقــوم من المظــالم ، ويحيون حياة الدواب والسوائم •

وكانت الأوثان تقـــدس فى المعـابد والبيـوت ، وتقدم لهـا القـرابين ، وتراق فى مذابحهـا النسائك ، وانك لتعجب أن يصنع الناس آلهتهم بأيديهم ، ثم يخرون لها ساجدين ، فكيف استساغوا أن يعبدوا ما صنعته أيديـهم ، والاله يخلق غيره ولا يخلقه سـواه انك لتعجب أن يضرعـوا اليها عنـد شح الأمطار ، لتجعل المزن تروى وديانهـم حتى ينبت الكلأ وترعى المـاشية ويشربـون من عـذب مياهها ، ومـالها الى اجابتهم من سبيل ، وانـك لتـدهش حـين يستنصرونهـا فى الحـــروب ، ويستشفوا بها اذا مسهم السقام ، مع أنها لا تستطيع أن تدفع عنها من يحطمها ويزلزل قدسيتها ، ومع أنها عودتهم أن لا تجيب لهم مطلبا ولا تحقـق لهم أملا ، وأصـدق ما وصفت به قول الحـق سبحانه « ان الذين تدعـون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعـوا له وان يسـلبهم الـذباب شيـئا لا يستنقـذوه منـه ضعف الطالب والمطلوب» وقوله جل وعلا : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملـكون كشـف الضر عنـكم ولا تحويلا » .

لقـد كان عابدوهـا يقيمـون بأنفسهم الحجة على ضعفها ، فانهم كانوا يتركونهـا ويدعون القدير العليم اذا اشـتدت عليهم المحن ، لشعورهم بعجزها عن تلبية دعائهم ، لـكنهم كـانوا يتناقضـون ، اذ يعـودون الى تقديسها بعـد أن كشف الله الضر عنهم ، وظهر لهم عجزها ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النحل : « ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » ويقول فى سورة الاسراء « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعـون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسـان كفورا » .

وكانت الخمر أم الكبائر شرابهم المفضل ، يدفنون فى سكرهم منها همـومهم ، ويبررون بهـا عبثهم ونزقهم ، وينشـرون فى نشـوتها

هذرهم ومجونهم ، وما فطنوا الى أنهم حين يعاقرونها يفتكون بعقولهم ، ويحطمون ارادتهم ، ويقضون على كبودهم وأعصابهم ، وينفقون أموالهم فيما يضرهم .

وكانت الدعارة فاشية بينهم ، وبخاصة بين امائهم ، وكانوا يقيمون لهن خياما خارج دورهم ، يغشاهن فيها آثموهم ، وما كانوا يرون عيبا أن يجعلوا من أعراضهن مرتزقا لهم .

ولما أرادت قريش جمع المال لبناء الكعبة ، طلب أشرافهم أن لا يساهم أحد فى بنائها بمال حصل عليه من اثم بغى .

وكانت المظالم منتشرة ، فالقوى يستعبد الضعيف ويسخره ، ويتخذه دابة ذلولا ، فلا يرعى فيه انسانية ، ولا تسترحمه به شفقة .

وكانت الحرب سجالا بين القبائل ، فكم من قبيلة أفنتها قبيلة ، وكم من فصيلة طحنتها فصيلة ، وكان يسيطر على العالم أمتان كبيرتان ــ الفرس والرومان ــ يتنازعان فيه على السيطرة والسلطان ، ويتنافسان فى الظلم والطغيان .

وكانت الحرب دائمة الاشتعال بينهما من أجل السيطرة على الأمم الضعيفة ، وكانت هذه الأمم المغلوبة على أمرها وقود الحرب فيما بينهما .

وكانت السجايا الكريمة كاسدة البضاعة ، والأخلاق الذميمة رائجة بين الناس ، الى غير ذلك من المفاسد والمعايب ، فكان من الحكم البالغة أن يبعث الله خاتم النبيين ليقضى على تلك المفاسد ، وينشر الهدى بين الناس ، حتى يذروا ماهم عليه من الانحراف فى العقيدة والسلوك .

نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم

ولد صلى الله عليه وسلم يتيما ، فقد مات أبوه عبد الله وهو فى بطن أمه ، ثم فقد أمه وسنه خمس سنين ، وذلك حينما عادت به من زيارة أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة ، فلحقتها منيتها بالأبواء وهى فى طريقها الى مكة .

روى الزهرى عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت : شهدت آمنة أم النبى صلى الله عليـه وسلم فى علتها التى ماتت بها ـ ومحمـد صلى الله عليه وسلم غلام يفع له خمس سنين عند رأسها ـ فنظرت الى وجهه وقالت أبيات شعر ، ثم قالت : (كل حى ميت : وكل جديد بال ، وكل كثير يفنى ، وأنا ميتة وذكرى باق ، وقـد تركت خيرا وولدت طهرا) .. الخ ..

وقد نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم منـذ ولد فى كفـالة جده عبد المطلب ، زعيم قريش ، ثم لم يلبث جده أن توفى والرسول فى سن الثامنـة ، فكفـله عمـه أبو طالب الذى آلت اليه زعامة قريش .

ومع هذا اليتم فقد نشأ صلى الله عليه وسلم بعيد الهمة ، عزوفا عن صغائر الأمور ، سامى النفس ، رصين التصرف ، رفيـع الخلق ، بعيدا عن صغار الأطفال ، وسذاجة تصرفهم ، ولا عجب فى ذلك فقد نشأ فى مدرسة الرحمن الرحيم ، تصنعه العناية الالهية ليكون خاتم المرسلين .

وقد كانت آثار هـذه العنـاية بادية عليه فى أمره كله ، ومن ذلك ما اخـرجه ابن عساكر عن جلهمة ابن عرفطة قال : قدمت مكة وهم فى قحط ، فقـالت قـريش : يـا أبا طـالب . أقحط الوادى وأجدب العيال ، فَهَلُمَّ فاستق ، فخرج أبو طالب ومعـه غلام كأنه شمس تجلت عنها سحابة ، وحوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام بأصبعه وما فى السماء قـزعة (١) فأقبـل السحاب من ها هنـا وها هنـا ، وأغدق واغدودق ، وانفجـر له الـوادى ، وأخصب النـادى والبـادى ، وفى ذلـك قـال أبو طالب .

وابيض يســتسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتــامى عصـمة لـلارامل (٢)

(١) أى قطعة من السحاب ، وهى واحدة القزع
(٢) الثمال الملجأ ، والمراد بالأرامل المساكين من رجال ونساء ، وأكثر ما يطلق على النساء ، وعصمته للأرامل منعه لهم من الضياع .

ثم سافر الى الشام مع أبى طالب مرتين ، احداهما فى الثانيــة عشرة من عمــره ، والثانية فى الثامنــة عشرة ، وقد حدثت له ارهاصــات وكرامات عجيبــة فى الرحلتــين ، كتظليله وحده بالغمام ، دون غيره من الركب ، وتسليم الجمــادات عليــه وغير ذلك ، ولما رآه بحيرا الراهب احتضنه وقال : هذا هــو النبى الذى بشرت به التــوراة . وأوصى عمه أن يحافظ عليــه من اليهود .

وقد تجلى من صفاته الصــدق والأمانة ورجــاحة العقــل ، حتى عرف بذلك بين الناس ، فأصبحوا يلقبونه بالأمين ، فعهــدت اليــه خديجة بتجــارة لهــا فى رحلة الى الشام ، فسافر ومعه غلامها ميسرة ، فرأى منه فى تلك الرحلة من كريم الشمائل ، وعظيم الخوارق ما لم يشاهد مثله ، فلما عادا بالتجــارة الرابحــة ، أخبر ميسرة مــولاته خديجــة بما رأى من عجائبــه ، فخطبتــه الى نفسها وتزوجتــه ، وأنجب منها أولاده عدا ابراهيم فمن مارية القبطية .

موقف قريش من بعثتــه

لما بلغ الرسول الأربعين ، بعثه الله للنــاس بشيرا ونذيرا ، ومع تاريخه المجيد فان قريشا أعرضت عمــا دعاها اليــه من شرع الله ، وكــافحت دعــوته وأغــرت بــه سفهاءها ، حســدا له واستمساكا بما ألفوه من عبادة الأوثان ، تقليدا للآباء دون حجــة ولا برهــــان ، وكانوا يقولون « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » .

وقد مكث الرسول يدعــوهم الى الرشــد والهــدى ثلاثة عشر عاما ، فلم يؤمن به فيها سوى عدد قليل من الرجال والنساء .

ولعل موقفهم هذا من حكم الله تعالى ، فانهــم لو ســارعوا الى الايمان به ، لقال العــرب من غير قومه : هؤلاء الناس من قريش ، أرادوا أن يملكــوا العــــرب ، فدفعوا رجلا منهم ، فادعى النبوة ليكون ذلك وسيلة الى سيطرتهم على الناس ، وحينئــذ ينفرون من دعوته ولا يقبلون عليهــا ، فلذلك جعل الله موقف قومه منه سلبيا ، وادخــر له قــــوما يفتدونه بالمهج

والأرواح ، وهم أهـل المدينـة ، فهيأ لقـاءهم به فى مواسم الحج قبيل الهجرة ، فشرح الله صدورهم فآمنوا فى شغف ولهفة ، وبايعـوا الرسول على أن يمنعوه مما يمنعون منه أولادهم ونساءهم ، ثم هاجر اليهم ، وتبعه مسلمو مكة ، وهناك وجدوا أنصار المدينة قـد نشروا الاسلام فى ربوع المدينة ، بارشاد وتوجيه مصعب بن عمير ، وعبد الله ابن أم مكتوم مبعوثى الرسـول اليهـم ، وهناك آخى النبى صلى الله عليـه وسـلم بين المهـاجرين وبينهم ، فصنعت هـذه المؤاخاة العجب العجـاب من نشر دين الله فى الجزيرة العربية ، وسقوط دولة الوثنية فى مكة ودخـول أهلهـا وغـيرهم فى دين الله أفـواجا . والحمد لله رب العالمين .

يمن اليتيم ونوره فى العالمين

من حكم الله أنه اختـار خاتم النبيين يتيما ، ليشعر بآلام اليتامى النفسية ، ويعظم احساسه بحاجتهم الى العطف والرعـاية ، ويسـمو اكباره لفضل الوالدين ، فلهـذا كان صلى الله عليه وسلم معنيـا بأمر هؤلاء وأولئك ، بعد أن شرفه الله بالرسالة ، وقد أيده الله بوحيه فى هذه العواطف الكريمة ، فأمعن فى الحث على العنـاية بهم ، ومن ذلك قوله تعالى « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حـوبا كبـيرا » وقـوله « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمـا انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سـعيرا » وقـوله : « وليخش الذين لو تركـوا من خلفهم ذرية ضـعافا خافوا عليهم فليتقـوا الله وليقـولوا قـولا سديدا » .

ومن ذلك قوله فى شأن الوالدين : « وبالوالدين احسـانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جنـاح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

وقد امتد حنـانه الى كل فقير وضعيف وحيوان ، وبلغ من رحمته بالفقراء أن جعل أهل الحى الذى يبيت فيه جياع آثمين ، وبلغ من

عطفه على العامل الضعيف أنه أوصى بأن يعطى أجره قبل أن يجف عرقه ، وبلغ من عنايته بالحيوان أنه قال « فى كل ذى كبد حراء صدقة » وقال : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » (١) .

وقد أيده الله أيضا بما أنزل فى كتابه من ايجاب الزكاة للفقراء والمساكين ، والحث على الرحمة وتحريم الظلم .

ومن حكم الله أنه اختاره أميا ، ليكون العلم الذى حواه القرآن الذى بعثه الله به معجزته الكبرى ، وصدق الشاعر اذ يقول :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة
فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

وما أعظم ما أحاط به ذلك الكتاب من فنون العلم ، فهو فى القمة من الفصاحة والبلاغة والعلم ، وفى الذروة من الصدق فى أخبار الماضين ، الى جانب ما حواه بين دفتيه من أعدل قواعد التشريع وأعلى مناهج الأخلاق ، وأسمى أساليب التربية والتأديب ، وكل ذلك أو بعضه لا يقدر على الاتيان به الجم الغفير ممن وصلوا الى أعلى الثقافات ، فكيف يستطيع أن يأتى به نبى أمى نشأ فى أمة جاهلة ، ان ذلك يدل بلا أدنى ريب ، على أنه وحى من الله ، وليس من تأليف البشر ولا غيرهم من الجن ، وصدق الله تعالى اذ يقول : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

لقد حوى هذا الكتاب الكريم بين دفتيه وجوب توحيد الاله وأرشد العقول الى أنه « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » وأبطل عبادة الأوثان ، وبين فسادها ، فأفاقت العقول من سكرتها ، وصحت من ثباتها ، واتجهت نحو العقيدة المستقيمة الحقة ، وتلاشى الشرك أو كاد .

---

(١) خشاش الأرض حشراتها

ولقد أجبر منطقه السديد فى التوحيد ، أجبر أصحاب عقيدة التثليث على محاولة توحيد ثالوثهم ، فزعموا أن الثلاثة واحد ، وما يغنيهم هذا فتيلا •

وحوى هذا الكتاب أيضا من قواعد التشريع ما يصلح لكل اقليم ولكل زمان ومكان الى أن تقوم الساعة •

ولقد استطاع الفقهاء أن يستنبطوا من نصوصه بمعونة السنة النبوية موسوعات فى الفقه الاسلامى ، اشتملت على الكثير من فروع العبادات والمعاملات ، والزواج والطلاق والعفو والعقاب ، وغير ذلك مما يحتاج اليه البشر فى مختلف شئونهم •

ولو أن فقهاء جيلنا درسوا فقههم وفتاواهم وأقضيتهم ، لأخرجوا للناس قوانين تريح قلوبهم وتسعدهم وتحل مشكلاتهم ، وتخرس ألسنة الدعاة الى التجديد والانحراف عن الفقه الاسلامى •

فقد بلغت فتاوى بعض الائمة مئات الألوف بل أكثر ، ولم يتركوا بابا من الأبواب الا طرقوه ، ولا مشكلة يمكن أن تطرأ على المجتمع الاسلامى الا حلوها •

ومن أمثلة هذه الموسوعات كتاب الحاوى للامام الماوردى الشافعى المذهب ، وهو كتاب مخطوط يقع فى نحو عشرين مجلدا ، وكذلك فعل السيوطى فى موسوعة له تبلغ عشرين مجلدا ، كما فعل غيرهما من أصحاب المذاهب على هذا النمط وأدنى منه وأكثر •

ولقد فتح القرآن العظيم ، وسنة النبى الأمى الكريم ، أبواب العلم على اختلاف فروعه ، فانتشر فى البلاد التى شع فيها نور الاسلام ، انتشر فيها العلم والعرفان ، والمدنية والحضارة ، فعز أهلها بعد ذل ، وعلموا بعد جهل ، وأمنوا بعد خوف ، وكل ذلك بفضل الله ، ورسالته الى نبيه الأمى اليتيم ، فصلوات الله وسلامه عليه فى كل وقت وحين •

مصطفى محمد الحديدى الطير

تصحيح واجب :

القرآن والعلوم الإنسانية

للدكتور محمد رجب البيومى

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم . » قرآن كريم

نحرص على تقدم الدراسات الاجتماعية ، ونرى فى كثرة المؤلفات الدائرة حولها ما يفيد وينفع لأن كل دراسة جادة تعود بالخير على الانسان ، وقد ظهرت من المؤلفات الجامعية أمثلة مشرفة تتوخى البحث الهادف ، ومن حقنا أن ندلى ببعض انطباعاتنا الخاصة ، حول هذه المؤلفات ، ولن تتعرض لأسماء الكتب والمؤلفين تصريحا لأننا لا نريد التجريح الهادم بل نقصد النقد البناء ، اذ نلفت الأنظار الى ناحية مهمة يتجاهلها أكثر الكاتبين فى هذه الدراسات وهى من الأهمية بالمكان الأول .

يتلقى الطالب الجامعى فى الدراسات الانسانية مذكرات أساتذته ، فيفهمها فهما جيدا يساعده على اجتياز الامتحان آخر العام بنجاح ، ويراها من وجهة نظره المبتدئة صوابا لا مرية فيه ، اذ لا يمكن أن يتصور أن أستاذه الجامعى المتخصص يقدم اليه غير الصائب الصحيح فى كتابه ، وقد يكون هذا الكتاب محدود النظرة يعرض الوجهة الواحدة من وجهات كثيرة دون أن يعرج على ما يخالفها ، وقد تكون هذه الوجهة المختارة لدى المؤلف ذات خطأ يتطلب التصويب ، فالاقتصار عليها دون غيرها تحكم لا مبرر له ، وكان

الأوفق أن يعرض الرأى المقابل مشفوعا بأدلة أصحابه ، لتكتمل الرؤية الصحيحة فى شتى جوانبها ، ولكننا نجد فى أكثر المؤلفات الجامعية ما يقتصر على وجهة معينة وكأنها وحدها موضع الاتفاق بين الدارسين ، وتزداد خطورة هذا الأمر اذا كانت القضية المعروضة تمس جانبا أكيدا من جوانب العقيدة الدينية ، وقد اختار المؤلف ما يعارض الاتجاه الدينى فزكاه وأيده دون التفات الرأى الصحيح .

وقبل كل شىء نحب أن نصرح بالحق دون مواربة ، فنقرر أن نفرا من الذين يكتبون للطلاب فى الجامعة فى علوم النفس والاجتماع والفلسفة والتربية والحضارة والأخلاق قد اقتصرت معارفهم الاسلامية ، على ما أخذوه فى المدارس الثانوية والابتدائية ، فهم لا يعرفون من حقائق الاسلام غير ما ألم به الطالب الناشىء فى مرحلة أو مرحلتين « وهو مقدار » لا يسمح باعطاء تصور كلى عن حقائق الاسلام ، فاذا أضيف الى ذلك أن أكثر هؤلاء الطلبة لم يمتحنوا فى الدين الاسلامى فى نهاية كل مرحلة ، اذ تقضى بعض اللوائح التعليمية فى كثير من الدول الاسلامية أن يقتصر الامتحان فى الدين الاسلامى على ما قبل الشهادة العامة ، اذا أضيف ذلك فلك أن تحكم بأن الطالب فى المرحلتين السابقتين على الدراسة الجامعية ، ينتقل الى الكلية العالية دون المام متوسط بحقائق الدين ، فيكاد يتساوى مع من لم يدرس الدين أصلا ممن لم يلتحقوا بالمدارس التعليمية ، فاذا صلى وصام وتمسك ببعض الأخلاق القرآنية فقد فعل ذلك ناقلا عن أسرته وبيئته دون تثقيف .

هذا الطالب الذى ألم بقشور سطحية فى المرحلتين السابقتين فى مسائل التشريع والعقيدة يتوجه الى الجامعة ليدرس العلوم الانسانية كما حذقها أساتذته الذين يعتمدون على كتب أوربا كل الاعتماد فى هذه العلوم ! وقد يتفوق فى درجته فيلتحق بالدراسات العليا ، وينال الدكتوراه

فى مادة تخصصه ، وهو فى كل دراساته العالية يخوض فى تيار أجنبى عن الاسلام ، ثم يعين بعد ذلك مدرسا فأستاذا مساعدا فأستاذا موجها ، ليشرح مادته كما تلقاها عن الماديين من أساتذة الغرب ! وهنا تكون الكارثة طامة حين يتعرض الى مسألة أبدى القرآن فيها حكمه الصريح فيتركه الى ما يعرف من أحكام زيفها القرآن ، وأقر بمثل لذلك ما نجده فى مذكرات هؤلاء من حديث عن نشأة الأديان ! اذ يرى القارىء عجبا عاجبا من أوهام ملفقة زيفها القرآن ، واجتباها هؤلاء المتخصصون !

لا يظن قارئى العزيز أنى أبالغ أو أتهكم ، فأنا أتحدث عن واقع مؤلم ، تجسم لدى بهوله المنكر ، حين تصفحت بعض المذكرات الجامعية فى مادة الاجتماع فوجدتها تتحدث عن شىء أولىّ فى تاريخ الانسان ، تسميه المرحلة الدينية ، وتقول فى توضيح هذه المرحلة ، ما ملخصه أن الانسان القديم بعد الطوفان أخذ يستعمر الأرض حين رأى النبات ينمو بتأثير الماء ، ولكنه شاهد من مظاهر الطبيعة ما أفزعه ، فهو يسمع الرعد ، ويرى البرق ، ويشهد فعل النار ، وتدمير السيول فيعتقد بوجود قوة جبارة قاهرة تفزعه وتخيفه ، واذ ذاك يستكين لهذه القوة خائفا هائبا ، ويرتفع بها الى درجة الألوهية فيكون الرعد والبرق والشمس والقمر والليل آلهة ذات سلطان ، ثم تأتى شخصيات « آدمية » فتدعى النسبة المتصلة بهذه الآلهة ، وتستمد منها قوة تفرض لها واجب السلطان والجبروت فتكون هى الهيئة الحاكمة ، يقول أحد هؤلاء الكاتبين : « وقد انبثقت هذه العقيدة منذ فطامها من تلك العوامل النفسية والقدرية التى عاشت فى ذات الانسان من الدهشة والخوف والتطلع صوب آفاق الأمل القريب أو البعيد ، اذ من ذات الانسان تسلسلت أشعته الفكرية ، ناظرة نظرتها الأولى فى جنبات الكون المحيطة به ، فسبر بفكره الثاقب أغوارها ، وصنع

من هذا الفكر طريقه الى الطمأنينة ، وتبدد خوفه حينما ارتكز بعقيدته الوليدة على وجود ما صنعه الهام فكره من الآلهة » .

فاذا انتهت هذه المرحلة الدينية ذات الفكر الخرافى ، وواصل العقل البشرى نظره الفاحص ، فان مرحلة أخرى تعقبها ، وتقف منها على النقيض ، تلك هى المرحلة العلمية القائمة على التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنباط ، وهى المرحلة التى اكتملت فى عصر النهضة وما تلاه !

هذا الكلام يتردد فى صفحات علم الاجتماع فى فصول تزدحم بالمراجع المحتشدة لأساطين الباحثين فى أوربا وأمريكا ، دون أن يجد جواره ما يوضح الفكرة الاسلامية فى نشأة الدين ! وكأن الكاتب الجامعى غريب عن الاسلام !! واليه ينتسب !!

وأول ما يدهشنا أن صاحب هذا الكلام ! يتحدث عن مرحلة ما بعد الطوفان ! أى عن مرحلة ما بعد نبى الله نوح عليه السلام ، اذ أن الطوفان اذا أطلق بمفهومه العام لا ينصرف الى غير طوفان نوح ، واذا وجد اليوم فيما اكتشف من الآثار ما يدل على تعدد الطوفان فى أزمنة مختلفة ، فذلك كله وليد اكتشافات حديثة لا تختلط بهذا الحدث التاريخى الذى سجلته التوراة ، وذكره القرآن ، ونحن نعلم أن أتباع نوح ممن نجوا من الطوفان كانوا ذوى عقيدة دينية هى عقيدة الاسلام مصداقا لقوله تعالى فى سورة الشورى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب ، وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » ١٣ ، ١٤ من سورة الشورى .

فالذين عاشوا بعد الطوفان كانوا يعرفون التوحيد ، ويؤمنون بالله وحده ، ولم يكونوا جميعا ممن يتخذون من البرق والرعد والنار والشمس آلهة ، اذ أن الانسان الأول قد ولد مزودا بغريزته الدينية التى تهديه الى عبادة رب واحد ، وقد انحدر من صلب آدم عليه السلام وهو نبى موحد فتلقى كلمات منه تهدى الى الله !

وما حصل بعد آدم ونوح من انتكاس فى العبادة لدى فريق دون فريق كان خطأ يتطلب التصحيح لذلك توالت الأنبياء وتتابعت الرسل ليصححوا هذه الأخطاء الطارئة على الفطرة الانسانية ، وقد جاء نوح ليعيد الفطر المنتكسة الى اعتدالها الصحيح فدعا الى نبذ الأوثان وعبادة رب واحد لا شريك له ، يقول الله عز وجل على لسان نوح فى الحديث عن قومه « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا ، قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين الا ضلالا ، مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » سورة نوح الآيات من ١٠ الى ٢٥ .

فمن هذا النص الكريم وأمثاله فى كتاب الله عز وجل نعلم أن التوحيد الخالص كان ذا أنصار وأشياع قبل الطوفان وبعده ، وأن القول بأن تأليه البرق والرعد والشمس كان مظهرا عاما للحياة فى سيرها بعد الطوفان ، وخطوة فى طريق القول باله واحد ، هذا القول مخالف للفكرة الاسلامية

التى تؤكد أن الانسان قد فطر على التوحيد منذ آدم عليه السلام ، وأن ما ارتكست فيه الانسانية من شرك وثنى قد كان خطأ فادحا أستوجب بعثة الرسل فى آماد مختلفة لتؤدى رسالة السماء نقية خالصة ! حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم فاكتملت على يده الرسالة الصحيحة ، وأعاد الحنيفية السمحة كما نطق بها نوح وابراهيم وعيسى وموسى وجميع من سبقهم من الأنبياء والمرسلين ، وبرسالة خاتم الأنبياء كملت الشرائع الاصلاحية ، وأقيمت المعاملات الانسانية على نهج خلقى قويم .

نقول ذلك ونؤكده لأن نفرا من أصحاب المذكرات الجامعية يتحدثون عن الأخلاق الفاضلة ، وعن قوانين المعاملات ، ووسائل الارتباطات الانسانية كأشياء منفصلة عن الدين ، ولئن صح ذلك لدى بعض الأديان المعاصرة فان الاسلام بكتابه الخالد هو منبع الأخلاق وموردها الصافى لدى أبنائه ، وليس الخلق الاسلامى اصطلاحا اجتماعيا يتغير فى زمن ، ويرجع الى صورته الأولى فى زمن آخر ، كما يتوهم الذين يظنون أن أساليب الحضارة ترتفع ببعض الأخلاق المناسبة وتهوى ببعضها الآخر ، وفق الظروف والملابسات ، لأن الأخلاق فى الاسلام دوائر عامة تشمل الجزئيات ، وهذه الدوائر تتسع للفضائل ، وتضيق عن الرذائل ، معتمدة على التكوين النقى للانسان ، ومقدرة تغير الأحوال وتبدل الملابسات ، فهى تتسع وتمتد حتى تحتضن كل خير ، كما تقف موقفها الصارم من دعوات التحلل والانحدار ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

لقد كان على الأساتذة الذين يؤلفون ويفسرون ، أن يعرفوا أن أكثرية تلاميذهم مسلمون ، وأن أمانة دينهم تلزمهم أن يعرضوا رأى الاسلام فى كل ما يدرسون ، ونحن نعرف أن الدراسات الانسانية بعيدة الجذور فى حقل التأليف العلمى فلدينا من علماء الشرق فى القديم من أسهموا بنصيبهم الكبير فى هذه الدراسات ، فلماذا نغفل كتبهم الذائعة ، ونرتكز

كل الارتكاز على ما قيل فى أوساط بعضها يناوىء الاسلام علانيــة ، وبعضها الآخر يناوئه فى استتار ؟!! وقل أن تجد من يحايده ، وأقل من القليــل من يسلك معــه مسلك الانصــاف ، ولا ننكر أن نفرا من فضلاء المعــاصرين قد تحــدثوا باشباع عن وجهة الاسلام فى كل ما يندرج تحت هذه الدراسات ، فصدرت فى مصر وأخواتهــا كتب تتحدث عن علم الاجتماع الدينى ، وعن علم النفس فى منطق الاسلام ، وعن الأخلاق الاسلامية ونبعهــا الأول فى القرآن والحديث ، وعن فلسفة القرآن كما جاءت فى سوره الكريمة بعيدا عمن حاول المتكلفون الصاقه بها من تراث اليونان ومنطق ارستطاليس كمــا كان على الذين يتعبدون بمؤلفات الماديين فى الغرب أن يطالعوا ما كتبه أنصار الفكرة الاســلامية ليعــدلوا من آرائهم المشتطة ، ولكن غاشية مدلهمــة تنسدل على بعض البصائر ، فتقف فى حــيرة متخبطــة لا تدرى أين المسير ؟ ولو أن هــؤلاء الكاتبين قــد قرأوا كتــاب الله فى صباهم الغض ، واستمعوا الى تفسيره فى كلياتهم الجامعية لاكتمــل لديهم وعى اسلامى يسيطر على ما يطالعون من آراء المــاديين ، ولكن نظــام الدراسة فى شتى مراحلها قد ساعد على الابتعاد عن حقائق القرآن ، كما غمر آراء الأوربيين ببهــارج خادعة تأخذ العين ، فيستسلم لهــا من جهل حقــائق الكتاب المبــين ، بل ان الغفلة الساهية تدفع بعض هؤلاء الى الاعتقــاد الجــازم بكل ما يقوله فيلســوف غــربى دون نقــاش ! ولست انتقص من قدر العقول المفكرة هناك ولكنى أدعو الى نقاش كل فكرة ثم الى مقارنتها بما نعتقد من آراء نزل بها أصدق كتــاب .

كتب أحد هــؤلاء فى مذكرته الجامعية فصلا عن الدين ، صدره بقول برجسون (انّ الدين كمــا يبدو ليس أساسا للأخلاق ولكنه عون لها ، اذ من الممكن تصــور أخلاق بلا دين) وأخذ يبنى فصله الطويل على هذا النص المختــار ، دون أن يخالفــه فى شىء ، ولسنا ننكر مكانة الفيلسوف الفــرنسى

الكبير (هنرى برجسون) ولكننا لا نستطيع أن تتصور أخلاقا تعيش بغير دين ، لأن الدين هــو الذى يجعل المعيار الخلقى ثابتا لا تميل به العواطف والأهواء ، فلا تجترىء الأقلام المغرضة على تفسيره تفسيرا زائفا ينحــرف به من النقيض الى النقيض ، ولئن تورط متسرع فى هذا الزيف البغيض فانه يجد من عشرات الدارسين لدينهم الصريح من يوقفــه على الوجه الصحيح ! فاستناد الخلق الى نص سماوى يجعله حقيقة لا تقبل الشك ! واذا كان الفيلســوف الــكبير يرى فى بعض الملاحدة من يصنع الخير دون تدين ، فقد رأى الظاهر الواضح ، وغفل عن أن الدين هــو الدعامة الدائمة ، وأن من يفعل الخير دون اعتماد عليه ، لن يثابر على فعله ، وهو نهب غرائز متعارضة لاينجيه من صراعها المشتجر غير عون الهى يدفعــه الى الثبات ، حتى يصبح خلقه الشريف سمة أصيلة فى نفسه ذات رسوخ واطمئنان .

ولعلنا بعد ذلك نلفت كل دارس الى الاستماع الى الرأى المقــابل وتفهمه ، وتكون قيمة هذا الرأى غاليــة ثمينة حين ينبع من كتــاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! فهل من مستجيب .

د. محمد رجب البيومى

في مواجهة الإلحاد المعاصر:

عدم كفاية العلم في مجال المعرفة

للدكتور يحيى هاشم

(١١)

عجز العلم عن تجنب الأخطاء الحتمية :

يقول لويس دى بروجلى :

(لا شك أننا لا نستطيع أن ننسى أنه يوجد دائما فى المشاهدة والتجربة أسباب للخطأ يستحيل استبعادها كلية ، والتى ينبغى على كل فيزيائى مدقق تقدير أهميتها .

واذا كانت مثل هذه الأخطاء مما لا يمكن تلافيه فان المجرب الحاذق سوف يعرف كيف يقللها ..) (١)

فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت النتائج التى توصل اليها العلم مدهشة بحيث أنه لم يكن بالامكان تجاهلها أو الشك فيها ، فالعقائد الأساسية فى الايمان العلمى أخذت شكل تعميمات جارية : (معلومة من العلم بالضرورة ..)

هى :

حفظ الطاقة

قوانين التحريك الحرارية

الانتقاء الطبيعى

النظرية ، الميكانيكية فى الحياة ..

وفوق ذلك كله القول بوجود جبرية ميكانيكية قاطعة ..

والحقائق التى اكتشفتها المختبرات لم تكن بعد قد بلغت الكثرة التى يعجز الى جانبها أى تعميم عن أن يحيط بها كلها .

---

(١) الفيزياء والمكروفيزياء ص ١٢٨ ، وانظر ايضا ص ١٣١ ، ١٣٢

ولم يكن الانهيار الذى منيت به النظرية الفيزيائية التقليدية قد وقع بعد ..

وأما الفكرة القائلة بأن مثل هذه التعميمات ان هى الا مبادىء أساسية فى البحث العلمى ، أو وسائل للتوجيه أكثر منها قوانين للكون ، فلم يكن لها الا تأييد قليل والاطار النيوتونى لم يكن قد حطم بعد .. (١)

يقول هرمان راندال :

(من الواضح تمام الوضوح أن النظريات والمفاهيم العلمية تتغير مع الزمن وأن من يذهب اليوم الى أن أياً من الأفكار الحديثة يعبر عن الاشياء كما هى فى الحقيقة ، هو انسان جرىء) (٢)

ويقول :

(والعلماء هم أول من يسلم بأن مجموع معرفتهم طفيف اذا قورن بما يجب عليهم تحريه بعد ، وأن من الواضح أن فرضياتهم على حد كبير من الفجاجة وعدم الملاءمة فى كثير من المواضيع الخطيرة .

وأن المفاهيم النظرية الأساسية هى الآن فى حالة بالغة من التحول السريع وبالرغم من جميع ما نعرفه فان مجموعات أساسية جديدة كاملة من القوى كالفعالية الاشعاعية قد تكشف فيؤدى اكتشافها الى تعديل جوهرى فى أفكارنا العلمية الحاضرة) . (٣)

ومع هذا فلا يزال يسود اعتقاد عند بعض المثقفين ــ يعمل الالحاد المادى العلمى على ترويجه ــ بأن كلمة العلم لا ترد ..

وهى اشاعة لا تفترق فى قطعيتها وعموميتها عما يستقر فى خلد المؤمنين عن عصمة الامام ، أو عصمة البابا ..

وربما هى ترجع الى فكرة سادت عن منطق أرسطو منذ ظهوره بأنه « تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ .. »

(١) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ٢٨٢
(٢) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ١٣٣
(٣) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ١٢٣ ــ ١٢٤

وربما لأن المنهج العلمى كان هو الوارث للمنطق القديم وهو الوارث للدين فى منطق الالحاد ..

ربما لهذا أو لغيره ورث هذا المنهج دعوى العصمة أيضا ..

يقول هانز ريشنباخ :

(من غرائب الأمور المشاهدة بالفعل ان أولئك الذين يرقبون البحث العلمى من الخارج ، ويعجبون به يكون لديهم فى كثير من الاحيان ثقة فى نتائج هذا البحث العلمى تفوق ثقة أولئك الذين يسهمون فى تقدمه .)

ثم يقول :

(فهو ـ أى العالم لا يزعم أبدا انه اهتدى الى الحقيقة النهائية) .

أما فيلسوف العلم الذى هو أشبه بالحواريين حين يكونون أشد تعصبا من النبى ذاته فهو معرض لخطر الثقة بنتائج العلم ، على أن الافراط فى الثقة بنتائج العلم لا يقتصر على الفيلسوف ، وانما أصبح سمة عامة للعصر الحديث ، أى للفترة التى تبدأ منذ عهد جاليليو الى وقتنا الحالى) ..

ثم يقول :

(**فى حالات** كثيرة حل الايمان بالعلم محل الايمان بالله) . (١)

ثم يقول ريشنباخ :

(**لا عجب ان بدأ العالم الرياضى** أشبه بالة صغير ينبغى **أن تقبل** تعاليمه على أساس أنها بمنأى عن الشك .

وهكذا فان كل مخاطر اللاهوت (**كذا**) **من** قطعية جازمة وتحكم فى الفكر من أجل ضمان اليقين تعود الى الظهور فى أية فلسفة تعد العلم معصوما **من الخطأ**) (٢) .

ويهمنا هنا أن نبين أن هذه العصمة لا وجود لها فى العلم ، كما أنها لا وجود لها فى عقيدة العلماء .

يقول كونانت :

(انى أستطيع أن أكتب مجلدا كبيرا عن الأخطاء التى وقعت فى

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ٤٩ ، ٥٠ : وليعلم القارىء ان ريشنباخ لا يغار على محل الايمان بالله ، ولكنه يريد أن يتركه فارغا .

(٢) نشأة الفلسفة العلمية ص ٥٠

تجارب علم الطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان ، من تلك التى وجـدت سبيلها الى النشر فى المـائة عـام الماضية من آراء لم تثمـــر أبدا ، ومن أحكام مطلقـة ، ونظريات ناقض بعضها بعضا) (١) .

وأرى أن الأخطاء الحتمية التى يقع فيها العلم يمكن تصنيفها الى ما يأتى :

النوع الأول : أخطاء التعميم

وهى الناشئة عن كون العـلم انمـا يتحقـق مـن المفـردات والجزئيـات ، ولا سبيل له الى التحقق من العموميات والنظريات التى يقـررها ويعلنهـا وبعبـارة أخرى ، هى الأخطـاء الناشئة عن عجز العلم عن التعميم الصحيح (٢)

يقول هانزريشنباخ (التعميم هو أصل العلم) .

ويقول الدكتور ليونيل روبى :

(ان العالم يعمم ولكنه يدرك أن أى تعميم لا يمـكن أن يكون أكثر من محتمل لأننا لا يمكننا أبدا أن نكون على يقين من أن عندنا كل البينة ، والمستقبل لا يمكن ضمانه على وجه مطلق ــ حتى كسوف وخسـوف الشمس والقمـر فى المستقبل ..)

ثم يقول مرة أخرى :

(ان التعميم يتضمن دائما قفزة فى الظـلام ما فى ذلك ريب لهـا ما يسـوغها أحيـانا وليس لها ما يسوغها أحيانا أخرى) (٣) .

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(اننا لا نستطيع سوى مشاهدة حقائق متفردة ، ولذلك فاننا عند ما نجرى عملية التحقق ، نفعـل ذلك بالنسـبة للمترتبات المنفـردة لنظـرية ما وليس للنظـريات بالذات) . (٤)

هذا وهناك نوعان من التعميم :

التعميـم المطـرد ، والتعميـم الاحصائى ، والفرق بينهما ، اننا فى النمط المطرد للتعميم تؤكد صفة

(١) مواقف حاسمة ص ٣٣
(٢) أنظر أيضا ما ذكرناه فى عجز العلم عن التعميم
(٣) فن الاقنـاع ص ٣٨١
(٤) الفيلسوف والعلـم ص ١٤٩

مطـردة فى الجنس كله أو الفئـة كلهـا •

أما فى النمط الاحصائى فنؤكد أن خصيصة معينـة تميـز نسـبة معينـة فى الجنس كله أو الفئـة كلهـا •

ومثال الأول تأكيد صفة البياض فى « كل » الأوز العراقى •

ومثال الثانى أن نقـول : ان ٥٣٪ من ذوى الرءوس الحمراء حادو المزاج •

وكمثال لما يقع من الأخطاء فى التعميم المطـرد نذكر أنه طـوال القـرون الماضـية وحتى القـرن التاسع عشر لوحظت أعداد لا حصر لها من الأوز العراقى كلها بيضـاء بدون استثناءات ، فحصل التعميم بأن الأوز العراقى أبيض •••

ثم حدث فى القرن التاسع عشر أن لوحظ منها ما هو أسود اللون فى استراليا (١) •

ويقول الدكتور ليونيل روبى :

(ان الأخطـاء أكثر شيوعا فى التعميمات الاحصـائية منهـا فى التعميمات المطردة اذ يسهل علينـا التثبت من درجـة استيثاق تعميم مطرد :

لأن الاستثناء من النسق المطرد كفيل بهدم القاعدة العامة أو القانون العـام •

أما الاحصـائيات فحيث انهـا لا تقـول شيئا عن أى فرد معـين بذاته فـان الاستثناء هنـا لفظ لا معنى له •

ان الفرد الاستثنائى لا يدحض المتوسط •••

ان أخطــاء الاسـتنتاج فى الاحصاءات كثيرا ما يغفل أمـرها بسبب اللغة الحسابية التى تعرض بها الاحصاءات • ان السحر الذى تنسـجه الارقـام وتصــفيه على البيانات غالبا ما يحول بيننا وبين رؤية الاخطاء التى تنطوى عليهـا المجادلات ، أخطاء كان من شأنها أن تبدو فى غاية الوضوح ويفتضح أمرهـــا لو لم تتسربل بالرداء الحسابى •

(١) فن الاقنـاع ص ٣٨٠ وما بعـدها

وكثير من المدعين والمجادلين المضللين يستغلون هذه الحقيقة .. ويعرضون بيانات مدعمة بالاحصاء لكى يروجوا دعايات مغرضة بدلا من تقديم معلومات واضحة كبيان للناس .

ولقد نتج عن سوء استعمال علم الاحصاءات أن اتخذ الناس من الاحصاءات هزواً واستخفوا بها ، ومن أكثر التعليقات الساخرة فى هذا الصدد :

« أن الأرقام لا تكذب ولكن الكاذبين يرقمون » .

أو : هناك ثلاثة أنواع من الكذب :

الكذب العادى
والكذب الفاحش
والاحصاءات) . (١)

ويقول ليونيل روبى عن الاحصائيات التى يقوم بها معهد جالوب الشهير :

(يتمتع معهد جالوب بسمعة طيبة وطريقته فى اجراء احصائياته الاستفتائية عملية علمية ، ولا يسع المرء الا أن يحترم ما يصدر عنه من نتائج .

ولكن لا يمكن لأى معهد من معاهد اجراء الاستفتاءات — مهما تبلغ اجراءاته من الدقة العلمية والعملية — ان يتلافى امكان الخطأ — أو يضمن الصحة والدقة الا مقترنة بنسبة معينة من الخطأ .) (٢) .

النوع الثانى : أخطاء التنظير :

يقول لويس دى بروجلى :

(اذا كانت النظرية قد أرشدت كثيرا رجال البحث العلمى ، وأثمرت اكتشافات رائعة ...

واذا كانت لازمة لتقدم العلم ...

فانها استطاعت فى بعض الأوقات أن تؤخر خطوات التقدم عندما كنا نعتمد معصوبى الأعين على بعض نتائجها التى هى دائما عرضة للمراجعة .) (٣)

---

(١) فن الاقناع ص ٣٩١ ، ٣٩٢
(٢) فن الاقناع ص ٣٨٨
(٣) الفيزياء والمكروفيزيا ص ٢٨٤

وهى أخطاء ناشئة من طبيعة العلم من حيث اضطراره للعمل فى ظل « نظرية » ما يتمسك بها العلماء لما فيها من فوائد عملية فى بعض الجوانب ، وان كانوا يستريبون فى صحتها ، وذلك الى أن تبدو لهم نظرية أوفق (١) .

ومثال ذلك :

أن القرون الوسطى ورثت عن الكيماويين القدماء — وعن أرسطو — أن العناصر أربعة ، تراب وهواء ونار وماء ، وأفكارا عن العناصر غريبة غير مفهومة ...

وكان على نيوتن وأهل زمنه أن يفسروها وأن ينسقوها فى نسق واحد ..

فبأى وسيلة يمكن ذلك ؟

ظنوا أنهم فعلوا بابتداع أصل جديد سموه « الفلوجستون » .

والفلوجستون عند مبتدعيه آنذاك هو النار نفسها ، وهو وحدة كيماوية لها ذاتية مستقلة تقبل الدخول فى تأليف الأجسام الصلبة .

يقول بشر Becher (١٦٢٥ — ١٦٨٣) صاحب هذه النظرية :

ان المادة اذا احترقت خرج منها فلوجستونها بقوة وتشكل فى الشعلة (٢) .

وادعى بشر أن لهذا الفلوجستون وزنا ، وقال : زن المادة بعد احتراقها تجدها قد نقصت ؟ فلما فعلوا ودققوا الوزن وجدوا العكس ، وجدوا أن فلز المادة يزيد وزنا بعد تكلسه وصيرورته رمادا ، ولكن بشر قدم تفسيره لذلك ، قائلا :

(ان للفلوجستون وزنا سالبا ، واذن فهو عندما يخرج من المعدن يزيد المتخلف منه وزنا . ان الشىء اذا طرح منه شىء آخر له وزن سالب « دون الصفر » فان ما يتبقى منه يفوق وزنه وزن الشىء فى حالته الأولى) . (٣)

(١) انظر ايضا ما ذكرناه عن عجز العلم عن التعميم وبالأخطاء الناجمة عن ذلك فى صفحة ٢٦٢ الماضية .

(٢) بواتق وانابيب لبرنارد جافى ترجمة الدكتور احمد زكى ص ٤٨

(٣) بواتق وانابيب ص ٤٩ .

يقول الدكتور جيمس كونانت :

(فاعجب لشيء اذا أضيف الى آخر نقص وزنه ، واذا خرج منه زاد) • [١] يقول لافوازيه بعد مائة عام من ابتداع الفلوجستون : (لقد حولوا الفلوجستون الى شيء مبهم غاية فى الابهام تتطور طبائعه حسب الظروف القائمة • فهو حينا له وزن ، وهو حينا لا وزن له ، وهو حينا شيء حر طليق قائم بذاته ، وهو حينا شيء متحد بأصل ارضى ، وهو حينا ينفذ من مسام الأوعية ، وحينا لا ينفذ منها ، فهو قلَّب لا ثبوت له يتغير بتغير الأحوال » [٢] •

وكتب بريستلى (الكيميائى العظيم الذى حضر غاز الاكسجين معمليا (١٧٣٣ ــ ١٨٠٤) • كتب يعرب عن اقتناع عصره بهذا الفلوجستون : (أن النظرية الفلوجستونية لا تخلو من مصاعب ، ومن أكبر مصاعبها أنا لا نستطيع أن نزن الفلوجستون ولكن ليس منا من يستطيع أن يدعى أنه وجد للضوء أو للحرارة وزنا) •

وكانت النظرية عند المقتنعين بها نظريا تحتاج الى دعمها باستخراج الفلوجستون وتحضيره معمليا ، وظن الكيميائى الشهير كافندش (١٧٣١ ــ ١٨١٠) •

أنه تمكن من ذلك ، دون أن يتنبه عند ذاك الى أنه لم يكشف عن الفلوجستون عنصر النار ، ولكن عن غاز الأيدروجين [٣] •

وكان العلماء كلما اكتشفوا حقائق جديدة امتحنوها بتطبيق الفلوجستون عليها ، فاذا لم يتفق الفلوجستون مع حقيقة من هذه الحقائق (قام هؤلاء العباقرة ، عباقرة البواتق ، فحوروا الفلوجستون وشكلوه بالذى يتفق مع الحقائق الجديدة) • [٤] •

ولكن لافوازيه رفض هذه النظرية قبل أن يجد لها بديلا ،

---

(١) مواقف حاسمة ص ٢٥٩
(٢) بواتق وأنابيب ص ٥٠
(٣) بواتق وأنابيب ص ٩٥
(٤) السابق ص ١١٩

ووضع مكانه الكالوريك ـ أى الحرارة باعتبارها سائلا خافيا يعرف بآثاره فحسب .

يقول برنارد جافى (أراد لافوازيه أن يتجنب الوقوع فى سخافة الفلوجستون فلم يلبث أن وقع فى سخافة أخرى ... السكالوريك الابن الأبلة للفلوجستون ..) (١) .

وعلق أحد الكيماويين الكبار .. على هاتين السخافتين قائلا :

(انى أحس انى سوف يطول بى العمر لاستمتع بالسير فى جنازة يدفن فيها السكالوريك والفلوجستون فى قبر واحد) (٢)

ثم أجرى لافوازيه تجاربه التى أثبت فيها ان الناتج المتكون من الاحتراق يزيد وزنه على الجسم المحترق بمقدار وزن الاكسجين الذى اتحد بهذا الجسم وهو يحترق .. فلا مادة خفية كالفلوجستون ولا غيرها ، ولا حتى الكالوريك (٣) .

ثم نشر كتابه « رسالة أولية فى علم الكيمياء » هدم به حصن النظرية الفلوجستونية (٤) ، ولما سقطت النظرية علميا فى حياة بريستلى كتب يقول متأسفا (ان أبطال نظرية خاطئة كهذه لا يمكن أن يكون له أثر عظيم فى مستقبل العلم وفى تقدمه .. انى أشبهه بمنارة ترسل الى السفن بضيائها ليهديها فاذا به يضلها ... فابطال نظرية كهذه أن يكن حقا فهو بمثابة هدم منارة كهذه ..) (٥)

يقول برنارد جافى :

(ان بِشَر اعطى الفلوجستون للعالم ، ولفه فى ثوب صفيق أنفق الناس قرنين فى تمزيقه ، ليكشفوا الحقيقة التى خبأها فى طياته .

ولم يمض على موت بِشَر مائة عام حتى قامت مدام لافوازيه وقد ارتدت ثوب قسيسة ، يحيط بها نوابه العلماء فى باريس فأحرقت ما كتب بشر ، وكتب مقتفى أثره أحرقته على مذبح بكنيسة . وبينا كانت الأصوات تعلو بالأغانى

(١) السابق ص ١٢٧
(٢) السابق ص ١٢٨
(٣) السابق ص ١٣٢
(٤) السابق ص ١٣٥
(٥) بواتق وأنابيب ص ٨٨

الـكنسية ، استحالت نظـرية الفلوجستون فصارت رمادا .

ومن هـذا الرماد نبتت كيمياء جـديدة ، هى التى نعرفهـا اليـوم) . (١)

هذه النظـرية ظلت هى السائدة — (بالرغم من اكتشاف جان راى — لبطلانها عام ١٦٣٠ —) (٢) . فى الكيمياء لمدة قرنين تقريبـا ولم يكد يوجد من لم يؤمن بها .

والسبب فى ذلك كما يقول الدكتور جيمس كونانت :

(ان العلمـاء فى شئون العـلم يصرفون أكبر هممهم الى الحقـائق المختلفـة يحـاولون تفسيرها ثم تنسيقها فى نسق واحد عظيم ذلك الذى نسميه بالمشروع التصـورى أو النظرية العلميـة . والمشروع التصورى ان عجز عن أداء واجبه فهو اما أن يعدل أو يؤتى بمشروع آخر يحل محله بنظرية أخـرى . ولكنه لا يطرح اطـراحا ويترك مكانه فارغا لا يملؤه شىء .. ولو ظهر بطلانه) . (٣)

ولنا نحن أن نتساءل هنا :

الى أى حـد يكون علينـا أن تتقبل النظريات العلمية الحديثـة جملة وتفصيلا مهما بدت مخالفـة جزئيا لبعض الحقـائق التى تؤمن بهـا ؟

ألا يجوز أن تكون بعض هذه النظريات الحديثة قائمة لفائدتهـا المؤقتة وأنهـا تنتظر الوقت الذى تنهار فيه لتحل محلها نظرية أحدث تؤدى فائدة أشمل ، وتخـلو من المناقضة لبعض ما نؤمن به ؟

ومن جهة أخرى نقول : الى أى مدى يحق للعلمـاء أن يرفضـوا نظـريات من غـير وادى العـلم الحديث — لمجرد أن بهـا جزئيات لا تتفق مع نظريات العلم الحديث — وبالرغم مما تؤديه من نفع شامل وما تصنعه من تنسيق لحقائق أعم ،

(١) بواتق وأنابيب ص ٦٣

(٢) اثبت جان راى ذلك من قبل ان توجد النظريةالفلوجستونية ، حيث اثبت أن الكلس يزن اكثر من الفلز الذى عنه نشأ ، انظـر مواقف حاسمة ص ٢٤٤

(٣) مواقف حاسمة ص ٢٥٦ وما بعدها

بينما هم فى مجال العلم يقبلون نظريات علمية ويصرون عليها ويواصلون السير فى أثرها مهما يكن فيها من نقص ، كنظرية الفلوجستون هذه ؟

النوع الثالث : أخطاء التطبيق :
يقول جون كيمنى :

(انه حتى لو استطاع عالمان الاتفاق على ما يمكن أن تتوقعه من نظرياتنا فانهما سيختلفان حول الامكانية العملية للتكهن بالمستقبل وذلك نظرا للآراء المتباينة حول الحقائق والشروط اللازمة لتطبيق النظرية ، فقوانين نيوتن كانت تنبئنا تماما بمستقبل النظام الشمسى بشرط أن نعرف بالضبط مواقع الكواكب بالنسبة للشمس فى لحظة معينة .

أما الأخطاء فى التكهنات فقد يكون مردها — من جهة — الى عدم الدقة فى القانون (وهذا ما تبين فى انحراف مدار عطارد) كما قد يرد — من جهة أخرى — الى خطأ بسيط فى تحديد مواقع الكواكب ، الأمر الذى يمكن تخفيفه دون ازالته كلية .

ويتسع نطاق هذه الأخطاء بمرور الزمن ، ومن هنا كانت التكهنات حول المستقبل القريب موثوقا بها أكثر من التكهنات البعيدة المدى . فمن المعروف لدى الذين يقومون بعمليات حسابية كثيرة : أن التصحيح الاعتبارى للأخطاء قد يؤدى الى الخطأ الضئيل فى عملية واحدة وأنه يتضخم باستعمال نتيجتها مرة بعد مرة . وكلما استعملنا النتيجة زاد احتمال الخطأ .

وقد يكون فى تعاطى العقاقير تشبيها حسنا لهذه الحال ، فاذا عمد الصيدلى الى تقوية الجرعة — ولو بمقدار ضئيل — فقد لا يكون لذلك أى أثر يذكر فى بداية الامر ، غير أنه قد يؤدى فى النهاية الى وفاة المريض بدلا من شفائه) (١) .

ومن هنا فان العلماء يرون فى تخلص العلم من مقرراته القديمة

---

(١) ص ٢٧٤ الفيلسوف والعلم ، ولعل فى هذا ما يلقى ضوءا على مسألة تحديد أوائل الشهور القمرية .

السبيل الى انجازات جديدة .. وهكذا دواليك ..

يقول الأستاذ الكسندر دوبروف بأكاديمية العلوم السوفيتية :

(ان احدى وسائل **التقدم** العلمى والفنى يكمن فى التخلص من المفاهيم والقوانين العلمية القديمة) . (١)

النوع الرابع : أخطاء « الاعتقاد » العلمى

وهى الأخطاء التى يتشبث بها العالم بالرغم من يقينه من أن الوضع الراهن للنظرية التى يقترحها يصطدم « بالحقائق » وذلك (لاعتقاده) بصحة نظريته وأنه فى طريقه الى حل معضلاتها .

وبالرغم من أنه فى بعض الاحيان يؤول الأمر الى اثبات صحة النظرية الا أن هذا ـ قبل كشف الصحة ـ لا يخرجها عن كونها أخطاء من وجهة النظر العلمية ويدل على أن العلم يظل قابعا على خطئه القديم ولو تجنب الاعتقاد بصحة « الخطأ » الجديد .

ومن أشهر الأمثلة على هذا التشبث ـ كما يقول الدكتور ليونيل روبى (ماحدث فى عمل مندليف) (٢) . العالم الكيموى الروسى الكبير الذى استكشف قانون « الدورية والتوالى » للعناصر الكيموية . حيث « اعتقد » أن العناصر يمكن ترتيبها فى قائمة دورية ـ شبيهة بجدول التقويم السنوى فوضعها فى مجموعات كل مجموعة من سبعة بادئاً فى المجموعة الأولى (مرتبة أفقيا) بالليثوم وزنه الذرى ٧ ، ثم البيرليوم ٩ ، ثم البورون ١١ والكربون ١٢ ، والنتروجين ١٤ ، والفلور ١٩ .

ثم بدأ مجموعة أخرى فى خط أفقى آخر أسفل الخط السابق ، وبدأ بالصوديوم ٢٣ واضعا اياه تحت الليثوم ، منتهيا فى هذا الخط بالكلور موضوعا تحت الفلور ، ولشد ما كانت دهشته عندما وجد أن الصوديوم يشابه فى خواصه الطبيعية والكيماوية العنصر الذى

---

(١) العلم والظواهر الخارقة ص ٦٠.
(٢) فن الاقناع ص ٣٢ .

هو أعلاه ، وهو الليثوم ، والكلور يشـابه الذى فى أعـلاه ، وهـو الفلور •

وهكذا استمر فى صنع جدوله ، وهكذا استمرت العناصر المتشابهة تترتب بحيث تقـع بعضـها تحت بعض • ففى العمـود الأول وقعت العناصر الفلورية الفعالة جـدا وفى العمـود السابع وقعت العنـاصر الأشد تفـاعلا من غير الفلزات ـ الفلور ، والكلور ، والبوردوم ، واليود •

بذلك اكتشـف منـديليف ان خواص العنـاصر دورية الورود ، ترد وتعود بارتفاع أوزانها الذرية ، وهى تعود بعد فـوات كل سبعة منهـا •

ودقـق منـديليف فى جـدوله فاكتشف غلطته ، فهذا هـو اليود يقـولون ان وزنه الذرى ١٢٧ ، وهذا هو التلريوم يقولون ان وزنه الذرى ١٢٨ ولو استجاب لهـذا القول لكان موضعهما فى الجدول يهدم نظريته التى اعتقد اعتقـادا جازما بصحتها • وبنـاء على ذلك ـ وعـلى ذلك فقط ـ أعلن فى الناس ان الوزن الذرى المعـروف لعنصر التلريوم وزن خاطىء ، وأن وزنه الذرى لا يمـكن أن يكون ١٢٨ ، وانه لا بد ان يكـون بين ١٢٣ ، ١٢٦ •

وانتظارا لما سيحدث فى الغـد ـ طبقا لاعتقاده ـ وضع التلريوم حيث رأى هو أن ذاك موضعه ، وكتب له وزنه « الخاطىء » •

وجاء المستقبل ، وجرت البحوث فـدلت عـلى أن منديليف كان « مصيبا » فى « خطئه » •

ثم دقـق منديليف النظـر فى جدوله فوجد مشكلة أخرى بالنسبة للذهب ممـاثلة لمشكلة التلريوم ، وأصر أيضا على عقيـدته قائلا : (اذا كان فـرضى لا ينسجم مع ارقامهم فجدولى صحيح وارقامهم خاطئة •) ومرة أخـرى صححت المـوازين وأصـبحت موافقـة للنظرية •

ثم وجد هناك مشكلة ثالثـة ، هى أن بعض الخـانات فى جدوله فارغة ، ولو ظلت كذلك لا نهـدم

الجدول وتبددت النظرية فأعلن عن اعتقاده وجود عدة عناصر ـ لم تكن قد كشفت بعد ـ وما ذلك الا لتملأ بعض الخانات الفارغة . وأصر على ذلك ، وبالفعل تم اكتشاف بعض العناصر : شبيه البورون ، شبيه الالمنيوم ، شبيه للسليكون .

(يقول العالم الكيموى الامريكى هنرى بلطن ١٨٤٣ ـ ١٩٠٣ ـ :

ان القانون الدورى لمنديليف أعطى الكيمياء تلك القوة المهيبة ، قوة التنبؤ بالغيب ، التى اختص بها من قبل أخوها علم الفلك .)

ومع ذلك فقد جاء من بعده العالم الكيمائى الانجليزى الكبير مصلى (١٨٨٧ ـ ١٩١٥) وأحدث تعديلات مهمة فى جدول منديليف ، وأوجد جدولا جديدا مبنيا على العدد الذرى لا الوزن الذرى وبالرغم من ذلك أيضا ظل فى جدول مصلى خانات فارغة واكتشفت بعده (١) .

النوع الخامس :

أخطاء التزييف « الحسى »

يعتمد العلم الحديث ، على منهجه التجريبى الذى يقوم على استخدام الحواس .

وصحيح ان العلم يمتحن ادراكات الحواس امتحانا قاسيا ، ويطمح فى النهاية الى وضع مقوراته فى أقصى ما يمكن لها من صور التجريد ، أو المعادلات الرياضية ... الخ . الا انه مع ذلك ـ وبالرغم من ذلك ـ لا يمكنه الا ان يكون ابنا بارا لهذه الحواس ، يرتبط بها أوثق رباط فى بدايته ، ومساره ، وغايته على السواء ـ وقد يبدو لنا ـ وهو فى الحق كذلك ـ متمردا على حكم هذه الحواس فى بعض قضاياه المبدئية ، الا أن هذا التمرد ناشىء من جذب الحقيقة له خارج نطاق الحس ، وليس ناشئا ، مما يظن انه تحرر من رباطه الوثيق ومن هنا فان العلم لا ينجو ـ ولا يمكن ان ينجو ـ

---

(١) انظر بواتق وانابيب ص ٢٥٦ الى ٢٦١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٢

من الوقـوع فى شرك « التزييف الحسى » .

ولن أذهب هنا وراء ذكر أمثلة ساذجة أو معبرة تعبيرا وقتيا عن الاخطاء التى يقع فيها الحس مما نعـرفه جميعا فى نقـد « المعـرفة الحسية » ولكننا نذكر ذلك النوع من « التـزييف » الجبرى الذى يقوم به الحس فى عمليـة ادراكه للوقائع ، والذى كشف عنه العلم التجريبى الحديث .

ولن أقدم مفهوم هذا التزييف بأفضل مما يقدمه لنـا الفيلسوف الملحد برتراندرسل :

يقول برتراندرسل :

(العلم يقر بأننا حـين « نرى الشمس » تكون هناك عملية تبدأ من الشمس وتجتاز المكان الواقع بين الشـمس والعـين ، وتتغـير خاصيتها حين تصـل الى العـين ، وتتغير هذه الخاصية مرة أخـرى فى العصب البصرى والمخ . وفى النهاية تنتج الحـادثة التى نسميها « رؤية الشمس » وعلى ذلك فما أراه ليس هو الشمس التى تبعـد عنى ملايين الاميال بل هو حـادثة (جاءت كحلقة أخـيرة فى سلسلة عليـة بدأت مـن تلك الشمس الفيزيقية) . (١)

ويقـول :

(فنحن نعتقد ـ مثـلا ـ بأن الضوء يشتمل على موجـات من نوع معين الا انه حين يتصل بالعين يتحول الى عملية فيزيقية مختلفـة ـ فما يقع ـ اذن ـ قبل أن يصل الضوء الى العين شىء من المفترض انه مختلف عن ما يحدث بعد ذلك واذن فهـو مختـلف عن المدرك الحسى البصرى .

وهـذا يعنى ان المدرك الحسى الذى يقع فى الخبرة لا يكون نفس الشىء حين يتصل بجسم حى ويصبح مدركا حسيا بالفعل) .

وهـو يقـول ايضا :

(ان المدرك الحسى يتحول حين يتصل بالجسم الحى ـ الى « عملية فيزيقية مختلفة » أى يصبح شيئا آخر مختلفا اختلافا تاما) (٢) .

---

(١) برتراندرسل للدكتور محمد مهران ص ٨١

(٢) برتراندرسل للدكتور محمد مهران ص ٩٤ ، ٩٥

ويقول (ثمة طائفة من الحوادث تقع فيما بين العين والمخ .. يدرسها عالم وظائف الأعضاء ، والشبه بينها وبين الفوتونات فى العالم الخارجى ضئيل ضآلة الشبه بين موجات الراديو ، وبين خطبة الخطيب .

وأخيرا يصل اهتزاز الاعصاب ـ هذا الاهتزاز الذى يتعقبه عالم وظائف الاعضاء ـ الى المنطقة المناسبة من المخ فيبصر صاحب المخ النجم .

ويتحير الناس لأن ابصار المخ يبدو لهم مختلفا كل الاختلاف عما اكتشفه عالم وظائف الاعضاء من عمليات فى عصب الابصار ، وبالرغم من انه يبدو من البين ان الانسان لن يبصر النجم بدون هذه العمليات) . (١)

واذا كان رسل يعقب على ذلك بانكار افتراض هوة بين العقل والمادة ، كما يذهب الى ذلك بعض الناس استنتاجا مما تقدم (٢) ، فان هذا راجع الى فلسفته عن النسيج المحايد الذى يسميه الاحداث ، ولا يرجع الى اقراره بأن المدرك الحسى ـ مطابق للواقع الخارجى .. ومما يوضح ذلك قوله :

(ان الاحساسات ـ حتى ماكان منها بصريا أو سمعيا ـ هى احداث غير ذات طبيعية علاقية .

ولست أعنى ـ بطبيعة الحال ـ اننى حينما أرى شيئا ما لا تقوم بينه وبينى علاقة .

ولكن ما أعنيه بالفعل هو ان هذه العلاقة ليست مباشرة بالقدر الذى كنت أتصوره . وأن كل ما يحدث فى داخلى عندما أرى شيئا ما يمكن ـ من حيث بنائه المنطقى ـ ان يحدث بالضبط دون أن يكون فى الخارج ما أراه ..) (٣)

---

(١) فلسفتى .. ص ١٥
(٢) المصدر السابق ص ١٦
(٣) فلسفتى كيف تطورت ص ٦

النوع السادس من الأخطاء العفوية

وهى الأخطاء الناشئة عن كون العلم نتاجا انسانيا يخضع بالضرورة لما يخضع له الانسان العالم من ضعف أو قصور فى بعض قدراته . مثال ذلك :

فضيحة (أشعة ان) كمثال صارخ على أخطاء علمية خطيرة : يقول ايزتك :

(يتضمن تاريخ العلم دلائل كثيرة على الأخطاء والغلطات الناجمة عن ثقتنا المبالغ فيها فى قدرة الانسان .

وهناك مثال مثير على ذلك وهو الخاص بأشعة (ن) التى زعم البروفيسور م. بلوندلوت انه قد أكتشفها عام ١٩٠٢ وهو فيزيائى بارز فى جامعة نانس وعضو فى أكاديمية العلوم الفرنسية . وقد جاء كشف بلوندلوت بعد اكتشاف رونتجن لأشعة × بست سنوات وسرعان ما تأكد هذا الاكتشاف فى معامل أخرى على يد فيزيائيين بارزين جدا . وقد تحدد وجود هذه الأشعة بوسائل استعين فيها بالعين اذ لم يكن فى الامكان تسجيل أشعة (ن) على أجهزة فوتوغرافية . وقد تحدث ا. زفوجت ، و.. هايمان ، اللذان سجلا هذه القصة فى كتابهما (سحر الماء فى الولايات المتحدة الامريكية) عن كثير من تطبيقات أشعة (ن) هذه . فقد استخدمها كورسون فى الكيمياء ودرس (لامبرت) وصاير ، أثرها على الظواهر البيولوجية وعلى النباتات أيضا . ووجد شارينتر أن الضغط على أحد الاعضاء يصحبه اطلاق أشعة (ن) ، وفحص بروكا وهو أخصائى المخ الشهير العلاقة بين أشعة (ن) والمخ .

ومع ذلك فقد حاول فيزيائيون آخرون أن يحصلوا مرة أخرى على أثر ، الأشعة (ن) فحصلوا على نتائج سلبية وقد أثار النقاش اهتماما عالميا عندما وجد أن أشعة (ن) لا يمكن العثور عليها الا على أيدى العلماء الفرنسيين .

وأخيرا زار د. هـ. وود وهو الفيزيائى الشهير من جامعة جونز هويكنز معامل بلوندلوت شخصيا

ليرى لماذا فشل الفيزيائيون الآخرون فى الحصول على نتائجهم .

وفيما يلى بعض ما كتبه هو عن زيارته : يقول :

(وهكذا زرت نانس قبل أن ألحق بعائلتى بباريس ، وقابلت « بلوندلوت » حسب موعد سابق فى معمله فى وقت مبكر من المساء ونظرا لأنه لم يكن يتكلم الانجليزية فقد اخترت الالمانية وسيلة لتفاهمنا اذ اردت أن يشعر بالحرية عندما يريد أن يتكلم مع مساعده الذى كان من الواضح انه مساعد معمل من نوع راق « كان وود بالطبع يفهم ويتكلم الفرنسية جيدا ، وقد أرانى فى البداية بطاقة رسمت عليها بعض الدوائر بلون متألق ثم أطفأ المصباح الغازى وجذب انتباهى الى الاضاءة المتزايدة عندما انطلقت أشعة (ن) فقلت اننى لم أر تغيير فقال ان ذلك يرجع لأن عينيك ليستا حساسيتين بدرجة كافية ، وهكذا لم يثبت أى شىء وسألته ما اذا كان فى امكانى أن أحرك شاشة غير شفافة من الرصاص فى طريق الاشعة بينما هو يحدد التغييرات عبر الشاشة ولقد كان مخطئا ١٠٠٪ فقد حدد حدوث تغييرات بينما لم آت أنا بأى حركة ، ولقد أثبت لى هذا الكثير ولكننى أمسكت لسانى) .

ولقد قام (وود) بعدد آخر من الاختبارات محاولا بوضوح اثبات ان أشعة بلوندلوت غير موجودة الا فى خيالاته فقد زعم بلوندلوت انه يستطيع أن يرى وجه ساعة معتمة من خلال حائل معدنى بالاستعانة بأشعة (ن) ولقد وافق على أن يمسك (وود) بالحائل المعدنى أمام عينيه ، ولكن (وود) كان قد استبدل سرا دون أن يعرف بلوندلوت ــ الحائل المعدنى بمسطرة خشبية حيث لم يلحظ بلوندلوت هذا التغيير فى المعمل المعتم ومع ذلك فقد استمر (يرى) الساعة من خلال المسطرة مع أن الخشب كان أحد المواد القليلة التى زعموا أن أشعة (ن) لا تنفذ منها .

ولقد استبعدت على الفور فكرة أشعة (ن) كلها من الفيزياء بعد أن نشر (وود) ما اكتشفه من انها مجرد نتيجة لأخطاء . (١)

النوع السابع : الأخطاء العمدية :

وهى الأخطاء الناشئة عن كون العلم تاجا لانسان يخضع لما يسيطر على الانسان العالم — فى بعض الأحيان — من ضعف خلقى كحب للظهور ، أو خراب فى الذمة ... الخ.

وان المرء ليستبعد أن يحدث فى وسط ما من أوساط الفكر الانسانى فضيحة عارمة كالتى حدثت فى معقل العلم الحديث حول اسم عالم النفس البريطانى الشهير سيريل بيرت ؟

عندما توفى سيريل بيرت عام ١٩٧١م وهو فى الثامنة والثمانين من العمر كان يتمتع — كما يقول الدكتور أحمد أبو زيد — بقدر هائل من الاحترام والشهرة والقوة والنفوذ فى الاوساط العلمية والرسمية لم يبلغها عالم آخر منذ أيام وليم جيمس .

وكانت آراؤه بمثابة حجر الزاوية فى بناء نظرية متماسكة عن دور الوراثة فى الذكاء ، ولقد قام بيرت نفسه وكثير من أتباعه وتلاميذه بعدد كبير من التجارب تؤكد ذلك الاتجاه ..

والآن يتعرض كل ما تركه للرياح بعد أن ظهر من العلماء من يتهم بيرت بأنه كان يزيف النتائج ويزورها بل انه كان يتحدث عن تجارب واختبارات لم تحدث أصلا وينشر دراسات ومقالات تحت اسماء وهمية للمؤلفين وباحثين لا وجود لهم .. ويملأ تلك المقالات بالمديح والثناء على شخصه واسمه .

وكما ذكرت احدى المجلات التى أشارت الى هذا الاتهام الخطير فان الأثر الذى نجم عن هذا الموقف الجديد لا يقل عن

(١) الحقيقة والوهم فى علم النفس ص ١٢٥ — ١٢٧

الاثر الذى يمكن أن ينجم عن افتراض أن تشرلس داروين لم يقم مثلا برحلته الشهيرة على ظهر الباخرة بيجل التى ترتب عليها ظهور نظريته عن التطور وأصل الأنواع ، وأنه قام بتلفيق الحقائق والوقائع وبالتالى تزوير النتائج التى ظهرت فى كتابه الشهير ، وان هذا الكتاب ليس شيئا سوى تخيلات وأوهام نبعت فى ذهن داروين وهو يدخن الافيون .

وليست هذه هى الحالة الأولى أو الوحيدة فى تاريخ تزييف العلم وتزوير النتائج لتحقيق أهداف خاصة قد تكون متعلقة بالرغبة فى الظهور وحب الشهرة ، أو التمسك بالخطأ الذى أوصل الى المجد .. ، ولعل فضيحة سيريل بيرت تذكر بفضائح أخرى قريبة ، منها فضيحة مشابهة كان لها دوى هائل منذ ما يقرب من ربع قرن ، وبالذات فى عام ١٩٥٣ حين نشر فاينزوكلارك كتابهما الذى فضحا فيه « أكذوبة بلنداون » ، وبلنداون اشارة الى اكتشاف انسان بلنداون الذى ادعاه تشارلس دوسن .

ففى عام ١٩١٢ أذاع شارل دوسون نبأ أكتشاف أجزاء من جمجمة وفك فى حفرة ببلدة بلندون فى جنوب انجلترا ، ولما أعيد تركيب هذه الاجزاء تبين انها — جمجمة انسان حديث ذات فك أسفل يشبه فك القرد . وقد أثار انسان بلنداون هذا جدلا طويلا مثيرا بين المشتغلين بدراسة عصر ما قبل التاريخ . لأنه كان يشبه أن يكون هو الحلقة المفقودة بين الانسان والقرد .

وقد سلم بصحة هذه البقايا عدد من ثقات العلماء ..

وأخيرا : أسفرت الدراسات والاختبارات فى عام ١٩٥٣ عن أن جمجمة بلنداون مزورة وانها جمجمة رجل حديث ، وان الفك والاسنان لقرد حديث وان هذه الاجزاء عولجت كيمائيا ، بحيث تبدو حديثة وصحيحة .

ثم وضعت فى حفرة من الحصباء بواسطة رجل مجهول ..

وقد تم اكتشاف زيف هذه الحفرية بفضل تقدم الطرق العلمية الحديثة (١) ولم يكن من الممكن كشفه فى حينه .

وفى عام ١٩٧٥ اكتشف فى أمريكا بعض محاولات التزييف فى المجال الذى يعرف الآن باسم البارسيكولوجى ، للارتفاع بمستوى ذلك الاتجاه واضفاء الطابع العلمى عليه . وقد تم ضبط أحد الباحثين الرئيسيين ، وهو يحاول التدخل فى احدى التجارب واضطر الى الاستقالة .

ومن هنا فكما يقول الدكتور أحمد أبو زيد (يجب أن تحتل قصص التزييف العلمى مكانا فى تاريخ العلم الى جانب الجهود الفاشلة من جانب والانجازات الناجحة من جانب آخر ، سواء بسواء) . (٢)

***

والخلاصة ان دعوى عصمة العلم اشعاعة يتبادلها انصاف المثقفين وتروج لها أبواق الالحاد ، وهى بالتأكيد ليست نابعة من المنهج العلمى أو من العلماء .

د. يحيى هاشم حسن فرغل

---

(١) أنظر (رسالة اليونسكو الصادرة باللغة العربية العدد ١٣٦ عدد أكتوبر ١٩٧٢ ص ٦٤)

(٢) مجلة عالم الفكر عدد أبريل ـ يونية ١٩٧٧ ، مقال ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع للدكتور احمد أبو زيد ص ٢٣٣ وما بعدها .

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية
بقلم الدكتور محمد شامه

(٦)

البــاب السادس
اسهام الاسلام فى الحضــارة العالميــة

ويشتمل على :

١ ــ الشرق والغرب :

* أسهم الشرق الاسلامى ــ فى نفس الوقت الـذى أنتج العقـل الأوربى فيه الكاتدرائيـات ذات الفن القوطى المعمارى ، وظهر فيه الصراع على الانفـراد بالسـيادة والسـلطة بين القيصر والبـابا ، وازدهرت فيــه مثاليـة الفروسية ــ فى الحضارة العـالمية ــ تحت ظل حماية القوة النامية منذ القرن الثـامن الميـلادى ــ بانجـازاته الضخمة فى مجالى : الفكر والفن ، ولم يتوقف تيار التجديد والمعرفة حتى طمر التيار المغـولى منبعــه النقى الفياض ، لكن ما أفاضه ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر قرون مليئة بالاحداث والتقلبات العنيفة حتى عصرنا الحالى .

* لم تزدهر التجارة والزراعة والصناعة فقط فى القرنين الثـامن والتاسع الميلادى ازدهارا لم يتوقعه أحـد ، بل تدفق تيار فـكرى ، احتوى ما فى آسيا وأوربا ، وصبه فىقلب المملـكة الاسلامية ، التى هضمته ، وصاغته صياغة جديدة ، فكان هذا هو البذرة التى انبتت الحضارة الاسـلامية العربيـة ، فأصبحت بغداد لؤلؤة المدن فى كل بقاع العالم الاسلامى ، من الهنـد حتى أسبانيا ، ومن البحر الاسود

حتى الجنوب العربى . حدث هذا فى عصر القرون الوسطى الأوربى ، ولكنه لم يكن قرونا وسطى بالنسبة للعالم الاسلامى ، بل كان أسمى العصور وأبهاها ، عصر النموذج الحضارى الذى أستمر ألف عام ، فأنقذ الشرق من ظلام العصور الغابرة .

* تكمن اصالة هذه الخصائص الحضارية فى العالم الاسلامى ، فلم يكن ظهور التيار الحضارى فجائيا ، يظهر ويختفى مثل الظواهر الطبيعية ، بل كان معالم حقبة عظيمة ، امتد تأثيرها الفكرى — حتى التدهور السياسى — فى جميع أنحاء العالم ، فأنتج فى مجالات عديدة ، لم تبحث كل جوانبها حتى الآن .

٢ ـ اللغة العربية :

* انتشرت اللغة العربية مع الفتح الاسلامى فى خطين متوازيين ، اذ تسبب عدم جواز قراءة القرآن الكريم الا باللغة العربية (١) فى دفع كل مسلم الى محاولة تعلمها ، كذلك كان استعمال اللغة العربية فى ادارات الدولة من عوامل انتشارها فى مناطق الدولة المتعددة ، فدخلت كلمات كثيرة منها فى لغات ولهجات الشعوب الأخرى ، وبالاضافة الى هذا فقد استعملت اللغة العربية فى مجال الدين والعلم عند الاتراك ، والفارسيين ، والهنود ، والملاويين .

---

(١) اختلف العلماء فى جواز ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الأخرى فحرمها بعضهم تحريما قاطعا استنادا الى أن الوحى هو كلام الله المنزل على نبيه باللغة العربية ، فاذا ترجم ذهبت عنه هذه الصفة ، لأنه — بعد ترجمته — تعبير المترجم لمعنى القرآن ، وليس هو القرآن ، لأن الصياغة اللغوية تختلف من شخص لآخر ، ولذا فهى تحمل ملامح المترجم الفكرية ، فتخرج بذلك عن دائرة الوحى ، غير أن بعضهم أجاز ترجمة معانى القرآن الكريم ويعتبرون ما ترجم الى اللغات — عن طريق المستشرقين — انما هو ترجمة لمعانى القرآن وليس لنصه ، وعليه فلا يجوز قراءة القرآن بغير اللغة العربية الا على أعتبار انها ترجمة لمعناه ، وبقصد التعليم — لا للتعبد — لمن عجز عن تعلم اللغة العربية ، فهو يقرؤها لمعرفة ما فيه من أحكام وتشريع هذا فى غير الصلاة ، أما فى الصلاة فالراجح عدم جواز قراءة الفاتحة الا باللغة العربية .

وكما اقتبست اللغــات الأوربيــة مصطلحات عديدة من اللغة اللاتينية واستعملت حروفهــا فى الكتابة ، دخلت أيضــا كلمــات عربيــة فى اللغات : التركيــة ، والاوردية ، والفارســية ،: واســتخدم الخط العربى فى كتابتها •

❋ وصلت الحضــارة العربية الى أوربا عن طــريق أســبانيا ، فحملت معهــا تعبيرات لغــوية ، يستعملها الســكان الآن دون أن يعــرفوا مصــدرها ، فالاسبانيون يستعملون كلمات عربية عديدة فى لغــة تخــاطبهم ، كذلك تذكرنا الكلمات العربية التى تستعمل فى اللغــة الالمانية • بعصر ازدهــار الاســلام ، فهنــاك العــديد من الكلمات العربية المستعملة فى كل مجالات الحياة اليومية ، وفى مجال علم الطبيعة ، فمثلا :

كلمة « Alkohal »
هى الكلمة العربية : « الكحول »
وكلمة « Sirup »
محرفة من كلمة : « شراب » •
وكلمة « Damast »
مأخوذة من كلمة « الدمقس » •
وكلمة « Magazin »
من كلمة : « مخزن » •
وكلمة « Gitarre »
من كلمة « قيثارة » •
وكلمة « Algibra »
هى كلمة « الجبر » •
وكثير غيرها •

❋ قدمت اللغــة العربية للعالم خدمة جليلة • فى مجال المعــرفة ، فهو مدين بالشــكر للدور الذى قام به العــرب فى حفظ الثقــافة الاغريقية • فقد بدأ اهتمام العرب بما انتجته الشعوب ــ سواء كانت خاضــعة للدولة الاســلامية أو مجاورة لها ــ فى العصر العباسى ، حيث ترجمت العلوم والمعارف من اليونانية والفارسية ــ ومن الهند أيضا ــ الى اللغة العربيــة ، وكان الاهتمام الاكبر فى الترجمة منصبا على ما دون فى اللغة اليونانيــة فى مجالات الرياضة والفلك والجغرافيا والطب ، فأوصل ذلك الى الاهتمام أيضا بالفلسفة وعلوم الطبيعة •

❋ لو لم يقم العــرب بهــذا المجهود الضخم فى مجال المعــرفة

لفقدنا كثيرا مما تتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العلوم والمعارف اليونانية — أو لتأخر على الأقل انتفاعنا به دهورا طويلة — فما لم يصلنا مباشرة من اللغة اليونانية أخذناه مما ترجمه العرب الى اللغة العربية . غير أن الاهتمام بالحضارة اليونانية كان من الدوافع القوية لظهور حضارة عربية اسلامية أصيلة ، أتخذت بغداد مركزا لها ، تلك المدينة الزاهرة — فى وقت كان ظلام العصور الوسطى مخيما على أوربا — التى أجتمع فيها التجارة والسياحة مع تبادل الأفكار والفنون والعلوم ، فبدت فى منتدياتها معالم الثراء ، وفى قصورها أبهة العظمة والسلطان

٣ — التعليم والكتب :

✽ تطور نوع خاص من طبقة الاقطاع فى المملكة الاسلامية تطورا كبيرا جدا ولكن الشعب على اختلاف طبقاته لعب دورا مهما فى الحياة الثقافية ، ولا يمكن أن يحدث هذا الا فى حالة انتشار التعليم انتشارا واسعا ، فقد تسابق كل من المذهب السنى والشيعى فى كسب المزيد من الاتباع فى المجتمع الاسلامى ، فأدى ذلك الى بذل الجهد فى كلا المذهبين لانشاء مدارس لتعليم الناس مبادىء المذهب واتجاهاته وعليه فقد أنتشرت المدارس منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق العالم الاسلامى من أسبانيا عبر شمال افريقيا حتى بلاد فارس ، والتحق بها الاطفال من سن السابعة ، وكانت مواد التعليم فيها : القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، ثم يختار الطالب بعد ذلك مواد أخرى مثل : تحسين الخطوط ، والعلوم الدينية والحساب والشعر ، ثم أنشئت فيما بعد مدارس لاعداد الدارسين لتولى مناصب مختلفة فى أنحاء الدولة فكان مستواها عاليا .

✽ واختير للتدريس بها علماء مشهورون ، وكانت المدرسة النظامية التى أنشأها الوزير السلجوقى نظام الملك فى بغداد عام ١٠٦٥م نموذجا يحتذى فى كل ما أنشىء بعدها من مدارس ، سواء فى اعداد سكن خاص

للدارسين ، أو فى المواد التى كانوا يدرسونها وهى : العلوم الدينية ، وعلوم اللغـة العربيـة ، والفقـه والتاريخ والطبيعة من زاوية اتصالها بالـدين • انتشـرت المـدارس المماثلة لهذه المدرسة فى جميـع أنحاء العالم الاسلامى ، وكان عدد المقبولين فيها محدودا ، حصـل المتفوقون منهم على منح دراسية •

❋ أمدت المدارس العليـا التى أنشئت فى قرطبـة و « سيفيلا » و « توليدو » •• بأسبانيا الحياة الثقافية الاوروبيـة بروافد حملت معها عناصر الخصوبة ، وبدأ هـذا بترجمة الكتب العربية الى اللغـة اللاتينية فقد أنشىء لهذا الغـرض مدرسة للترجمة فى « توليدو » فى النصف الاول من القرن الثـانى عشر الميلادى ، فضمت مكتبتهـا العديد من المراجع العربيـة التى أعدت للترجمـة الى اللاتينيـة • وجدير بالذكر هنا ان اللغة العربية كانت فى ذلك الوقت لغة المثقفين •

❋ تعلم العرب صـناعة الورق من الصينيين بعد فتح سمرقند فى منتصف القرن الثامن الميـلادى ، فأنشىء فى بغـداد مصنع للورق ، ثم انتشرت هذه الصناعة فى غضون ستة قـرون عبر شـمال افريقيـا واسبانيا وفرنسا حتى وصلت الى أنجـلترا ، الا أن تجـارة الكتب ازدهرت فى بغداد منذ نهاية القرن التاسع الميلادى ، فربح العلمـاء والطلاب كثيرا من نسخ الكتب ، لكن المؤلفين لم يتقاضوا أجرا على ما ألفـوه •

❋ أنشئت المكتبات فى المساجد، كما ضمت المدن الـكبرى دورا للكتب العامة كان يقصدها الجميع للاطـلاع على ما يريدون ، كمـا حرص الاغنياء على اقتنـاء الكتب للفخر والمباهـاة ، وانفق العلمـاء أيامهم فى دراستها مع تلاميذهم •

❋ يرجع الفضـل فى استمرار اللغة العربية وتبوئها مكانا مرموقا بين لغات العالم الى الجهود الجبارة التى بذلها العلماء فيما أرسوه من بناء فى مجـال النحـو والمعـاجم اللغـوية ، والعـلوم الانسانية ، ودوائر المعـارف ، وكان العصر عصرا ذهبيا أيضـا للمؤرخين ، الـذين ندين لهم بالشـكر عـلى

ما سطروه من أحداث المملكة الاسلامية وما سجلوه لنا عن حياة الفلاسفة والعلماء ، واخبار الملوك وكبار رجال الدولة ... وقد قام ابن النديم بأصعب عمل ، حيث سجل الكتب والمصنفات التى كتبت باللغة العربية .. اذ انتجت الحركة العلمية الواسعة كثيرا من الكتب لم يصل الينا منها الا النذر اليسير ، فما أكثر ما اختفى منها فطواه النسيان .

٤ ــ النهضة العلمية :

* انتقلت المعارف اليونانية الى المسلمين عن طريق الترجمة ، فقد اهتم الخلفاء بالحصول على الكتب الطبية والرياضية من قصر القيصر البيزنطى عن طريق ارسال رسلهم الخاصة لهذا الغرض . وقام الطبيب النسطورى حنين بن اسحاق ومساعدوه بترجمة معظم مؤلفات « جالينوس » وتلامذته من السريانية الى العربية وكذلك أهم مؤلفات « أفلاطون » و « بقراط » و « ارسطو » فلم يأت منتصف القرن التاسع الميلادى الا وقد ترجمت مجموعة كبيرة من المراجع اليونانية فى الفلك والطب والرياضة الى اللغة العربية .

أهتم المسلمون اهتماما كبيرا بالمعارف اليونانية فى مجال الطبيعة .. ومالوا فى مجال الشعر الى الفارسيين ، ولكنهم اكتشفوا معارف هندية أيضا بجانب العلوم اليونانية فى مجال الهندسة فقد أخذوا العشر والصفر من المؤلفات الهندية الهندسية . وفى مجال الجبر ــ الذى يعرف فى اللغات الاوربية باسمه العربى ــ توصل بعض علماء المسلمين فيه الى أشياء تنم عن عبقرية المسلمين فى هذه الابحاث ، اذ توصل محمد ابن موسى الخوارزمى (٧٨٠ ــ ٨٥٠م) من الاعداد الهندية الى رسم لكتابتها ، كان أساسا للرسم الأوربى الحالى للارقام الحسابية ، وظل الجدول الفلكى الذى وضعه ــ وكذلك جدوله فى حساب المثلثات والمربعات المتساوية ــ المرجع الوحيد لعدة قرون . كما عرفت أوربا حياته عن طريق

ما ترجمه « »
Gerhard Von Crimona
فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فدخلت مصطلحات علم الجبر الى أوربا عن طريق هذه الترجمة ، وهو ما ينم عن عبقرية فى مجال علم الحساب الفلكى .

* ترجم « جرهارد فون كريمونا » ـ وقد أقام فى « توليدو » بأسبانيا وتعلم اللغة العربية ـ ما يقرب من مائة مرجع علمى من العربية الى اللاتينية ، ومن بينها « مبادىء الهندسة » و « اقليدس » و « المجسطى » لـ « بطليموس » ومؤلفات البطانى، وارشميدس ، والفارابى والخازن .
ويرجع الفضل فى دقة حساب دورات كواكب الفضاء : الشمس والقمر والكواكب السيارة الأخرى لأبحا ث البطانى .

* اختير كثير من الفلكيين الذين كانوا فى خدمة الخليفة المأمون النظرية البطليموسية فى هيئة الافلاك ، فأثبتوا خطأها ، ووصلوا الى ما يؤكد ان مواقع الشمس وقطرها يتغيران ، وأن كسوف الشمس وخسوف القمر يقعان فى أزمان محددة .. ويمضى المؤلف فى بيان ان المسلمين قطعوا شوطا كبيرا فى أبحاث الفضاء ، فكان عندهم الأدوات الهندسية مثل الزوايا والدوائر وتربيعها .. و .. و .. الخ .. وظل الشكل الاسلامى لحساب الدوائر مستعملا فى أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادى .

* ولما كان اتساع المملكة سببا فى تنشيط حركة التجارة شرقا وغربا ، تطلب ذلك معرفة الطرق والالمام بمسطحات الأرض ، فأدى ذلك الى البدء فى رسم الخرائط الجغرافية ، ووصف طبيعة البلاد . فقد وصف العرب فى عام ٨٥٠م ـ أى قبل أن يكتب «ماركوبولو» مؤلفه عن الصين بعدة قرون ـ عادات الصينيين وتقاليدهم الاجتماعية ، اعتمادا على ما رواه أحد التجار العرب بعد رحلة قام بها الى الصين ... كذلك عرف العرب الكثير عن الهند وسيلان والصين مما كتبه الرحالة العرب ، كما ضم فتوح البلدان الذى كتب

فى القرن التاسع الميلادى وصفا للمملكة الاسلامية بجانب ما سطر فيه عن كثير من البلاد والمناطق الأجنبية • وبعد مرور قرن آخر كتب محمد المقدسى أهم وأشهر مرجع فى الجغرافيا العربية • أما التاريخ فقد دونوا فيه المراجع الضخمة وعلى رأسها كتاب الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » الذى دون فيه أخبار العالم من البدء حتى عام ٩١٣م ••

* لم يكن عند المؤرخين وكتاب السيرة نظرة فاحصة لما يسجلونه من أخبار ، فقد كانوا دوائر معارف ، ولكن لم تؤد بهم غزارة مادتهم الى نظرة شاملة ، تجمع شتات ما تناثر فى صورة كلية ، اذ دفعهم ولوعهم الخيالى الى خلط الاساطير بالحقائق التاريخية •

* كان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨) نموذجا للعالم ذى المكانة العالمية فى تلك الحقبة التاريخية ، فقد عاش فى كنف الامير محمود الغزونى — فى المنطقة التى تعرف الآن باسم افغانستان — فاستطاع بمكانته العلمية ان يحمل الامير على الاقتناع بما يبديه من آراء وتقديم المساعدة له لمواصلة البحث والاختراعات ، لأن محمود الغزونى أشتهر بانجازاته الضخمة فى الجانب الحربى ، الا أن أعماله فى الجانب السلمى ملأت العديد من كتب العلماء ، ثم يمضى المؤلف فى بيان جهود البيرونى أثناء مصاحبته لجيش محمود العزونى الى الهند فى تسجيل ما رآه فى الهند من حضارة ولغات واجناس وطقوس وعبادات ، ونشر هذا فى عام ١٠٣٠م ، ومن الموضوعات التى اهتم بها أكثر من اهتمامه بالمسائل السياسية الدين والأدب والفلسفة ولا يقل ما سطره فى هذا الكتاب فى مجال الفلسفة عن نظيره فى الفلسفة اليونانية • كما أبدع فى مجال الفلك والرياضيات ، فكان من أشهر علماء ذلك العصر ، الذى لم يقتصر العلماء فيه على مجال علمى واحد ، بل انشغل معظمهم بعدة مجالات ، فكانوا دوائر معارف ، فالكندى الطبيب كتب عن انكسار الضوء ، كما كان يعتبر

أول فيلسوف عربى • كذلك الرازى الذى أتجه كطبيب الى البحث عن أسباب بثرة الجدرى والحصبة أثبت جدارة فى مجالات : الكيمياء وعلوم الدين والعلوم الفلكية والفلسفية •

* اعتمدت كل نظريات علم النجوم فى القرون الوسطى على أبحاث الكندى فى مجال الفضاء ، اذ بعد ما ضعف مستوى الابحاث فى هذا المجال بعد تحول الدولة الرومانية الى المسيحية أنتقلت هذه المعارف الى العرب عن طريق بيزنطة ، وفى نفس الوقت تخلت أثينا عن موقعها كمزكز للافلاطونية الحديثة • فانتقلت المراكز العلمية للرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة الى فارس ثم انتشرت فى جميع أرجاء العالم الاسلامى • وعبر سوريا انتقلت انجازات عصر قياصرة الرومان والعصر الاغريقى فى مجال علم النجوم الى العرب ، فأصبحت بعد ترجمتها علوما عربية ، تناولها العلماء بالبحث والتمحيص • فزادوا فيها ، وصححوا ما اثبتت الابحاث انه خطأ فقد كتب الكندى عن اشعاعات النجوم التى لها تأثير قوى على كل الكائنات الحية •• ويمضى المؤلف فى بيان ما توصل اليه الكندى فى عالم النجوم مؤكدا على عروبته ــ أى انه ينحدر من أصل عربى ــ ومبينا سير كثير من العلماء والمسلمين الذين يتحدرون من أصول غير عربية • وبعد أن يسرد أسماء العلماء الذين اهتموا بأبحاث الفضاء ويشرح نظرياتهم يقول : ان بغداد كانت مركزا للابحاث الفضائية فى هذا العصر ، وان جهود العرب فى هذا المجال دفعت علماء أوربا فى ذلك العصر الى الاهتمام بهذا النوع من الابحاث ، ثم يذكر أسماء العلماء الاوربيين الذين تعلموا فى معاهد عربية منهم :

« جربرت فون اوريلاك » •• (تقلد منصب البابوية فيما بعد تحت اسم « سلفستر » الثانى ، ومات فى عام ١٠٠٣ م) اهتم بما كان يدور فى « توليدو » ــ ملتقى

الرسل والوفود الى المعاهد العلمية العربية ــ من أبحاث ومناقشات ، وعلى الأخص : الرياضيات ، وعلم النجوم ، فبرع فيهـا لدرجـة أن الشعب اعتقـد أن بينه وبين الجن صلة .

* « دانيال مورلى » : درس فى « توليدو » علم النجوم العربى ، ودون معـارفه التى أكتسبها من هذه الدراسة فى كتاب .

* ويمضى المؤلف فى بيان من تحدثوا فى كتبهم عن العلماء العرب وتأثيرهم على العلمـاء الاوربيين ، ثم يختم الباب بقوله :

ومن الطبيعى أن الأفكار العربية وصلت الى الشعوب الاوربية عن طريق علمائها .

٥ ــ الطب فى مجالى البحث والممارسة :

* ارتفـع مستوى المعيشة فى المملكة الاسلامية ، فأدى ذلك الى الاهتمام بالفـرد ذلك ان الانسان لا يريد الثروة فقط بل يتمنى أن يعيش سليما معافى ، فكانت هذه الامنية سببا فى رفع مكانة العلوم الطبيـة ، وفنـون التمـريض ، والابحـاث الكيمائية فأزدهـرت الصـيدليات ومحـلات العقـاقير الطبيـة ، وربح تجـار الادوية ، أموالا طائلة .

* وصل الأطباء المسلمون بفن العـلاج الى مستوى الـكمال ، أما فى الجـراحة فقـد تعلموها فى الغالب نظـريا ، لأن رجال الدين حـرموا عليهم التشريح ، الا ان المعارك الحربية هيأت لهم ظروف تطبيق ما تعلموه نظريا عندما كانوا يعالجون الجرحى ، كما أخـذوا بعض التمرينات للعمليات فى تشريح الحيوانات .

* أنشئت أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفـة هـارون الرشـيد ، ثم ما لبث أن أفتتحت مستشفيات ممـاثلة لهـا فى جميع أنحـاء الملـكة . وكان أشهرها « بيمارستان » دمشـق ، فقـد توجه اليه الاطباء للحصـول على الدرجات العلمية التخصصية ، وأمه الطلبة للتدريب على ما يحتـاجون اليه فى امتحاناتهم ، كما كان فيـه قسم خاص للاسعافات العاجلة .

* امتدت الرعاية الطبية الى جميع أنحاء الدولة ، اذ كان الاطباء يزورون السجون من آن لآخر لعلاج المسجونين ، كما قاموا بزيارات مماثلة للقرى النائية وأهتم الاطباء أيضا بعلاج الامراض النفسية ، فلم يتجنب المسلمون المرضى ، وينظرون اليهم نظرة احتقار ، كما كان يفعل الاوربيون معهم آنذاك ، وأستمرت هذه المعاملة قرونا ، فقد ظل المريض نفسيا محتقرا فى أوربا وكان الاوربيون يفرون منهم كما يفرون من مرضى الجذام ، ويتجنبونهم ، كما يتجنبون المجرمين •

* كانت رعاية المرضى سببا فى اكتشافات جديدة فى مجال الادوية ، ذلك المجال الذى أصبح علم العرب الذى لا ينازعهم أحد فيه اذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيرا من الاعشاب فى علاج المرضى ، وأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة •

* ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب العربى ثم أنتقلت عبر أسبانيا الى أوربا ، فكانت أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون •

* ومن بين من كتبوا هذه المراجع : الرازى ، فقد أشتهر فى أوربا بأبحاثه الطبية ، وخاصة ما تناول فيها مرض الجدرى والحصبة ، فقد ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية وطبعت طبعات عدة على أمتداد عدة قرون ، وكان آخرها طبعة نشرت فى أنجلترا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وحرصت جميع المكتبات الاوربية على اقتناء نسخ من مؤلفات الرازى ، كذلك أطلق الاوربيون على ابن سينا لقب « أمير الاطباء » فقد أثرى المكتبة الطبية بأبحاث طبقت شهرتها الآفاق ، فلا يجهل من له صلة بعلوم الطب كتابه : « القانون » الذى بلغ شهرة لا مثيل لها بعد ترجمته الى اللاتينية ، بما يضمه من أبحاث عن علم الصحة ،

والفسيولوجيا ، وطرق العلاج ، والادوية ، وأمراض العيون وغير ذلك من المجالات التى لم يسبقه أحد فى بحثها .

* كان ابن الهيثم من أشهر أخصائى أمراض العيون ، فقد كتب عن البصريات وانكسار الضوء ، والرؤية بالعدسات ، وأهمية الحجرة المظلمة فى عيادة طبيب العيون للتشخيص والعلاج ، وقد أنتفع « روجر بيكون » و « كيبلر » بهذه الابحاث .

* وكان أبو القاسم ـ الاسبانى المولد ـ أشهر جراح فى ذلك العصر ، فقد باشر فى عالم الجراحة أعمالا لم يجرؤ أحد من قبله على القيام بها ، كما استعمل أيضا فى الخياطة الداخلية لأول مرة نوعا لا يحتاج الى نزعه ، بل يتآكل كيماويا داخل الجسم .

* كما أحيطت شخصية الكيمائى الطبيب جابر بن حيان فى القرون الوسطى بهالة من القصص العجيبة ، التى تتعلق بتجاربه الكيمائية فى خامات الاحجار الكريمة وصبغ الجلود ، والنسيج ، وطلاء المعادن .. و .. و .. الخ .

والحق أن العرب توصلوا الى أن التجربة هى أساس البحث ، وذلك هو ركيزة العلم الحديث .

* وعندما أصيب المجال العلمى فى الشرق بضربة قاضية على يد المغوليين فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، أهتم المرينيون فى أسبانيا ــ بعد سقوط قرطبة فى يد المسيحيين ــ ببعض المجالات العلمية التى لعبت دورا جوهريا فى اتساع المجالات الفكرية الاوربية وكان التقارب الوثيق بين العقل الاسلامى والمسيحى سببا فى دفع تيار خصب عبر الطريق المفتوح بينهما الى العالم الغربى المتخلف .. الذى أسهم رجال الكهنوت والأمراء بنصيب وافر فى تجميد فكره ، وبقائه فى بحر الظلمات . بينما كان العالم الاسلامى يسطع بنور العلم والمعرفة .

* كما نقل الانجليزى « روبرتأفشيستر » علوم العرب الكيمائية ــ كما نقل كثيرون غيره مختلف العلوم والمعارف العربية

الى أوربا — من أسبانيا الى انجلترا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ومن هناك أنتقلت الى البلاد المجاورة .

* وصل وطن العلوم العربية الى ذروة المجد العلمى فى القرن العاشر الميلادى ثم بدأ رجال الدين فى تقييد حرية البحث الحر ، بحجة أن العلم أضعف العقيدة فى المجتمع ، وحجب بهاءها ، ورونقها فعجزت عن التأثير فى الحياة الاجتماعية ، كما فقد العلم مكانته عند الناس عندما أخذت سلطة حماته والمؤيدين له طريقها الى الانحدار . وهكذا مات الجذر ، ولكن فروع تلك الشجرة العملاقة أورقت وأثمرت فى ذلك العصر ثمرا طيبا فى أسبانيا — البعيدة عن الوطن الأم للعلم العربى ، موطن البذرة ، ومكان الجذر الذى أنبت تلك الشجرة — ، اذ أصيب البلد بحمى الترجمة كما لو كان الوقت المتاح لنقل هذه العلوم النفيسة محددا بمدة قصيرة . وهكذا نقلت المادة الجوهرية من الشرق الى العلم الاوربى ، فدفعه هذا الدعم الى التطور الذاتى .

٦ — الأدب :

* لم يعثر الباحثون فى أدب المجتمعات الاسلامية على الرواية الطويلة ، لأن شعوبها كانت مغرمة بالقصص القصيرة التى تتلى بصوت عال وتروى بين الناس شفاها فقد نالت اعجابهم روايات « بيدبا » التى ترجمت من الهندية الى الفارسية فى القرن السادس الميلادى ، ثم ترجمت فى القرن الثامن الى العربية وكانوا مغرمين أيضا بقصص ألف ليلة وليلة ، التى ترجمت أيضا من الفارسية الى العربية فى القرن العاشر الميلادى ويدل بناؤها الفنى على انها تعتمد على أصل هندى .

* اتسعت دائرة هذه المجموعة الهندية الفارسية فى النص العربى بما أضيف اليها من قصص هارون الرشيد ، وبما دخلها من روايات مصرية ويهودية ، ثم تكون من هذه المجموعات المختلفة وحدة عرفت باسم « ألف ليلة وليلة » . اشتهرت بعض أجزاء هذه المجموعة فى ايطاليا فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم ترجمت كلها

الى الفرنسية ونشرت فى عام ١٧٠٤م وبعدها أنتشرت فى أوربا كلها ، فاكتسبت شهرة فى المنتديات الادبية وبين عامة الشعب ، وظل كتاب « ألف ليلة وليلة » من أوسع الكتب انتشارا حتى عصرنا الحالى . ومن القصص التى لاقت رواجا كبيرا أيضا ما كتبها بديع الزمان الهمذانى ، لأنها صيغت بأسلوب شيق جذاب .

* أعتمد أنتشار الأدب قبل اختراع الطباعة على فن الالقاء وحسن استماع الناس وتلك طبيعة تعمقت جذورها فى المجتمعات عن طريق التمرين الطويل .

* كان قرض الشعر دليلا على الثقافة والاطلاع الواسع فأدى ذلك الى المنافسة فى هذا المجال . منافسة دفعت الى خلق قصص البطولات المبالغ فيها . كما تسببت فى ابتكار الصيغ الفنية الرائعة فى الأدب . تلك الصيغ التى كان لها الفضل فى وجود الجوانب الفنية فى الشعر الأوربى .

* جمع أبو الفرج الاصفهانى فى العصر العباسى كتابة « الاغانى » وكان ذلك فى القرن العاشر الميلادى ، وتدل مادة الكتاب — الذى بلغ عشرين مجلدا — على أن الفن الأدبى والثقافة بلغا شأوا بعيدا فى هذا العصر ، وان الشعراء تبوءوا مكانا ساميا فى بلاد الخلفاء وقصور الاغنياء ، الا ان اهتمام الحكام وأصحاب الثروة بالشعر والشعراء ، وتلبية الشعراء رغبة من يدفعون المال ، هوى بالشعر من عليائه ، فأصبح موجها من خزائن الأغنياء ، لا تعبيرا عن وجدان الشعراء ، ولهذا يرى بعض النقاد أن الشعر فقد مكانته التى تبوأها فى العصر الجاهلى .

* الحرب والحب : هما الموضوعان الرئيسيان اللذان دار حولهما الشعراء وعندما هدأت موجة الفتح ركز الشعراء على الحب وقصصه وأساطيره ، فرسموا له صورا وردية وأحاطوها بهالة من الخيال اللانهائى ، وسرعان ما أنتشرت هذه المفاهيم فى أنحاء العالم الاسلامى وأنتقلت بعض جوانبها عبر مصر وشمال أفريقيا

وأسبانيا الى ألمانيا .. ثم تناول المؤلف سيرة أشهر الشعراء ومنهجهم فى الشعر مثل أبى نواس والمتنبى وأبى العلاء المعرى وبين اسهام الفارسيين مع العرب فى هذا المجال وفصل الحديث عن الفردوسى ، الذى قضى ٣٦ عاما فى تأليف : « الشاهنامة » ، كما ألف « يوسف وزليخة » وهى تعادل فى طولها ملحمة « الالياذة » ..

* لم يرفع الفردوسى بتأليفه « الشاهنامة » الأدب الفارسى فقط الى مرتبة سامية بل أضاف الى الأدب العالمى احدى الملاحم الشعرية الكبرى التى لا زال الشعب الفارسى يفخر بها حتى الآن . وكانت سببا فى دفعه الى الانتاج الغزير فى مجال الشعر . فقد ظهر بعد الفردوسى : الخيام ، صاحب الرباعيات التى أشتهرت فى أوربا بعد أن ترجمها « ادوارد فريتس جيرالد » .. فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، وكذلك نظامى ، الذى كانت أفكاره متعارضة مع أفكار الخيام ، اذ بينما كان الخيام يميل الى الفجور وشرب الخمر ، كان نظامى تقيا ورعا يكره الخمر ويتجنب مواطن الريبة .

* ليس موضوع الحب فى الشعر الفارسى رداء دينيا ، فتحول الى حب صوفى وممن حملوا لواء هذا النوع من الشعر فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومى وابن الفارض .. ويمضى المؤلف فى بيان صلة الشعراء بالقصور والأغنياء ، وموضحا اتجاهاتهم ، سواء كانت فلسفية تشاؤمية ، أو دينية تأملية ، ومشيرا الى ما ترجم منها الى اللغة الالمانية وتأثيرها على الشاعر الالمانى « جوته » .

* كان انتاج الأدب الاسلامى بعد هذا العصر الكلاسيكى قليلا فى مجال الابتكار ، فقد ظل يدور لعدة قرون فى حلقة التقليد ، أما الابتكار فكان نادرا ، اذ دار الشعر حول وصف الرحلات وأسفار الأمراء ، ثم أهتم الاستعمار فى العالم الاسلامى بادخال الأدب الأوربى الى المنطقة ولم يبدأ الاهتمام بالأدب القديم فى العالم الاسلامى واضافة مبتكرات

جديدة اليه ، الا بعد ظهور النزعات القومية فى العصر الحديث .

٧ ـ الاقتصاد والتجارة وشئون المواصلات :

* بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوربا ـ سواء كانت قسسا أم أمراء ـ تنظر الى التجارة وما يتعلق بها نظرة ازدراء واحتقار ـ وظل هذا المفهوم مسيطرا عليها حتى القرن الحادى عشر الميلادى ـ سيطر العالم الاسلامى على شئون التجارة فأصبح التبادل التجارى محتكرا فى أيدى المملكة الاسلامية .. اذ لم يكن هناك بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية ، ولا حدود تقف ما نعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورات الحياة ، فازدهر الاقتصاد فى ظل قواعد التجارة وشئون المواصلات التى بلغت حد المثالية ، لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصول على أرباح طائلة .

* بعثت كثرة الامكانات المتاحة فى مجال التجارة النشاط المحموم فى صغار التجار ، وحركت البدو لتوسيع نشاطهم فى مجال تربية الماشية ، ودفعت الفلاحين الى الاكثار من زراعة الحبوب والفاكهة والنباتات الأخرى . كذلك شق الخلفاء القنوات ، فزرع قصب السكر والقطن والبرتقال ، فأورقت مناطق فى العالم الاسلامى وأخضرت بشكل حمل الناس على ان يطلقوا عليها جنات الأرض ، ومن تلك المناطق : المنطقة الواقعة بين بخارى وسمرقند ، وجنوب فارس وجنوب العراق ومنطقة دمشق .

* درت تجارة المعادن والاحجار الكريمة ربحا كبيرا على العالم الاسلامى ، على الرغم من تعثر عمليات استخراجها من باطن الأرض . أما الورق فقد أقيمت مصانعه منذ القرن العاشر الميلادى كما نشأت حرف مهنية عديدة أزدهرت تحت رعاية النقابات المهنية ، التى تعدتها بالرعاية والتسويق .

* انتجت الموصل القطن الموصلى ، كما اشتهرت مصر وسوريا وفارس بالبضائع المصنعة ، وعرفت دمشق بالدمقس ، وعدن بالصوف . تعلمت أوربا من المسلمين صناعة الحفر وزخرفة المعادن ، ورسم الاشكال الفنية بمادتى الذهب والفضة على البرونز فقد نشأت هذه الصناعة فى مصر أبان العصر المملوكى ، ثم انتقلت الى سوريا ومنها الى فينيسيا . كما وجد فى المملكة الاسلامية من يهتم بصناعة الزجاج والبللور والاوانى ، والسيراميك ، وأدوات العطور والزينة ، والزيت والصابون والسجاد .. الخ .. لأن مساحة الدولة كانت شاسعة فضمت أناسا مختلفى الاهتمامات ، ومتنوعى الامزجة مما جعل لكل صناعة منتجا ومستهلكا . لقد تركت صناعة الزجاج أثرها فى أوربا حيث يجد المرء فى الكنائس والمتاحف أعمالا فنية رائعة تحمل بصمات المسلمين .

* جابت قوافل التجارة — التى كانت تبلغ أحيانا آلافا من الجمال المحملة بالبضائع — العالم الاسلامى ، اذ كانت تخرج من بغداد الى كل اتجاه ، الى الشرق حتى حدود الصين ، والى الغرب حتى الشواطىء السورية ، فنشأت على طريق القوافل محطات لتزويد المسافرين بما يحتاجون اليه من طعام وماء ثم تطورت هذه المحطات الى مستوطنات ، فمدن كبيرة .

* استقبلت السفن فى موانىء الخليج وشواطىء البحر الأبيض المتوسط البضائع المنقولة اليها من داخل البلاد ونقلتها الى ما وراء البحار ، اذ عبرت نهر الفولجا الى البلاد الاسكندنافية ، والبحر المتوسط الى أسبانيا وما وراءها . ويدل ما وجد فى الحفريات من العملات الاسلامية على مدى الانتشار الواسع للتجارة الاسلامية فى ذلك العصر .

* أثرت الطبقة الحاكمة من التجارة ثراء فاحشا ، وأصبحت حياة الترف التى كان يحياها نسبة قليلة من السكان قائمة على ازدهار الاعمال التجارية ، فقد

كان المال المستثمر فى التجارة وفى أعمال القوافل يدر فوائد ربوية على أصحابه ، على الرغم من تحريمها رسميا . كذلك تسبب النشاط المالى فى خلق فرص عمل لأعداد لا حصر لها من العبيد ، ولم يكن الاسترقاق قاصرا على جنس دون آخر ، فكما ضم زنوجا من افريقيا ، كان من بينهم أيضا أتراك ، وصينيون ، وبيض من روسيا وأسبانيا وايطاليا . وعلى الرغم من أن القرآن الكريم قصر الاسترقاق على أسرى الحرب وأبناء العبيد ، فقد تعدى الناس هذه الوصية ، فشمل الاسترقاق أناسا لم يكونوا أسرى حرب ، ولم يكن آباؤهم عبيدا ، اذ جلب العبيد بطرق شتى من جميع أنحاء الأرض ، حتى كثر عددهم فى المملكة الاسلامية وسببوا لها بعض المتاعب فقد كانت ثورتهم فى عام ٨٧٠م خطرا على جميع الانشطة الاقتصادية فى كل أنحاء المملكة .

* قامت التجارة والصناعة فى العالم الاسلامى على أساس النظام الاقتصادى الحر فأصبح المكسب المادى هدفا لكل طموح ، لأن الفكرة التى كانت سائدة فى المجتمع آنذاك : ان من كثر ماله ارتفع قدره بين الناس ، وعلى قدر ما يملك ينال من الاحترام .. ان من يقارن مفهوم ذلك العصر بما هو سائد اليوم فى مجتمعاتنا يدرك أن الوضع لم يتغير .

دكتور محمد شامة

* * *

زاهد البصرة

للأستاذ السيد حسن قرون

الحديث عن الزهد مطلب النفوس الخيرة ، والقلوب الصافية ، والعقول النيرة ، لأنه يرتفع بالانسان عن أوضار الدنيا ، ودوافع الصراع حول مطالب المعدة ، ولنا من سلفنا الصالح نماذج بشرية رائدة قل أن يجود الزمان بمثلها ، فحين تركن اليهم ، وتعيش مع ذكراهم ، وتقرأ سيرهم يطمئن قلبك ويهدأ بالك ، فتجد نفسك متعاطفا مع أهلك وذويك ومواطنيك تفرح لفرحهم ، وتحزن لترحهم ، وتنفر من المال نفورك من الوحش الكاسر ، والطير الجارح ، والنار المدمرة ، وترى الدنيا لهوا ولعبا .. ومع أن أسلافنا الذين ظهروا مع الاسلام حين ظهوره ، أو نبتوا فى أرضه بعد انتشاره كل منهم قدوة فى سلوكه ، وحجة فى أقواله الا أن ثلاثة منهم تميزوا فى نظرى ، وبهرونى بطرقهم فى الحياة ، ووضعوا نصب عينى التقوى فى أجلى مظاهرها ، وأبهج صورها ، وهم الصحابى الجليل (عثمان ابن مظعون) المتوفى قبيل غزوة أحد ، و (الفضيل بن عياض) المتوفى سنة ١٨٧هـ ويعد رأس التصوف ، فقد قامت معالمه وألفت الكتب فيه بعد وفاته ، والثالث (عامر بن عبد الله بن عبد القيس) العنبرى البصرى . أما عثمان ابن مظعون فقد نشرت عنه مقالا مطولا بمجلة الأزهر ، وأما الفضيل فانى لأرجو أن أوفق فى تجلية سيرته وما أجلها سيرة .. أما عامر ابن عبد الله « زاهد البصرة » فهو الذى أحدثك عنه فى ذلك المقال ،

واذا كان لكل شخصية مفتاحها ــ كما يقول العقاد ــ فان مفتاح شخصية عامر هو « التقوى » وقد تقول : ان التقوى قبلة كل مسلم ووسيلته الى بلوغ سعادة الدنيا والآخرة لا ينكرها عاقل ، ولكن عامرا انفرد بنظرة خاصة نحو التقوى ، فحبس نفسه فى دارتها ، فشغف بها ، وحرص أن يحرز بها أعظم الأجر وأجزل العطاء ويجلو لك الأمر بقوله : « لحرف فى كتاب الله أعطاه أحب الى من الدنيا جميعا » فقيل له : وما ذاك يا أبا عمرو ؟ قال : « أن يجعلنى الله من المتقين ، فانه قال : « انما يتقبل الله من المتقين » فهو فى ضوء التقوى يريد أن تكون صلاته ونسكه وصلاته وزكاته وصومه وحجه ، وجهاده واحسانه فى كل أمر يؤديه له القبول عند الله ، والله لا يقبل الا من المتقين ، وفى هذا الحرف تجتمع كل شمائله ووسائله ، ومقاماته ومقالاته ينظر فى جميع أموره فما وافق يقينه واعتقاده فى الوصول الى التقوى أداه حريصا عليه كلفا به ، ووصف « المتقى » هو كل مبتغاه ، به تنفرج أساريره ، ويبتهج فؤاده .

ان المتقى يحذر الآخرة ويخشى غضب الله ويحصن نفسه بفعل الخيرات . التقوى وقاية وجنة حافظة ، انها الحرف الذى قيد نفسه فى أقوى عراه ، فكيف قيد نفسه ؟ أجاب عن هذا السؤال عمليا ، فسلك مسلكا وعرا ، وفرض على نفسه فروضا لم يوجبها كتاب ولا سنة ، ولو عاش فى زمن غير زمنه لكان له شأن أى شأن ، ولاتخذ الناس من قبره مزارا ، ولكنه كان فى عصر الخلفاء الراشدين ، والخلفاء الراشدين ومن نحا منحاهم لا يقبلون الغلو فى الدين أو الدنيا ، لا يقبلون من مسلم أن يجعل الزهد وكده يعرف به ، وينفرد بعلاماته ، ويشار اليه بالبنان لمقارفته ، وكان عامر قد صار علما على الزهد ، واشتهر عنه أنه لا يأكل اللحم ولا السمن ولا يتزوج النساء ، ولا يصلى فى المساجد ، ولا تمس بشرته بشرة أحد ، ويقول ــ حسب الرواية ــ انى مثل ابراهيم ، يقصد ابراهيم

عليه السلام ، وكان عنيفا فى قول الحق ، ينصح بلسانه فاذا لم يستجب من ينصحه استعمل يده ، مر على رجل من أهل الذمة قد أخذ فكلمهم فيه فأبوا وكرر القول فلم يستمعوا له فتحداهم قائلا : كذبتم والله لا تظلمون ذمة الله اليوم وأنا شاهد ، وكان راكبا فنزل فخلصه منهم .. والأغرب من هذا أنه سمع من يقول له — لا أدرى أفى يقظة أم منام — فلانة امرأتك فى الجنة ، فذهب فى طلبها فاذا هى وليدة لأعراب سوء ترعى غنما لهم ، ولا تنال منهم الا السب والأذى ، وكانوا فى اطعامها مقترين عليها ، وما تناله تذهب بمعظمه الى أهل بيت مسهم الضر ، وتتبع عامر خطاها ومرعاها فوجدها فى مكان صالح تصلى ، فتقترب اليها وحادثها وسألها عن حاجتها فنفت الحاجة الى أحد ، فلما أكثر عليها قالت : وددت أن عندى ثوبين أبيضين يكونان كفنى . قال : لم يسبونك ؟ قالت : انى لأرجو فى هذا الأجر ، فتركها ورجع اليهم ، فقال : لم تسبون جاريتكم هذه ؟ قالوا نخاف الله أن تفسد علينا ، فطلب اليهم بيعها وغالى فى الثمن فلم يقبلوا ، فذهب وأتى بثوبين أبيضين فوجدها « ماتت » فقال : ولونيها . قالوا : نعم ، فصلى عليها ودفنها . وقد تكون تلك الجارية هى التى زهدته فى النساء ، ويروون ان سائلا سأله : ألا تتزوج ؟ قال : ما عندى من نشاط ، وما عندى من مال ، فما أغر امرأة مسلمة ، وسأله آخر : ما هذا الذى صنعت ؟ ألم يقل الله : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » ؟ قال : أفلم يقل الله : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ؟ ويتحيرون من مذهبه ، وكيف لمثله يمتنع عن الزواج ؟ وما دروا أنه دعا الله أن يغنيه عن النساء فاستجاب له . فقد حكوا أنه كان فى غزاة ، وأنه انتبذ مكانا قصيا عن زملائه المقاتلين ، فبقى ليله راكعا ساجدا داعيا ورآه أحد أصحابه فى مقامه هذا بعد أن بحث عنه ووافاه فى وجه الصبح وهو يدعو ، فكان فيما يدعو : اللهم سألتك ثلاثا

فأعطيتنى أثنتين ، ومنعتنى واحدة ، اللهـم فاعينها حتى أعبـدك كما أحب وكما أريد ، فلما قضى صلاته ودعاءه التفت الى صاحبه وأنذره بالويل والثبـور ان تحـدث عما رأى . قال له صاحبه وهو يحاوره : دعك من تهديدى والله لتحـدثنى بهذه الثـلاث التى سـألتها ربك أو لأخبـرن بما تكره ممـا كنت فيه الليلة . قال : ويلك لا تفعل . فلما رآه غير منته قال له : لاتحدث به ما دمت حيا . فوافقه صاحبه ، وهنـا أفضى اليه بخبىء أمره . قال : سـألت ربى أن يذهب عنى حب النساء ولم يكن شىء أخوف على دينى منهن ، فوالله ما أبالى امرأة رأيت أم جـدارا ، وسألت ربى ألا أخاف أحـدا غيره فوالله ما أخاف أحدا غيره ، وسألت ربى أن يذهب عنى النوم حتى أعبـده بالليل والنهار كما أريد فمنعنى .

استقام له أمره أيام عمر رضى الله عنـه ، فاتقى الله حق تقاته ، وابتهج أن يكون ممن ينطبق عليهم قول القرآن الكريم : « انما يتقبل الله من المتقـين » لكن الأمـور تغيرت ، وولى الخـلافة عثمـان ابن عفان رضى الله عنه ، ولم يكن صورة من عمر ، بل كان له رأى واتجاه ، وظهـر الحسد فى بعض النفوس : حسد قريش على ماآتاها الله من النبوة والخلافة ، وحسـد بنى أمية أن يكونوا موضع الرعاية من الخليفـة ، ففشت فى النـاس اذاعات وشائعات تنال من الخليفة وتصرفاته ، ولم يكن عامر ممـن يعنى بالسياسة ، ولا ممن يطلقون ألسنتهم فى الولاة والجباة ورجال الحرب ، انماكان منصرفا الى زهده وصلاته كان عطاؤه على عهد عمر ألفين ، فكان يوزع منها ما يراه واجبا عليه ، ويقولون فى كراماته انه اذا ذهب الى داره ، وأخـذوا يعدون العطاء وجدوه كما هو لم ينقص شيئا ، ولما رأى المشرف على العطاء يريد أن يزيده . قال له : حسبك أنا لا أريد شيئا . قال له : انك تنفق على غيرك ممن يحتـاج اليك .. ويأبى الزيادة ، رجـل زاهد ، لا زوج ولا ولد ونفقـاته على نفسه قليلة ، فهـو يرفض لين الطعام ، وينفر من الفاكهة رغبـة

فى نعيم الآخرة ، ولكن السياسة تجرفه والواقع أن الشكوى منه لم تمس عثمان من قريب أو بعيد ، ولكن الاضطرابات حين تحدث ، والنفوس حين تحذر الفتنة تسىء الظن بمن يحتطب ومن يبتعد ، تأخذ المطيع بالعاصى ، والمحسن بالمسىء ــ كما يقول زياد .

كان عبد الله بن عامر (من بنى عبد شمس اخوة أمية) عاملا لعثمان على البصره فوشى اليه بعامر بن عبد الله البصرى بأنه يقبل أن يقال له : ما ابراهيم خير منك فيسكت وقد ترك النساء ، فكتب فيه الى عثمان ، فجاءه الرد : أن انفه الى الشام وكانت سياسة عثمان أن كل مشاغب فى البصرة أو الكوفة يلقى القبض عليه ثم يرسل الى الشام ليكون تحت رقابة معاوية ابن أبى سفيان ، ولكن ابن عامر لم ينفعه بمجرد أخذ الموافقة ، وانما أراد أن يسأله ويخبره فأحضره وسأله على رءوس الأشهاد :

أنت الذى قيل لك يا ابراهيم خير منك فسكت ؟ قال : أما والله ما سكوتى الا تعجبا ، لوددت أنى كنت غبارا على قدميه يدخل فى الجنة ، قال : ولم تركت النساء ؟ قال : أما والله ما تركتهن الا أنى قد علمت أنه متى تكن لى امرأة فعسى أن يكون ولد ، ومتى ما يكون ولد يشعب الدنيا قلبى فأحببت التخلى من ذلك . ولم تعجب الاجابة الأمير ابن عامر فأجلاه على قتب الى الشام ، فكان فى نظر شيعة بنى أمية أنه مثل صعصعة بن صوحان ، ومذعور وغيرهما ممن يناهضون الحكم ولم يكن معاوية متساهلا مع هؤلاء الثوار ، ولا راضيا عن موقفهم من الخلافة وحديثهم عن قريش ، وكم ناظرهم فأفحمهم ، وكم تخفف منهم فرد بعضهم الى مواطنهم ، وكانت له أساليب مختلفة يعرف بها دخيلة من ينفى اليه ، ومنذ وصل اليه عامر ابن عبد الله وضعه تحت رقابته . وافتن فى التعامل معه ، بعض هذه السياسة رسمها له الخليفة نفسه ، وبعضها كان من تفكيره .. المهم أن عامرا المفترى عليه نجح فى الاختبار غير قاصد ولا متعمد ، لأنه ــ وقد

بعد عن مستقرة — جعل العبادة مأواه ومأتاه ، قدم عامر على قتب في سفر هو قطعة من العذاب ، فقابله معاوية بروضة من الجنة أنزله معه الخضراء ، وبعث اليه بطعام شهى مع جارية حسناء أمرها أن تعلمه ما حاله ، فراقبته فوجدته لا يأكل الطعام الشهى ويقبل على كسرة يابسة يجعلها فى ماء ثم يأكل منها ويشرب من ذلك الماء • منتهى الزهد ثم يقوم مقامه حتى يسمع النداء ، فيخرج الى المسجد فلا تراه الى مثل ليلتها ، وأنهت الى معاوية حاله كما شاهدت ، فكتب معاوية الى عثمان يذكر ما عليه الرجل ، ولكن عثمان لم يقتنع ، وكيف يقتنع والزلزال حوله ؟ فكتب الى معاوية « أن اجعله أول داخل وآخر خارج ، ومر له بعشرة من الرقيق وعشرة من الظهر • فلما أتى معاوية الكتاب أرسل اليه فقال له : ان أمير المؤمنين كتب الى أن آمر لك بعشرة من الرقيق • فقال : ان على شيطانا غلبنى ، فكيف أجمع على عشرة ؟ قال معاوية : وأمر لك بعشرة من الظهر • فقال : ان لى بغلة واحدة وانى لمشفق أن يسألنى الله عن فضل ظهرها يوم القيامة • — يشير الى حديث النبى صلى الله عليه وسلم • « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ••• » قال : وأمرنى أن أجعلك أول داخل وآخر خارج • قال : لا ارب منها لى فى ذلك • وسئل معاوية بعد حين عمن نفوا اليه فقال عنهم : يدخلون بالكذب ويخرجون بالغش غير رجل واحد هو رجل نفسه : (عامر بن عبد القيس) وظهرت براءة هؤلاء فرجعوا الى موطنهم وتخلف عامر الزاهد ، وكل أرض عنده طيبة ما استطاع أن يقوم الليل ويصوم النهار ، وقد حصر الدنيا فى أربع خصال : المال والنساء والنوم والطعام ، وقد نجا من المال والنساء ، ولكن لم يجد مفرا من النوم والطعام • ومع ذلك فقد اندمج فى جند الشام وصار غازيا فى سبيل الله ، وقد استرعى نظر رفاقه بتصرفاته فهو لا يركب حصانا بل يركب بغلته التى يقدم فضلها لمن يحتاج الى الحمل رجاء الثواب ،

ثم يختار الرفاق ، ويشترط عليهم شروطا نعتها الآن بالنبل يقول لهؤلاء الرفاق وهم بأرض الروم : انى أريد أن أصحبكم على أن تعطونى من أنفسكم ثلاث خلال : فيقولون : ماهن ؟ يقول : أكون لكم خادما لا ينازعنى أحد منكم الخدمة ، وأكون مؤذنا لا ينازعنى أحد منكم الأذان ، وأنفق عليكم بقدر طاقتى . فاذا قالوا ، نعم انضم اليهم ، فان نازعه أحد منهم شيئا مما اشترطه رحل عنهم الى غيرهم . ويحكون عنه أنه كان فى جيش فأصابوا جارية من عظماء العدو ، فوصفت له فقال لأصحابه : هبوها لى ، فانى رجل من الرجال ، ففرحوا أن تكون له امرأة فجاءوه بها . فقال : اذهبى فأنت حرة لوجه الله . قالوا : يا عامر ، والله لو شئت أن يعتق بها كذا وكذا لأعتقت . قال : أنا أحاسب ربى .

ورجع من غزواته وجهاده الى الشام وقد استقر به المقام ، وطابت له العبادة ، وسعى اليه الناس من العراق ولا سيما البصرة ليقفوا على حاله ، فكان يلقاهم كأنه لم يفارقهم لا يسأل عن الأحياء ولا عن الأموات ، فاذا عوتب فى ذلك قال : ما أسأل عن قوم ، من مات منهم فقد مات ، ومن لم يمت فسيموت ، واذا قال له أحدهم : لم لا تدعونا الى طعامك ؟ كان جوابه : لقد علمت أنك تأكل طعام الأمراء وفى طعامى خشونة أو جشوبة .. وقصده (كعب الأحبار) واتخذه جليسا ، فكان يعرض عليه أسفار التوراة ، فاذا أعجبه منها شىء فسره له ، وكان مما فسره له عبارة . قال عنها كعب : انها الرشوة أجدها فى كتاب الله « تطمس البصر ، وتطبع على القلب » فلما سئل كعب عنه : قال : « هذا راهب هذه الأمة » وأنا لا أميل الى ما يقوله كعب سواء حديثه عن الرشوة أو عن رهبانية عامر البصرى ، فالرجل له من القرآن الكريم ما فيه هديه

وسراجه ومنهاجـه ، فالقرآن ذم الرشوة كما أن الرسول لعنها ، والرهبانية وصف يأباه عامر ، وان بعد عن النساء ، فهو رجـل نقى تقى من قمـة رأسـه الى أخمص قدمه ، فقد عرضت عليـه الدنيـا فأباهـا أيمـا اباء ، ووهبت له الحسناء فأعطاها الحـرية اسـلاما وانسانية .

اتخـذ الشـام داره فهل نسى عراقه ؟ ان الجاحظ يروى عنه أنه قال : ما آسى من العراق الا على ثلاث : ظماء الهواجـر ، وتجاوب المؤذنين ، واخوان لى منهم الأسود ابن كلثوم . وأغلب الظن أن جفاءه للعـراق يرجـع الى الوشاية التى جعلت منه عدوا للخليفة ، ومنفيا عن وطنه واخـوانه . قال محمـد ابن سعد فى الطبقـات . لما سير عامر بن عبد الله تبعه اخوانه فكان يظهر المربد : ــ مربد البصرة ــ قال : انى داع فأمنوا . قالوا : هات ، فقد كنا ننتظر هذا منك . قال : اللهـم من وشى بى وكذب على ، وأخرجنى من مصرى ، وفرق بينى وبين اخـوانى ، اللهم أكثر ماله ، وولده ، وأصـح جسمه ، وأطل عمره . وظاهـر الكلام أنه يدعو له والحقيقة أنه يدعو عليه لينال متاعب المال والولد والصحة وطول العمر ، فهو مسئول عمـا يقترف وما يجب عليـه نحو ذلك الخير ، وهكذا يكون دعاء الزهاد .

لقد كان عزيزا عليـه أن يفارق البصرة ، وينأى عن أصحابه ممن تزدان بهم المساجد ، ويحـلو بهم ذكر الله ، انظـر اليه حـين أحس بالرحيل ، لقد مضى الى أخيـه فى العلم والزهد والتقـوى (مطرف ابن عبدالله بن الشخير) ليسلم عليه فدق الباب ليلا ، فقـال مطـرف للخادم : انظرى من هذا ؟ فقالت عامر ، فخرج اليه فسلم عليه ثم انصرف . فلمـا مضى من الليـل ما مضى رجع فدق الباب . فقـال مطرف لخادمه : انظرى من هذا ؟.

قالت : عامر ، فخرج اليه فقال : ماردك بأبى أنت وأمى ؟ قال : والله ماردنى الا حبك ، فسلم عليه وودعه ثم ذهب . فلما مضى من الليل ما مضى رجع فدق الباب . فقال مطرف لخادمه : انظرى من هذا . قالت : من هذا ؟ قال : عامر . فخرج اليه مطرف . فقال له مثل قوله .. ثم انصرف ونفسه تتقطع حسرات .

لم يرجع الى مصره ، ومات فى غربته ، ويقولون : انه لما حضرته الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعا من الموت ، ولا حرصا على الدنيا ، ولكن أبكى على ظمأ الهواجر ، وعلى قيام ليل الشتاء . وهذه الشخصية الجليلة لم أستطع أن أعرف سنة ميلاده ولا سنة وفاته ، وحسبنا أن نرى فيه قدوة حسنة ونموذجا صالحا للاقتداء والاهتداء .

السيد حسن قرون

الطفــل والطفــولة

ومدى الاهتمام بهما من جانب الإسلام

بقلم المستشار محمد عزت الطهطاوى

الاطفال هم فلذات أكباد الآباء ، وهم المهج وفؤاد الامهات وهم الزهور والورود وأشعة الضوء فى حياتهم — بل هم الأمل الذى يرجـــونه فى مستقبل الأيام .

اهمال الحضارات القديمة لشئون الطفولة

ولقد كانت الحضارات القديمة السابقة على ظهور الاسلام لاتولى عنـاية بشئون الطفــل ولا تراعى أو تهتم بالطفولة العناية الواجبة .

١ — فالفينيقيون فى حدود عام ٥٠٠ قبــل الميلاد كانوا يضــحون بأطفالهم قربانا لآلهتهم عندما يحزبهم أى أمر فيقيمون الحفــلات التى تختلط فيها صرخات الاطفال بدقات الطبول .

٢ — كما أن الحضارة اليونانية التى يعتبرها علماء الغرب وفلاسفته قمة الحضارات القديمة كان القانون والرأى العام فيها يبيحـان قتــل الأطفال ويريان فيه وسيلة مشروعة للحد من زيادة النسل ومنع تقسيم الأرض الزراعية تقسيما يؤدى الى الفـاقة — يحــكى كل ذلك بول ديــورانت فى موســوعته قصــة الحضارة فى الجــزء الثــانى وفى الجزء السابع .

وفى شعب بنى اسرائيــل وهم أهل الكتاب الأول كان من عاداتهم أنهم يجيزون أطفالهم فى النــيران الموقدة اذ يضعونهم فــوق ذراعى مولك الممدودتين فتهبطان بهم فيها بعد ايقاد النيران تحته وبذلك قتلوا كثيرا من أطفــالهم بتلك العــادة

الذميمة التى تشبهوا فيها بالمجوسية فى تقديسهم للنار والى هذا أشار سفر أرميا فيقول : (بل وضعوا مكرهاتهم فى البيت الذى وعى باسمى لينجسوه وبنوا المرتفعات للبعل التى فى وادى ابن هتوم ليجيزوا بنيهم وبناتهم فى النار لمولك الأمر الذى لم أوصهم به ولا صعد على قلبى ليعملوا هذا الرجس ليجعلوا يهوذا يخطىء) انظر سفر أرميا فى الاصحاح ٣٢ عدد ٣٤ ، ٣٥ من أسفار الكتاب المقدس فى العهد القديم .

كيف عنى الاسلام بأمر الطفولة

لما أشرقت على الدنيا شمس الاسلام وبعث الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالرحمة والهدى أولى الطفولة عناية كبيرة تمثلت فيما شرعه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من أحكام تتمثل فيمايلى :

أولا :

حرم القرآن الكريم عادة وأد البنات ، فلقد كانت بعض القبائل العربية تقترف هذا الاثم الكبير فى حق الطفولة البريئة لبنات حواء حتى جاء الاسلام فقضى على تلك العادة السيئة قال تعالى :

«واذا الموءودةسئلت بأىذنب قتلت» سورة التكوير ٨ ، ٩ .

ثانيا :

أن من حق الولد على والده فى نظر الاسلام أن يحسن أسمه وموضعه وأدبه لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حق الولد على والده أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه) رواه أبو داود .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر (انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء أبنائكم فأحسنوا أسماءهم) أخرجه أبو داود .

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل للحسن والقبيح فقال (تسموا بأسماء الانبياء وأحب الاسماء الى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة) .

أما الأول :

فلما فيه من اقـرار بالعبـودية لمن لا تجب فى الحقيقـة الا له وفيـه تمييز للمولود بالايمان وتذكير بالله والرحمـن كلمـا نودى فسـمع اسمه .

وأما الثانى :

فلما فيه من تفاؤل بالخـير وأنه يعيش وينتج لأمته .

وأما الثالث :

القبيح فلا مندوحة من اقـرار النفس ببشاعته والنفور منه .

ثالثا :

دعا الاسلام الى البر بالأطفال والشفقة عليهم ــ كما أمر بتـوفير الرضاعة لهم ورعاية الأيتام منهم وحفظ حقوقهم .

قال تعـالى ((والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة)) سورة البقرة ٢٣٣

ويجوز الاقتصار على ٢١ شهرا لا أقل والزيادة بشهر أو شـهرين لا أكثـر وقـال سبحانه « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكـلوا أمـوالهم الى أموالكم انه كان حوبا كبيرا » . سورة النساء ٢ .

وقال جلت كلماته :

((ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)) سورة النساء ١٠

كما قال سبحانه ((ويستفتونك فى النسـاء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبـون أن تنكحـوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما)) سورة النساء ١٢٧ .

وقال تعالى : ((فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة او مسكينا ذا متربة)) سورة البلد ١١ الى ١٦ .

كما قال جلت كلماته ((فاما اليتيم فلا تقهر)) سورة الضحى ٩ .

ويقول رسول الله صـلى الله عليه وسلم ((انا وكافل اليتيم فى الجنـة هكذا وأشـار بالسبابة الوسـطى وفرج بينما)) رواه البخارى .

رابعا :

أهتم الاسلام ببيئة الأسرة التى يولد فيها الطفل المسلم لأنه يجد فيها عالمه ومقومات سلوكه فلا يقع سمعه ولا نظره ولا فكره الا على المعانى الاسلامية البناءة التى تتجاوب مع فطرته السليمة والاسلام دين الفطرة ينميها ويغذيها ويسمو بطاقتها الى التكامل الشامل للشخصية الاسلامية قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سورة الروم ٣٠

خامسا :

سن الاسلام نظما محكمة تتعلق بمصلحة الأطفال لا سيما فى مسائل الحضانة والنفقة والارث .

أ ــ فالحضانة هى تربية الطفل والقيام بشئونه فى أول أطوار حياته حتى سن معينة وذلك بتدبير طعامه وملبسه ونومه ونظافته وجعل الاسلام هذا الحق لمحارم الطفل من النساء ــ فان لم توجد له محرم من النساء أو وجدت وليست أهلا لحضانته انتقل الحق فى حضانته الى محارمه من الرجال العصبة ــ فان لم يوجد عاصب محرم له أو وجد وليس أهلا لحضانته انتقل الحق فى حضانته الى محارمه من الرجال غير العصبة .

ولما كانت أم الطفل أوفر محارمه شفقة به كانت أحق بحضانته ما دامت أهلا لها سواء كانت زوجة لأبيه أم مطلقة منه ــ وكانت محارمه اللاتى ينتسبن اليه بأمه أحق بحضانته من محارمه اللاتى ينتسبن اليه بأبيه عند استواء المرتبة قربا ــ وأجرة الحضانة هى من نفقة الصغير شأنها شأن أجرة رضاعه .

وتنتهى مدة الحضانة حتى السن التى يستغنى فيه الصغير والصغيرة عن خدمة النساء لقدرة الواحد منهما على أن يقوم وحده بحاجاته الأولية من أكل ولبس ونظافة ونوم .

وكل ذلك على التفصيل الذى وضحه علماء الاسلام فى كتب الفقه المختلفة .

ب ـ أما النفقة على الصغير فهى واجبة على والده لقوله تعالى (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) سورة البقرة ٢٣٣ فقد أوجب سبحانه على المولود له رزق الوالدات وكسوتهن وهذا الرزق وهذه الكسوة من نفقة الاولاد وسبب وجوبها الجزئية أى كون الولد جزءا من أبيه فكما تجب على الانسان نفقة نفسه يجب عليه نفقة جزئه وقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت) رواه أبو داود وفى صحيح مسلم رواه بمعناه قال (كفى بالمرء اثما أن يحبس عمن يملك قوته) .

أما الارث ـ فقد قرر القرآن الكريم عن الصغير فيه المساواة بينه وبين الكبير وجعل للكل حقا فى الميراث وبهذا أبطل ما كان عليه العرب من جعل الارث بالنسب مقصورا على الرجال دون النساء والاطفال وقد كانوا يقولون فى ذلك (لا يرث الامن طاعن بالرماح وزاد عن الحوزة وحاز الغنيمة) فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بالنسب عاما للرجال والنساء والصغار والكبار قال تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) سورة النساء ١١ .

سادسا :

مما قرره الاسلام ضرورة الاهتمام بالوصول الى سن الرشد الدينى مبكرا حتى يكون السلوك فى الحياة بعد ذلك مستقرا فتتزن انفعالات الطفل وتتوافق دوافعه ونزعاته المراهقة وذلك بفضل توجيهه الوجهة الدينية السليمة قال تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) سورة طه ١٣٢ .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (مروا أولادكم بالصلاة وهم

أبناء سبع واضربوهم عليهـا وهم أبنـاء عشر وفـرقوا بينهـم فى المضاجع) رواه أبو داود والحاكم عن عمر بن شبيب عن أبيه عن جده وأخرجه الزارعى أبى رافع .

وهـذا التطبيـق العمـلى من الرسول صلى الله عليه وسلم أثر فى أنفس الصحابة حتى رأينـا من صبيان المسلمين من يؤم قومه فى الصلاة كعمرو بن سلمة الذى يقول أممت قومى وأنا ابن ست أو سبع سنين وكنت أكثرهم قرآنا .

ونراه صلى الله عليه وسلم فى معاملة الحسن بن على وقـد كان طفلا فتناول احدى ثمرات الصدقة فالتفت اليه منكرا عليه كخ ــ كخ ــ ارم بها أما شعرت أنا آل محمد لا نأكل الصدقة) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

أما تفريق الولدان فى المضاجع فله حكمة بالغة من الوجهة الصحية والوجهة السلوكية ــ ولعل الكثير من أمراض المجتمع تبدأ بذوره من عدم المبالاة بهذه الوصايا .

سابعا :

من تعليمات الاسلام العدل بين الأطفال ــ والعدل فيهم يتيح لهم نموا نفسيا وعقليـا سويا ويحقق السلامة للمجتمع ــ أما التفـريق فى المعاملة بينهم فانه يورث البغض والكراهيـة والجفاء بينهم وقـد تنقلب الى عـداوة تضر بسـلامة الأسرة وأمن المجتمع .

وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : (اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم كمـا تحبـون أن يبروكم) رواه الطبرانى عن النعمان ابن بشير وفى مسند أحمد وصحيح ابن حبان قوله (اعدلوا بين أبنائكم ــ اعدلوا بين أبنـائكم ــ اعدلوا بين أبنائكم) .

وقد ذكر البيهقى من حـديث أبى أحمـد بن عدى مرفـوعا الى أنس أن رجلا كان جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم فجاء بنى له فقبله وأجلسه فى حجره ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها الى جنبه فقال النبى عليـه السـلام فمـا عدلت بينهما .

ثامنـــا :

والقــرآن الكريم يحتوى على كثير من الارشادات والتوجيهــات القرآنية فى مجال تربية الأطفــال فمع مرحلة النضوج نجــد قــوله تعالى « واذا بلغ الأطفال منــكم الحــلم فليستأذنوا كمــا استأذن الذين من قبلهم كذلك يبــين الله لكم آياته والله عليم حكيم» سورة النور ٥٩ ــ فعندما يصل الاطفال الى مبلغ الرجال عليهم أن يستأذنوا فى كل الاوقات على والديهم كمــا أستأذن الذين بلغــوا الحلم من قبلهم ، وحتى فى مجــال تنــاول الطعام نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشد فيــه الى التوجيــه السليم كما يحكى ذلك أبو حفص عمر بن أبى سلمة فيقول : (كنت غلاما فى حجر رســول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدى تطيش فى الصــحفة فقــال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا غلام سم الله تعالى وكل بيمينك وكل ممــا يليك فما زالت تلك طعمتى بعد) متفق عليه .

تاسعا :

يوصى القرآن الكريم ــ فى مجال تربية الابنــاء ورعايتهم ــ الآباء برعاية أولادهم وتربيتهم بأسلوب نموذجى سليم مقرون بتقوى الله عــز وجل قال تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فايتقــوا الله وليقــولوا قــولا سديدا » سورة النساء ٩ .

عاشرا :

يوضح القــرآن الــكريم دور الآباء المهم بوصفهم القدوة الحسنة فى تربيــة أبنــائهم قال تعــالى : « والذين آمنــوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين » سورة الطور ٢١ .وفى قوله تعالى : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمــين فى المدينــة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فــأراد ربك أن يبلغــا أشــدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » سورة الكهف ٨٢ . مثــال للأبوة الصالحة وأثرها فى امداد الخير الى

الولدان حتى بعد وفاة والدهم وانتهاء حياته من الدنيا فيحرص كل أب على صلاح نفسه عسى أن يكون فى ذلك صلاح ولده وصلاح رزقه من بعده .

حادى عشر :

أما القدوة السيئة فيشير اليها القرآن الكريم فى قوله تعالى عن أبناء الكافرين (انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) سورة الصافات ٦٩ — ٧٠ فنتيجة تلك القدوة السيئة من الآباء يسرع أبناؤهم على تتبع خطاهم من غير تدبر أو أدنى تأمل منهم رغم ظهور كونهم على الباطل .

ثانى عشر :

اهتم الاسلام بتهذيب الاطفال وتربيتهم وتعليمهم وحسن رعايتهم وصيانة أخلاقهم وجعل ذلك حقا على آبائهم وأولياء أمورهم وعلى مجتمعهم لقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) سورة التحريم ٦ .

ويروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى شرح تلك الآية قوله : (علموا أنفسكم وأهليكم الخير) وفى معجم الطبرانى من حديث سماك عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين) .

لذلك فان اهمال تعليم الولد ما ينفعه وتركه سدى فيه اساءة اليه غاية الاساءة — وأكثر الاولاد انما جاء فسادهم من قبل الآباء واهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه فأضاعوهم صغارا فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم .

ولا أوقى للنفس والأهل والولد الا بالسير على تعاليم الاسلام والتزام خلقه والتقويم منذ الصغر بكريم آدابه حيث يجعل الأب من عمله ومن قوله لولده القدوة فينشأ على نهجه ويتطبع بسننه ومن

قبل نادى ابراهيم عليه السلام ربه قال تعالى : حاكيا عنه فى القرآن الكريم (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء) سورة ابراهيم ٤٠ .

ثالث عشر :

ضرورة الرفق بالاطفال وبذل الحنان لهم والحنو عليهم .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انى لاقوم الى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه) رواه البخارى .

ولقد بلغ من رفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ورعايته للصغار ما جعلهم يجترئون عليه كلما قدم من سفر اذ يتلقونه فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون بين يديه ومن خلفه وكان يأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم وكان الصبيان يتفاخرون بذلك رواه البخارى ومسلم .

وثبت فى الصحيحين عن أبى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام وهى لأبى العاص ابن الربيع — فاذا قام حملها واذا سجد وضعها وعن البراء رضى الله عنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن على عاتقه يقول : (اللهم انى أحبه فأحبه) رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى بكر رضى الله عنه : قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بنا فيجىء الحسن رضى الله عنه وهو ساجد وهو اذ ذاك صغير فيجلس على ظهره ومرة على رقبته فيرفعه النبى صلى الله عليه وسلم رفعا رفيقا — رواه الحافظ أبو نعيم .

وأوصى المؤمنين فقال : (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ومن لم يعرف لعالمنا حقه) رواه الترمذى ورآه الاقرع ابن حابس يقبل الحسن فقال ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فأجابه صلى الله عليه وسلم ناظرا اليه نظرة ذات معنى (من

لا يرحم لا يُرحم ـ وما أملك ان كان الله نزع من قلوبكم الرحمة) متفق عليه .

رابع عشر :

بلغت رعاية الاسلام بالاطفال حد منع الآباء أن يبددوا أموالهم فى حياتهم سواء فى المباح أو غير المباح بحيث يتركون أولادهم من بعدهم فقراء فقد أراد سعد بن أبى وقاص أن يوصى بكل ماله للفقراء ويحرم وريثه الوحيد وكانت طفلة صغيرة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم يتكففون الناس) رواه الامام مسلم فى كتاب الوصايا .

خامس عشر :

ان فى وصية لقمان لأبنه فى القرآن الكريم مثالا طيبا عن عطف الأب وحرصه على تربية ابنه واصلاح حاله وماله تتفق مع أصول التربية ونوعيتها يقول سبحانه وتعالى عنه : « واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكرلى ولوالديك الى المصير وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير . يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » سورة لقمان ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

سادس عشر :

ان من آداب الاسلام أنه اذا بلغ الولد يسعى والده على تزويجه

صيانة لعرضه وحماية لابنه من ارتكاب الاثم لذلك فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه فاذا بلغ ولم يزوجه فأصاب اثما فانما اثمه على أبيه) ذكره البيهقى مرفوعا الى ابن عباس رضى الله عنهما .

القرآن الكريم وقصص الانبياء فى طفولتهم .

ان ما قصه القرآن الكريم عن طفولة بعض أنبياء الله هو نماذج فاضلة حية عن طهارة تربيتهم واستقامتهم فى طفولتهم يحكيها لنا القرآن عن هؤلاء الاصفياء كابراهيم واسحق ويوسف وموسى ويحيى والمسيح عيسى بن مريم — ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام .

فعن ابراهيم عليه السلام وحرصه على هداية والده الى عبادة الله وانقاذه من الكفر وغواية الشيطان حتى لا يقع فى عذاب النار يقول الله سبحانه وتعالى عنه « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا . اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » سورة مريم ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ .

ويقول سبحانه عنه وعن ولديه اسماعيل واسحق عليهم السلام فى سورة الصافات مشيرا الى نموذج عال فى طاعة الابن اسماعيل لوالده «وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على ابراهيم

كذلك نجـزى المحسنين انه مـن عبادنا المؤمنـين وبشرناه باسحاق نبيا من الصـالحين وباركنا عليـه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين» سورة الصافات ٩٩ الى ١١٣ •

وعن يوسف عليه السلام يقص الله عنـه أحسن القصص فلقـد تضمنت السورة التى سميت باسمه فى القرآن الكريم عدة حـوادث ورغم قسوتها وعنفها كانت عاقبتها حميدة فقد رماه اخوته فى الجب لكن الله سبحانه نجاه منه وأخذته السيارة التى مرت بالجب فباعوه لعزيز مصر عبدا وبثمـن بخس ، لكن الله جعله سـيدا ـ وراودته سيدة القصر التى هو فى بيتها عن نفسه لـكن الله عصمه منهـا ـ ثم أدخل السجن ذليلا لكنه خرج منه عزيزا مكرما حيث استخلصه الملك لنفسه وولاه أمور البلاد ـ قال تعالى : (نحن نقص عليـك أحسن القصص بما أوحينـا اليك هذا القرآن وان كنت من قبـله لمن الغافلين • اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشـمس والقمـر رأيتهـم لى ساجدين • قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيـدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عـدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمتـه عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حـكيم • لقد كان فى يوسف وأخوته آيات للسائلين) سورة يوسف ٣ الى ٧

ثم تمضى السـورة حتى قوله تعالى مشيرا الى مقولة عزيز مصر الى امرأته عن يوسف بعد شرائه له ثم عنـاية الله به وحفظـه له (وقـال الذى اشتراه من مصـر لامـرأته أكرمى مثـواه عسى أن ينفعنا أو نتخـذه ولدا • وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون • ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين• وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله انه ربى أحسن مثـواى انه

لا يفلح الظالمون. ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهــان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبــادنا المخلصين) سورة يوسف الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

وهــكذا تمضى تلك السورة فى حــوادثها حتى تصــل الى نهايتها باعتراف يوسف بفضــل المــولى سبحانه وتعالى عليه ويشير الى ذلك قوله تعالى عنه (رب قــد آتيتنى مــن الملك وعلمتنى مــن تأويل الاحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مســلما وألحقنى بالصــالحين) سورة يوسف ١٠١ .

وعن موسى عليه السلام يشــير القرآن الكريم الى عنــاية الله به وحفظه من أعدائه حتى بلغ أشده فآتاه الله حكما وعلمــا قال تعالى (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليــه فألقيــه فى اليم ولا تخــافى ولا تحزنى انا رادوه اليــك وجاعلوه مــن المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئيــن . وقالت امــرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصــبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبــدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشــعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولــكن أكثــرهم لايعلمون. ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحســنين) ســورة القصــص ٧ الى ١٤ .

وعن المسيح عيسى عليه السلام يذكر القرآن الكريم موقفــه وهو طفل من بنى اسرائيل عندما طعنوا فيه وفى والدته بغير الحق فيقول الله عنه فى محكم آياته « فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال انى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيــا . وجعلنى

مباركا أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ٠ وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ٠ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » سورة مريم ٢٩ الى ٣٣ ٠

وعن يحيى عليه السلام يقول الله عنه وعن البشارة لوالده زكريا عليه السلام بمولده اثر دعائه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » سورة مريم ٧

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ٠ وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ٠ وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ٠ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » سورة مريم ١٢ الى ١٥ ٠

وعن محمد صلى الله عليه وسلم :

يشير القرآن الكريم الى فضل الله عليه حين مات أبوه وتركه يتيما ولم يخلف له مالا ولا مأوى فآواه وضمه الى من يقوم بأمره حيث كفله جده عبد المطلب بن هاشم ثم من بعده عمه أبو طالب شقيق والده ٠

وكان قبل تكليفه بالرسالة غافلا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة التى لا تهتدى اليها العقول وحدها فهداه سبحانه وتعالى الى مناهج النبوة فى تضاعيف ما أوحى اليه سبحانه من الكتاب المبين وعلمه مالم يكن يعلم كما قال سبحانه « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » سورة الشورى ٥٢ ٠

وكان فقيرا فأغناه الله من فضله ورضاه بما أعطاه من الرزق ٠ قال تعالى :

« ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى » سورة الضحى ٦ ، ٧ ، ٨

ومع شيوع الشرك بين قومه فان قلبه الشريف كان مشغولا بالله خالق الاكوان فكان لا يعرف له ربا غيره ــ وقبيل مبعثه الشريف حببت الخلوة الى نفسه عن الخلق ومجتمع الشرك ويخلو بغار

حراء يتعبد فيه لربه الليالى ذوات العدد ويشغل فكره فيها بالتأمل فى كون الله ويتجه نحو ربه جل وعلا بالتقديس والاجلال وما شاء الله من العبادة على دين جده ابراهيم الخليل عليه السلام ـ واستمر على ذلك حتى جاءه ملك الوحى جبريل عليه السلام وبشره بأنه رسول الله الى العالمين وأقرأه أول الآيات نزولا من القرآن الكريم على سمعه وقلبه الشريف صلوات الله وسلامه عليه وهى :« اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » سورة العلق ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

وبعد

فهذا هو منهج الاسلام فى نظرته الى الطفل والطفولة : عطف وحنان وذوق مرهف وأدب مهذب منذ الولادة الى أن يبلغ الصغير أشده وحتى يصل الى مصاف الرجال .

فهلا قامت الدول الاسلامية بتوجيه أجهزتها التربوية المتخصصة فى شئون التعليم والتربية والاعلام والثقافة الى مراعاة تلك الآداب السامية التى لم يعرف الذوق ألطف منها كمالا ولا أكمل منها لطفا وجمالا حتى تشب تلك البراعم الغضة الطيبة شبابا نافعا لشعوبها صالحا لأمتها ومبعث فخر للاسلام وجماعة المسلمين .

المستشار محمد عزت الطهطاوى

الشــــورى فى الإســــلام

للدكتور عبد الحليم حفنى

أهمية الشورى ليست مقصورة على محيط الحـكم والسلطان ، فليس صاحب الحـكم أو السلطة هو وحده الذى يوجه اليه حديث الشــورى ، بل كل من له صــفة الولاية أو القيــادة ســواء أكانت سياسية أم عسكرية أم اجتماعية ، أم حتى فى محيــط الأسرة كالأب والزوج والأخ الأكبر ، وكل من يقتضى وضعه أن يكون فى موضع الحكم أو التوجيه ، فهو معنى فى نظر الاسلام بالشورى ، وحينمــا يتحدث التشريع الاســلامى عــن الشورى ، فانه لا يقصر توجيههــا على مجال معين ، وانما يوجهها عامة لــكل من يمــلك شيئا من أحــد المجــالين : مجال السلطة ، ومجال التوجيه والاشراف ، وحينما يولى السياسة أو السلطة العامة اهتماما خاصا فى الحــديث عن الشورى ، فليس ذلك لذات السلطة ، وانما لخطورة ما يصدر عنها ، من حيث مساسه بحياة كل من ترعاهم هذه السلطة ، فكما طالب الاسلام ولى أمر المسلمين ، وهو صاحب السلطة العــامة فيهم بالشورى ، ووجــه الخطــاب فى ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعــالى : (وشاورهم فى الأمــر) بوصف النبى هو الذى يشغل هذه المنزلة فى حياته ، نقول ، كما طالب القرآن ولى أمــر المسلمين بالشــورى ، فكذلك جعل الشورى صفة من صفات المؤمنــين فى قــوله عن المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) بل زيادة فى ابراز أهمية الشورى فى حيــاة المسلمين ، تصبح اسما

لاحدى سور القــرآن الكريم ، وهى سورة الشورى .

ويترتب على كون الشورى من صفات المؤمنين ، ألا يستبد صاحب أمر منهم برأيه ، طالمـا كان هـذا الأمر مرتبطا بغـيره ، أو مشتركا مع غيره ، فالأب صـاحب الولاية والتوجيه فى الأسرة ، ولكن لمـا كانت شئون الأسرة لا تعنيه وحده ، ولا تعود آثار توجيههعليه وحده ، وانما على أفراد الأسرة جميعا ، لذلك كان عليه ألا يستبد برأيه فى توجيــه شئونها ، بل يجعــل ذلك شــورى بينــه وبين من يصلح للشورى ، من كل ذى رشــد فى الأسرة ، وكذلك رئيس العمل ، مهما صغرت رياسته ، وسواء أكان هذا العمل حكوميا أم عملا خاصا ، فانه وان كان هو صاحب السلطة فى ادارة هذا العمل ، الا أنه لما كانت شئون هذا العمل لا تعود عليــه وحده ، فانه ينبغى أن يجعل أمره شــورى بينه وبين كل من يصلح للتشاور ، فى أى صورة تنظم طريقة التشاور . وكذلك كل من يكون فى وضع الولاية على غيره ، سواء أكانت هذه الولاية نابعة من سلطة ورياسة ، أم من مجــرد التوجيــه والاشراف .

ومن هــذه الأهميــة الكبيرة للشورى فى اتصالها وتأثيرها فى كل تجمعات الناس فى الأسرة والعمل والسياسة ، من هذا كله نرى اهتمام القــرآن الكريم بابراز الشــورى وتوجيه الناس الى التزامها فى كل أمورهم .

وقــد سلك القــرآن الــكريم أساليب مختلفة كشأنه دائمــا فى توصيل المعنى الى الناس فى صور متنوعة ، وبأساليب متعددة ، لتجد كل نفس منها ما يلائمها ، ومن هذه الأساليب هذا المثــل الذى ضربه القــرآن فى الشــورى ، متضمنا أسلوب احدى الملكات مع قومهــا فى غابر الزمان ، وهى ملكة سبأ فى قصتها مع سليمان عليه السلام ، حين أرسل اليها كتابه مع الهدهد ، طالبا أن تأتى اليه مذعنــة خاضعة هى وسادة قومهــا ، وكان يمكنها

بوصفها ملكة غير منازعة فى سلطانها أن تصدر ما تشاء من قرارات ، ولكنها التزمت أسلوب الشورى فى أدق وأحكم أساليبها ، مما يبدو بوضوح أن القرآن ارتضاه مثالا لأسلوب التشاور فى الحكم ، ومن هذه القصة فى سورة النمل « قالت يأيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو على وأتونى مسلمين ، قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين ، قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون» ومضمون هذه المحاورة بين الملكة والملأ وهم أصحاب الرأى والقيادة ، أنها عرضت عليهم موضوع الكتاب ، وقد بدا من عرضها ومن وصفها للكتاب بأنه (كتاب كريم) أنها تقدره وتقدر عواقبه وآثاره ، ولكنها لم تتخذ حياله بعد قرارا ، وأنها تطلب رأيهم ومشورتهم ، وكان الموقف حينئذ يكاد ينحصر فى اتجاهين ، اما الاستجابة للكتاب بالاذعان والاستسلام ، واما رفضه بالتحدى والاستعداد للحرب ، وقد أعلن المستشارون رأيهم ضمنا ، وهو أنهم ما داموا يملكون القوة والبأس الشديد فلا مبرر للخضوع والاذعان وقبول الهوان ، ويترتب على ذلك اعلان الاستعداد للحرب، ولكنهم صاغوا هذا الرأى فى أسلوب بالغ التهذيب ، معلنين أن الأمر كله بيد الملكة ، وهنا تتجلى حكمة الملكة وسداد رأيها ، فلا تسلك أيا من الخيارين المعروضين ، الاذعان الذليل ، أو المجازفة بحرب محفوفة بالمخاطر ، وانما تلجأ الى حل وسط ، هو كسب الوقت بأن تراسل سليمان ، وفى هذه المراسلة تتحقق لها عدة فرص ، منها أن تعرف حقيقة سليمان ، هل هو نبى حقا يتصرف باسم الله وأمره كما يقول فى كتابه ، أم هو مجرد ملك يريد الغزو والتوسع ؟ ومنها أن رسلها

الى سليمان لا بد أن يفيدوها بمعلومات وأخبار واستطلاع عن سليمان وجنوده ومملكته وأحوالها ، ومنها أنها تستطيع فى هذا المتسع من وقت المراسلة أن تزيد من تدعيم قوتها واستعدادها للحرب •

ومن البدهى أن القرآن لا يسوق القصص والأخبار لمجرد التسلية والترفيه ، وانما يهدف قبل كل شىء الى أن يكون فى كل ما يسوقه تعليم وعبرة للناس يستقونها من خلال هذه القصص والأخبار ، ومع أن مواضع التعليم والعبرة متعددة متنوعة خلال محاورة الملكة ومستشاريها ، الا أننا نستطيع أن نقتطف مما تحفل به هذه المحاورة ، ومما يوحى أن القرآن جعلها من نماذج الشورى المرتضاة مايأتى :

١ ــ الشورى :

فمن الجوانب التى تبعث على الرضا فى سياسة الملكة ، التزامها الشورى ، وجعلها ذلك سياسة ثابتة لها ، وليس لمجرد الانفعال بأمر خطير ، أو موقف معين ، وشعار ذلك « ما كنت قاطعة أمرا حتى يشهدون » والقرآن لا يرى الشورى منّةً من الحاكم أو تفضلا ، وانما هو واجب أساسى فى الحكم ، وجزء أصيل فى السياسة ، ولذلك يجعلها طلبا واضحا ، لا لبس فيه ولا تأويل « وشاورهم فى الأمر » ، كما يجعلها صفة من صفات المؤمنين ، ومعنى ذلك أن يختل جانب من ايمانهم بفقدانها « وأمرهم شورى بينهم » •

٢ ــ الأمانة فى عرض الأمور :

حيث يبدو واضحا أن موقف سليمان وكتابه كانا ضد المصلحة الشخصية الدنيوية للملكة ، فهو تهديد صريح وخطير لملكها وحياتها ان أبت ، ولملكها وعزتها ان خضعت ، وتحت هذا الانفعال الذى يهز كيانها ، ويتهدد حياتها كان يمكن أن تزيف كتاب سليمان أو شيئا منه ، أو تخفيه عن قومها ، أو أن تصوغه لهم بما يوافق رأيها الذى رأته ، مهما يكن هذا الرأى •

ولكنها أبت الا عرضه عليهم كاملا كما هو ، وهذا يمثل الأمانة التى يجب أن يلتزمها المسئول فى كل أمره ، بأن يجعل محكوميه على بينة كاملة من كل أمورهم ، فهذا أدعى الى أن يحيطوه بالثقة والعون مهما قست عليهم الأمور ، أما عدم الأمانة فى عرض الأمور ، فانه بالاضافة الى مجافاته للدين والخلق ، فانه فساد فى الحكم ، ولكنه فساد من طراز خطير ، فان زلة واحدة من زلاته ، قد تدمر مصلحة جماعة أو أمة ، حسبما يكون حجم المسئولية التى يتولاها هذا المسئول .

وكون الأمانة من صلب الدين أمر لا يحتاج الى توضيح ، ومن هنا تتبين سببا من أسباب رضا القرآن الكريم عن هذا الجانب من هذه القصة .

٣ ــ الحزم :

فقد كانت الملكة حازمة عازمة ، بأن صممت على التنفيذ بعد أن استبان طريق الحق لها ولقومها ، ولا نعنى بطريق الحق هنا طريق الدين ، وانما نعنى طريق الصواب فيما انتهى اليه حوار الملكة مع قومها ، من تأجيل التفكير فى الحرب ، ثم سلوك طريق آخر اتفقوا على أنه أفضل الطرق فى هذا الظرف ، فان الحوار لم يكن فى الدين ، وانما كان فى التماس وسيلة لمواجهة هذا الموقف .

والملكة سلكت فى حزمها ثلاث مراحل : أولاها دراسة الموضوع حتى يتكون لديها فهم وحكم تقتنع به ، ولذلك كان حديثها عن كتاب سليمان ، ووصفها اياه بالكرم ، ينبىء عن أنها فهمته ، وكونت فى نفسها فكرة واضحة عنه ، وثانية المراحل عرض القضية على قومها ، ومراجعتهم ومحاورتهم لعلها أن تعثر فيهم على رأى أصوب من رأيها ، أو أن تقنعهم برأيها الذى تكون لديها ان لم تجد عندهم خيرا من رأيها ، ولكنها لم تجد خيرا من رأيها ، وثالثة المراحل أنها حين انتهى التشاور الى الرأى الذى اتفقوا عليه كانت حازمة فى التنفيذ دون تردد أو تراخ (وانى مرسلة اليهم ..)

والحزم أيضا مما رسمه القرآن بوصفه ـ أعنى الحـزم ـ تشريعا سياسيا ملزما وواجبا ، حيث يقول تبارك وتعالى (وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ...) فالمشورة واجبة حتى يتضح وجه الصواب للقائد والمقودين معا ، فاذا اتضح فالمسئولية حينئذ ينفرد بها القائد ، حيث يجب أن يمضى وهم معه ، وقد حققت الملكة هذا فى سياستها ، حيث تقول (ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) فهى التى تقطع الأمر ، ولكن بعد المشورة .

٤ ـ قيادة الاقناع :

ومن مكملات الشورى الاقناع، ومن الواضح أن مستشارى الملكة بعد أن قدموا اليها تقريرهم عن قوتهم واستعدادهم للحرب ، فوضوا اليها الرأى فيما تتخذ من قرار ، وكان يمكن للملكة حينئذ أن تستند الى أنها حققت الشورى، وأنها تتخذ أى قرار بناء على ما انتهت اليه المشاورة من تفويضها فيما تراه ، ولكنها أصرت على أن تبسط لهم أولا حيثيات القرار ، بأسلوب المنطق والحجة ، واستلهام الحكمة وتجارب التاريخ (ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) فمن عادة الغزاة الفاتحين بصفة ملتزمة أن يلجأوا الى التخريب والاذلال بكل ما يتاح لهم من وسائل ، وبعد أن تتهيأ نفوسهم للقرار عن طريق الاقتناع ، يأتى دور التنفيذ الحازم (وانى مرسلة اليهم ...)

وليس فى حاجة الى بيان أن القرآن دائما يدعو الى العقل والتفكير والفقه ، كل ذلك ليكون انقياد المؤمن فى كل جوانب حياته الدينية والدنيوية عن اقتناع ويقين ، لا عن مجرد تبعية عشواء ، حتى ان كثيرا من العلماء يجزمون بأن ايمان المقلد باطل ، وأن الايمان لا يكون صحيحا ولا مقبولا الا اذا كان نابعا من فهم واقتناع .

ومن هنا أيضا نعلم أن هذا الجانب من القصة ليس جديدا ولا مبتورا ، وانما هو مثال متفق مع أسس الاسلام ومبادئه .

٥ ـ طاعة المحكومين :

حيث كان أتباع هذه الملكة يمثلون خير ما ينبغي أن يكون عليه الأتباع ، وذلك أنهم جمعوا في موقفهم هذا بين ثلاث خصال : أولاها الاخلاص ، ممثلا في استعدادهم للتضحية ، وشعاره (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) وثانيتها الطاعة ، وشعارها (والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين) فهم لا ينازعونها سلطانها ، وهم مستعدون لتنفيذ أمرها ، وثالثتها نصح الحاكم وتوجيهه نحو السداد ، وشعار ذلك (فانظري) بمعنى فكري وتدبري ، فهم مع الاخلاص والطاعة لا يغمضون أعينهم ، ولا ينقادون عن جهل وعمى ، وانما يطلبون منها أن تكون قيادتها اياهم عن بصيرة وتعقل وتدبر .

وكل ذلك مما يجعله الاسلام تشريعا وتوجيها عاما ، فأما الطاعة لولي الأمر فهي صريحة في أوامر القرآن الكريم دون شرط ، الا شرطا واحدا ، هو أن يلتزم ولي الأمر شريعة الله ورسوله في حكمه وسياسته (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ...) ، فاذا اختلف أي مسئول مع الشريعة ، فالطاعة والمرد الى الشريعة . وكذلك الاخلاص لولي الأمر ولغيره ، هو من صلب الدين ، ويعبر عنه بالنصيحة التي يعفى عن كثير ، ولا يعفى عن شيء منها ، كقوله تعالى (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ..) وفي الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : (الدين النصيحة ، قيل : لمن ؟ قال : لله ولرسوله وللمسلمين) وكذلك النصح لولي الأمر وتوجيهه نحو الصواب والسداد في طريق الله وشريعته ، كل ذلك في القرآن شديد الوضوح ، وليس في حاجة الى كبير تبيان .

٦ ـ أهمية الغاية :

ومما يوحى برضا القرآن الكريم عن هذا الموقف بما تضمنه من سياسة هذه الملكة وأسلوبها فى الشورى والحكم ، أن هذا الموقف كان وسيلة أو بداية للطريق الى الايمان بالله ، ثم كانت الخطوات التالية كلها اتجاها الى الله ، حتى انتهت بقرار الملكة (قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) • فالخطوات كانت وسيلة الى غاية محددة ، هى الايمان ، والوسيلة والغاية لا ينفصلان ، من حيث انهما يكونان موقفا واحدا •

ومن أسس الاسلام التكامل فى تشريعه ، بمعنى أن كل جوانب التشريع وفروعه يرتبط بعضها ببعض ، وتنبع جميعا من أسس محددة ، فليس فى الاسلام تشريع مبتور يشذ عن قواعد الاسلام وأسسه العامة ، والأساس الأول فى كل تشريع يتعلق بالسلوك فى أى وجه من وجوهه ، أن يكون هادفا الى الخير ، ومقصودا به وجه الله ، ووجه الله هو الخير فى أى صورة من صور الخير •

ومن هذا نستطيع أن تتصور جوانب من أهمية الشورى ، ومدى حرص القرآن الكريم على أن يجعلها أساسا واضحا لكل ما يتعلق بسياسة المجتمعات وقيادتها وتوجيهها ، ولا يعنى بذلك مجتمعا معينا ، وانما يستهدف كل أنواع المجتمعات ، من أصغر مجتمع وهو مجتمع الأسرة ، الى أكبر مجتمع وهو مجتمع الأمة •

وقد يتساءل متسائل : فاذا كان صاحب الرأى مطمئنا الى سداد رأيه ، وصواب فكره ، فهل عليه أيضا أن يلجأ الى المشورة ؟

والجواب أن الأساس الذى تبنى عليه أهمية الشورى ليس عجز صاحب الرأى ، أو قصور تفكيره ، أو احساسه بعدم المقدرة على تكوين الرأى السديد ، بل على العكس ، يفترض فى الشخص الذى يلجأ الى مشورة غيره أنه سليم الفكر ، وصاحب رأى ، بل يفترض فيه فوق ذلك أنه انسان يتصف

بشيء من الحكمة ، التى تمثل قمة النضج والاكتمال فى الشخصية ، ومصدر وصفه بشيء من الحكمة ، أنه لو لم يكن لديه هذا القدر من الحكمة ما لجأ الى مشورة غيره ، فان العقلاء والحكماء هم الذين لا ينطوون على تفكيرهم وآرائهم ، بل يجعلون شعارهم دائما التماس المزيد من المعرفة ، والمزيد من الصواب ، والمزيد من كل ما فيه تدعيم واثراء لما يحملونه من علم أو معرفة أو أراء ، أما الجاهلون والحمقى ، فهم أشد الناس اعتزازا بما لديهم مهما كان صغيرا أو غير ذى شأن ، ومن المعروف أن المرء كلما توغل فى العلم ازداد استصغارا لما لديه من العلم ، وكلما قل نصيبه من العلم أو العقل ازداد اعتزازا بهذا النصيب واكبارا له ، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى شعار العلماء والباحثين عن العلم ، فى صورة خطاب يوجهه الى نبيه صلى الله عليه وسلم « وقل رب زدنى علما » .

واذن فليس أساس المشورة الاحساس بالعجز أو القصور فى سداد الرأى ، وانما أساسها أنها مظهر لنضج شخصية المستشير ، واحساسه بأن له كيانا يريد أن يدعمه ، ويخشى أن يزل ، أو يقصر عما يليق به وبمثله ، فهو يبحث عن أفضل الوسائل التى تمكنه من المحافظة على كيانه ، بالاضافة الى رغبته فى تحقيق أقصى الخير . واذا أردنا شيئا من تفصيل لحقيقة الشورى أو ما تتمخض عنه من ثمرات فيمكن ايجاز ذلك فيما يأتى :

١ ـ الأصل فى اللجوء الى المشورة أن العاقل لا ينبغى أن يجعل للغرور مكانا فى نفسه ، فحينما يريد الاقدام على أمر ، لا ينبغى أن يفترض فى نفسه أنه صاحب الرأى المصيب ، أو الأصوب بل ان الحكمة تفرض عليه أن يضع نصب عينيه أحد احتمالين ، أحدهما جواز أن يخطىء فيما سيقدم عليه من أمر ، وحينئذ يجب أن يبحث عن الصواب ، لأن

النتيجة سواء أكانت خطأ أم صوابا ستعود عليه هـو ، والاحتمـال الآخـر ، أنه حتى لو كان مصيبا فيما سيقدم عليه ، فيجوز أن يكون هناك من هو أصوب منه رأيا ، وأقرب منه الى السداد ، وحينئذ أيضـا يجب أن يلتمس هــذا الأصـوب ، لأنه هـو المستفيد بالنتيجة ، حيث ان الموقف كله انما يعنيه هو وهو صاحب المصلحة ، أما المستشار فهو مجـرد انسان متفضل على المستشير بابداء الرأى واسداء النصيحة فى أمـر يفترض أنه لا مصلحة له فيه .

٢ ــ من المـزايا التى تحققهـا المشـورة للمستشير أن تبعث فى نفسه الثقة بسـلامة موقفـه ، فالمفروض أنه اقتنع بهـذا الرأى الذى انتهت اليه المشورة ، واطمأن الى أنه ليس وحـده الذى رأى أو اقتنع بهـذا الاتجـاه ، وانما يؤيده الذين يثـق فيهم ، ويطمئن الى حسن رأيهم ، وسداد مشورتهم وهـذا من شـأنه بالاضـافة الى ما يحققه من الراحة النفسية ، أن يجعـل صـاحب الموقف يتصرف باطمئنان وثقة وقوة ، وهذا ممـا يساعد على نجاحه فيمـا سيؤديه من موضوع الشورى ، فالفـرق كبير بين من يتصرف بثقة واطمئنان، وبين المزعزع أو المتردد المضطرب ، من حيث ان الثقـة تسـاعد على النجاح ، وعلى الجودة والاتقـان فى أداء العمل ، بينما التردد يدفع غالبا اما الى الفشل ، واما الى عدم اجادة العمل .

٣ ــ ومن المزايا التى تحققهـا الشـورى اشـاعة روح الألفـة والتعاون بين المستشير والمستشار ، فأما الألفة فـلأن المستشير يشعر بأن المستشار حريص على أن يحقق له أقصى الخـير ، وأكبر النفع ، والمستشار يشعر حينئذ بأن الذى جاء يطلب منـه الرأى والمشورة انما يكرمه ويثق فيه ، ولولا هـذا ما جاء يطلب مشـورته ، فكلاهما اذن سيحمل للآخــر روح الود والألفـة ، وأما أن المشورة تحقق التعاون عادة بين طرفى المشورة ، فـلأن المستشـير مهتم بتحقيـق

موضوع الاستشارة بطبعه لأنه موضوعه هو وكذلك المستشار سيهتم بتحقيق هذا الموضوع ، لأنه بعد أن استشير ورأى هذا الرأى ، يهمه أن يتحقق رأيه ، ويهمه أن تطمئن نفسه الى نجاح هذا الأمر ، ولو ليزداد اطمئنانا الى سداد رأيه ، ولو وجد فرصة لمعاونة المستشير فانه فى أغلب الأحيان لن يدخرها ، واذن فستلتقى رغبة طرفى المشورة فى تحقيق هذا الأمر الذى كان موضوع الاستشارة ، ولو تصورنا مجتمعا سادت فيه روح المشورة كما يهدف القرآن الكريم ، فبالتالى ستشيع فى هذا المجتمع روح التعاون .

وأى شىء فى أى مجتمع أجمل وأسمى من اشاعة روح الألفة ، وروح التعاون ، ويكفى الشورى فضلا أن تحقق هذا فى المجتمع .

دكتور عبد الحليم حفنى

أمل فى التصوف مع مطلع القرن الخامس عشر الهجرى

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

فى هـذه الذكرى العطرة التى ينبعث أريجها فى كل مكان فيبعث فى نفس كل مسلم نشوة ، ويرسل الى قلب كل مؤمن عبرة ، ويهدى الى الانسانية بأسرها قصة البطولة والتضحية والكفاح من أجل المبدأ الكريم والمثـل الأعلى والقيمـة الشماء .

فى هذه الذكرى العطرة تتوارد الخواطر على القلوب . فهل مضى على المسلمين حقا أربعة عشر قرنا مـن الزمـان ؟ وهـل هم الآن يستقبلون قرنا جديدا من حياتهم ؟ وهل يستشعرون فى هذا الاستقبال عظمة ماضيهم وقصور حاضرهم ؟ وهل يتطلعون الى مستقبل مشرق يعيد اليهم روحهم التى فقـدوها بتفرق كلمتهم وطغيان المادة عليهم وظهور نزعة الاتكالية والأنانيـة والركون الى الترف والميـل الى التخاذل والاستسلام ؟ هل يتمثلون هذه الذكرى حقا فيرون صاحبها ــ صلى الله عليـه وسلم ــ كيف أنشأ بروحـه العظيمة أمة تبوأت مكانها المرموق وسارت شرقا وغربا ورفعت لواء الاسلام خفاقا عاليا فى كل مكان ؟

وهل تمثلوا صحابته الغر الميامين الذين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم على عينه وسكب فيهم من روحه فأصبح كل فرد منهم أمـة وحده يستطيع أن ينشىء أجيـالا ويصنع رجالا ويؤسس أمصـارا ويعمر أقطارا ؟

وهل يتذكرون ماذا يجب عليهم الآن نحو هذا الدين الذى هجروه والصرح الذى هـدموه والتراث

الذى ضيعوه ؟ هـل يستروحون نسيم يثرب التى استقبلت النبى صلى الله عليه وسلم مهاجرا تردد نشيدها فى حب وأمل وفداء :

طـلع البـدر علينـا
من ثنيـات الـوداع
وجب الشـكر علينـا
مـا دعـا لله داع
أيهـا المبعـوث فينـا
جئت بالأمـر المطـاع

هل يتذكرون الأنصـار الذين كان يود كل منهم لو يفتدى النبى صلى الله عليـه وسلم بروحـه ، ويتطلع الى نظرة رضا من صاحب هذه الرسالة السمحة التى وصلت الأرض بالسماء ، وجاءت لترتفـع بالانسان من وهدة الشرك والضياع الى فضاء الانسان الواسـع وأفق الملأ الأعلى حيث يسبح المخلصون فى عالم نورى فسـيح تصـافحهم الملائكة وتبارك خطـواتهم وتدعو لهم بدعاء القرآن « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم • ربنـا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهـم انك أنت العـزيز الحـكيم • وقهـم السيئات ومن تق السيئات يومئـذ فقد رحمته ، وذلك هـو الفـوز العظيم » •

هل تذكروا هؤلاء الذين آثروا النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه على أنفسهم حتى نزل فيهم قول الحق جل وعلا « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجـر اليهم ولا يجـدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ؟

هل تذكـروا المهـاجرين الذين باعوا نفوسهم لله واستهانوا بكل رخيص وغال فى سبيل نصرة هذا الدين الذى آمنـوا به طواعيـة وحبا ، فأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيل الله وقـاتلوا وقتـلوا ، وتعرضوا لما لا يمكن أن يتحمـله بشر من الشر والبغى والطغيـان حتى مجـدهم القـرآن بقـوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا

من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » ؟

هل تذكروا عليا وفدائيته والصديق وأريحيته والفاروق وعظمته وذا النورين وحياءه وتضحيته ؟

وهل تذكروا الأبطال الفاتحين من أمثال خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وشرحبيل بن حسنة وعكرمة بن أبى جهل وأبى عبيدة بن الجراح والمثنى ابن حارثة الشيبانى وآلاف غيرهم دانوا بعظمة هذا الدين وامتلأت قلوبهم حبا له وايمانا به واستمساكا بحبله واعترافا بفضله ، فكانوا جنودا أوفياء له وأبطالا يجاهدون رفعا لشأنه وتمجيدا لذكره .

هل تذكروا من ساروا على نهجهم من التابعين وتابعى التابعين الذين لم يفقدوا المثل ولم يهدموا القيم ، بل كانوا صورة صادقة لسابقيهم ونسخة أخرى من هذا المنهج السليم الذى لم يدخله زيف ولم يتناوله تحريف ، ولقد ذكرهم القرآن وأشاد بهم مثنيا عليهم بقوله « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم » ؟

هل عرفوا من هؤلاء موسى ابن نصير وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبى وغيرهم من الأبطال الفاتحين ؟

وهل عرفوا من هؤلاء أئمة المسلمين من أمثال سفيان الثورى وسعيد بن المسيب وأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل والليث بن سعد وسعيد بن جبير ، وكثير غيرهم حفظوا لهذا الدين هيبته وعرفوا له مكانته وقيمته فصانوه بقلوبهم وأذاعوه بعلومهم وأدوا أمانته بهمتهم وعزمهم ؟

هل نظر المسلمون الآن الى واقعهم الأليم واستلهموا الشعر ليرسم لهم صورتهم الكليلة ويجسمها أمامهم بقوله :

انى تذكرت والذكـــــــرى مؤرقـــــة
مجــدا تليـــدا بايدينا اضــــعناه
انى اتجهت الى الاســـلام فى بـــلد
تجــده كالطيــر مقصوصا جنــاحاه
ويح العــــروبة كان الكــون مســــرحها
فاصبحت تتــــوارى فى زوايـــــــاه
كم صـــرفتنا يد كنـــا نصـــــرفها
وبات يملكنـــــا شعب ملكنــــــاه
ســل المعـــالى عنـــا اننا عـــرب
شــــعارنا المجــد يهوانا ونهـــواه
هى العـــــــروبة لفظ ان نطقت بــه
فالشــــرق والضــاد والاسلام معنــاه
اســـترشد الغـــرب بالماضى فارشــده
ونحن كان لنـــــا ماض نســـــيناه

أجل كان لنـــا ماض نسيناه ، وبأيدينا أضعناه ..

« فما أصــاب المسلمين لم يكن بأيدى أعــدائهم بقــدر ما كان بأيديهم أنفسهم ، لقد تخلينـا عن بنياننـا طائعين لأعــدائنا فثلموا جــدرانه وحطموا أبوابه ونهبـوا أثاثه ، ثم عدنا نرمى أعداءنا بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ولقــد جاءت الحكمة على ألسنة أجدادنا تقول : ان بيت المهمــل يتعــرض للخراب قبل الظالم . وهى حكمة مردهــا الى التجــربة العمليــة والاحساس الصادق » .

فهل يتذكر المسلمون الآن أنهم فرطوا فى المحافظة على هذا الدين الــذى استودعهم الله اياه فكانت النتيجة ما قاله شوقى :

من عـــادة الاســلام يرفع عــــــاملا
ويســـود المقـــدام والفعـــــالا
ظلمته ألســـــنة تؤاخـــذه بـــكم
وظلمتموه مفــــرطين كســــالى

وهــذا ما نراه . تشتت بعــد اجتماع وخذلان بعــد قوة وذل بعد عز ومنعة ، وأصبح الاسلام يشكو الغربة فى دياره بعد ضياع أنصاره .

هل يتذكر المسلمون ذلك كله وهم فى مطلع عام جــديد فى قرن جديد يهيب بهم أن يعيدوا النظــر فى سجلاتهم ويحاسبوا أنفسهم على هــذا المسخ الذى وصلوا اليــه والتشويه الذى أصابهم فحــولهم من القمة الى الحضيض وأخرجهم من النقيض الى النقيض ووصــل بهم الى حالة يرثى لها الصــديق ويشمت بهــا العــدو ويباركهــا الشيطان .

نظرة الى التصوف :

ولم يبــق الا التصــوف الذى يلوذ به المؤمن على أنه دماء الروح وبقية الحياة فى جسم المريض ، لعله يحث الناس على الاستمساك بالجــوهر والبعــد عن المظهــرية

الجوفاء والمادية البغيضة ، ولكنه لم يسلم كذلك من عدوى الضعف وأصابه ما أصاب غيره من العلل والأدواء .

لقد غلبت عليه فى كثير من الأحيان المظهرية وبعد كثير من أربابه عن التخلق بجوهره الحقيقى الذى ورثوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم امام الزهد والورع ورسول البر والرحمة والعطف وقائد التواضع والتقوى والخضوع والخشوع وحامل لواء المراقبة والمحاسبة ، وأعرف الخلق بالله وأقربهم الى الله وأحبهم لله وأخوفهم من الله .

فلعل أهل التصرف يتذكرون هذه المعانى فى مطلع هذا القرن ليكونوا قدوة لغيرهم ، فيبتعدوا عن هذه المظهرية التى تؤخر ولا تقدم وتضر ولا تنفع ، ويتخذون منهج رسولهم الكريم الذى تخلق به أئمة التصوف القدامى تمام التخلق منهجا لهم ، هؤلاء الأئمة من أمثال الفضيل ابن عياض الذى يقول : « من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة » ويقول : « فى آخر الزمان أقوام يكونون اخوان العلانية أعداء السريرة » ويقول : « لا ينبغى لحامل القرآن أن يكون له الى مخلوق حاجة لا الى الخلفاء فمن دونهم ، ينبغى أن تكون حوائج الخلق كلهم اليه » ومن أقواله « من أظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه وأضمر له العداوة والبغضاء لعنه الله فأصمه وأعمى بصيرته » .

ومن أمثال ذى النون المصرى الذى يقول : « اياك أن تكون بالمعرفة مدعيا أو تكون بالزهد محترفا أو تكون بالعبارة متعلقا » ويقول جوابا لسائل سأله عن المحبة « أن تحب ما أحبه الله وتبغض ما أبغضه الله وتفعل الخير كله وترفض كل ما يشغل عن الله وألا تخاف فى الله لومة لائم ، مع العطف للمؤمنين والغلظة للكافرين واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدين » .

وابراهيم بن أدهم الذى قال لرجل طلب وصيته « اتخذ الله صاحبا وذر الناس جانبا » .

وبشر الحافى الذى يقول : « لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك ، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك ؟ » .

« لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد » .

وسرى السقطى الذى يقول : « أربع خصال ترفع العبد : العلم والأدب والأمانة والعفة .. قليل فى سنة خير من كثير مع بدعه . كيف يقل عمل مع التقوى ؟ » .

والحارث المحاسبى الذى يقول : « اذا أنت لم تسمع نداء الله فكيف تجيب داعى الله ؟ من استغنى بشىء دون الله جهل قدر الله » .

وأبى يزيد البسطامى الذى يقول : « علامة العارف ألا يفتر عن ذكر الله ولا يمل من حقه ولا يستأنس بغيره »

وأبى سليمان الدارانى الذى يقول : « لكل شىء مهر ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها ، لكل شىء حلية وحلية الصدق الخشوع .. من أراد واعظا بينا فلينظر الى اختلاف الليل والنهار »

وكثير غيرهم كانوا أرباب حقائق التوحيد وأصحاب الفراسات الصادقة والآداب الجميلة ، وهم ومن سار على نهجهم متبعون لسنن الرسل ، وستظل طائفة منهم على ذلك الى أن تقوم الساعة ، مصداقا لما رواه السلمى « لا يزال فى أمتى أربعون على خلق ابراهيم الخليل عليه السلام اذا جاء الأمر قبضوا » ولما رواه أيضا فى طبقاته التى رويت منها الأخبار المتقدمة « مثل أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره » .

وهذا خبر مطمئن يبعث التفاؤل فى النفوس ويبشر بأمل فى أن يستيقظ المسلمون بعامة والصوفية بخاصة فينهجوا نهج الرسول الكريم متخذين من حدث الهجرة زادا يحفزهم الى النضال فى سبيل

رفعة هـذا الدين القـويم الذى اختاره الله دينا لعباده ولن يقبـل من أحدهم سواه « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

ان الهجرة كلها دروس نافعـة وفيها للصوفية لفتة كريمة تحمل على هجر ما سوى الله مما يعوق الفرد فى سيره الى الله والتعـرف عليه عن طريق مجـاهدته نفسه وشـهواته والتفـكر فى خـلق السـموات والأرض والتخـلق بالأخلاق الكريمة التى بعث النبى صلى الله عليه وسلم ليتممها ومدحه الله جل وعز بها قائلا له : « وانك لعلى خلق عظيم » .

فهل يتذكر المسلمون ــ وهم على أبواب فصل جديد فى سفر حياتهم الحافل بالعبر والعظـات ــ انهم مطالبون اليوم بأن يعيدوا للاسلام مجـده ، ويرجعـوا له منعته وهيبته ؟

وهل يتذكر الصوفية أن عليهم عبئا مضـاعفا بما يملـكون من طاقات روحية وبما فى أيديهم من قدرة على التحكم فى توجيهـات الأفراد والشعوب ؟ ليتنا جميعـا نتدبر قـول الشاعر اليمنى العزى المصرعى فى ديـوانه « ألحـان الشاطىء » .

مالم نثب كضـياغم الآجام
لابادة الالحـاد والاجـرام

فالويل للاسلام من متربص
بمبادىء الاغـواء والآثام

هذى مبادئهم فهل من ثورة
لله والقـرآن والاسـلام ؟

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

أبو عمرو بن العلاء
ومنهجه في القراءات واللغة

للدكتور صلاح الدين صالح

اسمه وكنيته :

اختلف فى اسمه وكنيته ، فهناك من يرى أن اسمه وكنيته واحد ، وهما : أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان (١) بن عبد الله ابن الحصين والتميمى المازنى (٢) واستدل أصحاب هذا الرأى على ذلك بما نسب الى الأصمعى بأنه قال : قلت لأبى عمرو : ماسمك ؟ فقال لى : أبو عمرو .

وهناك من يرى أن اسمه : زبان (٣) ، ويستدل أصحاب هذا الرأى على ذلك بالبيت الذى أنشده عندما جاء الفرزدق يعتذر اليه من أجل هجو بلغه عنه ، وهو :

هجوت زبان ثم جئت معتذرا
من هجو زبان لم تهجو ولم تدع(٤)

وقيل ان اسمه : العريان ، وقيل : يحس ، وقيل : محبوب ، وقيل : عيينه ، وقيل : عثمان ، وقيل : عياد .

ولادته ، وفاته :

ولد أبو عمرو سنة ثمان وستين وقيل سنة سبعين (٥) فى مكة وعاش فى البصرة ، حيث كان فيها مشاهير العلماء على عهد الفرزدق وكان وثيق الصلة بالحسن البصرى .

ورحل أبو عمرو الى دمشق وافدا على واليها عبد الوهاب

---

(١) أبو الطيب / مراتب النحويين ٣٣ .
(٢) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ٣٥ .
(٣) مراتب النحويين ٣٣ .
(٤) ابن الأنبارى ، نزهة الألباء ٢٤ .
(٥) معرفة القراء الكبار ٨٣ .

ابن ابراهيم الامام ، فتوفى فى طريق عودته من هذه الرحلة سنة أربع وخمسين وقيل سنة تسع وخمسين وقيل انه مات فى الكوفة (١) .

شخصيته :

كان أبو عمرو زاهدا متنسكا ، يروى عنه الأصمعى أنه قال :

وان امرأ دنياه أكبر همه
لمستمسك منها بحبل غرور (٢).

وكان كريما يتصدق على المحتاجين ، وفى هذا يقول الأصمعى : كان لأبى عمرو بن العلاء من غلته كل يوم : فلسان ، فلس يشترى به كوزا ، وفلس يشترى به ريحانا ، فيشم الريحان يومه ، ويشرب فى الكوز يومه ، فاذا أمسى تصدق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفف الريحان وتدقه فى الأشنان (٣) وكان متواضعا بسيطا ، يقول الأصمعى : كنت اذا سمعت آبا عنمرو بن العلاء يتكلم ظننت أنه لا يحسن شيئا ولا يلحن ، ويتكلم كلاما سهلا .

وفى أخريات أيامه تفرغ للعبادة ، وأحرق كل ما كتب ، وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف . (٤)

عقيدته :

كان من أهل السنة ، وكان بينه وبين المعتزلة جولات وجولات ، من ذلك ، ما كان بينه وبين عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة آنذاك . (٥)

مكانته العلمية :

اهتم أبو عمرو بن العلاء بقراءة القرآن الكريم ، وبجمع اللغة وأشعار العرب القدماء وبدأ فى تحصيل العلم وهو صغير ، قبل أن يختن ، وقد تفوق فى العلم تفوقا ملحوظا لدرجة أنه فاق

---

(١) نزهة الألباء : ٢٩ ، معرفة القراء الكبار ٢٨٤ ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٢٩ .
(٢) الزبيدى/ طبقات النحويين / ٣٣ .
(٣) طبقات الزبيدى / ٣٦ — ٣٧ .
(٤) د. أحمد مكى الانصارى ، يونس البصرى : ٦٥ .
(٥) طبقات الزبيدى ٣٤ .

معاصريه ، يقول الأصمعي : وسمعت أبا عمرو يقول ، ولم يقله ان شاء الله بغيا ولا تطاولا ، ما رأيت أحدا قط أعلم مني ، وقال أبو عمرو أيضا : ما سمع حماد الراوية حرفا قط الا سمعته (١) . وقال يونس عنه : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد لكان ينبغي لقول أبي عمرو أن يؤخذ كله ، ولكن ليس من أحد الا وأنت آخذ من قوله وتارك . (٢) ولهذا يعتبره معاصروه ثقة ، قال يحيى : أبو عمرو بن العلاء ثقة (٣) وقال الأصمعي : لم أر بعد أبي عمرو بن العلاء أعلم منه (٤) وروى عنه أنه قال : كنت رأسا والحسن حيّ ، يريد الحسن البصري شيخ البصرة وأمام العصر آنذاك ، وقد أعجب الحسن البصري بأبي عمرو أيما اعجاب حينما مر على حلقته بالمسجد ورأى الناس عكوفا من حوله يستمعون اليه في شغف ولهف ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو عمرو بن العلاء ... فقال : لا اله الا الله ، كادت العلماء أن تكون أربابا ، كل عز لم يؤيد بعلم فالى ذل يؤول ، وفيه يقول أبو عبيدة معمر ابن المثنى : أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر (٥) ، ويقول أبو الطيب اللغوي انه كان سيد الناس وأعلمهم بالعربية والشعر ومذاهب العرب (٦) غير أنه يبدو أنه كان متفوقا على معاصريه في اللغة فقط ، قال الخليل : فكان عبد الله يقدم على أبي عمرو في النحو وأبو عمرو يقدم عليه في اللغة . (٧)

(١) طبقات الزبيدي ٣٧ .
(٢) طبقات الزبيدي ٣٥ ، ونزهة الالباء ٢٥ .
(٣) طبقات الزبيدي ٣٧ .
(٤) د. احمد مكي الانصاري ، يونس البصري ٦٥ .
(٥) السابق ٦٥ ، وعبد العال سيد مكرم ، اثر القرآن الكريم في الدراسات النحوية ٦٣ .
(٦) مراتب النحويين ٣٤ .
(٧) مراتب النحويين ٣٣ .

دراســـته :

بدأ يدرس وهـو صبى ، وفى هـذا يقـول الأصمعى : قال أبو عمرو : أخذت فى طلب العلم قبل ان أختن (١) وقـد درس القرآن الكريم وقراءاته وتفسيره ، واهتم بجمع ألفـاظ العربية ونوادرهـا وبشعر الشعـراء الجاهلين واهتم بدراسة النحو .

منهجه فى القراءات القرآنية :

كان أبو عمرو يقـرأ القرآن بمـا روى ، ولم يكتف بذلك بل كان يصحح القراءة بما سمع وبما قال العـرب ، قال أبو عبيـدة : سمعت أبا عمرو بن العـلاء يقـرأ قوله تعالى : « لتخذت عليه أجرا » (الكهف : ٧٧) فسألته عنه : فقال هى لغة فصيحه ، وأنشد قول المزق العبدى :

وقد تخـذت رجلى الى جنب غرزها
نسيفا كأفحوص القطـا المطـرق

يقال : اتخذ مسجدا اتخاذا وتخذ يتخذ تخاذا بمعنى(١)

وقد أخذ أبو عمرو القراءة عن أهل الحجاز ، وأهل البصرة ، وتعلم فى مكة على مجـاهد وسعيد بن جبير ، وعطاء وعكرمة بن خالد ، وابن كثير . (٣)

وكان أبو عمرو يحاول أن يقرأ القرآن باللغة التى قـرأه بهـا النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال اليزيدى : كان أبو عمرو قد عرف القـراءات فقـرأ من كل قـراءة بأحسنها ، وبما يختـار العـرب ، ومما بلغه من لغة النبى صـلى الله عليه وسلم وكان ثقة فى القراءة ، قال شجاع بن أبى نصر ، رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام، فعرضت عليه أشياء من قراءة أبى عمرو فمـا رد على الا حـرفين أحدهما ، وأرنا مناسكنا ، والآخر قـوله : « مـا ننسـخ مـن آية أو ننساها » (٤)

وقال سفيان بن عيينه : رأيت رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقلت : يا رسول الله ، قد اختلفت على القراءات ، فبقراءة من تأمرنى

---

(١) طبقت الزبيدى ٣٧ .
(٢) الاشباه والنظائر : ٤١/٣ .
(٣) طبقات القراء الكبار ٨٣ .
(٤) معرفة القراء الكبار ٨٤ .

أقرأ ، فقال : اقرأ بقراءة أبى عمرو ابن العلاء • وقال وهب بن جرير ، قال لى شعبة : تمسك بقراءة أبى عمرو ، فانها ستصير للناس اسنادا • (١)

وأبو عمرو أحد القراء السبعة المشهورين ، وكان يقرىء الناس القرآن فى مسجد البصرة ، والحسن على أبى الحسن حاضر (٢) ، وقد ألف كتاب القراءات فى القرآن الكريم (٣) وكتاب مرسوم المصحف واختصره أبو عمرو الدانى ، وكتاب شرح ديوان خرنق أخت طرفه (٤) وكتاب : مفرده قراءة أبى عمر (٥)

واهتم أبو عمرو بتفسير القرآن الكريم ، فقد روى أنه سئل عن قوله تعالى : « فعززنا بثالث » « يس : ١٤ » فقال : المعنى : شددنا وأنشد للمتلمس :

أجد اذا ضمرت تعزز لحمها
واذا تشد بنسعها لا تنبس

وقال أبو عمرو فى قوله تعالى : فرهن مضبوطة ، الرهن بتشديد الراء وضمها والرهان بتشديد الراء وكسرها عربيتان ، والرهن فى الرهن أكثر والرهان فى الخيل أكثر • (٦)

خصائص القراءة عنده :

الخصائص الصوتية : يمتاز أبو عمرو بالخصائص الصوتية الآتية :

١ ـ التوافق الحركى :
Vowel Harmony

يميل أبو عمرو بن العلاء الى توافق الحركات المتتابعة ، وهذا من خصائص لهجة تميم وقيس وأسد وأهل نجران ، وعلى العكس من ذلك لغة أهل الحجاز (٧) ، من

(١) معرفة القراء الكبار ٨٤ ، ومراتب النحويين ٣٥ .
(٢) المحتسب ١ : ٣ ، تاريخ الادب العربى لبروكلمان ٢ : ١٢٩ .
(٣) طبقات الزبيدى ٣٧ ، ورواية اللغة ١٨ .
(٤) الفهرست ٥٣ .
(٥) علم الدين الجندى ، اللهجات فى التراث ١٨٩ .
(٦) الرواية ٦٥ .
(٧) اوضحنا من قبل أن أبا عمرو بن العلاء تميمى . وهذه الخاصية تتناسب مع كونه من تميم .

ذلك ما أخلفنا موعدك بملكنا براءة من الله . (١)

٢ ـ الامالة :

تميز أبو عمرو بامالة كل فتحة طويلة « ألف » رسمت « فى المصحف ياء » وكان قبلها راء نحو : اشترى ، ويشرى ، وأسرى، والنصارى أما ياء بشراى فى سورة يوسف فقد روى عنه أنه قرأها بالفتحة وبالامالة ، وكذلك تترى ورجح ابن الجزرى انه قرأهما بالفتح . والامالة من خصائص تميم أما الفتح فمن خصائص الحجاز ، ويبدو أن الآيات التى قرأها بالفتح قد تأثر فيها بأساتذته . (٢)

٣ ـ الهمزة :

والهمزة من الأمور التى تذبذب أبو عمرو حولها ، فتارة يهمز متأثرا ببيئته تميم وتارة يحول الهمزة الى ياء متأثرا بأساتذته الحجازيين ، ومما قرأه مهموزا .. مرجئون « التوبة : ١٠٦ » ، ترجىء « الاحزاب : ٥١ » ومما قرأه مسهلا ، قوله تعالى : من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل ، وميكال ، ومنساته ، وكذلك واللاى بدلا من اللائى .

وكان أبو عمرو يميل ـ اذا التقت همزتان فى بداية الكلمة ، وكانت الأولى همزة استفهام والثانية فاء الكلمة ـ الى تسهيل الثانية نحو قوله تعالى : أ أنذرتهم (٣) .

٤ ـ حذف الحركة « التسكين » :

مال أبو عمرو الى حذف الحركة سواء من فاء الصيغة أو من عينها أو من لامها « والمقصود بذلك الحركة الاعرابية » .

أ ـ حذف الحركة التى تلى الفاء :

كان أبو عمرو يميل الى حذف الحركة التى تلى هاء الضمير هو أو هى اذا سبقتها واو أو فاء أو لام ، من ذلك قوله تعالى : « وهو بكل شىء عليم » ، « البقرة : ٢٩ » وقوله تعالى : « وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم »

(١) اللهجات فى التراث ١٩٥ ـ ٢٠١ .
(٢) اللهجات فى التراث ٢١٤ ـ ٢١٥ .
(٣) اللهجات فى التراث ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ .

« البقرة : ٢٧١ » ، « وان الدار الأخرة لهى الحيوان » ، (العنكبوت : ٦٤) .

وأبو عمرو بهذا يكون متأثرا بلهجة نجد ونسب التحريك فيه الى الحجاز . (١)

٢ ــ حذف الحركة التى تلى العين :

روى عن أبى عمرو انه كان يحذف الحركة التى تلى العين فى كلمة نعما ، فقد قرأ قوله تعالى : ان الله نعما يعظكم به (النساء : ٢٥٨) وقوله تعالى : ان تبدو الصدقات فنعما هى (البقرة : ٢٧١) وقد قرأ هاتين الآيتين بحذف الحركة التى تتلو العين مع تكرار الميم « تشديد الميم » ، معنى هذا أنه أجاز الجمع بين الساكنين فى وسط الكلمة ، وقد وصفت هذه القراءة بأنها قراءة النبى صلى الله عليه وسلم . (٢)

وروى عن أبى عمرو أيضا انه قرأ قوله تعالى : فى قلوبهم مرض (البقرة : ١٠) .

ويرى ابن جنى أنه لا يجوز أن يكون مرض مخففا من مرض ، لأن المفتوح لا يخفف ، وانما ذلك فى المكسور والمضموم كابل وفخذ وطنب وعضد ، وما جاء عنهم من ذلك فى المفتوح فشاذ لا يقاس عليه ، نحو قول الأخطل :

---

(١) اللهجات فى التراث /١٧٣ .

(٢) أيد الكوفيون احتمال التقاء الساكنين فى وسط الكلمة ، كالامام أبو عبيد القاسم بن سلام والفراء والدانى وينسب اليه قوله ان الاخفاء أقيس والاسكان اثر ، أما البصريون فقد وجهوا اتهامات شنيعة لتلك القراءات ، فللزجاج مثلا وصفها بأنها ليست مضبوطة تارة وبأنها شاذة تارة أخرى وتارة أخرى بأنها رديئة ، ووصف أبو على الفارسى من قرأ هذه القراءة بأنه لم يكن مستقيما عند اللغويين ، لأنه جمع بين ساكنين ، الاول منها ليس بمدلولين « اللهجات فى التراث ١٣٦ » ويرى محمد بن يزيد أن التقاء الساكنين فى وسط الكلمة محال وعلل ذلك قائلا : أما اسكان العين والميم مشدودة فلا يقدر أحد ان ينطق به « أثر القرآن الكريم فى الدراسات النحوية / ٧٥ » . ولنا فى هذه المسألة رأى فى ضوء الدارسات المقارنة ، فنحن نرى أن العربية تشبه فى هذه الظاهرة العبرية والآرامية فهما تجيزان التقاء الساكنين فى وسط الكلمة غير أن السكون الاول ينطق مشربا بحركة الكسر . ونحن نعتقد أن ابا عمرو ايضا كان ينطق السكون الاول مشربا بحركة الكسر .

وما كان كل مبتاع ولو سلف صفقه
يراجع ما قــد فـاته بـرداد
يريـد : سـلف فأسـكن مفطـرا

وينبغى أن يكون مرض هـذا الساكن لغـة فى مرض المتحـرك كالحلب والحلب والطرد والطـرد والشل والشلل . (١)

حذف الحركة التى تلى لام الـكلمة « أى الحركة الاعرابية » .

قرأ أبو عمرو « فتـوبوا الى بارئكم (البقرة : ٥٤) وبعولتهن أحق بردهن (البقـرة : ٢٢٨) ، وكذلك ينصركم فى قوله تعـالى : « فمن ذا الذى ينصركم من بعده آل عمـران) ، ويعلمهم الكتاب والحكمة (آل عمـران : ١٦٤) والهدى والقلائد ذلك لتعلموا . خزائن رحمة ربى (٢) .

وذكر أبو عمرو أن ذلك لغـة تميم ، أما أهل الحجـاز فيميلون الى اظهار الحركة (٣) .

---

(١) المحتسب ١/٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) د. ابراهيم انيس ، من أسرار اللغة ٢٣٩ .

(٣) سيبويه ، الكتـاب ٤/٢٠٢ طبعـة هارون ، ويرى سيبويه أن أبا عمرو يختلس الحركة ولا يحذفها ، واستدل على ذلك بقولهم : من مأمنه فيثبتون النون ، فلو كانت ساكنة لم تحقق النون « الـكتاب ٤/٢٠٢ » ، أما المبرد وابن جنى فقد وصفا قراءة أبى عمرو بأنها لحن ، ورد أبو حيان عليهما وقال : أن ما ذهب اليه المبرد وأعوانه من النحاة ليس بشىء ، لأن أبا عمرو لم يقرأ الا بأثر عن الرسول (ص) وقد ثبت نقل أبى عمـرو وأن الاسكان منقول محكى عن تميم (اللهجـات فى التراث : ١٧٧) .

ونرى أن حذف العلامة الاعرابية من علامات التطور اللغوى عنـد تميم ذلك ان اللغات السامية فى تطورها تميل الى حذف الحركة الاعرابية ونستدل على ذلك بمـا هو الحال فى اللغة الاكدية فاللغة الاكدية القديمة كانت تهتـم بالاعراب والمتوسطة كانت تتأرجح بين الاهتمام بالاعراب وعدم الاهتمام به أما اللغة الاكدية الحديثة فانهـا اهملت الاعراب تماما وفى اللغة الحبشية نجد انهـا أهملت حركتى الضم والكسر وابقت على الفتح ، والامثلة التى وردت عن أبى عمرو تشر الى اهمال الرفع والجر فى حين لم يشر الى اهمال النصب . وهـذا يدل على أن لغة تميم قطعت شوطا فى التطور اللغوى لم تقطعه لغة أهل الحجاز التى حافظت على الحـركات الاعرابية الثـلاث . أما ما يستدل بذلك على ضـآلة دور الاعراب فى ايضـاح المعنى فهو رأى مردود فيه فى رأينا .

حذف حركة ضمير الغائب المتصل في حالة الوصل :

قرأ أبو عمرو .. نؤته منها (آل عمران : ٤٥) ، ونحشره يوم القيامة (طه : ١١٤) ، ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك (آل عمران : ٧٥) (١) ، ونسب الكسائي ذلك الى لغة عقيل وكلاب ونسبه الفراء الى أزد السراء (٢)

الادغام :

كان أبو عمرو يميل الى الادغام، وكان يقول : الادغام كلام العرب الذي يجرى على ألسنتها ولا يحسنون غيره (٣) ، وكان يميل الى :

أ ــ ادغام المثلين ، من ذلك تكرار الراء ، كما في قوله تعالى : خذ العفو وأمر ، وشهر رمضان (٤) ونحو قوله تعالى « لا تضار والدة بولدها » (البقرة : ٢٣٣) .

وظاهرة ادغام المثلين من خصائص لهجة تميم أما أهل الحجاز فكانوا ينكرون الادغام (٥) ، ومن ذلك أيضا ادغام الراء في اللام : في قوله عز وجل : « يغفر لكم خطاياكم » (البقرة : ٥٨) (٦) .

---

(١) اللهجات في التراث ٤٠٧ .

(٢) لم يعترف البصريون بهذه القراءات ، فزعم الزجاج وابن السراج ان القراءة غلط بين ، ورأى سيبوية انها ضرورة ، ورد عليهم أبو حيان ، وقال أن هذه قراءة في السبعة ، وهى متواترة ، وكفى انها منقولة عن امام البصريين أبى عمرو بن العلاء ، فانه عربى صريح وسامع لغة وامام في النحو .

(٣) اللهجات في التراث / ٢٤١ .

(٤) ويرى النحاة أن هذا ليس ادغاما حقيقيا بل هو اخفاء المثلين « شرح الشافية » ٢٤٧/٣٠ .

(٥) اللهجات في التراث ٢٢٣ ــ ٢٢٤ .

(٦) وصف النحاة هذا الادغام بالخطأ ونسب الى الراوى ، وقالوا ان ابا عمر أخفى الراء فخفى على الراوى فتوهمه ادغاما (أثر القرآن = الكريم في الدراسات النحوية ١٧٥ في حين ان الادغام كما قلنا من خصائص لهجة تميم وأبو عمر تميمى لهذا نرجح اننا هنا امام ظاهرة الادغام وليس امام ظاهرة الاخفاء .

ومن ذلك أيضا ادغام اللام فى الثـاء : فقرأ أبو عمرو : هثـوب الـكفار (المطففين : ٣٦) ، يريد هـل ثوب الكفار (١) فمـن ذلك أيضا ادغام الحاء فى العين فى قوله عز وجل : « فمـن زحـزح عن النـار ، وهنـا قلب الحاء عينـا ثم ادغمها فى عين عن

التضعيف :

كان أبو عمرو بن العلاء (٢) يميل الى التضعيف وهو من خصـائص تميم وسـفلى قيس فقـد قـرأ بالتضعيف للدال فى الهـدى فى الآيات الآتية : حتى يبلغ الهـدى محله (البقرة : ١٩٦) والهـدى معكوفا أن يبلغ محـله (الفتح : ٢٠) ، فان احصرتم فما استيسر من الهدى (البقرة : ١٩٦) (٣) •

وكان يميل أيضا الى التضعيف فى الأفعال المضـاعفة دسـاها فى قوله تعالى وقـد خاب من دساها (الشمس : ١٠) وكان يميـل كذلك الى الوقوف بالتضعيف مع نقل الحركة للحـرف الأخـير الى ما قبله ، نحو قوله تعالى وتواصوا بالصبر (٤) والوقف بالنقل يعزى الى تميم • (٥) •

الخصائص الصرفية :

تأرجح أبو عمرو بن العلاء فى نطق الأبنية ، سواء أبنية الأسماء أو الأفعـال بين لهجتى الحجـاز وتميم •

أ ــ أبنية الأسماء :

١ ــ قرأ بلهجـة أهل الحجـاز قوله تعـالى : ينشر لكم ربكم من

(١) سـيبويه ، الكتاب ٤/٤٥٩ تحقيق هارون .
(٢) شرح الشافية ٣/٢٧٤ ــ ٢٧٧ ويسمى الرضى ذلك اخفاء وغيره ادغاما مجازا .
(٣) اللهجات فى التراث ٥٢٩ .
(٤) اللهجات فى الترات ٢٧٣ .
(٥) نفسه ٣٨١ ــ ٣٨٤ .

رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا (الكهف : ١٦) ف « مرفق » بالكسر لهجة أهل الحجاز وبالفتح لهجة تميم (١) وقوله تعالى : اذ أنتم بالعدوة الدنيا (الانفال : ٤٢) . (٢) وقوله تعالى : الا من اغترف غرفة بيده (٣) (البقرة : ٢٤٩) :

ب ـ أبنية الافعال :

تأرجح أيضا فى نطق الأفعال بين لهجتى الحجاز وتميم ، فمما نطقه بلهجة الحجاز ومن يقنط (الحجر : ٥٦) ويقنطون (الروم : ٣٦) لا تقنطوا (الزمر : ٥٣) بكسر النون أى من باب ضرب يضرب أما الباقون بفتحها أى من باب علم يعلم وهذه لغة تميم (٤) .

ومما نطقه بلهجة تميم كسر حرف المضارعة من الأفعال من باب فعل يفعل : نحو ولا تركنوا الى الذين ظلموا (هود : ٢١٣) وتعرف هذه الظاهرة بالقلقة (٥) ، ونحو من أن تأمنه (٦) .

نون الوقاية :

تمتاز لهجة أهل الحجاز بأنها لاتقحم نون الوقاية اذا أضيف ضمير المتكلم فى حالة المفعولية الى الفعل المضارع المرفوع بالواو والنون ، أما تميم فانها تقحم النون ، وقد قرأ أبو عمرو متأثرا بلهجة تميم قوله تعالى « فبم تبشروننى » (الحجر : ٥٤) . أما أهل المدينة فقرأوا « فبم تبشرونى » .

الاعـــراب :

تأثر أبو عمرو بن العلاء فى الاعراب بآرائه النحوية ، فمن المعروف عنه أنه يميل الى التقدير وهكذا قرأ يا جبال أوبى معه والطير ، وقال بالنصب على اضمار وسخرنا الطير لقوله على أثر هذا ولسليمان الريح أى وسخرنا الريح .

وبالاضافة الى ذلك كان يؤيد القراءة التى تتلائم مع المروى عن العرب ، لهذا نجده ايد قراءة

(١) نفسه ٤٨٧ .
(٢) نفسه ١٨٣ .
(٣) نفسه ٨٨ ـ ١٩٩ .
(٤) نفسه ٤١ .
(٥) اللهجات فى التراث ٣٠٣ .
(٦) نفسه ٣٠٤ وعزيت هذه الظاهرة الى تميم وبهراء .

النصب فى (ايهم) فى قوله تعالى : « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد » (مريم : ٦٩) قال أبو عمرو : خرجت من الخندق ، يعنى خندق (البقرة) .

وكان أبو عمرو يميل الى العطف على الجوار لهذا قرأ بالنصب بدلا من الجزم أى أكون بدلا من أكن فى الآية الكريمة :

« لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » (المنافقون : ١٠) ، فقرأ وأكون عطف على فأصدق المنصوب على جواب التمنى فى قوله لولا أخرتنى لهذا قرأ تكذب بالرفع عطف على نرد فى الآية الكريمة : فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (الأنعام : ٢٧) (١) .

وقرأ نحاس عطفا على نار فى الآية الكريمة : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس (الرحمن : ٣٥) .

وكذلك وأرجلكم فى قوله تعالى : وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين (المائدة : ٣) . (٢)

منهجه فى الدراسات الصرفية :

اذا التقت الهمزتان وكل واحدة منهما فى كلمة ..

يرى أبو عمرو تخفيف الأولى وتحقيق الأخرى : فقد قرأ الآية الكريمة فقد جاء اشراطها (محمد : ١٨) فقد جاء اشراطها ، يازكرياء انا نبشرك (مريم : ٧) يا زكريا انا نبشرك . (٣)

واذا كانت الهمزة همزة استفهام والثانية أصل من أصول الكلمة فانه يخفف الهمزة الأولى أيضا كما يخفف بنو تميم فى اجتماع الهمزة نحو انك وأأنت (٤) .

بالنسبة الى الاسم المقصور :

الوقف ..

كان أبو عمرو يقف على الأسماء المقصورة بالألف ويرى أنها عوض عن حذف التنوين ، ذلك أنه اذا حذف التنوين ردت اللام الى

---

(١) القرآن الكريم / دائرة فى الدرات النحوية / ٧٦ .
(٢) نفسه ٣١٦ .
(٣) سيبويه ٥٤٩/٣ .
(٤) سيبوية ٣٤٢/٣ .

أصلها وهــو الياء ثم تقلب الفــا لوقوعها بعد فتحة (١) وانطلاقا من هذا الاتجاه قرأ أبو عمــرو تترى بالتنــوين فى الآية الكريمة (٢) : ثم أرسلنا رسلنا تترى (المؤمنون : ٤٤) على أنه مقصور كقولك حمدا وشكرا والوقف على هذا ــ كمــا هو مذهبه على الالف المعوضة من التنــوين (٣) وممــا يدل على أن أبا عمــرو يعــامل تترى معــاملة الأسماء المقصورة أنه نونها فأمــا من لم ينونها فانه يعــامل الألف المقصورة على أنهــا للتأنيث كألف سكرى .

بالنسبة الى الاسم المنقوص :

يرى أبو عمرو أنه يوقف عليــه بحذف الياء فيقــول هــذا قاض وهذا غاز .

٣ ــ بالنسبة الى الفعل المسند الى ضــمير النصب للمتكلم : أكرمن

ويعامله أبو عمرو معاملة الاسم المنقوص ربى (الفجر : ١٥) ربى أهانن (الفجر : ١٦) .

المنوع من الصرف

١ ــ يرى أبو عمرو أن العــلم المــؤنث الذى يتــكون من ثلاثة أحرف وكان الأوسط منــه ساكنا فأنت بالخيار ان شئت صرفته وان شئت لم تصرفه .

وان سميت المؤنث بعمرو أو زيد لم يجز الصرف . (٤)

٢ ــ من المنــوع من الصرف أيضا اسماء القبائل مثل سبأ . (٥)

٣ ــ القاب تمنع من الصرف مثل هذا سعيد كسرز وهذا قيس قفــة وهذا زيد بطة واذا نونت فقــدت التعريف . (٦)

٤ ــ غدوة أو بكرة اذا دلت على معرفة لم تنون وكذلك العــام الأول (٧) .

---

(١) شرح الشــافية ٢٨٢/٢ ــ ٢٨٤ .
(٢) شرح الشافية ٨١/٣ هـ ١ .
(٣) القرطبى ١٢٥/١٢ .
(٤) سيبوية ٣ / ٣٤٢ .
(٥) سيبويه ٢٥٣/٣ .
(٦) سيبويه ٢٩٤/٣ .
(٧) سيبويه ٢٩٣/٣ ــ ٢٩٤ .

٥ ــ كان أبو عمرو بن العلاء يجعل مثل يوم يوم وصباح مساء وبيت بيت وبيتين بيتين بمنزلة الاسم الواحد فى حال الظرف أو الحال (١) والآخر من هذه الأسماء فى موضع جر ، وجعل لفظه كلفظ الواحد وهما اسمان أحدهما مضاف الى الآخر •

٦ ــ ويرى انه ان سميت رجلا بضارب من قولك : ضارب وأنت تامر فهو مصروف وكذلك ان سميته ضارب أو ضرب • (٢)

٧ ــ صيغة التصغير من الاسم المتصرف تكون منصرفة من ذلك سرحان (٣) وسريحين أما غضبان فتصغيره غضيبان (٤) •

قال أبو عمرو فى قوله تعالى : أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع (فاطر : ١) صفة كأنك قلت : أولى أجنحة اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة • (٥)

الميزان الصرفى :

يرى أبو عمرو أن موسى ، على وزن مفعل ، وشرح ذلك فقال : هو أيضا مفعل بدليل انصرافه بعد التنكير وقال أيضا ان مفعلا أكثر من فعلى ، فحمل الاعجمى على الاكثر أولى وهو ممنوع ، لأن فعلى يجىء مؤنثا لكل أفعل تفضيل ومفعل لا يجىء الا من باب أفعل يفعل وهو عنده لا ينصرف للعجمة والعلمية وينصرف بعد التنكير كعيس (٦)•

هذا ويوضح لنا مذهب أبى عمرو فى القياس فهو يرى ان اللفظ علم لهذا فهو اسم مفعول من أفعل ومن ثم فوزنه مفعل وانه لا يمكن ان يكون فعلى لأنها مؤنث أفعل •

الحقيقة ان هذا اللفظ عبرى وهو اسم فاعل من الفعل الناقص : ماشا Maasaa

(١) سيبويه ٣/٣٠٣ .
(٢) سيبويه ٣/٢٠٦ .
(٣) سرحان مصروف بالرغم من انه يحتوى على الالف والنون وذلك لأنه علم وانما يمنع من الصرف الصفات .
(٤) سيبويه ٣/٢١٦ .
(٥) سيبويه ٣/٢٢٥ .
(٦) شرح الشافية ١/٣٤٨ .

ويقابل مسَّى فى العربية ، وجاء فى اللسان ومسيت الناقة اذا سطوت عليها وأخرجت ولدهـا (اللسان ٢٠/١٤٨) والمعنى العبرى كالمعنى العربى تماما أى اخراج الجنين من رحم أمه واسم الفاعل منه

« ويقـاس ماسى وماس . وكان أبو عمرو يقول ان حلقـة وحلق جمع ويرى السيرافى أن ذلك هو القياس فهو بمنزلة شجرة وشجـر أما غيـره فقال حَلْقَه° وَحَلَق وفلكـــه وفلك وهـذا هــو الشاذ » . (١)

النسب

١ ـ وزن فعله اذا كان معتـل اللام بالياء حيـة ولية ـ تصبح فى النسب حيى وليى أمـا غـيره فيقول حيوى وليوى . (٢)

٢ ـ وكذلك ظبية وظببى أما يونس فيقول ظبوى . (٣)

٣ ـ ابن وأسم واست واثنـان واثنتان وابنة أى الألفاظ الثنائية المـزيدة بألف وصل ـ اسمى ـ استى ـ ابنى واثنى فى اثنيـــن واثنتين . (٤)

التصغير

١ ـ كان أبو عمـرو يرى أن التصـغير من مـر هـو مرىء ، ويرى هـو يرىء أى أنه يهمـز ويجـر . (٥)

٢ ـ كـان يـرى أن تصـغير أحوى هـو أحى (٦) وذلك على قيـاس أسـود أسيود وأصـل صيغة التصـغير هو أحيوى وكان أبو عمرو يحـذف الواو الثالثـة مع التنوين قياسا على حـذف ياء قاضى ـ قاض ـ أحى ويعيـدها مع التعريف بأل أو بالاضافة فيقال الاحى . (٧)

والتنوين فى أحى عـوض عن حذف الواو ولا يدل على الصرف فهى ممنـوعة من الصرف وتصرف مع التعريف . (٨)

---

(١) سيبويه ٣/٥٨٤ .
(٢) ٣/٣٤٥ .
(٣) سيبويه ٣/٣٤٧ .
(٤) سيبويه ٣/٣٦١ .
(٥) سيبويه ٣/٤٥٧ .
(٦) سيبويه ٣/٤٧٢ .
(٧) شرح الشافية ١/٣٢٤ ـ ٢٢٦ ـ ٢٢٣
(٨) شرح الشافية ١/٢٣٤ .

٣ ــ وكان يــرى أن تصــغير خبازى هــو خبيزة ، وكان يرى انه اذا حــــذفت ألف التــأنيث المقصورة أبدل منها تاء (١) • ولم ير ألف غيره من النحاه • (٢)

التـــذكير والتأنيث

كانت العرب تميل الى الحمــل على المعنى ، حـــكى عن أبى عمرو أنه سمع رجلا من اليمـــن يقول : فلان لغوب جاءته كتابى فاحتقرها ، فقلت له : أتقول كتابى فقــال : نعم أليس بصحيفة • (٣)

المصـــدر

كان أبو عمرو يرى أن القبول بالفتح مصدر وأنه لم يسمع غيره واعتــرض أن يكون الوضــوء مصدرا وقال الأصمعى : قلت لأبى عمرو : ما الوضوء فقال الماء الذى يتوضأ به•قلتفما الوضوء بالضم قال : لا أعرفه (٤) •

الفعــل المضارع من الفعل الناقص :

يرى أبو عمرو أن المضارع من الفعل الناقص مثل عوى هو بكسر العين نحو يقوى ، يستفاد ذلك من القصة الآتية :

أخطأ رجل فى نطق الفعل الناقص بحضرة ابى عمرو بن ا لعلاء حيث أنشد قول المرقش الأصغر :

أفمن يلق خيــراً يحمــد النـــاس أمـــره ومــن يغــوه لايعــدم عــلى الــغى لائمـــا

فقال له أبو عمرو أقومــك أم أتركك تتسكع فى طمتــك فقال : بل قومنى ، فقال : قل : ومن يغو بكسر الواو ، ألا ترى الى قــوله تعالى : وعصى آدم ربه فغوى (٥)

ويرى أبو عمرو أن يهلك الحرث بفتــح اللام وركــن بركــن من التــداخل لأن ركن مضـــارعه يركن • (٦)

منهجه فى النحو :

وتبعد هنا الجمــلة : أنواعهــا وتراكيبها :

ا جملة المثبتة :

الجملة المثبة الاسمية :

تحدث أبو عمرو عن العنــاصر

(١) سيبويه ٤/٤٣٦ .
(٢) شرح الشافية ١/٢٤٤ .
(٣) اللهجات فى التراث / ٥٠٣ .
(٤) شرح الشافية ١/١٥٨ هـ ٢ .
(٥) اللهجات فى التراث / ٤٥٦
(٦) شرح الشافية ١/١٢٥ .

الصرفيــة التى تــكون الأجــزاء الأساسية فى الجملة المثبتة الاسمية من ذلك مثلا أنه أوضح :

١ ــ بالنسبة الى المبتدأ :

١ ــ الضمائر الشخصية : يمكن أن تكون مبتدأ نحو ما أظن أحدا هو خير منك ، وما أجعل رجــلا هو أكرم منك وما أخال رجلا هو أكرم منــك •• فالضمير هــو فى الامثلة السابقة مبتدأ وليس ضمير فصل لأن ما قبله نكرة ، ذلك أن الضــمير يكون فصــلا اذا سبق بمعــرفة وبنــاء على ذلك وصف القراءة الآتية باللحن : هؤلاء بناتى هــن أطهــر لــكم بنصب أطهــر (هود / ٧٨) • (١)

تستخدم كم مبتدأ اذا أضيفت الى ما بعدها وكان الاسم التــالى مرفوعا على أنه خبر ، نحوكم رجل أفضل منك • (٢)

الخبــــر :

ظرف المــكان يمكن أن يكون خبــرا عندمــا يكون االمبتدأ اسم ذات (٣) نحـــو دارى من خلف دارك فرسخان • (٤)

المفعـــول به :

هنالك تراكيب وردت فيها أسماء منصــوبة ويرى أبو عمــرو أن الناصب لها فعل محــذوف مثــل منطلق فى التعبير الآتى • أما أنت منطلقا أنطلق معك وفى رأيه أن ذلك بمثــابة لأن صرت منطلقــا أنطلق معك • (٥) ومن ذلك أيضا الارجل اما زيدا واما عمــروا ، ويرى أن الا رجل بمثابة اللهم اجعله زيدا أم عمروا أو وفق لى زيدا أو عمرا ومــن هنــا يــرى أن الفعـــل محذوف • (٦)

ظرف الزمان أو المــكان يكون منصوبا دائما : وابنيته ظرف المكان

---

(١) سيبويه الكتاب ٣٩٣/٢ ، ٣٩٧ (٢) الكتاب ١٦١/٢ .
(٣) الكتاب ٤١٧/١ .
(٤) الكتاب مصدر اما ظــــرف الزمان فيكون خبرا للمصادر فقط .
(٥) سيبويه ٢٨٦/١ .
(٦) سيبويه ١٠١/٣ .

هى خلفك قدامك ــ أمامك ــ نحو قولهم • منازلهم يمينا ويسارا وشمالا ونحو قول عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمرو
وكان الكأس مجراها اليمينا (١)

المستثنى :

يكون المستثنى بدلا من المستثنى منه نحو ما أتانى القوم الا عبد الله • (٢)

الجملة

١ ــ الجملة المنفية :

من المعروف أنها تتكون من مبتدأ وهو اسم لا ، والخبر ومن الممكن أن يكون الخبر اللام الجاره مع مجرورها مثل ذلك لا غلامين ولا جاريتين لك • أو لا غلامين لك • (٣)

جملة الشرط :

يرى أن أما « أن+ما » تستخدم أداة للشرط والتفضيل فتكون أداة للشرط اذا رفع الاسم بعدها وفى هذه الحالة يشترط أن يكون الاسم الواقع بعد الفاء تكرارا لما قبلها وألا يكون الاسم بعدها مصدرا أو وصفا ويرى أبو عمرو أن الاسم هنا يعرب مبتدأ وخبره مابعد الفاء : نحو : أما العبيد فذو عبيد ، وأما العبد فذو عبد ، وأما عبدين فذو عبدين

وقد لا تستخدم أداة للشرط اذا لم تتحقق الشروط (٤) السابقة وفى هذه الحالة يكون الفعل فى جملة الجواب مرفوعا وليس مجزوما نحو أما وأنت منطلقا أنطلق معك (٥) ، ويرى أن معنى هذا التركيب هو بمثابة قولك لأن صرت منطلقا انطلق معك •

(١) سيبويه / الكتاب ٤٠٥/١ •
(٢) سيبويه / الكتاب ٣١١/٢ •
(٣) الكتاب ٢٨٢/٢ طبعة هارون •
(٤) الكتاب / سيبوية ٣٨٧/١ ــ ٣٨٨ طبعة هارون ، شرح الكافية ٣٩٧/٢
(٥) الكتاب / سيبويه ١٠١/٣ •

جملة النـداء

يرى أنه اذا تكرر المنادى العلم فانه يكون بمثابة البدل ويرفع نحو يازيد زيد الطويل ويخالف بذلك رؤبة فـكان يقـول : يا زيد زيد الطويل . (١)

ويرى أيضا أن اليـاء تبقى فى المنادى سواء فى الوصل والوقف وكـذلك كان يقـرأ يا عبـادى فاتقون . (٢)

يـرى أن أداة النـداء « يا » تدخل على ويلا لك ، ويحا لك ، ويصـبح التـركيب يا ويل لك ، يا ويح لك .

دكتور صلاح الدين صالح

(حقائق)

* حفظ الصحة أيسر من علاج العلة .
* أوجع الضرب مالم يكن معه بكاء .
* الدنيا كالحية : لين لمسها ، قاتل سمها .
* حياتنا احلام تنتهى برقاد الموت .
* طوبى لمن كان لبصره فى قلبه ، والويل لمن كان قلبـه فى بصره .
* ثمرة الادب العقل الراجح ، وثمرة العلم العمل الصالح.

---

(١) سيبويه ١/١٨٥ .
(٢) اتحاف فضلاء البشر / ٣٧٥ .

إياك نعبد وإياك نستعين

فضيلة الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين •

وبعد :

فيقول الله تعالى :

« اياك نعبد واياك نستعين » •

العبادة : هى الفعل الذى يؤدى به الفرض لتعظيم الله سبحانه وتعالى ، وهو مأخوذ من قولهم : « طريق معبد » أى مذلل •

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ، من العبد ، ونهاية التعظيم لله سبحانه ، لأنه العظيم المستحق للعبادة ، ولا تستعمل العبادة الا فى الخضوع له تعالى ، لأنه مولى أعظم النعم ، وهى ايجاد العبد من العدم الى الوجود ، ثم هداه الى دينه ، فكان العبد حقيقا بالخضوع والتذلل له سبحانه ، وما سمى العبد عبدا الا لذلته وانقياده •

وقول العبد : « اياك نعبد » معناه : اياك نخص بالعبادة ، ونوحدك ونطيعك خاضعين لك لا نعبد أحدا سواك •

والذى يدل على حصر العبادة لله وحده سبحانه ، أن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم ، والاجلال مع وجود الذلة والافتقار والانكسار ، والخضوع والخشوع ، والتواضع ، وصرف الهمة وعدم الانشغال والاشتغال •

والعبادة على هذا النحو لا تليق الا بمن صــدر عنــه غاية الانعام والافضال والاحسان .

وأعظم وجوه الانعام : الحيــاة التى تفيد التمكن من الانتفــاع ، وخلق المنتفع به .

ولما كانت المصالح الحاصلة فى هــذا العالم انما تنتظم بالحــركات الفلكية على سبيل اجراء العادة ، ثبت أن كل النعم حاصلة بايجــاد الله سبحانه ، فوجب أن لا تحسن العبادة الا لله تعالى ، ولهذا قال : « اياك نعبد » .

وبافادة الحصر فى قوله : « اياك نعبد » تعين أن الله تبارك وتعــالى سمى نفســه بأسماء هى : الله ، والرب ، والرحمــن ، والرحيم ، ومالك يوم الدين .

وللعبد أحوال ثلاثة : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل .

أما الماضى فقــد كان معــدوما محضا كما قال تعــالى : (وقــد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) .

وكان ميتا فأحياه الله تعالى كما قال : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » .

وكان جاهلا فعلمه الله كما قال : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

والعبد انما انتقــل من العــدم الى الوجــود ، ومــن الموت الى الحياة ، ومن العجز الى القدرة ، ومن الجهل الى العلم ، لأجل أن الله تعالى كان قديما أزليا ، فقدرته الأزلية وعلمه الأزلى ، أحدثه ونقله من العدم الى الوجود ، فهــو اله لهذا المعنى .

وأما الحال الحــاضرة للعبــد فحاجته شديدة ، لأنه كلمــا كان معــدوما كان محتــاجا الى الرب الرحمن الرحيم ، فلمــا دخــل فى الوجــود انفتحت عليــه أبــواب الحاجات ، وحصلت عنده أسباب الضرورات ، فقــال الله تعــالى : (أنا اله لأجل أنى أخــرجتك من العدم الى الوجود ، أمــا بعد أن

صرت موجودا فقد كثرت حاجاتك الى فأنا رب رحمن رحيم) •

وأما الحال المستقبلة للعبد : فهى حال ما بعد الموت والصفة المتعلقة بتلك الحالة هى قوله : « مالك يوم الدين » فصارت هذه الصفات الخمس من صفات الله تعالى متعلقة بهذه الأحوال الثلاثة للعبد ، فجميع مصالح العبد فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، لا تتم ولا تكمل الا بالله وفضله واحسانه ، فلما كان الامر كذلك وجب أن لا يشتغل العبد بعبادة شىء الا بعبادة الله تعالى وحده ، فلا معبود الا هو ، ولهذا قال سبحانه :

« اياك نعبد واياك نستعين » ••

ولما كان الله تبارك وتعالى ، أشرف الموجودات وأعلاها قدرا ، وقدرته سبحانه أعلى من قدرة غيره ، وعلمه أكمل من علم غيره ، وجوده أفضل من وجود غيره ، وجب القطع أن عبوديته تعالى أحق وأولى من عبودية غيره •

فاستحقاق العبادة يستدعى قدرة الله تعالى ، بأن يمسك سماء بلا علاقة ، وأرضا بلا دعامة ، ويسير الشمس والقمر ، ويخرج النار من السحاب تارة ، والهواء أخرى ، والماء ثالثة •

وأما فى الأرض : فتارة يخرج الماء من الحجر ، وهو ظاهر ، وتارة يخرج الحجر من الماء ، وهو الجمد ، ثم يجعل فى الأرض أجساما مقيمة لا تسافر وهى الجبال ، وأجساما مسافرة لا تقيم وهى الانهار •

وخسف بقارون فجعل الأرض فوقه ، ورفع محمدا صلى الله عليه وسلم ، فجعل قاب قوسين تحته ، وجعل الماء نارا على قوم فرعون : أغرقوا فأدخلوا نارا ، وجعل النار بردا وسلاما على ابراهيم ، ورفع موسى فوق الطور ، وأغرق الدنيا من التنور ، وجعل البحر يبسا لموسى عليه السلام •

فما كانت قدرته كذلك ، كيف يسوى فى العبادة بينه وبين غيره من الجمادات ، أو النبات

أو الحيوان أو الانسان ؟ ان التسوية بين الناقص والكامل ، وبين القادر وبين المعدم سفه وجهل ، فلا ينبغى أن تتأتى بحال .

ومتى كان الأمر كذلك ، ثبت أنه لامعبود الا الله ، ولا اله الا هو ، وأن قوله : « اياك نعبد واياك نستعين » يدل على التوحيد المحض لله رب العالمين .

فمن اتخذ لله شريكا فانه لا بد وأن يكون مقدما على عبادة ذلك الشريك من بعض الوجوه ، اما طلبا لنفعه أو خوفا من ضرره .

أما الذين أصروا على التوحيد ، وأبطلوا القول بالشركاء والاضداد ، ولم يعبدوا الا الله تعالى ، ولم يلتفتوا الى غير الله سبحانه ، فكان : رجاؤهم من الله ، وخوفهم من الله ، ورغبتهم فى الله ، ورهبتهم من الله ، لم يعبدوا الا الله ، ولم يستعينوا الا بالله ، فلهذا قالوا : « اياك نعبد واياك نستعين » .

فكان قولهم : « اياك نعبد واياك نستعين » قائما مقام قولهم « لا اله الا الله » .

والعبادة لله بالذكر المشهور هو أن تقول :

سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وقولنا : الحمد لله يدخل فيه معنى قولنا سبحان الله ، لأن قول سبحان الله يدل على كونه كاملا تاما فى ذاته ، وقول الحمد لله ، يدل على كونه مكملا متمما لغيره ، والشيء لا يكون مكملا متمما لغيره الا اذا كان قبل ذلك تاما كاملا فى ذاته ، فوضح أن قولنا الحمد لله دخل فيه معنى قولنا سبحان الله .

ولما قال العبد الحمد لله وأثبت جميع أنواع الحمد : ذكر ما يجرى مجرى العلة لاثبات جميع أنواع الحمد لله ، فوصفه بالصفات الخمس وهى التى لأجلها تتم مصالح العبد فى الأوقات الثلاثة ، ثم ذكر بعده قوله « اياك نعبد » ، وقد ذكرنا أنه قائم مقام لا اله الا الله ، ثم ذكر قوله « واياك نستعين » ومعناه أن الله تعالى أعلى وأجل وأكبر من أن

يتم مقصود من المقاصد ، وغرض من الأغراض ، الا باعانته وتوفيقه ، واحسانه ، وهذا هو المراد من قولنا : « ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

فمن عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها وثقل عليه الاشتغال لغيرها ، فان الكمال محبوب بالذات ، وأكمل أحوال الانسان وأقواها – فى كونها سعادة – اشتغاله بعبادة الله سبحانه ، فانه يستنير قلبه بنور الالهية ، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة ، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله تعالى ، وهذه الأحوال أشرف المراتب الانسانية والدرجات البشرية ، فاذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الانسانية فى الحال ، وهى موجبة أيضا لأكمل السعادات فى الزمان المستقبل ، فمن وقف على هذه الأحوال زال عنه ثقل الطاعات وعظمت حلاوتها فى قلبه .

فان العبادة أمانة « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » .

وأداء الامانة واجب عقلا وشرعا ، يقول سبحانه :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها »

وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات ، وأداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثانى ، قال بعض الصحابة :

رأيت أعرابيا أتى باب المسجد فنزل عن ناقته وتركها ودخل المسجد وصلى بالسكينة والوقار ، ودعا بما شاء ، فتعجبنا ، فلما خرج لم يجد ناقته ، فقال :

الهى أديت أمانتك فأين أمانتى ؟ قال الراوى : فزدنا تعجبا ، فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته وقد قطع يده وسلم الناقة اليه .

والنكتة أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته ، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس : يا غلام احفظ الله « فى

الخـــلوات » يحفظـــك « فى الفلوات » •

والاشتغال بالعبادة انتقـال من عالم الغرور الى عالم السرور ، ومن الاشـتغال بالخـلق الى حضـرة الحق ، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة : فعن أبى حنيفة أن حيـة سقطت من السقف وتفرق الناس ، وكان أبو حنيفة فى الصـلاة ولم يشعر بهـا •

ووقعت الآكلة فى بعض أعضـاء عروة بن الزبير ، واحتاجوا الى قطع ذلك العضو ، فلما شرع فى الصلاة قطعوا منه ذلك العضـو فلم يشعر عروة بذلك القطع •

وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما كان يشرع فى الصلاة كانوا يسمعون من صدره أزيزا كأزيز المرجل ، ومن استبعد هـذا فليقرأ قوله تعالى : (فلما رأينـه أكبرنه وقطعن أيديهن) فان النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام وصلت تلك الغلبة الى حيث قطعـن أيديهـن وما شعرن بذلك •

فاذا جاز هذا فى حق البشر فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى •

وأهل التحقيق يقولون : العبادة درجات ثلاث : الأولى : أن يعبد الله طمعا فى الثواب أو خـوفا من العقاب ، وهذا هو المسمى بالعبادة ، وهذه الدرجة نازلة ساقطة ، لأن معبـوده فى الحقيقـة هـو ذلك الثواب ، وقد جعل الحق وسيلة الى نيل المطلوب •

الثانية : أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته ، أو يتشرف بقبول تكاليفه أو يتشرف بالانتساب اليه ، وهذه الدرجة أعلى من الأولى ، الا أنها أيضا ليست كامـلة ، لأن المقصود بالذات غير الله تعالى •

والثالثة : أن يعبـد الله لكونه الها وخالقا ، ولكونه عبدا له ، والالهية توجب الهيبة والعـزة ، والعبودية توجب الخضوع والذلة ، وهـذا أعـلى المقـامات وأشرف الدرجات وهو المسمى بالعبودية ، واليـه الاشارة بقـول المصلى فى أول الصلاة أصلى لله •

والعبادة والعبودية مقام عال شريف ، يدل عليه : قوله تعالى :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

فالله سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالمواظبة على العبادة الى أن يأتيه الأجل ، ومعناه أنه لا يجوز الاخلال بالعبادة فى شيء من الأوقات ، وذلك يدل على غاية جلالة أمر العبادة .

وأنه قال : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) .

ثم انه تعالى أمره بأربعة أشياء :
التسبيح وهو قوله : « فسبح »
والتحميد : وهو قوله « بحمد ربك » .
والسجود : وهو قوله : « وكن من الساجدين » .
والعبادة : وهى قوله : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

وهذا يدل على أن العبادة تزيل ضيق القلب ، وتفيد انشراح الصدر ، وما ذاك الا لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق الى الحق ، وذلك يوجب زوال ضيق القلب .

ذلك لأن العبد محدث ممكن الوجود لذاته ، فلولا تأثير قدرة الحق فيه لبقى فى ظلمة العدم وفى فناء الفناء ، ولم يحصل له الوجود ، فضلا عن كمالات الوجود ، فلما تعلقت قدرة الحق به وفاضت عليه آثار جوده وايجاده ، حصل له الوجود ، وكمالات الوجود .

ولا معنى لكونه مقدور قدرة الحق ، ولكونه متعلق ايجاد الحق ، الا بالعبودية .

فكل شرف وكمال وبهجة وفضيلة ومسرة ومنقبة حصلت للعبد ، فانما حصلت للعبد ، بسبب العبودية .

فثبت بذلك أن العبودية مفتاح الخيرات ، وعنوان السعادات ، ومطلع الدرجات ، وينبوع الكرامات ، ولهذا السبب قال العبد : « اياك نعبد واياك نستعين » .

وكان الامام على كرم الله وجهه يقول :

« كفى بى فخرا أن أكون لك عبدا ، وكفى بى شرفا أن تكون لى ربا ، اللهم انى وجدتك الها كما أردت فاجعلنى عبدا كما أردت .

والمقامات محصورة فى مقامين : معرفة الربوبية ، ومعرفة العبودية وعند اجتماعها يحصل العهد المذكور فى قوله (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) .

أما معرفة الربوبية فكمالها مذكور فى قوله : (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) .

فكون العبد منتقلا من العدم السابق الى الوجود يدل على كونه الها .

وحصول الخيرات والسعادات للعبد حال وجوده يدل على كونه ربا رحمانا رحيما .

وأحوال معاد العبد تدل على كونه مالك يوم الدين .

وعند الاحاطة بهذه الصفات حصلت معرفة الربوبية على أقصى الغايات ، وبعدها جاءت معرفة العبودية ، ولها مبدأ وكمال ، وأول وآخر .

أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية وهو المراد بقوله (اياك نعبد) .

وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله تعالى الا بعصمة الله سبحانه ، ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ، فعند ذلك يستعين بالله فى تحصيل كل المطالب ، وذلك هو المراد بقوله (واياك نستعين) .

وبعد : فان الابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته التى هى عبادته واستعانته ، وهذه الصيغة أجزل فى اللفظ ، وأعذب فى السمع .

والعبادة الاتيان بغاية ما فى بابها من الخضوع ، ويكون ذلك بموافقة الأمر ، والوقوف حيثما وقف الشرع .

والاستعانة طلب الاعانة من الحق سبحانه وتعالى .

فالعبادة تشير الى بذل الجهد والمنة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمنة .

فبالعبادة يظهر شرف العبد ، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد .

فى العبادة وجود شرفه ، وبالاستعانة أمان تلفه .

فالعبادة ظاهرها تذلل ، وحقيقتها تعزز وتجمل ، والاستعانة اجلال لنعوت كرمه ، وتسليم بحكمه وأمره .

وبالله التوفيق

موسى محمد على

« وحدانية الخالق »

مما روى عن الامام جعفر الصادق :

أنه رأى جده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى منامه ، فسأله عن حقيقة التوحيد ؟.

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » .

مشروعية الجهاد فى الإسلام

دكتور سعد ظلام

الاذن بالقتال سبق فرضيته ، ولكن هل الاذن بالقتال نزل فى مكة ؟ أم نزل الاذن به بعد استقرار الرسول بالمدينة وتأييد الله بنصره لعباده المؤمنين ؟

يرى ابن هشام (١) ان آية الاذن بالقتال مكية وان الاذن بالقتال جاء بعد بيعة العقبة الثانية ، وكان الرسول قبل هذه البيعة يؤمر بالدعاء الى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، فلما عتت قريش عن أمر ربها اذن الله عز وجل لرسوله فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم فكانت أول آية نزلت فى اذنه له تعالى بالحرب واحلاله الدماء والقتال فنزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ••• » (٢)

ويرى هذا الرأى كثير من العلماء والمؤرخين والدارسين منهم المرحوم الشيخ محمد الخضرى الذى يرى أن أكثر القرآن نزل فى مكة ، وأهم ما تناوله فى العهد المكى مايلى :

١ ــ التوحيد ورفض الاوثان والاصنام •

٢ ــ الايمان بالبعث واليوم الآخر والحساب

٣ ــ بين القرآن لهم الخصال التى تقرب الانسان من الله •

٤ ــ بيان العبادات العملية التى تربطهم بالله وتوجههم الى الخير •

---

(١) السيرة ج ٢ ص ٧٩ •
(٢) الآيات ٣٩ ــ ٤١ من سورة الحج •

٥ ـ مما شرع فى آخر أيام الرسول بمكة الاذن له بالقتال (١)

ويرى ابن القيم انه لما استقر رسول الله بالمدينة وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين وألف بين قلوبهم بعد العداوة والاحن التى كانت بينهم فمنعته الانصار وبذلوا نفوسهم دونه .. وكان أولى بهم من أنفسهم ورمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة وشمروا لهم عن ساق العداوة وصاحوا بهم من كل جانب والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة واشتد الجناح فاذن لهم حينئذ بالقتال ولم يفرضه عليهم فنزلت الآية التى فيها اذن بالقتال .

ورد على من قال ان هذا الاذن كان بمكة وان السورة مكية بوجوه ، منها ان الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال ولا كان لهم شوكة ، وان سياق الآية يدل على الاذن بعد الهجرة واخراجهم من ديارهم وان قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » نزلت فى الذين تبارزوا فى يوم بدر أى وهى فى السورة المكية ومنها ان الله خاطبهم فى آخرها بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون .. » والخطاب على هذا الاسلوب مدنى فاما الخطاب « يأيها الناس » فمشترك ، ومنها انه قد يكون أمرهم فى هذه الآية بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد وغيره ، ومنها ما روى عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن فانزل الله عز وجل : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ، وان سياق السورة يدل على ان منها المكى والمدنى .

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا » (٢) .

(١) محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية جـ ١ ص ٨٦ ـ ٩٣ ط ٨ ـ التجارية ـ مصر

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

ثم فرض عليهم قتـال المشركين كافة ، وكان محرما ، ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال . ثم مأمورا به لجميع المشركين (١) . « وقـاتلوا المشركـين كافة كمـا يقاتلونكم كافة » (٢) .

والترتيب الزمنى أن ينزل الأذن بالقتال أو فرضيته بعـد ان يشتد أزر المسلمين ويقوى ساعدهم وان يجىء الأمر بالقتال دفاعا عن كيان يعـرف قوته وحسن استعداده ، كيان يدافع عن وجوده ، ولم يكن للمسلمين قوة ولا وجود مستقل يصح الدفاع عنـه ، ولقـد أمر الرسول أصحابه بعد بيعة العقبـة الثانيـة بالهجرة ، فأين يقع الاذن بالقتال ؟ ولهذا نرى أننـا مع ابن القيم فى رأيه ، ويمـكن توحيـد الاذن بالجهاد قبل المدينة الى أن يكون اذنا بأى نوع مـن أنواع الجهـاد .

كان لابد مـن الاذن بالقتـال وفرضية الجهـاد لصـيانة الدولة والذود عن حياضـها والدفاع عن الوجود المسلم ، لأن الدولة دون الاعداد لحمـايتها لا تعيش ، ولا تصمد ولا يكتب لها البقاء .

ولقد كان الرسول يدرك جيـدا أن لحظة الصدام مع قريش وشيكة الوقوع وكان أبعـد النـاس نظرا وأرجحهم عقلا ، فمنذ أن وصـل أخذ فى اعداد العدة لحماية الدعوة من قوم لا يحترمون غير القوة ، ولم يفلح فيهم النصـح ثلاثة عشر عاما (٣) أو زهاءها .

فبدأ الرسول فى اعداد أصحابه وتدريبهم على وسائل الدفاع عـن النفس والصحب والمهارات الفردية كالمصـارعة والرمـاية والمسابقات وركوب الخيل ، فأحسن ابتكارها ، وهيأهم وأعدلهم لحمـل السلاح ، وبدأ يتهيأ ويعدهم للعمل الحاسم الذى يرد به قريشا الى صـوابها باصابتها فى أعز ما تعتمـد عليـه حياتها وهو تجارتها ، ويكسر نطاق الحصار الذى ضربه الشرك حول

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٨ .
(٢) الآية ٣٦ من سورة التوبة .
(٣) بطل الأبطال ص ٧٥ .

المدينة ليؤمن المدينة ذاتها من الفتن والقلاقل والاضطرابات .

تلك اغراض ثلاثة لابد لادراكها من القوة ، وخلق هذه القوة وتنظيمها وتدريبها والاستعانة بها على أسمى المقاصد عمل امتاز به محمد صلى الله عليه وسلم على من سبقه من الرسل ، وذلك الدور فى تدريب المهاجرين والانصار والخروج بهم على الناس جميعا قوة ضاربة هو من أدق ما امتحن به محمد مصلحا ورجل دولة ، وفيه تجلى له من حسن الذوق السياسى والعسكرى مالا يضاهيه الا أخلاقه الفاضلة .

لم يضيع الرسول فرصة واحدة ولا لحظة واحدة منذ قدم المدينة ، ولم تغفل عينه طرفة عين ، كان يعمل بكل ما أوتى من قوة ، وكأنه فى صراع مع الزمن ، فلم يستقر به المقام فى المدينة حتى بدأ تدريبه للمهاجرين والأنصار ، ليصوغهم صياغة خلقية ودينية وعسكرية جديدة ، أساسها النظام واحتقار الموت ، فكانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار .

وبدأ يعتمد على المهاجرين أولا فى توجيه بعض الغزوات والسرايا (١) ، فبعد وصوله بسبعة أشهر فقط عقد أول راية فى الاسلام لحمزة أو لعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب ، وفى أقل من عام ونصف بلغت سراياه وغزواته ثمانيا كان هدفها أولا احياء مآل المهاجرين فى الظفر بممتلكاتهم ورفع روحهم المعنوية وابعاد شبح القنوط الذى كان قد بدأ يساورهم ويخيم عليهم ، والتدريب العملى الدائم والاعداد المشترك لخطط الحرب ، واعلام أهل المدينة ومن حولها من الاعراب الطامعين فيها ان الرسول جاد فى مقاومة القوة بالقوة ، وان الرجل الذى يتعرض لقريش ليس بالرجل الذى ينال منه أو يظفر به أو يستباح حماه .

وعلمت قريش ان محمدا والمستضعفين معه من الذين أخرجتهم قريش بالامس أصبحوا

(١) يقصد بالغزوة ماخرج الرسول فيها بنفسه سواء قاتل أم لا وبالسرية ماوجه فيها جيشا بقيادة بعض الصحابة .

خطرا داهما على ثرواتها وكيانها الاقتصادى وهو أعز ما تملك ، بقدر ما أصبحوا خطرا على كيانها الدينى وسيطرتها وزعامتها للعرب .

كانت الغزوات والسرايا بيانا عمليا وتدريبات بالذخيرة الحية التى أحسن المسلمون استخدامها والعمل عليها فى عام ونصف ، وهو زمن قياسى فى قوة وليدة .

ولما أنس الرسول فيهم القوة والمهارة وحسن الاستعداد ، ووثق فى قدرتهم وايمانهم وصبرهم وبلائهم وكفاءتهم القتالية ، لم يتردد فى معركة حاسمة .

وقد علم الرسول بعير قريش التى ضمت أموالا كثيرة ، لم يخل من الاشتراك فيها بيت فى مكة ، فأراد أن يضرب اقتصاد مكة ويهدم كيانها ، فتعرض للقافلة ، ولكن أبا سفيان نجح فى الهرب بها .

ورغم تحذيرات أبى سفيان وحكيم بن حزام والاخنس بن شريك لقريش بعدم التعرض لمحمد وصحبه الا أن الزعماء القرشيين نادتهم مصارعهم فأبوا الا ورود ماء بدر والتحرش بالمسلمين واغاظتهم وعزف القيان وشرب الخمور .

وانتصرت القلة المسلمة فى بدر ثم كانت « أحد » وانتصر القرشيون فى جولتها ، ثم كانت غزوة الاحزاب التى ابتلى فيها المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا ، لأن اليهود نقضوا عهد الرسول وجاء العدو من فوقها ومن أسفلها ، ولكن الرسول أتم بالرأى والحيلة ما بدأه بالشجاعة والصبر فانصرف الاحزاب .

كانت غزوة الاحزاب قمة الصراع بين المسلمين والمشركين ، وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انهزم المشركون يوم الاحزاب ، قال :

« ان المشركين لن يغزوكم بعد اليوم .

ولكنكم تغزونهم وتسمعون منهم أذى ويهجونكم » (١) ثم صالح

(١) الاغانى ج ١٦ ص ٢٣٣ طبعة دار الكتب .

قريشا فى الحديبية على أن تضع الحرب أوزارها بينه وبينهم عشر سنوات ، ولكنهم نقضوا العهد بقتل بكر لخزاعة فكان فتح مكة وازالة معاقل الشرك ، ثم انتصر فى حنين وطهر ما حول مكة أيضا وأما اليهود فقد حاربت بنو قينقاع بعد غزوة « بدر » فقد ساءهم نصر المسلمين وملأ الحقد نفوسهم فسار اليهم بعد « بدر » بأقل من شهر فمن عليهم وأخرجهم من المدينة الى اذرعات بالشام وطهر المدينة منهم .

وأما بنو النضير فقد نقضوا العهد بعد « بدر » بستة أشهر فأجلاهم أيضا .

وأما بنو قريظة فكانوا أشد عداوة ، وقد انتهزوا فرصة غزوة الاحزاب فنقضوا عهدهم مع الرسول وسبوه ، فظفر بهم فقتل بنى قريظة وسبى ذراريهم ، ونزلت سورة الحشر فى بنى النضير ، وسورة الاحزاب فى بنى قريظة ، وصالح أهل خيبر على اجلائهم منها ولهم ما حملت ركابهم ، ثم طرد اليهود بعد ذلك من الجزيرة كلها .

وامتد نور الله بعد ذلك ليمحو ضلال الشرك والوثنية فى فارس وفساد المسيحية المتهالكة فى الروم .

كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة سلسلة متصلة الحلقات من الاعمال والجهاد والاعداد ووضع الخطط والتشريعات والنظم ، ورسم سياسة الأمة الناشئة ، لم يهدأ ولم يغفل ، ولم يكل ، ولم يدع الظروف تغلبه ، حتى ثبت أركان الدولة وأخضع لنورها القاهر رقاب الشرك وجحافل الوثنية واعترف بها عتاة قريش وسادة الجزيرة ، وبدأت فتوحات الاسلام تتجه الى خارجها .

كانت الهجرة بداية ارساء الدولة والعامل الحاسم الأهم فى نشـأتها وقوتها وازدهارها وانتصارها .. ولقد وضع الرسول فى اعتبـاره قبل الهجرة هذا كله ، فعمل له ولم يضيع لحظة واحـدة ولا فرصـة واحـدة .

عمل ما وسعه العمل ، وجاهـد ما وسعه الجهاد حتى أقام دولتـه وأمته التى التهمت فى أحشائها فى زمن قياسى أكبر دولتين فى العالم آنذاك ، وصارت الامبراطـورية الاسلامية .

دكتور سعد عبد المقصود ظلام

المبادئ العامة فى التشريع الجنائى الإسلامى

المستشار حسن حسب الله

انتهينا من الكلام عن جرائم الحدود وجرائم القصاص وجرائم التعزير وتتكلم فى هذا العدد عن المبادىء العامة فى التشريع الجنائى الاسلامى والتى يجب مراعاتها فى جميع الجرائم الى جانب الشروط الخاصة بكل جريمة على حدة ٠

المبدأ الأول يتعلق بمسئولية الجانى ، فالجانى لا يعد مسئولا عن الجريمة التى يرتكبها الا اذا توافر فيه القصد الجنائى بأن يقصد الفعل والنتيجة المترتبة عليه سواء كانت هذه النتيجة أثرا مباشرا للفعل أو أثرا غير مباشر له فيستوى القتل بالضرب مباشرة بآلة تستخدم فى هذا الغرض والقتل بالحبس فى مكان ما ومنع الطعام والشراب عن المجنى عليه حتى يموت جوعا أو عطشا فهنا لم يكن القتل نتيجة مباشرة للحبس ٠

وبهذا أخذ المالكية والحنابلة لأن السببية متحققة والقصد الى القتل ثابت بالقصد الى الفعل الذى ترتب عليه الموت ٠ وخالفهم فى ذلك الامام أبو حنيفة لأن المباشرة لم تتحقق عنده فى الحالة الأخيرة ونرى الأخذ برأى المالكية والحنابلة لأن العبرة هى السببية والعدوان والقصد فمتى تحققت كل هذه الأمور وجب العقاب على الجريمة المرتكبة ٠

كذلك يشترط فى الجانى ليكون مسئولا عن جريمته أن يكون من أهل التكليف بأن يكون بالغا عاقلا فلا عقاب على الصغير والمجنون ٠

وأختلف الفقهاء فيمن يرتكب جريمته تحت ضغط الاكراه فذهب أبو حنيفة الى أن العقوبة على من أكره لا على من باشر فاذا أكره شخص شخصا آخر على قتل ثالث فلا يقتص الا ممن أكره وليس من القاتل الذى باشر القتل تحت ضغط الاكراه لينجو بنفسه والذى فقد اختياره وأصبح كالآلة فى يد من أكرهه وذهب المالكية والحنابلة الى أنه يجب قتلهما جميعا لأنهما شريكان هذا بالأمر وذلك بالفعل وأن كليهما قصد القتل وكليهما معتد بفعله يستحق العقاب ، وقد أخذ بذلك أيضا الشافعى ونرى الأخذ بهذا الرأى لأنه أردع وأحفظ لحق الحياة وصيانة المجتمع •

هذا اذا كان موضوع الاكراه أمورا لا تباح اطلاقا لأى سبب من الأسباب أما اذا كان موضوع الاكراه أمورا تباح عند الضرورة بنص الشارع أو بالمقررات الثابتة من مجموع الأحكام الشرعية ، ومن ذلك أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر فلا جريمة ولا عقوبة فى حالة الاكراه على تناول شىء منها •

كذلك لا عقاب على من ارتكب جريمته وهو فى حالة دفاع عن نفسه أو ماله أو عرضه متى كان لا يستطيع وقف العدوان عليه الا بارتكابه ما ارتكب • والدفاع عن النفس لا يسقط العقوبة فقط بل يسقط الجريمة أيضا ويصبح الفعل واجبا بعد أن كان منهيا عنه لقوله صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون نفسه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد » •

والمبدأ الثانى هو درء الحدود بالشبهات •

وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا الحدود بالشبهات فان كان له مخرج فخلوا سبيله فان الامام ان يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » • والشبهة هى الحال التى يكون عليها مرتكب احدى جرائم الحدود ويكون معها المرتكب معذورا فى ارتكابها عذرا يسقط الحد عنه وتستبدل عقوبة

الحد بعقاب أخف يحدده الحاكم حسب ما ورد فى جرائم التعزير .

والشبهة قد تكون فى تحريم الفعل كالزواج بدون شهود فقد ذهب الامام مالك الى أن الشهود ليسوا بشرط لانشاء العقد وأن الاعلان وحده كاف لانشاء الزواج وأدلته فى ذلك تنتهى الى الشك فى تحريم الوطء فى مثل هذا الزواج وبالتالى لا يمكن القطع بأن مثل هذا الوطء يعتبر زنا يقام فيه حد الجلد أو الرجم .

قد قرر الفقهاء ان كل فعل يختلف فيه الفقهاء حلا وتحريما فان الاختلاف يكون شبهة تمنع اقامة الحد .

وقد تكون الشبهة فى الاثبات فقد أجمع الأئمة الأربعة وغيرهم على أنه يجب أن تكون عبارات الشاهد الذى يتقدم لاثبات جريمة من جرائم الحدود صريحة فى الدلالة على الجريمة وأن يذكر الشهود مكان الجريمة ووقتها فان أختلفوا فى ذلك سقطت الشهادة وسقط الحد لأنه يجب أن تكون الأدلة قاطعة فى الاثبات .

والمبدأ الثالث يتعلق بتكرار الجرائم وتعدد العقوبات وقد أجمع الفقهاء على أنه اذا تكرر ارتكاب الجانى لحد من الحدود قبل رفع الأمر الى القضاء فانه لا يقام عليه الا حد واحد فمن تكرر منه الزنى لا يعاقب الا باقامة حد واحد عليه من حدود الزنى ومن تكرر منه شرب الخمر لا يقام عليه الا حد واحد من حدود شرب الخمر ، وهكذا بالنسبة للحدود التى لا يتعلق بها حق للعباد وكانت من جنس واحد ، أما الحدود التى يتعلق بها حق للعباد كالسرقة والقذف فقد أنقسم بشأنها الفقهاء الى فريقين فريق يرى تكرار اقامة الحد بتكرار الجريمة فمن سرق من عدة أشخاص أو قذف عدة أشخاص فانه يقطع أو يجلد لكل حد ارتكبه الجانى وذلك لتعدد المجنى عليهم ولأن كل واحد منهم له دعوى خاصة به لا تدخل فى دعوى غيره ولأن الوقائع مختلفة ومادام الأمر كذلك وقد تعددت

الدعاوى وتعدد من تعلقت بالسرقة أو القذف حقوقهم فان الحد يتعدد وان كان من جنس واحـــد فمن تكررت منــه السرقة يتكرر اقامة حد السرقة عليه ومن تكرر منــه القذف يتكرر اقامة حد القذف عليه بعدد من قذفهم وعلى هذا الرأى بعض المالكيــة وبعض الشــافعية وبعض الحنابلة •

أما الفريق الثانى من الفقهاء فيرى اقامة حد واحد فقط رغم تعــدد الدعاوى لأن الحد يقصد به الردع والزجر ، وذلك يتحقق باقامة حــد واحــد وعلى هــذا الرأى أكثــر الشــافعية والحنفيــة والمالكية • ونرى الأخذ بالرأى القائل بتعــدد الحدود بقدر تعدد ارتكابهــا لأن كل حد جريمــة مستقلة بذاتهــا لا يسقط العقاب عليها متى رفعت الدعوى بشأنها حتى يتحقق الردع والزجر وعدم العودة الى ارتكاب الحد متى عرف الجانى أن عقــابه سيتكرر بعدد ما ارتكب من جرائم وأنه لن يفلت من العقــاب عن أية جريمة يرتكبها •

كذلك أختلف الفقهــاء فى حالة ارتكاب عدة جرائم عقوباتها مختلفة كمن شرب الخمر وزنا وسرق هــل تقام عليه كل هذه الحدود أم يكتفى باقامة أشد حد منها فذهب البعض الى أنه متى كان القتل أحد هــذه العقوبات كحد الزنا للمحصن فانه يكتفى به ويســقط ما دونه مــن الحديد أما اذا لم يكن فيهــا قتل فان كل حد يقام فيجلد للزنا مائة ولشرب الخمر ثمانين وتقطــع يده للسرقة وعلى هذا الرأى الحنفيــة والمالكية والحنــابلة أما الشافعى فقــد ذهب الى ضــرورة استيفاء جميع الحدود سواء كان القتل من بينها أم لم يكن وبالنسبة لجرائم القصــاص فتستوفى كلهــا مهمــا تعددت ، ويبدأ بأخفها حتى تستوفى كلها وهذا قول الأوزاعى والشافعى ومالك أما أبو حنيفة فقــد ذهب الى أن القتل يجب ما دونه فيدخل فيه قياسا على الحــدود الخالصة لله • ونــرى الأخــذ برأى مالك والشافعى القــاضى بأن عقــوبات القصاص لا تتــداخل فــلا تجب

العقوبة الكبرى ، العقوبة الصغرى، وذلك لتحقيق مبدأ المساواة بين الجريمة والعقوبة وهو سأساس القصاص •

وتذهب القوانين الوضعية الى تشديد العقاب فى حالة عودة الجانى الى ارتكاب جناية مماثلة لما سبق أن أرتكبه وعوقب عليه ولكن طبقا لأحكام التشريع الجنائى الاسلامى فانه يفرق بين جرائم الحدود وجرائم القصاص وجرائم التعزير فبالنسبة لجرائم الحدود وجرائم القصاص فان عقوباتها مقدرة بالكتاب والسنة ولا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها لأى سبب من الأسباب فهى لا تزيد بالتكرار والعود ولا تنقص لأى ظرف خاص بالجانى • أما جرائم التعزير فيجوز التعديل فى العقاب المقدر لها سواء بالزيادة بسبب العود أو بالنقص لأى ظرف خاص يقتضى الرأفة بالجانى لأن جرائم التعزير يقدر عقوباتها الحاكم أو القاضى بما يتناسب مع الجرم المرتكب والصالح العام والتعديل فيها لا يعتبر تعديا على الكتاب والسنة •

والمبدأ الرابع يتعلق بالاشتراك فى الجريمة •

الجريمة كما تقع من فرد واحد على فرد آخر أو جماعة فانها قد تقع أيضا من جماعة على فرد واحد فقد يشترك عدة أفراد فى قتل فرد واحد ولا يشترط أن يشتركوا فى نفس الفعل المؤدى للقتل بل يعد مشتركا من يقتصر دوره على مراقبة الطريق فالاشتراك فى الجريمة تتعدد صوره وأشكاله وكيفما كان شكل الاشتراك فان الجريمة التى تقع من مجموعة مثل الجريمة التى تقع من واحد فقط من ناحية العقوبة فيعاقب كل مشترك مهما كان دوره كما لو كان هو وحده الذى ارتكب نفس الفعل المؤدى للقتل وبهذا أفتى الصحابة وجمهور الفقهاء فقتل عمر بن الخطاب جماعة من سبعة أشخاص اشتركت فى قتل واحد فقط باليمن وشدد فى ذلك وقال رضى الله عنه « لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به » •

كما قتل على بن أبى طالب الجماعة بالواحد أيضا . وذهب أبو حنيفة الى قصر القصاص على من يشترك فى الفعل المباشر للقتل أما من كان دوره دون ذلك فلا يقتص منه ، وانما يعاقب تعزيراً وذلك تطبيقا لنظره فى أن القتل الموجب للقصاص هو القتل العمد المباشر فقط ـ كما ذهب الشافعى واحمد الى أن القصاص على من قتل فقط دون من أمر ومن ساعد فلا يعتبران شريكين الا اذا كان المأمور بالقتل صبيا أو مجنونا فيكون القصاص على الآمر فى هذه الحالة بينما يرى أبو حنيفة أنه حتى فى هذه الحالة لا قصاص على الآمر

ونرى أن الأولى بالاتباع هو ما أخذ به عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيكفى الاشتراك بأية صورة وأى شكل حتى ولو كان الأمر بارتكاب الجريمة وقد كان دور بعض من اشترك فى قتل قتيل اليمن هو مجرد منع اغاثة المغيثين وهو ما يعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى بالربيئة وقتلهم عمر جميعا وبهذا الرأى أخذ الأمام مالك .

كذلك ذهب الأمام أبو حنيفة رغم تضييقه لمعنى الاشتراك الى أنه متى كان بين الجناة من لا يمكن أن يقتص منه بأن كان صبيا أو مجنونا مثلا فان باقى الشركاء يستفيدون من هذا الظرف ولا يقتص من أحدهم لأن الجريمة مشتركة وقعت من الجميع وبفعلهم مجتمعين وخالفه فى ذلك الامام مالك لأن كلا من الجناة يشترك بمقتضى ما تتحقق به مسئوليته فاذا كان احدهما قاصرا والآخر بالغا فان القصاص يكون من البالغ ولا يكون من القاصر ولا نظر الى كون فعل الشريك موضع مؤاخذة أو ليس موضع مؤاخذة وعلى هذا الرأى أحد قولى الشافعى وهو أيضا رواية عن أحمد رضى الله عنهما ونرى أن مذهب مالك هو الأولى بالاتباع فهو أحزم الآراء وأحفظها للحياة لأنه اذا قيل بعدم وجوب القصاص عند الاشتراك أو عند عدم وجوبه على أحد الشركاء لا نسد باب القصاص وفتح باب الفساد باستعانة القاتل

بغيره وهذا ما دفع الصحابة للفتيا بقتل الجماعة بالواحد .

هذا كله اذا كان الاشتراك فى الاعتداء على النفس بالقتل أما اذا كان الاعتداء دون ذلك ، وكانت العقوبة فيه القصاص فقد أنقسم الفقهاء الى فريقين فالاحناف يرون أن الاشتراك فى جرائم القصاص فيما دون القتل لا يوجب القصاص من كل واحد من الشركاء ويستندون فى ذلك الى أن القصاص فى الأطراف يوجب التساوى فلا يقطع باليد الواحدة يدان ولا يقطع بالرجل الواحدة رجلان وان قتل الجماعة بالواحد ثبت بالاجماع وليس بالقياس لأن موجب القياس كان يوجب ألا يقتل بالواحد الا واحد وما جاء على خلاف القياس يقتصر فيه على مورد النص ولا يتجاوزه الى غيره وبذلك فلا يقاس قطع الاطراف على ما أنعقد عليه الاجماع بقتل الجماعة بالواحد فى حال القتل وبذلك فلا قصاص فى حالة الاشتراك فى الاعتداء على ما دون النفس لعدم امكان التساوى حيث ستقطع أكثر من يد وأكثر من رجل فى سبيل يد واحدة أو رجل واحدة .

أما الفريق الثانى فيرى أنه لا فرق بين الاشتراك فى جرائم القصاص فيمادون النفس والاشتراك فى جرائم القصاص فى النفس القصاص فيما دون النفس أى القتل ويستند هذا الفريق الى أنه روى عن على بن أبى طالب ما يدل على جواز قطع يدين فى يد واحدة وأنه اذا كان قد ثبت بالاجماع أن القصاص يتعدى الى كل الشركاء فى حال قتل الجماعة بالواحد فالأولى أن يكون متعديا أيضا بالنسبة الى قطع عضو من الأعضاء لأنه اذا كان قتل الجماعة بالواحد جائزا فالأولى قطع الجماعة بالواحد لأن النفس يجب الاحتياط لها أكثر من الاحتياط للأطراف وعلى هذا الرأى الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد ونرى أن هذا الرأى هو الأولى بالاتباع فيقتص من الشركاء جميعا فى كل الجراح .

أما فى جرائم التعزير فان عقوباتها متروك تقديرها اما للحاكم

أو للقاضي ولكل منهما الحق فى التفرقة بين عقوبة الفاعل الأصلى والشريك حسب دوره وحسب خطورته وحسب درجة الزجر والردع المطلوب تحققها وبذلك يمكن التفرقة بين عقوبة من يفرض بالربا وبين من يتوسط فى عملية الاقراض كما يمكن التفرقة بين عقوبة من يصنع الخمور ومن يتجر فيها وذلك حسب ما يمليه صالح الجماعة .

والمبدأ الخامس يتعلق بعمومية العقاب .

وعمومية العقاب تتناول ناحيتين الأولى العمومية بالنسبة للأشخاص والثانية العمومية بالنسبة للمكان .

فمن ناحية الأشخاص فان كل الناس أمام التشريع العقابى الاسلامى سواء لا فرق بين كبير وصغير ولا حاكم ولا محكوم فالعقوبات الاسلامية تنفذ على الحكام أيضا ولو كان الحاكم هو الامام الأعظم المسئول عن حكم جميع المسلمين وعلى هذا الرأى جمهور الفقهاء وخالفهم فى ذلك الامام أبو حنيفة استنادا الى أن القاضى الذى يحكم بالعقوبة انما يستمد سلطانه من الامام الأعظم وهذا السلطان مقصور على اقامته بين الناس والامام الأعظم ليس داخلا فى عموم الناس هذا الى جانب أنه على فرض امكان القضاء بالعقاب على الامام الأعظم فان التنفيذ متعذر وقد رد جمهور الفقهاء على ذلك بأن القاضى فى حكمه انما ينفذ حكم الله تعالى لا حكم الامام الاعظم وهذا الحكم يخضع له الامام الأعظم وغيره وأن القاضى ليس نائبا عن ولى الأمر بل منفذا لأحكام الله تعالى قاض بها وهو لا ينعزل بموت الامام الأعظم أو تغييره وأن سلطان القاضى مستقل عن سلطان ولى الأمر وان ما تصوره الاحناف من مانع من التنفيذ لا يجعل التنفيذ مستحيلا بل هو ممكن دائما ما دامت الأمة تحترم دينها وتنفذ الأحكام الشرعية وتخضع لأوامر الله تعالى ونواهيه ففى هذه الأحوال لن يفكر الامام فى الخروج عن الأحكام الشرعية أو اقتراف المعاصى لخشية من ثورة

الأمة عليه وتمكنها منه وعدم افلاته من العقاب ، فجرائم الحكام لم يخلع عليها الاسلام صفة الاعفاء ولم يخلع عليهم صفة التنزيه عن الاجرام كما تذهب الى ذلك القوانين الوضعية فتنص على أن ذات الحاكم مصونة لا تمس أو أنها مقدسة كذلك لا يملك الحاكم فى الاسلام حق العفو سواء كان العفو عن الجريمة وهو ما يسمى بالعفو الشامل أو العفو عن العقوبة بعد الحكم بها وذلك على عكس ما تفرض جميع الدساتير فى القوانين الوضعية والتى تجعل دائما لرئيس الدولة حق العفو وهذا اخلال خطير بمبدأ المساواة التى تدعيها كل هذه الدساتير .

ويخضع لجميع العقوبات جميع الأشخاص المقيمين بالديار الاسلامية سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين وبهذا أخذ جمهور الفقهاء وخالفهم فى ذلك الامام أبو حنيفة وأصحابه اذ يرون اعفاء غير المسلمين من العقوبات المتعلقة بشرب الخمر وأكل الخنزير والزواج من المحرمات متى كان دينهم يبيح لهم ذلك حتى لا يكون هناك تدخل فى حريتهم الدينية ونرى أن رأى الجمهور هو الأولى بالاتباع لأن المقصود من تحديد الجرائم والعقوبات هو تحقيق الصالح العام ومنع الفساد فى كل ربوع الدولة ولا يمكن أن يتحقق ذلك بالسماح لطائفة من المقيمين بها بشرب الخمر وغيره من المحرمات لأن أثر ذلك لن يتوقف عند غير المسلم بل قد يتعداه الى المسلم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر وأن ترك غير المسلم يشرب الخمر ويفتح الحانات لشربها فيه اغراء لضعاف النفوس من المسلمين بشربها ولذلك يجب تعميم العقاب على المسلم وغير المسلم لدفع الفساد عن الجماعة الاسلامية ولأن النصوص الموجبة للعقاب نصوص عامة لا تخصيص فيها تبعا لجنس أو دين أو وظيفة ولذلك فانه لا اعفاء من العقاب فى التشريع الاسلامى للممثلين السياسيين أو رؤساء الدول الزائرين أو القوات الأجنبية التى تستضيفها الدولة الاسلامية أو تسمح لها

بالمرور عبر أراضيها للوصول الى مكان آخر فمتى ارتكب أحد هؤلاء أية جريمة فانه يحاكم عليها وينفذ فيه العقاب ولا يترك لدولته ان شاءت حاكمته وان شاءت تغاضت عن فعله أو برأته استنادا الى أن ما ارتكبه لا يشكل جريمة معاقبا عليها فى قوانينها •

واذا ارتكب أحد المسلمين جريمة من الجرائم المعاقب عليها فى التشريع الاسلامى خارج البلاد الاسلامية ثم عاد بعد ذلك الى الديار الاسلامية فانه يحاكم عنها وينفذ فيه عقابها ويسرى نفس الحكم أيضا على غير المسلمين المنتمين الى الدولة الاسلامية وعلى هذا الرأى جمهور الفقهاء وخالفهم فى ذلك الامام أبو حنيفة وأصحابه بقوله أنه لا عقوبة على مسلم أو ذمى يرتكب جريمة فى دار الحرب •

واستند أبو حنيفة فى ذلك الى أن العقاب جزاء فعلى يقع على مرتكب الجريمة وقت ارتكابها ، وفى هذه الحال فلا توجد ولاية اسلامية فعلية لتقوم باجراء المحاكمة وتنفيذ العقوبة ساعة ارتكاب الجريمة فاذا وقع الفعل فى دار الحرب فقد وقع غير معاقب عليه لعدم وجود من يملك العقاب ساعة الارتكاب •

ونرى أن رأى الجمهور هو الأولى بالاتباع دفعا للفساد لأن الاسلام يخاطب بتحريم هذه الأفعال فى كل مكان وليس فى الديار الاسلامية فقط ولا يصح أن يكون المسلم أو من ينتمى الى الديار الاسلامية مفسدا فى أى أرض •

ومن ذلك تبين أن عمومية العقاب تشمل المكان والأشخاص فيخضع للتشريع العقابى الاسلامى كل من يقيم فى الديار الاسلامية من مسلمين وغير مسلمين وكل من ينتمى الى الديار الاسلامية من مسلمين وغير المسلمين متى ارتكبوا جريمة معاقبا عليها فى التشريع الاسلامى فى غير الديار الاسلامية •

والمبدأ السادس يتعلق بتنفيذ العقوبة •

ان وظيفة العقوبة في التشريع الاسلامى ليست مجرد وظيفة جزائية أو انتقامية من الجانى فحسب بل ان لها وظيفة وقائية أيضا تتحقق بما يحدثه تنفيذها من الزجر العام ولذلك حرص التشريع الاسلامى على أن تكون المحاكمة سريعة فور ارتكاب الجريمة وأن تكون متصلة حتى صدور الحكم وأن لا يتراخى تنفيذ الحكم بعد صدوره وأن يتم تنفيذه بصورة علنية فيشهد التنفيذ جمع من المسلمين ولذلك ينفذ العقاب عقب صلاة الجمعة وأمام المسجد الجامع فى المدينة التى ارتكبت فيها الجريمة حتى يتحقق الردع والزجر لكل من تحدثه نفسه بارتكاب احدى الجرائم فيعدل عنها .

والأصل فى العقوبات الاسلامية أنها عقوبات غير مستمرة فالعقوبة فى التشريع الاسلامى هى أذى يلحق بالجانى ولا يستمر معه أمدا طويلا وهى تتراوح بين الجلد والقتل والرجم فعقوبة الحبس ليست من العقوبات المقدرة فى الكتاب والسنة وان كان يجوز فرضها فى عقوبات التعزير الا أنه يجب التضييق منها الى أقصى درجة ممكنة ذلك أن العقوبات البدنية هى أقوى فى الردع وأكثر صيانة للمجتمع ولا يتحقق ذلك فى عقوبة الحبس فقد يكون المكان الذى يحبس فيه الجانى أكثر راحة له من الأماكن التى يعيش فيها وهو طليق الى جانب ما قد يتعلمه فى السجن من فنون الجريمة على يد زملائه من نزلاء السجون ثم ما هو مصير من يعولهم خلال فترة سجنه ان طالت ومن يتكفل بالانفاق عليهم لو لم يكن لهم مورد رزق يعيشون عليه وكأننا بسجن فرد واحد حولنا عائلة بأكملها الى مجموعة من المنحرفين والمجرمين الجدد .

بينما أنه لو عوقب بالجلد ثم انصرف الى منزله بعد عقابه واستراح به الى الوقت الذى يسترد فيه صحته لكان فى ذلك رادعا له فلا يعود الى ارتكاب الجريمة وحفظا لأسرته من الضياع والتشريد وحفظا للقوة الانتاجية فى الدولة بعدم تعطيل أحد أدواتها نتيجة حبسه . كذلك فان الحياة فى

السجن يشوبها التمييز بين فقراء المجرمين وأغنيائهم الى جانب ما تتكلفه الدولة من نفقات لحراسة هؤلاء المجرمين واقامتهم واطعامهم وعلاجهم وكأن المجتمع لا يكفيه ما قاساه منهم وانما هو مطالب بالانفاق عليهم أيضا •

وقد ثبت بالتجارب العملية فى جميع الأمم أن العقاب بالحبس مهما طال لم ينجح فى الاقلال من عدد الجرائم والمثل الواقع على ذلك جريمة الاتجار فى المواد المخدرة فقد شددت جميع دول العالم عقوبة السجن فيها فأوصلتها الى عشرات السنين ومع ذلك زادت نسبة الاتجار فى المخدرات وامتدت الى كافة الدول •

ولهذا كان حرص التشريع الاسلامى فى عدم الأخذ بعقوبة السجن كعقاب فى جرائم الحدود والقصاص وهو ما يجب أن يراعى أيضا فى العقوبات التى تتقرر لجرائم التعزير • وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن التشريع الجنائى الاسلامى ونبدأ بعد ذلك انشاء الله بالكلام عن التشريع الجنائى فى القانون الانجليزى •

المستشار ــ حسن حسب الله

الأزهر جامعاً وجامعة
أو مصر في ألف عام

للأستاذ محمد كمال السيد

— ١١ —

ذكرت فى المقال السابق أن محمد على — بعد أن أستقرت له الأمور فى الداخل — بنفى السيد عمر مكرم الى دمياط سنة ١٨٠٩ ، وايجاد الفرقة بين العلماء ، ومذبحة المماليك فى القلعة سنة ١٨١١م — لم يعد فى حاجة الى تعضيد العلماء .. فانطلق فى تنفيذ مشروعاته واصلاحاته . وأن من ضمن هذه الأصلاحات نشر التعليم فى مصر على الطريقة الحديثة .

فبدأ بارسال البعثات الى أوربا فأرسل ٢٨ طالبا فى المدة من سنة ١٨١٣ — سنة ١٨٢٥ . وأرسل ٢٩١ طالبا فى المدة من ١٨٢٦ — ١٨٤٨م . وكان الكثيرون فى هذه البعثات من طلبة الأزهر .

ويضيق المقام عن الترجمة لجميعهم . ولكن نترجم لأربعة منهم على سبيل المثال لريادة الأزهر فى هذه النهضة العلمية فى شتى المجالات . وهم :

١ — رفاعة رافع الطهطاوى .

٢ — الدكتور أحمد حسن الرشيدى

٣ — الدكتور حسين غانم الرشيدى .

٤ — الدكتور محمد الشافعى

رفاعة بك رافع الطهطاوى

كان مولده سنة ١٨٠١م (١٢١٦هـ) بطهطا من مديرية جرجا (محافظة سوهاج) بالصعيد — وينطق العامة وبعض العلماء اسم

طهطا بالحاء بدلا من الهاء — من بيت شريف يتصل نسبه بالأمام الحسين بن على رضى الله عنهما . كما أن أخواله يصلون بنسبهم الى قبيلة الخزرج أنصار الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة .

وتلقى دروسه فى صباه على شيوخ مساجد طهطا وفيهم علماء جليلون ذكرهم على مبارك فى خططه (ج ١٣ ، ص ٥٣) . ثم قدم القاهرة والتحق بالأزهر . فتتلمذ على شيوخه المعروفين وقتذاك مثل الشيخ حسن العطار والشيخ حسن القويسنى والشيخ ابراهيم البيجورى . وكلهم تولوا مشيخة الأزهر . وعلى غيرهم من كبار العلماء . ثم درس بالأزهر ما يقرب من السنتين .

وعين واعظا فى الجيش المصرى سنة ١٨٢٤ . ورشحه أستاذه الشيخ حسن العطار واعظا لطلبة البعثة التى أرسلت الى فرنسا سنة ١٨٢٦ . وهناك تعلم الفرنسية وترجم عدة كتب منها كتاب أسماه (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر —
Depping, Moeuro
(et Usages des Nations) .

وعاصر ثورة سنة ١٨٣٠ فى فرنسا . واطلع على دستورها وترجمه الى العربية فى أشهر كتبه (تخليص الأبريز فى تلخيص باريز (باريس) الذى ترجم فيما بعد الى التركية ، واجتهد فى ترجمة المصطلحات الدستورية . وتناول فصل السلطات العامة فى الدولة . والسلطة التشريعية ومداها . والحقوق المدنية للأفراد . والمساواة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات . والحريات العامة من حرية الدين والتملك والحرية السياسية . وكان فيما يكتب يلخص ما قرأه وما فهمه من الدستور الفرنسى والمراجع الفرنسية عن نظم الحكم عند الغربيين . فلم يكن يستطيع أن يطالب بهذا فى مصر وهو الموظف فى الدولة . ولكنه كان المعلم والرائد . فقد وضع البذرة . وسقاها تلاميذه حتى أينعت . وكان تقدميا فى تفكيره . فتكلم عن الموسيقى والغناء وأثرهما

فى تهذيب النفوس . وتكلم عن حرية المرأة وتعليم البنات . وغير ذلك من الأفكار الجديدة بالنسبة لعصره .

وعاد من فرنسا سنة ١٨٣١ ، فعين مترجما بمدرسة الطب بأبى زعبل . ثم بمدرسة المدفعية بطرا . وترجم كتاب (مبادىء الهندسة) وكتاب (المعادن النافعة للمعلم فيرارد) وكتاب (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية لملط يرون) وغيرها .

وتزوج بعد عودته من فرنسا بأبنة الشيخ حسن العطار . ومنها أولاده . والشيخ حسن تولى مشيخة الأزهر من ١٨٣٠ـ١٨٣٤م

وفى سنة ١٨٣٥ نقل رفاعة رافع ناظرا لمكتبة المدرسة التجهيزية بقصر العينى . ثم ناظرا لمدرسة الألسن التى أنشأها فى نفس السنة فأشرف عليها وعلى المدارس المجاورة لها وهى : مدرسة فقه الشريعة الأسلامية . ومدرسة المحاسبة . ومدرسة الادارة الأفرنجية . والمدرسة التجهيزية .

وكان مقر مدرسة الألسن فى بيت الدفتردار محل فندق شبرد بشارع ابراهيم باشا (الجمهورية) شمال شارع الألفى . واحترق هذا الفندق فى حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ . ونقل الفندق بعد ذلك الى مقره الحالى على النيل بجاردن سيتى .

وفى سنة ١٨٤١ أشرف على تحرير القسم العربى بالوقائع الرسمية . وجريدة الوقائع الرسمية أنشئت سنة ١٨٢٨م (١٢٤٤هـ) . وكانت الصحيفة نصفين ، النصف الأيمن تركى . والأيسر عربى . وفى سنة ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) ، بدأ اصدار الوقائع من نسختين . احداهما عربية والثانية تركية . وكل نسخة منهما قائمة بذاتها . وقال أمين باشا سامى فى تقويم النيل (ج ٢ ص ٥٤٤) أن أقدم الأعداد العربية الموجودة ــ بوضعها الأخير ــ هو العدد ٦٨ الصادر فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٣هـ

وفى نوفمبر سنة ١٨٤٨ تولى الحكم عباس حلمى الأول ابن طوسون بن محمد على بعد وفاة

عمه ابراهيم باشا . بحكم أنه أكبر أفراد أسرة محمد على سنا . كما كان متبعا وقتذاك .

وكان حكم عباس الأول نكبة على البلاد وتضييعا لما بذله جده محمد على من القيام بمرافقها . وكانت النكبة الكبرى على شئون التعليم . فقد ألغى جميع المدارس وحصرها فى مدرسة واحدة لها ناظر واحد وتجمع جميع المدارس .. وبلغت نفقات التعليم فى آخر عهده (٥٠٠٠) خمسة آلاف جنيه، بعد أن كانت فى آخر عهد محمد على ٨٨٠٠٠ ثمانية وثمانين ألفا من الجنيهات . وكانت حجته فى ذلك أن تعليم الشعب مضر بالحاكم ، وأن من يتوسم فيهم الصلاح والنبوغ سحرة ويجب التخلص منهم .

فألغى فى سنة ١٨٥٠ مدرسة الألسن ونقل ناظرها رفاعة رافع ليكون ناظرا على مدرسة الخرطوم الابتدائية . وهو فى الواقع نفى . ونقل معه الكثيرين من كبار مدرسى مدرسة المهندسخانة ليكونوا مدرسين بتلك المدرسة الابتدائية .

وظل رفاعة رافع فى منفاه حتى قتل عباس الأول سنة ١٨٥٤ وتولى مكانه عمه سعيد باشا . فأعاده ومن معه من مدرسى المهندسخانة الى القاهرة . ثم عينه وكيلا ثم ناظرا للمدرسة الحربية سنة ١٨٥٦ فأدخل الى تلك المدرسة الى جانب العلوم العسكرية علوم اللغة والآداب والرياضيات وأنشأ بها قسما للترجمة .

وفى يناير سنة ١٨٦٣ تولى الخديو اسماعيل بن ابراهيم باشا بعد وفاة عمه سعيد باشا . فعين رفاعة رافع ناظرا لقلم الترجمة .

فترجم القانون المدنى الفرنسى والقانون التجارى الفرنسى . وألف وترجم عدة كتب دراسية منها (أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل) وهو أول كتاب علمى فى تاريخ مصر القديم اعتمد فيه على نتائج الأبحاث التاريخية والأثرية حتى عصره . (التحفة المكتبية لتقريب

اللغة العربية) فى النحو على طريقة جديدة غير طريقة المتون والشروح القديمة . (القول السديد فى الاجتهاد والتقييد) . (مباهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) فى التثقيف السياسى والاجتماعى والاقتصادى . (المرشد الأمين للبنات والبنين) فى التربية الحديثة . (نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز) فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وغيرها .

وأنشأ اسماعيل فى سنة ١٨٧٠ مجلة أدبية اسمها (روضة المدارس) . وعهد على باشا مبارك ـ وكان ناظرا للمعارف ـ بنظارتها الى رفاعة رافع . وتولى ابنه على فهمى رافع رئاسة تحريرها . وساهم فى تحريرها الكثيرون من أعلام مصر وقتذاك مثل عبد الله باشا فكرى واسماعيل باشا الفلكى ومحمد باشا قدرى . وغيرهم .

وكان محل رضى من جميع الحاكمين الذين عاصرهم . وتوالت انعاماتهم عليه : ٢٥٠ فدانا من محمد على ٢٠٠ فدان من سعيد ، ٢٠٠ فدان من اسماعيل . فضلا عن ٣٦ فدانا حديقة نادرة المثال بجهة الخانكة من ابراهيم باشا .

واشترى هو ٩٠٠ فدان فكأنه ترك أكثر من ١٦٠٠ فدان . وقد زاد أولاده من بعده هذه الثروة حتى بلغت ٢٥٠٠ فدان (على مبارك ج ١٣ ص ٥٥) . رفاعة الطهطاوى للدكتور حسين فوزى النجار ، أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى للاستاذ محمد فهمى حجازى . بحث فى العدد الاول من المجلد الرابع من مجلة عالم الفكر الكويتية فى ابريل ـ يونية سنة ١٩٧٣) .

ويعد رفاعة رافع الطهطاوى بحق رائد النهضة الفكرية الحديثة فى مصر ، تخرج على يديه الكثيرون من قادتها وروادها .

وتوفى الى رحمة الله سنة ١٨٧٣ .. وخلدت بلدية القاهرة اسمه بأطلاقه على أحد شوارع مصر الجديدة .

ومن أشهر تلاميذه الدكتـــور سالم باشا سالم عاد من بعثته الى ألمانيا سنة ١٨٥٤ (١٢٧١هـ) • وتولى عدة وظـائف منهـا مدير الصحة العمومية ، وكان فى آخـر عهـده الطبيب الخـاص للخـديو توفيق • وباسمه شـارع بجهـة العجوزة بالجيزة •

ونذكر أيضا من تلاميـذ رفاعة بك محمـد باشـا قدرى المشرع القـانونى مؤلف الكتب الثـلاثة المشهورة (مرشـد الحـيران الى معرفة أحوال الانسان على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان) (العدل والانصاف للقضـاء على مشكلات الأوقاف) ، (الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية) • وجميعها طبعت بعد وفاته ، وكانت من المراجع الهـامة لـكافة رجال القانون • وتوفى سنة ١٨٨٦ بعد أن كف بصره • وباسمه شـارع يصـل بين شـارعى بورسـعيد والصليبة بالقرب من ميدان السيدة زينب (أسـماء ومسـميات مـن تـاريخ وخطط القـاهرة لـكاتب المقـال) •

الدكتور محمد بك الشافعى

أصله من طلبة الأزهر • ثم درس بمدرسة الطب بأبى زعبـل • ثم أرسل فى بعثة الى فرنسا سنة ١٨٢٦ وعاد سنة ١٨٣٨ • فعين مدرسـا للأمراض الباطنية فى أبى زعبل • ثم مدرسـا للطب بقصر العينى • ثم ناظرا لها سنة ١٨٥٨ • وهو أول ناظر مصرى بها •

ومدرسـة الطب فى أبى زعبـل أنشأها محمـد على سنة ١٨٢٧ ، ثم أغلقت فى عهـد عبـاس حلمى الأول ضمن ما أغلقه من المدارس • وفى عهد سعيد تقـرر فتح مدرسة للطب فى قصـر العينى • الذى كان وقتذاك مستشفى تحت ادارة كلوت بك • وفتحت مدرسة الطب فى قصـر العينى فى سـبتمبر سـنة ١٨٥٦ وتولى نظارتهـا كلوت بك مـع ادارة المستشفى • وفى سنة ١٨٥٨ تولى نظارتها محمد بك الشـافعى صـاحب الترجمـة (كلوت بك توفى سنة ١٨٦٨) •

وتوفى الدكتـور محمـد بك الشافعى سـنة ١٨٦٠ • وله مـن

المؤلفات العلمية : (أحسن الأغراض في تشخيص ومعالجة الأمراض) ، (السراج الوهاج في التشخيص والعلاج) . وترجم عن الفرنسية (الدرر الفوال في معالجة الأطفال لمؤلفه كلوت بك) .

وتوجد حارة صغيرة متفرعة من شارع عبد العزيز بالقرب من محلات عمر أفندى ، تصل بين شارع عبد العزيز وشارع الجمهورية وتمتد شمال مسرح الجمهورية ، اسمها حارة شافعى . حيث كان منزله هناك . وكان رحمه الله جديرا بمكان أكبر لتخليد ذكراه . أو على الأقل تذكره اللافتة باسم حارة الدكتور شافعى للتعريف والذكرى (المرجع السابق لكاتب المقال) .

الدكتور السيد احمد حسن الرشدى

أصله من طلبة الأزهر . ثم اشتغل مصححا للكتب الطبية بمدرسة أبى زعبل . وسافر الى أوربا فى بعثة سنة ١٨٣٢ . وعاد من فرنسا سنة ١٨٣٨ . فعين مدرسا للعلوم الطبيعية بمدرسة الطب بأبى زعبل الى أن عطلت . وتوفى سنة ١٨٦٥ . وله من المؤلفات العلمية (الروضة البهية فى الأمراض الجلدية) ، (بهجة الرؤساء فى أمراض النساء) ، (ضياء النيرين فى أمراض العين) .

ومن هذه الأسماء يبدو أن التخصص فى فروع الطب لم يكن معروفا .

الدكتور حسنى غانم الرشيدى

وهو أيضا من طلبة الأزهر . واشتغل مصححا بمدرسة طب أبى زعبل . وسافر الى فرنسا فى بعثة سنة ١٨٣٢ . وعاد لمصر سنة ١٨٤٥ . ومن مؤلفاته (الدر الثمين فى الأقربازين) .

وقد أسمت البلدية شارعا باسم شارع الرشيدى متفرعا من شارع قصر العينى أمام قصر العينى . ولا أدرى هل هو تخليد لذكرى الأول أو الثانى . وان كنت أرجح أنه للأول الدكتور أحمد حسن الرشيدى .

عودة الى الازهر

ذكرنا أن محمد على بعد نفى عمر مكرم سنة ١٨٠٩ ومذبحة المماليك سنة ١٨١١ استهان بشأن علماء الأزهر . فقد أمكنه تفريق وحدتهم . واغراء بعضهم على بعض بالمناصب . اذ شعر بالاستغناء عن تعضيدهم . فحرم عليهم الاشتغال بالسياسة الا ما يصرح هو به عندما يجمعهم للموافقة على أمر معين .

مثل ما جمعهم فى مارس سنة ١٨١٦ (جمادى الأولى سنة ١٢٣١هـ) عندما أراد الحد من تصرفات القاضى التركى الذى بالغ فى فرض الرسوم على التقاضى .. كما تدخل بالأهواء والأغراض فى محاسبة نظار الأوقاف . وقدر على نصارى الأقباط والأروام مبلغا كبيرا سنويا بحجة المحاسبة على أوقاف الديور والكنائس . وغير ذلك .

فاجتمع العلماء فى بيت الشيخ البكرى . وكما يقول الجبرتى (بأمر باطنى من صاحب الدولة) ، وكتبوا محضرا يطلبون فيه تدخل ولى الأمر ليوقف القاضى عند حده . والمقصود من ذكر هذه الواقعة أنهم لم يجتمعوا من أنفسهم ولكن بايعاز من محمد على .

وخفض محمد على مخصصات المساجد ومنها الأزهر . واختصر مزايا علمائه . فقد ذكر الجبرتى أنهم أحصوا الرزق الأحباسية المرصودة على المساجد والبر والصدقة بالصعيد ومصر فبلغت ستمائة ألف فدان . وأشاعوا أنهم يطلقون على المساجد خاصة نصف المفروض (وهذا النصف ثلاثة أريلة ونصف . وهو نصف قيمتها الايجارية) . فضج أصحاب الرزق . وحضر الكثيرون منهم يستغيثون بالعلماء . فركبوا الى الباشا وتكلموا معه وقالوا له ان هذا يترتب عليه خراب المساجد . فقال لهم : وأين المساجد العامرة ؟ الذى لا يرضى بذلك يرفع يده وأنا أعمر المساجد المتخربة . وأرتب لها ما يكفيها . ولم يفد كلامهم شيئا .

وفى يونية سنة ١٨٢١ (رمضان سنة ١٢٣٦هـ) صدر أمر محمد على الى دفتردار مصر أن جارى صرف مرتبات علماء الأزهر مقدارها (!!) ١١٥٨٥ أردبا من الحنطة قدر لها ثمن ٣٦٠٠٠ قرش ، ولتضرر العلماء من الثمن استحسن أعتباره ٦٩٥١٠ قروش ، أى متوسط ثمن الأردب على التقدير الأول أقل من ثلاثة قروش ، وعلى التقدير الثانى ستة قروش للأردب.

ونفهم معنى هذا اذا علمنا أنه كان يستولى على القمح من الفلاحين بأقل من عشرة قروش ويبيعه للأنجليز تسليم الاسكندرية بمائة قرش ، وأن سعره الجارى فى الداخل كان أكثر من ثلاثة أضعاف الثمن الذى قدره للعلماء .

وبرغم الاستبداد الذى كان فى طبيعة محمد على ، فلا جدال أنه كان رجلا فذا ، فقد أمكنه أن ينشىء حكومة مستقرة على أنقاض فوضى الولاة العثمانيين والمماليك ، وأن يستقل بحكومته عن الدولة العثمانية استقلالا شبه تام ، وأن ينشىء جيشا قويا من صميم الشعب المصرى حارب به وغزا وانتصر فى كل المعارك ، وأن ينشىء الأسطول المصرى ، وأرسل البعثات العلمية الى الخارج ليستغنى بأبناء مصر عن المستشارين الأجانب ، وأنشأ الصناعات الحربية وكثيرا من الصناعات المدنية ، ونمى الزراعة باستصلاح الأراضى وشق الترع واستجلاب البذور والأشجار لتحسين الأصناف الموجودة ، أو لاستنبات أصناف جديدة ، وغيرها من الاصلاحات معتمدا فى هذا كله على موارد وامكانات مصر ، فلم تمتد يده الى القروض الأجنبية التى كانت سببا فى ضياع البلاد .

صحيح أن كل هذا كان لمصلحته الخاصة ، فالتعليم والبعثات العلمية لتزويد الحكومة بالموظفين ، وتحسين المرافق والخدمات لمصلحة الأنتاج ، اذ قد أمم الصناعة والزراعة ، واحتكر التجارة الداخلية والخارجية لحسابه ،

وأكثر من فرض الضرائب المختلفة على كل نوع من مرافق العيش من مأكل وملبس ومسكن وانتقال .

ولكن دائما يختلط الأمر عند الحاكم المستبد بين المصلحتين العامة والخاصة . فهو الدولة . عظمته وثراؤه عظمة وثراء لها . والعكس .. وما دامت ميزانية الدولة سليمة وفى تقدم فلا تهمه الميزانية الشخصية للأفراد .

ومن السهل على حاكم قوى أن ينشىء حكومة قوية تفرض النظام وتحفظ الأمن . ولكن الأصعب تربية شعب قوى واع بجانب هذه الحكومة يراقبها ويمنعها من الانحراف .

ولو اتجه محمد على الى هذا الاتجاه لبكر بنضوج الشعب المصرى عشرات السنين . ولما تورط هو فى مطامعه الشخصية وحروبه الخارجية التى لم يستفد منها شيئا . والتى أدت الى نكسة البلاد فى أواخر حياته وتعطل أغلب المصانع التى أنشأها . ولوقف الشعب حائلا ضد التدهور الذى حدث فى عهد حفيده عباس حلمى الأول من اغلاق المدارس وقفل بقية المصانع . ولقاوم الشعب الأسراف الذى اتجه اليه اسماعيل مما أغرقها فى الديون وعرضها للأفلاس الذى أدى لتدخل الدول الأجنبية . وبالتالى الى الاحتلال الانجليزى .

وللاستطراد نوضح أن صحة محمد على تدهورت فاعتزل الحكم سنة ١٨٤٨ . وتولى بعده ابنه ابراهيم باشا ولكنه توفى بعد شهور فى نفس السنة . فتولى عباس حلمى الأول ابن طوسون بن محمد على حتى قتل سنة ١٨٥٤ . فتولى سعيد باشا بن محمد على حتى توفى. وتولى بعده اسماعيل ابن ابراهيم باشا فى يناير سنة ١٨٦٣ حتى خلع سنة ١٨٧٩ . أما محمد على فقد توفى فى أغسطس سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥هـ) .

حقيقة أن محمد على فى أمر من أوامره لأحد موظفيه بالأقاليم بلغه عنه أنه يسىء معاملة الفلاحين . فأرسل اليه ينهاه ويقول اننى مدين

بالفضل لاثنين هما السلطان محمود والفلاح المصرى . وصحيح أيضا أنه أصدر أمرا فى سنة ١٨٤١ الى عموم المصانع (الفابريقات كما كانت تسمى) بصرف ٥٠٪ خمسين فى المائة من أرباح المنسوجات المختلفة للأسطوات حتى يترتب على ذلك التنافس فى الأبداع والاتقان (تقويم النيل لأمين باشا سامى ج ٢ ص ٥١٥ ولكنه ذكر فى الفهرست أن النسبة ٢٠٪ عشرون فى المائة) .

ولكن هذا وذاك لمصلحة الأنتاج . وليس بدافع انسانى . فأنا نجده فى أوامر أخرى يطلب التشديد على الفلاحين ولو بضرب النبوت . ولا يمكن أن ننسى الاعداد الوفيرة من العمال الذين كان يسخرهم للعمل فى شق الترع والمشروعات المختلفة بأبخس الأجور وفى أسوأ حالات الطقس . مما أدى الى وفاة الآلاف .

والدولة ليست فردا يملى ارادته .. ولكنها الشعب بمجموعه . والحكم السليم هو الشورى كما قضى الله . أو كما نعبر الآن بالديمقراطية الصحيحة التى تكفل حرية الفكر والكلمة .

وكان الاستبداد دأب من تلا محمد على من أفراد أسرته . فلم ينسوا أبدا أصولهم التركية . واستعلاءهم على العرب . وكان الحاكم منهم يلقب بولى النعم . ولا يطيقون معارضة وجزاء المعارض النفى والتشريد . ان لم يكن الاغتيال .

صحيح أن بعضهم كان يصرح بعواطف طيبة . مثل ما ذكره المؤرخ المرحوم عبد الرحمن الرافعى أن سعيدا ألقى خطبة فى قصر النيل مخاطبا فيها الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة وكبار رجال الحكومة من الملكيين والعسكريين .. فقال : (أيها الأخوان انى نظرت فى أحوال الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض . فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرا . وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا .

فوجب على أن أربى أبنـاء هـذا الشعب • وأهـذبه تهـذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة • ويستغنى بنفسه عن الأجانب • وقد وطـدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفـكر الى العمـل) •

ويقـول الرافعى فى (الـزعيم الثائر أحمد عرابى ص ١٣) نقـلا عن أحمد عرابى فى مذكراته تعليقا على هذه الخطبة أنه لما انتهى سعيد من القـائها خـرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقـين مدهوشين ممـا سمعوا • وأمـا المصريون فقد خرجـوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا • ويقـول انه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ مصر للمصريين •

ولكنه كان قولا فى الهـواء • أو على الأقل لم يضـع موضـع التنفيذ • وتوفى سعيد وخلفه ابن أخيه اسماعيل وأراد اسماعيل أن يعيد عهد جـده فى الاصلاحات • ولـكن محمـد علي اعتمـد فى اصـلاحاته على موارد البـلاد •

أما اسماعيـل فلم يكتف بهـذه الموارد بل استدان واقترض حتى أدى بالبلاد الى الخراب والضياع •

واذا كان محمد على لم يحـاول فى حركته الأصـلاحية النهـوض بالشعب المصرى • فلم يتعمق الى جـذور الأصـلاح الحقيقى • فان اسماعيل كان فى حركته الاصلاحية أكثر سطحية من جـده • فاكتفى بالمظاهر • فجيش الجيوش للتوسع الخارجى • وبنى القصور • وعمر منطقتى الأزبكيـة والاسماعيليـة اللتين لا تزالان للآن صرة المدينة • وبهمـا أهم مرافقهـا من وزارات ومصالح ومتاجر وخـلافه ، وكان ميدان التحرير اسمه لغـاية ثورة سنة ١٩٥٢ ميـدان الاسماعيلية • فخطط شوارعها التخطيط البـاقى للآن وجمـل الميادين بالمتنزهات والتماثيل ، ولكنه بالغ فى الأسراف فى انشاء القصور والترف واغداق آلاف الأفدنة على أسرته والمقربين اليـه •

وكلنا يعلم البـذخ المبالغ فيـه فى احتفالات افتتاح قناة السويس

سنة ١٨٦٩ . فقد قال على مبارك (الخطط التوفيقية ج١٨ ص١٣٨): (أنها تكلفت من أجر أشخاص ومنقولات ومأكولات وغير ذلك ١٠٠١١ر٨٩٣ جنيها انجليزيا . وأنه لو أضيف الى ذلك أجر السكك الحديدية وما صرف على وابورات البحر فى النيل والخليج المالح . وما صرفته الحكومة على المبانى فى مدن القنال والقاهرة وثغر الأسكندرية وغيرها . وما صرف فى الزينة ومهماتها . وشراء عربات ومهمات للسكك الحديد لأجل المهرجان المذكور لبلغ مصرف هذا المهرجان ما يزيد على مليون ونصف من الجنيهات . وذلك قدر السدس من ايراد مصر سنة كاملة) .

واحتفل اسماعيل بزواج أربعة من أولاده هم : محمد توفيق (الخديوى بعده) . حسين كامل (السلطان حسين) ، حسن ، فاطمة على أربعة من أمراء الأسرة المالكة . فى يناير سنة ١٨٧٣ . وبولغ فى الانفاق على الولائم فى قصور اسماعيل . سواء فى القصر العالى (بجاردن سيتى) سكن والدته . أو قصر القبة . أو سراى الجزيرة .. التى كانت مساحتها ٦٠ فدانا وتكلفت ٦٩١ر٨٩٨ جنيها وأصبح جزء منها الآن فندق عمر الخيام . وأقيمت الاحتفالات الشعبية بحى المنيرة . فنصبت السرادقات للمطربين . ومدت الحبال فى الساحات ليلعب عليها البهلوانات . واستمرت الاحتفالات أربعين يوما باعتبار عشرة أيام لكل زيجة .

ولا يزال بحى المنيرة شارع اسمه أفراح الأنجال بين شارعى محمد عز العرب (المبتديان سابقا) وأمين باشا سامى . تخليدا لذكرى هذه الأفراح . وربما كانت تسمية المنيرة ترجع الى هذه الأفراح .

وكان حى المنيرة اسمه تل كوم العقارب وفيه نفذ حكم الأعدام على سليمان الحلبى وزملائه لقتل كليبر خليفة نابليون فى مصر . وأزيل تل العقارب فى عهد محمد على . وخطط حى المنيرة فى عهد اسماعيل (أسماء ومسميات فى تاريخ وخطط القاهرة لكاتب المقال) .

واسراف اسماعيل وماجره من خراب البلاد معروف . وليس هنا مكانه . ولكن نذكر لأسماعيل أنه توسع فى شئون التعليم . فقد زاد عدد المدارس حتى وصل الى ١٣٠١ مدرسة ومعهدا . عدا الأزهر والمعاهد الأجنبية والمعاهد التابعة للأوقاف والمدارس الحربية لتعليم الجيش (تاريخ مصر لعمر الأسكندرى ص ٢٢٥) .

وكان على رأس حركة التعليم ثلاثة رجال : اثنان منهما أزهريا النشأة وهما رفاعة رافع بك الطهطاوى ـ وقد مر ذكره ـ وعبد الله باشا فكرى . والثالث أزهرى النزعة وهو على باشا مبارك .. وسنتكلم عنهما فى المقال التالى باذن الله .

محمد كمال السيد

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٥٤١ كتبت صحيفة الأهرام فى صدر صفحتها الأولى بخط عريض عنوانا قالت فيه :

السادات : اذا كانت مقترحات بيجين غير مقبولة سأعلن ذلك لمصر والعالم .

وفى هذا العنوان غلطة نحوية كان من الواجب على الصحيفة ألا تقع فيها ، هى قولها : سأعلن ذلك بدون فاء الجواب .

والفصيح أن يقال : فسأعلن ذلك بدخول الفاء وجوبا على جواب اذا

واذا فى هذا العنوان ظرف للزمان المستقبل شرطية ، والقاعدة تقول : اذا لم يصلح الجواب لأن يكون شرطا وجب اقترانه بالفاء ، وذلك بأن يكون جملة اسمية نحو قولك من سعى فى الخير فسعيه مشكور ، أو جملة فعلية فعلها طلبى نحو اذا مرضت فاستشر الطبيب واعمل بنصحه ، أو جامد نحو من أفشى سر الصديق فليس بأمين ، أو مسبوق بلن نحو ان عصيت أمرى فلن تنال محبتى ، أو قد نحو ان نهضت مصر اليوم فقد نهضت من قبل أو ما النافية نحو ان تجتهد فما أقصر فى مكافأتك .. أو السين نحو من يتعب فى صغره فسيستريح فى كبره .. أو سوف نحو من ظلم الناس فسوف يندم .

ومن أمثلة اذا التى نحن بصدد الحديث عنها قولك :

اذا أكثرت من عتاب صديقك فسترى منه الانصراف عنك ، واذا لم تستعد للسفر مبكرا فسيفوتك القطار ، واذا احتقرت الناس فستحس منهم كراهية لك واشمئزازا منك .

ومما يقوم مقام أداة الشرط وفعله أما ، وهى حرف تفصيل ، ومنها قوله تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا » .

٥٤٢ وذكرت صحيفة الأهرام فى صفحتها الأخيرة مما له وثيق الصلة بهذا الباب عدة جمل يدعو ربه بها الدكتور يوسف وهبى ، فقد قال :

يا رب اذا جردتنى من المال اترك لى الأمل ، واذا جردتنى من النجاح اترك لى قوة العناد حتى أتغلب على الفشل ، واذا جردتنى من نعمة الصحة اترك لى نعمة الايمان يارب : اذا أسأت الى الناس أعطنى شجاعة الاعتذار اليهم ، واذا أساء الناس الى أعطنى شجاعة العفو عنهم .

وكل جملة من هذه الجمل يشوبها الفساد ، لأن اذا فيها شرطية ، وجوابها جملة فعلية فعلها طلبى ، فلابد أن يقرن بالفاء فيقال فى الجملة الأولى : فاترك لى الأمل ، وفى الثانية فاترك لى قوة العناد ، وفى الثالثة فاترك لى نعمة الايمان ، وفى الرابعة فأعطنى شجاعة الاعتذار اليهم ، وفى الخامسة فأعطنى شجاعة العفو عنهم

ويؤيد كل هذا قوله تعالى : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها »

٥٤٣ ويقولون : وضعنا طعامنا على السفرة ، وهذا خطأ ، لأن السفرة هى الطعام الذى يتخذ للمسافر ، تقول : أكل المسافرون سفرتهم أى طعامهم

والفصيح أن يقال : وضعنا طعامنا على الخوان ، وفيه ثلاث لغات ، كسر الخاء ، وهذا هو الأكثر ، وضمها حكاه ابن السكيت ، واخوان بهمزة مكسورة ، حكاه ابن فارس ، وفى الحديث « حتى أن أهل الاخوان ليجتمعون » وجمع المكسور فى القلة أخْوِنة" ، وفى الكثرة خُون بالضم ، والأصل خُوُن بضمتين ككتب لكن سكن تخفيفا ، ويجوز أن يجمع المضموم فى القلة على أخونة كغراب وأغربة

أما الاخوان فيجمع على أخاوين كأزهار وأزاهير .

ولك أن تقول بدلا من تعبيرهم : وضعنا المائدة ، لأن من معانى المائدة الطعام ومن معانيها أيضا الخوان وعليه الطعام ، فان لم يكن عليه طعام فهو خوان لا مائدة تقول : ماد الرجل أهله اذا نعشهم ، وامتادوه فمادهم ، قال :

ياخيرنا نفسا وخيرا والدا
وكنت للمسودين سائدا
وكنت للمنتجين مائدا

أى ناعشا من سيدهم ، والمائدة فاعلة بمعنى مفعولة لأن المالك مادها للناس أى أعطاهم اياها وميد بفتح فسكون لغة فى بيد بمعنى غير ، وفى الحديث « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد ابن بكر » وقيل معناه ، من أجل أنى .

٥٤٤ وهم يخطئون فى بعض أسماء النباتات والبقول وبعض ما يؤكل ، اما فى المعانى واما فى الضبط .

١ — من ذلك قولهم لنبت معروف خبيزة بالضم وتشديد الباء مكسورة ، والصواب خُبَّازى بضم الخاء مع تشديد الباء ، وخبازى بالتخفيف ، وخباز وزان قفاز ، وخبازة وزان تفاحة ، وخبيز بالضم وتشديد الباء مفتوحة .

٢ ــ وقولهم لحب نافع ملين مدر مقو للبدن : حمص بضمتين •

ثانيتهما مشددة ، والصواب حمص بكسر الحاء وتشديد الميم مفتوحة على رأى المبرد بتشديدها مكسورة وزان عليز وهو القصير على رأى ثعلب •

٣ ــ وقولهم لنبات فيه قوة جالية غسالة ينفع الصدر والظهر ملين : سبانخ ، والصواب اسفاناخ بكسر الهمزة •

٤ ــ وقولهم لبقلة معروفة جرجير بفتح فسكون ، والصواب جرجير ، وجريجر بكسر فسكون فيهما •

٥ ــ وقولهم لبقل معروف خص بفتح الخاء وتشديد الصاد ، والصواب خس بالسين بدلا من الصاد •

٦ ــ وقولهم شبت وزان سبب والصواب شبَّت وزان فلز وهو اسم جامع للجواهر من الذهب والفضة والنحاس وغيرها •

٧ ــ وقولهم لبقلة جيدة لوجع المفاصل واليرقان ولوجع الكبد وللاستسقاء ، ونهش الأفاعى والعقارب ، وبعد الطعام تهضم وتلين فجل بكسر فسكون وزان قرد ، والصواب فجل بالضم وزان برج الواحدة بهاء •

٨ ــ وقولهم لبقل مسخن مدر جدا ، جيد للنسيان والربو والسعال المزمن يجلو ويحلل وييسر النفس ثوم بفتح فسكون ، والصواب ثوم بالضم •

٩ ــ وقولهم لحلواء معروفة فالوذج والصواب فالوذ بدون جيم أو فالوذق بالقاف بدلا من الجيم ، قال يعقوب : ولا يقال فالوذج •

٥٤٥ وينكرون أن يقال : وهبتك مالا ، أى بتعدية الفعل الى مفعولين بنفسه ، والحق أن

ذلك جائز كما يستبان مما يأتى :

والأصل فى هذا الفعل أن يتعدى الى مفعولين ، بيد أن كثرة تعديه لأولهما باللام ولثانيهما بنفسه كما فى قوله تعالى : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » وقوله : « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » وقوله « ووهبنا لداود سليمان » وقوله « يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور » وقوله « فهب لى من لدنك وليا يرثنى » وقوله « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين »

وقد يكون ذلك بالعكس أى أنه يتعدى الى الأول بنفسه ، والى الثانى باللام كما فى قوله سبحانه : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى »

وقد يكتفى بالمعدى اليه باللام ، ويحذف المعدى اليه بالنفس كما فى قوله عز وجل « ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا » أى وهبنا لهم من رحمتنا النبوة والكتاب والأموال والأولاد . وقوله : «رب هب لى من الصالحين» أى رهب لى ولدا يعيننى على الطاعة ويؤنسنى فى الغربة ، ولذا قال تعالى بعد ذلك : « فبشرناه بغلام حليم » .

وقال ابن القوطية والسرقسطى وجماعة : ولا يتعدى الى الأول بنفسه الا اذا ضمن معنى جعل كما فى قولهم : وهبنى الله فداك أى جعلنى فداك

ولكن جاء فى المخصص جزء ١٢ ص ٢٢٧ مانصه : « ذكر أبو على أنه سمع أعرابيا يقول لآخر : انطلق معى أهبك نبلا » حكاه أبو سعيد السيرافى

وقد نبه هبة الله بن الشجرى فى أماليه النحوية على جواز

تعديته بنفسه الى مفعولين ، وقـال ابن هشـام فى المغنى جزء ١ ص ١٦٩ : ان العرب حذفت اللام مـن الأفعـال المفتقرة اليهـا ، كما فى قوله تعـالى : « والقمـر قدرناه منازل » أى قدرنا له ، وقوله: « واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » أى كالوا لهم أو وزنوا لهم ، وكمـا قـالت العرب : وهبتك دينـارا أى أى وهبت لك ، وجنيتك تمرة أى جنيت لك تمـرة ، قال الشاعر :

ولقد جنيتك اكمؤا(١) وعساقلا(٢)
ولقد نهيتك عـن بنات الاوبر(٣)

مما عرضنا آنفـا اتضح أنه يجوز أن يقال : وهبتك مالا، بيـد أن الأفصح أن يقـال وهبت لك مالا كلغة القرآن الكريم .

ويقال : هبنى فعلت كذا أى احسبنى واعـددنى ، وهذا الفعل للأمر فقط ولا يستعمل منـه مـاض ولا مستقبل ، قال :

فهبها أمة هلكت وأودت(٤)
يزيد امامُها وأبو يزيدا

٥٤٦ فى صـدر صحيفة الأهـرام عنوان كتب بخط عريض هو حقيقـة الصراع السياسى فى تونس ، هـل يتولى الجيش السلطة ليوقف حدة الصراع؟ وفى هذا العنوان غلطة تدل على جهل قائلها بلغة العـرب هى قـوله : ليوقف حـدة الصراع بالفعـل الـرباعى ، والصـواب أن يؤدى ذلك بالفعل الثلاثى فيقال : ليقف حـدة الصراع

وبيان ذلك أن الفعل الرباعى أوقف يـوقف لا يسـتعمل الا فى قولك :

كلمنى فـلان فـأوقفت أى أمسكت عن الحجـة عيـا ، وأوقف فلان عن الأمـر اذا أمسك وأقلع .

(١) الاكمؤ : نبات
(٢) العساقل الكمأة للواحد عسقل وعسقول .
(٣) بنات أوبر : ضرب من الكمأة صـــغار مزغبة بلون التراب .
(٤) أودت : هلكت ، تقول اودى الرجل اذا هلك فهو مود .

قال صاحب القاموس : ليس في فصيح الـكلام أوقف الا لهذا المعنى .

وقال صاحب المختار : قولهم أوقف فـلان الدار بالألف لغة رديئة ، وليس في الكلام أوقف الا حرف واحد . هو أوقفت عن الأمر الذى كنت فيه أى أقلعت

وقال صـاحب المصـباح : الواجب أن يقال : وقفت بغير ألف في جميـع الباب الا في قولك لآخر : ما أوقفك ههنا ؟ وأنت تريد أى شيء حمـلك على الوقوف هنا ؟

فان سألت عن شخص قلت : من وقفك بغير ألف

ويقال : وقف الرجل ابنـه على ذنبه اذا أطلعه عليـه ، ووقفت الدابة تقف وقوفا ، ووقفها راعيهـا من باب وعد وقفـا ، ووقفت الـدار للمساكين وقفـا أى حبستها في سبيل الله ، ووقفت الرجل عن الشيء منعته عنه ووقفت بعرفات وقوفا شهدت وقتها ، ووقفت الأمر على حضور فلان أى عـلقت الحـكم فيـه بحضـوره ، ووقفت قسـمة الميراث الى أن تضع زوجـة المتـوفى أى أخـرت القسمة حتى تضع .

٥٤٧ وفي الصحيفة نفسهـا عنوان آخر قالت فيه (المهمة الخاصة التى كلـف بهـا الـرئيس وزير الاسـكان لحـل كل مشكلات الصيادين في بحيرة ناصر) .

وفي هذا العنوان خطأ بين ، وذلك لأن كلف المضعف لابد أن يتعدى بنفسه الى مفعولين كمـا في قـوله تعـالى : « لا يـكلف الله نفسـا الا وسعها » ، أما الثلاثى فقـد يكون لازما كمـا في قولك كلف الرجل بالمرأة من باب تعب كلفا اذا أحبهـا وأولع بها فهو بهـا كلف ، وقـد يتعـدى الى واحـد كما في قولك : كلفت الأمر من باب

تعب أيضا اذا حملته على مشقة .

والتكاليف المشاق واحدتها تكلفة بكسر اللام ومن هذا قول زهير

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالك يسأم

والكلفة بضم الكاف المشقة ، يقول : ليس عليه كلفة أى مشقة ، وفى المثل

« من لم يصبر على الكلف لم يصل الى الزلف »والزلف جمع زلفة وهى القربة والمنزلة والدرجة .

٥٤٨ ويقولون : قلّس علينا فلان تقليسا ، يعنون أنه سخر منهم واستهزأ بهم وهذا التعبير فاسد ، لأن للتقليس معانى عدة لا صلة لكل منها بالسخرية .

أحدها : الغناء والضرب بالدف حين استقبال الولاة عند قدومهم والاحتفاء بهم والمقلسون هم الذين يلعبون فى الأعياد بين أيدى الأمراء بالسيوف والحراب ، ويضربون الطبول ، وفى الحديث « لما قدم عمر الشام لقيه المقلسون بالسيوف والريحان وأصناف اللهو » .

قال الكميت : ثم استمر يغنيه الذباب كما غنى المقلس بطريقا بمزمار

والثانى : وضع اليدين على الصدر ، تقول : قلس الذمى اذا وضع يديه على صدره . والثالث : الخضوع واظهار الهيبة لأحد الأمراء ، قال الفرزدق :

اذا ما رأونا قلسوا من مهابة
ويسعى علينا بالطعام جرير

٥٤٩ ويقولون : نستدفىء (بالدفاية) بتشديد الفاء ، وكلمة الدفاية لا تعرفها العرب ، لأنها عامية ، والفصيح أن يقال : نستدفىء بالمصطلى ، أو بالمدفأة بكسر الميم .

أما المصطلى فهو اسم مكان من الاصطلاء بمعنى الاستدفاء •• ومنه قوله تعالى : « لعلكم تصطلون » ويطلق المصطلى على الموضع الثابت فى الحائط ، وأما المدفأة فهى اسم آلة من الدفء وتطلق على الأداة المنقولة للاستدفاء ، وتضاف الى مصدر الحرارة فيقال مدفأة الكهرباء ومدفأة البخار ، ومدفأة النفط •

٥٥٠ ويقولون : تقضى الحاجة فى « الأدبخانة » أو فى (الكابنيه) وكلا هذين اللفظين أعجمى ، والصواب أن يستبدل بهما أحد الألفاظ الآتية التى وضعتها العرب لهذا المعنى •

١ ــ الكنيف وزان أمير ، وسمى بهذا لأنه يكنف قاضى الحاجة ويستره عن الأنظار ، جمعه كنف بضمتين •

٢ ــ المرحاض بالكسر وأصله المغتسل ، تقول رحضت الثوب رحضا من باب نفع اذا غسلته ثم كنى به عن الكنيف لأنه موضع غسل النجو ، جمعه مراحيض ، وفى الحديث « وجدنا مراحيضهم قد استقبل بها القبلة » •

٣ ــ المستراح بضم الميم اسم مكان من الاستراحة وهى زوال المشقة والتعب ولذا يسمى بيت الراحة •

٤ ــ الخلاء بالفتح وهو فى الأصل مصدر ثم استعمل فى المكان الخالى ، ثم فى الموضع المتخذ لقضاء الحاجة لا للوضوء كما قال بعضهم ، وقال الترمذى : سمى باسم شيطان فيه يقال له خلاء ، وأورد فيه حديثا ، أو لأنه يتخلى فيه أى يتبرز فيه ، جمعه أخليه •

٥ ــ الغائط ، قال المختار : قولهم أتى فلان الغائط ، أصله المطمئن الواسع من الأرض ، وكان الرجل منهم اذا أراد أن يقضى الحاجة أتى الغائط وقضى حاجته ،

فقيل لكل من قضى حاجته قد أتى الغـائط يكنى به عـن العذرة ، وقد تغوط .

٦ ـ البراز بالفتح هو الفضاء الواسع ، تقول : تبرز الرجل اذا خرج الى البراز لقضاء الحاجة ومن الكناية قولك : خـرج الرجـل الى البراز وتبرز ، والبراز بالكسر كناية عن الغائط .

٧ ـ المنصع بزنة مقعد ، ففى الأساس خرجوا الى المناصع وهى المبارز ، ونصعوا اليها أى برزوا ، وفى القـاموس والمناصع المجالس أو مواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة ، الواحد كمقعد .

٥٥١ ويقولون لمن يخرج من فمه ريح مع صـوت عقب الشبع من الطعـام ، أو الرى مـن الماء : هـو يتكرع تكرعا ، وهـذا من أوهام العـوام ، والصواب أن يقـال : هـو يتجشأ تجشؤا وزان يتجمل تجملا والاسم الجشاء بالضم وزان غـراب ، وفى المثـل « تجشأ لقمان من غير شبع » يضرب فيمن يتحـلى بغـير ما هو فيه ، تقول لمن تجشأ أمامك : ما بك الا الغـداء والعشاء والكظة والجشاء ، ويقـال : جشأت نفسـه جشوءا مـن باب قعـد اذا نهضت : وجاشت من حـزن أو فـزع وثـارت للقىء وجاشت الغنم اذا أخـرجت صوتا من حلوقها : وجاشت الأرض اذا أخـرجت جميع نباتها : كما يقال قاءت الأرض أكلها ، قال عمر بن الاطنابة : أقول لها اذا جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى أما التكرع فهـو التوضؤ ، تقول : تكرع الرجـل اذا توضأ ، لأنه يغسل أكارعه ، وكرع فى الماء أو فى الاناء من بابى سـمع ومنـع كرعا ، وكروعا أيضا اذا تناوله بفيه من موضعه .

٥٥٢ ويقولون لما يحصل عليه الرجل من رشوة ونحوها حلوان بثلاث فتحات ، وهذا غير سليم والفصيح أن يقال له حلوان بضم فسكون ، تقول لمن أدى اليك خدمة لأحلونك حلوانك أى لأجزينك جزاءك .

والحلوان أيضا أجرة الدلال ، وأجرة الكاهن ، وفى الحديث « نهى عن حلوان الكاهن » وهو ما يعطاه على الكهانة ، وكذلك هو مهر الفتاة ، تقول أخذ الرجل حلوان ابنته أى مهرها والبُسلة أجرة الراقى ، والبُركة أجرة الطحان ، كلتاهما وزان غرفة ، والنول وزان القول هو جعل السفينة .

٥٥٣ ويقولون : لابد من ملافاة هذه المسألة ، يعنون تداركها وتركها ، والصواب أن يقال لابد من تلافى هذه المسألة . تقول : تلافيت التقصير اذا تداركته وعملت على تركه ، وهذا أمر لا يتلافى أى لا يدرك ويترك ، وتقول : جاء فلان بالعمل المتنافى ولم يعقبه بالتلافى ، أى جاء بالخطأ ولم يعمل على تركه .

أما الملافاة فليست عربية ، اذ لم يرد عن العرب لافى يلافى ملافاة ولفاء بكسر اللام وانما ورد اللفاء بفتح اللام ، ومعناه الخسيس الحقير من كل شيء ، تقول : رضى فلان من الوفاء باللفاء ، أى من حقه الوافر بالقليل الحقير .

٥٥٤ ويقولون : يعمل المجد على نوال المكافأة ، والصواب أن يقال : يعمل على نيل المكافأة تقول : نال المجد المكافأة ينالها نيلا ومنالا اذا أصابها ، وتقول : ما أصبت منه نولة أو ما أصبت منه نيلا أى لم أحصل منه على معروف . أما النوال والنائل والنال فمعناها العطاء ومثلها النيل ، تقول : نلت فلانا ونلت له ونلت به وأنلته المال ونولته ،

ونولت عليـه ونولت له اذا أعطيته ، ورجل نال أى جواد أو كثير النائل ، قال :

اذا كان مالا كان نالا مرزأً (١)
ونال نداه كل دان وجانب (٢)

٥٥٥ ويقولون : نده الرجل ابنـه أو خادمه ، يعنون أنه صاح به يطلب اقباله ، وهذا خطأ والصواب أن يقـال : ناداه مناداة ، ونداء من باب قاتل ، كما فى قوله تعالى : « ونادى نوح ابنه »

أو يقال : نادى الرجل بابنه كما فى قوله سبحانه « ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها » أى بأن تلكم الجنة ، وتقول نادى فلان بسره اذا أظهره ، ويقال أيضا نادى لكذا ومنه قـوله تعـالى « اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكـر الله » ونادى الى كذا ، ومنه قوله جـل شأنه « واذا ناديتم الى الصـلاة اتخذوها هزوا ولعبا » .

ويقال : تنـادوا اذا نادى بعضهم بعضا ومن هذا قوله تعالى « فتنادوا مصبحين » وتنادوا أيضا اذا تجالسوا فى النادى .

أما النَّده فهو الزجر والطرد والسوق ، تقول : نده الراعى البعـير اذا زجـره وطـرده بالصـياح ، ونده الابل اذا ساقها مجتمعة ، وكان طلاق الجاهليـة اذهبى فـلا أنده سربك أى لا أرد ابلك لتذهب حيث شاءت ، والندهة بالفتح والضم الكثرة من المال .

٥٥٦ ويقـولون لثمـر معـروف (بدنجان) وهـذه كلمـة عامية ، والفصيح أن يقال له باذنجان معرب ، وهو عنـد العرب الأنب بفتح كل من الهمزة والنون ، والمغد بفتح فسكون ، وقد تفتح الغين ، والرغـد بفتـح فسكون ، والكهكب وزان جعفر .

(١) المرزأ : الكريم يصيب الناس من عطائه .
(٢) الدانى والجانب : القـريب والبعيد .

٥٥٧ ويقولون : سقينا ضيوفنا (الكازوزة) وهذه كلمة عامية ، ولو استبدلوا بها كلمة القازوزة لكان ذلك صوابا على سبيل المجاز المرسل باطلاق المحل من ارادة الحال ، وذلك لأن القازوزة هى القارورة الزجاجية الصغيرة ، أما القارورة العظيمة •

أسفلها فتسمى الحوجلة • والحرقلة هى القارورة الطويلة العنق ، وجمع القارورة قوارير ، ومن قوله تعالى : « ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديرا » •

ولسداد القارورة أسماء هى الصمام ، والصماد ، والعلهاص بكسرهن ، تقول :

علهصت القارورة اذا عالجتها لتستخرج منها علها صها وهو صمامها •

٥٥٨ ويقولون : فلان حائز على كثير من الشهادات ، فيعدون اسم الفاعل بعلى والصواب أن يعدى الى المفعول بنفسه كما يعدى فعله ، تقول : حاز فلان كثيرا من الشهادات يحوزها حوزا ، وحيازة من بابى قال وكتب ، وكل من ضم شيئا الى نفسه فقد حازه واحتازه ، ويقال لمن نكح المرأة قد حازها واحتازها •

وفى معنى آخر يقال : حاز الراعى الابل اذا ساقها الى الماء مجتمعة ، وانحاز فلان عن القوم اذا اعتزلهم ، وانحاز اليهم وتحيز اذا انضم اليهم ومن الأخير قوله تعالى : « أو متحيزا الى فئة » ولاصلاح عبارتهم ينبغى أن يقال : هو حائز الشهادات الكثيرة بتنوين اسم الفاعل ، أو حائز للشهادات بلام التقوية ، كما فى قولك ان يحدثك انى فاهم لكل ماتقول وكما فى قوله تعالى :

« ان ربك فعــال لما يريد »
وقوله « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه »

٥٥٩ فى صحيفة الأهــرام عنوان كتب بخط عريض هو :
(الســادات أكد على ضرورة الحل الشامل) .

وهذا العنوان مشوب بالغلط ، لأن الفعل أكد يتعدى بنفسه دائمـا الى المفعـول بــه ، ولا تستعمل معــه كلمة على ألبتة ، وانما يقال : أكد الرجل الخبر ، وأكد المفتى ثبــوت رؤية هلال رمضان ، أى أنه قواه ووثقه فتأكد ، ومثله فى المعنى قــولك وكدت الخبر توكيدا فتوكد وهــو بالواو أفصح ، ومنه قوله تعــالى : « ولا تنقضوا الأيمان بعــد توكيدها » .

والفصيح أن يقال : السادات أكد أو وكد ضرورة الحــل الشامل .

ومما يدل على أن الفعــــل المضعف المذكور يتعدى بنفسه أن الثلاثى يتعدى بنفسه أيضا فيقال : وكد المتعاقدان العقد وكودا اذا أوثقاه ، وكذا أكد الفلاح الحنطة اذا داسها .

والتأكيد والتوكيد عند النحاة نوعان : لفظى وهــو اعادة الأول بلفظــه نحــو قولك طلعت الشمس طلعت الشمس ومنه قــول المؤذن الله أكبر الله أكبر ، ومعنوى كمــا فى قــولك حضر الملك نفسه ، وفائدة التوكيــد رفع توهم المجاز لاحتمــال أن يكون المعنى حضر وزيره أو نائبــه أو أخوه أو نحو ذلك .

والمتــوكد القــائم المستعد للأمــر ، ومثــل أكد الشيء تأكيدا ووكده توكيدا قولك: آكده وأوكده ايكادا وأصل الايكاد من قــولك أوكده : أوكاد بالكسر ، قلبت الواو ياء لمناسبة كسر الهمزة قبلها .

٥٦٠ وشــاع فى الصــحف وعلى ألسنة كثــير من المتــأدبين قــولهم : لابد وأن تفعــل

كذا ، وهذا خطأ لأن الواو لا تؤدى أى معنى كما أنها ليست زائدة ، والصواب أن يقال لابد أن تفعل كذا ، وتكون لا نافية للجنس ، وبد اسمها ، وخبرها الجار والمجرور بعدها ، اذ أن الأصل لابد من أن تفعل ، ثم حذفت من حذفا مطردا مع أن ، ومثل ذلك قولك لا محالة أن تفوز أى فى أن تفوز ، ثم حذقت فى حذفا قياسيا ، وبيان ذلك أن الجار يطرد حذفه مع أن المشددة وأن المخففة كما فى قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات » أى بأن لهم جنات ، ومن هذا الباب لا جرم عند الفراء فقد قال : انها بمنزلة لا رجل ومعناها لابد ومن بعدها مقدرة ، تقول : لا جرم أنك تؤدى الواجب ، ومثل هذا قوله تعالى : « لا جرم ان الله يعلم ما يسرون » أما سيبوية فقد قال ان لا رد على الكفرة فيما زعموا ثم ابتدىء بعدها بجملة ، وكلمة جرم فعل لا اسم ومعناها وجب وثبت ، والمصدر المؤول فاعل .

وحكى الفراء أن بعض العرب ينزلها منزلة اليمين فيقول : لا جرم لآتينك ، ولذا أجيبت باللام كما يجاب بها القسم ، وعلى هذا يكون الجواب مغنيا عن الخبر عند الفراء ، ومغنيا عن الفاعل عند سيبويه ، وقد يحذف خبر لا اذا علم فى قوله تعالى : « لا ضير انا الى ربنا منقلبون » أى لا ضير علينا

عباس ابو السعود

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

((أوصيك بأربع))

جاء رجل من اقصى البادية ، الى **رسول الله – صلى الله عليه وسلم** – وحدثه قائلا : **يا رسول الله** انك تعلم أن السفر بيننا وبينك طويل ، وأن اهل البادية غلاظ القلوب ، وجئتك لأستفيد بشىء من علمك ، أنفع به نفسى وأهلى ، فقال **رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه** : أوصيك بأربع : استمسك منها باثنتين ، وابتعد عن أثنتين أما ما أنصحك بالاستمساك به : فهو أن تتحلى بالاخلاق الكريمة الفاضلة يحبك الله والناس ، وآمرك بالمعروف بين أهلك وعشيرتك ، ولو بملء جرة ، فان الحسنة مهما صغرت فلها جزاء الحسنى عند الله

اما ما انهاك عنه: فاياك والكبر، فانه مغضب لله ، **لأن الله سبحانه وتعالى** لا يرضى لانسان أن يشاركه العزة والكبرياء ، وهما لله وحده ، وان استباح انسان لنفسه ذلك ، غضب الله عليه وحرمه عز الدنيا ونعيم الآخرة .

أما الثانية : فان سبك أحد بما هو فيك ، وآلمك أشد الألم بعيب يعرفه عنك ، فلا تسبه أنت بعيب تعرفه عنه ، فان لك الأجر وعليه الوزر ، وخرج الرجل من عند الرسول – **صلوات الله وسلامه عليه** – مسرورا محبورا .

((المواساة))

المواساة للمؤمنين أنواع : مواساة بالمال ومواساة بالجاه ، ومواساة بالبدن والخدمة ، ومواساة بالنصيحة والارشاد ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم ، ومواساة بالتوجع لهم وعلى قدر الايمان تكون هذه المواساة ، فكلما ضعف الايمان ضعفت المواساة وكلما قوى قويت وكان **رسول الله – صلى الله عليه وسلم** – أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله ، وفى يوم شديد البرد شوهد « بشر الحافى » وقد تجرد وهو ينتفض فقيل له : ما هذا يا أبا نصر ؟ قال : ذكرت الفقراء وبردهم وليس لى ما أواسيهم به ، فأحببت أن أواسيهم فى بردهم .

((لست بشاعر))

نظـــر طفيلى الى قوم ذاهبين ، فلم يشك انهم فى دعوة ذاهبـون الى وليمة ، فقام وتبعهم فاذا هم شعراء قد قصدوا السلطان بمدائح لهم ، فلما انشد كل واحد شعره واخذ جائزته لم يبق الا الطفيلى ، وهو جالس ســاكت ، فقال له : انشد شعرك فقال : لست بشاعر ، قيـــل له : فمن أنت ؛ قال : من الغـــاوين الذين قال الله فيهم ! ((**والشعراء يتبعهـــم الغاوون**)) فضحك السلطان وامر له بجـائزة الشعراء .

((نصيحـة سـيدنا عمـر عنـــد مــــوته))

لما طعن سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — دعا بلبن فشربه فخرج من طعنته فقال : **الله اكبر ،** فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال : وددت أن أخرج منهـا كفافا كمـا دخلت فيها ، لو أن لى اليوم ما طلعت عليـه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع .

قال ابن عمر : ولما حضرت الوفاة عمر غشى عليه ، فأخذت رأســه فوضعتها فى حجرى فقال : ضـع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى ، فمسح خديه بالتـراب وقال : ويل لعمر ، ويل لأمه ان لم يغفـر له ، فقلت : وهل فخـــذى والارض الا سواء يا أبتاه ! فقال : ضع رأسى بالأرض لا أم لك كمـا آمرك ، فاذا قضيت فأسرعوا بى فى حفـرتى ، فانما هو خير تقدمونى اليـــه ، أو شر تضعونه عن رقابكم . ثـم بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال خبـــر السماء لا ادرى الى جنة ينطلق بى أو الى نار !!.

((حسن التخلص))

صعد خالد بن عبد الله القسرى المنبر فى يوم جمعة ، وهو اذ ذاك على مكة ، فذكر الحجاج ، فحمـد طاعته وأثنى عليه .

فلما كان فى الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بشتم الحجـــاج ونشر عيوبه ، واظهار البراءةمنه ، فصعد المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : ان ابليس كان ملكا من الملائكة وكان يظهـر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا ، وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفى على الملائكة ، فلمـا اراد فضيحته أمره بالسجود لآدم فظهر لهـم ما كان يخفيه عنهم ، فلعنوه .

وان الحجاج كان يظهر من طاعة امير المؤمنين ما كنـا نرى له به فضـــلا ، وكأن الله أطلع أميـر المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفى عنا فلما أراد الله فضيحته أجـرى ذلك على يدى أمير المؤمنين فلعنه ، فالعنوه لعنه الله ، ثم نزل .

((عبـد الملك والغسـال))

لما ثقل عبد الملك بن مروان : رأى غسالا يلوى بيـــده ثوبا ، فقال : وددت لو انى كنت غسالا لا أعيش الا بمـــا اكسبه يوما فيوما ، فبلغ ذلك أبا حازم فقال : « الحمـد لله

الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ، ولا نتمنى عنده ما هم فيه » .

«الحجاج والغضبان ابن القبعثرى»

سأل الحجاج يوما الغضبان (١)بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها ، قال له : من أكرم الناس ؟.

قال : أفقههم فى الدين ، وأصدقهم لليمين ، وأبذلهم للمسلمين ، وأكرمهم للمهانين ، وأطعمهم للمساكين .

قال : فمن الأم الناس ؟

قال : المعطى على الهوان ، المقتر على الاخوان ، الكثير الألوان .

قال : فمن شر الناس ؟

قال : أطولهم جفوة ، وأدومهم صبوة ، وأكثرهم خلوة ، وأشدهم قسوة .

قال : فمن أشجع الناس ؟

قال : أضربهم بالسيف ، وأقراهم للضيف ، وأتركهم للحيف (٢) .

قال : فمن أجبن الناس ؟

قال : المتأخر عن الصفوف ، المنقبض عن الزحوف ، المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف .

قال : فمن خير الناس ؟

قال : أكثرهم احسانا ، وأقومهم ميزانا ، وأدومهم غفرانا ، وأوسعهم ميدانا .

فقال الحجاج لله أبوك : فمن العاقل ؟ ومن الجاهل ؟.

قال : أصلح الله الامير ! العاقل الذى لا يتكلم هذرا ، ولاينظر شذرا ، ولا يضمر غدرا ، ولا يطلب عذرا ، والجاهل هو المهذار فى كلامه ، المنان بطعامه ، الضنين بسلامه ، المتطاول على امامه ، الفاحش على غلامه .

قال : لله أبوك ! فمن الحازم الكيس ؟

قال :المقبل على شأنه ، التارك لما لا يعنيه .

قال : فمن العاجز ؟

قال : المعجب بآرائه ، الملتفت الى ورائه .

قال : هل عندك من النساء خبر ؟

قال : أصلح الله الامير ! انى بشأنهن خبير ، ان النساء من أمهات الاولاد بمنزلة الاضلاع ، ان عدلتها انكسرت ، ولهن جوهر لا يصلح الا على المداراة ، فمن دارهن انتفع بهن ، وقرت عينه ، ومن شاورهن كدرن عيشه ، وتكدرت عليه حياته ، وتنغصت لذاته ، فأكرمهن اعفهن ، وأفخر أحسابهن العفة . فاذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة .

---

(١) الغضبان بن القبعثرى : من أشراف العراق ، وكان من دعاة المروانية أيام حرب عبد الملك بن مروان مع مصعب بن الزبير . (٢) الحيف : الجور والظلم .

((أتعبت الخلفاء من بعدك))

رأى على بن أبى طالب عمر وهو يعدو الى ظاهر المدينة ، فقال له : الى أين يا أمير المؤمنين ؟ قال : قد شرد بعير من ابل الصدقة فأنا وراءه أطلبه !!.. فقال على بن أبى طالب : ((أتعبت الخلفاء من بعدك !.. يا عمر)) وهكذا كان حرصهم على مال الله وحق الفقراء والمساكين .

((عجبت ... !))

قال الامام جعفر الصادق ــ رضى الله عنه ــ عجبت لمن ابتلى بخمس كيف يغفل عن خمس ! عجبت لمن ابتلى بالضر ، كيف يذهب عنه أن يقول : ((**انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين**)) والله تعالى يقول : ((**فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر**)) وعجبت لمن ابتلى بالغم ، كيف يذهب عنه أن يقول : ((**لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين**)) والله تعالى يقول : ((**فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين**)) وعجبت لمن خاف شيئا كيف يذهب عنه أن يقول: ((**حسبنا الله ونعم الوكيل**)) والله تعالى يقول : ((**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**)) .

وعجبت لمن مكر به ، كيف يذهب عنه أن يقول : ((**وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد**)) **والله** تعالى يقول : ((**فوقاه الله سيئات ما مكروا**)) .

وعجبت لمن أنعم الله عليه بنعمة خاف زوالها ، كيف يذهب عنه أن يقول : ((**ما شاء الله لا قوة الا بالله**)) والله تعالى يقول : ((**ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله**)) .

((العلم والعمل))

الدنيا كلها ظلمات ، الا موضع العلم ، والعلم كله هباء ، الا موضع العمل والعمل كله هباء ، الا ما كان خالصا لوجه الله الكريم . قال جل وعلا : ((**الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى**)) .

((لا تحرمنا))

قيل لاعرابى : أتحسن أن تدعو ربك ؟ قال : نعم .. ثم قال : ((**اللهم انك اعطيتنا الاسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك**)) .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س :

ـ فى الوقت الذى نرى فيه بشائر صحوة اسلامية تسرى فى كيان الأمة الاسلامية كلها ، نرى عدوانا شرسا على المسلمين فى كل مكان ، وتواطؤاً بين قوى البغى والعدوان العالمية لاجهاض هذه الصحوة ، والاستمرار فى اخضاع المسلمين واذلالهم ، وقد بلغ ذلك العدوان مداه عندما اجتاح العدوان الشيوعى الآثم تحت سمع العالم وبصره شعب أفغانستان المسلم !!! فما هو واجب المسلمين شعوبا وحكومات ؟ وما هو حكم من يؤيد هذا العدوان وأمثاله ؟

ج :

ـ المعركة بين الاسلام وأعدائه معركة قائمة منذ دعا النبى محمد عليه الصلاة والسلام اليه حتى اليوم وهى دائمة بين المسلمين وأعداء الاسلام حتى يعز الله دينه « بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » (١) .

نعم انه الجهاد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، الجهاد بالنفس ، والجهاد بالمال ، والجهاد بالعلم ، وهو الجهاد الفردى والجهاد الجماعى ، انه الجهاد العام الشامل الذى يبذل فيه كل مرتخص وغال ، انه جهاد الشعوب وجهاد

(١) الآية ٥٤ من سورة المائدة

الحكومات الاسلامية ، لا يتخلف عنــه متخلف ولا يتخــاذل عنــه متخــاذل ، ويوم يعــرف أعــداء الاسلام أن المسلمين قــد شهروا فى وجوههم سلاح الايمان ورفعوا راية الجهــاد سوف يعودون الى جحورهم مهزومين حتى قبــل أن يلتقوا بالجنود المؤمنــة « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (١) .

وقد أعلنها فضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمــود يوم أن خاض المسلمون معركة العاشر من رمضان (والمعركة واحــدة) قال رحمه الله :

أيها الأخــوة المؤمنــون (٢) : باسم علمــاء الاسلام بعــامة نعلن أن الحرب التى نخوضها فريضــة عينية على جميع المسلمين فى جميع أقطــار الأرض ، على كل مسلم وعلى كل مسلمة ، وعلى كل دولة ، وعلى كل جمــاعة وعلى كل قطر ، وأنه اذا قصرت دولة من الدول فى هذه الحرب فقد خرجت على الله ورسوله ، خرجت على تعاليم الله وتعاليم رسوله صــلى الله عليــه وسلم .

اننا ندعو باسم الأزهر وباسم علمــاء الاســلام جميــع الدول الاسلاميــة فى أى موقع من أرض الله أن تبذل أقصى ما تستطيع من المال ، تبذل أقصى ما تستطيع من السلاح ، تبذل أقصى ما تستطيع من الرجال ، وهذا البــذل فرض محتم وواجب مقدس .

وقد آن الأوان أن تنفق أموال المســلمين المكدســة فى البنــوك الأجنبية فى سبيل الله . انه ما دامت هــذه الحــرب الاســلامية بكل ما تحتمله من أبعاد ، فان منطــق الايمان لا يرضى بالاكتفاء من بعض الدول الاسلامية بكلمات التشجيع أو بكلمات الثناء ، وانمــا يرضى هذا المنطق بالعمل الجاد .

ان الله سبحانه وتعالى يقول : « انفروا خفافا وثقالا وجاهــدوا

(١) الآية ٤ من سورة الصف
(٢) من كتابه « جهادنا المقدس » مطبعة الأزهر

بأمــوالكم وأنفســكم فى سبيل الله (٣) • وهــذه الآية الكريمة لم تدع عذرا لمعتــذر ، لأن الانسان اما خفيف واما ثقيل ، ولا تخرج حـالاته عن ذلك ، وقــد أمر الله هذا وذاك بالجهاد فى سبيله •

وهذا الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة اذا كان العــدو فى أية أرض اسلامية ••••

وقــد بين الله سبحانه وتعــالى الحكم فى المجاهدين وفى المتخلفين فقال سبحانه : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليــوم الآخــر أن يجــاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقــين ، انمــا يســتأذنك الذين لا يؤمنــون بالله واليــوم الآخــر وارتابت قــلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » (١) •

وبهذا أصبح واضحا أن الايمان انتفى عن المتخلف ، وأن المتخلف خرج بتخلفه عن الاسلام ، وهذا الحكم الصريح ينطبق على الدول كما ينطبق على الأفراد ، بل انه فى هذا العصر موجه الى الدول أولا وبالذات • واذا كان موجهــا الى الأفراد بنفس القوة الموجه بها الى الدول فــان الدول الآن هى التى تمــلك الطــائرات والصــواريخ والمدافــع والدبابات • أى تملك ما أمر الله باعــداده فى مواجهــة العدو • وعبر عنه بقوله تعــالى : « وأعــدوا لهم ما استطعتم من قوة » •

فمسئوليتها الآن مسئولية كبرى، وهذه المسئولية تقــع على الدول الاسلامية •• انها تقــع على كل الدول الاسلامية البعيدة عن ميدان القتال والقريبة منه •

فالجهاد الحالى هو جهاد يعنى كل الدول الاسلامية مهما نأت بها الدار ، فان الطــائرات لا تقف فى سبيلها مسافات ••

ويجب أن يتأمل الأفراد وتتأمل الدول الاسلامية النصوص القرآنية الــكريمة ، والأحاديث النبــوية الشريفة الخاصة بالجهاد •

انه سبحانه يقول : « يأيها الذين آمنوا هــل أدلكم على تجــارة

---

(١) من الآية ٤١ من سورة التوبة .

(٢) الأيتان ٤٤ ، ٤٥ من ســـورة التوبة .

تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (١) .

وقد ختم سبحانه هذه الآيات بقوله : « وبشر المؤمنين » وعمم البشرى للمؤمنين ، وهى تعنى : بشرهم بالفوز ، بشرهم بالنصر ، بشرهم بمرضاة الله ، بشرهم بالأمن بشرهم بالتوفيق ، بشرهم بسعة الرزق ، بشرهم بكل خير .

وحينما أعلن الله عن هذه التجارة تقدم المؤمنون الصادقون يتاجرون مع الله سبحانه وتعالى ، ويقول الله عن ذلك : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٢) .

ان المؤمن فى عقد الايمان باع نفسه وماله لله وهذا العقد بينه وبين الله ... وليس من شروط هذا العقد أن يستشهد المقاتل ، كلا فمن قاتل وانتصر وعاد سالما فله الجنة .. ان الجنة للمقاتل ، سواء استشهد أو انتصر وعاد الى بيته ...

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

ثم يوجه — رحمه الله تعالى — خطابه الى أولئك الذين يخافون على أنفسهم أو أموالهم فلا يجاهدون فى سبيل الله ولا يستجيبون لله ولرسوله فيقول :

أيها الاخوة المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها :

---

(١) الآيات ١٠ — ١٣ من سورة الصف

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .

ماذا يخشى المؤمنون دولا كانوا أو أفـرادا مـن الاسـتجابة لله ولرسوله ؟

أهو الموت ؟

حقا ان الانسانية منذ أن وجدت تخاف المـوت وتخشـاه خشيـة لا تعدلها خشية .

وكان لـذلك نتـائج سلوكيـة كثيرة ، من هذه النتائج : الجبن ، وقـد أحب الله سبحانه وتعـالى ألا تقع الأمة الاسلامية فيمـا يقع فيه غيرها من الجبن خشية الموت فبين سبحانه الأمر فى القـرآن ، وبينه الرسول ــ صلى الله عليـه وسلم ــ فى السنة بيانا لا لبس فيه .

ان مالك الملك انما هو وحـده الذى يملك الموت والحياة ، وهو الذى قرر الآجال وحددها « فاذا جـاء أجلهم لا يستأخرون سـاعة ولا يستقدمون » (١) .

والحرص على الحياة أو الجبن ليس من أسباب اطالة الأجـل ، والشجاعة والاقـدام ليسا مـن أسباب تقصير الأجل ، وقد بين الله ذلك فى كتابه الكريم ابانة تامة ..

وكما أنه « لكل أجل كتاب » (٢) فانه « لكل أمة أجل » .

أما هؤلاء الذين قالوا : « لو كان لنا من الأمـر شىء ما قتلنـا ها هنا » فان الله سبحانه وتعـالى يرد عليهم : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم » (٣) .

وهؤلاء الذين قالوا لاخـوانهم وقعدوا : « لو أطاعونا ما قتلوا » فان الله سبحانه يرد عليهم قائلا : « فأدرأوا عن أنفسكم الموت ان « كنتم صادقين » (٤) .

أما الذين يفرون أمام الأعـداء فهم : « انما استزلهم الشـيطان ببعض ما كسبوا » (٥) .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الأعراف

(٢) من الآية ٣٨ من سورة الرعد .

(٣) من الآية ١٥٤ من سورة آل عمـــران

(٤) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران

(٥) من الآية ١٥٥ من سورة آل عمران

اذن المؤمن الصـادق الايمـان لا يعـرف الجبن ، ولا يسـتزله الشيطان موسوسا له بالخوف من غير الله .. والله سبحانه وتعـالى يؤكد : « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » ..

ونعود فنقـول : ماذا يخشى المؤمنون دولا كانوا أو أفرادا ؟

أهو هم الرزق ؟

ان الاسلام كمـا حرر المجتمع الاسلامى من خوف الموت فقـد حرره أيضا من هم الرزق ، يستوى فى ذلك حالة السلم وحالة الحرب ، ذلك أن الرزق بيد الله . « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها »

.. وقد أخبـر الله أن الرزق فى السماء محدود ومقسوم ، وأقسم على ذلك سبحانه ، لما يعـلم من ضعف الطبيعة البشرية ، واشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق ، يقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون فـورب السـماء والأرض انه لحق) (١) .

وبعد .. فلقد فرض الله سبحانه على المسلمين الجهـاد فى أسلوب حاسم فقال تعـالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خـير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢) .

---

(١) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سـورة الذاريات .
(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

عبد الحميد شاهين

فهـــــرس العـــــــدد

الموضـــــــوع	صفحة
دراسات قرآنية : النبى الامى الذى ملأ الارض رحمة وعدلا واشراقا ونـــورا	
لفضيلة الشيخ محمد الطير	٢٤١
تصحيح واجب : القرآن والعلوم الانسانية	
للدكتور محمد رجب البيومى	٢٥١
فى مواجهة الالحاد المعاصر : عدم كفاية العلم فى مجال المعرفة	
للدكتور يحيى هاشم	٢٥٩
الاسلام فى الفكر الاوربى	
عرض وتحليل لمؤلفات أوربية بقلم الدكتور محمد شامه	٢٨٠
زاهد البصرة	
للأستاذ السيد حسن قرون	٢٩٨
الطفل والطفولة ومدى الاهتمام بهما من جانب الاسلام	
بقلم المستشار محمد عزت الطهطاوى	٣٠٧
الشورى فى الاســـــلام	
للدكتور محمد عبد الحليم حفنى	٣٢٢
أمل فى التصوف مع مطلع القرن الخامس عشر	
للاستاذ عبد الحفيظ فرغلى القــرنى	٣٣٣
أبو عمرو بن العلاء ومنهجه فى القراءات واللغة	
للدكتور صلاح الدين صالح	٣٤٠
اياك نعبد واياك نستعين	
فضيلة الشيخ موسى محمد عــلى	٣٥٩
مشروعية الجهــاد فى الاســـــلام	
دكتور سعد ظلام	٣٦٨
الشريعة الاسلامية والقانون الانجليزى	
المبادىء العامة فى التشريع الجنائى الاسلامى	
المستشار حسن حسب الله	٣٧٥
الازهر جامعا وجامعة (أو مصر فى الف عام)	
للأستاذ محمد كمال السيد	٣٨٧

الموضـــــوع

صفحة

اخطاء شـــــائعة
للاستاذ عباس ابو السعود ٤٠١
حـــكم ... وطرائف
اعداد الاستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ٤١٦
بـاب الفتـــاوى
الاستاذ عبد الحميد شاهين ٤٢٠

مطابع شركة الاعلانات الشرقية

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
القاهرة
ت ٩٠٩٩٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء الثالث ـ السنة الثانية والخمسون ـ ربيع الآخر ١٤٠٠ هـ ـ مارس ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات قرآنية :

حسن الجوار من آداب الإسلام

فضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

قال تعالى فى وصيته بالاحسان الى طوائف من الناس : ((والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب)) . من الآية ٣٦ من سورة النساء .

البيـــان

لست أدرى ما الذى يدفع بعض الناس الى عداوة جيرانهم وتنغيص عيشهم ، وجعل الحيـاة عليهـم جحيما وعذابا أليما ؟ أهى غريزة التلذذ بعـذاب الناس ؟ أم هى الغيرة المجنـونة من نعمة كريمة يعيش فيها أولئك الجيران ، فتدفعهم هذه الغيرة الى التنفيس عن أنفسهم ، بابدال نعمى الحياة على جيرانهـم شقاء وعلقما ، وحلوها ، مرا وصابا ، فتستريح بذلك نفوسهم حين تتعبها الغيرة العارمـة ؟ أم هى النظـرة الحمقاء الى الحياة ، فلا يرونها الا شجارا وخـلافا ، وصخبا وعنفا ، فاذا خلت الحياة من ذلك زعموهـا ميتة أهل القبور .

ليست الحياة كما تفهمون أيهـا الحاقدون ، انهـا لين الجـانب ، وتبادل المـودة ، وابتسامـة البشر

والرضا ، والحب المشترك وهناء القلب ، وسكون النفس ، وهدوء البال ، والبعد عن المكاره والرغبة فى الخير .

وليس أولى بحسن المعاملة وتبادل المودة من الجيران ، فانهم عوض عن الأقارب والأرحام والأصهار ، أليس الرجل منا يترك أهله وذوى قرباه وأصهاره ، ليعيش بين أولئك الجيران ، فعليه أن يحسن معاملتهم ، حتى اذا مسته ضراء سارعوا الى نجدته ومعونته ، واذا غمرته سراء فرحوا لمسرته ، وكانوا له أهلا بدل أهله ، وصهرا بدل صهره ، فهم أقرب اليه ، وأسرع الى تلبية ندائه منهم .

ان الاسلام رتب للجيران حقوقا لم يعن بمثلها دين من الأديان ، ولم يجعل هذه الحقوق خاصة بالمسلمين ، بل أوجبها لكل جار مهما كان دينه ، قال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » (١) . فقد جعل الرسول : اكرام الجار من آثار الايمان بالله واليوم الآخر ، ولم يقيد اكرامه بأن يكون مؤمنا .

ولقد ارتفع الاسلام بحق الجار حتى جعل من يؤذيه ضعيف الايمان الى درجة تشبه العدم ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » والحديث متفق عليه ، ولقد عنى جبريل بتوصية النبى صلى الله عليه وسلم باستمرار ، وفى ذلك يقول الرسول « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » والحديث متفق عليه أيضا .

ومن كان يؤذى جيرانه فلا تشفع له صلاته ولا صيامه ، فقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها » فقال صلى الله عليه وسلم : « هى فى النار » (٢) .

(١) الحديث متفق عليه بين كتب السنة .
(٢) أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة وقالا صحيح الاسناد .

احسان السلف الى جيرانهم من أهل الكتاب

وكان السلف الصالح لا يبخلون بالاحسان على جيرانهم من أهــل الكتاب ، ويرونهــم داخليــن فى الوصية بالجــار ، قال مجــاهد : كنت عند عبد الله بن عمر ، وغلام له يسلخ شاة ، فقال يا غلام : اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مــرارا ، فقــال له : كم تقول هذا ؟ فقال : « ان رسول الله صــلى الله عليــه وســلم لم يزل يوصينا بالجــار حتى خشينــا انه يورثه » •

فأنت ترى أن عبد الله بن عمــر وهو من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، كان يكرر على غلامه الأمر بأن يبدأ بجــاره اليهودى فيعطيه قبل غيره من شاته التى يسلخها ، ويحتج لذلك بأنــه صلى الله عليه وسلم أطلق الوصية بالجار ، ولم يخص المسلميــن ، وكان الحســن لا يرى بأســا أن تطعم الجار اليهودى والنصرانى من أضحيتك •

دستور الاسلام فى معاملة الجار

اذا تتبعنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاملة المسلمين بعضهم بعضــا ، وفى معامــلة الجيران ، استطعنا أن نأخذ منهــا المبادىء الآتيــة : لنجعــل منهــا دستورا ومنهاجا فى معاملة الجيران يضمن السلام والمودة ، ويستتبــع هدوء النفس وراحة القلب ، وتبادل النفع ودفع الضر ، واليــك هذه المبادىء : ينبغى أن تبــدأ جــارك بالسلام ، وتفــرح لفرحه وتتــألم لألمه ، ولا تبحث عــن عــوراته ، واذا ظهر لك شىء من زلاته حــاد به عن جادة الهدى ، فانصحه برفق ، وكن لأولاده أبا أو أخــا ، واذا مرض عــدته ، واذا استعــان بك أعنته ، واذا استشارك أخلصت له الرأى ، واذا ناله خير هنأته ، واذا نزلت به ملمة سليته وعزيته •

وعليك أن تغض البصر عــن محارمه ، وتحافظ على كرامة ذويه ، وألا تقتحم بيته بغير استئــذان ، وأن تلزم أهلك الاحتشام والبعــد عن مجالسة جارك ، وأن تحذر رفع

الكلفة بين أهلك وبين جيرانك ، فكم من مصائب نزلت بالأسر المجتمعة ففرقتها ، وكم من عفة وحصانة أصابتها الفتنة فحطمتها ، وكل ذلك ناشىء من رفع الكلفة بين الرجال والنساء ، جيرانا كانوا أو غرباء ، وفتنة الجار أقوى من فتنة سواه ، فالتزام الحشمة والتصون واجب بصفة عامة ، وعلى الجيران بصفة خاصة ، ومن التزم شرع الله حفظه الله من فتنة سواه •

ومن أدب الجار أن يحرص على بقاء المودة بين أولاده وأولاد جاره ، فلا يسلطهم عليهم ، ولا يوغر صدورهم نحوهم ، واذا غاب جارك عن بيته فلا تغفل عن ملاحظته حتى يعود •

نماذج من أدب البر بالجار

قال أبو ذر الغفارى : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم وقال : اذا طبخت قدرا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت فى جيرانك فاغرف لهم منها » أخرجه الامام مسلم •

واذا لم يتسع خيرك لجيرانك المستحقين للبر ، فاعط أقربهم اليك ، قالت عائشة : يا رسول الله : ان لى جارين ، أحدهما مقبل على ببابه ، والآخر ناء ببابه عنى ، وربما كان الذي عندى لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقا ، قال : « المقبل عليك ببابه » • أخرجه البخارى •

والاسلام يرى وجوب تكافل أهل الحى ، فان عجز أحدهم عن الكسب ومات جائعا كانوا آثمين ، وكانت قسوتهم هذه أمارة على ضعف الايمان ، قال صلى الله عليه وسلم : « ماآمن بى من بات شبعان وجاره الى جانبه طاو » أى (جائع) • وقال : « أى رجل مات ضياعا بين أغنياء ، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » •

وعن الحسن البصرى ، قال : « لقد عهدت المسلمين وان الرجل منهم يصيح فيقول : « يا أهليه يا أهليه : يتيمكم يتيمكم ، يا أهليه يا أهليه : مسكينكم مسكينكم ، يا أهليه يا أهليه ، جاركم جاركم » رواه البخارى فى الأدب المفرد •

واذا أهداك جارك هدية صغيرة فلا تحتقرها ، فان الهـدية مهمـا كانت قيمتها أو حجمها ، فهى سبيل المودة ، وبرهان على أنك فى ذهن جـارك وقلبه ، قال أبو هـريرة : قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : « يا معشر المسـلمات . لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرش شاة » . أخرجه البخارى ، وفرش الشاة حافرها .

وانما نهى النبى صلى الله عليـه وسلم عن احتقار الهـدية ، لما فيه من كسر قلب مهـديها ، الذى لم تتسع حاله لأكثر منها .

وبلغ من اهتمـام النبى صلى الله عليه وسلم بالجيران الفقـراء ، أنه أوصى المياسير ، أن يكـونوا بارين بهم كلمـا طبخوا طعـاما ، قال أبو ذر الغفارى رضى الله عنه : « أوصانى خليلى صلى الله عليـه وسلم وقال : « اذا طبخـت قدرا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهـل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها» يعنى ان البر بالجار الفقير لا يكون شيئا عابرا أو من باب الصـدقة ، بل يكون أمـرا رتيبا كلما وجد داعيه .

حرص السلف على رضا الجيران

رأى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ولده عبد الرحمن يناجى جارا له ــ أى يزعجـه ــ فقال له : لا تناج جـارك ، فان هـذا يبقى والناس يذهبون .

وقـال الحسـن بـن عيسى النيسابورى : سألت عبـد الله بن المباركفقلت : الرجلالمجاور يأتينى، فيشكو غلامى أنه أتى اليه أمرا ، والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله برىء ، وأكره أنأدعهــ أى أترك عقابه ــ فيجد على جـارى ــ أى يغضب ــ فكيف أصنع ، قال ابن المبـارك : ان غلامك لعله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه ــ أى لا تعجل بضربه من أجل هذا الحدث ــ فاذا شكا جارك فأدبه على ذلك الحـدث ، فتكون قد أرضيت جارك وأدبتـه على ذلك الحدث ــ وهذا تلطف فى الجمع بين الحقيـن ولو أن ذلك الجار أحسن الى غلام جاره بالعفو

عنه وحسن معاملته ، لما احتاج الى أن يشكوه الى سيده ، فانه يراه بعد ذلك شديد المودة له ، فالانسان عبد الاحسان ، وقد ندب الله عباده للعفو وجعله نوعا من الاحسان يستتبع حب الله تعالى ، وذلك فى قوله سبحانه : « والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

خلال المكارم كما تراها عائشة

قالت عائشة رضى الله عنها : خلال المكارم عشر ، تكون فى الرجل ولا تكون فى أبيه ، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده ، يقسمها الله لمن أحب ـ صدق الحديث ، وصدق الناس ، واعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار ـ أى البعد عن العيب معه ـ والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء .

سعادة المرء المسلم وشقاؤه

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع ، والجار الصالح والمركب الهنىء » أخرجه الامام أحمد والحاكم وقالا صحيح الاسناد .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اليمن والشؤم فى المرأة والمسكن والفرس ، فيمن المرأة خفة مهرها ، ويسر نكاحها ، وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها ، وسوء خلقها ، ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله ، ويمن الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤمه صعوبته وسوء خلقه » أخرجه الامام مسلم .

ومن سعادته أن يسعف جاره ، وينتشله من كبوته المالية ان قدر على ذلك ، ليكون على المستوى الرفيع الذى دعا اليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ومن أمثلة ذلك أن ابن المقفع بلغه أن جارا له يبيع داره فى دين ركبه ، وكان يجلس فى ظل داره ، فقال : ما قمت اذن بحرمة ظل داره ان باعها مقدما ، فدفع اليه ثمن الدار وقال لا تبعها .

واعلم أن شهادة الجــار لجاره برهان على احسانه واستحقاقه أجر المحسنين السعداء ، قال عبد الله بن مسعود قال رجل يا رسول الله كيف لى أن أعلم اذا أحسنت أو أسأت ، قال : « اذا سمعت جيرانك يقولون قــد أحسنت فقــد أحسنت ، واذا سمعتهــم يقولون قد أســأت فقد أسأت » أخرجه أحمد والطبرانى ، واسناده جيد •

لاتبع دارك قبل عرضها على جارك

ومن أدب الاسلام أنك لا تبيع دارك أو أرضــك حتى تعرضــها على جارك ، مراعاة لحرمة الجوار ، قال صلى الله عليه وسلم: « مــن كان له جار فى حائــط أو شريك فلا يبيعه حتى يعرضه عليه » (١) أى من كان له جار فى بستان يملكه وحــده أو يشــاركه فيه جاره ، فلا يبيعــه لغيــره حتى يعــرضه عليه •

ولابن مــاجة من حــديث ابن عباس (٢) : « من كانت له أرض فأراد بيعها فليعرضها على جاره »

وبعد فهذه جولة مبــاركة حول حقوق الجار وواجباته ، وقد تمتعنا فيها بعبير كتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة السلف الصالح ، أســأل الله أن ينفع بها كل مسلم ومسلمة •

مصطفى محمد الحديدى الطير

---

(١) أخرجه ابن ماجة عن جابر ، والحاكم وقالا صحيح الاسناد .
(٢) رجــاله رجــال الصحيح .

المشكلة الاقتصادية
في
ضوء تعاليم الإسلام الحنيف

دكتور رءوف شلبي

مقـدمة :

الحمد لله رب العالمين والصـلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـد :

فان الاسلام منهج حياة أوحاه الله الى نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لينظم النـاس حيـاتهم على شريعته ، ويمشون فى درب الحياة على نوره وهديه ، ويعمرون هذه الأرض باسـتخدام النعم التى لا تحصى ولا تعد « وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمـة الله لا تحصوها » .

« سورة النحل »

والاسلام هو الدين الوحيـد الذى يربط الانسان بالكون وربطه بالآخرة وجعـل سعيه فى الدنيـا مشكورا فى الآخرة ان قام نشاطه على هديه وأنواره ، وجعله هبـاء منثورا لا وزن له يوم القيـامة ان ضل سعيه فى الحياة الدنيا .

ولقد قدم الاسلام لبنى البشر طرا مناهج حياتهم :

* الفـردية .
* والاسـرية :
* والاجتماعية .
* والاقتصادية .
* والعسكرية .
* والسياسية .

وللاسلام ذاتيته فى هذه المناهج سـواء اتفقت معه المناهج الأخرى أو اختلفت فان امتيـاز المنـاهج الاسـلامية انهـا تكفل السعادة للبشرية وتخاطب فيهـا الفطرة ،

وتنمشى مع واقعها وتأخذ بيـــدها عنـد العثـرة بالهـدهدة واللين واليسر •

والمذهب الاقتصادى الاسلامى لا ينفك عن هـذه الخاصية فهـو يلتزم مع بقية المنـاهج الاسلامية بسمات الاسلام العـامة انه منهج يقوم على العقيدة كسائر منـاهج الحياة التى شرعها الله لعبـاده وهو منهج يقوم على الأناة والتؤدة •

وهو منهج يقوم على الواقعيـة والتوازن •

والاسلام لا يدعى أنه يقدم علما للاقتصاد فالمسلمون ليسوا فى حاجة الى علم اقتصاد وانما هم فى حاجة الى ضابط اقتصادى يسيرون على هديه •

ولقد صنع الاسلام لهم ضـابطا هو المذهب الاقتصـادى الاسلامى يقوم على :

أ ـ الملكية وحرية الانتاج •

ب ـ تسـخير الله لوسـائل الانتاج للبشرية •

جـ ـ قوانين الانفاق والتصدق •

د ـ العدالة الاجتماعية •

هـ ـ التـداول •

وهـذه النظرية ليست حكومية بل هى منهج للأمـة والشعب لأن التنمية تحتـاج الى جميع جهـود الأمة كلها وجهود الحكومة وحدها لا تكفى بل هى جهـود عاجزة ، ولذا فان الاسلام يجيش جهـود الأمة الاسلامية كلها لتتضافر على العمل والانتاج وقد دعا القـرآن الكريم جماعة المسلمين الى العمل : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » •

« التوبة »

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه بذل الجهد للحصول على الرزق الحلال •

* فجاءه يوما رجل يسأل فقال له خذ حبلك على ظهرك واحتطب •

* وجاء رجـل آخر يسأل ، فسأله النبى صلى الله عليـه وسلم ما عنـدك من الأمتعـة فقال حب وحصير فباعها النبى صلى الله عليه

وسلم بدرهمين وقال له : خذ درهما انفقه على أهلك ، واشتر بالدرهم الثانى قادوما ثم اذهب الى الجبل لا أرينك خمسة عشر يوما .

* ورأى النبى صلى الله عليه وسلم يد رجل عليها آثار العمل فقال : هذه يد لا تمسها النار .

فالتنمية فى نظر الاسلام ليست مسئولية الحكومة وحدها وليست طاقة الحكومة بكافية فى تحقيق التنمية بل التنمية تحتاج الى تفاعل شامل من أفراد المجتمع كله .

كما تحتاج الى خفض حجم الانفاق عن معدل الانتاج وهذا ما دعت اليه النظرية الاسلامية « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

« الفرقان »

والذى نعانيه فى بلادنا العربية والاسلامية اليوم انما هو انحراف عن الطريق الجاد الصحيح .

ا ــ فموارد الأمة لم تستغل فكم من ملايين الافدنة الصالحة للزراعة فى عالمنا العربى والاسلامى لما تستخدم حتى الآن .

ب ــ والقوى العاملة التى تزج بخريجى الجامعات الى مكاتب الحكومة والقطاع العام فى أعمال لا صلة لهم بما تعلموه فى الجامعة مما خلق جوا كئيبا فى الادارة عطل الانتاج وأفسد العلاقات الاجتماعية بين الناس .

جـ ــ وتتحمل الحكومة وحدها عملية التنمية مما جعل الناس جميعا يقفون موقف المتفرج وينتظرون اغداق الخيرات عليهم كاليتامى الذين ينتظرون حسنات الأغنياء .

د ــ والتبذير الفاضح والاسراف الأهوج فى المظاهر الفضفاضة التى تضيع الانتاج فى الهواء .

هـ ــ والتبعية الاقتصادية للايديولوجيات الاقتصادية التى تسعى لافساد اقتصادنا كأمة عربية واسلامية فرضت فى أذهان الناس عدم الثقة فى جدوى معالجة قضايا الاقتصاد وشككت فى كثير من البرامج بالاضافة الى وجود طبقة داخل الجهاز الحكومى تستطيع أن تحصل على مال سحت بأسلوب

أو بآخر ممـا يشجع الشعب على التهـاون فى المشاركة فى عمليـة التنمية .

ولو أستخدم المنهج الاسـلامى لأقالنا الله تبـارك وتعالى من هذه العثرات ، ويفتـح علينـا بركات من السـماء والأرض كمـا وعد الذين يلجـأون اليـه ويحتمون فى حماه ، ذلك لو أرادوا الاصـلاح والعلاج . ولقـد آثرت أن يكون موضـوع البحث عـن المشـكلة الاقتصادية لأضع التصور الاسلامى فى حل هذه المشكلة .

وينقسم البحث الى الموضـوعات التالية :

أولا : مشـوار مـع المذاهب الاقتصـادية الكبرى الرأسـمالية والاشتراكية .

ثانيا : مفهوم المشكلة الاقتصادية عند علماء الاقتصاد .

ثالثا : الاسـلام والمقـومات الاقتصادية .

رابعا : المشـكلة الاقتصـادية في نظر الاسلام وحلولها .

خامسا : تتائج لا مبرر لها .

ا ـ التبعيـة للاديولوجيـات الاقتصـادية كحـل للمشـكلة الاقتصادية .

ب ـ تحديد النسل .

سادسا : الامكانات العربية فى مواجهة التحدى الخارجى .

أولا ـ مشـــوار مع المـذاهب الاقتصادية الكبرى :

(أ) الرأسمالية

(ب) الاشتراكية الأم

تدعى النظريتان : الاشتراكيـة بأنماطهـا ، والرأسمالية بتطـور تاريخها .. أنهما تهدفان الى خير الانسان واشباع حاجاته ، واسباغ الرفاهية عليه ومنحه السعادة التى يطمح اليها .

* وتبدأ أول خطوة فى المشوار بعجالة عن أقطاب الاقتصاد الطبيعى الكلاسيكى اولئكم الذين وضعوا بذور علم الاقتصـاد وسـط فهم اقتصادى يدور حول مسألتين :

المسألة الأولى :

أن الحياة الاقتصادية تسير حسب ما تعطيه قوى الطبيعة وحكموا تبعا لذلك بأن هذه القوى هى التى تتحكم فى الكيان الاقتصادى للمجتمع والواجب العلمى بناء على هذا يفرض على العلماء استكشاف قوانين الطبيعة ومالها من قواعد أساسية بحيث تكون صالحة لتفسير مختلف ظواهر الاقتصاد واحداثه ومجرياته .

المسألة الثانية :

ان هذه القوانين اذا اكتشفت فهى كفيلة بضمان السعادة للبشرية بشرط أن تنفذ فى جو من الحرية لكافة أفراد المجتمع .

والحرية المطلوب كفالتها للمجتمع هى حرية : الاستغلال ، والتملك ، والاستهلاك .

وذهب العلماء بناء على هذا الى أن الوقوف فى وجه الافراد هو وقوف فى وجه الطبيعة وقوانينها فالرخاء وحل مشكلات الحياة الاقتصادية مرتبطة طردا وعكسا باحترام هذه الحريات الثلاث : التملك ، الاستغلال ، الاستهلاك .

وقد بدا هذا الفهم متخلفا علميا لأن قوانين الطبيعة لا تتخلف اذا توافر لها الظرف اللازم وعليه فمن الخطأ أن تعتبر الحريات الرأسمالية قوانين طبيعية وتعتبر بناء على هذا مخالفتها جريمة فى حق تلك القوانين ، اذ أن قوانين الاقتصاد الطبيعية تعمل ولا تكف عن العمل فى جميع الاحوال بل ومع اختلاف درجة الحرية فى حق التملك ، والاستغلال والاستهلاك .

والأصوب أن يقال : ان هذه القوانين يختلف مفعولها تبعا لاختلاف ظروفها والشروط المتوفرة حولها .

وقد أوصى فقهاء الاقتصاد بالنظر الى هذه الحريات فى جو بعيد عن الطابع العلمى المطلق لأنها تمثل اتجاها مذهبيا خاصا وهنا يتضح فارق رئيسى بين نظرة الاسلام الى القوانين الاقتصادية فى مستواها الطبيعى وبين النظرية الرأسمالية .

وهذا الفارق هو : ان الاسلام بوصفه دينا ــ وان كان لا يعالج

موضوعات الاقتصاد علميا غير انه يملك مذهبا اقتصـاديا يؤثر على أحداث الحياة الاقتصادية عن طريق مفهوم الحياة ودوافعهـا وغايتهـا لدى الفرد المسلم وذلك بأن صهر الفرد المسلم فى قالب روحى أبدع به الفرد المسلم حياة أفضل من حياة المجتمع الرأسمالى الذى كان يعيش معـه فى نفس الفترة ممـا جعـل المبادىء التى جعلت المسلم فى ذلك الحين ميزانا لتحقيق الحياة الأفضل فى العصر الحـديث فأية أمة تلك التى يشهد لأفرادها بأنهم : يؤثرون عـلى أنفسـهم ولـو كان بهـم خصاصة •

أنهـا الأمة التى تستطيع بفردها المسلم الذى يضـع الانتاج وسيلة لاسعاد أمته ويقدم ثمرات عمـله خـدمة للأمة عن رضـا وقبول • واستحسان وفى الحديث الشريف :

« ان الأشـعريين اذا ارمـلوا اقتسـموا الطعـام فهم منى وأنا منهم » •

واذا كان جـوهر الحـرية فى الاسـلام هو هـذا الرخاء الذى يقدمه المسلم لمجتمعه تلبية لنـداء العقيدة ، فان الحرية فى الرأسمالية ترتبط باحدى ضرورات ثلاث :

ا ــ ضرورة ارتبـاط فـكرة التوافق بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع لأنه اذا تم التوافق توفرت المصالح العامة وعلى ذلك لا تكون الحـرية الا أداة لتوفير المصـالح العـامة •

ب ــ ضرورة ارتبـاط تنميـة الانتاج بناء على النظرية القـائلة بأن الحرية الاقتصادية هى أفضل قوة تدفع الى الانتـاج ولتفجـير الطـاقات ولمضـاعفة الثروة الاجتمـاعية •

جـ ــ ضرورة ارتبـاط الحرية الاقتصـادية بالحـرية الرأسمالية لأنها ليست مجرد أداة ، لتنميـة الانتاج أو للوفاء الاجتماعى وانما هى تحقيق لانسانية الفرد ووجوده الطبيعى الصحيح •

وملخص الرأى عند علماء هذا المذهب ان الحرية تعتبر ضرورة فى التصميم الاجتماعى لأنها اما وسيلة لتحقيق المصالح العامة ، أو لأنها

سبب لتنميــة الثروة والانتــاج ، أو لأنهــا تعبــير أصيل عن كرامة الانسان ، ولقد أصبح من السخرية بمكان الحــديث عن التوافق بين المصالح العامة والدوافع الذاتية لما سجله التــاريخ من جنــايات على الاخلاق والروحانيات ومآسيها فى المجتمــع ويكفى من نتائج ذميمة لهذه الحرية الاقتصادية ان الانسان كسلعة تخضــع لقــوانين العرض والطلب فاذا زادت القوى البشرية العامــلة وزاد المعــــروض منهــا على مسرح الانتاج انخفض سعرها لأن الرأسمالى ســوف يعتبر ذلك فرصة حسنة لامتصاص سعادته من العــامل الشقى ، ولذلك وصمت الرأسمالية بقانون الاجور الحديدى ذلك القــانون الذى تحطم أمام ثورات العمال المتــكررة كل عشية وضحاها وهنا تأتى عظمة الاسلام الحنيف ، اذ يجعل الاجر نظير العمل بقــدر يكفى ويتناسب مع كرامة العامل فيقول النبى صلى الله عليــه وسلم :

« اعطوا الأجير أجــره قبل أن يجف عرقه » •

(رواه ابن ماجة)

ففى الحديث ثلاثة أمور :

١ ــ ان الاجر لا يعطى الا بعد قيام العامل بالعمل •

٢ ــ ان العــامل يستحق أجره حسب حاجته •

٣ ــ ان العمل الذى أدى قــد استفرغ جهد العامل ولذا فله عرق من كثرة العمل •

أما الرأسمالية فقد كانت حريتها الاقتصــادية ســيفا مســلطا على الاخــلاق والقيــم فى المجتمــع الانسانى ، وانها لوصمة عار تلك التى جعلت أصحاب نظرية الحرية الاقتصادية تسابق الدول الأوربية بشكل جنونى على استعباد البشر الآمنين القانعين ، ولعــل الهجــرة الاوربية على أفريقيا من بريطانيــا وبلجيكا واغتصــاب أمم من البشر وبيعهم رقيقــا لأصحاب المصــانع فى أوربا •

وان الطريقة التى تمت بها سرقة هــذه الأمم البائسة لتفزع القلب الفظ بل الانســانى فقــد عمــد الاوربيون الى قرى أهالى افريقيا فحرقوها ليهب النــاس فزعين الى

مــكان يأويهم فتستقبلهم النخاسة فيحملونهم على البواخر ويرسلونهم الى أســواق الرقيق فى أوربا .. ولقد ظلت هذه الجريمة الى القرن التـاسع عشر حتى استبدلتها أوربا باحتـلال كامـل لبـلاد الشرقين الافريقى والآسيوى .

ذلك بايجـاز مستوى المذهب الرأسمالى فى دعواه تحقيق الرخاء والسعادة للبشر .

* ولم يكد المذهب الرأسمالى يفيـق من قضـاياه حتى عاجلتـه النظريات الاشتراكيـة بأنماطهـا المتعـددة .

ونحب أن نقول فى بادىء الأمر انه لم يقم فى العـالم كله نظـرية اشتراكية بناء على المادية التاريخية التى تعتمد عليها نظرية ماركس ، فالثورات الداخليـة التى مارست عملية تطبيق الاشتراكية الماركسية لم تعتمد فى انتصارها على الصراع الطبقى .

ولعـل أحـداث أفغانستان فى ديسمبر سنة ١٩٧٨ ومن قبل ذلك المجر وتشيكوسلوفاكيا لم تكن الا نتيجـة ثورة مسلحة وليست ثورة بسبب شدة التناقضـات الطبقيـة التى يدعيها ماركس والماركسيون .

ولقد سقط الحـكم فى روسيا نتيجـة انهيـار عسكرى صـاحب الحرب العالمية الأولى الأمر الذى مكن لقوى المعارضة من الانتصار السياسى .

والصين لم يطبق فيهـا النظـام الاشتراكى نتيجة صراع بين الطبقات بل كان نتيجـة حـرب عسكرية كذلك .

وكذلك الحال فى بلاد المغـرب العربى ، فى اليمن وفى سوريا وفى العراق لم يكن هناك صراع طبقى ولا تناقضـات تاريخيـة سارت فى مسارها المبتـدأ به حتى وصلت الى الحكم بل هو انقلاب مسلح .

والنظرية اذا فشلت فى التطبيق فشلت فى الاصـل الفكرى الذى تقوم عليه وهو نفس القياس الذى تأخـذ به الحـركة الشـيوعية أو الاشتراكية .

يقول جورج بولتزير :

ان من يهمل النظرية يقع فى فلسفة الممارسة فيسلك كما يسلك الاعمى ، ويتخبط فى الظلام ، أما ذلك الذى يهمل التطبيق فيقع فى الجمود المذهبى .

ويقول ماوتسى تونج :

ان نظرية المعرفة فى المادية الديالكتيكية تضع التطبيق فى المقام الأول فهى ترى أن اكتساب الناس للمعرفة يجب أن لاينفصل بأية درجة كانت عن التطبيق وتشن نضالا ضد كل النظريات الخاطئة التى تنكر أهمية التطبيق أو تسمح بانفصال المعرفة عن التطبيق .

وعلى هذا المقياس الذى ارتضاه الشيوعيون أنفسهم نؤمن ان الاشتراكية بأنماطها مذهب كاذب وفاشل لأنه وضع قواعد للنظرية لم تتحقق مرة واحدة فى كل البلاد التى ساد فيها هذا المذهب الا بقوة السلاح .

* فروسيا كانت بلدا زراعيا وحركة التصنيع فيها منخفضة ، وكان الرأسمال المحلى عاجزا عن الانتاج وكانت المشاكل السياسية والعسكرية فادحة ، وقد رفض ماركس من قبل أن تكون روسيا أرضا تتحقق عليها شيوعيته لأنه كان يحلم بالثورة الاشتراكية من انجلترا أو من فرنسا لوجود كثافة عمالية ومصانع كثيرة ظنها يوما تحقق أحلامه ، ولكن حتى الآن لم تستطع القوى العمالية فى انجلترا وفرنسا مطمح آمال ماركس ان تحيلهما الى دولة شيوعية .

ولقد دفن ماركس فى انجلترا بعد أن حلت مشاكل العمال عام ١٨٤٨م أى أثناء قيامه بتسويد المانفستو الشيوعى الفاشل .

* ودول أوربا الشرقية وضعت عليها الاشتراكية بقوة الجيش الأحمر مثل دولة بولونيا والمجر والتشيكوسلوفاكيا ولم تنبثق من هذه الدول ثورة نتيجة صراع الطبقات .

معالم الاشتراكية الأساسية :

والمعالم الرئيسية لكل الانظمة الاشتراكية أربعة :

١ ــ محو الطبقية وتصفية حسابها بخلق مجتمع لا طبقى .

ب ـ تسلم البروليتاريا للادارة عـن طـريق تـكوين حـكومة ديكتاتورية قادرة على تحقيق رسالة المجتمع .

ج ـ تأميم مصـادر الثـورة ووسائل الانتاج واعتبارها ملـكا للمجتمع .

د ـ التوزيع يكون على أساس: من كل حسب طاقته ولكل حسب عمـله يستند ماركس الى قوانين المادية التاريخية التى ظنهـا تفسر حركة التاريخ فى ضـوء تطورات القوى المنتجة وأشكالها المختلفة . وهـذا خطـأ علمى لأن الواقـع التاريخى لا يسير فى موكب المادية ولا يستمد محتواها الاجتماعى من وضع القـوى المنتجـة فقط لأن الواقع التاريخى من صنع الانسان نفسـه بكل مـا له من ملـكات وانجازات وقيم وأخـلاق على أن هذه التناقضات ترتكز على قانون القيمـة ، والقيمة الفائضـة وكلا القانونين قد سقط علميـا فان عالم التكنولوجيا المعاصر جعل قيمـة الفائض لا لجهد الانسان وعرقه بل لذكائه وقـدرته على صنع آلات تجيد مستوى الصناعة رشاقة ودقة وذوقا ولم يبذل العامل أمام الآلة أى جهد يحتسب فى قيمة السلعة .

وعلى هذا يظهـر فكر ماركس فكرا متخلفا عن التطـور العلمى والصناعى .

واذا كانت النظرية قائمة على أساس أن العامل يعطى للمادة قيمة بما يعطيه من ساعات العمل وقـد آلت ساعات العمل الى الآلة وصار العامل يقف ليضغط على زر لتدور الآلة وهى التى تضع المواد الخام فقد انهارت النظرية ولم يعـد لها محل للنقاش .

ولعل من ألمع الأدلة على كذب ادعاء الاشتراكية انها تريد الرخاء للبشر ثـورة العـالم الفيـزيائى زخـاروف على النظـام والحكم الروسى .

ومن قبل فقـد رفض برنشتاين مبدأ الصراع بين الطبقات ومبـدأ فائض القيمة .

وبذلك فقـد انتهى مشـوار الاقتصاد الى الفشل فى الغاية التى ادعاها لنفسـه انه يعمـل لخـير الانسانية ورخائها .

البحث موصول

دكتور : رءوف شلبى

من الأدب النبوى :

التفسير النبوى للقرآن الكريم

للدكتور محمد رجب البيومى

لم يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما نقل عنه — كثيرا عن شعراء الجاهلية وخطبائها الا بضعة أقوال متناثرة لا تتيح لنا أن نعرف حكمه المفصل على النصوص الأدبية المشتهرة فى عصره ، لأن أعباء الدعوة الاسلامية لم تترك لديه فراغا يفسح مجال القول فى أدب السالفين ، ولكن ما فاتنا من رأيه المفصل فى الأدب الجاهلى لا يعد شيئا جوار ما تركه عليه السلام من الحديث عن كتاب الله ، وهو أروع نص أدبى معجز عرفته اللغة العربية فى القديم والحديث ، لذلك كان على الدارس المنقب عن البيان النبوى الا يمر بتفسيره صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم دون أن يستنبط منه ماينبىء عن تذوقه عليه السلام للنص البيانى تذوقا مرتفع المستوى ، شامخ الاتجاه .

واذا كان الله عز وجل قد يسر القرآن للذكر ، فان آثار هذا التيسير من السهولة والنصاعة والوضوح ، وقوة الحجة بحيث جعلت كتاب الله ساطع البرهان وضىء الدلالة قوى التأثير لدى سامعيه ، وهم فى عصر النبوة أفصح أهل العربية بيانا ، بحيث كان ألد أعدائه يتسلل فى ظلمات الليل ليسمع آيات الكتاب المبين فى خفة عن الانظار ، وبحيث نقل لنا التاريخ عن أحدهم ، وقد كان شديد الخصومة للاسلام ، قوى

اللدد لرسول الله ، أنه استمع مـا استمع من بيان القرآن ثم رجع الى قومه ليقول عنه : ان له لطلاوة ، وان عليه لحـلاوة ، وان أعـلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق .

وإذا كان خصوم الاسـلام قد دهشوا لروعة القرآن ، فان رسول الله كان أشد الناس تأثرا بمنطقـه البليغ وكان يتلوه تلاوة تظهر معانيه ظهورا رائعا أخاذا ، قال جبير بن مطعم رضى الله عنه : « سمعـت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى صلاة المغرب بالطـور ، فلما بلغ هذه الآيات : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خـزائن ربـك أم هم المسيطرون» كاد قلبى أن يطير»(١) . فهذا صحابى كريم كاد يطير قلبه من روعة تأثيـر الالقاء النبـوى للذكر الحكيم ، لأن بلاغة الترتيل لدى رسول الله تنبع من قوة يقينه، وشدة ايمانه بما يقرأ ، ولا ريب أنه وهو أفصح الناطقين بالضاد ــ كان دائم التفكير فيما ينزل عليـه من روائع الكتاب ، اذ يزن كل آية بميزان حسـاس شـفاف بحيث تنكشـف له عـن دلائل عميقـة لا يلمحها سـواه ، لذلك يذكـر أصحابه أنه كان غزير الدمعة حين يتلو الكتاب وحين يسمعه ، قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

« قال لى النبى صلى الله عليه وسلم: اقرأ على ، قلت : أقرأ عليـك ، وعليـك نزل ؟ قال : فانى أحب أن أسـمعه من غـيرى ، فقـرأت عليه ــ عليه السـلام ــ سـورة النساء حتى بلغت قـوله تعـالى : « فكيف اذا جئنـا من كل أمـة بشهيد ، وجئنـا بك على هـؤلاء شهيدا » قال امسك ، فاذا عينـاه تذرفان » (٢) . وكان فى ذهـابه وايابه وقيامه وقعـوده يفكر فى القـرآن ، ليستحضر آياته فى كل موقف يمر به ، ومن ذلك ما حدثت به أم المؤمنيـن عائشـة رضى الله

(١) التاج ج ٤ ص ٢٥٢ .
(٢) التاج ج ٤ ص ٩٦ .

عنها ، قالت : كان محمد صلى الله عليه وسلم اذا رأى غيما ، أو ريحا عرف فى وجهه ، قلت : يا رسول الله ، ان الناس اذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك اذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية ، فقال عليه السلام : يا عائشة ، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم السحاب فقالوا هذا عارض ممطرنا » (١) . يشير بذلك الى قوله تعالى فى سورة الأحقاف عن قوم عاد « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » (٢) .

فرسول الله اذن كان يتذكر من آيات القرآن فى كل موقف ما يند عن غيره ، مهما أمعن فى التدبر والتأمل ، وذلك لطول استغراقه عليه السلام فى معاودته ، وتتبع الألفاظ والمعانى والتراكيب تتبعا يكشف كل ما تحمله الأسلوب من أفكار ولوامع وايحاءات ، وقد سئل رسول الله عن بعض المعانى من أصحابه فجلاها فى تفسير كاشف هادف ، تصديقا لقول الله : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتقون » .

ولن نتعرض هنا لما ناقشه الأصوليون حول مدار الاجتهاد النبوى ، اذ ذهب فريق منهم الى أنه صلى الله عليه وسلم ليس له أن يجتهد فى الحكم بدليل قول الله عز وجل : « وماينطبق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى » .

كما ذهب الجمهور الى أن الاجتهاد من حقه صلى الله عليه وسلم ، بدليل قوله تعالى : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » فمعنى بما أراك الله ، ما جعله لك رأيا ، كما قال القاضى أبو يوسف ، أقول : لن

---

(١) التاج ٤ ص ٢٤٠ .
(٢) سورة الاحقاف ٢٤/٢٥

تتعرض لذلك لأن اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم أوضح من أن يختلف فيه ، بدليـــل أن القـــرآن الكـــريم كان يراجعـــه فى بعض اجتهـــاده ، كموقفه من أسرى بدر فى سورة الأنفال ، ومن عبد الله ابن أم مكتوم فى سورة عبس ، وغيرهما ، وبدليل أن القرآن جعل الاجتهاد من حق العلماء ، فى مثل قوله تعالى : « فاعتبـــروا يا أولى الأبصار » وأولى انسان بالاعتبار رسول الله ، لذلك كان تفسيـــره عليه الســـلام لآيات الكتاب العزيز من وحى اجتهاده النبوى ، واذا علم أن اجتهاده الصائب نوع من الهامه الصادق فقد اقتـــربت شقـــة الاختلاف .

ونحن هنا لا نبحث عن التفسير النبوى لنحلل الجانب الفقهى منه أو الجوانب التاريخيـــة والعقدية ، فذلك ما تكفل به العلماء فى شرح الحديث النبوى ، ولكننا نريد أن نشير الى الجانب الأدبى فى شرح النص القـــرآنى ، أو استشفـــاف بعض معانيه ، لنعـــرف كيف كان رسول الله يستشف البيان العـــربى فى أفصح كتاب يتلوه الناس .

ان الذى يتأمـــل أقوال محمـــد صلى الله عليه وســـلم يدرك أنه كثيرا ما كان يقـــدر الوحـــدة الموضوعية للنص القرآنى ، فهـــو ينظـــر الى السياق نظـــرة كليـــة متصلة ، بحيث لا يقتصر على الكلمة الجزئية ، أو الآية الواحدة ، صارفا النظر عما يحيط بها ، كما تعودنا ذلك مـــن بعض المفسرين ، هـــذه النظرة الكلية يفصح عنها حـــديث أبى هريرة رضى الله عنه حين روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، « أنه قال : قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل فاذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدنى عبدى ، واذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى على عبدى ، واذا قال : مالك يوم الدين ، قال تعالى : مجدنى عبدى ، وقال مرة أخرى : فوض الى عبـــدى ، فاذا قال : اياك نعبد ، واياك نستعين، قال : هذا بينى وبين عبدى ، وله

ما سأل ، فاذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل » (١) .

فان هذا الحديث ينبىء أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان ينظر الى سورة الفاتحة نظرة كلية ، بمعنى أن آياتها قد رتبت ترتيبا متماسكا يسلم أوله الى آخره ، هذه النظرة الصائبة تدل على بصر كامل بالبيان الرفيع ، وتتخطى أزمانا كثيرة لتثبت أمام النقد المعاصر أن ما يكثر الحديث عنه من وحدة الموضوع كان مفهوما واضحا لدى رسول الله فى عهد النبوة .

وقارىء النصوص التفسيرية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدرك أنها لم تكن فى أكثر حالاتها تفسيرا لغويا ، لأن القرآن قد خاطب العرب بما يفهمون ، وما نفذ الذكر الحكيم الى شغاف قلوبهم الا لوضوحه فى أذهانهم ، وهم بعد أهل اللغة وخبراؤها الثقات ، الا ما وجد من كلمات يسيرة كانت تغيب معانيها عن فريق دون فريق ، مثل كلمة (بضع) فقد روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البضع ما بين الثلاث والتسع من السنوات » (٢) . ومثل كلمة (المهل) فقد روى أبو سعيد الخدرى أنه صلى الله عليه وسلم . قال فى تفسير قوله تعالى : « وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل » أى (كعكر الزيت ، فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه فيه) (٣) . أما ماعدا ذلك فليس بالتفسير اللغوى بل بما توحى به الدلائل ، ويكشف عنه السياق .

ولنا أن نقسم بعض ما نستشهد به من النماذج النبوية للتفسير القرآنى الى ثلاثة أنواع : نوع يكشف عن المعانى المجهولة لألفاظ لا يوحى بها المنطوق ، ونوع ثان جاء تفسيره فى سياق ارشادى يمهد لمراميه ، ويكشف عن مدلوله ،

---

(١) التاج ج ٤ ص ٣٧ .
(٢) التاج ج ٤ ص ٢٠٩
(٣) التاج ج ٥ ص ٤٥٤ .

ونوع ثـــالث أوحى به المقام مـــن توجيه سؤال أو واقع حال ، وكلها تصور وقوفه صلى الله عليه وسلم على أسرار البيان القرآنى ، وتشربه معانيه تشربا لا يتاح الا لمثله •

فمن النـــوع الأول من هـــذه الآثار •

١ ـــ عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت : « الذين آمنوا ، ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون »، شـــق ذلك على المسلميـــن ، فقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ، قال ليس ذلك ، انما هو الشرك ، ألم تسمعوا ما قال لقمـــان لابنـــه « يـــا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » (١) •

فواضح من تفسير الرسول أنه يقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فقد جاء بالنص الثانى من ســـورة لقمان ليفسر معنى الظلم فى النص الأول من سورة الأنعام ، وهى قاعدة أصبحت من المسلمات الآن ، فأزال بذلك عناء مرهقا للنفس المؤمنة ، اذ لا يخلو أى انسان من ظلم نفسه ، فأراح التفسير النبوى من هـــذا العناء •

٢ ـــ روى النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليـــه وســـلم ، أنه قال : الدعاء هـــو العبـــادة ، ثم قرأ « وقال ربكم أدعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عـــن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »(٢)

وهذا تفسير معقول اذ أن قوله تعالى عقب الأمر بالدعاء : « ان الذين يستـــكبرون عن عبادتى » يكشف المراد من معنى الدعـــاء ، وهو ما اهتدى اليه الرسول حيـــن قرأ الآية جميعها ، وبذلك يخطىء من يظـــن أن كل دعـــاء مستجاب كما هو الظاهر من المعنى اللفظى •

٣ ـــ قال أبو أمية الشعبانى : سألت أبا ثعلبـــة عـــن معنى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » فقال : أمـــا والله لقـــد

---

(١) التاج ج ٤ ص ٣٣٤ .
(٢) التاج ج ٤ ص ٣٧ .

سألت عنها خبيرا ، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى اذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك » (١) .

فالتفسير المحمدى هنا لا يغفل الأهداف العريقة التى دعا اليها الاسلام من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد يظن بعض السذج أن قول الله تعالى : « عليكم أنفسكم » مما يدعو الى التفات المرء الى نفسه دون غيره ، بمعنى أنه لو رأى معصية ترتكب فلا ينهى عنها ، ما دام هو فى ذاته لم يقارف اثما ، فجاء التفسير النبوى ليدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قدر الاستطاعة ، حتى اذا ظهر اليأس من القدرة على الاصلاح ، كان على المؤمن أن يتولى أمر نفسه اذ لا يضره من ضل حين اهتدت نفسه .

وأكثر ما روى من تفسير رسول الله لآيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤكد ذلك ، فقد روى أبو عبيدة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان بنى اسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه ، فاذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، وفيهم نزل قول الله : «لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون » .

قال الراوى : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس ، فقال : « لا ، حتى تأخذوا على يد الظالم فتأعروه أطرا » (٢) .

(١) التاج ج ٤ ص ١١٢ .

(٢) التاج ج ٤ ص ١٠٨ .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم سريعـا الى تصحيح ما يتوهمه المسلمون من الخطأ فى تفسير بعض آيات الكتاب العزيز ، فما يكاد يصل الى سمعـه بعض ما جاء فى غير موضعه من القـول حتى يبادر الى احقاق الحق ، فقد قرأت عائشة ذات مرة قول الله عـز وجل : « والذين يؤتون ما أتوا ، وقلوبهم وجلة ، أنهم الى ربهـم راجعون » فسألت رسول الله : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يابنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومـون ويصـلون ويتصدقون ، ويخافون ألا يقبـل منهم » .

فكأن عائشة رضى الله عنها ظنت الوجل من حدوث الذنب ، وغفلت عن سياق الآيات ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسـلم ، لا يبتـر قطعة من النص ليستشهد بها دون النظر الى جميعه ، فهـو يعلم أن الآية سيقت فى مجال الحديث عن المؤمنين الأتقياء اذ يقول الله عـز وجل عنهم فى سورة (المؤمنون) : « ان الذين هم مـن خشية ربهـم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنـون . والـذين هم بربهـم لا يشركون . والذين يؤتون مـا أتوا وقلوبهم وجلة ، انهم الى ربهم راجعون . أولئك يسارعـون فى الخيـرات وهم لهـا سـابقون »

وواضـح أن الـذين يسرقـون ويشربون الخمر ليســوا هم الذين من خشية ربهم يشفقون ، وليسوا ممن يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ، ولو تدبرت عائشة رضى الله عنها النص الكامل ما سـألت سؤالها ، أما الخوف والوجل مـع هذه الأعمال فخشية ألا يتقبلهـا الله ، وهذا ما عبـر عنه القـرآن بالاشفاق فى مجال آخر حيث قال عن المؤمنين فى الجنة : « وأمددناهم بفاكهـة ولحـم مما يشتهـون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيهـا ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتسـاءلون . قالوا انا كنا فى أهلنا مشفقين . فمَنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . انـا كنا من قبل ندعـوه انه هو البر الرحيم » .

دكتور : محمد رجب البيومى

في مواجهة الإلحاد المعاصر:

خلاصة تناقضات الإلحاد العلمي

للدكتور يحيى هاشم

(١)

ان الملحدين الماديين عندما يرفضون الدين لقيامه على مسلمات افتراضية ايمانية ، يتناقضون عندما يقبلون العلم التجريبي في قيامه ابتداء على مسلمات ايمانية مماثلة .

وقد بينا ذلك في مبحثنا في عقائد العلم عن الايمان الأولى .

يقول شلر :

« ان فروض العلم كفروض الدين ..

العالم يسلك كما لو كان فرضه صحيحا انتظارا لتحقيقه ..

والمؤمن لم يفعل أكثر من ذلك. اذ يسلم بفروضه وينتظر نتائجها العملية .

وكل الخلاف بين العالم والمؤمن هو أن تحقيق الغرض العلمي يتم في وقت أقصر من تحقيق الغرض الديني » (١) .

ونحن لا نسلم بأن تحقيق الغرض العلمي يتحقق ـ دائما ـ في وقت أقصر ..

(٢)

ان الماديين الملحدين عندما ينكرون الدين الالهي لأنه يتعلق بالمجردات التي لا سبيل للانسان الى العلم بها يتناقضون مع أنفسهم عندما يؤمنون بغيبيات العلم وعلى قمتها المادة التي كشف العلم الحديث عن انها شيء مختلف تماما عما ندركه بأدواتنا الحسية المباشرة أو غير المباشرة .

(١) وليم جيمس للدكتور محمود زيدان ص ٢٥٤ وانظر كتابنا عقائد العلم

وقد أوضحنا فى كتابنا عقائد العلم كيف أن العلم التجريبى الحديث يقوم على الايمان بغيبيات خاصة به [1] .

(٣)

واذا كان الماديون الملحدون ينكرون موضوعات الدين لأنها لا يمكن ادراكها ... فانهم يتناقضون مع أنفسهم حين يقبلون موضوعات الفيزيقا بالرغم من :

١ ــ أن العلم الحديث يقر أننا عاجزون عن ادراكها كما أثبتنا ذلك فى عجز العلم عن ادراك حقائق الأشياء .

ب ــ اننا عاجزون عن التعبير عنها كما بينا ذلك فيما يذهب اليه أقطاب الماركسية عن «التمثيل العلمى للحقيقة وصعوباته » .

جـ ــ ان العلم الحديث يذهب الى أن ادراكنا الحسى لها ادراك مزيف تقوم فيه الذات بتزييف الموضوع ، وقد بينا ذلك فى مبحثنا عن عجز العلم عن تحقيق « الموضوعية أو الواقعية » وفى مبحثنا عن أخطاء التزييف الحسى .

(٤)

والماديون الملحدون عندما ينكرون الله سبحانه وتعالى ويرفضون التعبد له يتناقضون مع أنفسهم اذ يتخذون معبودات أخرى ..

وقد بينا ذلك فى مبحثنا فى عقائد العلم ، عن تعبد الماديين لغير الله .

(٥)

والماديون الملحدون الذين ينكرون الخالق لانكارهم خلق شىء من لا شىء وزوال شىء الى لا شىء ... يتناقضون مع أنفسهم عندما يقرون بأن للطبيعة حركة ونظاما وغاية تطورية ناشئة من لا شىء ..

يقول الاستاذ اسماعيل مظهر..

« وأنت أينما وليت وجهك فى نواحى الطبيعة وعرفت شيئا من أسرارها وقعت على قصد ونظام

---

(١) انظر كتابنا عقائد العلم

ونسبة تضبط تركيب المادة وتكون ظاهراتها .

فسلهم :

كيف يخرج القصد والنظام من الفساد المطلق والعماء الصرف ؟

وكيف تأتى النسبة من اللانسبة ؟ » (١)

وقد أثبتنا أن جدلية الجزيئات المكونة للذرة غير كافية فى اقامة العلاقات بينها (٢) . فضلا عن القول بأنها كافية فى قيادة حركات التطور والتقدم على الوجه الرائع الذى نجد الانسان على قمته ..

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » صدق الله العظيم ..

(٦)

ان الماديين الملحدين عندما ينكرون الله سبحانه لأن القول به فى نظرهم محض عجز من الانسان عن معرفة الأسباب الطبيعية ..

يتناقضون مع أنفسهم عندما يعترفون بعجز العلم عن معرفة الأسباب الكبرى للطبيعة .. فيلجأون الى القول بالمصادفة وقد بينا ذلك فى مبحثنا فى عجز العلم عن تجنب القول بالمصادفة .

(٧)

ويتناقض الماديون الملحدون المتشحون بالعلم التجريبى ..

عندما يرفضون الدين لعدم كشفه عن جميع الحقائق ...

ثم يقبلون العلم مع مجهولاته لمجرد اعتقادهم بأنه صائر الى كشفها فى المستقبل .

وقد بينا ذلك فى مبحثنا فى عقائد العلم عن « الايمان الغيبى بالمستقبل » .

(٨)

ان الماديين الملحدين الذين يرفضون حقائق الدين لمجرد أن الدين لم يقدم تفسيره لها :

---

(١) ملقى السبيل ص ٤٦ .

(٢) انظر ما ذكرناه فى مبحث العبادة عند المادية الجدلية فى كتابنا عقائد العلم .

لماذا تقع ... ؟

يتناقضون مع أنفسهم عندما يقبلون حقائق العلم بالرغم من عجزه عن تقديمه لهذا التفسير وقد بينا ذلك فى مبحثنا عن عجز العلم عن « التفسير » واقتصاره على « الوصف » .

(٩)

واذا كان الماديون الملحدون ينكرون موضوعات الدين لأنها لم تصل الى أن تصبح موضوع معرفة يقينية ــ وهم كاذبون فى ذلك ــ فانهم يتناقضون مع أنفسهم حين يدعون الناس الى أفكارهم التى يعترفون فى نهاية المطاف بأنها غير يقينية .

وقد بينا ذلك فى بحثنا عن لا حتمية قوانين الطبيعة فى كتابنا « مزاعم الالحاد العلمى » وفى بحثنا « عجز العلم عن اليقين » .

(١٠)

ان الماديين الملحدين عندما ينكرون الدين الالهى لأنه خارج عن نطاق العلم المادى يتناقضون مع أنفسهم عندما يعترفون بأن المعرفة المادية لا تشمل كل مناطق المعرفة .

وهذا فى حد ذاته هو مبدأ الاعتراف بالميتافيزيقيا .

وقد بينا ذلك فى مبحثنا فى « عجز العلم » عن طرق جوانب مختلفة للمعرفة الانسانية .

(١١)

الماديون الملحدون عندما يعترفون بأن المعرفة العلمية معرفة نسبية...

يتناقضون مع أنفسهم عندما يفررون انها كافية الآن ، أو انها ستكون كافية فى المستقبل لكى تشمل كل مناطق المعرفة التى يتطلع اليها الانسان ...

ذلك لأن المعرفة النسبية تشير بالضرورة الى المعرفة المطلقة ؟

فكيف يصل العلم الى هذه المعرفة ــ المطلقة ــ وقد أقررنا بنسبية العلم ؟

وقد بينا هذا فى عجز العلم عن ادراك المطلق .

(١٢)

والماديون الملحدون عندما يدعون الاقتصار على المنهج العلمى التجريبى يتناقضون مع أنفسهم عندما يضعون « القواعد العامة »

التى يعجـز هذا المنهج عـن تبريرها ...

وقد بينا ذلك فى مبحثنا فى عجز العلم عن التعمم .

(١٣)

والماديون الملحدون عندما يؤمنون باطراد سنن الطبيعة ايمانا أوليا نزولا على حكم الضرورة العملية فحسب ...

يتناقضون مع أنفسهم عندما يرفضون الدين مع صحة اقامته على هذه الضرورة العملية نفسها . وقد بينا ذلك فى لا حتمية القوانين الطبيعية فى كتابنا « مزاعم الالحاد العلمى » .

(١٤)

والماديون الملحدون عندما يؤمنون بالتطور ... يتناقضون مع أنفسهم عندما ينكرون الدين المصدر الوحيد الذى يمكنه أن يقدم لهذا التطور مفهومه التقدمى .

وقد بينا ذلك فى مبحثنا عن عجز العلم عن استنباط معنى التقدم من خلال النظرة المادية الى التطور .

(١٥)

والماديون الملحدون عندما ينكرون الدين بما يقدمه من بناء للقيم لا تستغنى عنه الحياة الانسانية أو « العلمية » ، أو « العملية » ...

يتناقضون مع أنفسهم عندما يحاولون الاحتماء بهذه القيم التى يعجز العلم التجريبى عن تبريرها . وهذا ما بيناه فى مبحثنا عن عجز العلم عن ارساء « القيم » .

(١٦)

وأخيرا :

اذا كان العلم يقف موقفا لا أدريا من الحقيقة فان الملحدين العلميين يتناقضون عندما يؤكدون بطلان العقائد الدينية ، وان الانسان سوف يترك سدى وانه ذاهب الى العدم ، وقد بينا ذلك فى عجز العلم وبخاصة فيما ذكرناه عن عجز العلم عن الوصول الى اليقين .

د. يحيى هاشم حسن فرغل

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية
بقلم الدكتور محمد شامه

(٧)

البــاب السابع

الفن الاسلامى

ويتضمن :

١ ـ ملامح الفن الاسلامى الاصلية :

✽ ذكر القرآن الكريم التماثيل فى معرض حــديثه عن أعمــال الشيطان ، وكان المقصود من هــذا ـ فى المقام الأول ـ هو التحذير من اتخاذ الأصنام آلهة تعبــد من دون لله • كما جاء فى الحــديث الشريف أيضــا تحريم النبى صلى الله عليه وسلم على المسلمين اقامة التماثيــل لأى كائن حى • وبهذا حرم الاسلام ما أباحه اليهود مــن تصــوير الله بصورة انسان ، فرفع منــزلة الله الى مقام لا يستطيــع الانسان أن يصــل اليه ، وبالتالى لا يمكنه تخيل صــورته أو رسمها بأى شكل من الأشكال •

✽ التزمت دوائر الفن الاسلامى بهذا التحــريم الى أقصى درجــة ممكنة ، فلم يجرؤ مسلم على رسم صورة لله ، اذ أن أى محــاولة فى هذا المجال ، هى رجوع ـ حسب ما جاء فى الحديث الشريف ـ الى عبادة الأصنام • غير أنه ظهرت بعض الصور فى مجال الفن الشعبى بعــد انتهاء القرن الأول نتيجــة الوقوع تحت تأثير الثقافة الاغريقية ، وفيما بعد بتأثير الثقافة الفارسية أيضا • فقد رسمت ـ على سبيل المثال ـ صور على الأوانى والسجاد ، فجاء معظمها فى شكل معبر جذاب كانت هذه الأشكال بعيــدة عن محيــط الدين ، قصــد بها جــذب السياح القادمين من الغــرب ودفعهــم الى

شرائها ، كما صدرت الى كل أنحاء العالم ، كما يحدث فى عصرنا الحالى ؛ لأن عدم ارتباطها بالزمن أكسبها الدوام والاستمرار عبر القرون •

* اذا تأملنا هذا الطراز الثابت — أى الذى لم يتغير بتقلب العصور والأزمان — فى الفن اليدوى ، لتأكد لنا أنه يتجه الى الزخرفة العامة ، ولا يعبر عن ميول الفنان الذاتية ، فقد تنازل عن التعبير عن ذاتيته فى سبيل ابراز الألوان والأشكال التى تبعث السرور فى نفس المشاهد • حتى الفن الذى يذكر بتاريخ وعصر معين لم يفقد اهتمام المشاهد وتمتعه باقتنائه ، وذلك على عكس الأعمال الفنية اليدوية فى الغرب ، حيث يتحول نظر المشاهد من الشكل الى المضمون وملامح الفنان الذاتية ، وقد ركز العلمانى منها على ابراز المضمون لدرجة أن اتجاه الفنان فى جانب الشكل لم يفهم الا نادرا ، ان لم يظهر رفضه اياه •

أصبحت الزخرفة هى موضوع الفن الاسلامى الذى احتفظ بقواعد ثابتة — الى حد ما — على امتداد العصور ، حتى فى رسومات السجاد التى تحتوى على صور آدمية ، ورسومات حيوانية ، نجد أن الأشكال الهندسية المتداخلة معها ، تلقى اهتماما أكثر من الصور والرسومات ، لأنها ليست هى الأساس ، بل الزخرفة هى المحور الذى يقوم عليه العمل الفنى •

* لم يقتصر هذا الاتجاه على جانب دون آخر ، بل شمل جميع الجوانب اذ كان الفن مرآة الدين ، فالتاريخ باحداثه التى لا حصر لها ، يعنى فى الاسلام معبرة الى عالم الالوهية اللازمنى • وقبول هذا المبدأ فى الأعمال الفنية ، يبرهن — أكثر من أى كتاب — على مدى تعمق العقيدة الاسلامية فى وجدان المجتمع • ومن هذا المنطلق تكونت فى كل مجالات الفن الاسلامى وحدة ، جمعت بين المبادىء الدينية ، وما يستعمله المؤمن فى حياته اليومية ،و حدة لانعرفها نحن المسيحيين ، اذ يوجد عندنا حائط يفصل بين الفن الدينى والدنيوى ؛

فاذا دار حديثنا حول الفن المسيحى، كان المقصود الفــن الدينى ، أمــا اصطلاح « الفن الاسلامى » فهــو يعبر عن المجموع الكلى للفــن ، الذى انتجته الشعوب التى تؤمــن بالاسلام .

* تميز الفن الاسلامى من بداية عصره عن كل الاتجاهات الفنية فى العالم ، فقد وجــه الى أهــداف خاصة ، وخضع فى مجال الاستعمال للمنافسة . كــذلك بذلت النقابات المهنية المختلفة جهودها فى مجــال التسويق ، فاعتنت بجودة الصناعة ، وراقبــت تنفيـــذ المواصفات فى التصنيع ، فانغرست فى نفوس العمال الرغبــة فى تحسيــن ما ينتجــون فأدى ذلك الى خلق بدائع فنيــة ، وروائع زخرفية ، اكتسبت شهرة على مدى قرون عديدة .

* أخرج الوعى الفنى شيئا من مجال اللاوعى ، ومن هنا جاء السحر الذى شع فى فن الزخرفة الاسلامية، اذ يحمــل اللاوعى ــ لدى كــل انسان ــ فى أعمق درجاته الحاسة الأصلية لتذوق الجمال .

* استلهــم الفــن الاســلامى أفكارا من الفن الأغريقى والفارسى والمسيحى ، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة اعــاده فى شــكل اتخذ طابعا مختلفا كل الاختلاف عن مصادر هذه الأفــكار الثلاثة ، اذ عبر عن اتجاه اسلامى خالص يحمل بصمات الــروح الاســلامية التى تخضع لارادة الله ، الذى حدد فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل ، وقدر لكل كائــن حى قدره عــلى حدة ، فما يباشره الانسان من أعمال هى فى واقى الأمر منسوبة الى الله وفى ضوء هذا الرأى يستطيع المرء أن يدرك عــدم وجــود الاتجــاه الطبيعــــى «Naturalismus» ــ بمفهومنا ــ على الرغم مــن أن الشعوب الشرقية كان ــ ولا يزال ــ عندها دائما حاسة واقعية قوية .

* انحصر الاعجاب بالصور فى الأشكال التى تجنح للخيال ، وكذلك أيضا الموضوعات التاريخية ، التى قدمت لفن الزخرفة وصناعة السجاد، فرصة لرسم صور فنية فى اطار اكثر حرية من التصور الخيالى .

❊ قد تكون افكار الفن الاسلامى غير معروفة فى كل العالم، أو مختلطة على بعض الناس ، ولكن يستطيع كل انسان ادراكها فى مسجد أو حتى فى النقوش العربية ، اذ تعنى كل الشعوب الاسلامية بهذا النوع من فن الزخرفة التى تستخدم رسومات الزهر والبراعم ، ولا يستطيع أى فن فى العالم اتقان هذا التناسق الموجود فى لوحات الرسوم الاسلامية .

❊ وبالاضافة الى هذا فقد ظهر فى رسومات النسيج أشكال هندسية وصور للانسان والحيوان وخطوط عربية فى أشكال زخرفية بديعة . وهكذا دخلت الآيات القرآنية والحكم والأمثال فن الزخرفة فصنع منها الفنانون لوحات زخرفية رائعة .

٢ ـ النسيج

❊ عرف المسلمون فن النسيج من سكان المناطق التى فتحوها ، وبالذات من المصريين والسوريين والفارسيين ، فقد أخذوا منهم قواعده الفنية ، ولكنهم أضافوا اليها نماذج الرسومات والزخرفة ، بفضل ابتكارهم فى هذا المجال . ظهرت رسومات ثابتة ـ أى لا تزول بالغسيل أو التعرض لأشعة الشمس ـ على نسيج الحرير والصوف الفارسى ، وقلدته مصر وسوريا ، فتلقت المصانع طلبات عديدة لتوريد هذا النوع من الملابس والستائر ، ولكن مدن النسيج الفارسية فاقت المدن الأخرى فى صناعة نسيج الحرير والقطن والصوف . وبعد تدمير المنغوليين هذه المصانع استطاعت بعض هذه المدن أن تستعيد قدرتها على الانتاج تدريجيا . فانتجت المنسوجات الحريرية ، وصدرتها الى أوربا ، كما أضافت الى الرسومات الزخرفية المحلية رسومات أخرى استنبطت من عالم الأساطير ومن المجالات الثقافية لشعوب شرق آسيا كالافاعى والسحب ، والطائر السحرى الذى اتخذ رمزا لعودة الروح .

❊ بلغت صناعة الأنواع الفاخرة عصرها الذهبى فى عهد الدولة

الصفوية عندما طلبت قصور أوربا ذلك النـوع المرصـــع بالذهب والفضـــة مـــن اصبهان ، وظلت تستورده منها ابتداء من عام ١٥٠٢م على امتداد مائتين وخمسين عاما . ثم ضاعت هذه الصناعة . بذهاب الدولة الصفوية ، اذ كانت هزيمتها أمام الافغانيين انهيـــارا لهـذه الصناعة .

٣ ـ صناعة السجاد اليدوى :

* يعتبر اقتناء السجاد الفارسى عندنا علامة على ثراء وتحضر مـن يملكها اذ ينظر اليـه على أنه من الطبقة المميزة فى المجتمع . يندرج تحت كلمة « سجـــاد فارسى » العديد من أنواع السجـاد الشرقى المستورد من بلاد كثيرة . فعـلى الرغم من أن السجاد المصنوع آليا بلغ درجـة ممتازة ، الا أن خبراء السجـاد لا يزالوا يفضلون السجاد المصنـوع يـدويا ، لأنه لم يزل محتفظا بقيم وتقاليد الفن الشرقى .

* احتلت عقد السجاد ـــ على امتداد التاريخ ، منذ القـدم حتى الآن ـــ مرتبة عالية ، لدرجة انه يوجد حتى اليوم مـــراكز خاصـــة لبحث ودراسة صناعــة السجـاد اليدوى ، فقد توصل الباحثـون الى أن هذه الصناعة كانت منتشرة فى القدم بين البـدو الرحـل فى وسط آسيا ، ثم انتقلت الى منطقة الشرق الأوسط ، ويرجـع أقـدم ما وجد من هذه الصناعة الى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكن الباحثين لم يجزموا بأنها لم توجد قبل هذا التاريخ .. ثم يمضى المؤلف فيبين المادة التى صنع منها السجاد وطرق صناعتــه المتنـــوعة فى العقـد والرســومات ، ومجـال استعمال المصنوع .

* عندما رحل «ماركوبولو» الى الشرق الأقصى كانت صناعــة السجاد مزدهرة فى الأناضــول ، فكتب عنها بأسلوب ينم عن اعجابه ودهشته عندما شاهد هذه الصناعة . ازدهر هذا الفن فى آسيا الصغرى وفى مصر ـــ فى عصر المماليك ـــ ، فان أقدم القطع الشرقية الأصليــة بما عليها من رســومات زخــرفية جــاءت مــن هــاتين المنطقتــين

الاسلاميتين ، اذ تحمل طابعا اسلاميا ، وان اختلفتا فى الزخرفة اذ بينما كان السجاد المصرى – غالبا – قطعا صغيرة ، محلاة برسومات هندسية حول دائرة كبيرة فى الوسط ذات رسومات أشبه ما تكون بالميداليات ، نرى السجاد الاناضولى – وخاصة ما صنع فى العصر العثمانى – يميل الى الزخرفة النباتية .

* أخذت مصانع الدولة المقامة فى قلب المملكة الاسلامية – ومنها ما كان فى كونيا وفى القاهرة وتبريز – نماذج رسوماتها الزخرفية من كتب الرسامين ، اذ توجد نفس النماذج فى الكتب وعلى السجاجيد ولهذا عندما تفقد قطعة من السجاد الأصلى ، فيمكننا التعرف على رسوماتها بسهولة من الكتب ، واعادة طبعها على قطعة أخرى . أخذت أشهر الرسومات الأصلية على السجاد ، من أشهر الرسامين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى ، فقد كانت منافسة الألوان والأشكال فى ذلك الوقت على أشدها .

* وجد بجانب السجاد الفاخر أنواع أخرى من السجاد اليدوى للاستعمال الشخصى وللطبقات الشعبية ، اذ أن كل انسان فى حاجة الى سجادة للصلاة فأحدث هذا الطلب المتزايد رواجا فى صناعة وتجارة السجاد ، لدرجة أن البدو الرحل كانوا دائمى العمل فى نسج السجاد وكانوا يحملون معهم فى حلهم وترحالهم الأدوات التى يستعملونها فى نسج السجاد .

* ظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم ، وكان السجاد التركى أوسعها انتشارا فى العهد العثمانى ، ولا زال مطلوبا فى كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسى والقوقازى .

٤ – فن الخطوط :

* أظهر الخطاطون قدراتهم الفنية فى رسم الكتابة العربية فى أشكال فنية رائعة بصرف النظر عن كون الكلمة العربية فى الأصل كان تركيا أو فارسيا أو عربيا ،

فقد أوحت الكتابة فى حــد ذاتها ــ ولا زالت توحى الى الآن الى الفنانين بالابداع فى خلق اللوحات الفنية • ويرجع السبب فى اهتمام الفنانين باستعمــال الــكتابة فى لوحاتهم الى تحريم التصــوير فى الاسلام • فكيف يمكن للمــرء أن يقترب من تعظيم كلمة الله ، سوى بذل كل مــا يستطيــع فى كتابتها بخط جميل بديع •• وهكذا كانت العقيدة سببا فى تطوير فن الخطوط فى بداية النهضة الاسلامية •

* احتل الخطاط مكانا ســاميا فى بلاط الخليفة فقــد كان يكتب النصــوص الطــويلة من أوامــر ومراسيم ورســائل دبلومــاسية ، فكان خطــه يبعث السرور فيمــن يراه ، حتى لو كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة • ولذا كان الخلفاء فى بغــداد والماليــك فى مصر يدفعون مبالغ كبيرة فى لوحــات الخطوط الجميلة ، ويطلبون كتابتها بمادة ذهبية أو فضية كما رغبــوا فى اقتناء الكتب التى كتبت بخط جميــل •• ثم يستعــرض المؤلف أشكال الكتابة المختلفــة ، وأنواع الورق المستعمل فيها ، وحجمــه ودرجة جودته ، ثم ذكــر أن بعض نسخ القرآن المكتوبة بخط اليــد فى تلك العصور السابقة ، مازالت موجودة فى متاحف القاهرة •

* استعــرض المؤلف أنواع تجليد الكتب ، واستعمال الجلد ، والحرير فى صنعها وبين أن أنواعا عديدة مــن جلود الغنم والماعــز استعملت فى تجليد الكتب فى جميع المناطق الاسلامية ، من فارس حتى اسبانيا • أخذ الفارسيون استخدام الحرير والمواد اللامعة فى تجليــد الكتب من الصينيين ، كما زينــوا المجلدات بالفسيفساء وبقطــع من العاج •

* لم تستغرق كتابة الــكتاب فقط وقتا طويلا ، بل أخذ التجليد فى بعض الحالات سنين طويلة ، اذا كان المجلد مكلفا بتحقيق رغبة ملك أو سلطان فى تجليد الصفحات المــكتوبة بالذهب ، والمرصعـــة بالنقوش الفنية تجليدا يضفى عليها رونقا أكثر مما فى داخــل المجلد•

* ولما كانت الصور الفنية - بجميع أنواعها - عاجزة في العالم الاسلامى عن الاقتراب من نص القرآن الكريم فى مجال فن الخطوط ، فليس من المستغرب أن تحتل اللوحات الفنية للآيات القرآنية مكان الصدارة فى هذا المجال الفنى .

٥ - الرسومات الصغيرة :

* خضع تزيين الكتب لفن رسامى الرسومات الصغيرة ، فقد قاموا بعملهم بعد الانتهاء من كتابة النص ورسم العنوان والزخرفة الهامشية .

* كما لم يكن عمل هؤلاء الفنانين قاصرا على ما يضيفونه فى الكتب المصورة ، بل استخدموا ريشتهم أيضا فى كتب علمية ، وكتب الرحلات . وسنحت لهم بجانب هذا العمل فرصة رسم كتابة أسماء الحملات الشهيرة مزينة بالورود والزهور ، وقد اقتصر الفن العربى فى هذا المجال على تزيين الكتابة بالصور ، أما الفارسيون فقد ابتدعوا موضوعات خاصة لهم ، استنبطوها من الأعمال الأدبية الحرة ، ومن الطبيعة وأضافوا اليها انماطا من الحياة والمناظر الشخصية .

* كانت رسومات الصور الصغيرة فى القرون الأولى أمرا مكروها فى مجال الفن فى العالم الاسلامى ، وخاصة عند العرب بسبب نفور المسلمين من الصور ، وتردد المؤمنين كثيرا فى رسم صورة ، عندما كانت ظروف اللوحة الفنية تقتضى رسمها . ولهذا التزموا فى فنهم رسم الخطوط المتداخلة مع الكتابة ، وتركوا تصوير الأشخاص للمسيحيين والمانويين الذين اكتسبوا شهرة بين قومهم بفضل ابداعهم فى هذا المجال الفنى . ومن هنا كانت الكتب المصورة التى صدرت فى القرون الستة الأولى من تاريخ الاسلام ، من عمل المسيحيين ، حتى القصور التى أقامها الأمويون ، لم يقم برسم ما فيها من صور سوى مسيحيين ويونانيين ، ورسامين عالميين جاءوا من بلاد غير اسلامية .

* استعاد الفـن مركزه بعـد اصابته فى الزحف المغولى ، فقد انتقل معهـم ــ وهم شعـوب آسيوية ــ تذوق الفن الصينى ، وخاصة ما احتـوى على صـور وخطوط مستقيمـة ، وما أوحى باللين والتخيلات • تأثـرت فارس ــ وهى وطن المغوليين ــ بالنماذج والألوان والتراكيبات الأجنبيـة ، فتحررت من قيد تحريم تصـوير الانسان وتجاوز الرسامون الحـد فى هذا المجال ، لدرجة انهم رسموا صورة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ففتحوا مجالا جـديدا فى تاريخ الحيـاة الانسـانية ، حيث رسموا صورا خيالية لأعمال التقرب الى الله ، كما يتصورها المتصوفون•

* كانت شاهنامة الفـردوسى ــ التى احتلت مركزا مرموقا عند الفارسيين ــ مرجعا للرسامين أثناء الحكم المغولى ، ولكنهم استلهموا أيضا كثيرا من صورهم من قصص الحب التى أذاعهـا الشعـراء فى المجتمع ، سـواء كان ذلك فى الجانب المدنى أو الصـوفى وظلت مسيطرة بصورها ولوحـاتها حتى القرن التاسع عشر الميلادى •

* كانت مركز تجمع صفـوة الرسامين فى أواخـر الـدولة التيمورية فى هـراة ، وفى عهـد الصفويين فى تبريز ، فكانت كلتا المدينتين ــ على التوالى ــ مقـر أكاديمية الرسم العليا التى اكتسبت شهرة واسعة ، ثم انتزعت منها هذه الشهرة مدرسة قزوين المقر الثانى للصفوييـن ، حيـث وصلت فى القرن السادس عشر الميـلادى الى ذروة مجدها فبسطت أسلوبها على البلاط المنغولى فى الهنـد ، ذلك الأسلوب الذى مـال الى تناسق الصورة والكتابة ، مع الملاءمة بين الألوان والأشكال •

٦ ــ أعمال السيراميك و الخـزف والفسيفساء :

* وجد فن الزخرفة الاسلامية سوقا كبيرة فى مجال تزيين الأوانى بالسيراميك لأنها صنعت لتستعملها كل طبقات المجتمع ، وقد أمـكن اعادة ما وجد فى الحفـريات من أوان وقطع زجاجية الى حالتهـا

الأصلية فأعطت الأشكال والألوان التى كانت طابع الفن فى العصور الاسلامية ، ففى العصر العباسى كانت زخرفة الأوانى نماذج مبسطة تبدو فى صورة خطوط زجاجية صفراء وسوداء وخضراء ، وبروز ناتئة على سطح الزجاج الشفاف ، كما طبعت نماذج زرقاء مالطية على أرضية بيضاء .

* يبدو من محاولة تقليد الفن اليدوى الآسيوى ــ وخاصة الفن الصينى ــ انه كان مشهورا فى ذلك العصر ، فقد ظهر فن صناعة الثريات من محاولة تصنيع الخزف الصينى ، ونشأ عنها أيضا صناعة الأوانى الفاخرة التى حلت فى الاستعمال محل الأحجار الكريمة المحرم استعمالها . كانت زخرفة الأشكال الزجاجية غاية فى الابداع من ناحية الأشكال والألوان فقد بذلت محاولة ضخمة لتطويرها فى جميع المناطق من فارس حتى اسبانيا .

* كان من عادة قدماء المصريين وسكان غرب آسيا أن يكسوا الحوائط بسائل لامع ، ولكن عندما غزا الاسكندر الأكبر هذه المناطق كانت هذه الصناعة قد اندثرت وطواها النسيان ، ومن المحتمل أن نماذج الأوانى المكسوة بالطبقة الزجاجية اللامعة بعثت هذه الصناعة من جديد فى القرن التاسع الميلادى ، وخاصة فى بلاط الخلفاء فى سامراء وبغداد ثم أمكن تحسينها بواسطة التقدم فى مجال صنع المواد اللامعة فقد استطاعوا طبع ألوان ــ حمراء وصفراء وسمراء ــ لامعة على مسطح أبيض شفاف مثل الزجاج . ومن أقدم قطع هذا اللون من الفن محراب جامع سيدى عقبة فى القيروان ، فقد صنع فى سامراء ، وما زال محتفظا بلمعانه حتى اليوم .

* كانت النقابات المهنية آنذاك حريصة على حصر سر المهنة فى محيط أبنائها ولكنها لم تستطع أن تمنع تسربها منعا كليا ، وعلى كل فقد توصل الفارسيون الى دقائقها ، فطوروها الى أحسن فى « سلطان أباد » و « كاشان » و « الرى » ثم اخترع أخيرا الفسيفساء اللامع . ولما كانت

صناعته تحتاج الى وقت طويل ومال وفير فقد استعاض عنه الفارسيون برسم دوائر دقيقة على مسطحات كبيرة بصورة تعطى الايحاء بأنه فسيفساء • وجد هذا النوع فى بلاط الشاه عباس ، كما لاقى رواجا كبيرا فى اسبانيا •

* سارت تركيا فى عهد العثمانيين فى اتجاه النهضة الايطالية ، فتحررت من النماذج الفارسية منذ القرن السادس عشر الميلادى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تلبى فى فنها الأذواق الاوربية التى تأثرت بالطابع الشرقى •

٧ ـ صناعة المعادن :

* انجزت البلاد الاسلامية فى مجال صناعة المعادن انجازات رائعة، فقد اتخذ المسلمون البرونز والمعادن الخام أرضية لزخرفتهم لأنهم رفضوا استعمال الذهب والفضة امتثالا لتحريم القرآن الكريم استخدامهما فى الزينة ، ولكن على الرغم من هذا التحريم فقد ذكر ابن خلدون انهما استخدما فى قصور العباسيين •

* يبدو أن لجوء العمال الفنيين الى تطعيم المعادن كان راجعا الى ندرة وجود الأحجار الكريمة فى المملكة الاسلامية ، فقد طعم البرونز بخيوط من الاحجار الكريمة فثبتت فيها بطريقة خاصة . يصعب انتزاعها • انتقلت هذه الصناعة من سوريا الى فينيسيا ، ومنها الى أوربا •

* لم يتردد الصناع فى رسم صور الكائنات الحية فى زخرفة القطع المعدنية ، فقد ورثوا هذا الاتجاه عن الساسانيين فى الفرس، وكان المسيحيون هم أول من قلدوا الفرس فى هذا المجال ، لأنهم لم يكونوا ملزمين باتباع تعاليم القرآن الكريم تحريم رسم صور الكائنات الحية ، وهكذا ظهرت صور الحيوانات ـ وفى بعض الأحيان صور ذات مدلول معين من العالم العلوى ـ على الأوانى والأسلحة • وحوائط المنازل وكانت المباخر المصنوعة على هيئة حيوان من أحب الأشياء عند الناس ، كما وجدت الأوانى المصنوعة على

صورة الحيـــة ــ وعلى صـور حيـوانات الأساطير أيضـا ــ فى أوربا تقليدا لمثيلاتها المصنوعة فى الشرق ، كذلك قام الخطاطـون بأعمـال فنية على القطع المعـدنية وخاصـة عـلى الأسلحة ، وكانت ترفع من قيمتهـا لو كان المكتوب عليها آية قرآنية .

* نشأ فن تطعيـم المعادن فى فارس فى القرن الثانى عشر الميلادى، ولكن القاهرة أصبحت المركـز الرئيسى له بعد ذلك بأعوام قليلة ، فتطور فيهـا وازدهـر ازدهـارا لا مثيل له .

٨ ــ صناعة الزجاج :

* كانت بلاد فارس وطـن صناعة الكريستال والزجاج أيضا ، ثم انتشرت فى جميـع البـلاد الاسلامية . ويوجـد الآن فى الكنائس المسيحية وقصور الامراء التى أقيمت فى القـرون الوسطى جبال من الأوانى المصنـوعة فى الشرق من الكريستال والزجاج . وتنسب الابحاث كثيرا من هـذه القطـع الفنيـة الرائعة الى عهـد الفاطميين فى مصر ، وهى الفتـرة الزمنية المحـددة فيما بين عام ٩٠٩ م ، وعام ١١٧١ م ، فقد كان حجاج أوربا المسيحيون مغرميـن باحضار قطع تذكارية مصنوعة من الكريستال على صـورة حيوانات معهم الى أوربا كما أحضروا معهم أيضـا قـوارير لاسـتخدامها فى المجالات المختلفة كأوانى للعطـور والأدوية .. و .. الخ .

* زينت الأباريق الكبيرة ذات المقبضيـن ، وأقـداح الشرب ، والزجاجات (القينـان) مـن الكريستال بصـور الحيـوانات كالأسد والزرافة ، وبأشكال الطيور على اختلاف أنواعها . كما وجدت أيضا أوانى زخرفت بخطوط فقط ولما كانت مادة الكريستال تعتبـر من الكماليات ، فقد نافس الزجاج المجلخ فن الكريستـال ، اذ غطى اتجاه الاستعمال المنزلى كالأكواب والقينان ، والأدوات المستعملة فى الكتابة ، حتى مصابيح الاضـاءة المطلية بالذهب والفضة فى المساجد .

* اشتهر الصناع المهرة فى عهد الصفويين ــ وعلى امتداد قــرون لاحقة ــ بصــناعة الزجاج الملون بالألوان المفــرحة ، فقــد تناسقت ألوانهم الحمراء والصفراء والخضراء مع أشكال القطع الفنية ، سواء كانت ابريقا أو زهرية ، أو صهريجا للزينة أو للاستعمال .

٩ ــ فن العــاج :

* أعجب جنـــود الحمــلات الصليبية القادمين من الغرب بالفن اليدوى الاسلامى فأخذوا معهم كل ما وقع فى أيديهم الى أوطانهــم ليهدوه الى ذويهم أو ليطلعوهم على روعة هذا الفن . كان من بين هذه الهدايا والقطع التذكارية ، قطــع فنية من العاج ، نحتها المسلمــون على أشكال فنيــة ، بلغت درجــة الكمال الفنى فكانت دقات قلب كل امرأة ترتفع من الفرح عندما يهدى لها زوجها العــائد من الشرق مع الحمــلات الصليبية علبة مجوهرات مطعمة بالعاج . وكانت الخنــاجر ذات المقابض المصنوعة من العاج من الأسلحة الممتازة ، كما شع من الأبواق سحر حمل المشاهد على الاعجــاب بها ، لما فيها من العــاج المنحــوت بشكل فنى نادر .

* ازدهر فن العاج فى الاندلس وصقلية ، ثم انتشر من هناك فعم جميــع بلاد الشرق الاســلامى ، كانت القطع الفنية تنقل من هنــا وهناك فجاءت قطع فنية من مناطق أخــرى الى تلك المنطقتــين وطن العــاج الأصــلى ، لأن التبــادل التجارى فى ذلك العصر كان نشيطا لا يتوقف عن الحركة أبدا ، فالتجار دائمو الرحــلات الى الاماكن التى تــروج فيهــا بضــاعتهم ، فحيث لا يرغب الناس فى اقتناء الاشكال المنحوتة يعــرض التجــار قطــع الشطــرنج المصنوعة من العــاج ، وهــكذا يرحلون ببضــاعتهم الى حيث توجد الرغبة عنــد النــاس لاقتنائها .

* تــدل المهــارة المــاثلة فى صــناعة العــاج فى نحت الأشكال الخشبية على التفوق الاسلامى فى هذا الفن ، اذ على الرغم من ارتفاع ثمن الخشب ارتفاعا فاحشا ــ فبسبب

نقص الانتاج المحلى ، وخاصة فى مصر والعراق . استوردوا الخشب الهندى — لم يهملوا صناعة المنابر ومحامل الكتب للمساجد وقصور الاغنياء . كذلك ظهرت أيضا البلكونات ذات الأسوار الخشبية فى القاهرة وبغداد ، كما صنعت الأبواب والشبابيك من الخشب وزينت بالرسومات والتماثيل المطعمة بالعاج .

١٠ — فن المعمار الاسلامى :

* أراد الامويون المحافظة على الاسلام كواجهة ظاهرية ، بجانب النمو فى جانب السلطة الدنيوية . ولما كانت هذه المملكة واقعة تحت تأثير الحياة البدوية التىخرجتمنها فقد دارت حياتها بين مقرها فى دمشق وبين الصحراء ، اذ بينما كان الخلفاء حريصين على الجانب الدينى بجانب السلطة السياسية ، مال اخوانهم فى الدم الى الاقامة فى الصحراء ، حيث شيدوا لهم قصورا فخمة هناك . وفى هذا العصر — وهو عصر صدر الاسلام — لم يكن الفن المعمارى قد تحرر بعد عن النماذج البيزنطية والمسيحية ، ويدل على ذلك التجهيزات الداخلية لهذهالقصور ، وكذلك النقوشوأسلوبالزخرفة ، التى جلب لها فنانون يونانيون وبيزنطيون . وفى مقابل هذا تطور الطراز الأموى فى مجال الهيكل الخارجى المعمارى تطورا ذاتيا فأصبح طرازا اسلاميا .. ثم يمضى المؤلف فى وصف اقامة المساجد بمآذنها فى هذا العصر وزخرفتها ، ويخص بالتفصيل المسجد الأقصى وبناء قبته بأمر الخليفة عبد الملك وزخرفتها بالفسيفساء والآيات القرآنية ، ويرى أن وجوده فى المنطقة علامة على سيادة الاسلام فى مواجهة الدولة اليهودية .

١١ — قصور الصحراء :

* قلد الأغنياء الخلفاء فى الاهتمام بفن المعمار ، ومنهم من اهتم ببناء المساجد وزخرفتها . فاذا كان الخلفاء الأربعة الراشدون — الذين نفذوا تعاليم القرآن الكريم تنفيذا دقيقا — قد حرموا على أنفسهم كثيرا من متع الحياة

الدنيوية خوفا من أن يبتعدوا عــن الأسلوب الذى التزمه النبى صلى الله عليه وسلم فىحياته فلميشيدوا قصورا ولم يزخرفوا دورا ، فان الوضع قد تغير فى عهد الامويين ، فشيدوا لهم قصورا فى الصحــراء ليستريحوا فيها من عناء السياســة والادارة ، وقــد اطلق على قصر الصحــراء « مشتى » •• ويمضى المؤلف فى وصف هندسة بناء بعض هــذه القصور وزخرفتهــا وتعرض بالتفصيل لكل لوحة من لوحاتها ، كما بيــن معالم الفــن الساسانى والرومانى ثم قال :

« كانت معالم الفــن فى العصر الأموى هى الأخذ من كل النماذج الفنية الموجودة سواء كانتمنحدرة من شــعوب آسيا أو من اليونان أو من الرومان ، اذ يجد المرء فيه سمات الفن اليونانى والرومانى ، وفنــون الشعــوب الآسيوية حتى الهند » •

١٢ ـ الفن المعمارى فى العصـــور المختلفة :

* تناول المؤلف معــالم الفــن المعمارى فىكل عصر من العصــور الاسلامية بالتفصيل مبينا أهم المعالم المعمارية من مســاجد وقصــور ، ومفصلا فى وصف دقائقها •• وما بقى منها وما ضاعت معالمه ، وأفرد لكل عصر بابا ، فجاءت فى كتــابه على التوالى :

أ) فن المعمـــار فى العصر العباسى •

ب) بغداد المدينة الدائرية •

جـ) الفاطميون •

د) الفن فىالعصر السلجوقى•

هـ) الفن فى العصر المملوكى •

و) الأبهة فى الدولةالتيمورية

ز) الفن فى الدولة الصفــوية الفارسية •

ح) اسبانيا وشمال افريقيا •

ط) الفن فى العصر العثمانى •

ثم ختم الباب بقوله :

« كان الاســلام بالنسبة لأوربا ـ على الــرغم من قــربه فى اسبانيا ـ عالما غريبا ، بل عــالم

المغامرين والأعداء ،وعلى الرغم من هذا فقد أمكن الاستمتاع بفنه الجميل دونما ضرر كما نقلنا عنه انجازاته الهائلة فى مجال التجارة ، ومجال الابحاث العلمية ، ولكن ظل بين عقل الدين الاسلامى بانتاجه الخصب فى كل مجالات الحياة ، وبين الدوائر المسيحية هوة عميقة لا يمكن التغلب عليها .

* تدين كل البلاد — من اسبانيا حتى الهند — بالطاعة والخضوع لتعاليم الاسلام غير أن كل تفاسير هذه التعاليم اختلفت تبعا لما يراه المفسر فى ضوء المتغيرات الاجتماعية التى يحياها . ومع ذلك لم يبعدهم الثراء الواسع — الذى عم بعض مناطقهم اليوم — عن تذكر الله ، بل زاد من قربهم له ، وقوى عقيدتهم فى وحى الله الواحد القهار » .

للحديث بقية ..

دكتور : محمد شامه

الباحث عن الحقيقة

للمرحوم "محمد عبد الحليم عبد الله"

من منظور الفن الروائي

للدكتور فتحي محمد أبو عيسى

(١)

«الباحث عن الحقيقــة » رواية حاكت خيوطها أمجــاد التــاريخ وأحداثه ، ولكنها ــ مــع ذلك ــ ليست تاريخا بحتا ، يقف بالحدث التاريخي عند تخوم الحقيقةالمجردة بل عملا يرتفع بالأحداث والمواقف الى حيث أقواف الخيال ، وروعــة التصوير ، فاذا المشهد الذى دوت أصداؤه منذ فجر التاريخ مــايزال مونقا غض الاهاب ، لم تذو منه النضرة أو تذبل على تقادم العهد أو تتابع الحدثان ، بفضل هذه الغلائل الشفيفة التى خلعتهــا عليه ملكة الكاتب ومعايشته الموقف بعاطفــة مترعة بالحب ، مفعمــة بالأمانى ، يتراءى ذلك من رجــائه الضــارع الذى قدمه بين يدى أحداث هذه الرواية فى كلماته التى تنقلها الينا العبارة الآتية :

« ان لم تكن احــدى حسناتى فاغفر بها احدى سيئاتى يا ربى » •

وهى عبارة تتصدر الرواية تقع عليها عين القارىء قبــل أن يلج ساحتها ، ويقف على موضوعها •

(٢)

والرواية تمــرد عــلى الالف ، وثورة على التقليــد الأجــوف ، وانعتاق من عالم المادية المظلمــة ، والحيوانية الكاسرة الى عالم أثيرى آخر ، تتســامى فيه الروح عــن لذاذات الحياة ومغرياتها ، ويتبــوأ المرء فيه المكانة التى كانت له منذ طفق الملائكة يعجبــون أن تكون الآدمية اصطفاء لعمــارة الأرض ، فضلا عن استخلاف الآدمى فيها ،

وهو ذلك المعنى الذى أبرزته الآية القرآنية :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم مالا تعلمون »(١).

هى قصة العزم الأكيد ، والتصميم الجاد ، والتردد الذى يداخل النفس ، ليمضى بها فى طريق اليقين ، بحثا عن الحقيقة التى تتجاوب مع « الفطرة » .

وقد ترتقى أحداث تلك الرواية فتشكل ما يمكن أن نطلق عليه « ترجمة فنية » ــ تتباين طولا وقصرا ــ تكشف عن الدخائل والحنايا التى استقرت فى وعى شخصيات ، تمثل أحداث هذه الرواية .

ونعنى بالترجمة الفنية ، ألا تكون من قبيل التراجم التى تتوخى الموقف ، وتعتمد الحدث مجردا عن الرتوش والأصباغ ، بحيث تقدم الشخصية فى نطاق معين بعيدا عن التجسيد وأبعاده ، والرؤية الفنية التى تعكسها ايماءة لموقف ، أو ايحاء مستور فى ثنايا كلمات نسجها الكاتب حول بطل أو شخصية ، وتلك خيوط قد تفصل بين التراجم الساكنة ، والتراجم الحيوية التى تترقرق فى وعى الروائى أو خيال الكاتب ، أو لعلها الفرق بين التاريخ حين يأتى عطلا من الفنية وعاريا عن ايرادها ومزدانا بأبهى حلله من رواء العبارة ، وشحنة العاطفة ، وخلابة الصورة .

(٣)

تكفلت « الباحث عن الحقيقة » بالترجمة الحية التى تكشف عن جانب ــ لعله أهم الجوانب ــ فى « سلمان الفارسى » الصحابى الجليل الذى اهتدى الى الحقيقة بيقينه وفطرته ، فتلمس الجانب النفسى والعقدى فيه .

ولكى يبدع الأديب الراحل فى وضع النقط على الحروف كان

---

(١) البقرة (آية ٣٠)

منطلقه فى تصويره ورسم أبعاده منطلقا انسانيا ذا غاية منشودة ينعطف به الى ساحة الايمان ، ومرفأ النجاة ، ويتمثل فى الفطرة النقية الصافية التى يحلق صاحبها — ما أراد — الى عالم النور يستبطنه ويسبر أغواره حتى يصل الى ضالته ومراميه .

وفى « الباحث عن الحقيقة » تتكشف الأضواء على مواقف تشكل حياة « سلمان » لحمة وسدى ، منذ أحس أنه فى مسيس الحاجة الى عالم آخر يتماذج به ، وذلك حين لاحظ أن كل مجريات الأمور — فى البداية — فى لدد وتنافر مع ما يهدر فى كيانه ، ومن هنا صب جام سخطه على « بيت النار » ، هذا المعبود الذى شبوا على قداسته ، وجد فى البحث عن هذا العالم الذى يود أن يستشعر فيه سكينة النفس ، واستقرار الفؤاد .

لم يعد « بيت النار » — كما كان — ذا مهابة ، بل غدا غريبا عليه ، يرى فيه الشذوذ ، و « هذا هو الشىء الوحيد المنفصل عن كل ما حوله ، وكأنما اتفقت الكائنات جميعا على خصامه ، فنزل عليه الليل أشد ظلمة ، وكأنما الفجر على بقية الأشياء » واذ صار « بيت النار » على هذه المثابة من النفرة والشذوذ ، لا ينسجم أو يتسق مع ما حوله فعلى عكس ذلك بدا والنجم والحجر فى تفاهم وتناغم ، ففيم يكمن السر ؟

خطرات قلب ، ونجوى نفس دفعته الى أن يستغرق بكليته فى العبادة الصامتة والتأمل الخاشع ، غير أن آهة بددت هذا الصمت ، وقطعت عليه هدأة الفؤاد لتحمل من معانى العبادة ما يعيش فى أعماقه ، وما تنطوى عليه حناياه .

(٤)

ويواجه « سلمان » — رضى الله عنه — قصة الصراع المرير ، وماكان أشد ما لقى فى سبيله من معاناة ومكابدة باحثا عن الحقيقة ولا شىء سواها ، فمن أين يبدأ ؟ أبالمجتمع وقد صار غريبا بكل ما فى الكلمة من معنى ، وهو الذى كان الى

الأمس القريب مهدا ينعم فيه بالعيش الرافه ، والسعادة الغامرة ؟ وهل يملك فى بداية هذا الصراع أن يطوع كل شىء لما يرى ؟

دون ذلك خرط القتاد بعد أن استقرت العادات فى بؤر الشعور ، واعتاد حياة الصغار والمهانة يرتكس فى مهاويها ، وما له عنها بد ، وكأنما كئوس المذلة التى يتجرعها أسلمته الى حالة من اليأس القاتل .

لا بد ـ اذن ـ من وقفة يضحى فيها بما استبعد سواه من المفتونين برواء الحياة ومباهجها ، ولكن مع من يبدأ جهاده وجلاده ؟

أبوالده الذى انصهر فى كيانه، والذى لا يخاطبه الا بـ « أنا » أمارة على الحب ؟ وماذا لو كان ؟

وشهدت حلبة الصراع جولة عمقت فى الأذهان ان الحياة التى امتلأت بالجور والظلم واستنزاف الحقوق واهدار الآدمية ما كان لها أن تقيم وزنا للمبرة حتى بين الأب وولده .. ومن ثم أعلن ـ فى غير مواربة ـ رفضه لما درج عليه ، وأضحت اللهجة التى ألفها من أبيه نشازا لا يستريح الى سماعه .. وأزمع أن يكون ذا استقلال يميزه ، وان كان هذا الاستقلال بالنسبة الى الضعفاء والمقهورين والمجلودين يتلاشى أمام ضعفهم ، فاذا به كأنه بضعة منهم .

وهكذا كان صراعه : مع بيت النار ، ثم مع أبيه ، وفى اصراره على أن يذود عن المستضعفين .. كل أولئك أكد له أن اطار التوافق بين النجم والحجر هذا قد يشمل الانسان ، ويدخل فى دائرته .

ويقوى شعور « سلمان » بالمطحونين من بنى البشر ، ويمضى فى تحليل هذا الشعور فيه ، فيصل الى أن سعادة الانسان تختفى وراء تلك الأقنعة الزائفة التى صنعها زيف الطغاة من كتبهم ونارهم ، وطقوسهم ، وهل ذلك كله الا خدر لمشاعر هؤلاء المساكين ؟ ! !

لكم كان الفرار الى عالم يترنح فيه احساسه ورؤيته أملا باسما .. وكأنما الرؤى الوردية ظلت تخامر

احساسه الى أن اغرورقت عيناه بالدموع لا لشىء غير شوق مبهم يخالطه وعد غامض باللقاء .

وتنمو قصة الصراع وتطرد مواقفها حين تتهيأ الفرصة أمام « سلمان » فيرى قوما أمعنوا فى خدمة الروح ، فيشده الحنين الى أن ينفق سحابة يومه بين ظهرانيهم .

« وفى هذا اليوم انقطع عن العالم المادى ، فلم يشعر بجوع ولا ظمأ ، كأن الجسم الطينى الأصل فى منتصف الطريق الى الشفافية والاستغناء مثلما يتصل بأصل الوجود ومصدره ومدبره .. ومسيرة الأفلاك فيه .

واهتبل « سلمان » تلك الفرصة وخالطت بشاشتها قلبه بعد أن رأى الله فى مجالى الكون ، ولسان حاله يقول :

وفى كل شىء له آية
تدل على أنه الواحد

أجل ، تحتدم حلقات الصراع ، وتستحكم ، وتحتوى هذه الحقيقة التى هتف بها صدى مثيرا زلزل كيان الأب للحظته ، حتى لقد قال له « أوجدت الله عند رعاة الخنازير » ؟

وانتابه السعار ، والجواب يصك مسامعه :

« نعم ، انه رب المساكين ، وجدته على صورة جديدة : على صورة الحق ليس فى النار ، ناركم التى تعبدونها ، وليس فى الشمس : الشمس الضعيفة التى غلبتها النار على سلطانها فى المعابد ، وجدته فى آلام الانسانية ، وفى الدعوات الضارعة اليه فى السماء » .

لم يعهد الأب فى ابنه — من ذى قبل — صراحة أو حسما على هذا الغرار ، وجن جنونه و « سلمان » مأخوذ بالمشهد الذى رأى .. حين رأى النصارى يصلون .. وعبثا حاول الأب أن يقنع ابنه بأن ملك المجوس فى العبادة يبذ ملك النصارى فالمجوس انما يتقربون بالعبادة الى ما يرون توصلا به الى ما لا يرون .

وتنطلق — على الفور — ضحكة من « سلمان » دليلا ماديا على تهافت أبيه فى دعواه الخاوية

المتخاذلة التى حفظها ليرددها أمام ضواغط الموقف اذا لزمته الحجة .

وهكذا بدأ مد الصراع ينتشر، فبعد أن عاش فى أعماقه حبيسا يهدر كانت مرحلة المواجهة ، مواجهة الأب مع عنفوانه ومكابرته وكبريائه ، ثم راح ينأى عن الذاتية لكى يشتغل بآلام البشر قاطبة .

واذا أخذ الصراع هذا المد رأى الأب أن يتصرف تصرفا طائشا فيه رعونة ونزق ، شأن الطغاة حين يرهبون الناس بالسطوة والعنف . ولكن النتيجة ــ كما تؤكد العادة ــ أن يذوب جليد الصراع مهما يتراكم أمام وهج الايمان ونور اليقين ..

ويحكى القرآن الكريم مواقف من ذلك القبيل ، تشير الى الصراع بين الحق والباطل، وتقامىء الباطل فى مواجهة الحق ، وما قصة « أصحاب الأخدود » الا تجسيد لهذا الصراع ، وهى واحدة من عشرات القصص التى يزخر بها القرآن الكريم .

ترى كيف يكون التصرف ؟ وعم يتفتق ذهن الأب ؟

القيود والأغلال ، ظنا منه أن ما يعيد « سلمان » سيرته الأولى ، أو لعلهما على الأقل تفل من عزمه ، وتوهى من ارادته ، وهيهات أن تكون هذه وسيلة ناجحة ،فما كان لأصحاب المبادىء أن يغريهم وعد ، أو يرهبهم وعيد.

(يتبع)

دكتور : فتحى محمد أبو عيسى

بين الأصول والفروع
في التغيير الصوتي الصرفي

دكتور أحمد علم الدين الجندي

١ ـ الأصل الاشتقاقي

يرى بعض العلماء أن الأصل ـ هو الثنائي : فرمى : أصلها الثنائي : رم ـ حرك حرفه الثاني بفتحة مشبعة علامتها ألف . فلامه ليست حرفا بل اطالة أو اشباع الفتحة السابقة . والمثال : وثب . أصله الثنائي : (ثب) زيدت فيه الواو تنويجا . والأجوف : قام ـ أصله : قَمْ أشبعت حركة حرفه الأول . أما المضاعف فهو مركب من حرفين مثل لعْ لعْ . مرْ مرْ ، فهو عبارة عن ثنائيين مكررين ، ومن العلماء الذين يرون ثنائية الأصل : ابن فارس والشدياق وجرجي زيدان والكرملي والدومنكي ، ولهم حجج كثيرة منها :

أن أصول الكلمات السامية كانت مؤلفة من حرفين اثنين ثم زيد فيما بعد على كل أصل منها حرف ثالث ، وقالوا : بأن الثنائيات صورة بعيدة مغرقة في القدم ودليل ذلك التدرج الطبيعي والانتقال من هذه المرحلة الى ما استقرت عليه الكلمات من ثلاثية الأصوات .

ويرى معسكر آخر أن أصل اللغة يرجع الى الثلاثي ، وأنه لم يتطور عن غيره ، ولهم أدلتهم أيضا ، على أنه يجب أن نشير الى أن النظرية الثنائية لا زالت فرضا واحتمالا . وأنها لم ترتق الى مجال القواعد الثابتة ، كما أنه اعترض على النظرية الثلاثية بأنها تنفي أصالة ما عدا الثلاثي وهم مع ذلك يلجأون في اثبات نظريتهم الى التأويل .

وعلى مذهب القائلين بأصالة الثنائي وتنميته لما فوقه الى الثلاثي عن طريق تضعيف الحرف الثاني أو اضافة حرف علة الى أول المادة الثنائية أو فى وسطها أو فى آخرها ، يرون أن اللغة وجدت فى أثناء تطورها فى المضعف ثقلا فراحت تبدل من أحد الضعفين حرفا من حروف العلة : انظر مايلى :

كعّ تطورت الى كاع .

ضرّ يضرّ ضرّا تطورت الى ضار يضير ضيرا .

ذمّ تطورت الى ذام .

طبّ ، غمّ تطورت الى طاب ، غام .

مدّ تطورت الى ماد

صرّ (الصوت) تطورت الى صار .

حفّ تطورت الى حاف .

غبّ تطورت الى غاب .

طمّ يطمّ طموما تطورت الى طما يطمو طموا

همر تطورت الى همى

محق تطورت الى محا

حمّ (الحديد) تطورت الى حمى .

شجب تطورت الى شجا (أحزن)

هذا وقد يبدل أحد الضعفين نونا مثل احرجم تطورت الى احرنجم .

اطّلم تطورت الى انظلم .

وأبدلت نونا ، لأن النون حرف موسيقى محبب فى اللغة ، ولهذا يرى بعض الباحثين (١) أن وزن (أِفَّعَل) هو الأصل ثم تطور الى (انفعل) فهى صورة جديدة للمطاوعة وهى فرع عن (اِفعّل وافتعل) .

فالتضعيف هو الوسيلة الأولى لتنمية اللغة ونقلها من الثنائية الى الثلاثية ، فالمضعف تولد منه على طريق الابدال : الأجوف ثم الناقص وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) (٢) ثم المثال ثم السالم ، فالسالم جاء آخرا ، لأن زيادة

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ١٩ . د. مصطفى جواد .

(٢) ثنائية الأصول اللغوية ١٢٦ مقال للاستاذ حامد عبد القادر نشر بمجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ .

حرف على المضعف أليق بحكمة الواضع فى التفنن فى نقصه ، اذ لو جعلت السالم أصلا لزم عنه العدول من الكمال الى النقصان .
والدليل على أصالة المضعف قراءة أبى حيوة (وعزنى فى الخطاب ٢٣ ص) ، قال ابن جنى فى المحتسب ٢/٢٣٢ دار احياء الكتب العربية تحقيق الأستاذ النجدى ومن معه : أصله : عزّنى غير أنه خفف الكلمة بحذف الزاى الثانية أو الأولى كما حكاه ابن الأعرابى من قولهم ، ظنْت ذاكَ : أى ظننت هذا ويمكن لظاهرة المخالفة أن تفسر الصلة بين المضعف وبين الأجوف والناقص :

الجبّ تطورت الى الجوْب (القطع) .

دسّس تطورت الى دسّى « وقد خاب من دساها » .

تسرّر تطور الى تسرّى .

« وليملل الذى عليه الحق » تطورت الى « فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » .

فهذه صور للتطور ورسوم للارتقاء .

على أن حدود التطور لم تقتصر على الأفعال واشتقاقها بعضها من بعض ، بل نرى من (الأفعال) ما تطور الى (حرف) خالص انظر مثلا :

البدوىّ علا الجبلَ ــ فهى فعل ومع كثرة الاستعمال والتداول أصبحنا نقول : البدوى على الجبلِ فهى نفسها حرف جر ، والعلاقة بين المثالين واضحة مدلولا واستعمالا (١) .

كما كان الأصل الاشتقاقى محل خلاف بين البصريين والكوفيين ، فيرى البصريون أن المصدر هو الأصل والفعل فرع عليه ، والكوفيون على العكس يرون أن الفعل هو الأصل والمصدر فرع عليه .

وحجة البصريين منها :

أن الفعل يدل على الحدث والزمان ، فلو كان المصدر مشتقا

---

(١) من دلائل القدم فى اللغة العربية . د. أحمد عبد الستار الجوارى . نشر فى البحوث والمحاضرات . دورة ٣٣ . مجمع اللغة العربية .

من الفعل لدل على ما يدل عليه الفعل من الحدث والزمان وعلى معنى ثالث : كما دلت اسماء الفاعلين والمفعولين على الحدث وعلى ذات الفاعل والمفعول ، فلما لم يكن المصدر كذلك علم انه ليس مشتقا منه .

كما استدلوا على أن المصدر هو الأصل بتسميته مصدرا ، والمصدر هو الموضع الذى يصدر عنه ... فلما سمى مصدرا دل على أن الفعل قد صدر عنه ، وكذلك احتجوا بأن قالوا : بأن المصدر يدل على زمان مطلق ، والفعل يدل على زمان معين ، فكما أن المطلق أصل للمقيد ، فكذلك المصدر أصل للفعل .

كما احتج الكوفيون بأدلة منها :

أن المصدر يصح لصحة الفعل ويعتل لاعتلاله ، ألا ترى انك تقول : قاوم قياما — فيصح المصدر لصحة الفعل ، وتقول : قام قياما — فيعتل لاعتلاله ، فلما صح لصحته واعتل لاعتلاله دل على أنه فرع عليه . كما تمسكوا بأن المصدر يذكر تأكيدا للفعل ، ولا شك أن رتبة المؤكد قبل رتبة المؤكد ، فدل على أن الفعل أصل والمصدر فرع (١) ... وهناك من الأدلة للفريقين غير هذا ، وأرجح رأى الكوفيين فى هذا النزاع مسترشدا بمايلى :

١ — ما يراه نفر من المستشرقين من أن أغلب الكلمات يرجع اشتقاقه الى أصل ذى ثلاثة أحرف (لبعضها أصل ذو حرفين) وهذا الأصل فعل يضاف الى أوله أو آخره حرف أو أكثر ، فتتكون من الكلمة الواحدة صور مختلفة تدل على معان مختلفة .

٢— أن العقلية الفعلية — قد سادت على اللغات السامية ، لأن لأغلب الكلمات فى هذه اللغات مظهرا فعليا . ففى الساميات الفعل هو كل شيء(٢) ، أما من ذهب الى أن أصل المشتقات هو المصدر

---

(١) الانصاف فى مسائل الخلاف . لابن الأنبارى . مسألة ٢٨ .
(٢) تاريخ اللغات السامية ١٤ تأليف ولفنسون . الطبعة الاولى .

ـ فهو مذهب نشأ عن الفرس حيث بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية ، والأصل فى الاشتقاق عند الآريين هو : المصدر ـ فعلماؤنا متأثرون ومقلدون .

وليس النزاع الذى ذكرنا طرفا منه وحده فحسب ، بل وقع خلاف فى دوائر البصرة نفسها حيث قال جمهورهم : ان المصدر متى ثبت أنه أصل للفعل ثبت أنه أصل للمشتقات بالواسطة ، اذ المشتقات متعلقات بالأفعال ، ومتى ثبتت فرعية المتعلق ، ثبتت فرعية المتعلق ، وقال جماعة منهم السيرافى : ان المصدر أصل للفعل ، ولكنه ليس أصلا للمشتقات ، بل الفعل هو الأصل للمشتقات ، اذ لا يلزم من كون الفعل متفرعا عن المصدر ، أن تكون متعلقات الفعل متفرعة كذلك عن المصدر ، بل ينقل السيوطى عن طائفة من المتأخرين اللغويين بأن : كل الكلم مشتق ، كما نقل عن طائفة من أهل النظر أن : الكلم كله أصل ! واذا كنا قد رجحنا رأى الكوفيين فلا زال الطريق شائكا ، فأى الأفعال هى الأصل ؟ يذهب بعض العلماء المحدثين أن اسم الفاعل هو الأصل ، وبعضهم يذهب الى أن صيغة الأمر هى أصل اشتقاق الأفعال . أما نحاة العرب فبعضهم يرى أن الفعل الماضى هو الأصل ، وبعضهم يرى أن فعل الحال هو الأصل ، وآخرون يرون أن فعل المستقبل ، الى غير هذه الآراء . كما يرى بعضهم أن بدايات الفعل فى العربية انما هى تطور من استخدام بعض صور اسم الفعل (١) ، أو أن الفعل انما تطور عن كلمات استخدمت وقصد بها الاسم والفعل معا ، ثم أخذ مدلول الفعل فيها يتحدد ، ويستقل باضافة فكرة الزمن ، ويرى نفر من العلماء أن ننظر الى (الجذر) (٢) ، وهذا يحل مشكلة الأصل الاشتقاقى ، فمسألة الاشتقاق تقوم على مجرد العلاقة بين الكلمات واشتراكها فى شىء معين ، والقدر المشترك بين

(١) الفعل زمانه وابنيته ١٢١ . د. السامرائى .
(٢) مناهج البحث فى اللغة ١٨٢ . د. تمام حسان . الانجلو . القاهرة

الكلمات المترابطة • وأصح ذلك هو الحروف الأصلية الثلاثة ، فأنت اذا نظرت الى : ضرب ضارب مضروب مضرب ضرب ، رأيت أنها تشترك فى (ض ر ب) وتتفرع منها ، فهذه الحروف الثلاثة جذور العربية التى تتفرع منها الكلمات • فالفعل واسم الفاعل واسم المفعول •• الخ •• صور من صور التعبير الشكلى للمادة التى لا يصدق عليها وصف بالفعلية أو الاسمية •

وفى كتب العربية نجدهم يتوسعون فيشتقون من أسماء المعانى ، فلقد اشتقوا من أسماء العدد وهى أسماء معان جامدة ، ففى المخصص(١) : كانوا تسعة وتسعين فأمأيتهم • كما اشتقوا من أسماء الأزمنة ففى اللسان (٢) : وأخرف القوم ـ دخلوا فى الخريف • كما اشتقوا من أسماء الذوات : يدينه : ضربت يده ، فهو ميدى ، ويُدِىَ : شكا يده (٣) ، ومن العجب أن العرب قد اشتقت من الحرف ففى الخصائص (٤) : سألتك حاجة فلوْليت لى : أى قلت لى (لولا) فاشتقوا الفعل من الحرف المركب من (لو+لا) ، ومعنى ذلك أن (الأصل) فى اللغة متعدد ، اذ قد اشتقت العرب من الأفعال ومن الأسماء الجامدة والمشتقة ومن الحرف •

وفى المشتقات تطالعنا أحوال عجيبة ، فقد نجد مصادر ولا أفعال لها ، كما أهملت بعض المفردات واستعملت جموعها ، كما استعملوا بعض المصغرات من غير أن يستعملوا لها مكبرا ، كما روى عنهم أنهم أماتوا بعض المصادر • والحقيقة أن المشتقات تنمو وتكثر حين الحاجة اليها ، وقد يسبق بعضها بعضا فى الوجود ، ولهذا لا يمكن أن تكون الأفعال حين وجدت وجدت معها مشتقاتها ، فقد تعيش اللغة زمنا وليس بها الا الفعل وحده أو المصدر وحده ـ حسب حاجة اللغة واستعمالاتها فى حضارتها وبداوتها •

---

(١) ١٧/١٢٩ •
(٢) ١٠/٤٠٩ •
(٣) اللسان ٢٠/٣٠٣ •
(٤) ١/٤٣٦ ط الهلال ١٩١٣م •

ملحوظتــان :

١ ــ اذا تــرددت الــكلمة بين أصلين فى الاشتقاق فالتمس مايرجح أحدهما ، وله وجوه :

أ ــ كون أحد الأصلين أشرف

ب ــ كونه أخص فيرجع على الأعم •

جـ ــ كونه أسهل وأحسن تصرفا

د ــ كونه أليق •

٢ ــ قد يعرض للفرع المشتق مع الأصــل المشتق منــه تعبيرات منهــا :

أ ــ زيادةحركة كعَلم من العلْم

ب ــ زيادة مــادة : كطــالب وطلب

جـ ــ زيادة حــركة وحــرف، كضارب من الضرب

د ــ نقصان حركة كفــرْس من الفرس •

(راجــع القــائمة فى المزهــر للسيوطى) •

الأصل والفرع فى المشتقات :

ولكن كيف تتبين الأصل والفرع فى صــيغتين مختلفتــين مشتقتين ويحسن قبل أن نجيب أن نتقــدم بعدة نصوص نفحصها وفى ضــوء ذلك يكون الجواب ، فمنهجنا يسير على استقراء اللغة وفحص مفرداتها أولا وأخذ صفة عامة لها ثانيــا ، وذلك قبل أن نتورط فى تعليــلات وهمية ، وتقديرات مجردة :

يقول ابن خالويه : ليس فى كلام العــرب مصــدر تفــاعل الا على التفاعل ــ بضم العين الا فى حرف واحــد جاء مفتــوحا ومكسورا ومضموما • قالوا : تفاوَت تفاوَتا وتفاوِتا وتفاوُتا (بالفتح والكسر والضم) ثم علق ابن خالويه على هذا بقول أبى زيد : وهذا غريب مليح (١) •

---

(١) ليس فى كلام العرب •

وقبيلة (كلاب) فى النص السابق تفتح ،(وبلعنبر) تكسر (١) . وأرجح أن الضم هو الأصل لورود ذلك فى القرآن : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » (الملك آية ٣) كما أرجح أيضا أن الفتح فى لهجة (كلاب) ، والكسر فى (بلعنبر) فرع من الضم ، بدليل أن صيغة الفتح حدث فيها مماثلة : أى توافق حركى ، واللغة فى أثناء تطورها فى السلم التاريخى تهدف الى هذا الانسجام .

وصيغة : مرفق — القياس فيه فتح العين ، لأن مضارعه على يفعل — بضم العين ولكنه ورد بكسر العين ، وقالوا : بأن الكسر شاذ . ولكن هذا الذى اعتبروه شاذا ورد أنه بلهجة (الحجاز) ، بل قرأ به جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وأبو بكر وأبو عمرو فى رواية هارون — بفتح الميم وكسر الفاء فى قوله تعالى « ويهىء لكم من أمركم مرفقا » ، (الكهف ١٦) ، وجاء فى البحر (٢) أن معاذا أجاز فتح الميم والفاء . وأرى أن هذه الصيغة الأخيرة هى أحدثها فى التطور ، لأن بها توافقا حركيا ، واللغة فى أثناء تطورها تهدف اليه ، لأنه يقلل المجهود العضلى ، اذ عمل الانسان فيه يكون من وجه واحد .

وكان الحريرى يخطىء من يقول : فلان أشَرّ من فلان . ويقول : الصواب : شَرّ بغير ألف ، وكذلك يقال : فلان خير من فلان ، بحذف الهمزة ، ولا يقال أخير — على وزن أفعل . والأسلوب الذى خطأه الحريرى ورد فى كتاب الله و فى التراث العربى جاء عن ابن خالويه أن أبا قلابة قرأ قول تعالى « من الكذاب الأشر » (القمر ٢٦) بفتح الهمزة والشين وتشديد الراء (٣) ، كما ورد أخيرا — فى قول رؤبة (بلال خير الناس وابن الأخير) (٤) فأصل : شر وخير : أشر وأخير ، وهما أفعل

(١) اصلاح المنطق لابن السكيت ١٢٢ تحقيق الأستاذين . أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون . (٢) ١٠٧/٦ .
(٣) المحتسب : لابن جنى ١٤٧ مخطوط بمكتبة تيمور .
(٤) شرح الدرة ٦٤ ط أولى .

تفضيل ، وفى قراءة أبى قلابة وشعر رؤبة جاءت على الأصل ، بدليل سماع لهجة عربية نطقت ، هذا أخير من هذا . لكن لما كثر استعمال هاتين الكلمتين ــ حذفوا الهمزة منهما تخفيفا ، فكانتا فى الفصحى (شر وخير) .

وكأن الحريرى لا يؤمن بالأدوار التطورية التى مرت فيها العربية ، والدليل على تطور العربية لا سيما فى باب المشتقات زيادة على ما سبق :

١ ــ صيغة فِعْل ــ بكسر فسكون تقابلها صيغة فعول . تقول الحجاز شرب وتميم : شروب .

٢ ــ التبادل بين اسم الفاعل والمفعول (عضد ناشلة ومنشولة) (١) .

٣ ــ التبادل بين فِعْل (بكسر وسكون) ومفعول . ومن ذلك : « وفديناه بذبح عظيم » .

٤ ــ لتبادل بين فعَول ومفعول .. فاسم المفعول من الثلاثى من : ركب : مركوب وبجانبها نجد : ركوبا وجزورا بدل : مجزور ، ورسولا بدل : مرسول .

وربما كانت صيغة (فعول) هى الأصل فى الاستعمال بدليل وجود بقايا لها ، ثم بمرور الزمن ضعف معناها على هذه الصيغة فحاولوا تقويتها بميم زائدة حتى تستعيد قوتها المعبرة فقالوا : مركوب ... وكذلك الميم فى اسم الآلة ، فانها اتصلت بالاسم فى مرحلة متأخرة للتأكيد ــ فأصبحت : مفعل ــ مثل : مِبرد ، والأصل : مايبرد ، فما موصولة فارغة من معنى الموصول ، ثم التصقت بها الميم ، فهذه الزوائد كما يراها بعض المحدثين ما هى الا كلمات مستقلة قديمة (٢) . وكذلك (مفعَل) فى اسمى الزمان والمكان انما جاء تطورا عن اتصال الميم سابقة بصيغة فعلية مضارعة مفتوحة العين .

---

(١) المخصص ١/١٦٤ ط أولى .
(٢) الفلسفة اللغوية ٩٣ جورجى زيدان .

وعندما قالوا ان اسم الآلة يأتى على : مفعال ومفعلة ومفعل ـ فالرأى أن الأصل هو : مفعال بصيغة المد ـ أما ما عداه ففرع منه ، ألا ترى أن الحركات فى العربية كانت فى القديم أحرف مد ثم اختفت وحل مكانها أحرف صغيرة ، ولهذا كان الخليل يسمى الضمة واوا صغيرة ، والكسرة ياء صغيرة ، والفتحة ألفا صغيرة ـ فالحركات فرع وأحرف المد الساقطة هى الأصل (١) •

٣ ـ حركية الصيغة بين الاصل والفرع :

معلوم أن الثلاثى المجرد له الأوزان الآتية : فعل • بفتح العين وكسرها وضمها والصيغة المضمومة وكذلك المكسورة يعتورهما تغيرات عدة لا سيما فى الأوزان الصرفية ، والقصد من هذه التغيرات هو التخفيف وتوفير الجهد الذى ينزع اليه العربى فى أثناء كلامه •

١ ـ فعل : بكسر العين سواء أكانت اسما أم فعلا حيث ينطق بها (فعل) بتسكين العين مثل : علم • فخذ ، وهذه التفريعات تختص بقبيلة تميم ، على حين أبقتها لهجة الحجاز على حالها بدون تفريع •

وبالاستقراء وجد أن صيغة : فعل بكسر العين يتفرع عنها :

أ ـ تسكين العين

ب ـ تسكينها بعد نقل حركتها الى الفاء فتصير فِعْل مثل : شِهْد فى حلقى العين • وكتف فى غير الحلقى •

جـ ـ فِعِل ، ويختص بما كان حلقى العين مثل : ضِحِك •

أ ـ فَعِل ـ بكسر العين وتفريعها الى فعْل بسكون العين :

وذلك مثل قوله تعالى : « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » (البقرة ٢٨٠) قرأ أبو رجاء ومجاهد والحسن وغيرهم ـ بكسر الظاء ، وهذا التسكين فى الظاء للتخفيف من نظرة ـ بكسر الظاء ـ

ب ـ وقد تتفرغ صيغة (فعَل) بكسر العين الى (فِعْل بسكونها) من ذلك :

---
(١) أنظر مقدمة لدرس لغة العرب ١٧٩ . العلايلى . ط العصرية .

قوله تعالى (بئسما اشتروا به أنفسهم) (البقرة ٩٠) فأصل بِئْس : بَئِس من البؤس سكنت همزتها ، ثم نقلت حركتها الى الباء ، قال الطبرى « وهى من لغة الذين ينقلون حركة العين من فَعِل الى الفاء اذا كانت عين الفعل أحد حروف الحلق الستة ، وذلك فيما يقال لغة فاشية فى تميم (١) . والغرض من هذا التفريع كراهة الانتقال من الأخف الى الأثقل ، ولهذا آثرت تميم تسكين العين والسكون أخف من الحركة .

جـ ـ فَعِل ـ بفتح الفاء وكسر العين وتفريعها الى (فِعِل) بكسر الفاء والعين .

وهذا لا يكون الا فى الحلقى العين كنَعِم وبَئِس فتقول فيها على التفريع : نعم وبئس بكسر الفاء والعين ، والاصل فيها : نعم وبئس بفتح فكسر ، وكسر الحرفين الأولين معزو الى تميم ، ولا يجيز الحجازيون فيها الا الأصل . ولقد علل الرضى هذا التفريع فى تلك الصيغة فقال : وانما جعلوا ما قبل الحلقى تابعا له فى الحركة مع أن حق الحلقى أن يفتح نفسه أو ماقبله كما فى (يدمَع) لثقل الحلقى وخفة الفتح فأتبع فاؤه لعينه فى الكسر (٢) وعلل سيبويه لهذا التفريع بأن حرف الحلق لا يناسبه الا الفتح ، ولم تفتح العين الحلقية هنا خوفا من أن تلتبس صيغة (فعل) بفتح العين مع صيغة (فعل) بكسرها ، فلما لزمت العين الكسر ، وهى حرف حلق ، وفى ذلك شىء من الثقل ـ أتبعوا الفاء العين ليحدث نوع من التخفيف بالميل من كسرة الى كسرة ، وذلك لأن اللسان يعمل فى جهة واحدة ، فيكون العمل على وجه واحد (٣) .

٢ ـ فَعُل ـ بفتح الفاء وضم العين وتفريعها الى فَعْل بفتح فسكون مثاله ما قرئ به « كبرت كلمة » (الكهف ٥) بسكون الباء

---

(١) تفسير الطبرى ٢٣٨/٢ . ط دار المعارف بالقاهرة . تحقيق محمود شاكر .
(٢) شرح الشافية ٤٠/١ . ط حجازى .
(٣) سيبويه ٢٥٥/٢ بولاق ، وانظر المخصص ٢١٣/١٤ .

فى كبر ، وعزيت لتميم [١]• على حين لا تفــرع الحجـاز فى تلك الصيغة ، قرأ زيد بن على « بمــا رحـبت » التوبة ١١٨ • بسكون الحاء [٢] ، ويجوز فى هذا التفريع أى صيغة (فعل) بفتح فضم أن تنقل ضمة عينه الى فائه فيــكون على وزن (فعل) بضم فسكون ، وبها قرىء « وحسن أولئك رفيقا » (النساء ٦٩) بضم الحاء وسكون السين • والنقل فى الحــركة هنــا لا يصح الا اذا لمحنا معنى التعجب فيها ، لأن التغيير فى اللفظ بالنقل صــحبه معنى آخــر زائدا وهــو التعجب • والتسكين كمــا كان فى الكلمة الواحــدة شمل الكلمتــين أيضــا ، ومن ذلك أنهم يسكنون هاء (هو) و (هى) اذا سبقهما واو أو فاء أو لام مثل : « وهــو بكل شىء عليم » ، « فهــو خير لكم » ، « لهى الحيوان » قرئت بسكون الهاء من الآيات السابقة ، والسبب فى هــذا التســكين أن (فهو) على وزن (فعل) فكما جاز أن نســكن (عضــد) فتــكون (عضــد) جاز تسكين الهــاء من (فهو) التى بوزن (فعل) فتصير (فهو وهو) بسكونها •

ويمكن أن نميز الأصل والفرع من هذه الصيغة ، ففى قوله تعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » (الكهف ٥١) فالصيغة الأصلية : عضد بفتح فضم ثم تطــورت الى عضد بفتح فسكون ثم أخيرا الى : عضد • بضم العين والضاد ، وهى متطورة عن الأصل ، ولأنها أخف من (عضد) بفتح فضم ، وقــد وردت قراءات قرآنية على الطــور الأول والثانى •

٣ ــ تفريع (فـعِل) بضم فكسر ولا يكون الا فى المبنى للمجهــول ومنــه :

أ ــ قول أبى النجم (لو عـُصِر منه البان والمسك انعصر) وأصلها : عـُصِر بالبناء للمجهول •

ب ــ وفى كتــاب (العققــة والبررة) ما عزى الى معبد بن قرط العبدى فى هجاء أمه :

---

(١) البحر المحيط ٩٧/٦ •

(٢) المرجع السابق ٢٤/٥ •

∴ (كأنما وجهها قد سفْع بالنار) (١) بسكون الفاء .

جـ — وقرأ أبو السمال « ولعنوا بما قالوا » . (المائدة ٦٤) بسكون العين ، ولقد حسنت هذه القراءة لأن الكسرة وقعت بين ضمتين » (٢) .

أما صيغة فَعَل — بفتح الفاء والعين — فلا تفريع فيها ، لأن الفتح خفيف فلا داعى للخروج عنه ، يقول سيبويه مؤيدا (وأما ماتوالت فيه الفتحتان ، فانهم لا يسكنون منه) . (٣) وأرى أن سيبويه ومن تبعه من علماء العربية قد جانبهم الصواب ، فقد خفف المفتوح بعض القراء (٤) ، أقول : وهم على حق ، اذ السكون أخف من الفتح ، لأنه يختصر المقاطع ويوفر المجهود ، وعلى ذلك قراءة أبى السمال وأبى المتوكل وأبى الجوزاء (الجَمْل) بفتح الجيم واسكان الميم ، وذلك فى قوله تعالى : « حتى يلج الجمل » (الأعراف ٤٠) .

ومما سبق يتضح أن اسكان البنية ، وهو ما سمى بالتفريع — كان من خصائص شرقى الجزيرة العربية وهو مرحلة متطورة عن الصيغ المتحركة التى هى الأصل وهذا الأصل كان فى قبائل الحجاز، يؤيد هذا ما جاء فى الخبر (نزل القرآن بالتفخيم) وقد اختلف الأئمة فى معنى (التفخيم) فبعضهم يرى أنه نزل بذلك (لعله يقصد الفتحة الصريحة) ثم رخص فى الامالة ، وبعضهم يرى : أنه يقرأ على قراءة الرجال ، لا يخضع الصوت فيه ككلام النساء ، وآخرون : أنه نزل بالشدة والغلظة على المشركين ، وبعضهم يرى أن المراد بالتفخيم : تحريك أوساط الكلم بالضم والكسر دون

(١) كتاب : العققة والبررة . لأبى عبيدة معمر ٣٦٥ ، تحقيق : عبد السلام هارون .

(٢) البحر المحيط ٥٢٣/٣ .

(٣) شرح السيرافى على سيبويه ٤١٦/٥ مكتبة تيمور . مخطوط ٥٢٨ (نحو) .

(٤) المحتسب ٣٠٧/١ مخطوط بالتيمورية رقم ٣٧٩ (تفسير) .

اسكانها (١) • وأرجح أن هذا المعنى الأخير هو المقصود دون غيره ، لأن من يرى أن معنى التفخيم نزوله بالشدة والغلظة على المشركين مردود ، لأن القرآن كما نزل بالغلظة نزل كذلك بالرحمة والرأفة ، والذى يؤيد ما أرجحه ما ورد عن أبى عبيدة من قوله : (أهل الحجاز يفخمون الكلام كله) (٢) ، وكأن المقصود هو نطق الحركات كاملة دون الجور عليها بالتسكين ، وذلك هو الأصل •

٤ ـ التوافق الحركى وعكسه ودلالتهما على الأصل والفرع

ومما يتصل بحركية الصيغة ما يتوارد عليها من توافق حركى أو عكسه ويكون هذا فى كلمة واحدة فى الأسماء أو الأفعال أو الظروف أو الضمائر ، وفى كلمتين ، واليك الأمثلة والشواهد :

أولا : التوافق الحركى فى كلمة :

١ ـ ويكون فى الأسماء وشواهده :

أ ـ سكارى • كسالى ، غيارى ـ بالضم والفتح (٣) •

ب ـ يقال فى الضأن : الضَّين ، والضِّين بالفتح والكسر (٤) •

جـ ـ قرأ أبو عمرو (ما أخلفنا موعدك بملكنا) بكسر الميم وقراءة العامة بالفتح (٥) •

د ـ فكاك الرقبة ـ بفتح الفاء وكسرها •

فالصيغة التى حدثت فيها المماثلة أو التوافق الحركى هى الفرع ، والأخرى هى الأصل •

٢ ـ ويكون فى الأفعال وشواهده :

أ ـ فرغ يفرغ ـ بوزن فعل يفعل ـ بفتح العين فيهما ، وبوزن فعل يفعل ـ بفتح العين فى الماضى وضمها فى المضارع •

---

(١) الاتقان : للسيوطى ١ / ٩٥ . ط حجازى .
(٢) المرجع السابق .
(٣) اصلاح المنطق ١٣٢ .
(٤) التذكير والتأنيث للسجستانى ١٢ مخطوط بدار الكتب رقم ٢٦٤ .
(٥) مفردة قراءة أبى عمرو بن العلاء ٥٨ مخطوط بمكتبتى .

ب ــ المشهور فى قبائل (الحجاز) أن أسماء الأفعال التى على وزن فعال ــ تبنى على الكسر ، وعن أبى حيان : أن (أسدا) تبنيها على الفتح [١] •

فلهجة أسد أحدث ، ولهجة قبائل الحجاز أقدم ، لعدم المماثلة •

جـ ــ وفى القرآن (سنفرغ لكم أيها الثقلان) قرأت تميم بفتح الراء ، والعامة بالرفع •

د ــ مضارع : مات ، يموت أو يميت ، ولكن (بنى طيىء) يقولون : (بمات) • فلهجة طيىء هى الفرع للتوافق الحركى ، وغيرها الأصل •

٣ ــ ويكون فى الظروف وشواهده :

حيث ــ بنصب الثاء على كل حال فى الخفض والنصب والرفع ، والنصب فى الثاء جاء لينسجم مع فتحة الحاء ، فاذا ورد أن بعض القبائل تقول : (حوث) [٢] ، بضم الثاء ، فأرجح أنها آثرت التوافق الحركى لأن الواو أصلها امتداد للضم ، فكأنهم جانسوا بين الواو والضمة •

٤ ــ ويكون فى الضمائر وشواهده :

أ ــ كقراءة ابن عامر « آيّهُ المؤمنون » • (النور ٣١) بضم الهاء ، فاللهجة آثرت التماثل •

ب ــ قراءة سلام : « نُؤْتِهُ منها » (الشورى ٢٠) بضم الهاء [٣] •

جـ ــ وقرأ حفص « وما أنسانيه الا الشيطان » ، « بما عاهد عليه الله » ، « قال لأهله امكثوا » [٤] وكان ابن شهاب الزهرى يضم تلك الهاء فى جميع القرآن ، لأنه مدنى حجازى • وأصل هاء الغائب ــ الضم • والحجاز يضمونها مطلقا ــ يعنى تبقيه على الضم وهو الأصل •

---

(١) التذييل والتكميل لأبى حيانى ٢٩/٥ مصور بجامعة القاهرة .
(٢) اللسان ٤٤٦/٢ .
(٣) البحر المحيط ٥١٤/٧ .
(٤) الهمع للسيوطى ٥٨/١ فما بعدها .

ثانيا : التوافق الحركى فى كلمتين :

١ ـ ويكون فى التقاء الساكنين :

أ ـ اخشوَا القوم ـ بفتح الواو ، وقوله تعالى : « اشتروَا الضلالة » بفتح الواو (١) « وأنتمُ الأعلون » (آل عمران ١٣٩) بضم الميم . « وقالتُ أخرج عليهن » . (يوسف ٣١) باتباع ضمة التاء فى قالت ـ ضمة الراء فى ـ أخرج .

وحكى أبو عمرو عن أهل (نجران) : « براءة مِنِ الله » : بكسر النون (٢) .

٢ ـ كما جاء فى غير التقاء الساكنين :

أ ـ قرأ بعضهم « فِإنهم لايكذبونك » ، (الانعام ٣٣) بكسر الفاء والهمزة (٣) ويقرءون : «وِإنا ظننا»(الجن ٥) بكسر الواو والهمزة . ويغلب عامل التوافق الحركى على هذه الشواهد ، لتمام النسق الصوتى وكماله ، فهى شواهد متطورة (فرع) عن (أصل) .

ب ـ ومثل ذلك قولهم : أخذه ماحدُث وماقدُم . وضمت الدال من حدث حين قرن بقدم ، لأجل كمال النسق الصوتى حفاظا على الموازنة ، والأصل فى : حدث ـ على وزن فَعَل ـ بفتح العين والضم : فرع عن هذا (الأصل) .

٥ ـ أبواب الثلاثى بين الأصل والفرع .

من المعروف الثابت أن فعل ـ بفتح العين يأتى مضارعه على يفعل بضمها ، ويفعل ـ بكسرها ، ويفعل ـ بفتحها ان كانت عينه أو لامه حرف حلق . وأن مضارع فِعل ـ بكسر العين يكون على يفعل ـ بفتحها ، وجاء كسر العين فى المضارع فى أفعال محصورة ، وأن مضارع فعُل ـ بضم العين لا يكون الا مضموم العين فى المضارع هذا هو نظام الفعل الثلاثى . فاذا وجدنا فعلا غاير

---

(١) الهمع للسيوطى ٢ / ٢٠٠ .
(٢) مختصر شواذ القرآن ٥١ لابن خالويه . نشره : برجشتراسر .
(٣) السابق ٣٠ .

هذا النظام بأن يكون ماضيه على فعل ـ بفتح العين ومضارعه على يفعل ـ بفتحها ، وليست عينه أو لامه حرفا من حروف الحلق . أو يكون ماضيهعلى فعِل ـ بكسر العين ومضارعه مضموم العين . أو يكون على فعُل ـ بضم العين ومضارعه خلاف ذلك قررنا بأنه من تداخل اللغات .

ومن القواعد الأساسية أنه دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضى لصيغة المضارع ، لأن الهدف افادة الأزمنة ، فجعل لكل زمان مثال مخالف لصاحبه ، وكلما ازداد الخلاف ، كانت فى ذلك قوة الدلالة على الزمان (١) ، والعدول عن المخالفة بين الماضى والمضارع لا يجوز الا لأمر طارىء ، وذلك اذا كان عين الفعل أو لامه حرفا من حروف الحلق ، اذ حروف الحلق ثقيلة ، لخروجها من أقصى الحلق ، والضم والكسر ثقيلان ، فلو جاء مضارعه على (يفعل) أو (يفعل) بضم العين أو كسرها ـ حال كون عين فعله أو لامه حرفا من حروف الحلق ـ لأدى الى الجمع بين الثقيلين ، فيجىء مضارعه على يفعل ـ بفتح العين ، لأن الفتح أخف الحركات ، وليكون خفة الفتحة فى مقابلة ثقل حروف الحلق (٢) ، ولهذا رأى النحاة أن الباب الذى اتفقت فيه حركة عين ماضية وحركة عين مضارعه فى غير باب فعل ـ بضم العين فرع عن غيره ـ أى أن الفتح فرع عن الضم والكسر ، اذ لو كان الفتح أصلا لجاء من غير قيد ولا شرط ، ولكنه قيد بكون الحرف حلقيا ، أما الضم والكسر فقد ورد بدون قيد . ولهذا نجد مواده فى المعاجم اللغوية أقل من مضموم العين أو مكسورها .

أما مضارع فعل ـ بضم العين ، فلم تختلف حركة العين فى مضارعه، لأنه يعتبر أصليا فى الثلاثى ، فهو لازم لا يتجاوز فعله الفاعل ، فأرادوا أن حركة عين الفعل الماضى لا تتجاوزها حركة عين المضارع

---

(١) الخصائص ٣٨٠/١ ط . الهلال .
(٢) شرح الجرجاوى على تصريف العزى ٣٠ .

لتكون حركتا عين الفعل (الماضى والمضارع) متوافقين ليدل اللزوم اللفظى على اللزوم المعنـوى حتى يكـون اللفظ مطـابقا للمعنى . ويرى الدكتـور أنيس أن صيغة فعل – بالضم – فرع عن فعل – بالفتح لأنه لا يلجـأ اليها الا حين يراد المبالغة فى معنى الحدث الذى تتضمنه الصيغة الأصلية (فعـل) بالفتح (١) .

أمـا باب نصر (الأول) وباب ضرب (الثانى) فكلاهما أصل . وأما باب فعل يفعـل – بالفتح فى الماضى والمضارع ففرع عنهمـا . وأما باب فعل – بالكسر . يفعل – بالفتح فأصلى أيضا ، لأن الأصل كما قلنا أن يخالف بين حـركتى عين الماضى والمضـارع فى اللفظ كما خالفه فى المعنى ، ولهذا يطلقون على كل من الباب الأول والثـانى والرابع (دعائم الأبواب) لأصالتها وكثرة المواد فى المعاجم العربيـة التى تتـواكب عليهـا . أما باب (فعل يفعل) بالكسر فيهما فقليل نادر ، يؤكد هذا أن قراءة حفص القرآنية لا تشتمل على باب (فعل يفعل) بالكسر فيهما طبقا لاحصائية فى الأفعال الثـلاثية الصحيحة فى القرآن الـكريم ، كمـا أن قراءة حفص قـد خلت أيضـا من باب (فعل يفعل) بالضم فيهما الا فعلين اثنين وهما : كبُر يكبُر وبصُر يبصُر بالضم فى الماضىوالمضارع .

د. احمد علم الدين الجندى

---

(١) فى اللهجات العربية ١٦٩ ط ٣ ، من أسرار اللغـــة ٣٨ ط ٢ . للدكتور أنيس .

حفيد النفس الزكية
من مواليد السند

للأستاذ السيد حسن قرون

فى سنة ١٥١هـ جرت مراسلات رسمية بين الخليفة أبى جعفر المنصور وواليه على السند بشأن غلام للثائر العلوى « عبد الله بن محمد بن عبد الله » وهذا الغلام من مواليد السند ، وأمه سندية ، وكانت نتائج المراسلات بعث الغلام وأمه الى المنصور بمدينة بغداد ، فكتب المنصور الى واليه بالمدينة يخبره بصحة نسب الغلام وبعث به اليه ، وأمره أن يجمع آل أبى طالب ، وأن يقرأ عليهم كتابه بصحة نسب الغلام ، ويسلمه الى أقربائه . وعرف الغلام فى التاريخ باسم « أبو الحسن محمد العلوى » ويقال له ابن الأشتر ، والأشتر أبوه ، وله قصة .

وقد بدأها الطبرى هكذا :

ولى المنصور « عمر بن حفص ابن عثمان بن أبى صفرة »(هزار مرد السند) فأقام بها حتى خرج محمد ابن عبد الله بالمدينة وأخوه ابراهيم بالبصرة ، فوجه محمد بن عبد الله ابنه « عبد الله » الذى يقال له الأشتر فى نفر من الزيدية الى البصرة ، وأمرهم أن يشتروا خيلا عتاقا ، ويمضون بها الى السند ، لتكون سببا فى الاتصال بالوالى عمر بن حفص ، وقد فعل ذلك لأن عمر كان له ميل الى آل أبى طالب ، وكان ممن بايع محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية قبل وصول بنى العباس الى الخلافة .

بلغ هؤلاء النفر بقيادة الاشتر العلوى البصرة والتقوا بالأمير الحسنى « ابراهيم عبد الله » وكان

قد ملك البصرة والأهواز وفارس وحوله جلة العلماء ممن يسمون فى ذلك الوقت أولى البصائر ، فأفضى بما قدم به الى عمه ابراهيم ، فرحب بالفكرة وأعانهم على شراء الخيل ، وابتهج لأن والى السند سيكون قوة الى قوتهم .. واجتمع للاشتر وأتباعه ما أرادوا من الخيل العتاق ، وركبوا البحر وبلغوا السند ، وكانوا فى هيئة تجار فى زيهم وحركاتهم فلما صاروا الى ولاية عمر بن حفص نزلوا واتجهوا اليه ، فلما كانوا بين يديه قالوا : نحن قوم نخاسون ومعنا خيل عتاق ، فأمرهم أن يعرضوا خيلهم ، فعرضوها عليه ، وأخذ يتأملها وينظر شياتها وملامحها ، فانتهزوا فرصة الحديث معه ، وتقدم اليه أحدهم ، فاستأذن منه أن يدنيه منه ليذكر له شيئا ، فأدناه منه وقال له : انا جئناك بما هو خير لك من الخيل ، ومالك فيه من خير الدنيا والآخرة ، وطلب منه الأمان على خلتين : قائلا له : اما أنك قبلت ما أتيناك به ، واما سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج من بلادك راجعين . فأعطاهم الأمان ، فقالوا : ماللخيل أتيناك ، ولكن هذا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم « عبدالله ابن محمد بن عبد الله بن حسن ابن حسن بن على » أرسله أبوه اليك ، وقد خرج بالمدينة ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وخرج أخوه ابراهيم بالبصرة وامتلكها ، وغلب عليها . والرجل له صلة قديمة بالنفس الزكية وكان ممن بايعه قبل أن تسقط الدولة الأموية فما كان منه الا أن رحب بهم ، وبسط وجهه لهم ، ثم بايعهم له ، وأمر بابنه أن يتوارى عنده ، ليتدبر الأمر ويهيىء النفوس له ، فدعا أهل بيته وقواده وكبراء أهل ولايته للبيعة فأجابوه ، وآن له أن يستبدل بالسواد البياض ، فقطع الأعلام البيض ، والأقبية البيض ، والقلانس البيض ، وهيأ لبسته من البياض يصعد فيها الى المنبر ، وحدد لما نواه يوم خميس ، وبينما هو فى شأنه وما أعده لنفسه وخاصته وولايته أتى ما قلب عليه عمله كله . فى يوم

الأربعاء قبل الخميس الذى حدده وافت الثغر (حراقة) : سفينة بها مرامى نيران للعدو ، وافت هذه الحراقة من البصرة فيها رسول « لخليدة بنت معارك » زوجة عمر ابن حفص معه كتاب منها الى زوجها تخبره باخفاق محمد « النفس الزكية » فى ثورته وقتله ، واستقرار الأمر للخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، فتحير الرجل ثم تماسك ، وكان شجاعا ذكى القلب ، فدخل على عبد الله بن محمد فى مكمنه وعزاه فى فقد أبيه . ثم قال له : اننى كنت بايعت لأبيك وقد جاء من الأمر ما ترى ، فقال له عبد الله وهو حزين حائر : ان أمرى قد شهر ، ومكانى قد عرف ، ودمى فى عنقك ، فانظر لنفسك أو دع . قال الوالى عمر : قد رأيت رأيا ، ها هنا ملك من ملوك السند عظيم المملكة ، كثير الأتباع وهو على شركه أشدالناس تعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو رجل وفى ، فأرسل اليه واعقد بينك وبينه عقدا أو عهدا ، وأوجهك اليه تكون عنده ، فلست ترام معه .

قال عبد الله : افعل ما شئت .

وذات يوم رحل عبد الله الأشتر العلوى الى ملك السند بمعونة عمر بن حفص فوجد ماحدثه به عمر كاملا كما يحب ويرضى ، وجد اكرام ملك السند وبره ، وحفاوته به وبشره وترحيبه ، وتسامعت الزيدية بما لاقاه عبد الله عند هذا الملك الكريم فتسللوا اليه لواذا حتى صار اليه منهم اربعمائة رجل من أهل البصائر ، فكان عبد الله يركب فيهم فيصيد ويتنزه فى هيئة الملوك وآلاتهم . هكذا يقول الراوى .

وانتهى خبر عبد الله الأشتر الى المنصور ، والمنصور حازم يقظ يحرس ملكه بكل ما يملك من جند وقوة ، بل يسهر الليل والناس نيام ، وينظر الى كل اقليم فى ضوء ما يأتيه من أخبار ، وثورة بنى الحسن من العلويين نبهت مناصرا المعيا لوذعيا لا يعرف الهوادة

واللين لا بعدوه ولا بنفسه ، فلما جاءته أخبار هذا الفتى العلوى وما هو عليه من الأمن والاطمئنان زادته اهتماما وهما ، وامتلأ فؤاده قلقا ، وبلغ منه الأمر مبلغا نغص عليه انتصاره وحياته فكتب الى عمر بن حفص يستطلع كنه مابلغه ، فجمع عمر بن حفص قرابته وقرأ عليهم كتاب المنصور اليه وقال لهم : ان أقر بالقصة لم ينظره المنصور أن يعزله ، وان صار اليه قتله ، وان امتنع حاربه ، وسكت القوم مفكرين فى الأمر وعواقبه ، فانبرى فتى من أهل بيته وقال لعمر : ألق الذنب على ، واكتب اليه بخبرى ، وخذنى الساعة فقيدنى ، واحبسنى فلم يكن ليقدم على لموضعك فى السند ، وحال أهلك بالبصرة . قال انى أخاف عليك خلاف ماتظن. قال الفتى : ان قتلت أنا فنفسى فداؤك ، فان حييت فمن الله ، فأمر به فقيد وحبس . وكتب الى المنصور يخبره بذلك ، فكتب اليه المنصور بحمله اليه ، فلما صار اليه قدمه فضرب عنقه . ولكنه لم يشف غلته وما زال ظنه بعمر سيئا ، ، وأخذ يفكر فيمن يوليه السند بدل عمر بن حفص ، ويقول : فلان وفلان ، ثم يعرض عنه ، فهو يريد رجلا خالصا له مخلصا لدولته ، ولكن المصادفات تفعل الأعاجيب . أقبل المنصور من رحلة فى زينته ، وفى موكب نبيل، وأبهة فائقة ، وكان فى موكبه (هشام بن عمرو التغلبى) ونظر اليه المنصور وهو ينصرف الى قصره ، فلما نضا عنه ثياب الرحلة دخل عليه الربيع فآذنه بهشام التغلبى .

قال المنصور : أو لم يكن معى آنفا ؟ قال الربيع : ذكر لهحاجة ، عرضت له مهمة ، فدعا بكرسى فجلس عليه ، ثم أذن له . فلما مثل بين يديه قال : ياأمير المؤمنين ، انى انصرفت الى منزلى من الموكب فلقيتنى أختى ، فرأيت من جمالها وعقلها ودينها ما رضيتها لأمير المؤمنين ، فجئت لأعرضها عليه ، فأطرق المنصور ، وجعل ينكث

الأرض بخيزرانة فى يده...وقال : اخرج يأتك أمرى ، فلما ولى قال : يا ربيع لولا بيت قاله جرير فى بنى تغلب لتزوجت أخته والبيت هو :

لا تطلبن خئولة فى تغلب
فالزنج أكرم منهم أخوالا

فأخاف أن تلد لى ولدا فيعير بهذا البيت ، ولكن اخرج اليه فقل له : يقول لك أمير المؤمنين ، لو كانت لك حاجة الىّ لم أعدل عنها غير التزويج ، ولو كانت لى حاجة الى التزويج لقبلت ماأتيتنى به ، فجزاك الله عما عمدت له خيرا ، وقد عوضتك من ذلك ولاية « السند » وأمره أن يكاتب الملك الذى آوى عبد الله العلوى فان أطاعه وسلمه اليه والا حاربه. وجد المنصور ضالته فى هشام هذا ، وكتب الى عمر بن حفص بولايته « افريقية » فخرج هشام التغلبى الى السند فوليها ، وأقبل عمر بن حفص يخوض البلاد حتى صار الى افريقية ، وحمد الله اذ نجا .

كان هشام يرجو مصاهرة الخليفة ، ليكون له شأنه ووزنه فى بغداد ، هو ذا يتولى أمر السند ببلاد الهند ، ومطلوب منه أن يستحوذ على العلوى الفار من وجه المنصور ، وأن يقتله ويرسل برأسه اليه ، واعتقد فى نفسه أن الذى اختير له صعب الأداء ، فظيع الغاية ، ان سلم من المنصور لم يسلم من الآخرة ، وابن رسول الله لم يهج أحدا ، ولم يتعرض لبلاده ، والملك الذى ينزل عنده مسالم ، لم يعبث بالجوار ، ولم يحاد الدولة الاسلامية ولم يناهضها وما جال فى ذهنه أن فى ايواء رجل مثل العلوى ما يثير الخليفة فى بغداد ، وما دار فى خلده ما دار فى خلد هشام حين انتدب لهذه الغاية ، ان هشاماً يعرف من الخليفة شمائل تقض مضجعه ، وتهز كيانه ، وتجعله يفكر فى أمره بياض النهار وسواد الليل ، فالرجل الذى لم يرحم عمه ، ولم تعطفه قرابة ، ولم يرده جميل كيف يخالف عن أمره ، فلتكن المطاولة والتأنى سبيله الى اجابة

مطالبه ، ولتكن الأيام كفيلة بحل معضلاته ، وراح يرى الناس أنه يكاتب الملك ويرفق به علّه يستجيب لطلبه ، فيسلم اليه العلوى وكفى الله المؤمنين القتال ، على حين أنه لا يكاتب الملك ولا يفكر فى القبض على العلوى أو قتله ، وما أشك فى أنه كان بمسلكه يعرض نفسه للكوارث لا يعلم الا الله مداها ، فكل من كان فى الدولة الاسلامية حينذاك كان يعرف سطوة المنصور وبطشه ، وأن له عيونا يبثها فى الأمصار فتأتيه الأخبار جديدة فى أوانها حتى لقد قر فى الأذهان أن المنصور وقعت فى يده مرآة أبينا آدم وبها يعرف ما يجرى فى المعمورة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ذلك أن الحاكم اذا صار عنيفا مخيفا دارت حوله الأساطير ، وخافه القريب والبعيد على السواء ، فلما جاءت رسائله الى هشام يستحثه على قتل العلوى أو الهجوم على ملك السند اذا لم يسلم العلوى أخذته رعشة تركته لا يدرى ماذا يصنع ؟ كان يظن أن المطاولة والتباطؤ ينفعه ، أيغير طريقته ؟ أيطالب ملك السند بتسليم ذلك اللاجىء ؟ واذا امتنع أيحاربه ؟ ليس له حق الحرية فى الاختيار ، ولو استقبل من أمره ما استدبر لرفض أن يكون واليا ، وواليا قاتلا أيترك الأمر للمصادفة ؟ انه يريد حلا ، وقد جاءه الحل مصادفة ، كيف كان ذلك ؟ يقول التاريخ :

خرجت خارجة ببعض بلاد السند ، أى قامت ثورة فى ولايته لأمر لم يذكره الرواة ، فوجه اليهم أخاه « سفنجا » فخرج سفنج يجر جيشا عرمرما ، وطريقه بجنبات ملك السند ، فبينما هو يسير اذا هو برهج قد ارتفع من موكب ، فظن أنه مقدمة للعدو الذى يقصده ، فبعث طلائع من جيشه ليجلو الخبر ، فذهبت ثم رجعت فقالت : ليس هذا عدوك الذى تريد ، ولكن هذا عبد الله العلوى ركب متنزها ، انه يسير على شاطىء مهران ، فمضى يريده فقال خلصاؤه ينصحونه : هذا ابن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن أخاك تركه متعمدا مخافة أن يبوء بدمه ولم يقصدك ، انماخرج متنزها وخرجت تريد غيره فأعرض عنه ، وكان فتى غمرا لم يجـرب الأمور يستعجل الوصول الى غاية فى نفســه ولو أدى ذلك الى ترك المروءة والنبل ومكارم الأخلاق ، قال : ما كنت لأترك أحدا يحوزه، ولا أدع أحدا يحظى بالتقرب الى المنصور بأخذه وقتله.وكان العلوى فى عشرة من أصحابه ، وفى غفلة مما يريده سفنج ويتوق اليــه ، فقصده سفنج ، وصاح فى جنوده وحثهم على قتالهومن معه ، وحمل وحملوا عليه .

لم يفكر عبد الله بن محمد العلوى فى الهــرب ، بل دفعتــه همتــه وهاشميته الى أن يتصدى لذلك الجيش الكبير فقاتل قتالا عظيمـا وقاتل أصحابه بين يديه حتى قتل وقتلوا معه ، ولكن أصــحابه حين قتل ضيعوا على سفنج فرصة أخذ رأسه ، فما أن سقط شهيدا حتى قذفوا به فى نهر مهران ، ولحق بآبائه ممن بذلوا أرواحهم دفاعــا عن الدين أو العرض .

هل حلت مشكلة هشام التغلبى بما جرى مصــــادفة ؟ كتب الى المنصور أنه قصد العلوى قصدا ، فقاتله وقتله .

فكتب المنصور اليه يحمد أمره ، ويأمره بمحاربة الملك الذى آواه ، فلم يجد بدا منحربه ، عبأ جيشه وأعد نفسه واقتحم ديار ذلكالملك، وكانت قــوة الجيش الاســلامى ظاهرة ، ودارت المعــركة وانتصر هشام ، واستولى على تلك البلاد.

وكان عبد الله العلوى قد اتخذ جوارى حين نزوله بجــوار ذلك الملك الكريم فأولد منهن واحــدة فلما صارت بيد هشام أرسلهــا وابنها الى أبى جعفر المنصــور ، فكان منه ما أشرنا اليــه فى أول الحديث ، فأبو الحسن محمد بــن عبد الله العلوى مــن مواليد السند وسيــكون له شــأن فى البيت العلوى .

السيد حسن قرون

من آداب وشروط القضاء فى الإسلام

المستشار محمد عزت الطهطاوى

القضاء لغة :

يعنى الحكم قال الله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه) (سورة الاسراء ٢٣) أى حكم ربك ألا تعبدوا الا اياه ٠

أما القضاء شرعا :

فهو كما يقول ابن رشد (الاخبار عن حكم شرعى على سبيل الالزام) أى أن فيه الزاما من السلطان على تنفيذ حكم القاضى ٠

الفرق بين القضاء وعلم الفتوى :

هما يشتركان فى أن كليهما اخبار عن حكم شرعى الا أن علم الفتوى لا الزام فيه بعكس القضاء ففى حكمه الزام لذلك فان المفتى يكون أقرب الى السلامة من القاضى لأنه لا يلزم بفتواه ٠ وانما يخبر بها من استفتاه فان شاء قبل قوله وان شاء تركه ٠

وأما القاضى فانه يلزم بقوله لذلك كان خطره أشد ــ وقد كره العلماء للقاضى أن يفتى فى مجلس القضاء لئلا يلتبس الامر على العوام ــ وقد نقل عن القاضى شريح انه سئل مرة عن مسألة الحبس فقال (انما أقضى ولست أفتى) ٠

أهمية القضاء فى الآسلام :

لما كان الاسلام هو الدين العام على وجه الأرض يجمع بين الدين والدنيا ربط بين الأمور الاعتقادية وبين شئون المعاملات ارتباطا وثيقا لا يقبل التحلل منها بأى حال من الاحوال لذا كان من وظيفة النبى محمد صلى الله عليه وسلم

فوق الارشاد والتوجيه وتربية النفوس الفصل بين الخصومات والحكم فى المنازعات بين المسلمين طبقا لموازين العدل التى قررتها شريعة الاسلام والمتدبر لمنهج القرآن الكريم يرى أنه بعد تقريره التوحيد والتحذير من الاشراك بالله قرر اقامة موازين العدالة والقسط بين الناس صيانة لحقوقهم وحفاظا على أموالهم وأعراضهم •

ما كان يجب توافره فيمن يرشح لمنصب القضاء :

قال أبو يعلى الفراء — لا يجوز تقليد القضاء الا لمن كملت فيه الشرائط الآتية وهى :

الذكورية — والبلوغ — والعقل — والحرية — والاسلام — والعدالة والسلامة فى السمع والبصر — والعلم •

١ — أما الذكورية فان المرأة تنقص عن كمال الولايات وقبول الشهادات بقول الله سبحانه وتعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » ، (سورة النساء ٣٣) فلم يجز أن يقمن على الرجال • وقد جاء فى صحيح البخارى من حديث أبى بكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : (لن يفلح قوم وليتهم امرأة) الا ان الامام الاعظم أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه جوز قضاءها فيما تصح فيه شهادتها وهى فيما سوى الحدود والقصاص •

٢ ، ٣ — وأما البلوغ والعقل فلأن الصبى والمجنون لا يليان على أنفسهما فأولى أن لا يليا على غيرهما ولأن طريق الاجتهاد فى الحوادث وأعيان الشهود معدومة فيهما •

٤ — وأما الحرية فلأن العبد ليس من أهل الولايات ولا كامل الشهادات يقول الماوردى (ان نقص العبد عن ولاية نفسه يمنع انعقاد ولايته على غيره) لكن الرق لم يكن مانعا للرقيق أن يفتى أو أن يروى لعدم شرط الولاية فى الفتوى والرواية •

٥ ــ وأما الاسلام

فلأن الفاسق المسلم لا يجوز أن يلى فأولى أن لا يلى الكافر ويقول الماوردى لكونه شرطا فى جواز الشهادة مع قوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » (سورة النساء ١٤١) فلا يجوز أن يقلد الكافر القضاء على المسلمين ولا على الكفار . لكن الامام أبو حنيفة رضى الله عنه جوز تقليده القضاء بين أهل دينه لكن اذا امتنعوا من تحاكمهم اليه لم يجبروا عليه وكان حكم الاسلام عليهم أنفذ .

٦ ــ وأما العدالة

فلأن الفاسق متهم فى دينه والقضاء طريقه الامانات . قال الماوردى فى الأحكام السلطانية (والعدالة معتبرة فى كل ولاية) وهى أن يكون صادق اللهجة ظاهر الأمانة عفيفا عن المحارم متوقيا المآثم بعيدا عن الريب مأمونا فى الرضا والغضب مستعملا لمروءة مثله فى دينه ودنياه ــ فاذا تكاملت فيه فهى العدالة التى تجوز بها شهادته وتصح معها ولايته وان انخرم منها وصف منع من الشهادة والولاية فلم يسمع له قول ولم ينفذ له حكم .

٧ ــ وعن السلامة فى السمع والبصر :

فليعرف المدعى من المنكر ولا يتحصل هذا للضرير ولا للاطرش ويقول الماوردى فى كتابه السابق الاشارة اليه (السلامة فى السمع والبصر) ليصح بها اثبات الحقوق ويفرق بين الطالب والمطلوب ويميز المقر من المنكر ليتميز له الحق من الباطل ويعرف المحق من المبطل فان كان ضريرا كانت ولايته باطلة لكن الامام مالك جوز ولايته كما جوز شهادته وان كان أصم .

٨ ــ وأما العلم فلا بد أن يكون ملما بالعلم الشرعى الضرورى عالما الاحكام الشرعية ومعرفتها تتقفف على معرفة أصول أربعة هى :

أولا : المعرفة من كتاب الله بما تضمنه من الاحكام .

ثانيا : العلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : علمه بأقاويل السلف فيما أجمعوا عليه وفيما اختلفوا فيه .

رابعا : علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها .

ولقد زاد بعض العلماء على الشروط السابقة شرطا آخر وهو الفطنة ولا خلاف فى أن القاضى يجب أن يكون على فهم وادراك وفطنة فيما لم يرد فيه نص صريح وهذه موهبة من الله زائدة على العلم الشرعى الضرورى وعن هذا الفهم يقول سبحانه وتعالى : « وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » (سورة الانبياء ٧٨ ، ٧٩) .

وبهذا الفهم توصل شاهد يوسف عليه السلام بشق القميص من دبره الى الحكم ببراءته وصدقه وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم » (سورة يوسف ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) .

وعن هذا الفهم يقول النبى صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) ، ودعا لعبد الله بن عباس فقال : (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه دعا له أن يزيده علما وفهما .

ذلك أن الحق يكون متواريا مع أحد الخصمين فاذا لم يكن القاضى فطنا على قدر من الفهم يصعب عليه تبيان الحق بينهما والقضاء به لأن الخصمين يتحاجان أمامه بأدلتهما وبراهينهما مما يعجزه أحيانا عن التمييز بينهما

والى هذا يشير النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه بقوله : (انما أنا بشر مثلكم وانكم تختصمون الى ولعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئا فانما أقطع له قطعة من نار) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الشهادات .

ويستقى من الحديث الأخير أن حكم القاضى لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ولكن حكمه واجب التنفيذ سواء أصاب الحق أو لم يصبه بعد أن توافرت لديه شهادات من استشهد بهم الخصوم أو البينات التى تقدموا بها فى مجلس القضاء فاذا لم يكن القاضى على قدر من الوعى والفهم ضاعت الحقوق وسادت الفوضى وتعطل النظام وفقدت الطمأنينة على الانفس والأموال والأعراض .

وعن هذا الفهم يقول الامام ابن القيم فى كتابه اعلام الموقعين (صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التى أنعم بها على عبده — بل ما أعطى عبد عطاء بعد الاسلام أفضل ولا أجل منهما بل هما ساقا الاسلام وقيامه عليهما)

أهم الآداب التى وردت بشأن القضاء

هذه الآداب ورد ذكرها فى الصحاح والسنن وذكرها العلماء فى مصنفاتهم مما يجب على كل مشتغل بالقضاء مراعاتها والتقيد بها عند قيامه بالفصل بين الناس .

أولا — عدم القضاء فى حالة الغضب :

ذلك لأن الغضب كما يقول علماء النفس ينشأ من غليان الدم فيعمى الرجل عن معرفة الحق من الباطل — وشريعة الاسلام قائمة على احقاق الحق وابطال الباطل — يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان) رواه مسلم والترمذى والنسائى « لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان » . رواه البخارى فى كتاب الأحكام .

ثانيا : لا يقضى حتى يسمع من الخصم الآخر :

والى هذا يشير النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (اذا تقاضى اليك رجلان فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر فسوف تدرى كيف تقضى) أخرجه أبو داود والترمذى فى سننهما والحاكم فى المستدرك .

ثالثا — التسوية فى جلوس الخصمين بين يدى القاضى :

لأن عدم التسوية بينهما يؤدى الى اكرام أحد الخصمين مما يشجعه على الظلم والتمادى فيه قال محمد بن نعيم عن أبيه (شهدت أبا هريرة رضى الله عنه يقضى فجاء الحارث بن الحكم فجلس على وسادته التى يتكىء عليها قال فظن أبو هريرة أنه جاء لحاجة غير الحكم قال فجاء رجل فجلس بين يدى أبى هريرة فقال له مالك فقال استأدى على الحارث فقال أبو هريرة قم فاجلس مع خصمك فانها سنة أبى القاسم) ولفظ استأدى يعنى استعدى رواه وكيع فى أخبار القضاة والحارث بن أبى أسامة فى مسنده .

رابعا — التسوية من جانب القاضى فى نظره واشارته الى الخصوم :

وذلك حتى لا يتوهم أحد الخصمين أن القاضى يميل الى صاحبه فيضعف عن الاستمرار فى مطالبته بحقه .

والى هذا يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه فيقول (من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظه واشارته ومقعده ومجلسه) أخرجه البيهقى والدارقطنى فى سننهما عن أم سلمة رضى الله عنها .

خامسا — الا يرفع القاضى صوته على أحد الخصمين دون الآخر :

والى هذا يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : (من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فلا يرفع صوته على أحد الخصمين ما لم يرفع على الآخر) أخرجه البيهقى والدارقطنى فى سننهما عن أم سلمة رضى الله عنها .

سادسا ــ عدم استضافة أحد الخصمين دون الآخر :

روى اسماعيل بن مسلم عن الحسن قال نزل على على بن أبى طالب رضى الله عنه رجل وهو بالكوفة ثم اختصم اليه فقال له على هل أنت خصم ؟ قال نعم قال فتحول فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نضيف الخصم الا وخصمه معه ــ وذلك لكمال المساواة بينهما رواه الطبرانى •

سابعا ــ ان لا يسمع القاضى الدعوى من الخصمين حتى يجلسا :

وذلك حتى يؤدى كل خصم بما لديه من أقوال ودفاع بهدوء واطمئنان روى عن عبد الله بن الزبير قال قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس الخصمان بين يدى القاضى رواه أبو داود والبيهقى فى سننهما والحاكم فى المستدرك •

ثامنا ــ التسوية بين الشريف وغير الشريف وبين العبد والحر :

فالناس فى دين الله سواء وكذلك شأنهم أمام القضاء لا فضل فيه لشريف على مشروف ولا لرفيع على وضيع ولا بين الحر والعبد وبين الصغير والكبير وبين الغنى والفقير وبهذا تتحقق المساواة الحقيقية فى المجتمع الانسانى •

والى هذا يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله :

(الناس كالابل المائة لا يجد الرجل فيها راحلة) أى لا تكون فيها الذلول التى ترحل وتركب اشارة الى أن القاضى لا يفرق بينهم فى حكم الله •

أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابن عمر رضى الله عنهما •

تاسعا :

ألا يقبل الشفاعة أو الوساطة لأى من المتقاضين مهما كانوا فعن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا ومن يجترىء عليه الا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه

وسلم ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : (انما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) متفق عليه — وفى رواية (فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم) فقال : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟ فقال أسامة استغفر لى يا رسول الله ، قال : ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها) .

أورد ذلك الامام محيى الدين أبو زكريا النووى فى كتابه رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين فى باب تحريم الشفاعة فى الحدود وأورده الامام البخارى بلفظ آخر فى باب كراهية الشفاعة فى الحد :

عاشرا — أن يجتهد القاضى فى أن ينحرى العدل فى حكمه ما أمكنه ذلك .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان المقسطين عند الله على منابر من نور الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا) رواه مسلم وذكره الامام محيى الدين أبو زكريا النووى فى كتابه رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين فى باب الوالى العادل .

حادى عشر :

ألا يتبع القاضى الهوى فى حكمه .

ثانى عشر :

ألا يخش الناس مهما كانوا .

ثالث عشر :

ألا يشترى بحكمه ثمنا قليلا .

قال الحسن : أخذ الله على الحكام ألا يتبعوا الهوى ولا يخشوا الناس ولا يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ثم قرأ « يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين

يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » .

وقرأ « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا (استودعوا) من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس وأخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وقرأ « وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان » ولم يلم داود ولولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا فانه أثنى على هذا بعلمه وعذر هذا باجتهاده ــ هذا ما أورده البخارى فى باب متى يستوجب الرجل القضاء فى كتاب الاحكام .

رابع عشر :

أن يكون القاضى فهما حليما عفيفا صليبا عالما سؤولا عن العلم قال مزاحم بن زفر قال لنا عمر بن عبد العزيز (خمس اذا أخطأ القاضى منهن خصلة كانت فيه وصمة ــ أن يكون فهما حليما عفيفا صليبا عالما سؤولا عن العلم) هذا ما أورده البخارى فى الباب السابق متى يستوجب الرجل القضاء فى كتاب الاحكام .

خامس عشر ــ الا يقضى القاضى الا وهو شبعان ريان .

وذلك لأن شدة الجوع والعطش تحول بين الانسان وأفكاره فتصرفه عن معرفة الحق والى هذا يشير النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه فيقول (لا يقضى القاضى الا وهو شبعان ريان) أخرجه البيهقى والطبرانى عن أبى سعيد وكان شريح القاضى اذا غضب أوجاع قام فلم يقضى بين الناس .

سادس عشر ــ ألا يأخذ القاضى فى حكمه بالظنة والشبهة .

فعلى القاضى ألا يقضى فى حكمه بالظنة والشبهة والا يحكم بغير دليل فاذا لم يكن هناك دليل قاطع على الادانة فان البراءة

أولى طبقا لقواعد الاسلام ومنهجه فقد ورد فى الأثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم (فان الامام أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة) (١) .

ومن هذا الأثر أخذ رجال القانون القاعدة التى تقرر أن الشك يفسر لصالح المتهم . وهذا المبدأ يعتبر من المبادىء الاساسية فى القضاء الجنائى .

هذه بعض من الآداب الهامة التى كان من اللازم أن يتحلى بها رجال القضاء فى صدر الاسلام ، فهلا قامت الاجهزة المشرفة على القضاء فى الدول الاسلامية فى زماننا المعاصر بتوجيه نظر القضاة اليها والتحلى بها تحقيقا للعدالة وصيانة لسمعة القضاء وحرصا على مصالح المتقاضين ! .

المستشار
محمد عزت الطهطاوى

---

١ ـ وهو جزء من حديث نصه هو كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله ـ فان الامام ان يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة) أخرجه الترمذى والحاكم والبيهقى وأبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا ـ وأخرجه ابن حزم فى الأيصال بسند صحيح .

من أعلام التصوّف القدامى فى اليمن

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

مقـدمة :

جئت الى هـذا القطر العربى الشقيق « جمهورية اليمن العربية » منذ ما يزيد على أربعـة أشهر ، وفى ذهنى أشياء كثيرة ، فهـذه أول مرة تقريبا أغادر فيها مصر ، ولا أبالغ حيـن أقـول : اننى لم أشعر حين هبطت اليمن بالغربة . فقد وجدت بأننى فى مصر الا أن أهلها قد غيـروا مـن أزيائهـم وانطبعوا بزى قـومى مـوحد ، وغيـروا من لغتهـم فأصبحـوا يتحدثون بلهجة فيها الكثير جـدا من الفصحى ، أما المعـاملة فهى التى أعنيها بأننى لم أشعر بالغربة التى كنت أتوقعها ، فقـد رأيت قوما يكنون لمصر والمصريين كل احترام وحب وود . وحسبك فى هذا مقالا قرأته فى جريدة الثورة اليمنية كتبه الدكتور عبد العزيز المقالح يقول فيه ما معنـاه : ان أول مصحف قرأه كان مطبوعا فى مصر ، وأول ديوان اطلع عليه كان لشاعر مصرى وأول تعليم تعلمـه كان عـلى يد مـدرس مصرى ، فلمصر فضـل لا ينسى وحـق لا يجحد .. الى آخـر ما جاء فى هـذا المقـال .

وبحثت عن مكان التصوف فى هذا البلد العريق الذى كان الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أول مبعوث وجهه النبى صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، والامـام علىّ هو أبو التصوف ، ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن عجيبة فى كتابه ايقـاظ الهمم : « واضع هذا العلم هـو النبى صلى الله عليه وسلم ، علمـه

الله له بالوحى والالهـام ، فنزل جبريل بالشريعة فلما تقررت نزل ثانيا بالحقيقة فخص بها بعضا دون بعض .. وأول من تكلم فيه وأظهره سيدنا على كرم الله وجهه وأخـذه عنـه الحسن البصرى » ويؤيـد العقـاد رحمـه الله هـذا الرأى بقوله فى كتابه عبقـرية الامـام ص ٣٠ ط دار المعارف سلسـلة اقرأ : « قال ابن أبى الحديد : ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف ، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن فى جميـع بـلاد الاسلام اليه (أى الى على كرم الله وجهه) ينتهون وعنـده يقفون ، وقد صرح بذلك الشبلى والجنيد وسرى وأبو يزيد البسطامى وأبو محفوظ معروف الكرخى وغيرهم ، ويكفيك دلالة على ذلك الخـرقة التى هى شـعارهم الى اليـوم وكونهـم يسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام » ثم يعلق العقاد على ذلك قائلا : « وقد جمع نهج البلاغة نمـاذج شتى من الكلمات التى تنسب اليه ويصح أن تصلح أصـلا للعـلم الالهى أو لأسرار التصوف فى صـدر الاسلام قبـل اشتغال المسلمين بفلسفة اليـونان وحكمة الأمم الأجنبية ، وربما وقع الشك فى نسبة بعض هذه الكلمات الى الامام على رضى الله عنه لأنها تجمعت بعـد عصره بزمن طـويل وامتزج بها مالا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده ، ولكن شيئا على هذا النهج لا بد أن يكون قـد صدر منـه حقا حتى جاز أن يتصـل النسب بينـه وبين أئمـة التوحيـد وعلم الكلام على النحو الذى تواترت به الأقوال وأجمـله ابن أبى الحديد فيما تقدم .

فليس بغريب أن يترك الامام على كرم الله وجهه أثرا من آثاره الروحية الفياضة فى هذه البقعة التى تتابع فيها الصحابة الأجلاء وباركها النبى صلى الله عليه وسلم بدعائه حيـن بشر بمجىء وفد اليمن قبل قدومه الى المدينة بقوله : « يقدم قوم هم أرق منكم قلوبا » .فقدم الأشاعرة الذين حثهم الشوق الى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحـابه فجعلوا يرتجزون :

غدا نلقى الأحبة ..
محمدا وصحبه

ولقد أكرم النبى صلى الله عليه وسلم وفادتهم حين علم أن مجيئهم اليه لم يحركه غير الاخلاص لهذا الدين الذى استجابوا اليه طائعين بمجرد أن عرضه عليهم رائد منهم ذهب الى يثرب متاجرا وهو « منقذ بن حيان » ولقيه النبى صلى الله عليه وسلم وعرض عليه الاسلام فأسلم طائعا وعلمه النبى صلى الله عليه وسلم الفاتحة وسورة اقرأ ، وكتب معه كتابا الى قومه .

وأحسن القوم الاستجابة لهذا الكتاب فتجهزوا للوفادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام الثامن الهجرى قبل الفتح ، وفى هذا الوفد عبد القيس أبو موسى الأشعرى ، والأشج العصرى واسمه المنذر بن عاينة ، وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم هذا الوفد بقوله : أتاكم وفد عبد القيس خير أهل المشرق ، مرحبا بالقوم غير الخزايا ولا الندامى ، وتتابعت لوفود بعد ذلك فى العام التاسع الذى يسمى بعام الوفود حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتاكم أهل اليمن ، هم ألين قلوبا وأرق أفئدة ، الايمان يمان والحكمة يمانية .

وليس بغريب أن يترك هؤلاء الصحابة الأجلاء الذين تولوا الامارة على اليمن ومنهم معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعرى والبراء ابن عازب وغيرهم من كبار الصحابة . ليس بغريب أن يتركوا الأثر الروحى الكبير الذى نرجو أن يعود قويا زاخرا كما كان فى عهد الأسلاف الأول الصالحين .

تاريخ عريق لليمن :

ولليمن تاريخ عريق فى الاسلام وقبل الاسلام ، والذى يذكر لليمن بالفضل والتقدير أن أهله استجابوا لله ورسوله وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ويقول بعض المفسرين : ان سورة النصر : « اذا جاء نصر الله والفتح ..» نزلت فى أهل اليمن .

جاء ذلك فى كتاب : (هذه هى اليمن) .

وأصبح اليمانيون أكبر عون للخلفاء الراشدين فى نشر الاسلام، فلم يكادوا يسمعون بدعوة سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه للجهاد حتى هب عدد كبير من قبيلة « ذى الكلاع » بقيادة زعيمها « ذى الكلاع الحميرى » ومن قبيلة « مذحج » بقيادة زعيمها « قيس بن هبيرة » ومن قبيلة « الأزد » بقيادة زعيمها « جندب ابن عمرو الدوسى » ومن قبيلة « طىء » بقيادة زعيمها « حابس بن سعد الطائى » ووصل هؤلاء جميعا الى الصديق رضوان الله عليه فى يوم واحد ، وكان عددهم يزيد على عشرين ألفا بكامل سلاحهم وعتادهم فبعثهم الى العراق والشام فجاهدوا أصدق جهاد وأبلوا أعظم بلاء ، وكانوا فى طليعة المواقع العظيمة كالقادسية واليرموك •

وبرز فى أعقاب هؤلاء المجاهدين من حملوا راية الاسلام التى أصبحت تخفق فى ربوع افريقيا والأندلس ، وحتى وصلوا بها الى تخوم الصين ، والى جنوب فرنسا فى أوربا ، وحقا ذلك فلن ينسى أحد عبد الرحمن الغافقى بطل الفتح فى اسبانيا ، ولا ينسى أحد أمير الأندلس . السمح بن حالك الخولانى فاتح قرطبة ومؤسس الامارة بها عام ٩٨ هـ •

لقد أسس اليمانيون قلاعا فى الأندلس تحمل أسماءهم من ذلك قلعة همدان بقرطبة ، وقلعة خولان فى غرناطة وقلعة يحصب فى أشبيلية، وقصور الكلبيين فى عاصمة صقلية •

هذا كلام نقوله للذكرى التى تنفع المؤمنين فأين الأندلس ؟ وأين صقلية ؟ ضاع ذلك بغفلة المسلمين فهل يتعظ المسلمون بما فات ؟ حتى لا يضيع منهم مابقى ؟

ولليمن عبر تاريخ الاسلام دور مشهور فى تشييد الحضارة الاسلامية ، ويلمس ذلك من يزورها ويرى معالمها ومساجدها وآثارها ، وهى كغيرها من بلدان الاسلام مرت عليها فترة ظلام حالك استطاعت الآن أن تعبرها ، ونرجو لها ولغيرها من بلاد الاسلام وأقطاره

العودة الحميدة القوية لتعاليم الاسلام المزهرة التى بها انتصر المسلمون قديما وسادوا وعزوا ، لعل هذه الأقطار جميعا تسهم معا فى رفع لواء العروبة والاسلام خفاقا من جديد .

عودة الى الموضوع :

أرجو ألاّ أكون قد ابتعدت عن جوهر الموضوع ، فليس التصوف سوى عودة الى روح هذا الدين العظيم الذى يدعونا الى الكفاح والجهاد والى أن يكون الله جل شأنه رائدنا واعلاء دينه غايتنا وطريق نصرته طريقنا . هذا هو التصوف الحق ، وليس التصوف مدعاة الى الكسل أو التواكل بل هو سمو بالروح ونكران للذات وحفظ للمروءة وتشييد لفضائل الأخلاق ، هو عمل من أجل هذا الدين الذى تتشرف بالانتساب اليه . لقد نفذ خصوم التصوف اليه يوم أن رأوا قوما ينسبون أنفسهم الى التصوف يعتنون بالمظهر دون الجوهر ويكثرون الكلام وينسون الأفعال يحبون أنفسهم ويحقدون على غيرهم . وهؤلاء حسبوا على التصوف زورا وبهتانا .

ان التصوف ــ وتاريخه وكتبه خير شاهد على ذلك ــ يدعو أربابه وأبناءه الى أن يتحققوا بالعزة الروحية والكرامة الاسلامية والجهاد فى سبيل الله والاسلام واتقان العمل والتضحية بالشهوات وحب الناس جميعا حبا يحمله على التعاون معهم والسعى فى اعلاء كلمة الجماعة الاسلامية . ان الصوفية الأوائل كانوا يجدون فى الجهاد أسمى غاية . وهذا عبد الله بن المبارك يقول :

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا
لعلمت انك فى العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب
أوكان يتعب خيله فى باطل
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
وهج السنابك والغبار الاطيب

قال الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله فى كتابه عن ابن المبارك : كان ابن المبارك منغمسا فى الجهاد الى درجة أن كثيرا ممن كانوا يحبون أن يسمعوا منه كانوا

يذهبون اليه فيجدونه فى الغزو . ولقد مات فى أثناء عـــودته من الجهاد . وماذا كان تعليق الفضيل ابن عياض على هذا الشعر عنـد سماعه ؟ ذرفت عيناه ، وقال : صدق والله أبو عبد الرحمن ، وروى هذا الحديث عن أبى هريرة قال : ان رجلا قال : يارسول الله علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر وتصوم فلا تفطـر ؟ فقال : يا رسول الله أنا أضعف مـن أن أستطيع ذلك . ثم قال النبى صلى الله عليــه وســلم : فوالذى نفسى بيده ، ولو طوقت ذلك مـا بلغت المجاهدين فى سبيل الله .

فالتصوف لا ينفر عن العمل من أجل رفع بنـاء المجتمع على أسس الاسلام الصحيح عن طريق جهـاد النفس والشيطان وجهـاد عـدو الاسلام وكلا الجهادين مطلوبان .

من أعلام التصوف فى اليمن :

ولقد وجد التصــوف فى اليمن مرتعا خصيبا حين نزل اليها قـوم اشتهروا بالزهد والعبادة من أمثال أبى عبد الرحمن طاووس بن كيسان ، وكان فقيها محدثا زاهــدا عابدا ناسكا فاضلا يروى عن عبـد الله ابن عبـاس وأبى هـريرة . نزل « الجَنَد » وهى اسـم بلـد باليمن وانظـر مـادة « جَنَد فى اليمــن ــ وهى « تَعْــز » الآن ــ ومما يروى عن زهــده أن أحد امراء اليمن واسمــه أيوب بن عبــد الملك ، بعث الى طـاووس بسبعمائة ــ أو خمسمائة دينار ــ وقيل للرسول : ان أخذها منـك فان الأمير سيكسـوك ويحسـن ان أخذها منك فان الأمير سيكسوك اليـك ! ؟ قال فخـرج حتى قدم على طـاووس الجَنَد ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، نفقة بعث بها الأمير اليك ؟ فقال : مـالى بهـا حاجة ، فداراه على أخذها فأبى ، فغفل طاووس فرمى بها الرجل فى الكوة التى فى البيــت ثم ذهب . فقال لهم : قد أخذها ، فلبثوا حينا ثم بلغهم من طاووس شيئا يكرهونه فقالوا : ابعثوا اليه فليأتنا بمالنا ، فجاءه الرسول فقـال : المال الذى بعث به الأمير اليـك ! ؟ فقال :

ما قبضت منه شيئا ، فرجع الرسول فأخبرهم فعرفوا أنه صادق ، وبعثوا الى الرجل الذى ذهب اليه بالمال. فقال : أنا وضعته فى الكوة التى بمنزله . فعاينوا ذلك فوجدوه كما وضعه وقد بنت العنكبوت على الصرة التى بها المال

موقفه مع هشام :

روى صاحب تاريخ مدينة صنعاء قال : روى أن هشاما حج وهو خليفة ، فحضر الأشراف والعلماء والزهاد فسلموا عليه ، فلما غص المجلس بالناس قال هشام : هل بقى أحد ؟ فقيل : نعم طاووس اليمانى ، فقال : علىّ به ، فقال له بعض القوم : انه شيخ كبير فانٍ ولا معرفة له بتحية الملوك والخلفاء . فقال : لا بد من احضاره ؟ فقام مشيخة من القوم فأتوا بطاووس فلما صار بين يديه خلع نعليه بحاشية البساط ولم يسلم عليه بأمير المؤمنين ولم يقف بين يديه الى أن يجلسه ولم يقبل يده وجلس بازائه ! ؟

وقال : ما خبرك يا هشام — سماه ولم يكنه — فاستشاط هشام غضبا وهمّ به بقبيح . فقال له مشيخة من حضر : لن يمكنك يا أمير المؤمنين قتله ولا هضمه وهو فى حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدمنا اليك بأنه لا معرفة له بتحية الملوك والخلفاء وأنه شيخ فانٍ من بقايا التابعين . فقال هشام : فما حمله أن فعل ما فعل ؟ قال طاووس : ما الذى فعلت يا هشام ؟ قال هشام : خلعت نعليك بحاشية بساطى ولم تسلم بامارة المؤمنين ولم تقبل يدى ولم تقف بين يدى حتى أجلسك ثم جلست بازائى وسميتنى ولم تكننى ، فما يكون أعظم من ذلك ؟

قال طاووس : فهل شىء غير ذلك ؟ قال هشام : وما يكون أعظم من ذلك ؟

قال طاووس : أما خلعى نعلى بحاشية بساطك فما من يوم ولا ليلة الا وأنا أخلعها بين يدى الله عز وجل خمس مرات . أمرنى بذلك وأمرنى ألاّ أتكبر عليه .. ان الله لا يحب المتكبرين .

وأما سلامى عليك بغير امـرة المؤمنين فليس المسلمـون كلهـم راضين أن تكون أميرهم فخشيت أن أكون فى سلامى كاذبـا والله لا يحب الكاذبين • وأما قيـامى بين يديك حتى تجلسنى ، فحدثنى أمير المؤمنين على بـن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كثر قيامه بين يدى المجالس فقد تبوأ مقعده من النار ، فلم أحب أن أكون كذلك وأن أكون غدا فى زمرة الظالمين •

وأما تقبيلى يدك فنحن معـاشر العرب لا نعرف القبلة الا لأحـد رجلين رجل قبـل امرأته لشـهوة ورجل قبل ولده لرحمة •

وأما جلوسى بازائك وسميتـك ولم أكنك فان الله تعالى سمى أحباءه ولم يكنهم فقال عز مـن قائـل كريم : يا آدم يا ابراهيم يا موسى يا عيسى يا محمد ، وكنى أعداءه فقال تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب» فجعلتك آسوة للسادة الأخيار وصنتك عن الأنجاس الأشرار ! ؟ فقـال هشـام : أحسنت يا أخـا اليمن زدنا ؟ فقال : حدثنى أميـر المؤمنين على بـن أبى طالب رضى الله عنه • قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : ان فى جهنم واديا فيه حيات كالنخل الطـوال وعقـارب كالبغـال يلدغن راعيـا لا يسير فى رعيته بطريق الحق •

وقام طاووس فاحتذى نعليه • فقال له هشـام : زدنا يا أخـا اليمن ؟ فقال : حسبك على الله أن كفـاك حسبك • فأمر له هشـام بصلة • فلم يقبلها •

هذا وبالله التوفيق •

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

الأدب الأردى وتطوّره

دور المتصوفة ورجال الدين فى رقى الأدب

(٤٤٢هـ - ١٠٥٠م / ١١١٢هـ - ١٧٠٠م)

دكتور سمير عبد الحميد ابراهيم

بعـد أن عـرضنا فى المقاليـن السابقين لنشأة اللغـة الأردية ، تتناول فى مقالنا الحالى تطور الأدب الأردى فى مراحـله الأولى ، تلك المراحل التى ساهم فيها المتصـوفة ورجـال الـدين بنصيب واضـح يجعلنا نقرر بكل ثقـة أن الأدب الأردى قد ظهر وتطور على أيدى رجال الدين والمتصوفة قبل غيرهم •

يـكتب الأدب الأردى بالخـط العربى الذى خضع فى شبه القارة الهندية الباكستانية الى تغييـرات طبيعية استلزمها التطـور الطبيعى للغة الأردية نفسهـا ، فقـد ظلت الحروف العربية حتى عهد الخلافة الرشيدة تكتب غير منقوطة وكانت مجرد اشارات يستطيـع العـربى قراءتها ، ومع انتشار الاسلام فى غير العرب كان لا بد من تطـوير الخط العربى والحروف العربية ، فاخترع أبو الأسود الدؤلى تلميـذ على رضى الله عنه الاعراب فى سنة ٥٠ للهجرة ، وذلك فى شكل نقط فكانت الكسرة نقطة تحت الحرف والفتحة نقطة فوق الحرف والضمة نقطة على جانب الحـرف بينمـا النقطتان تدلان على التنوين •

وبعد فتح مصر وايران كان من الصعب على أهل البلاد المفتوحـة قـراءة حـروف مثل : ج ح خ أو ب ت ث أو غيرها من الحروف المتشابهات ، ومن هنا أمر الخليفـة عبد الملك بن مـروان (٦٥ هـ) الحجاج بن يوسـف والى العراق باصلاح الخط العربى فقام نصر بن عاصم بناء على طلب الحجاج بوضع نقط الحروف سوداء بينما نقـط الاعراب توضع قرمزية اللون ومن

هنا صار التمييز سهلا بين الحروف المنقوطة .

وظل هذا النظام معمولا به حتى أربعين سنة تقريبا حين قام عبد الرحمن خليل بن أحمد (توفى سنة ١٠٠ هـ) بوضع حركات الاعراب المعروفة .

كانت حروف اللغة العربية ٢٢ حرفا أضيفت اليها فيما بعد ستة حروف هى ث ، خ ، ذ ، ض ، ظ ، غ ، وهذه الحروف الستةهى حروف خاصة باللغة العربيةتكونت بزيادة نقطة على الحروفالقديمة : (ت ، ح ، د ، ص ، ط ، ع) ثم زيد حرف (لا) حوالى القرن الرابع الهجرى وكذلك الهمزة ، وكان ترتيب الحروففىالبداية هو : أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ (والحروف الستة الأخيرة أضيفت فيما بعد كما سبق أن ذكرنا) وقد وضع هذا الترتيبطبقا للمخارج الصوتية الا أن الترتيب الحالى يختلف عن السابق ويقال ان ابن مقلة (توفى سنة ٣٢٨ هـ) قد وضعهحتى يسهل على التلاميذ الصغار تعلم العربية.

كان للعامل الدينى أثره البعيد فى انتشار الكتابة العربية فى مصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش والسودان والحبشة والصومال وزنجبار والشام والعراق وايران وافغانستان وتركيا (حتى عهد كمال أتاتورك) وشبه القارة الهندية الباكستانية وقازان والملايو وجاوه كما كان منتشرا فىالأندلس وصقلية ومدغشقر ، ومن الجدير بالذكر أن بعض الكنائس فى ايطاليا واسبانيا وفرنسا تحمل نقوشا لا تزال قائمة تمثل آيات القرآن الكريم بخطوط جميلة .

وحين وصل الخط العربى الى ايران حدثت فيه بعض التعديلات والتغييرات بحيث أمكن استيعاب الأصوات الزائدة فى اللغة الدرية أو الفارسية الجديدة فأضيفت حروف مثل ب ، ج ، ز ، ك ، أى باء وجيم تحتها ثلاث نقط وزاى عليها ثلاث نقط وكاف مزدوجة .

ولما وصل العرب الى بلاد السند واختلطوا بأهلها وانتشروا فيما بعد فى شبه القارة ، ثم ظهرت اللغة الأردية الى الوجود وبدأ الهنادكة فى كتابتها بالخط الديوناجرى بينما اتجه المسلمون الى استخدام الخط الفارسى (العربى) ، فلم يكن فى مقدور الخط الديوناجرى استيعاب الأصوات العربية والفارسية الموجودة باللغةالاردية ، ولا تزال هذه قضية تثار داخل اللغة الهندية حتى اليوم اذ لا يوجد بها مثلا حرف يعبر عن صوتى ذ ، ز فهم ينطقونهما (ج)ثم أضافوا نقطة تحت حرف ج الديوناجرى للتعبير عن ذ ، ز فلم يكن من المعقول أن ينطق أهل الهند اسم رئيس وزرائهم السابقذاكرحسين، جاكر حسين .

وللتعبير عن الأصوات الهندية استخدم حرف الطاء موضوعا على حروف : ت ، د ، ر وحرف هـ ، مضافا الى حرف الباء والباء المثلثة وحرف التاء العربى والتاء الهندى (فوقها طاء) والجيم العربية والجيم الفارسية المثلثة والدال العربية والدال الهندية (فوقها طاء) والراء الهندية (فوقها طاء) والكاف العربية والكاف الفارسية المزدوجة. ولا تعتبر (هـ) حرفا منفصلا بل تمثل وما قبلها حرفا واحدا ينطق بصوت واحد وهذا الصوت فى الأصل موجود فى اللغة السنسكريتية .

فى بداية كتابة اللغة الاردية كانوا يضيفون أربع نقط توضع بدل حرف ط على ت ، د ، ر ولا تزال هذه الطريقة تستخدم فى اللغة السندية حتى اليوم ، كما كان البعض يقوم بوضع ثلاث نقط تحت الدال والراء والكاف وأربع نقط فوق التاء (١) .

وفى الكتابات القديمة (حوالى ١٠٢٨ هـ — ١٦١٩ م) نلاحظ اختفاء الطاء من فوق ت ، د ، ر ، وكذلك اختفاء حرف الكاف الفارسى وعدم الاهتمام باستخدام صوت هـ مضافا الىالحرفالسابق

---

(١) لغات كجرى ، تقديم وتصحيح نجيب أشرف ندوى بمبى ط ١٩٦٢

للتعبير عن صـــوت الحـــروف الهندية (١) .

وعلى كل حال فالتطور فى كتابة اللغة الاردية كان أمـــرا طبيعيا فلم تكن هناك مطابع وكان كل كاتب يكتب ما يملى عليـــه طبقا لقدراته وكما هو مشاهد فى المخطـــوطات الاردية القديمة كان بعض الكتاب يكتبون ت مكان ط مثل(واسته بدلا من واسطه) (أى من أجـــل) ويكتبون الهاء مكان الحاء مثل : (هواس بدلا من حواس)وباختصار كان الاملاء يعتمد فى معظم الأحيان على الصوت فتصـــادفنا كلمـــات مثل : مهنت (محنت) ، منا (منع) صواب (ثواب) وغيرها كثير .

وقد قام بعضا لمصلحين(أكثرهم مـــن الشعـــراء) سنـــة ١٧٤٠ م تقريبا من أمثال شاه حاتم (شاعر) وسراج آرزو (شاعر ولغـــوى ألف مجمعا وتوفى سنة ١١٦٩ هـ) وغيرهما بتنقية اللغة مما أحســـوا هم بغرابته عليها كما قاموا بتصحيح كتابة العديد من الألفاظ التى راجت بين الشعراء وأطلق على حركتهم اسم « اصـــلاحى تحـــريك » أى الحركة الاصلاحية وتعد هذه أول حركة لغوية اصـــلاحية فى تاريخ اللغة الأردية وقـــد شملت هـــذه الحـــركة تصحيح الامـــلاء وطريقة الـــكتابة وتصحيح الأســـاليب والتراكيب اللغوية أيضا .

النماذج الاولى للادب الاردى فى شمال الهند

(٤٤٢هـ/١٠٥٠م — ١١١٢هـ/ ١٧٠٠ م)

يتناقل كتاب التذاكر بعض الجمل والعبارات الأردية وينسبونهـــا الى « أمير خسرو » (متوفى ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م) الا أنهـــم يقـــررون أن « مسعـــود سعد ســـلمان » (٤٣٨ هـ — ٥١٥ هـ / ١٠٤٦ م — ١١٢١ م) أحد سكان مدينـــة لاهور هو أول شاعر نظم الشعر باللغة الهندوية « الأردية » وقـــد

(١) د. رانا احسان الهى : واحـــد بارى — تحقيق لاهـــور ١٩٦٠ (بالانجليزية) .

أشار الى هذا أمير خسرو فى مقدمة ديوانه المسمى « غرة الكمال » ونقل محمد عوفى صاحب « لباب الألباب » نفس الفكرة قائلا : « بأن لمسعود سعد سلمان ثلاثة دواوين ، ديوان بالعربية وديوان بالفارسية وديوان بالهندوية « الاردية » (١) الا أنه لا وجود لهذا الديوان الذى كتبه مسعود سعد سلمان بالهندوية ، ومع هذا فالعبارات الأردية تتناثر بين أبيات ديوانه الفارسى ، والحقيقة أن الكلمات الاردية توجد فى أشعار حكيم سنائى (متوفى ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م) وكذلك فى الكتابات الفارسية لكل من منهاج وأمير خسرو وضياء الدين برنى وسيد محمد بن سيد مبارك كرمانى (٢) ولم يقتصر الأمر على الألفاظ الاردية بل تعداه الى طريقة التعبير التى جعلت اللغة الفارسية فى الهند تختلف عن مثيلتها فى ايران الموطن الأصلى للغة مما جعل البعض يطلق عليها اسم « هندوستانى فارسى » أى الفارسية الهندية ، ورغم انتشار الأردية كلغة يتحدث بها الناس الا أن الفارسية كلغة للبلاط احتلت مكانة عالية فاتجه اليها الأدباء يعبرون بها عن أفكارهم فى شكل أعمال شعرية أو نثرية .

وتحت نداء النزعة الوطنية قام أمير خسرو الذى مزج بين الموسيقى الايرانية والموسيقى الهندية بالمزج بين الشعر الفارسى والشعر الهندى ، وقد اتبع فى ذلك عدة أساليب منها كتابة أشعار يكون فيها مصرع بالفارسية وآخر بالاردية أو يكون فيها نصف مصرع بالفارسية ونصف مصرع بالاردية ، ومن هنا اتسمت هذه الأشعار بالغموض بل ظهر نوع من الشعر يسمى « بهليليان » أو شعر الألغاز فاللفظة الفارسية لها معنى بالفارسية يختلف عن

---

(١) مقدمة غرة الكمال ولباب الألباب صفحة ٢٤٦ ج ٢ كمبرد ج ١٩٠٢م

(٢) فى كل من : طبقات ناصرى (٦٥٨هـ / ١٢٥٩م وفران السعيدين (٦٨٨هـ / ١٢٨٩م) وتاريخ فيروز شاهى (٧٥٨هـ / ١٣٥٦م) وسير الأولياء (حوالى ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م) على التوالى .

معناها حين تستخدم فى الأردية الا أن الامير خسرو قد ترك كتابا له أهمية عظيمة فى تاريخ الأردية ويطلق عليه « خالق بارى » وقد اختلف المحققون فى نسبة هذا الكتاب اليه حتى أن البروفسير حافظ محمود شيرانى نشر هذا الكتاب وجعل عنوانه هكذا : « حفظ اللسان معروف به خالق بارى مصنفه ضياء الدين خسرو در (فى) سنة ١٠٣١ هـ جو (الذى) عموما منسوب به حضرت أمير خسرو دهلوى » (١) .

و « خالق بارى » معجم منظوم يضم الألفاظ العربية والفارسية وما يرادفها من ألفاظ هندية والمعاجم المنظومة قديمة جدا ، ومن أقدم المعاجم العربية المنظومة كتاب « مثلثات قطرب » لأبى على محمد قطرب النحوى ، يضم ٣٢ بيتا من الشعر ، كما يحتل كتاب «صحاح» لأبى نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى مكانة عالية بين المعاجم القديمة ، وفى الفارسية كتب أبو نصر فراهى سنة ٦١٠ هـ /١٢١٣م معجما باسم « نصاب الصبيان » ظل يدرس ضمن مناهج المدارس النظامية لقرون وقد نظم المؤلف أشعارا أوضح فيها معانى الكلمات العربية بالفارسية ، وهكذا فعل أمير خسرو حين نظم «خالق بارى» الذى لا يحمل أية أهمية أدبية أو شعرية ولكنه يوضح ما كانت عليه اللغة الاردية من أهمية جعلت من الضرورى على الناطقين بالفارسية والعربية والتركية معرفتها والوقوف على معانيها .

ويضم « خالق بارى » ١٧٠ بيتا من الشعر ، فأضاف اليه « صفى » ١٢٠ بيتا من الشعر وأسماه « مطبوع الصبيان » وكتب فى مقدمته « كتاب مطبوع الصبيان عرف (المعروف به) خالق بارى تصنيف أمير خسرو دهلوى قدس سره العزيز » .

وقد كتبت عدة كتب على نمط « خالق بارى » مثل « واحد

---

(١) حفظ اللسان ، انجون ترقى أردو ــ دهلى ١٩٤٤م .

بارى » لأشرف بيابانى (٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م) و « مثل خالق بارى » (٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م) لاجى جند و « حفظ اللسان » لضياء الدين خسرو (١٠٣١ هـ) .

يعد أمير دهلوى من معاصرى أمير خسرو متوفى (٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م) وقد لقبه عبد الرحمن جامى شاعر الفارسية الشهير بلقب « سعدى هندوستان » أى سعدى شيرازى الهند فقد كان شاعرا مجيدا بالفارسية كما كتب أشعارا تقاسمت فيها الفارسية والأردية الأبيات ومزج بين الفارسية والأردية مزجا رائعا (١) .

فى هذه المرحلة التى تمثل مولد الأدب الأردى تطالعنا أقوال وحكم رجال التصوف المسلمين من أمثال شيخ فريد الدين مسعود كنج شكر « أى كنز السكر » (٥٦٩هـ ـ ٦٦٤ هـ/١١٧٣م ـ ١٢٦٥م) وهو من سكان مدينة ملتان وشيخ حميد الدين ناكورى (٥٩٠ هـ ـ ٦٧٣ هـ / ١١٩٣ م ـ ١٢٧٤ م)

وخواجه نام الديظن أوليا (توفى ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) وللأخير عدة أبيات شعرية على نمط هندى يسمى « دوها » أو « دوهرا » يشبه المثنوى ، كما كتب شيخ شرف الدين يحيى منيرى (متوفى ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م) عدة أشعار على النمط السابق وله أيضا بعض الأقوال المأثورة والأمثال التى اشتهرت فيما بعد . أما شيخ عبد القدوس كنكوهى (٨٦٠ هـ ـ ٩٤٥ هـ / ١٤٥٥ ـ ١٥٣٨ م) فقد كان شاعرا مجيدا بلغة « برج بهاشا » وعالما فقيها من علماء عصره وقد لقب بـ « مجتهد وقت » و « مقتداى زمان » أى مجتهد وقته ومرشد زمانه ، وترك مأثورات وأشعار وخطابات وكان يعبر عن أفكاره الدينية بالشعر الفارسى أولا ثم يفسر هذه الأفكار بالهندية على نمط « دوها » أو « دهرا » .

ومن العجيب أن يقوم واحد من الهنادكة يدعى كبير (متوفى ١٥١٨م) بمشاركة أهل التصوف فى دعوة

(١) جميل جالبى : تاريخ أدب أردو ـ ١ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

الناس الى عبادة اله واحد ، وكان يصلى مع المصلين من المسلمين ثم ينطلق الى معابد الهنادكةليقدممعهم القرابين الى آلهتهم رغم انه كان ينكر عبادة الأصنام والشرك باله واحد وكان شاعرا مجيدا اعتبره المسلمون شاعرهم واعتبره الهنادكة شاعرهم ، ويرى كبير أن « رام » (اله الهنادكة) ــ و « الرحيم » (اله المسلمين) شيء واحد ويرى أن رام ليس باله الهنادكة ولكنه اسم هندى يعنى « الرحيم » وهو الله الذى يحتوى كل الصفات وهو أيضا ما وراء الطبيعة وهو الكل لا شكل له يوجد فى كل مكان ، وقلب الانسان هو بيت اللهكما أنه يمكن الوصول الى الله عن طريق العشق والهدف هو الله فمن وجد الله وجد كل شيء ، وهكذا يلتقى كبير مع المتصوفة فيما يتعلق بنظرية العشق • ومن الجدير بالملاحظة أن يقوم كبير باستخدام الألفاظ الفارسية والعربية والتركية التى كانت تروج على ألسنةالعامة،

وهو فى هذا يحاول ايصالأفكاره اليهم بالوسيلة السهلة مما أدىالى وجود العديد من الأخطاء اللغوية والاملائية فى أشعاره فقد كان يكتب الكلمات العربية والفارسية والتركية كما ينطقها العامة ، واستعصى عليه نطق بعض الحروف العربية فالخاء هند كهـ ، والقاف كاف ، والضاضوالزاىعند هـ جيم وهكذا نرى أن : وضوء تصبح وجوه (وضوء) ، غريب (بمعنىفقير) تصبح « كريب » ، كما أن الشين تصبح عنده سينا والغين كافا فارسية والذال دالا • ورغم كل هذا فقد أطلق عليه «شاعرالشعب» لأنه كان يتكلم فى أشعاره كما يتكلم العامة لا يهمه أن تصدر عنه أخطاء لغوية أو املائية أو حتى عروضية فيكتب كبير كبيرا أو كبرا ويكتب محل « بمعنى قصر » محليا ودرويش درويسا ومقام مكاما حتى كلمة غفلت (العربية غفلة) يكتبها كبهلائى « وكتاب كتيب » وهكذا [1]

---

(١) بندت متوهر لال : كبير صاحب ، ط اله آباد ١٩٣٠م ص ١٢٩/١٣٠

كان هذا هو حال معظم الألفاظ العربية التى اتخذت شكلا عجيبا على ألسنة أهل شبه القارة الهندية الباكستانية من المسلمين وغيرهم حتى تم تصحيحها فيما بعد كما سبق أن اشرنا ، ومن أمثلة الكلمات العربية التى تغيرت صورتها ما يلى :

مسجد : مسيت ، صدق : سدك ، كعبة : كابا ، كلمة : كلما ، تسبيح : تسبيه ، صاحب، ساهب، درويش : درويس ، عشق محب : اسك مهبت ، قبول : كبول وغيرها .

يؤسس بابر (توفى ١٥٣٠ م) الدولة المغولية ويحاول توسيع رقعة امبراطوريته ، وفى زمانه اشتهر شيخ جمال كنبوه (متوفى ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥ م) بأشعاره الفارسية التى تتخللها الكلمات والعبارات الأردية مثل :

خوار شدم زار شدم لت كيا
درره عشق توكمر تتاهى

فكلمة لت كيا االردية معناها : انقلب وكلمة تتا هى أردية معناها : انكسر والألفاظ الأخرى فارسية ومعنى البيت : أصبحت ذليلا أتألم وأنوح وأتقلب متوجعا ، فقد انكسر ظهرى فى طريق عشقك . ولشيخ جمال أشعار فى الغزل يستهلها بقوله :

آن برى رخسار جون شانه به جوتى ن كند
جان دراز عاشقان را عمر جهرتى مى كند

أي : تلك الحسناء صاحبة الوجنات الملائكية حين تعقد ضفائرها (جوتى كلمة اردية تعنى الضفائر) على كتفها تقصر بذلك عمر المحبين المعمرين (جهوتى كلمة اردية تعنى قصير » .

يطالعنا بعد ذلك شاعر له اتجاهات أخرى وهو « أجى جند بهتنا » الذى قام سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥١ م بكتابة منظومة على نمط « خالق بارى » يشرح فيها معانى الكلمات الفارسية بالأردية ، ومن هنا سماها مولوى عبد الحق « مثل خالق بارى » (١) .

---

(١) د. مولوى عبد الحق : قديم أردو ـ ص ١٩٨ ـ ٢٠٧ ط كراتشى ١٩٦١م .

ومن أمثلة أشعاره :

تلخ شـــدن هى كروا هـــونا
كـهنه ســكون كفتـــم نتـوانم

أى : يصير مرا (بالفارسيـة) يصير مرا (بالاردية) : لا يمكن الكلام . لا يمكن الكلام .

ومن الملاحظ ان لغة أجى جنـد تتشابه مع لغة أمير خسرو فهو من ساكنى ضواحى دهلى وهى اللغـة التى أطلق عليها « اللغة الدهلوية» أو « اللغة الهندوية » .

وفى زمان الامبراطـور أكبـر مؤسس نادى « الـدين الالهى » امتـلأ البـلاط برجـــال مــن جميع مناطق الهند : البنجـاب ، السند ، الكجرات وبعض مناطـق الدكن والبنغال واقليم بهار وغيرها كما ضم العـديد من الاجنـاس : المغول والايرانييـن والطـورانيين والعرب والافغان والهنود جمعتهم الوظائف الرسمية وضـمهم العمـل داخل البلاط ، ورغم أن لغة البلاط كانت الفارسية الا أن أمور البلاط لم تكن لتسيـر بالفارسية فقط اذ كانت هناك لغة أخرى تضم افغانى والكجراتى والسنـدى والبنغالى والدكنى والبنجابى وهى اللغة التى أطلق عليها البعض «لغة التعايش » أو « لغة الساعة » أو « اللغـة الهندية » .

توضح النمـاذج الشعـرية فى زمان أكبر أن أدب اللغـة الأردية كان قد بدأ يتخذ شكلا يمكننا من أن نطلق عليه أدبا بالشكل المفهوم حاليا فالشعر ، والغزل بصفة خاصة، مملوء بالكلمات الأردية الصحيحـة والتعبيرات السليمة كما أن الألفاظ الأردية كانت دائما تستخـدم فى القافية والرديف رغم سيطرة طابـع الغزل الفارسى على الغزل الاردى. كما كانت الأشعار التى تضم حوارا معينا يعبـر عنها دائمـا بلغـة هى فى الواقع لغة التخاطب اليوميـة التى يتداولها الناس فى أحاديثهم وزاد هذا من روعة الشعر وصبغه بصبغة طبيعية خلابة الا أننا يجب أن نقول بان الصورة الادبية للشعر الا ردى لم تكتمل بعد لأن الشعر الفارسى كان يسيطر ايضا بألفاظه فســمى هذا القسم من الشعر الهندوى أو

الأولين ردى باسم « ريختة » أى الشعر الممزوج ــ وفى بلاط أكبر عاش شاعر مشهور يدعى « بهرام سقه بخارى » له ديوان بالتركية وآخر بالفارسية كما كتب أيضا شعرا بالاردية « ريختة » غلبت فيه الاردية الفارسية (١) . ولم يقتصر الأمر على مزج الفارسية بالاردية بل تعداه الى مزج الاردية بالتركية والفارسية معا كما فعل « عشقى خان عشقى » (متوفى ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م) فى قصيدته الفارسية « سرد وكرم زمانه » أى « برد الزمان وحرارته » (٢) وتناول فى قصيدته هذه الحديث عن حاله بعد أن فاز بوظيفة موزع هبات السلطان ، وهو يصور كيف يتكالب الناس على أصحاب الثروات ويتملقونهم بينما يبتعدون عن مجالسة الفقراء والمساكين كما يعبر عن الحياة الزوجية للرجل الغنى الذى يعود الى بيته فتتسابق زوجاته على خدمته وتدعو له الزوجة التركية باللغة التركية وتدعو له الزوجة التاجيكية باللغة الفارسية وحين يصل الى الهندية تستقبله قائلة :

زن هندى زيك طرف كويد
هو ترى لوندى تومرا خوندكار
تم جو مجهكون بياركرتى هو
هون بهى كرتى هون تمهاره بيار

« تقول الزوجة الهندية ــ من ناحية ــ ها أنا جاريتك ياسيدى ، على قدر حبك لى أهيم فى حبك»

والرجل الفقير حين يصل الى بيته تنفر منه زوجاته ، تشتم واحدة والأخرى تلعن والثالثة تصرخ وتصبح حياة المسكن جحيما لا يطاق تصرخ الهندية فى وجهه قائلة :

زن هندى زيك طرف كويد
تيرى مان كولى تيرا باب جمار
تجهتهين مجهكون نه روتى وبانى
تجه تهين مجه كون نهين سوادوسنكار

« تقول الزوجة الهندية ــ من ناحية ــ يا ابن الوضيعة يا ابن الاسكافى ما أتيتنا يوما بطعام أو شراب ، لم أعد أطيقك ، لم أعد استلطفك » .

والأشعارا لتى ذكرها الشاعر على لسان المرأة الهندية تعبر تماما

(١) جميل جالبى : تاريخ أدب أردو ــ ص ٥٩ ط لاهور .
(٢) مجلة الكلية الشرقية لاهور أغسطس ١٩٣١ ص ١٢٢ ــ ١٢٥ .

عن الحوار الذى كان يروج داخل البيوت فى ذلك الزمان ، وهو حوار يسوقه بلغة سهلة صافية واضحة ولهجة مؤثرة كما نلاحظ وجود ألفاظ بعينها تروج فى مناطق الهند المختلفة مثل : تهين بمعنى أنا فى اللغة الكجراتية ، وهون بمعنى أنا فى الراجستانية وهكذا.

بدأ نجم الاردية يصعد فى زمان الامبراطور نور الدين جهانكير الذى ولد من أم كانت فى الأصل أميرة هندوكية ، وظلت الفارسية تحتل مكان الصدارة وخاصة فى شمال الهند بينما احتلت الاردية المقدمة فى منطقة الدكن والكجرات فى الجنوب واطلق عليها اسم كوجرى روكنى ونالت رعاية البلاط هناك .

فى بلاط جهانكير اشتهر محمد صالح نسبتى بشعره الفارسى والهندى ، وكان رجلا زاهدا فى الحياة استضاف الشاعر صائب حين زار الهند ، وتذكر كتب التذاكر ان له ديوانا بالهندية الا أنه غير موجود .

وما يهمنا هو محمد أفضل بانى بتى (متوفى ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦ م) وهو من شعراء الفارسية والاردية المجيدين وكانت له مقدرة فائقة على كتابة النثر الفارسى ويعد من أهم شعراء زمانه ، خلف منظومة بالاردية بعنوان « بكت كهانى » أى « حكاية البلاء » ، نالت شهرة كبيرة ، ولا تزال تحمل أهمية واضحة فى تاريخ الأدب الاردى. كان شاعرنا هذا يعمل بالتدريس ، وحين بلغ من العمر عتيا هام فى عشق صبية هندوكية قلبت حياته رأسا على عقب فعبر عن معاناته العاطفية وعما اعتلج فى قلبه من نيران العشق فى هذه المنظومة الطويلة التى أنشدها على غرار حكاية هندية تسمى (باره ماسه) أى الفصول الأربعة وهى حكاية تضم اثنتى عشرة اغنية هندية على لسان امرأة تشكو فراق شهور السنة الاثنتى عشر (١) .

(١) مسعود حسين خان : قديم أردو ج ١ ص ٣٨٧ ط الجامعة العثمانية حيدر أباد ١٩٦٥م .

ومن الجدير بالذكر أن ديوان خواجه مسعود سعد سلمان الفارسى يشتمل على منظومة اشتهرت باسم «غزليات شهورية» أى الغزليات التى كتبت عن شهور السنة ، ومن العجيب أن يكتب الشاعر الانجليزى سبنسر فى سنة سنة ١٥٧٩م أشعارا على هذا النمط تحت عنوان
«Shepherd's Calender»

تضم أبياتا مختصرة عن كل شهر من شهور السنة فى بحر منفصل .
يسوق أفضل حكايته على لسان امرأة تركها حبيبها ، ويرسم صورة رائعة لمعاناة الفراق والهجر ، فساعة من ساعات الهجر تساوى مائة ألف شهر وتتعاقب الشهور والفصول ويزداد الألم وتشتد الحرقة واللوعة وها هى المرأة تحكى لرفيقاتها قصة عشقها قائلة :

سنو سكهيوبكت ميرى كهانى
بهئى هون عشق كى غم سون دوانى
نه مجه كو بهوك دن نانيند راتا
بره كى درد سون سينه براتا
ارى يه عشق هى يا كيا بلا هى
كه جس كى آك سى سب جك جلا هى
بكت مشكل نبت مشكل كهانى
دوانى كى سنو سكهيو ، كهانى

« استمعن أيتها الصديقات الى حكايتى المحزنة ، حكاية غم العشق الذى أصابنى بالجنون ـ لا ينالنى جوع فى النهار ولا يأتينى نوم بالليل ، ويكتوى الصدر «القلب» بألم الفراق ـ آه أهذا عشق ؟ ما هذا البلاء الذى احرقت ناره الدنيا جميعا .. انها حكاية بلاء شديد ... حكاية صعبة من أولها الى آخرها ، فاستمعن أيتها الصديقات الى حكاية الجنون »

ويبدأ فصل المطر ومعه تبدأ الأحزان والآلام :

ارى جب كوك كوئل نى سنانى
تمامى تن بدن مين آك لكانى
اندهيرى رات جكنو جكمكاتا
ارى جلتى كى اوبر بهوس لاتا

« آه حين بدأ الوقواق يسجع بصوته العذب اندلعت النيران لظى فى جسمى ولحمى ، وحين بدأت اليراعة تتلألأ فى الليل الحالك احترقت وأصبحت هشيما » .

وتحكى المرأة حلما يعبر عن شوقها لمن تهوى فتقول :

جه مى بينم لتكتا آوتا هى
به حسنش ماه را شرماوتا هى
كيا هى ان لباس زعفرانى
بهئى هون ديكه كراس كودوانى

« ما رأيت هو طيف معلق قادم فى خجل ، له جمـال القمـر ، يا لحسنه ... جـاء فى رداء زعفرانى ... آه لقد أصابتنى رؤياه بالجنون » .

والواقع أن أسلوب ولغة هـذه القصة يختلف عن أسلوب ولغة القصص المعاصرة لها والمنظومة فى الدكن مثـل : « سيف الملوك بديع الجمال » (١٠٣٥ هـ - ١٦٢٥ م) فالتأثير الفارسى واضح تماما فى شمال الهند ، الأفعـال والضمائر الفارسية تستخدم فى النظم الاردى، وتبلغ أشعار الحكاية ٣٢٥ بيتا من بينها ٤١ بيتا من الشعـر الفارسى و ٢٠ بيتا من الشعـر الملمـع « فارسى واردو ».وتكمن الأهمية اللغوية للحكاية فيما نشـاهده من ابدال لبعض الحـروف فالراء تأتى بدل اللام والجيـم بـدل الذال والزاى وهناك فـرق فى شـكل الضمائر، فهى تختلف عما هى عليه اليوم وكذلك الحال بالنسبة لحروف الجر وتصاريف الأفعال (١) .

وتوضح لغـة هـذه الحـكاية وأسلوبها البيانى تفوقا على ماكانت عليه أشعار الدكن فى ذلك الوقت، وهذ هو السبب الذى جعل شعراء الدكن يقبلون على هذا الأسلوب الرائج فى شمال الهنـد حين فتح ارنكزيت عالمكير (متوفى ١٧٠٧م) منطقة الدكـن واتصـل الشمال بالجنوب .

فى زمان الامبراطور شاه جهان (١٠٣٧هـ - ١٠٦٨هـ/١٦٢٧م - ١٦٥٧ م) تأصلت جـذور اللغـة الأردية فى المجتمع حتى أصبح من الضرورى عـلى أى مـوظف فى البلاط أن يكون عارفا بالأردية ، وكان شاهجان نفسه عارفا بهـذه اللغة (٢) .

يعتبر منشى ولى رام ولى مـن من شعراء زمان شاه جهان ، قال الشعر بالفارسية والعـربية أيضـا وجاءت أشعـاره الأردية محشـوة بالكلمات والجمل الفارسية، يقول فى احدى غزلياته :

---

(١) جميل جالبى : تاريخ أدب أردو ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) شاهجهان نامه جلد أول ص ١٣٢ ط لاهور .

چه بل داری درین دنیاکه دنیا سی جلانا هی
چه دل بندی درین عالم که سریر جهورجاناهی
تومهمان امدی این جاشدی خود خانه خاوند
توابنی کوبهـــولا کسی کـــونا بجهانا هـــی

« أى رغبة لك فى هـــذه الدنيا نحن راحلون عنها ــ لا محالة ــ وأى رغبة لك فى هذا العالم الذى سيترك كل شىء على رءوسنا ويمضى ، لقد جئت ضيفا وحللت بيت سيدك (ربك) فلتنس نفسك ولا تخدع أحدا » .

ويعد بندت جنـــدر برهمـــن (٩٨٢ هـ ــ ١٠٧٣ م/١٥٧٤ هـ ــ ١٦٦٢ م) من وزراء شاهجهان ومن الشعراء المجيدين بالفاسية والأردية ومن غزلياته الشهيرة هذه الأبيات :

خـدانی کس شـــــــهر انـدر
همــــــن کو لانی دالا هـــی
نه دلبـــــر هی نه ســـاقی
هی نه شیشـــــه هـــــی نه
نــــــه بیـــــا هـــــی
برهمـــن واســـطی اشـــنان
کی بهــــرنا هی بکیاســـین
نه کنـــکاهی نه جمنـــــــاهی
نـــه نـــدی هـــی نـــه نالاهی

« فى أى مدينة هذه جاء بنا الله ، حيث لا محبوب ولا ساقى ولا كأس ولا قدح ــ ماذا أطلب فى دعواتى من أجل قارب الحبيب وممن أطلب ، وليس لدى مسبحـــة الشيخ ولا مسبحة البرهمن ، ولا يوجد معى عقد الذهب ولا عقد الـــورود ــ يا برهمن (١) (اسم الشاعر) كيف تغتسل وتتطهر لتؤدى صلواتك ولم تعد « هناك مياه » فى نهر الكنكا ولا فى نهر الجمنا وقد تلاشـــت جميع الانهار والقنوات » .

تعبر الأبيات السابقة فى الواقع عن أفكار الشاعر الهندوكى الذى عرضها بالأردية ، ،واستخدم ألفاظ عقيدته الهنـــدوكية بالاضـــافة الى ألفاظ العقيدة الاســـلامية فكلمـــة « سمرن » كلمة خاصـــة بالهنادكة يقابلها لدى المسلمين كلمة « تسبيح » والمسبحة يقـــال لهـــا فى الاردية « تسبيح » وفى العقيدة الهندوكية تقابلها لفظة « مالا » كما أن اللفظة نفسها تعنى عقد الزهـــور الـــذى يطوق به الهنادكة أصنامهم ، كمـــا يتضح تأثير الفارسية والعربية على الشاعر فهو يستخدم كلمات مثل : خدا « الله » ــ شهر « مدينة » دلبر « محبوب » ــ ســـاقى ــ تسبى « تسبيح » واسطى « مـــن أجل » وهكذا الا أن شعر بندت

(١) وهذه كناية عن رجـــل الدين عند الهنادكة ذى الحسب الرفيع .

برهمن يوضح التخلص من التأثير الفارسى على الألفاظ الشعرية الى حد ما حتى أصبحت الأردية هى « لغة جميع اللغات » فهى توجد فى كل لغة كما أن كل لغة موجودة فيها •

يأتى أورنكزيب (١٦٥٧ م — ١٧٠٧ م) الى العرش وتتسع رقعة مملكته ومع اتساعها بدأت ينابيع الثقافة فى النضوب رويدا رويدا ومعها بدأت أنهار اللغة الفارسية فى الجفاف وأخذت الأردية تستعد لتحل محلها تماما ، فأصبحت لغة التعليم فى المدارس والكتاتيب واتصل الشمال بالجنوب وبدأ تأثير الدكن على أهل العلم والأدب فى الشمال وأصبحت الفارسية تدرس كلغة ثانية ، ومن أشهر أعلام زمان عالمكير العالم الفاضل مير عبد الواسع هانسوى الذى اشتهر بكتابه « غرائب اللغات » وكان يعمل بالتدريس فألف عدة كتب لتلاميذه منها : رسالة عبد الواسع ، شرح بوستان، شرح زليخا ، وحمد بارى المشهور باسم « جان بهجان » • ويعد كتابه « غرائب اللغات » الذى يحتوى على معانى الكلمات الأردية بالفارسية أول معجم فى اللغة الأردية ولم يكتب بعده أى معجم الا بعد خمسين سنة حين كتب سراج الدين آروز (١٦٨٧ م — ١٧٥٦ م) « نوادر اللغات » واضعا أمامه معجم عبد الواسع « غرائب اللغات » كأساس يحتذيه •

من هنا يعد « غرائب اللغات » أول حلقة من حلقات المعاجم الأردية ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نضع هذا الكتاب على مقاييس معاجمنا العصرية والا فلن يمثل أية أهمية على الاطلاق فأهميته تتمثل فى أنه أول محاولة معجمية فى تاريخ اللغة الأردية — وكانت محاولته الثانية هى حمد بارى « أو جان بهجان » فقد أورد عبد الواسع فى كتابه هذا الكلمات العربية والفارسية والأردية المترادفة وذلك فى أبيات شعرية حتى يتمكن الطلبة من معرفة الكلمات العربية

والفارسية باللغةالأردية ويقول عبد الواسع فى مقدمته :

عبد الواسع سى يه كتاب
تين زبانون كى هى نصاب

« هذا الكتاب لعبد الواسع منهج للغات الثلاث » .

وبينما يستفيد الطلبة من مؤلفات عبد الواسع التعليمية يستفيد العامة والخاصة من الكتابات الدينية لمولانا شيخ عبد الله الانصارى الذى كتب (سنة ١٠٧٤ هـ / ١٦٦٣ م) رسالة بعنوان « فقه هندى » شرح فيها شعرا الفقه الاسلامى وقضاياه بطريقة يفهمها الرجل العادى وفى بحر يمكن للملحنين أن يلحنوه للمطربين ليغنى فى مجالس الغناء ومحافل الصوفية ، وأفرد لكل قضية فقهية بابا خاصا بها مثل : فصل فى بيان أركان الايمان » ، « فصل فى بيان شروط الايمان » ، « توحيد الحق تعالى » ، « فى بيان أحوال الملائكة» ، « القيامةوعلاماتها » ، « فرائض الايمان » ، « واجبات الايمان » ، « الماء الراكد والماء الجارى » ، « مياه الآبار » ، « الوضوء » ، « الغسل » ، « الحيض والنفاس » ، « المسح على النعال » وغيرها .

يقول الشاعر موضحا أهمية كتابه :

مطلب مسئلة بوجهنافرض عين كى جان
عربى تركى فارسى ،هندى يا افغان
علم شريعت بوجهنا فرض عين كى جان
بالغ عمورت مردكون جو هووئى مسلمان

« ان معرفة قضايا الفقه هى فرض عين لو سئل عنها عربى أو تركى أو فارسى أو هندى أو افغانى » .

« ان معرفة علم الشريعة فرض عين على كل بالغ مسلم ، رجل كان أو امرأة » .

ويلاحظ القارىء العربى كم هى سهلة هذه الأشعار الدينية وكم هى مليئة بالألفاظ العربية التى اقتضتها ضرورة عرض موضوع دينى ففى البيتين السابقين أتى الشاعر بالكلمات العربية التالية : مطلب مسئلة ، فرض عين ، عربى تركى فارسى هندى أفغانى علم شريعت فرض عين ، بالغ ، مسلمان (أى

٦٠٪ كلمات عربية و ٤٠٪ كلمات فارسيةو هندية).

بدأت الكتابات الدينية تأخذ طريقها الى الوجود فها هو الشيخ محبوب عالم من كبار علماء عهد عالمكير يخلف لنا ثلاث رسائل : محشر نامه ، مسائل هندى ، درد نامه ، وقد كتب أولا محشر نامه ثم مسائل هندى وأخيرا درد نامه وفى منظومته الثالثة والأخيرة يتضح صفاء أسلوبه وقوة بيانه :

الهى تكبر خودى كهينچ لى
مسلمان محبوب عالم كون دى
كهى عشق سون نعمت احمد رسول
در عالم مين هو جائى مقبول بهول

« يا الهى احفظنا من التكبر والغطرسة ، وامنح المسلمين عالما بالحب ، فاننى أنشد بالمحبة فى مدح الرسول ليكون وردة مقبولة فى الدارين ».

ونلاحظ أن الكلمات العربية موجودة بكثرة : الهى تكبر مسلمان محبوب عالم عشق نعت أحمد رسول عالم مقبول (٥٠ ٪ كلمات عربية ، ٥٠٪ كلماتفارسية وأردية) .

واذا عرجنا على لون آخر من ألوان الانتاج الأدبى ألا وهو الغزل نلاحظ أن التأثير الفارسى يتفوق من حيث المضمون والشكل الا أن قوة اللغة الأردية تتمثل بوضوح أكثر مما كانت عليه سابقا . ويمثل الاتجاه شيخ ناصر على سرهندى (متوفى ١٩٦٧ م) فمرة يسيطر عليه التأثير الفارسى ومرة أخرىيسيطر عليهتأثير الأدب الدكنى المعاكس لسابقه حيث يقول فى احدى غزلياته :

سجن كى حسن قرآن
برهيا هى مين نظر كركر
نهين بائى غلط اوس
مين ديكهيا زير وزير كركر
معانى اوربيان بهيتر بديع
اس كو سمجهتا هون
برهى هى حسن تيرى
كى مطول جس فكر كركر
كلام العشق همنا كون
سنا حكمت سون منطق مون
وكر نه اس مطول كون
ركهاتها مختصر كركر

« انظر الى حسن الحبيب وكأنى أقرأ القرآن ، لم أجد فيه خطأ واحدا لا فى فتحة ولا فى كسرة ، أفهم كل معانيه أفهم بيانه وبديعه طالعت حسنه وغرقت فى تفكير عميق لا قرار له ، لقد سمعتكلام

العشق بالحكمة وبالمنطق ، والا فكيف اختصرت قصة عشقى الطويلة ها هنا ... » .

النماذج الأولى للأدب الاردى فى جنوب الهند :

من العجيب أن اللغة التى ولدت حول دهلى فى شمال الهند اتجهت الى الدكن فى جنوب الهند لتصبح فى فترة بسيطة فى عمر اللغات لغة الأدب والكتابة ولتزدهر ازدهارا كبيرا وتتفوق على لغة الشمال التى كانت تئن تحت سطوة اللغة الفارسية ، وكان للتفوق الأدبى للغة الأردية فى الجنوب فى الكجرات والدكن عدة أسباب نذكر من بينها مايلى :

أولا : قام السلطان محمود الغزنوى بفتح الكجرات عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ثم قدم اليها السلطان معز الدين محمد بن سام الغورى سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م الا أن قطب الدين أيبك يعد أول سلطان مسلم يفتح هذه المنطقة بمعنى كلمة الفتح بينما الفتح الحقيقى الذى غير وجه المنطقة حضاريا وثقافيا واجتماعيا هو فتح علاء الدين خلجى للكجرات ، وكان ذلك عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م حين استولى على منطقة مالوه والدكن جميعها — ولما كانت هذه البلاد تبعد كثيرا عن دهلى فقد قام علاء الدين خلجى باعادة تنظيمها وتقسيمها الى محافظات ومراكز ، وعين المحافظين والمديرين وأقر الأمن والأمان فى المنطقة ونظم صفوف الجيش الذى ضم العديد من الأتراك الذين أقاموا بعائلاتهم وأسرهم فى مناطق الكجرات ومالوه والدكن ، وبعد مرور أكثر من ثلاثين عاما شعر هؤلاء الأتراك بأن هذه المنطقة أصبحت موطنهم الثانى ، ورغم أن هؤلاء المستوطنين كانوا فى الأصل من الأتراك الا أنهم قدموا من منطقة شمال الهند الممتدة من البنجاب حتى دهلى بعد أن أقاموا فيها سنوات عديدة ، فنزحوا ومعهم اللغة التى كان الشعب يتخاطب بها والتى كانت تروج فى الأسواق فلم يكن هؤلاء الناس يتكلمون فيما بينهم بالفارسية أو بالتركية ومن هنا حملوا هذه

اللغة وأضافوا اليهاكلمات اللهجات المحلية لمنطقة الدكن والكجرات وكذلك كلمات اللغة العربية حتى يعبروا عن أفكارهم ، وهكذا أصبحت لهذه اللغة القادمة من الشمال مكانة سياسية واجتماعية عالية وكان من الطبيعى أن تترك اللهجات واللغات المحلية أثرها على هذه اللغة الوافدة من الشمال الذى ظل يتعامل مع الجنوب فأصبحت لهذه اللغة صفة « العالمية » بين العديد من اللهجات المتناثرة داخل منطقة شبه القارة ، وبدأ الشعراء والمتصوفة فى استخدامها كوسيلة للتعبير عن أفكارهم وكحلقة وصل تربطهم وعامة الشعب وأطلقوا على هذه اللغة الأدبية اسم « كوجرى » فى منطقة الكجرات و « دكنى » فى منطقة الدكن .

ثانيا : قام السلطان محمد طغلق بعد استيلائه على دهلى بنقل العاصمة الى دولت آباد حتى يتمكن من ادارة شئون الدكن والكجرات ، وأصدر أمرا (سنة ١٣٢٧ م) بنقل موظفى الحكومة والضباط ورجال الأعمال الىدولت آباد ، وتمثل هذه الهجرة نقطة تحول فى تاريخ المنطقة فقد انتقل قسم كبير من سكان منطقة دهلى الى دولت آباد مما أدى الى زيادة التأثير الحضارى والثقافى لشمال الهند على مناطق الجنوب وكانت هذه الهجرة سمادا خصبا أفاد افادة شاملة تلك الأرض التى زرعت من قبل وظهر نبتها .

ثالثا : فى سنة ١٣٤٧ م قام أحد الأمراء الأتراك منعمال محمد طغلق باعلان العصيان ، وانفرد بالدكن وهكذا انقطعت صلة الجنوب بالشمال وظهرت الى الوجود الدولة البهمنية على يد أسرة تركية كانت تشعر بالفخر لانتسابها لمنطقة الدكن ، وأصبحت الدكنة هى لغتهم التى تقوم على أساسها قوميتهم وثقافتهم الدكنية ، واعتمد الأتراك فى ترتيب أمورهم على عناصر دكنية خالصة ، وشعر أهل الدكن بفرح لقيام دولتهم وانفصلت ثقافة الجنوب عن ثقافة الشمال وتميزت عنها الا أن لغة

الجنوب كانت فى الواقع هى اللغة الهندوية .

رابعا : ظلت أبواب الدكن مغلقة أمام الشمال نتيجة لسياسة الدفاع التى انتهجتها الدولة البهمنيـة الا أن الكجرات ظلت على علاقة بشمال الهند على مستوى بسيـط فقـد استقل بها عاملهـا الا أنه لم يعلن استقلاله هذا ، وفى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م انتشر فى الهند جميعها خبر قدوم تيمور بجيوش جرار فترك ناصر الدين محمود عامل آل طغلق دهلى وانطلق الى الكجـرات ومنها الى مالوه ، ولما رأى الشعب هذا الحال انطلق النـاس الى حيث الطـرق المفتوحة أمامهم ، ولما كانت أبواب الدكن مغلقة فقـد اتجهـوا الى الكجرات وكانت فى حالة اجتماعية واقتصادية أطيـب مما كانت عليها الدكن ، ومن هنا أصبحت جـزيرة النجاة أمام سكان الشـمال الذين هرب ملاحهم من السفينة وتركهم لا يدرون الى أين يتجهون ، وفى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م انتشر مرة ثانية خبر هجوم الأمير تيمور فبدأت الهجرة الثانية لسكان الشمال الى الكجرات ومنها هاجـر البعض الى الدكن ، وشعر الناس بالأمان فى الدكن والكجرات بعد صلح عقده تيمور مع فيروزشاه حاكم المنطقـة الذى أعلن ولاءه لتيمور .

خامسا : حيـن ضعفت سلطنـة دهلى أعلن عامل الكجرات ظفرخان استقلاله بالكجرات ، وحتى يحيط دولته بهالة من العظمة والأبهة قام برعاية أهل العلم والفن ومشـايخ الدولة ورجالها مما دفع العديد من رجال الدين والعلمـاء وأصحـاب الحـرف المختلفـة الى المجىء الى الكجرات طلبا لرعاية السلطان .

وهكذا أصبحت الأردية لغـة التفاهم ولغة التخاطب ولغة البلاط فى منطقة الدكن والكجرات ، وبدأ المتصوفة بنشر أفكارهم الدينيـة باستخدام هذه اللغة التى أصبحت حلقة الوصـل بين مختلف طبقات الشعب ، يتفاهمون بها فى حياتهم اليومية ، يتم عن طـريقها الدرس والتدريس ، وبها ينشد الشعـراء

أشعارهم ويتغنى بها المطـربون ، وتعزف الموسيقى نغماتها .

وهكذا ازدهـرت الفارسية فى شمال الهند على حسـاب الأردية بينما حققت الأردية تطورا عظيمـا وازدهرت فى الكجرات والدكن ، فقد اعتبر سكانها الأردية لغتهـم التى تمثل حائطا عاليا بينهم وبين الشمال ، كما قام الحكام برعـاية هذه اللغة وتشجيع المتحدثين بهـا مـن العـلماء والمشـايخ والأدباء والشعراء ، ولما كانت المنطقـة تعج بأناس ينتمون الى أجناس مختلفة فقد أصبحت الأردية هى اللغةالتى تضمهم معا وتحقق التجانس فيمـا بينهم كما قام رجال التصوف بدور فعال فى نشر هذه اللغة ورفعها الى مستوى لغة الأدب ، وهـذا مـا سنوضحـــه فى المقـــال التالى ان شاء الله .

د. سمير عبد الحميد ابراهيم

مع آيات من سورة النساء
في ليلة من رمضان

للأستاذ عبد الحميد الفضالي

(٢)

جاء فى ختام الكلمة الأولى قول الشاعر :

والنـــاس فى غفلاتهـــم
ورحى المنيـــة تطحـــن

وقد مهدت له بقــولى : وكأن الشاعر يصور ببيته أحوال المسلمين الغافلين وحدهم من دون الناس •

فالغفلة قد شاعت فيهم شيوعــا لا نظير له فى غيرهم •• مع وجود الغافلين فى كل أمة ، والطائشين والحمقى فى كل شعب•• وبخاصة فى الشعوب المتخلفة التى استولى عليها الغرب باســم الاستعمــار ، وهو فى حقيقته الافساد والاذلال والدمار •

فما أكثر الغفــلات التى غطت على أبصار المسلمين وبصائرهم••!! فصــاروا بها لا يتبينــون معــالم الطريق •• ولا يسيرون على هدى وبصيرة •• وانما يتخبطــون فى سيرهم ، ويخبطــون فى أمورهم خبط عشواء •• يستوى فى ذلك ــ مع الأسف الشــديد ــ أغلب الحاكمين والمحكومين ، وأكثــر الرؤساء والمرءوسين •• !!

انهم لا يوحدون الله التوحيــد الخالص النقى اللائق بالله ، وفــق ما تدعو اليه وتدل عليه النصوص التى لا شك فيها ، مــن القــرآن والسنــة •• وبالتالى لا يعمــلون بمقتضى هذا التوحيد الخالص النقى الــذى لا شرك فيــه ولا اشراك معه •• فلا يخشون أحدا الا الله ، ولا يعتزون الا بالله ، ولايستعينون بغير الله ضل ، ومن اعتز بغيــره الا به •• سبحانه •• فمن استعان ذل •• !!

وانهم بذلك لا يتقون الله فى أنفسهم ، ولا فى أولادهم ، ولا فى أوطانهم ، ولا فى معاملاتهم ، ولا فى دينهم •• فهم لا يعملون بما تستوجبه شريعتهم السمحة التى شرعها الله لهم ، لتحقيق أمنهم واسعادهم — مع ثبوت نفعها لهم ، بالتجارب التى مرت بهم ، أيام الصحو واليقظة والبعد عن الغفلة ، فى العاملين بها من آبائهم وأجدادهم • أولئك الذين عرفوا الله فعرفهم ، واستعانوا به فأعانهم ، فدانت لهم الدنيا ، وخضعت لهم الأيام ، وطاب بهم ولهم المقام ، فى المشرق العربى ، وفى مغربه •• بشهادة المؤرخين المنصفين من غير المسلمين •• فهم يذكرون على حد تعبيرهم — أن المسلمين أيام أمجادهم — كانوا رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ••

وأن ذلك كان شأنهم فى الأندلس •• فلما استحالت لياليهم خمرا وطربا ، ونهبا وسلبا ، ولهوا ولعبا ، ونساء وقمارا ، واسرافا وافراطا •• واستحال نهارهم نوما وخمولا ، وتفريطا واهمالا ، وتقصيرا فى أداء الواجبات ، وقعودا عن فعل الخيرات ، وانصرافا الى الشهوات ، وابتعادا عن تعاليم الاسلام ، وهدى الرسول والقرآن — ضاعت الأمجاد وزادت الأحقاد ، وانتشر فيما بينهم الفساد ، وتقلصت الأرض وضاعت البلاد ، وضاع العباد ••!!

وان تاريخ المآسى والويلات والحسرات — ليستعيد نفسه وفيهم •• بسبب ما بهم من غفلات — لا يريدون الاقلاع عنها ، أو التخلص منها ، أو الاعتبار بما كان منها ••!! والتاريخ دائما يعيد نفسه •• وما مأساة فلسطين ، والجولان ، واحتلال سيناء ، الا من هذا القبيل ••!!

ان أعداء الاسلام ، ليعلمون ما فى المسلمين الآن ، من جهل وسفه ، وحماقة وفرقة ، وضعف أمام الشهوات والملذات •• وهم من أجل ذلك لا يفوتون على أنفسهم الفرصة ، بل يستغلون فى العرب وفى المسلمين — أهواءهم ،

ويستثمرون غفلاتهم ، ويبـاركون فيهم انحرافاتهم ، وييسرون لهـم سبلها ، لاغراقهم فيها الى الأذقان ، فلا يفيقون منها الى اسلامهم الذى يوقظهم ، والذى يأخذ بأيديهـم الى عزهم وحياتهم وأمنهم وأمانهم ويخلصهم من أوهامهم وحماقاتهـم ومنكراتهم وغفلاتهم ، ويردهم الى صوابهم ورشادهم ، والى مكانهم اللائق بهم فى هذا الوجود ..! !

ولذا ، فان أعـداء الاسـلام والمسلمين ــ ليقفون دائما حجـر عثرة أمام النهضات الاسـلامية ، والدعـــوات الاصـــلاحية .. ويحاولون ما استطاعوا ــ قتل أية نهضة فى مهدها ، ووأد كل دعوة فى مكانها .. بوسائلهم الخاصـة التى يحسنونها ، ويبذلون المال ، وما هو أغلى مـن المـال .. الى الحـكام وأعوانهـم ــ لحـربها ومحوها .. وانهم ليستخدمون فى سبيـل ذلك ــ عمـلاءهم وغيـر عملائهم ، على سواء .. بخداعهم وتضليلهم وشراء ذممهم .. فـكل الضمائر عندهم تشترى كما تقول أمثالهم .. غير أن أثمـان الشراء تتفاوت ..فضمير يشترى بألف.. وضمير يشتـرى بعشرة آلاف .. وضمير يشتـرى بمئـات الآلاف فكل الضمائر كما تقول أمثالهـم تشتـــرى .. غيـــر أن أثمانها تتفاوت .. !!

ولـكن ــ كل هـؤلاء الذين تشترى ضمائرهم ، متاعهم قليل.. فعمرهم مهمـا طال قصيـر .. ثم مأواهم جهنـم وبئس المصير .. خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .. !!!!

ان المشكلة اذن فى أن ينجح المسلمون فى تصحيح العقيـدة ، وفى العمل بالشريعة .. ليتحقـق لهم الخير والقوة والهيبة والسيادة والقيادة والريادة ــ كمـا تحققت لأسلافهم من قبل ، فى عصور كان فيها غير المسلميـن يعيشـون فى ظلمات الجهل وفى دياجير الضلال. وكان المسلمون وحدهم ، هم الأعزة الشرفاء ، والقادة الأمناء ، والسادة العلماء .. لأنهـم كانوا يعملون بالـكتاب والحـكمة ، بالقـرآن

والسنة .. وهما جماع مكارم الأخلاق ، وحميد الصفات ، وشريف الغايات ، وأمن الحياة وأمانها .. !!!

فهل من عودة اليهما ، والتزام بهما ، ووقوف عند حدودهما .. فى جميع المجالات..تطبيقاعمليا ، وسلوكا فعليا .. ؟!!

انا اذن لمهتدون ..!!

لكننا ، والأسف يملأ قلوبنا — نعيش فى عصرنا وأيامنا — فى جاهلية جهلاء ، وحماقة حمقاء — أشد وادهى ، مما كان فى الجاهلية الأولى .. كما سبق ايضاحه والاشارة اليه ، فى عددى رجب وشعبان من هذا العام ، فى مجلة الأزهر الشريف ، تحت عنوان « المجتمع الفاضل كما يصوره النبى صلى الله عليه وسلم » ..!!

فهل نحن ، مع بعدنا عن الدين ، ومخالفتنا لشرعه القويم — نعد من المسلمين ؟ !!

أم أن الأمر لا يعدو ، فى حقيقة انتسابنا الى الاسلام — ما هو مدون فقط فى شهادة الميلاد ، أو فى البطاقة الشخصية ، أو العائلية ؟ !!

اننا فى الحقيقة — مسلمون وفق ما هو مكتوب فى خانة الديانة .. وهذا قد ينفع فى حصر أعداد المسلمين، ونسبتهم العددية ، بالنسبة لغيرهم من المواطنين ، فى وطننا العزيز ، وفى سائر الأوطان العربية والاسلامية !!

فنحن لا شك كثير .. ولكننا غثاء كغثاء السيل .. كما أخبر بذلك سيدنا وقائدنا ومرشدنا — رسول الله المبعوث رحمة للعالمين.. صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، ومن عمل بسنته واهتدى بهدايته ، الى يوم الدين.

ان الدين الاسلامى — ليس مجرد شعارات ولافتات .. ولا مجرد كلمات تنطق بها الأفواه ، ولا تعمل بها الجوارح .. ولكنه ، كما أومأت من قبل — دين يتطلب من كل مسلم ينتسب اليه أن يلم بحقائقه المامة تجعله على بصيرة من الأمر، وتضعه على الطريق الصحيح ،

وتعصمه من الزلل والانحراف ، فى سيره وسلوكه .!!

وتلك مهمة المستحفظين على الأمانات .. والمسئولين أمام الله الكبير المتعال — فى حدود ما استرعاهم ..اعمالا للحديث الشريف : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته .. »

فالمسئولية عامة شاملة .. من رئيس الدولة وكبير العائلة ..الى الخادم فى مال سيده .. فان الله سبحانه وتعالى — لسائل كل راع عما استرعاه .. حفظه أم ضيعه .. !!!

فالتطبيق العملى للشريعة الاسلامية — هو السلوك المطلوب من كل مسلم ينتسب بحق الى الاسلام .

وان التزام كل دولة مسلمة ، بحدود الله وشريعته — لهو الدليل على صدقها فى اسلامها ، وعلى أنها تنتمى بحق الى خير دين ، والى خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .. وبهذا وحده يتحقق للمسلمين فى أنحاء الدنيا — الوحدة الشاملة ، والسعادة الكاملة ، وعز الدنيا والآخرة ..!!

أما أن تسير كل دولة مسلمة على هواها ، وتنغمس فى خسيس الملذات والشهوات ، ولا تتقى الله فى المحرمات والحرمات .. سرا وعلانية .. وترتكس فى معاصيها الى الأذقان .. فذلك هو الوبال والضياع والخسران ..!!

وأما أن نأكل عندنا أموال اليتامى ظلما .. ونعطل آيات المواريث ، فلا نعمل بها ، ولا نورث النساء والبنات ، ونحتال على ظلمهن بشتى ألوان الاحتيالات .. فوق ما نشارك فيه غيرنا من سائر المعاصى والانحرافات .. فذلك هو السر فى بلائنا وضعفنا وذلنا ، وتفرق قلوبنا ، وتشتت جموعنا ، وغضب الله علينا ، وانتقامه منا ..!!!

وانما كانت هذه الغفلات فى غيبة الدين والايمان .. ونسيان الموت الذى تطحننا كل يوم رحاه ..

ان الايمان ، هو صمام الأمن والأمان ..!!

وان المؤمن الصادق ـ هو من أمنه الناس على أعراضهم ، ودمائهم ، وأموالهم .. فلا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . .ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن .. ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن .!!

وان تذكر الموت ـ لأكبر واعظ لمن أراد أن يتعظ ..!!

ولذا ورد فى الاثر : « من أرادو واعظا فالموت يكفيه ...».

وقد قيل : صاح شمر ولا تزل ذاكرا الموت فنسيانه ضلال مبين .

ورحم الله القائل :

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة
وانت على سوء من الفعل عاكف
واياك ان تحصى من الدهر ساعة
ولا لحظة الا وقلبك واجف
فبادر باعمال يسرك ان ترى
اذا نشرت يوم الحساب الصحائف

والى العيش مع الله فى آيات من سورة النساء :

* جعل الله الحرة الواحدة فى مقابل الاماء من غير حصر :

وذلك فى قوله تعالى : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم » .

لقد لفت نظرى أن الله تبارك وتعالى ، قد سوى بين الحرة الواحدة ، وبين الاماء من غير حصر ولا توقيت عدد .

وقد أجاب عن ذلك صاحب الكشاف .. بأن الاماء وان كثر عددهن ـ أقل تبعة وأقصر شغبا، وأخف مئونة من المهائر ، أى الزوجات الحرائر .. وأنه لا عليك من الاماء ، أكثرت منهن أم أقللت ، عدلت بينهن فى القسم أم لم تعدل ، عزلت عنهن أم لم تعزل ..!!

وقد يؤيد ما ذهب اليه صاحب الكشاف ـ ما يحكى عن الشافعى رحمه الله ـ من آنه فسر « أن لا تعولوا » فى قوله « ذلك أدنى أن لا تعولوا » ـ بأن لا تكثر عيالكم .. مأخوذ من : عال الرجل عياله يعولهم ، كمانهم يمونهم ـ اذا أنفق عليهم .. لأن من كثر عياله ، لزمه أن

يعولهم •• وفى ذلك مايصعب معه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب ••

وكلام الشافعى وهو من أعلام العلم وأئمة الشرع ورءوس المجتهدين — حقيق بالحمل على الصحة والسداد ، وأن لا يظن به تحريف «تعيلوا» الى «تعولوا» •• فقد قرأ طاووس « أن لاتعليوا» ، من أعال الرجل اذا كثر عياله •• وهذه القراءة تعضد الشافعى رحمه الله — من حيث المعنى الذى قصده •••!

* * *

* كيف يقل عيال من تسرى ؟

أما كيف يقل عيال من تسرى ، مع كثرة السرارى ، وفيهن ما فى الزوجات من الاستعداد للتناسل ؟ ! فجوابه ، أن الغرض بالتزوج التوالد والتناسل •• بخلاف التسرى •• ولذلك جاز العزل عن السرارى بغير اذنهن •• فكان التسرى مظنة لقلة الولد ، بالاضافة الى التزوج •• كتزوج الواحدة بالاضافة الى تزوج الأربع ••

* التسرى رق ، فكيف أباحه الاسلام ؟ !

ان الزواج من أمة — خطوة لرد اعتبارها وتكريمها ، أو المحافظة على كرامتها الانسانية كانسانة ••

أما التسرى بها ، ففيه الابقاء على رقها ، وفيه الاهانة لآدميتها •• فكيف أباح الاسلام التسرى ؟ !

** انها الضرورة التى أباحت استرقاق الاسرى هى ذاتها الضرورة التى اقتضت اباحة التسرى •• لأن مصير المسلمات حين يؤسرن من الكفار — كان كذلك •• بل كان شرا من ذلك •• فهى اذن الضرورة •• وهى اذن المعاملة بالمثل •• والمعاملة بالمثل ضرب من العدل •• حتى يتم الاتفاق على نظام لأسرى الحرب ، خير من هذا النظام الذى كان يسود العالم أيام تلك الحروب ••!!

** هذا ، مع ملاحظة أن الاسلام قدأباح الزواج بالأسيرة ، كخطوة الى تحريرها ورد اعتبارها •• قال تعالى : « ومن لم يستطع

منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن باذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان» .

** كما حث الاسلام على عتق الرقاب ، فى مواطن كثيرة من الكفارات .. كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وفيه التخلص من هذا الاسترقاق شيئا فشيئا ، والتدرج فى ازالته . .فهو ثقيل على نفوس الأحرار ..

والاسلام نصير الحرية وعزة الانسان .. وهو حرب على العبودية والمذلة لغير الله ..!!

** ان هؤلاء الأسيرات المسترقات — لهن مطالب فطرية ، يحسب حسابها فى حياتهن .. فاما أن تتم عن طريق الزواج ، وفيه الاعزاز والتكريم.. واما أن تتم عن طريق التسرى ، ما دام نظام استرقاق الأسرى بضروراته قائما .. !! فى ظل تلك الحروب التى كانت تبيح الاسترقاق بوجه عام ، للرجال والنساء ، على حد سواء .. قاتل الله تلك الحروب.. وقاتل المعتدين فيها .. وما كانت حروب الاسلام عدوانا .. بل كانت دفعا للظلم، وردا للعدوان ، وايقافا للمعتدين عند حدودهم ..!!

« أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا .. » .. « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ..

* * *

* أما شراء الجوارى فمخالف لروح الشريعة :

وأحب أن يكون مفهوما أن ما حدث بعد عصر الخلفاء الراشدين — فى أيام الأمويين والعباسيين ، ومن كان بعدهم — من تلك الحيوانية الشهوانية .. حيث كانت القصور تزدحم بالجوارى والسرارى ، عن طريق الشراء .. فقد لعبت فيه النخاسة دورا هاما .. وان الاسلام لبرىء من هذا الشراء ، ومن الاتجار فى النساء وغير النساء .. انه مخالف لروح الشريعة السمحة بلاجدال..!

انها الشريعة المكرمة لبنى الانسان. « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ..!!

* * *

** وكذلك الأمر ، فيما هو موجود الآن ، من الجوارى والسرارى — فى قصور أمراء الدول العربية والاسلامية .. من أثرياء البترول وغير البترول .. فهو حرام قطعا ، والاسلام برىء منه براءته من النخاسة ودورها فى شراء الجوارى والسرارى واسترقاق النساء .. فهؤلاء مجلوبات عن طريق الشراء .. ولسن بأسيرات حروب نشبت بين مسلمين وغير مسلمين ، اقتضى نظامها هذا التعامل الضرورى البغيض — وبخاصة فى نظر الاسلام ..!!

** وانه لا يعقل على الاطلاق أن يكون على وجه البسيطة من فيه رق الآن .. لأن طول الزمن يورث جهالة بواقع الأمر .. والتملك بالشراء شرطه أن يكون المشترى معلوم الرق قطعا ، والا لتبايع الناس بعضهم بعضا ..!!

** الظاهر أن هؤلاء الذين يتعاملون مع النخاسين فى شراء الجوارى .. لاشباع نهمهم فى شهواتهم التى يعيشون لها — لايفهمون دينهم ، ولايفهمون روح الاسلام ، ولا حقائق الاسلام ..!!

** ان الرق كان ضرورة حروب اقتضتها أنظمتها .. وكان المسلمون فيها مكرهين على معاملة الكافرين بالأسلوب الذى يفهمه الكفار فى الارهاب والاذلال .. فهم مضطرون للتعامل بالمثل ، والا سقطت هيبتهم فى نظر أعدائهم .. والضرورة دائما تقدر بقدرها ..!!

** فهل للذين يتهمون الاسلام عن جهل بعداوته للحرية أن يتبينوا حقائق الامور ؟ ! وأن يعلموا أن تجار الرقيق — هم من الأوربيين ، وبخاصة من الانجليز .. فهم الذين كانوا يوردون الى أمريكا وغير أمريكا الآلاف ، وآلاف الآلاف من سود أفريقيا .. رجالا ونساء ..!!

ان الاسلام ليس أبغض اليه من الرق والاذلال ، واستبعاد الانسان لأخيه الانسان ..

انه شجع على عتق الرقاب .. وجعله كفارة فى ارتكاب الكثير من الأخطاء .. حتى فى كفارة اليمين .. كما جعل للمكاتبين لتحريرهم - نصيبا فى الزكاة ، لمعاونتهم على تحريرهم من الرق ، ولتخليصهم من الاستبعاد ..« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب » .

** أماآن الأوان ليعلم أعداء الاسلام ، أنه خير دين يحترم حرية الانسان وكرامة الانسان وحقوق الانسان ، فى جميع مناحى الحياة ..؟؟!!

انه دين الرحمة بالانسان وبالحيوان ، على سواء ... فهذا رسول الاسلام - رسول الرحمة المهداة - يقول : « من لا يرحم لا يُرحم » ، ويقول : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ،ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » ، ويقول : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ...!!

وليس أدل على سماحة الاسلام ، وتأكيده على اخاء الانسان لأخيه الانسان وعلى دعوة الخير بين بنى الانسان ، من قول الله تبارك وتعالى :« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير» .

* * *

* حق المرأة فى صداقها :

انها فى الحقيقة - لوقفة حول معنى قوله تعالى :

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة .. » الى قوله : « فكلوه هنيئا مريئا » .

ففى هذه الآية الكريمة - يحدد الله تبارك وتعالى - حق المرأة فى صداقها ، أى حقها فى مهرها ، فيوجب على الأزواج أن يعطوا هذا الصداق لنسائهم .. ويتحتم أن تقبض كل امرأة صداقها ، نحلة ،

أى ملكا خاصا ، منحـــولا لها ، مسلما ليدها ، فهو حقها ..!!

وقيل : ان الخطاب للأوليــاء ، وليس للأزواج ، لأنهـــم كانوا يأخذون مهـــور بناتهـــم ، وكانوا يقولون : « هنيئا لك النافجــة » لمن تولد له بنت .. يعنون تأخذ مهرها ، فتنفج به مـــالك ، أى تعظمه ..!!

وقيل : المراد بقوله « نحــلة » أى ديانة ، أى آتوهن مهورهـــن ديانة .. أى دينا من الله شرعــه وفرضــه .. فالنحــلة وردت فى اللغة بمعنى الملة والديانة .. ولذا قيل : نحلة الاسلام خير النحل.. أى خير الديانات .. وفلان ينتحل كذا ، أى يدين به ..!!

** ثم ماذا

ثم انه اذا شــاءت الزوجــة أن تنزل عن شىء من صداقها ، كهبــة بعد قبضه عن طيب نفس ، فهـــو عندئذ فقط ــ حلال للــزوج ، هنىء مرىء ..!!

اما ان اضطـــرت الى الهبة ، نتيجة مشاكسة الزوج لها ، وسوء معاشرته ، فليس ذلك عـــن طيب نفس ، ولا يحل للزوج أن ينفـــق منه شيئا . .ولذا قالوا : فـــان وهبت له ، ثم طلبت منه بعد الهبة ، علم أنها لم تطب عنه نفسا ..!!

فقد ورد عن الشعبى : أن رجلا أتى مع امرأته « شريحا القاضى» فى عطية أعطتها اياه ، وهى تطلب أن ترجـــع ، فقـــال شريح : رد عليها .. فقال الرجل : أليس قـــد قال الله تعالى : «فان طبن لكم..»؟ قال شريح : لو طابت نفسها عنه ، لما رجعت فيه ..

وعنه أنه قال : « أقيلها فيمـــا وهبت ، ولا أقيله ، لأنهن يخدعن» .

وعن عمر ــ رضى الله عنـــه ــ انه كتب الى قضاته : « ان النساء يعطين رغبة ورهبة ، فأيما امـــرأة أعطت ، ثم أرادت أن ترجع ، فذلك لها » ..

* * *

** أما حكمة قبض المهر كاملا قبل التنازل عن شىء منه ، فهـــو تمكينها من حقها ، حتى اذا ردت منه جزءا ، ردته عن رضى حقيقى ، وعن اختيار كامل ..!

أما لو تركت منه هذا الجزء قبل قبضه ، فربما كانت هناك شبهة اضطرار فى أنها تنزل عن جزء لتحصل على الباقى ..!!

** هذا ، والعلاقات بين الزوجين يجب أن تقوم على رضى كامل ، واختيار مطلق ، وسماحة نابعة من القلب ، زائدة عن الفريضة ..!!

أفبعد هذا سمو ورفعة ، واخلاص وحسن عشرة ؟ !!

ان فى هذا لتكريما للمرأة ، وللرجل على سواء ..!!

انه الاسلام ، جماع مكارم الأخلاق .

* * *

* ثم وقفة مع السفهاء :

السفهاء فى آية « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا » — هم المبذرون أموالهم ، الذين ينفقونها فيما لا ينبغى ، ولا طاقة لهم باصلاحها وتثميرها وحسن التصرف فيها ..!!

والخطاب فى قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » للأولياء .. والأموال هنا أموال السفهاء ..

وانما أضيفت الى الأولياء أشعارا لهم بعظم المسئولية الملقاة على عواتقهم بشأنها .. هذا من ناحية — فهم مسئولون عنها مسئوليتهم عن أموالهم الخاصة التى يولونها رعايتهم ، أمام الله .. فى حسن ادارتها ، وحسن التصرف فيها لصالح السفهاء من اليتامى.. ومن ناحية أخرى — فهم عادة من أقرب الأقربين الى السفهاء .. من أسرة واحدة ، وعائلة متعاونة مترابطة .. والمال فى أصله وحقيقته — مال هذه الأسرة ، بحكم مابينهم من توارث وتكافل ، ومن حقوق وواجبات توجب تعاونهم وتضامنهم ، وأن يمد القادرون أيديهم الى غير القادرين منهم .. فلا غرابة اذن ، فى اضافة أموال السفهاء الى الأولياء ، لما ذكر من هذه المعانى ، وغيرها ..!!

ويقول صاحب الكشاف :

وأضاف أموال السفهاء الى الأولياء ، لأنها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم .. كما قال : « ولا تقتلوا أنفسكم » ، « فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » ..!!

أما الدليل على انه خطاب للأولياء فى اموال اليتامى ـ فقوله تعالى : « وارزقوهم فيها واكسوهم » ، ووصفها « بالتى جعل الله لكم قياما » ، أى تقومون بها وتنتعشون .. ولو ضيعتموها لضعتم ، فكأنها فى أنفسها قيامكم وانتعاشكم ..!

ان المال اذن ـ مال الجماعة ، أعطاه الله لها ، لتقوم به أمورها ، وينتعشون بحسن رعايته وتدبيره واستثماره ، والانفاق منه فيما ينبغى.. واليتامى أو مورثوهم ـ انما يملكون فقط حق الانتفاع بهذا المال ، ما داموا عليه أمناء ، وما داموا قادرين على تدبيره وتثميره ..

فان عجزوا عن تدبيره وتثميره وحسن التصرف فيه ـ فلا حق لهم فى التصرف فى هذه الأموال. وانما تعطى لمن يحسن التصرف فيها من الجماعة ، مع مراعاة قرب درجته من قرابته لليتيم . وبهذا يتحقق مبدأ التكافل العائلى الذى هو جزء هام من التكافل العام ..!

أما السفيه فله حقه الكامل فى الرزق والكسوة وحسن المعاملة ، حتى بالكلمة الطيبة المشعرة بحبه وتقديره ، والمشجعة له على ما فيه خيره واسعاده ، « وقولوا لهم قولا معروفا » ..

قال ابن جريج : القول المعروف ـ عدة جميلة . .كأن يقال لهم : ان صلحتم ورشدتم ـ سلمنا اليكم أموالكم .

ولكن المعروف أعم من ذلك.. فكل ما سكنت اليه النفس وأحبته، لحسنه عقلا أو شرعا ، من قول أو عمل ـ فهو معروف ـ وما أنكرته ونفرت منه ، لقبحه فهو منكر ..!!

* * *

** المال سلاح المؤمن :

وكان السلف ــ رضوان الله عليهم ــ يقولون : المال سلاح المؤمن..ولأن أترك مالا لايحاسبنى الله عليه ــ خير من أن أحتاج الى الناس ..!!

وعن سفيان ، وكانت له بضاعة يقلبها ويقول : لولاها لتمندل بى بنو العباس ..!

وعن غيره ، وقد قيل له : ان أموالك تدنيك من الدنيا..فقال : لئن أدنتنى من الدنيا ، لقد صانتنى عنها ..!!

وكانوا يقولون : اتجروا ، واكتسبوا ، فانكم فى زمان اذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه . .وربما رأوا رجلا فى جنازة فقالوا له : اذهب الى دكانك .. فماذاكانوا يقولون ، لو عاشوا فى عصرنا الذى نحن فيه ؟!!

** فى ابتلاء اليتامى والنهى عن الاسراف والمبادرة :

الابتلاء هو الاختبار والامتحان ..

وقد أمر الله سبحانه ، الأولياء باختبار عقول اليتامى ، وتعرف أحوالهم وتصرفاتهم ، قبل البلوغ ، حتى اذا ما تبينوا منهم رشدا ، أى هداية ــ دفعوا اليهم أموالهم من غير تأخير عن حد البلوغ ..وذلك فى قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ... » .

** واختلف فى الابتلاء والرشد ، عند الفقهاء ..

فالابتلاء عند أبى حنيفة وأصحابه ــ أن يدفع اليه ما يتصرف فيه ، حتى يستبين حاله فيما يجىء منه ..

والرشد ــ التهدى الى وجوه التصرف .. وعن ابن عباس : الصلاح فى العقل ، والحفظ للمال .

وعند مالك والشافعى :

الابتلاء ــ أن يتتبع أحواله وتصرفه ، فى الأخذ والاعطاء ، ويتبصر مخايله وميله الى الدين .

والرشد ــ الصلاح فى الدين ، لأن الفسق مفسدة للمال ..!

** فان لم يؤنس منه رشد الى حد البلوغ ..

فعند أبى حنيفة رحمه الله ـ ينتظر الى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ـ ثمانى عشرة سنة .. فاذا زادت عليها سبع سنين ، وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الانسان ، لقوله عليه السلام : « مروهم بالصلاة لسبع » ـ دفع اليه ماله ، وأنس منه الرشد أو لم يؤنس .

وعند أصحابه ـ لا يدفع اليه أبدا ، الا بايناس الرشد ..

** وتنكيرالر شد ، فى قوله تعالى « رشدا » يفيد أنه نوع الرشد ، وهو الرشد فى التصرف والتجارة .. أو هوطرف من الرشد ، ومخيلة من مخايله.. حتى لا ينتظر به تمام الرشد .

* * *

** ثم ينهى الله الأوصياء هنا ، عن أكل أموال التامى عن طريق الاسراف والمبادرة .

يقول لهم : لا تأكلوا أموال اليتامى مسرفين ، ومبادرين كبرهم .. انهم كانوا يسرفون فى الانفاق ، ويقولون : ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا.. وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : « ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أنيكبروا» .

وان واقع الحياة ليثبت وجود هذه الظاهرة الأسيفة ، كلما قرب ميعاد تسلم الأموال منأيدىأولئك الأوصياء الذين لا يقنعون بالحلال ..!!

انهم ليأكلونها فى زماننا ، من بدء اشرافهم على اليتامى ..!!

بل انهم ليستلبونها منهم ، قبيل موت مورث اليتامى ، أو بعيد موته ـ بوسائلهم وحيلهم الاجرامية التى برعوا فيها.. لأنهم لا يتقون الله ، ولا يخافونه على أنفسهم ، ولا على أولادهم من بعدهم ..!!

وهم بذلك انما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا.. كما أخبرت بذلك الآية المنذرة لهؤلاء المعتدين الذين لا يقنعون بحلالهم عن حرامهم .. فانتزعت الرحمة من قلوبهم ..

والمعنى أنهم بأكلهم لأموال اليتامى — انما يأكلون ما يجر الى النار ، فكأنه نار فى الحقيقة.

أما السعير التى سيصلون نارها — فهى نار مستعرة شديدة الاحراق والتعذيب .

ولكن تنكير « سعيرا » — يفيد أنها نار مبهمة الوصف ، لا يعلم مدى شدتها وفظاعتها وحقيقتها ، الا الله خالقها ، لتعذيب هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ..!!! فهل من معتبر ؟ !!!

وقد ورد فى الأثر الشريف ، أن آكل مال اليتيم ، يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه ، وأنفه .. فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا..!!

وتلك لافتة تدل عليه ، وتشير اليه ، يفتضح بها يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .. يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ..!!!

* * *

** الأكل بالمعروف والاستعفاف

ورد بهما الأمر للوصى على مال اليتيم .. فى قوله تعالى :

« ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف» .

وذلك يدل على أن للوصى حقا فى أموال اليتامى ، لقيامه عليها .

ولكن الآية تدل أيضا على أن الوصى لا يخلو أمره ، من أن يكون غنيا ، أو يكون فقيرا ..

ولكل حكمه .. فان كان غنيا ، فليستعفف ، أى فلا يأكل من مال اليتيم ، ولا يطمع فيه ، وانما يقنع بما رزقه من الغنى ، اشفاقا على اليتيم ، وابقاء على ماله ، ورحمة به .. !!

وان كان فقيرا ، فليأكل بالمعروف .. قوتا مقدرا ، محتاط فى تقديره ، على وجه الأجرة .. أو استقراضا . .على ما فى ذلك من الخلاف .

فعن النبى — صلى الله عليه وسلم — أن رجلا قال له : ان فى حجرى يتيما ، أفآكل من ماله ؟ ! قال : « بالمعروف ، غير متأثل مالا ، ولا واق مالك بماله» فقال : أفأضربه ؟ قال : « مما كنت ضاربا منه ولدك » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه — أن ولى اليتيم قال له : أفأشرب من لبن ابله ؟

قال : « ان كنت تبغى ضالتها ، وتلوط حوضها ، وتهنا جرباها ، وتسقيها يوم وردها ، فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك فى الحلب » •

وعن الشعبى : يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه •• وعنه : كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضى •

وعن مجاهد : يستلف ، فاذا أيسر أدى •

وعن سعيد بن جبير : ان شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ، ولبس مايستره من الثياب ، وأخذ القوت ، ولا يجاوزه••فان أيسر ، قضاه ، وان أعسر ، فهو فى حل•

وعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة والى اليتيم •• ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف ، واذا أيسرت قضيت » !!!

هذا ، واستعف أبلغ من عف ، كأنه طالب زيادة العفة •

وكل ما تقدم وغيره كثير — يدل أبلغ دلالة ، على واجب الأوصياء ، وعظيم مسئوليتهم ، حيال أموال اليتامى • •فلا يمسونها بسوء أبدا •• ولا يتناولون منها الا عند الضرورة القصوى •• فان أيسروا قضوا •• !!

ان هذا هو الاسلام ، فى حدبه وعطفه على الأيتام ••!!!

فهل آن للناس أن يتقوا الله فيهم ؟ !!

ان الله كان على كل شىء حسيبا •

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا » •

عبد الحميد الفضالى

المعرفة بين الفلسفة والإسلام

للأستاذ احمد عبد الرحيم السايح

المعـــــرفة :

ادراك الشيء بتفــكر وتــدبر لأثره .. .. والمعرفة أخص من العلم ، ويقال فلان يعرف الله .. ولا يقال يعلم الله ، متعــديا الى مفعول واحد ..

وعرفه يعرفه معرفة وعرفانا ، فهو عارف .. والعلم والمعرفة ، يفرق بينهما من جهة اللفظ ، ومن جهة المعنى ..

أما اللفظ :

ففعل المعرفة يقع على مفعــول واحد . قال تعالى : « فعــرفهم وهم له منكرون » (١) .. وفعل العلم يقتضى مفعــولين كقــوله تعــالى : « فــان علمتــوهن مؤمنات » (٢) . واذا وقــع على مفعول واحد كان بمعنى المعــرفة كقوله تعالى : « وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (٣) .

وأما الفرق من جهــة المعنى فمن وجــوه :

أحـــدها :

أن المعرفة تتعلق بذات الشيء ، والعلم يتعلق بأحــوال الشيء ، فتقول :

عرفت أباك وعلمته صالحــا ، ولذلك جاء الأمر فى القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى : « فاعلم أنه لا اله الا الله » (٤) . فالمعرفة : تصور صورة الشيء ، والعلم حضــور أحــوال الشيء وصفاته ، والمعرفة نسبة التصور ، والعلم نسبة التصديق .. ..

(١) سورة يوسف الاية رقم ٥٨
(٢) سورة الممتحنة الاية رقم ١٠
(٣) سورة الانفال الاية رقم ٦٠
(٤) سورة محمد الاية رقم ١٩

ثانيهـا :

ان المعرفة فى الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد ادراكه ، فاذا أدركه قرل عرفه ، أو تكون وصفا له بصفات قامت فى نفسه . فاذا رآه وعلم انه الموصوف بها قيل : عرفه . قال تعالى : « وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » (٥) .. فالمعرفة نسبة الذكر فى النفس ، وهو حضـور ما كان غائبا عن الذاكر . ولهـذا كان ضدها الانكار ، وضد العلم الجهل .. قال تعالى : « يعرفون نعمة الله ، ثم ينكرونها » (٦) .

ويقـال عرف الحق فأقـربه ، وعرفه فأنكره .. ..

ثالثهـا :

أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غـيره ، والعـلم يفيـد تميز ما يوصف به عن غيره .

رابعهـا :

انك اذا قلت : علمت محمـدا لم تفد المخاطب شيئا ، لأنه ينتظر أن تخبره على أى حال علمته .. فاذا قلت كريمـا أو شـجاعا ، حصلت له الفائدة .. واذا قلت عرفت محمدا ، استفاد المخـاطب انك أثبته وميزته عن غيره ، ولم يبق أن ينتظر شيئا آخر ..

خامسها :

ان المعـرفة علم يعـين الشيء مفصلا عما سواه ، بخلاف العلم فانه يتعـلق بالشيء مجمـلا .. والفرق بين العلم والمعرفة عنـد المحققين أن المعرفة هى العلم الذى يقـوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعـرفة على مدلول العلم وحده (٧) . .ولـكن اذا كانت المعرفة لها كل هذا ، فهـل هى فطـرية ؟ أم مكتسـبة ؟ أم مزيج ؟

---

(٥) سورة يوسف الاية رقم ٥٨ (٦) سورة النحل الاية رقم ٨٣

(٧) راجع بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى الجزء الرابع ص ٤٧ طبع المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقـاهرة . وانظر مقالنا « المعرفة فى ظل الاسلام » فى مجلة قافلة الزيت ع ١١ ص ٢ مجـلد ٢٠ السعودية ١٣٩٢هـ .

فى هـذا تحصـل للدارسـين والباحثين ثلاثة آراء ، ولكل رأى من الادلة والبراهـين ما ينهض مدعما له :

أولا :

يقرر كثـير من رجال الفـكر الفلسفى أن المعـرفة الانسـانية جميعهـا مـكتسبة وأن طـريق اكتسابها الحواس •

ويرى الفلاسفـة : أننا ندرك الأشياء عن طـريق الحـواس ، فالشـخص الذى يـولد أصـم لا يمـكن أن يعـرف الأصـوات وهى موضوع السمع •

وكذلك الشـخص الذى يولد أعمى لا يمكن أن يعرف الألوان • فنحن ندرك الأشيـاء الخـارجية عـن طـريق الحـواس : البصر أو السمع أو اللمس أو الشم •

وبمعنى آخـر :

أن الأجسـام الخارجيـة هى مجموعة من الاحساسات ••

أو بمعنى ثالث :

نحن لا ندرك الأشياء الخارجية •• وانما ندرك أنفسنا ، لأننـا لا يمكن أن نعرف الشىء الخارجى كهذا الكتاب الا عن طريق هـذه النوافذ التى نطل منها على العالم الخارجى •

وعن طريق هـذه الاحساسات التى تتجمع وتنتظم بعد نفاذها من هذه النوافذ « الحواس » نعرف الأشياء •• فأنا لا أعرف الكتاب ، وانما أعرف الاحساسات الموجودة فى عقلى عن هذا الكتاب ••

معنى ذلك :

أن هنـاك عقـلا يتلقى هـذه والاحساسات ، وأن العقل كالصفحة البيضاء يتلقى الاحساسات فتكون المعـرفة ••

ثانيا :

وقالت فئة أخرى : ان المعرفة فطـرية بمعنى أن الانسـان يولد ونفسـه عالمـة بكل شىء ، لأن النفس قبل اتصالها بالبدن كانت تعيش فى عالم المثل فاطلعت على كل شىء وعرفت كل شىء ، ولمـا اتصـلت بالجسـد نسيت ••• وبمعنى آخـر أن الانسـان يولد

ونفسه قد فطرت على معرفة الاشياء .. فاذا عرفت النفس شيئا ، أو ادرك الانسان شيئا ، فانه فى الواقع لا يدرك شيئا جديدا ، ولا يكتسب معرفة جديدة ، ولكنه يتذكر ما كان يعرفه فى عالم المثل .. وهذا تفسير قول (أفلاطون) : « العلم تذكر ، والجهل نسيان » ولعل بعض الآراء فى التصوف تنحو هذا النحو ، وتزعم امكان المعرفة بغير الحواس (٨) .

ثالثا :

ويذهب آخرون الى أن العقل البشرى بطبيعته يحتوى على جزء من المعرفة الفطرية ، يضاف اليها جزء آخر مكتسب .

واختلف العلماء فى هذا الجزء الفطرى .. فقال بعضهم : ان المعرفة البديهية ، هى المعرفة الفطرية مثل : الكل أعظم من الجزء .. .. ويذهب « كانت » الفيلسوف الألمانى الى أن العقل البشرى حين يكتسب المعرفة المحسوسة للأشياء الخارجية يضيف اليها شيئا من جوهره وطبيعته ، ويصوغ المعرفة للمحسوسات الخارجية فى قالبين :

القالب الأول : المكان .

والقلب الثانى : الزمان .

وكأنَّ الفيلسوف « كانت » يريد أن يقول : ان المكان والزمان لا يتعلقان بالأشياء الخارجية فحسب ، بل هما انسانيان ، فمن طبيعة العقل وجود هاتين الصورتين وبخاصة صورة المكان وصورة الزمان ، اللتين لا نستطيع أن ندرك الأشياء المحسوسة الا داخلة فيهما .

والرأى الذى يذهب اليه علماء الطبيعة ، وخصوصا الذين يأخذون بنظرية « اينشتاين » وهى أحدث النظريات فى تفسير الكون يتضمن أن المعرفة الموجودة فى عقولنا لا تنفصل عن جملة الحضارة أو الثقافة السائدة فى العصر الذى يعيش فيه صاحب المعرفة . وأننا نرى أن أدقاء

(٨) معانى الفلسفة للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ٨٨ الطبعة الاولى / القاهرة .

الباحثين قد أجمعوا على أن الثقافة البشرية سلسلة متماسكة الحلقات .. تؤثر سوابقها فى لواحقها ، على صورة قد تكون واضحة ، وقد تكون غامضة .. .. وجوهر المعرفة موجود وجودا محققا ، ولكن نعت المعرفة من قلة أو كثرة أو نسبية أو اطلاق ، أو فطرية أو اكتسابية .. هو الذى اختلف فيه الفلاسفة منذ أقدم عصور الفلسفة الانسانية .. فهى تارة نسبية .. وأخرى مطلقة .. وثالثة فطرية كلها .. ورابعة مكتسبة كلها ترتكز على التجارب •

وكذلك تعيين القوة العارفة وتحديد مدى اختصاصها ، فمرة هى الحواس وحدها كما عند « هيراقليطس » وأخرى هى الحواس مع العقل كما يرى « أرسطو » وثالثة هى البصيرة كما يرى « أفلاطون » ورابعة هى العقل وحده كما يرى « ديكارت » •

ويعيننا أن تعرف أن المعارف الانسانية تنقسم الى قسمين :

القسم الأول :

أن المعارف الانسانية هى عبارة عن مجموعة المشاعر والاحساسات المادية المتحصلة للانسان بواسطة بعض أجزاء بدنه .. وهى تمتاز بأنها بسيطة ساذجة خالية من الدقة والتعمق .. ويصفها الفيلسوف « هيراقليطس » بأنها أشبه بماء يسيل يمين شطآن غير محدودة سيرا غير محدود المصير .. ونحن مدينون بهذه المعارف للحواس التى تستعين فى توصيلها الينا بالزمان والمكان •

ولكن ليس هذا هو كل شىء .. بل ان الحواس تعانى فى نقل تلك المعارف عمليتين لا بد منهما لحصولهما لدينا وهما :

أولا :

ارتسام تلك الأشياء المادية المراد نقلها •

ثانيا

نقل تلك الرسوم الى مكانها الطبيعى من النفس البشرية • فالمعرفة العامية لها بالضرورة درجتان :

الدرجة الأولى :

المعرفة الاحساسية البحتة ، وهى لا علاقة لها بذكريات الماضى ، ولا بأخبار المستقبل .

الدرجة الثانية :

هى ما تشترك النفس فى عمليته ، وهو منظم ثابت ، يتناول ماضى الحياة وحاضرها ، ومستقبلها .

القسم الثانى :

المعرفة العلمية : وهى التى يعول عليها فى الحياة الانسانية ، ويعتمد عليها الانسان فى الوصول الى ما قدر له .

وأظهر الفروق بين المعرفة العامية العلمية هى :

* أن المعرفة العامية مقصورة على النواحى المادية والاجتماعية فى الحياة ، بينما المعرفة الفلسفية تتناول فوق هذا تدبر أسرار الكون والوجود .

* ان المعرفة العامية موجودة لدى جميع أفراد بنى الانسان ، على حين أن المعرفة الفلسفية مقصورة على أصحاب العقول المفكرة .

* أن المعرفة العامية فطرية توجد لدى كل من توفر فيه القدر المحقق للانسانية من العقل ، ولكن المعرفة الفلسفية مكتسبة بالمران والتطبيق الدقيق .

* أن المعرفة العامية معرضة للتأثر بالغريزة أو بالعاطفة ، فى حين أن المعرفة الفلسفية خليقة بأن تكون بعيدة من أثر هذين الباعثين » (٩) .

فالمعرفة تشمل محيطات واسعة تبدأ بالمعرفة العامية التى يشترك فيها جميع أفراد النوع البشرى .. ثم تصعد الى درجة التجارب الحسية على أيدى الطبيعيين أو الكيميائيين .. ثم تستمر فى صعودها الى درجة النظر العقلى عند الرياضيين والفلاسفة ، لكى تنتهى عند مرتبة التجارب التنسكية .

---

(٩) المعرفة عند مفكرى المسلمين للدكتور محمد غلاب ص ٢١ ، ٢٢ طبع الدار المصرية للنشر .

ومن هذا يتبين أن المعرفة تتطلب جهودا ضخمة ، للاحاطة الشاملة التى تضمن القدرة على منح كل غصن من أغصان دوحتها المترامية الأطراف ، الطابع الذى يميزه عن غيره •

واذا أردنا أن تتبين المعرفة فى الاسلام ، فيجدر أن نشير الى نظريات المعرفة فى أكثر الآراء الفلسفية مع أبعاد الآراء المتطرفة التى ابتدعها المنحرفون ، وسنكتفى بالآراء التى تتمتع بالسيادة الفكرية ، وتعتمد على أدلة فوق مالها من رجال ومؤيدين •

الرأى التجريبى :

ورجال هذا الرأى يقولون : أن المعارف مهما بلغت من التجريد والاستقلال عن الأمور الحسية ، فلا يمكن القول بأنها أمور مركزة فى الفطرة ، بل هى كغيرها يكتسبها الانسان عن طريق الملاحظة والتجربة •

ويفسر التجريبيون نشأة العلوم الرياضية ، بأن الانسان قد اتجه منذ القدم الى الظواهر الحسية ، فقاس الأبعاد والحصى والسطوح والأشكال ، واستخدم بعض الوسائل الحسية كالأصابع والحصى فى التعبير عن الأعداد ، ثم استطاع آخر الأمر أن يجرد المعانى الرياضية من ملابساتها الحسية ، فاهتدى الى الخط المستقيم والخطوط المتوازية والمربع والدائرة وغير ذلك من الأشكال الهندسية (١٠) •

وطريق المعرفة فى المذهب التجريبى هو : الخبرة الحسية واذا أغلقت الحواس أبوابها انعدمت المعرفة ، فلن تنشأ فى العقل أفكاره ، الا اذا سبقتها مؤثرات حسية (١١) •

الرأى العقلى :

« ورجال هذا الرأى » يرون أن العقل وحده كاف فى الوصول الى المعارف وادراك مفاهيمها •

---

(١٠) محاضرات فى مناهج البحث للشيخ محمد خليل هراس ص ١٣ دار الطباعة المحمدية .

(١١) المحاضرات العامة للموسم الثقافى الثانى للأزهر ص ٩٠ مطبعة الأزهر ١٩٦٠ م .

وليس الانسان بحاجة الى أن يرجع الى الطبيعة لكى توحى اليه بفكرة « الكم المتصل » أو « الكم المنفصل » أو ترشده الى التعاريف الرياضية .. بل ان هذه المعانى توجد فى العقل بصفة فطرية وليست مكتسبة بالتجربة .. والأمور الظاهرية هى عوامل ثانوية تحفز العقل على الابتكار والابداع والايجاد .

وطريق المعرفة فى الرأى العقلى لا يرتكز على الحواس وحدها لأنها تخطىء وتصيب ، ولهذا لا تصلح أساسا للمعرفة . وانما أساس المعرفة هو العقل الذى يدرك ادراكا مباشرا والعقل الذى يشك ويفهم يدرك ويثبت ويريد ويشعر ـ كما يقرر « ديكارت » وهو صاحب الرأى العقلى فى الفلسفة الحديثة .

والعقليون لا يرفضون ما تجىء به الحواس ، ولكنهم لا يعتمدون عليها اعتمادا كليا ولا يقطعون فى الأخذ بها .

الرأى النقدى :

ويطلق الباحثون على رجال هذا الرأى « الموفقين » ويرى هؤلاء : أنه لا تعارض بين المذهب التجريبى والرأى العقلى بل انه من الممكن الجمع بينهما ، وان كلا من العقليين والتجريبيين قد أدرك وجهى الحقيقة .. وغفل عن وجهها الآخر ، فتعصب لرأيه ، وغلا فى الانتصار له .. والحقيقة انما تتم بالعقل والتجربة ، فكلاهما متمم للآخر . فليست المعانى فطرية فى النفس كما يزعم العقليون ، وليس العقل وحده كافيا فى كشف المعارف . كما أن الملاحظات والتجارب لا يمكن أن تكون هى المنبع الوحيد للمعرفة أو هى العمدة فى ادراكها .

فالرأى النقدى يجمع بين الرأى التجريبى والرأى العقلى . وقد رأى ... (كانت) هذا الرأى مقررا أن المعرفة لا تتم الا بالخبرة الحسية والمبادىء العقلية معا ولا شك عند « كانت » فى ان جانبا منها يأتى من الخارج ، وهو جانب الحسية التى تتثبت من الأشياء

وحينما يتلقى العقل ذلك ، ينظمه فى حدوده .. ومن ثم يكون جزء من المعرفة معتمدا فى مضمونه على خبرة الحواس وفى قالبه على فطرة العقل فى طريقة الادراك . وهكذا يكون كل جزء من المعرفة حسيا وعقليا فى آن واحد معا (١٢) .

الرأى الصوفى :

اذا كانت وسيلة المعرفة عند التجريبيين هىالحواس ، ووسيلتها عند العقليين هى العقل ، ووسيلتها عند النقديين هى الحواس والعقل معا . فان وسيلة المعرفة عند الصوفيين والنسكيين تختلف عن الآراء والمذاهب السابقة لأن هؤلاء يرون أن العلم اليقين انما يجىء عن طريق الحدس .

والحدس :

هو الادراك العقلى المباشر الذى يدرك به العقل الحقائق ادراكا ، وتذعن له النفس اذعانا ، وتوقن به ايقانا لا سبيل الى دفعه (١٣) .

الحدس :

اذن كشف عقلى بلغ من الظهور والوضوح أن زال معه كل شك وبلغ من السرعة والبساطة أن يتم دفعه لا على التعاقب ، والحدس عند الصوفيين ينهض على صفاء القلب ، ومجاهدة النفس حتى تصل الى مرتبة من الصفاء تتيح لها من المعارف مالا تصل اليه الحواس والعقول معا (١٤) .

الرأى العملى :

(البراجماتزم)

وهذا يخالف الرأى الصوفى كما لا يرضى لأى رأى أو مذهب ، وفلسفة البراجماتزم فلسفة تقدم العمل ثم تستخلص منه المعرفة ومن هنا أجاز هذا الرأى جميع الظواهر (١٥) .

---

(١٢) راجع مقالنا فى مجلة (قافلة الزيت) عدد ذو القعدة ١٣٩٢ ص ٣ وكتاب (المعرفة فى ظل الاسلام) ص ٢٩

(١٣) محاضرات فى الفلسفة للدكتور سليمان دنيا « مذكرات »

(١٤) المحاضرات العامة للموسم الثقافى الثانى بالازهر ص ٩٠ سنة ١٩٦٠م

(١٥) فصول فى الفلسفة ترجمة ماهر كامل ص ٢٥٨

والبراجماتية :

اصطلاح فلسفى يطلق على المذهب القائل بأن الحقيقة فى صميم التجربة الانسانية ، وأن المعرفة آلة أو وظيفة فى خدمة مطالب الحياة وأن صدق قضية ما هو فى كونها مفيدة ، وأن الفكر فى طبيعته غائى (أى له غاية) ويعنى هذا أن التاريخ البرجماتى معناه : الكشف بالاستناد الى معرفة الماضى وكلمة براجماتية كلمة قديمة ومستعملة بمعان مختلفة الا أنها تعرف الآن مقترنة باسم الفيلسوف الأمريكى « تشارلس ساندرزبيرس » رافع أسس المذهب البراجماتى (١٦) .

والمعرفة فى حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع كما هو ، بل هى أداة السلوك العملى الذى يأتى النفع(١٧).

وتلك أهم مذاهب المعرفة التى اهتدى اليها علماء وفلاسفة الغرب ، وبعض الصوفيين والتنسكيين . وقد تفرعت عن هذه المذاهب نظريات فكرية عديدة وراح كل فريق يغالى فى التأييد لرأيه ومذهبه حتى أصبح لا يرى الحقيقة الا فيه .

والنظريات والآراء التى ذهب اليها التجريبيون والعقليون والنقديون والمتنسكون والبراجماتيون وغيرهم ، هى من وضع ناس فكروا وبحثوا وأصلوا الأصول ، وقعدوا القواعد ، فوصلوا الى ما هداهم اليه البحث والفكر والنظر والعقل .

أما الاسلام فغير هذا كله ، لأن الاسلام من عند الله ، الذى خلق الانسان وعلمه البيان ، وما كان من عند الله كان أتم وأكمل .

والباحث يرى أن الاسلام وثب بالمسلمين وثبتين هائلتين :

الوثبة الأولى :

كانت على أثر اشعاع القرآن الكريم فى جنبات الدنيا والانسانية فأنارها بعد ظلمة ، وهدى الانسانية بعد حيرة ، ونظمها بعد اضطراب ، وفتق اذهان أبنائها بعد ارتتاق ،

---

(١٦) دائرة معارف مجلة الفيصل ص ١٥٣ عدد رقم ٢٠ السعودية .
(١٧) مجلة الهادى المجلد الأول العدد الأول ص ٢٩ « قم ايران » .

وأزال الاصفاد والقيود التى كانت تقف حجر عثرة أمام الفكر .. وكان من ذلك أن نبه الى وجوب النظر فى الكون العام ، وفى النفس الانسانية ، وفى الأسباب والمسببات .. فكان بهذا مصباحا أنار الدنيا ، وأضاء أفق الانسانية وأشرق بالمعرفة الصحيحة .

الوثبة الثانية :

كانت بعد نقل الحكمة والعلوم الى اللغة العربية ، وبهذا تفتحت العقول الى ألوان مختلفة من الثقافات والمعارف ..

والباحث المنصف يرى أن الاسلام فى وثبتيه الأولى والثانية قد وضع أسس المعرفة التى تهدى الانسان الى الخير وتحيط بجميع الجوانب ، وتستوعب الطرق كلها ، وتجعل منها كلا متكاملا غير قابل للتمزق والشتات .

وتقوم المعرفة فى الاسلام لا على أساس نظرية تحتاج الى دراسة وتأمل وانما على أساس التعادل بين الكم والكيف ، وبين المادة والروح ، وبين الغاية والسبب ، وبين الدنيا والآخرة ، فلا افراط ولا تفريط ، طبقا لقوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١٨) .

لقد ربط الاسلام بين الحواس المرهفة ، وبين العقل الباحث المنظم أو الوجدان النقى السليم . فالاسلام يدعو الى استعمال الحواس ، وبخاصة حاستى السمع والبصر . قال تعالى : «أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » (١٩) .

وقال تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء » (٢٠) .

---

(١٨) سورة الانعام الاية رقم ١٥٣

(١٩) سورة ق الآيات رقم ٦ — ٨

(٢٠) سورة الاعراف الآية رقم ٢١

وقال تعـالى : « ان فى خـلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»(٢١).

الى غير ذلك من الآيات القرآنية التى تدعـو الى التـدبر والتبصر والتفـكر ، والتـأمل والنظـر ، واستعمال الملـكات العقلية . قال تعـالى : « ان السـمع والبصر والفـؤاد كل أولئـك كان عنـه مسئولا » (٢٢) .

والحواس وحدها قد لا تغنى فى أمـور كثـيرة ، ولهـذا نستعين بالبصيرة الملهمـة والعقـل الراجح النفـاذ « فانها لا تعمى الأبصـار ولـكن تعمى القـلوب التى فى الصدور (٢٣) .. أما طريق الحدس الوجدانى الذى يصل اليه الانسان بمجاهدة النفس وتقوى الله ، فقد أشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنـوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » (٢٤).

وفى قوله تعالى : «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (٢٥) .. وفى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (٢٦) .

فالاسلام الحنيف قـد جمـع بين جميع المـواهب والملـكات ، سواء منها الحسية أو المعنـوية ، المنطقيـة أو الروحيـة ، ليصـل الانسان الى الكمال المنشـود فى ظلال تعاليم القرآن الكـريم التى جاءت لترشد الانسان الى ما فيـه السمو بالفكر والعقل .

وقد سجل القرآن الكريم طرقا شتى لكشف الحقيقة ، ليتخذ كل فرد من بنى الانسان الطريق الذى يلتئم مع مستواه ، ويتسق مـع عقليته .. والطـرق التى جاء بها الاسلام تتطابق مع مراتب الانسانية ودرجاتها ، وتتجاوب مع حاجاتهـا ورغباتها .

---

(٢١) سورة آل عمران الآية رقم ١٩٠
(٢٢) سورة الاسراء الاية رقم ٣٦
(٢٣) سورة الحج الاية رقم ٤٦
(٢٤) سورة الانعام الاية رقم ٢٩
(٢٥) سورة الطلاق الاية رقم ٢
(٢٦) سورة البقرة الاية رقم ٢٦٩

الطريق الأول :

(طريق النظر والتأمل فى السموات والأرض)

ولهذا الطريق مرحلتان : أرضية وسماوية ، والمرحلة الأرضية ألصق المراحل بالأرض ، وهى تخاطب عامة الناس بما بين أيديهم من مرئيات ، ثم توجههم الى استنباط ما هو بعيد عنهم لعلهم يهتدون .

قال تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » (٢٧) .

والمرحلة السماوية استطاعت أن تظفر بحظ من تطور الانسانية ورقى العقلية . وهذا دليل على أن الانسانية قد ارتقت بعض الشىء وأصبحت جديرة بالنظر الى السماء ثم النظر فى السماء . قال الله تعالى: « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج،والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » (٢٨) .

فالآية الكريمة : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت .. » مليئة بالرحمة فائضة بالاشفاق على أولئك الناس ، ومن ثم تتواضع فتنزل الى مستوى الناس الفكرى وتجاربهم حتى يتمكنوا من المعرفة ..

أما الآية الكريمة . « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم .. » فتفيد أن فريقا من الناس قد ارتقى وصعد بعض الشىء ، وأصبح جديرا بالنظر الى السماء أولا .. ثم بالنظر فيها ثانيا ، ثم بمقياس ما لا يرى على ما يرى ، واستنباط نتائج محققة سامية من مقدمات بسيطة ميسورة .

والاسلام لم يشأ أن يقفز بهؤلاء قفزة قد تكون فوق مستواهم العقلى ، لهذا وقف بهؤلاء ريثما يعدهم للدرجة التى تليها وهى درجة النظر فى ابداع السموات وسير الكواكب فى أفلاكها ..

---

(٢٧) سورة الغاشية الآيات رقم ١٧ ــ ٢٠ (٢٨) سورة ق الآيات ٦ ــ ٨

وفى هذا يقول الله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعلقون » (٢٩) .

وقال تعالى : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » (٣٠) .

وقال تعالى : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون » (٣١) .

الطريق الثانى :

(الأسباب والمسببات)

والأسباب والمسببات طريق من طرق المعرفة فى الاسلام وهو طريق لفريق من البشر ، لأن كثيرا من الناس لا يقنع الا بأفاعيل الأسباب فى مسبباتها ولا يرضيه سوى التأمل فى نشوء المسببات عن أسبابها .. وهذا الطريق يصل ما بين الارادة والوجدان ويضع الخطوط المثالية للسلوك . وهذا الطريق يمكن الأسباب والمسببات من الصعود الى ما وراء الطبيعة ليصل الانسان الى معرفة الخالق وعظمته وعدله وحسابه وجزائه .

وكيفية استعمال هذا الطريق يقول عنها أحد قادة الفكر :

« هى ان المستدل ينظر أولا الى ما حوله من المرئيات ، ثم يحاول أن يتبين أسبابها المباشرة أى المؤثرة فيها بلا أية واسطة ، فاذا تبينها أسرع الى الاغفاء عن سببها وأعتبرها مسببات لما قبلها ثم بادر الى البحث عن التى قبلها فاذا اهتدى اليها سلك بازائها نفس مسلكه بازاء ما سلف ، حتى ينتهى الى الحق الذى هو الغاية المنشودة والنهاية المقصودة » (٣٢) .

---

(٢٩) سورة البقرة الاية رقم ١٦٤ (٣٠) سورة الاعراف الاية رقم ١٨٥
(٣١) سورة الروم الاية رقم ٢٥ (٣٢) المعرفة فى ظل الاسلام ص ٤٦

وهذا شيء من آيات السببية والمسببية الدالة على وجود المبدع ؛ أو الدالة على البعث وامكانه • قال تعالى : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (٣٣) •

وقال تعالى : «هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون » (٣٤) •

وقال تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم • وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين • وانا لنحن نحى ونميت ونحن الوارثون » (٣٥) •

وقال تعالى : « ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحى الموتى انه على كل شيء قدير » (٣٦) •

ومن طريق الاسباب والمسببات وصل المفكرون الى أسرار الكون وخفايا الوجود ومعرفة الخالق جل وعلا ••

الطريق الثالث :

(طريق المعقولات المحضة)

ويمكن العثور على ذلك فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » والمعقولات المحضة لا يدركها الا علية الصفوة من المفكرين والتى يغلق الباحث عندها أعين المادة والذهن المعتمد على الحواس ، ويفتح عين القلب النقى لينفذ بواسطة نوره الى ما وراء

(٣٣) سورة ق الآيات ٩ ــ ١١ (٣٤) سورة النحل الايات ١٠ ــ ١٤
(٣٥) سورة الحجر الايات ١٩ ــ ٢٤ (٣٦) سورة فصلت الاية رقم ٣٩

حجب المرئيات فيتفكر فى ملكوت المعقولات والذى لا يقاس به ملك المحسوسات لأن النسبة بينهما منعدمة بالطبع (٣٧) .

الطريق الرابع :

(طريق البديهات العقلية)

والبديهات قضايا عامة شديدة العموم يضعها العقل ويسلم بصدقها وتبدو كأنها مركزة فى العقل ، فهى ضرورية لا يمكن اقامة البرهان على صدقها مثل :

أ ـ الكميات المساويات لثالث متساويات .

ب ـ اذا أضيفت كميات متساوية الى أخرى متساوية كانت النتائج متساوية .

والبديهيات تستخدم كمقدمات لاستنباط النتائج التى تترتب عليها ، وقد اختلف الباحثون فى نشأة البديهيات . فذهب العقليون الى أن البديهيات قواعد عامة وضرورية فلا يستطيع العقل انكارها والا تناقض .

وذهب التجريبيون الى أنها من أصل حسى وأنها مكتسبة بالملاحظة والتجربة على كل حال ، فهذا الطريق يعد فى عالم الفكر المنطقى المحض أسمى الطرق وأقربها الى القمة ، وأدناها الى أوج الكمال الانسانى . وهذا الطريق منبثق من داخل النفس ، مؤسس على الحق الواضح الثابت ، وهو الفكر المحتوى فى أية : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون» .. ومجمل هذا الفكر ان كلا من المؤمن والجاحد والمرتاب يصدر فيما يذهب اليه عن فكر .. وهناك طرق أخرى كثيرة لا تقل شأنا عما سبق مثل الآيات فى الكون وفى الانسان . وفى الكائنات الحية ، وفى النبات ، وفى العالم العلوى ، وفى الأرض وما عليها . ومن كل هذا يتبين أن طرق المعرفة فى الاسلام تلائم الانسانية كلها حسب درجاتها فى الكمال الفكرى .. وان القرآن الكريم خاطب الناس على قدر ثقافتهم وفكرهم ليصل بهم الى ذروة ما قدر لكل من الفهم والادراك .

أحمد عبد الرحيم السايح

(٣٧) المعرفة فى الاسلام ص ٨٣

حكم ... وطرائف

اعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

((خــــلق صـــحابى))

لما نزل قول الله تعالى : ((**يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صــوت النبى ، ولا تجهـــروا له بالقول كجهـر بعضــكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**))

أغلق ثابت بن قيس عليه داره ، وطفق يبكى !!

وافتقده النبى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فسأل عنه ، ثم أرسل من يدعوه ، وجاء ثابت ، فسأله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سبب غيابه فأجابه : ((انى امرؤ جهــير الصوت ، وقد كنت أرفع صــوتى فوق صوتك يا رســول الله ، واذن فقد حبط عمــلى وأنا من أهــل النار)) ، وأجابه النبى ـ صلى الله عليــه وسلم قائلا : ((انك لست منهم ، بل تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، ويدخلك الله الجنة)) .

وصدق رسول الله ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ فقــد استشهد ثابت فى موقعة (اليمامة) .

رضى الله عـــن ثابت بن قيس وأرضاه .

((الصمت وصون اللسان))

قال الله تعــالى : ((**ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد**)) ، وقال تعــالى : ((**ان ربك لبــالمرصاد**))

وينبغى للعاقل أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام الا كلاما تظهر المصلحة فيه ، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الامساك عنه ، لأنه قد يجر الكلام المباح الى حرام او مكروه بل هذا كثــير وغالب ، وقال رسول الله ـ صلى الله عليــه وسلم : ((**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليصمت**)) . وقال الامام الشافعى ـ رضى الله عنه : ((**اذا أراد أحــدكم الــكلام فعليه أن يفكر فى كلامه فان ظهرت المصلحة تكلم ، وان شك لم يتكلم حتى تظهر**)) ..

وقد اجتمع قيس بن ســاعدة ، وأكتم الصيفى ، فقــال أحدهمــا لصاحبه : ((كم وجدت فى ابن آدم من **العيوب** ؟ فقال : هى أكثر من أن تحصر وقد وجــدت خصلة ان استعملها الانسان سترت العيــوب كلها ، قال : وما هى ؟ قال : ((حفظ اللسان)) .

ومن حكم الامام على – رضى الله عنه – « اذا تم العقل نقص الكلام » وقال اعرابى : « رب منطق صدع جمعا ، وسكوت شعب صدعا » وقال وهب بن الورد : « بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت ، والعاشرة فى عزلة الناس » ومن كلام بعض الحكماء : « من نطق فى غير خير فقد لغا ، ومن نظر فى غير اعتبار فقد سها ، ومن سكت فى غير فكر فقد لها » وقيل لرجل بم سادكم الأحنف ! فوالله ما كان بأكبركم سنا ولا بأكثركم مالا ؟ فقال : « بقوة سلطانه على لسانه » ، وقال عمرو بن العاص – رضى الله عنه – « الكلام كالدواء ان اقللت منه نفع ، وان اكثرت منه قتل » ومن وصية لقمان لابنه : « يا بنى اذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر انت بحسن صمتك » يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف انتن فيقلن بخير ان تركتنا .

قال الشاعر :

احفظ لسانك أيها الانسان
لا يلدغنك انه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءه الشجعان

« لا بشرك الله بالخير »

عاد أبو الحسن بن برهان رجلا مريضا .

فقال له : ما علتك ؟!!

قال : وجع الركبتين .

فقال : والله لقد قال جرير بيتا ذهب منه صدره وبقى عجزه

وهو : – وليس لداء الركبتين طبيب – .

فقال المريض : لا بشرك الله بالخير ليتك ذكرت صدره ونسيت عجزه .

« اليسر بعد العسر »

جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبرى ومحمد بن اسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزى ومحمد بن هارون الرويانى بمصر ، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، وأضر بهم الجوع ! فاجتمعوا ليلة فى منزل كانوا يأوون اليه – يكتبون فيه الحديث – فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة ، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام ، فخرجت القرعة على محمد ابن اسحاق بن خزيمة .

فقال لأصحابه : امهلونى حتى اتوضأ واصلى صلاة الخيرة – أى الاستخارة – فاندفع فى الصلاة ، فاذا هم بالشموع ، وخصى من قبل والى مصر يدق الباب ، فنزل عن دابته ، فقال : أيكم محمد بن النصير ؟ فقيل له هو هذا ! فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها اليه . ثم قال : أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا ! فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها اليه .

ثم قال : أيكم محمد بن اسحاق ابن خزيمة ؟ فقالوا : هو هذا يصلى ، فلما فرغ من صلاته دفع

اليه الصرة وفيها خمسون دينارا ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ وفعل به كذلك .

ثم قال : ان الأمير كان قائلا بالامس (١) ، فراى فى المنام خيالا قال له : ان المحامد طووا كشحمهم جياعا ، فأنفذ اليكم هذه الصرر واقسم عليكم اذا نفدت فعرفونى .

((موقفان))

للعبد بين يدى الله موقفان : موقف بين يديه فى الصلاة ، وموقف بين يديه يوم لقائه ، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر ، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف ، قال تعالى : **((ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا)) .**

((عشرة أشياء ضائعة))

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها : علم لا يعمل به ، وعمل لا اخلاص فيه ولا اقتداء ، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه فى الدنيا ولا يقدمه أمامه الى الآخرة ، وقلب فارغ من محبة الله والشوق اليه والانس به ؛ وبدن معطل من طاعة الله وخدمته ، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال اوامره ، ووقت معطل عن اغتنام بر وقربة ، وفكر يجول فيما لا ينفع وخدمة من لا تقربك خدمته الى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك ، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير فى قبضته ، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

واعظم هذه الاضاعات ، اضاعتان هما أصل كل اضاعة : اضاعة القلب واضاعة الوقت ، فاضاعة القلب من ايثار الدنيا على الآخرة واضاعة الوقت من اتباع الهوى وطول الامل .

((رأى خالد بن صفوان فى الشعراء))

قال هشام بن عبد الملك لشبة ابن عقال ، وعنده جرير والفرزدق والاخطل ، وهو يومئذ أمير : الا تخبرنى عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائرهم فى غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم اشعر ؟

فقال شبة : أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر .

فقال هشام : ما فسرت لنا شيئا نحصله !

فقال : ما عندى غير ما قلت !

فقال لخالد (٢) بن صفوان : صفهم لنا يا بن الأهتم ،

(١) كان قائلا : اى نائما وقت الظهيرة .

(٢) احد فصحاء العرب وخطبائهم ، وهو مشهور برواية الأخبار ، وكان يجالس هشام بن عبد الملك ، وتوفى سنة ١٣٥ هـ .

فقــال : اما أعظمهم فخـــرا ، وأبعدهم ذكرا ، وأحسنهم عذرا ، وأسـيرهم مثـلا ، وأقلهم غـزلا ، وأحـلاهم عللا ، الطـامى (١) اذا ذخر ، والحامى اذا زأر ، والسامى اذا خطر ، الذى ان هـدر (٢) قال وان خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، « فالفرزدق » .

وأما أحسنهم نعتا ، وامـدحهم بيتا ، وأقلهم فوتا ، الذى ان هجا وضع (٣) وان مدح رفع فالأخطل .

وأما اغزرهم بحـــرا ، وارقهم شعرا ، واهتكهم لعـــدوه سترا ، الأغـــر الأبلق ، الذى ان طلب لم يسبق ، وان طـلب لم يلحـق ، « فجرير » وكلهم ذكى الفـؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد .

فقال له ابن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك ياخالد فى الأولين ، ولا رأينا فى الآخرين ، وأشهد انك احسنهم وصفا ، وألينهم عطفـــا ، واعفهم مقالا واكرمهم فعالا .

فقال خالد : أتم عليكم نعمه ، واجزل لديكم قسمه (٤) وآنس بكم الغربة ، وفرج بكم الـكربة .

فضحك هشام . وقال : ما رايت كتخلصك يا بن صـــفوان فى مدح هـؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعا وسلمت منهم .

« يــوم القيـــــامة »

جىء بأعرابى الى أحـــد الولاة لمحاكمته على جريمة أتهم بارتكابها ، فلما دخل على الوالى فى مجلسه ، اخرج كتابا ضمنه قصته ، وقدمه له وهو يقول :

« هاؤم اقرأوا كتابيه » .

فقال له الوالى : انما يقال هـذا يوم القيامة .

فقال : هـــذا والله شر من يوم القيامة .. ففى يوم القيامة يؤتى بحسناتى وسيئاتى ، أما أنتم فقـد جئتم بسيئاتى وتركتم حسناتى !

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

---

(١) الطامى : من طمى الماء اذا ارتفع وملأ النهر .
(٢) هدر البعير : ردد صـوته فى حنجرته .
(٣) وضع : خفض .
(٤) القسم : جمع قسمة وهى الرزق وما قسم .

بـاب الفتـاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : من المشاكل التى لا يخلو منها مجتمع ولها آثار سيئة تهدد المجتمع فى سعادته واطمئنانه اذا تركت دون حل مشكلة « الأطفال اللقطاء » ..

ماذا يفعل باللقيط ؟ وماذا يجب على الملتقط ؟ وعلى من يكون الانفاق عليه وتربيته وتهذيبه ؟ ومنها مشكلة « التبنى » ولا سيما أن بعض المسلمين يفتنون بما يجرى فى المجتمعات الغربية من اعتباره أمرا مشروعا والتزاما واجب النفاذ ..

فهل يجوز التبنى ؟ وما هى الآثار التى تترتب عليه ؟

ج : تحت عنوان « فى اللقطاء والتبنى» يجيب فضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله فى كتابه الفتاوى عن ذلك فيقول :

اللقيط فى نظر الشريعة :

عنيت الشريعة الاسلامية بالنظر الى الأطفال ، وعرض الفقهاء لنوع خاص منهم ، هو أجدرهم بالعناية ، نظرا لفقده من يعوله ويتعهده من أب أو قريب ، وذلك النوع هو المعروف عند الناس باسم «اللقطاء» فعرفوا اللقيط ، وبينوا أحكامه من جميع جهاته فى بحث مستقل وتحت عنوان خاص هو باب « اللقيط » وقد عرفوه : « بأنه مولود حى ، طرحه أهله خوفا من الفقر أو فرارا من التهمة » . وهو تعريف يصور لنا شأن اللقيط باعتبار الأسباب التى تدعو غالبا الى نبذه وطرحه ، وأنها لا تكاد تخرج عن أمرين : اما الخوف من الفقر وعدم القدرة على تربيته والانفاق عليه ، واما الخوف من تهمة العرض .

وقد قرروا أن أخذه والتقاطه واجب على من يجده ، لأنه احياء لنفس صار لها حظ فى الوجود ، ويرجى أن يكون لها نفع فى الحياة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » والواقع أن تركه — مع القدرة على التقاطه وأخذه — تضييع له وقضاء عليه .

وهذا القدر كاف فى تحقق مسئولية التقصير فى حفظ حياة الحى ، وهى مسئولية تدخل فى جو المسئوليات الجنائية فى نظر الشرائع والقوانين .

ومن هنا قال الفقهاء — ترغيبا فى التقاطه وتحذيرا من تركه — : « مضيّعه آثم ، وآخذه غانم » وكيف لا يكون أخذه واجبا وغنما ، وتركه محرما واثما ، وقد دل تاريخ اللقطاء على أن فيهم من يختصه الله بكثر من فضله ، فيقود الأمم ، ويرشد الناس الى الخير والصلاح .

نسب اللقيط ونفقته :

واتفق أهل الفقه أنه اذا ادعى نسب اللقيط رجل مسلم ، وهو يعتقد أنه ليس ابن غيره ، ثبت نسبه ، حفظا لكرامته ، واعزازا له بين أمته بانتسابه الى أب معروف ، ومتى ثبت نسبه ثبتت له جميع حقوق البنوة ، من نفقة وتربية وميراث ، أما اذا لم يدع أحد نسبه فانه يظل بيد الملتقط ، تكون له ولايته ، وعليه تربيته وتثقيفه بالعلم النافع فى الحياة ، أو الصنعة الكريمة المثمرة ، حتى لا يكون عالة على الأمة ، ولا منبع شقاء للمجتمع ، ونفقته فى هذه الحالة واجبة على بيت المال ، ينفق عليه وهو فى يد الملتقط ، ويكون الملتقط مسئولا عنه فى كل ما يحتاج وينفعه من عمل وتوجيه .

وقد ورد عن عمر رضى الله عنه أنه قال لمن التقط طفلا : « لك ولاؤه وعلينا نفقته » وكان يفرض له من النفقة ما يصلحه ويقوم بشأنه ، ويعطيه لوليه كل شهر ، ويوصى به خيرا .

ومع هذا قرر الفقهاء أن الملتقط اذا كان سيىء التصرف ، لا يهتدى الى وجوه التربية المثمرة ، أو كان غير أمين على ما يعطى من نفقته ،

وجب نزعه من يده ، ويتولى الحاكم عندئذ تربيته والاشراف عليه ، كما يتولى رزقه ونفقته .

واجب الجماعة للقيط :

ولم يقف الفقهاء عند هذا الحد فى تمهيد طريق الحيـاة للقيـط ، ووسائل العناية بتربيتـه والانفاق عليه ، بل قدروا خلو بيت المال عن سداد حاجة اللقيط ، وتعذر الانفاق عليه من جهة ولى الأمر وعجزه عن القيام بشأنه .. قدروا ذلك وقرروا أنه يجب فى تلك الحالة على جماعة المسلمين أن يتعاونوا على البر به والانفاق عليه ، ويكون ذلك مـن الشئون الخيرية العامـة التى رغب القرآن فى التعاون عليها وحبب فيها ، وأنكر على المتخاذلين عنها «وتعاونوا على البر والتقوى»(١) «ويطعمون الطعام على حبه مسـكينا ويتيمـا وأسيرا » (٢) « أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين »(٣) « كلا بل لا تكرمـون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » (٤).

ولا شك أن اللقيط قد جمـع معانى اليتم والمسكنة والأسر ، فهو يتيم فقد أباه ومن يرعاه ، ومسكين أسكن فى التراب وفى الزقاق وفى الشواطىء ، وأسير شـد وثاقه ، وكبلت حياته ، وعقدت عليه سبلها ، فهو اذن أحـق بالعطف والرعاية ، والحض على اطعامـه من كل ذى حاجة سواه ولا يبعد أن يكون لهذه الآيات الكريمة أثر كبير فى توجيه أهل الخيـر الى تأليف جمعيـات الطفولة المشردة ، ومدها بوسائل الحياة لايوائها والعناية بها .

التبنى فى نظر الشريعة :

هذا ما قرره فقهاؤنا أخذا مـن قواعد الشريعة وروحها بالنسبـة للقطاء .

أما التبنى فينبغى لمعرفة حـكم الشريعة فيـه أن له فى معنـاه صورتين : احداهما أن يضم الرجل الطفل الذى يعرف أنه ابن غيـره الى نفسه . فيعامله معاملة الأبنـاء من جهة العطف والانفاق عليه ، ومن جهة التربية والعناية بشأنه كله ،

---

(١) الآية ٢ من سورة المائدة . (٢) الآية ٨ من سـورة الدهر .
(٣) أول سورة الماعون . (٤) الآيتان ١٧، ١٨ من سورة الفجر

دون أن يلحق به نسبه ، فلا يكون ابنا شرعيا ، ولا يثبت له شيء من أحكام البنوة ، والتبنى بهذا المعنى صنيع يلجأ اليه بعض أرباب الخير من الموسرين الذين لم ينعم الله عليهم بالأبناء ، ويرونه نوعا من القربة الى الله بتربية طفل فقير ، حرم من عطف الأبوة ، أو حرم من قدرة أبيه على تربيته وتعليمه ، ولا ريب أنه عمل يستحبه الشرع ، ويدعو اليه ويثيب عليه .

وقد فتحت الشريعة الاسلامية للموسر فى مثل تلك الحالة باب الوصية ، وجعلت له الحق فى أن يوصى بشيء من تركته يسد حاجة الطفل فى مستقبل حياته ، حتى لا تضطرب به المعيشة ، ولا تقسو عليه الحياة .

التبنى المحظور :

أما الصورة الثانية ، وهى المفهومة من كلمة « تبنى » عند الاطلاق ، وفى عرف الشرائع ومتعارف الناس ، فهى أن ينسب الشخص الى نفسه طفلا يعرف انه ولد غيره وليس ولدا له ، ينسبه الى نفسه نسبة الابن الصحيح ، ويثبت له أحكام البنوة ، من استحقاق ارثه بعد موته وحرمة تزوجه بحليلته .

وهذا شأن كان يعرفه أهل الجاهلية ، وكان سببا من أسباب الارث التى كانوا يورثون بها ، فلما جاء الاسلام — وبين الوارثين والوارثات بالعناوين التى قررها سببا فى استحقاق الارث — أسقطه من أسباب التوارث ، وحصرها فى البنوة والأمومة والزوجية والاخوة والأرحام على ترتيب بينهم «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (١) .

ولم يقف الاسلام فى ابطال آثار التبنى الجاهلى عند حد اسقاطه من أسباب الميراث ، بل صرح ببطلانه ، وأهدر آثاره ، وأرشد نبيه الى التمسك بالواقع الصحيح ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم

---

(١) آخر سورة الأنفال .

هو أقسط عند الله فان لم تعلمــوا آباءهــم فاخــوانكم فى الــدين ومواليكم » (١) •

زيد بن حارثة :

وقد تبنى النبى صلى الله عليــه وسلم ــ على سنة العرب وقبــل التشريع ــ زيد بن حــارثة وكان يدعى : زيد بن محمد ، وحينمــا طلبه أبوه وأهله من النبى صلى الله عليه وسلم وكل النبى الأمر الى اختيار زيد ، فآثر زيد أبوة النبى على أبوة أبيه ، ورضى الجميــع بذلك ، وانصرفوا عنه ، وتركوه متبنى تبنى الرســول فــــرحين مسرورين ••

فلما جاء القــرآن بابطال التبنى أمر الله نبيه أن ينفذ بنفسه تطبيق ذلك التشريع الجديد فى متبناه ، ليكون ذلك عند الأمة باعثــا على الامتثال والمسارعة الى القبــول ، دون تحرج من ترك ما ألفوا •

أمر الله نبيــه بتنفيــذ التشريع الجديد واهدار السنة السابقة فيما يختص بالتبنى ، وفى سبيــل ذلك طلب منه أن يتزوج بحليلة متبنــاه زيد بن حارثة ، وقد اتفق فى ذلك الوقت أن زيدا كان قد طلقهــا ، وقد جاء ذلك فى قــوله تعالى : « فلمــا قضى زيد منهــا وطــــرا زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حــرج فى أزواج أدعيائهـــم اذا قضــوا منهن وطــرا وكان أمــر الله مفعولا » (٢) • وبذلك بطــل هذا النوع من التبنى ، وصار محرما على المسلم أن يلحق بنسبه الطفل الذى يعرف أنه ابن غيــره وليس ابنا له ، عرف أباه أم لم يعرفه •

ابطال هذا التبنى :

ولعل من واجب المسلميــن أن يعرفوا الحكمة فى ابطال هذا النوع من التبنى ونزول القرآن بانكاره وتحريمه وابطال آثاره ليتبين لهــم مقدار حدب الشريعة الاسلامية على صون الانسان وحفظ الحقـــوق الأسرية ، التى ارتبطت فى التشريع الاسلامى بجهــات القــرابة ذات العماد الواقعى بيــن الوارثيـــن ومورثهم •

(١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ٣٧ من سورة الاحزاب

وليس من ريب أن في هذا التبنى حرمان الأب الحقيقى المعروف من أن يتصل به نسبه المتولد منه . المنسوب اليه فى الواقع وفيما يعلم الله والناس ، وفيه ادخال عنصر غريب فى نسب المتبنى ، يدخل على زوجته وبناته باسم البنوة والاخوة ، ويعاشرهن على أساس منهما وهو أجنبى عنهما ، لا يباح له منهن ما يباح للابن أو الأخ الحقيقى لهن . وبقدر ما تتركز هذه البنوه الكاذبة فى هذه الأسرة فان البنوة الحقة ، فى الأسرة الحقة تسير الى الفناء والمحو والزوال ، وبذلك تضيع الانساب ، ويختل نظام الأسر .

وفيه وراء ضياع الأنساب واختلال نظام الأسر — تضييع لحقوق الورثة الذين تحقق سبب ارثهم الشرعى من الأب الكاذب (المتبنى) فلا ترث اخوته ولا أخواته لوجود الابن « الزور » الذى منع ببنوته الكاذبة ارثهم الشرعى . وبذلك تقع العداوة والبغضاء بينهم وبين مورثهم ، بهذا الدعى الذى تبناه وضيع به حقهم فى التركة .

هذا ، وقد قال بعض العلماء اجمالا لتلك الحكمة : لو فتح باب الانتفاء من الأب لأهملت المصالح ، ولاختلطت الأنساب ، ولضاعت حكمة الله فى جعل الناس شعوبا وقبائل .

وبعد :

فهذا هو الوضع الشرعى لمن يريد أن يتقرب الى ربه بضم ابن غيره اليه : يربيه وينفق عليه ويوصى له . دون أن ينسبه الى نفسه ، ويجعله ابنا يرثه وتحرم عليه حليلته .

وذاك هو الوضع الآخر الذى يمقته الله وينكره : ينسب ولد غيره اليه ، ويثبت له حقوق البنوة الصادقة ، ويمنع به المستحقين حقوقهم . .

وأرجو ألا يختلط أحد الموضعين بالآخر عند من يريد التبنى ممن يؤمنون بالله وشرعه .. آمين .

والله أعلم . .

عبد الحميد شاهين

كتـــاب الشهـــر

الكون بين العلم والقرآن

للدكتور منصور محمد حسب النبى

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنى أن ألتقى بحضراتكم ونحن والعالم الاسلامى على أبواب القرن الخامس عشر الهجرى ، فى موضوع هام فى هذا العصر عصر الذرة والفضاء والنسبية وهو موضوع « الكون بين العلم والقرآن » (*) .

وبهذا أتحدث اليكم بلغة العصر « عصر العلم » حتى يدرك كل انسان عظمة الكون وعظمة القرآن الكريم . وان القرآن الكريم كتاب الله خالق هذا الكون . وان محمدا رسول الله الى البشرية كلها .

ولقد أحسست أن الحديث عن الكون فى القرآن الكريم يكاد لا يتوقف وفى أسلوب رائع واعجاز علمى بالغ يوقظ عقل الانسان فى رفق ويسر ، ويخاطب كل البشر على اختلاف مستوياتهم العقلية والعلمية بحيث يستطيع كل انسان أن يستوعب هذه الحقائق بالقدر الذى يتسع له عقله وزمانه. ولهذا أردت أن أقدم لكم اليوم عرضا لبعض الآيات الكونية الكريمة فى القرآن الكريم ، والتى تتعرض للحقائق الكونية التى اكتشفت حديثا كالذرة ، والمادة ، والطاقة ، والجاذبية ، والنسبية ، والفضاء ، وليسمع ويرى غير المؤمن أن القرآن معجزة الله الخالدة التى لا يقف اعجازها عند عصر معين ولا تحدها ثقافة معينة. كما أرجو أن تفسح الجامعات

(*) القيت هذه المحاضرة فى الموسم الثقافى بجامعة أم درمان الاسلامية فى ١٩٨٠/١/٢٠ م وفى الموسم الثقافى لجامعة عين شمس فى فى ١٩٨٠/٣/١٠ .

الاسلامية فى العالم الاسلامى صدرها لاظهار الاعجاز العلمى للقرآن تيسيرا للدعوة الى دين الله فى هذا العصر .

فالاعجاز العلمى لا يجرؤ أى مكابر أو ملحد أن يجد موضوعا للتشكيك فيه . فالحقائق العلمية الكونية الثابتة التى لم يعرفها الناس الا فى هذا القرن والتى ذكرها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ، سوف تعطى دليلا محسوسا على أن خالق الكون هو منزل القرآن الكريم . وصدق الله العظيم بقوله تعالى :

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (يوسف ١٠٥)

وقوله تعالى :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » (فصلت ٥٣)

حقا ان دراسة الكون تكشف لنا النقاب عن العديد من آيات الله ، وتحرك عقولنا نحو ثلاث حقائق أساسية هى :

١ ـ قدرة الله : من خلال دراسة الكون. فتتكشف لنا قدرة الله اللانهائية .

٢ ـ وجود الله : من خلال النظام فى الكون . لأن النظام لا بد له من منظم .

٣ ـ وحدانية الله : من خلال التشابه والتماثل فى الكون . مما يدل على وحدانية الخالق.

والكون كتاب الله المفتوح الذى يشمل كل شىء فى السماوات والأرض وما بينهما ، وكلمات الله فى الكون لا تعد ولا تحص . وصدق الله العظيم فى قوله تعالى :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف ١٠٩) .

حقا ان ما نعلمه عن الكون بفضل الاكتشافات العلمية لا يزال ضئيلا بالنسبة الى ما لا نعلمه أو

لا نستطيع تعريفه أو تعليله • اننا ما زلنا نقف على حافة المجهول فى الكون الفسيح رغم ما وصلنا اليه من علم فى القـــرن العشرين • وصدق الله العظيم بقوله تعالى :

« ومـا أوتيتم مـن العلم الا قليلا » (الاسراء ٨٥) •

ان محيط الكون مملوء بالمعرفة• وسوف أقلب فقط فى الأصـداف الموجودة على شـــواطىء الكون بينما محيط الكون مملوء باللآلىء• اننى أعتبـر نفسى كأحد العازفين على احـــدى الآلات النحـاسية المتواضعة وأنا أشارك فى عـرض سيمفونية الكون الرائعة •

ولست أدرى ! بماذا أبـدأ ؟ وكيف أنتهى ؟

فالكون اتساع خيالى تسبح فيه بلايين المجرات أو الجزر الكونية، وكل مجرة تحتـوى على مئـات البلايين من الشموس أى النجوم ، وهذه النجوم يدور حـول معظمها كواكب وكـــويكبات وأقمـار ومذنبات ، ويسبح فى فضائها شهب ونيازك ، وجسيمات دقيقة مجهرية لا حصر لها من الغاز والتـــراب الكونى والأشعـــة الكونيـــة والاشعاعات الضوئية المرئية وغيـر المرئية• ولهذا علينا أن نفكر بمقياس اللانهاية بالنسبة لعمق الكون وتفكر أيضا ــ بما يساوى بلايين السنين بالنسبة لعمر الكون • وعلينا أن نعلم أيضا أن أســـاس الكون هــو الــذرة بما فيهـا من مــادة وطاقة • ولهذا فسوف أبدأ جولتى هذه من الذرة الى المجرة ، أى من المستوى المتناهى فى الصغـر الى المستوى اللانهائى فى الكبر •

أولا ــ الذرة والكون :

لقد أعلن الفيلسوف ديمقـراط عام ٤٥٠ قبـل الميلاد أن الكون يحتوى على عـدد لا حصر له من جسيمات متناهية فى الصغر تدعى الذرات • وأن الذرة لا تنقسم لأنها الشىء الصغير جدا الذى لا يتجزأ• ولقد سادت هذه الفـــكرة حتى وقت قريب ، فقد أعلن دالتن عـام ١٨٠٢ م النظرية الذرية التى تنص على أن الذرة أصغر شىء مـادى فى الوجود وأنها لا تنقسم •

وفى عام ١٩١٢ م اكتشف رذرفورد أن الذرة يمكن أن تنقسم الى ما هو أصغر منها ، فالذرة تتركب من نواة موجبة الشحنة تحتوى على البروتونات ويدور حولها الكيترونات سالبة الشحنة، تماما كالكواكب وهى تدور حول الشمس .

ولقد تعرض القرآن الكريم لهذه الحقيقة حيث أشار الله سبحانه وتعالى بأن السموات والأرض تتكون من ذرات لها ثقل معين صغير جدا . ورغم صغر مثقال الذرة فان هناك ما هو أصغر من الذرة كما يتضح من الآيات الكريمة التالية .

« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » (يونس ٦١). وقوله تعالى :

« عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » (سبأ ٣) .

ولقد ثبت حديثا أن كتلة الذرة كسر من مليون بليون بليون من الجرام ! لدرجة أن السنتيمتر المكعب من النحاس مثلا يحتوى على مائة ألف بليون بليون ذرة ! وأن الذرة رغم صغرها هذا تحتوى على جسيمات أصغر كالاليكترون والبروتون ، وقد تم اكتشافهما فى مطلع هذا القرن . كما تم العثور على جسيم متعادل يدعى النيوترون داخل نواة الذرة فى عام ١٩٣٢م . ومنذ ذلك الحين تتوالى اكتشافات الجسيمات دون الذرية المستقرة وغير المستقرة مثل النيوترينو ، والميزون ، والهيبرون . كما يتوقع العلماء فى المستقبل اكتشاف جسيمات أخرى دون ذرية مثل الكوارك والجرافيتون !

ولقد اتضح حديثا أن النظام الشمسى للذرة الذى يعتبر الذرة مكونة من نواة تدور حولها الاليكترونات تماما كالشمس تدور حولها الكواكب ما هو الا نظام شامل فى هذا الكون ، فالأقمار أيضا تدور حول كواكبها، والنجوم

تدور حول مركز مجـراتها ، وكل جرم فى الكون يدور حول نفسه وحول شىء آخر ، انه نظام الخالق الواحد الأحـد . وصـــدق الله العظيم بقوله تعالى :

« وكل فى فلك يسبحـون » (يس ٤٠) .

فهل عرفنا نحن المسلمين حكمة الطواف حول الكعبة.انها الدوران الذى يمثل سنة الله فى الكون . وتسبيح للمولى عز وجل بأسلوب يمثل الظاهرة التى فطـر الله عليها الكون كله . وبهذا فان الطـواف رمز لسر عظيم . وحـكمة انفرد بها الاسلام من بين الأديان كلها .

ولقد تعرض القـرآن الكـريم لحقيقة علمية هامة أخرى بقـوله تعالى :

« ومن كل شىء خلقنا زوجيـن لعلكم تذكرون » (الذاريات٤٩). وقوله تعالى :

« سبحـان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (يس ٣٦) .

فما هى هـذه الأزواج يا ترى على المستـوى الذرى ؟ سـوف تندهش عندما أقول لك أن علماء الطبيعة قد اكتشفوا منـذ سنوات قليلة أنواعا مختلفة من الجسيمات الذرية المضادة تماما كما اكتشـف الانسان صـورته فى المـرآة ! فالاليـكترون السـالب له ضديد يدعى البوزيتـرون (اليـكترون موجب !) والبروتون المـوجب له ضديد يدعى البروتون السالب ! ، وحتى النيوترون المتعادل له ضديد يدعى النيوترون المضـاد بعـزم مغناطيسى معاكس ، ولقـد أصبح علماء الطبيعة الآن يبحثـون عـن الجسيم المضـاد اذا اكتشفـوا أى جسيم جـديد ! ومن خـواص الجسيمات المضادة أنها تفنى سريعا فور تقابلها مـع الجسيمات العادية المناظرة لها لتحولهما معا الى طـاقة وذلك فى عملية افناء ذرية معروفة لدى علماء الطبيعة بل وتخصصت معاهد كثيرة فى جميع أنحاء العالم لدراسة المـادة والمـادة المضادة . ويتوقع العلماء أن ذرة المادة المضادة لا تختلف فى صفاتهـا الطبيعية

والكيمائية عن ذرة المادة العادية ، واحداهما صــــورة معكوسة للأخرى • ولا يمكن التمييز بينهما الا اذا تقابلا فتحـــدث الكارثة بفنائهما وتحـولهما الى طاقة فى شكل أشعة غير مرئية تدعى أشعـة جاما !

ولقد كان لهــذه الاكتشافات الحـديثة لنظـــام الأزواج على المستوى الذرى الفضل فى محاولة تفسيــر بعض الظـواهر الكـونية الغامضة • فلقـد أعلن الدكتور تريون عام ١٩٧٣ أن الكون كله قد نشأ من طاقة تحولت بدورهـا الى نوعى المادة بحيث أن كميـة المادة فى الكون لا بد وأن تساوى كمية المادة المضـادة وبحيث يظل النوعان متباعدين بدليل تباعـــد النجوم والمجـــرات عـن بعضها بمسافات خيالية شاسعة ، وهـذا التباعد ضرورى حتى يمنع تلاقى المادة مع المادة المضـادة وبالتالى يمنع فناء الكون وزواله !

واذا فكرنا نحن المسلميــن فى هذا الموضـــوع الخطير نجد أن القرآن الكريم قد أشار الى فنـاء الكون بزوال السماوات والأرض اذا تغير نظام هذا الكون بارادته سبحانه • كما أشار الى عجز جميع الكائنات عن منع هذا الفناء عنـد حدوثه ! بقوله تعالى :

« ان الله يمســـك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحــــد من بعده » (فاطر ٤١) •

وقوله تعالى :

« واذا السمـــاء كشطـت » (التكوير ١١)

وقوله تعالى :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبــرزوا لله الواحـد القهار » (ابراهيم ٤٨) •

فتأمل معى هذه الآيات واعلم أن زوال السماوات والأرض واعـادة تشكيلها حدث حقيقى يعتــرف به العلم الحديث كما فى تحول المادة الى طاقة وتحول الطاقة الى مـادة طبقا لقانون أينشتين •

كما أن وجـــود المادة والمادة المضادة أمـر منطقى فلا تستعجب

ولا تنـــدهش فلولا المادة والمادة المضادة ولولا الموجب والسالب ولولا الفضيلة والرذيلة ولولا الخير والشر ولولا العدل والظلم لما كان الكون ولما كانت الدنيا ! وسبحان الخالق الواحد القهار .

وقد تسأل بصرف النظر عن المادة المضادة . هل العناصر الموجودة فى الأرض هى نفسها العناصر الموجودة فى السموات ؟ وللاجابة على هذا السؤال أوجز فيما يلى النتائج التى توصل اليها العلم الحديث وأبحاث الفضاء عن هذا الموضوع :

١ ــ التحاليل الكيميائية للنيازك التى قد تصل الى الأرض من السماء تدل جميعها على أن عناصرها من نفس عناصر الأرض .

٢ ــ التحليل الطيفى للضوء القادم الينا من الشمس والنجوم أثبت وجود عناصر نعرفها فى الأرض فى هذه الاجرام السماوية .

٣ ــ الأقمار الصناعية وسفن الفضاء أثبتت أن السماء تعج بالأشعة الكونية التى تتكون من نوى ذرات خفيفة وثقيلة مناظرة لذرات الأرض ، كما أن الاشارات الراديوية القادمة من الفضاء الكونى تدل على وجود غاز الايدروجين كغاز كونى شامل علاوة على مركبات عضوية وبخار ماء تم اكتشافها عام ١٩٧٠ فى السحب الباردة بين بعض نجوم مجرتنا والمجرات الأخرى مما يثير الآن احتمالات الحياة على كواكب أخرى تابعة لنجوم أخرى غير الشمس .

٤ ــ العينات التى أحضرها رواد الفضاء من على سطح القمر تتكون جميعها من نفس عناصر الأرض وبها نسبة عالية من الزجاج !

ولقد أشار القرآن الكريم الى وحدة المادة بين السموات والأرض فى اعجاز علمى بقوله تعالى :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى » (الأنبياء ٣٠) .

ولقد أعلن جامو (الروسى) عام ١٩٤٨ نظريته عن نشأة الكون التى تتلخص فى أن الكون كان فى

الأصل كتلة واحدة عظمى متماسكة تسمى البيضة الكونية ، وان هذه البيضة انفجرت عند نشأة الكون وتجمعت شظاياها لتكوين النجوم والمجـرات فى أنحـــاء متفـرقة متباعدة .

كما أعلن هبل بعد قياسات (١) بدأت منذ عام ١٩٢٩ وحتى الآن عن تباعد المجرات عن بعضها ممـا يوحى بأن الكون مـازال يتمـدد ويتسع منذ الانفجار الكونى العظيم عند نشأة الكون . ويشير القـرآن الكريم أيضا الى هـذه الظاهـرة بقوله تعالى :

« والسماء بنيناها بأيد وانـا لموسعون » (الذاريات : ٤٧) .

كما أعلن تالمان حديثا أن تمدد الكون حاليا ما هو الا حالة مؤقتة سيتبعهـا تقلص مـــارا بدورات متتالية من التمدد والانكماش .

فالكون الآن فى حالة مستمـرة من التمدد الذى بدأ بانفجار كبير ويبطىء تدريجيا ، وفى المستقبـل سوف تسيطر الجاذبية على تأثيـر التمدد ويبدأ الكون فى الانكماش حتى يصـل فى النهاية الى حيث بدأ . وتشير الآية الكريمة التالية الى هذا المعنى بقوله تعالى :

« يوم نطـوى السمـاء كطـى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين» . (الأنبياء ١٠٤) .

ولقد اختلف العلماء فى تقـدير عمر الكون وتوقع القرآن الكريم هذا الخلاف كما فى قوله تعالى :

« ما أشهدتهم خلق السمـوات والأرض ولا خلق أنفسهم » .

صدق الله العظيم

ثانيا ـ الجاذبية والنسبية والكون :

الجاذبية العامـة ظاهـرة كونية اكتشفها نيوتن عـام ١٦٨٧ م حيث أعلن أن كل شيء فى الكون يجذب كل شيء آخـر فى الأرض أو فى

---

(١) تعتمد هذه القياســات على ظاهرة تدعى ظاهرة دوبلر لازاحــة الطيف . وقد لوحظت الازاحة الحمراء فى طيف المجرات مما يدل على تباعدها عن بعضها .

السماء فالشمس تجذب الأرض ، والأرض تجذب القمر ، وتجذب كل ما عليها ، مع ملاحظة أن الجـذب متبادل بين الأشياء

وأن الجاذبية حقيقة علمية كونية بل قانون عـام (١) موجـود فى طبيعة الأشياء ويعمـل فى صمت فى الأرض والسمـاء . وعلى قدر ضآلة قوة الجاذبيـة على الأرض فهى جبارة عارمة فى السماء حيث الكتل عظيمة هائلة تتماسـك رغم تباعدها بفضل قوة الجـذب التى تمسك أجرام السماء وتمنعها من الانفراط لأن مدبر الكون لم يشـأ بَعْدُ لها انفراطا . حقا ان قانون الجاذبية قانون المدبر الأعظـم . قانون الله الواحد الأحد الذى رفع السماوات بغير عمد وصدق سبحانه بقوله تعالى : « ويمسك السمـاء أن تقع على الأرض الا باذنه ان الله بالنـاس لرؤوف رحيـم » (الحج ٦٥) .

وقوله تعالى :

« الشمس والقمـر بحسبـان ، والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان » (الرحمن ٥ ــ ٧) .

وقوله تعالى :

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصـل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون» (الرعد ٢) .

حقا انه ميزان الهى محسـوب بدقة متناهية ، لأن قانون الجاذبية يرغم الأجـرام السمـاوية على الدوران .

« وكل فى فلك يسبحون » .

وعند الدوران تتولد قوة تدعى القوة المركزية الطاردة خارج مركز الدوران لتتـوازن تماما مع قوة الجاذبية التى تشد الجسم الدائر نحو مركز الدوران . ولولا هـذا

---

(١) قوة الجاذبية بين اى كتلتين فى الوجود = ثابت الجـذب العام × $\frac{\text{الكتلة الاولى} \times \text{الكتلة الثانية}}{\text{مربع المسافة بينهما}}$

الدوران لوقعت الأرض على الشمس ولوقع القمر على الأرض ! ولولا التوازن بين القوتين لما استقرت الاجرام فى مداراتها فى هذا الكون !

ولقد استخدم علماء الفضاء هذه الظاهرة الكونية لاطلاق الأقمار الصناعية وسفن الفضاء فى مداراتها بسرعة معينة بحيث تتزن قوة الجاذبية مع القوة المركزية الطاردة . ومن الطريف أن أقمار الاتصالات اللاسلكية تبدو للمراقب لها من الأرض كأنها معلقة ثابتة فى السماء نظرا لدورانها حول الأرض بسرعة تعادل سرعة دوران الأرض حول نفسها !

وتلعب الجاذبية دورا هاما فى الكون كله . وعلى سبيل المثال فان النجوم تولد وتموت بسبب الجاذبية . فعندما يولد النجم تتجمع مادته بفعل الجاذبية من الغاز والتراب الكونى وتتراكم تدريجيا فترتفع درجة حرارة النجم بسبب كثرة تصادمات المادة عند تجاذبها ويبدأ بذلك التفاعل النووى فى باطن النجم فتتولد الطاقة التى تؤدى الى استقرار حجم النجم وكتلته فى مرحلة تدعى مرحلة الشباب حيث تتزن قوة الجاذبية التى تشد جميع مادته نحو المركز مع قوة الضغط الاشعاعى والحرارى خارج المركز . وعندما تنتهى التفاعلات النووية تتغلب الجاذبية وبذلك ينكمش النجم متحولا الى قزم أبيض أو نجم نيوترونى أو ثقب أسود حيث ينكدر النجم نهائيا ويموت . ويشير القرآن الكريم الى هذه الحقيقة الكونية التى اكتشفها العلم الحديث (١) بقوله تعالى :

« اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت » « التكوير ١ — ٢) .

وقوله تعالى :

« والنجم اذا هوى » (النجم ١) .

---

(١) يتوقع العلماء تكور الشمس الى الخارج وتحولها الى عملاق احمر عند شيخوختها ، ثم تكورها الى الداخل وتحولها الى قزم أبيض عند وفاتها .

حقا ان النجوم تولد وتمـوت وسبحان من له الدوام وصدق تعالى بقوله :

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قديـر • الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » (الملك ١ ـ ٢) •

حقا ان النجوم التى تراهـا فى السماء والتى تسطع بألوانها المختلفة ما هى الا نجوم شابة باستثنـاء النجوم العمالقة الحمراء والأقـزام البيضاء والنجوم التى تسطع رغم وفاتها لأن الضوء الذى يعلن عن خبر وفاتها بآخر شعاع صدر منها لم يصل الينا بَعْد نظـرا لبُعْـد المسافة عنا !

كما أن النجوم النيـــوترونية والثقوب السوداء نجوم ميتـة تم الكشف عنها حديثا بواسطة الفلك الراديوى والأقمـار الصناعية التى تقيس الأشعة السينية • ولقـد تم كشف أول نجم نيــــوترونى عام ١٩٦٧ وهو نجم منكمش على نفسه بالجاذبية انكماشا شـديدا ويدور حـول نفسه مـرة كل ١/٣٠ ثانية وبهذا يبعث بنبضات راديوية نتيجة تسارع الاليكترونات الموجودة فى غلافه الكثيف•وأما الثقب الأسود فقد تم اكتشافه عام ١٩٧١ برصـد أشعة اكس التى تصدر من مـادة نجم أزرق يدور بالقرب من هـذا الثقب الأسود الخفى وذلك أثنـاء تسارع مادة هذا النجم بالجاذبية نحو الثقب الأسود الذى سيلتهـم حتما النجم المذكور • وسبحان الله نجم صغير منكمش ميت يلتهم هذا النجم الكبير الشاب ! • ان الثقوب السوداء (١) تلتهم بفضل جاذبيتهـا الخارقة كل ما يقتـرب منهـا من غازات واشعـاعات وأتربة كونية ونجـوم فهى تكنس السماء أثنـاء جريانها علاوة على اختفائها وعدم صدور أى ضوء منها • وقد تشير الآية الكـريمة التالية الى هـذه الحقيقة الكونية بقوله تعالى :

(١) الثقوب السوداء نجـوم ميتة منكمشة على نفسها وتمثل مقبرة فى السماء تجذب كل ما حولها ولا تسمح بهروب أى شيء منهـا حتى لو كان ضوءا .

« فلا أقسم بالخنس •الجوار الكنس » (التكوير ١٥ ـ ١٦) •
وقوله تعالى :

« والسماء والطارق ، وماأدراك ما الطارق • النجم الثاقب » (الطارق ١ ـ ٣) •

حيث تصف هذه الآية النجم بالطارق والثاقب معا •• والطارق لفظ يوحى بالحركة ، والثاقب لفظ يوحى بالنجم الذى يخترق الفضاء الكونى أثناء حركته الجبارة ويجمع بجاذبيته الشديدة كل ما حوله وكأنه يثقب الفضاء الكونى•

وانتقل الآن الى النظرية النسبية :

لقد أعلن اينشتاين عام ١٩٠٥ أن الزمن نسبى وليس مطلقا • وأن كل شىء متحرك يحمل زمنه معه ، وهذا طبعا أمر بديهى ، فالزمن مرتبط بالحركة أو المكان ، فلا زمان بدون مكان ، ولا مكان بدون زمان ، وعلى سبيل المثال فالسنة الشمسية على الأرض ممثلة فى مدة دوران الأرض حول الشمس تساوى ٣٦٥ ١/٤ يوما أرضيا بينما تساوى ٨٨ يوما أرضيا لكوكب عطارد ، ٢٢٥ يوما أرضيا لكوكب الزهرة ، ١١ر٩ سنة أرضية لكوكب المشترى ، ٢٥٠ سنة أرضية لكوكب بلوتو ، وقد تندهش اذا علمت أن يوم مجرتنا التى تتبع لها شمسنا مقاسا بالفترة التى تدور فيها المجرة حول نفسها مرة واحدة يعادل ٢٥٠ مليون سنة مما نعد على الأرض •

ولقد أشار القرآن الكريم الى نسبية الزمن بقوله تعالى :
« وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (الحج ٤٧) •

وقوله تعالى :

« ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض » (الكهف ٢٥ ، ٢٦)•

وهذه اشارة الى أن ٣٠٠ سنة ميلادية تعادل ٣٠٩ سنة هجريةعلى الأرض • ونظرا لأن الزمن نسبى فان الآية تستطرد بعبارة : « قل الله أعلم بما لبثوا » •

صدق الله العظيم •

ويا لروعة القرآن الكريم ، ودقة تعبيره واعجازه العلمى البالغ .

ولم يقف الاعجاز العلمى عند هذا الحد بل تطرق القرآن الكريم لتفاصيل النظرية النسبية كما يلى :

لقد أعلن اينشتين فى النسبية الخاصة أن الشيء المتحرك سواء كان مادة أو طاقة ينكمش زمنه بالنسبة للراصد الساكن . وخاصة عندما تقترب سرعة الشيء المتحرك من سرعة الضوء . ولتوضيح ذلك فان الرحلة التى تستغرق آلاف السنين حسب الساعة الأرضية قد تدوم يوما واحدا بالنسبة لطاقم صاروخ منطلق بسرعة تقترب من سرعة الضوء . ويزداد انكماش الزمن بازدياد السرعة .

ولقد ثبتت صحة هذه النظرية فهناك جسيمات ذرية تطول أعمارها فى نظر راصدها نظرا لانكماش زمنها الى مئات أو آلاف المرات اذا تحركت بسرعة قريبة من سرعة الضوء . ولهذا أدعوك يا أخى المسلم أن تتأمل الآيتين الكريمتين التاليتين :

« تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (المعارج ٤) .

وقوله تعالى :

« ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » . (السجدة ٥) .

وانكماش الزمن هنا واضح فى الآيتين . فالعروج فى الرحلة الأولى يتم فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة بينما العروج فى الرحلة الثانية يتم فى يوم كان مقداره ألف سنة . وليس هذا تعارضا على الاطلاق بل اشارة الى أن عروج الملائكة والروح يتم أسرع من العروج الآخر الخاص بالمخلوقات الأخرى ، وهذا على ما أعتقد أمر بديهى حيث تسبقنا الملائكة (١) .

(١) مصداقا لقوله تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » . (الزمر : ٧٥) .

والعروج هنا مقصود به الصعود فى مسار منحنى وليس فى خط مستقيم وقد نندهش عندما نعلم أن أينشتين قد أعلن فى نظريته النسبية العامة عام ١٩١٦ أن الحركة فى الفضاء الكونى لأى شىء سواء مادة أو طاقة تتم فى مسارات منحنية نظرا للجاذبية العامة !

فهل عرفت الآن لماذا يعبر القرآن الكريم دائما عن الحركة فى الفضاء الكونى بكلمة عروج كما فى الآيتين السابقتين والآيات الكريمة التالية التى تعرضت لأسفار الفضاء :

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون » (الحجر ١٤)

وقوله تعالى :

« يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » (سبأ ٢)

فهل قرأ أينشتاين القرآن الكريم قبل أن يعلن نظريته النسبية أم أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام كان يعرف النسبية قبل ظهورها ، وذلك فى نظر أولئك الكفار الذين يدعون ظلما وبهتانا أن القرآن الكريم من تأليف البشر ! !

ولقد ثبت فعلا أن الضوء ينحنى فى الفضاء وأن الاجرام السماوية تنحنى فى مسارها فى الفضاء وأن المجرات كلها تتباعد عن بعضها كما لو كان الكون كله يتسع ويتمدد.

وان الكون كروى يشبه البالون المستمر فى الانتفاخ ويشير القرآن الكريم الى اتساع الكون وتمدده بقوله تعالى :

« والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » (الذاريات ٤٧) .

ثالثا ـ الطاقة والكون :

لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون من مادة وطاقة .

فالمادة قد تشع الطاقة كما فى ضوء الشمس والنجوم ، وقد تحترق لتعطى الطاقة كما فى الخشب والفحم والبترول ، وقد تنحل اشعاعيا لتعطى الطاقة كما فى

المواد الذرية المشعة ولهذا فالكون يعج بالطاقة المرئية وغير المرئية • وصدق الله العظيم بقوله تعالى :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » (الحاقه ٣٨ ، ٣٩)

وقوله تعالى :

« الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » •

(النمل ٢٥)

فنحن نرى ضوء الشمس والنجوم بأعيننا وهو جزء ضئيل من طاقة النجوم التى تبعث باشعاعات غير مرئية مثل الاشعاعات الراديوية ودون الحمراء والفوق بنفسجية والسينية وجاما علاوة على الجسيمات الذرية غير المرئية العالية الطاقة كالأشعة الكونية التى تملأ أرجاء الكون والتى يتم اصطياد معظمها بفضل المجال المغناطيسى للأرض بدوران هذه الجسيمات فى أحزمة تحيط بالأرض (بعد الغلاف الجوى) تدعى أحزمة فان ألن الاشعاعية والتى تم اكتشافها فى عصر الفضاء نظرا لخطورتها على رواد الفضاء الذين يخترقونها ولهذا يجب عليهم تجنب المرور بها • كما أن الغلاف الجوى للأرض يقوم بامتصاص الأشعة غير المرئية والعالية الطاقة مثل الأشعة فوق البنفسجية والسينية وجاما ، فلا يصل الينا منها الا القليل علاوة على أن الغلاف الجوى يحرق ملايين الشهب التى تحتك به أثناء هبوطها فلا تصل الى الأرض • وصدق الله العظيم بقوله تعالى :

« وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون »
(الأنبياء ٣٢)

والشمس تعتبر المصدر الرئيسى للطاقة فى عالمنا • فهى حقا شجرة الطاقة التى تتفرع منها كل أنواع الطاقة التى نعرفها على الأرض • فالرياح تنشأ بتسخين سطح الكرة الأرضية بدرجات حرارة متفاوتة بواسطة أشعة الشمس • كما أن مساقط المياه تتكون بسقوط الامطار التى نشأت أصلا من تبخر مياه المحيطات والبحار بتأثير حرارة

الشمس . كما أن الخشب والفحم والبترول أصلها نباتات أو حيوانات قديمة نمت وعاشت بفضل الشمس والطاقة الكهربية من الدينامو تتولد من مصادر أصلها الشمس كالبترول أو مساقط المياه أو الطاقة الذرية. والطاقة الذرية تنشأ من مواد مشعة موجودة بالأرض وتم طبخها منذ بلايين السنين فى باطن الشمس . فهل اقتنعت الآن أن الشمس هى شجرة الطاقة فى عالمنا . وصدق الله العظيم بقوله تعالى :

« أفرأيتم النار التى تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم . فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » (الواقعة ٧١ — ٧٦)

حقا ان الشمس شجرة الطاقة. وان الشمس نجم من النجوم. وان مواقع النجوم شيء مذهل ! فالشمس تبعد عنا مسافة قدرها ٩٣ مليون ميل ! ويقطع الضوء هذه المسافة بسرعة قدرها ١٨٦٠٠٠ ميل/ ثانية فيصل الينا فى زمن قدره ٨١/٣ دقيقة ضوئية . وأقرب النجوم الينا بعد الشمس هو النجم الفاقنطوروس الذى يبعد عنا ٢٦ مليون مليون ميل أى مايعادل ٤ر٤ سنة ضوئية(١) ، وأما نجم الشعرى اليمانية ، وهو ظاهريا ألمع نجوم السماء فيبعد عنا ٩ سنوات ضوئية. ونجوم مجرة المرأة المسلسلة تبعد عنا ٣٥ر٢ مليون سنة ضوئية ويمكن رغم هذا رؤيتها بالعين المجردة !. فما بالك بالنجوم التى أمكن رصدها بالتليسكوبات الحديثة (مثل تليسكوب بالومار فى أمريكا) والتى تبعد عنا أكثر من بليون سنة ضوئية . وما بالك بالتليسكوبات الراديوية التى تمكنت حديثا من رصد نجوم تبعد عنا عشرة بلايين سنة ضوئية .

ولقد اتضح أن جميع النجوم ليست ثابتة كما تبدو فى السماء ولكنها تتحرك وتجرى بسرعات جبارة لا نستطيع ادراكها نظرا لبعدها عنا .

---

(١) السنة الضوئية = ٦ مليون مليون ميل = ٥ر٩ مليون مليون كيلو متر .

ولكن العلم الحديث قد اكتشف هذه الحركة بملاحظة الازاحة الناشئة فى طيف هذه النجوم . ولقد ثبت فعلا أن للشمس مثلا عدة تحركات مثل :

١ ـ دوران الشمس حول نفسها مرة كل ٢٧ يوما .

٢ ـ الشمس تجرى ومعها مجموعتها الشمسية ونحن طبعا معها بسرعة فائقة قدرها ١٣٨ ميل / ثانية أثناء دورانها حول مركز مجرتنا والمعروفة بسكة التبانة .

٣ ـ الشمس تجرى ونحن معها بسرعة ١٢ ميل / ثانية بالنسبة لما حولها من نجوم مجرتنا .

٤ ـ تجرى الشمس مع نجوم مجرتنا وذلك نظرا لانطلاق مجرتنا فى الفضاء الكونى بسرعة تصل الى المليون ميل / ساعة ضمن ظاهرة التمدد الكونى . وذلك الى جهة غير معلومة .

وصدق الله العظيم بقوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » (١) .

والشمس كما نعلم نجم من ١٣٠ بليون نجم فى مجرة سكة التبانة. وهى احدى مجرات الكون العظيم الذى يحتوى على أكثر من ٢ بليون مجرة !

والشمس كتلتها ٢ بليون بليون بليون طن أى ما يعادل كتلة ٣٣٣٤٠٠ كرة أرضية مثل أرضنا . وحجمها قدر حجم الأرض أكثر من مليون مرة ، ودرجة حرارة سطحها ٦٠٠٠° م بينما باطنها أتون قدر العلماء حرارته بأكثر من ٢٠ مليون درجة مئوية . وتنشأ الطاقة من اختفاء المادة وليس احتراقها . حيث يتحول الايدروجين بالاندماج النووى الى هيليوم على حساب النقص فى الكتلة بمعدل يصل الى ٤٫٦ مليون طن فى الثانية !

وطبقا لهذه الأوصاف العلمية التى تفيد بأن الطاقة بالشمس طاقة نووية اندماجية وليست طاقة احتراق بمعنى أن الشمس ليس بها النار التى نعرفها والا لما دامت بلايين السنين . وطبقا للتقارير الواردة بواسطة رواد الفضاء عن

(١) لفظ تجرى هنا يعبر عن الحركة الحقيقية للشمس وليس الحركة الظاهرة اليومية من الشرق الى الغرب .

ظلمة السماء بعد مغادرة الغلاف الجوى وعن صخور القمر السطحية التى ثبت أنها تحتوى على نسبة عالية من الزجاج • فانني أقترح فهما وتصورا جديدا للآية الكريمة التالية :

« الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » •

(النور ٣٥)

ويقصد بمطلع الآية : « الله نور السموات والأرض » أن الله منورهما • ويقصد بالمشكاة : الكوة أو المكان المظلم الذى لا نور فيه • وحيث أن السماء بعد مغادرة الغلاف الجوى تكون حالكة الظلام رغم بزوغ الشمس والنجوم فيها طبقا لوصف رواد الفضاء فانني أعتقد أن السماء بعد الغلاف الجوى هى المشكاة فالسماء لا يوجد بها ما يشتت الضوء الى أعين الرواد ، فهى ليل سرمدى دائم •

وهذه حقيقة فالليل هو الأصل كما يتضح من قوله تعالى :

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون » •

(يس ــ ٣٧)

وقوله تعالى :

« أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » •

(النازعات ٢٧ ــ ٣٠)

وبهذا فان ليل السماء الدائم هو المشكاة ، وحيث أن المشكاة فيها مصباح ، والمصباح فى زجاجة • فان هذا المصباح هو القمر الذى ثبت أن صخوره السطحية تحتوى على نسبة عالية من الزجاج طبقا لنتائج فحص الصخور القمرية التى أحضرها رواد الفضاء فى رحلاتهم المتعاقبة الى القمر (١) •

(١) زجاج القمر ورد ذكره فى تقارير وكالة ناسا وجميع الكتب والبحوث التى تحدثت عن صخور القمر حيث ثبت أن نصف العينات عبارة عن قضبان وكرات لامعة من الزجاج !

ونعود الى آية النور فى وصفها للزجاجة « كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » ومعنى هذا أن الزجاجة التى تمثل فى مفهومى الغلاف السطحى للقمر تظهر مثل كوكب لا يضىء بذاته ، ولكنه يعكس الاشعة القادمة من شجرة الطاقة أى من الشمس التى تشبه الزيتونة وليست فى الشرق أو الغرب فهى متنقلة متحركة علاوة على أن طاقتها نووية وليست طاقة احتراق أى لا تحتوى على النار **كما أنها مباركة تعتمد عليها حياة الانسان ، بل ان الانسان** نفسه وجميع الكائنات على الأرض قد تم تكوين ذرات مادتهم فى الشمس منذ بلايين السنين !

هذا هو تصورى فى فهمى لآية النور . والله بكل شىء عليم .

رابعا ــ غزو الفضاء :

لعل أعظم ما وصل اليه الانسان فى القرن العشرين هو وصول الانسان الى القمر فى ٢١ يوليو عام ١٩٦٩ . **ولقد سبق أن أشار القرآن الكريم الى هذا الحدث الرائع فى اعجاز علمى بالغ بقوله تعالى :**

« والقمر اذا اتسق ، لتركبن طبقا عن طبق ، فما لهم لا يؤمنون واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون » .

(الانشقاق ١٨ ــ ٢١)

حقا لقد ركب الانسان طبقا عن طبق بغرض الوصول الى القمر ، ولقد تم هذا الركوب كما يلى :

١ ــ تدرب رائد الفضاء على مرحلة انعدام الوزن قبل القيام بالرحلة ، وذلك بالدوران فى أطباق بسرعات مختلفة .

٢ ــ يركب رائد الفضاء فى كابسولة فى أعلى صاروخ متعدد المراحل كما لو كان الصاروخ طبقا عن طبق .

٣ــ اختراق الصاروخ لطبقات الغلاف الجوى المختلفة مثل طبقات التروبوسفير والستراتوسفير والأيونوسفير .

٤ ــ لقد تم ارسال العديد من سفن الفضاء قبل نجاح الوصول

الى القمر • وكانت هـذه السفن كالأطباق تحمل ركابا متعاقبين طبقا عن طبق وهؤلاء الركاب أو الرواد هم على الترتيب :

جاجارين ، شبرد ، جريسوم ، شـيرا ، كوبر ، بايكوفسكى ، فالاتتينا ، ثم تتـابعت الرحـلات برائدين ، ثم بثلاثة رواد فى مركبة بعد مركبة • ألا يعبـر هـذا كله عن العبارة « طبقا عن طبق » • ؟

٥ ـ لقد نجح رواد الفضـاء الامريكيون فى رحلة أبوللو ١١ فى يوليو عام ١٩٦٩م فى الوصول الى القمر حيث هبط نيل آرمسترنج وألدرين بالمركبة القمرية على سطح القمر بينمـا كان زميلهم الثـالث كولينز ينتظرهما فى مركبة أخـرى تدعى كولومبيا فى مدار حول القمر حيث التحمت بها المركبـة القمرية بعد أداء مهمتهـا وعادوا جميعـا سالمين الى الأرض ، وقـد ركبوا فعلا طبقا عن طبق !

٦ ـ لقد تتابعت رحلات أبوللو ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وانتهت فى عام ١٩٧٢م • أليس هذا أيضا طبقا عن طبق فى سبيل الوصـول الى القمر ؟

وصدق الله العظيم بقوله تعالى :
« فما لهم لا يؤمنـون ، واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون »

وعلينا أن نعتز بديننا الذى جعلنا نعيش كل عصر بـروح العصر • وعلينا أن نفخر بقرآننا الذى قدم لنا الحقائق الكونية فى اعجاز علمى رائع يتحدى كفار الأمس واليوم والمستقبل وسيظل العلم الحـديث قزما أمام ما قدمه القـرآن الكريم من حقائق عملاقة عن هـذا الكون الفسيح • ولن يحدث تناقض بين العلم والقرآن الا اذا ضـل العلم طريقه • كمـا أن تخلف المسلمين للأسف الشديد يرجع الى تقصيرهم ومخالفتهم للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفـة وابتعادهم عـن العلم • فالاسلام قد حث المسلمين على العلم والتقدم ودراسة الكون بقوله تعالى :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » •

(يونس ١٠١)

وقوله تعالى .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

(العنكبوت ٢٠)

وقوله تعالى :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

(آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١)

وفقنا الله لخدمة الاسلام والمسلمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدكتور منصور محمد حسب النبى
استاذورئيس قسم الطبيعة (الفيزياء)
كلية البنات ـ جامعة عين شمس

فهـــرس العـــــدد

الموضـــــــوع	الصفحة
دراسات قرآنية (حسن الجوار من آداب الاسلام)	
فضيلة الشيخ : مصطفى محمد الطير	٤٢٩
المشكلة الاقتصادية فى ضوء تعاليم الاسلام الحنيف	
دكتـور : رؤوف شلبى	٤٣٦
من الأدب النبوى (التفسير النبوى للقرآن الكريم)	
للدكتور : محمد رجب البيومى	٤٤٦
فى مواجهة الالحاد المعاصر : خلاصة تناقضات الالحاد العلمى	
للدكتـور : يحيى هاشم	٤٥٤
الاســلام فى الفكـر الأوربى	
دكتور : محمــد شامة	٤٥٩
البحث عــن الحقيقــة	
دكتور : فتحى محمد أبو عيسى	٤٧٥
بين الاصول والفروع فى التعبير الصوتى الصرفى	
دكتور : احمد علم الدين الجندى	٤٨١
حفيد النفس الزكية من مواليد السند	
للاستاذ السيد : حسن قرون	٤٩٩
من آداب وشروط القضاء فى الاسلام	
المستشار : محمد عزت الطهطاوى	٥٠٦
من أعلام التصوف القدامى فى اليمن	
للاستاذ : عبد الحفيظ فرغلى القرنى	٥١٦
الادب الاردى وتطوره (دور المتصوفة ورجال الدين فى رقى الادب)	
دكتور : سمير عبد الحميد ابراهيم	٥٢٤
مع آيات من سورة النساء فى ليلة من رمضان	
للاستاذ : عبد الحميد الفضالى	٥٤٦

الموضـــــــوع	الصفحة

المعرفة بين الفلسفة والاسلام
للاستاذ : احمد عبد الرحيم السايح ٥٦٣
حكـم ... وطـــرائف
للاستاذ : عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ٥٧٩
الفتـــــاوى
للاستاذ : عبد الحميد شاهين ٥٨٣
كتاب الشهر : الكون بين العلم والقرآن
للدكتور : منصور محمد حسب النبى ٥٨٩

مدير المجلة
محمد صابر البريسي

مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

ت ٩٠٥٥٠٦

الجزء الرابع ـ السنة الثانية والخمسون ـ رجب سنة ١٤٠٠ هـ ـ يونية سنة ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة
إفتتاح العدد

للأستاذ محمد صابر البريسي
مدير المجلة

يطيب لى وقد أسند الى (ادارة مجلة الأزهر) أن أبعث الى قرائها فى كل مكان ، داخل جمهورية مصر العربية وخارجها ، بتحية الاسلام ، راجيا الله أن يوفقنى فى هذه المهمة الجليلة ، لتكون مجلة الأزهر مؤدية لرسالة الأزهر ، معبرة عن جوهره الأصيل .

وقد أعتادت المجلة أن تتوقف عن الصدور : شهرى جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة من كل عام لتبدأ نشاطها من جديد فى شهر رجب .

وأسرة المجلة اذ تقدم لقرائها عددها الجديد ، ترجو أن يشعر القارىء بلمسات طيبة فيما يتصفح من صفحات ، وفيما يتذوق من أفكار وموضوعات .

وفى هذا العدد ، والأعداد

التالية (بمشيئة الله) كتاب جدد من رجالات الفكر الاســـلامى ، والأساتذة المتخصصين الذين تتلمذ عليهم آلاف الطلاب ، وعـــرف فضلهم وعلمهم قراء كثيرون .

وقد تفضـــلوا مشـــكورين بالمشاركة فى امداد المجلة بمـــا جادت به قرائحهم ، ايمـــانا منهم بأن هذه المجلة هى لسان الأزهر ، وعنوان الأزهريين .

ومن الخير للأزهر والأزهريين ولغيرهم من المسلمين ممن يهمهم أمر الدين أن تشرح رســـالة السماء ، وأن توطـــد فى أذهان الناس وأن يقوم أولو الفكر مـــن رجال الاســـلام ، أهـــل العلم والحكمة والتجربة فى نشر أسس هذا الدين ومعالم حضارته .

وهم اذ يتقدمون بهذا الجهـــد فى هذا السبيل انما يبتغون بـــه وجه الله .

وأسرة المجلة اذ تقدر لهم هذا الجهـــد الجليل ترجـــو الله أن يجزيهم بخير مايجـــزى به عباده المحسنين .

« وبمشيئة الله » ســـنوالى فى الأعداد القادمة نشر مالم نستطع نشره للكتاب الأفاضل ، وستكون لبعضهم أبواب ثابتة يكتبون فيها .

ونحن نرحب برجال الفكـــر الاسلامى ممن يهمهم أن يساعدوا فى تطوير المجلة ، تطـــويرا يحقق لها التفوق فى كل المجالات .

وأسرة المجلة تحرص عـــلى أن تقوم بمراجعة الطبع قبل الاعتماد مراجعة دقيقة ، بقدر ما تتحمـــل وتطبيـــق ، حتى تخـــرج المجلـــة (بمشيئة الله) أقرب ماتكون الى الصـــواب .

وســـتدرس كل الأســـباب التى تعوق ظهور المجلة فى حينهـــا فى أول كل شهر عربى ، وستعمل على ازالـــة كـــل مايعترض ذلك مـــن معوقات .

رب ان الهدى هداك ، والخير بيدك ، ولا ملجأ الا اليك .

رب اهد الأمة الاســـلامية الى محاسن دينك ووفقها لمـــا تحبـــه وترضاه .

والله الهادى الى سواء السبيل.

محمد صابر البرديسى

ردا على ماورد فى بعض الصحف من التقــول على علمــاء الازهر ، ومشــيخته ونســبة القول اليهم فى موضوع تنظيم الأسرة وتصــويره أحيانا بتحديد النسل ، وتوضــيحا لوجه الحقيقة وانصــافا للحــق ، آثرنا أن ننشر ما سبــق أن نشر فى مجلة الأسرة والسكان وحتى نخلص الأفكارمن بعض الأهواء والأغراض التى لا تتفق مع الدين .

لقــاء مــع فضــيلة الإمـــام الأكبر

الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصــار شــيخ الأزهــر

الســـائل : على الرغم من المهــابة والجــلال اللتين يمكــن أن تستحضرهما النفس عند مجرد التفكير فى الالتقاء به الا أن تخلقه الحق بخلق الاسلام ، يجعل الأمر أكثر من عادى .

فالرجل يلقاك هاشا باشا ودودا محببا ، بطريقة لا تلبث أن تشــعر معها بأنك سبق والتقيت به من قبل .

فاذا كان أكبر لقب فى عالمنا الاسلامى اليوم ــ فضــيلة الامام الأكبر ــ جدير بأن يحملك على الشــعور بالمهابة والجلال ، فانه يكفى الرجل أن يكون خلقه الاسلام ، حتى تشعر تجاهه بالألفة والمودة ، قدر ما يحلق بك الخيــال .

فمنذ الوهلة الأولى تجدك أمام رجل مفتوح العقل والقلب ، مرهف

الحس والوجدان يحترم العقل ويتحدث بالمنطق ، ولكنه قبل ذلك ومن بعده يؤكد على الحقيقة الكبرى وأعنى حقيقة الايمان .

كل ذلك جعلنى أتصور أن مهمتى ستكون سهلة وأنا ألتقى به فى حوار حول المشكلة السكانية ، أو مشكلة الانفجار السكانى ، ولكنه بادرنى بقوله :

فضيلة الامام : أنا فى الواقع أرى أنه لاتوجد مشكلة وانما المشكلة توجد فى ضوء معين ، فلو أننا عدلنا هذا التصور لما كانت هناك مشكلة .

ونحن عندما نتحدث لانتكلم من وجهة نظر قومية محلية وانما من وجهة نظر أعم وأوسع ، أعنى أننا نتحدث من خلال المجتمع الاسلامى ككل ، ذلك أن اقامة العدل فى المجتمع لا تقاس ببقعة معينة من الأرض دون الاخرى ، وانما طالب الله المسلمين أن يقيموا العدل بينهم فى جميع البقاع والاصقاع ، وعلى أى مستوى من المستويات . لان الاسلام لايعرف الحدود الجغرافية ، ولا الفواصل الجنسية ، ولا يعرف الاقليميات أو المحليات بحال من الاحوال .

حينما تقول بأن هناك انفجارا سكانيا ، كيف نشأ هذا الحكم ؟ لاشك أنه نشأ نتيجة لنظرتنا الى مواردنا فى داخل حدود بلدنا وقياس الزيادة فى هذه الموارد على الزيادة فى عدد السكان وحينما نجد أن معدل الزيادة فى السكان أسرع منها فى الموارد نقول : ان هناك انفجارا سكانيا .

المصرى يتقن الفلاحة منذ القدم :

حقيقة هناك مشكلة سكانية فى مصر ولكنها نشأت نتيجة أننا حصرنا **أنفسنا فى شريط** ضيق من الأرض الزراعية على جانبى النيل وأهملنا **باقى البقاع الأخرى التى تصلح للزراعة** ، أهملنا توصيل المياه اليها أزمانا طويلة ، وكان يمكن أن نخلق منها وديانا زراعية جديدة ، تتسع

لأضعاف أضعاف ما تحمله من سكان الآن ، وليس هذا بالامر الصحيح الذى نستطيع أن نبنى عليه حكما من الأحكام ، لأن عنصر التقصـير فيه حاصل ، وعنصر التكاسل والتواكل هنا موجود .

لا شك أنك تعلم أن الجهد البشرى ينمو على أساس النمو السكانى والزيادة السكانية ، بشرط ألا تكون زيادة قاحلة أو قفرة كما هو الحـال فى المجتمعات التى تتسم بالكسل والتواكل والعجز ، **فاذا اتسـم المجتمع بالجد فى العمل** والاستثمار النافع لكل ما هـو كائن فى الأرض **فان الزيادة السكانية هنا تعنى مزيدا من الطاقة البشرية والجهد الانسانى ،** ونحن فى مصر لدينا هذه الطاقة البشرية ولكنها شبه معطلة ، **ولدينـا كما يقول الرئيس السادات،الامكانات اللازمة للزراعة :كالمياه والأرض القابلة للزراعة والمناخ الممتاز ، بالاضافة الى الخبرة بل أقول العبقرية ،** فمنذ قدماء المصريين حتى الآن ، والمصرى معـروف باتقـانه للزراعة والفلاحة ، لكنه لم يتوسع فى مساحة الأرض المنزرعة لغيبة دور الادارة فى التخطيط والتنفيذ ، ولو وجد هذا الدور منذ القـدم لكانت كل هذه البقاع ــ التى نسعى الى تعميرها الآن ــ قـد عمرت وأصـبح فيهـا حضارات قائمـة .

السـائل : هذا صحيح .

لماذا لايتعاون المسلمون ؟

فضيلة الامام : وعلى هذا الأساس فأنا أرى أن فكرتنا عن الانفجار السكانى ناتجة عن أمرين :

الأول : أننا لا نريد أن نعمل وننشط الأيدى العاملة لنضيف جديدا ونريد فقط أن نمنع النسل منبع هذه الكثرة السكانية مع أن ابن خلدون رائد علم الاجتماع يرى أن العمران البشرى أساسه كثرة السكان وبهم تقـوم الحضـارات .

الأمر الثانى : أننا لو نظرنا الى المجتمع الاسلامى لوجدنا بلـــدا اســـلاميا تعداده ثلاثة ملايين نسمة وامكاناته وثرواته المادية تعـــدل امكانات مجتمع آخر تعداده أربعون مليونا مثلا • لماذا لا يكون بينهمـــا تعاون وتكافل ؟

نحن لا نقول بتقسيم الثروة بينهما وانما نقول بالتعاون ، وبدلا من أن تستثمر هذه الدول الغنية تلك الأموال فى أوربا وفى دول غير اسلامية تستثمرها فى دول شقيقة فى الدين والعقيدة ، وليس فى هـــذا أى ظلم أو اجحاف لأى من الطرفين لو نظرنا الى المسألة من هذه الناحية لا نقول بأن هناك انفجارا سكانيا ، أيضا يجب ألا يغيب عن بالنا ما نعانيه الآن فى مصر من نقص فى الأيدى العاملة بالزراعة والذى يتمثل فى الشكوى من ارتفاع أجورها الى حد غير معقول •

ثم هناك الشكوى أيضا من قلة الأيدى العاملة المهنية والحرفية ، كالسباك والنجار والحداد ، وما الى ذلك ، والمغالات فى أجورها الى درجة أصبح يتندر بها فى رواية لعلك تعرفها •

السائل : لا بأس من ذكرها هنا لو أذنت •

فضيلة الامام : (حينما استحضرها فضيلة الامام الأكبر فى ذهنه ضحك قبل أن يرويها) ثم قال :

جاء السباك ليصلح حنفية فى منزل استاذ جامعى ، ولم يستغرق ذلك أكثر من ربع ساعة ، وحينما سأله الأستاذ عن الأجر الذى يقدره لنفسه طلب خمسة جنيهات ، وبعد أن عقدت الدهشـــة لســـان الأســـتاذ الجامعى بعض الوقت تمالك نفسه وقال له : أتريد خمسة جنيهات فى ربع ساعة !! ألا تعلم أنى أحاضر فى الجامعة لمدة ســـــاعة نظير جنيهين !! فكان رد السباك ،وأنا مالى ياأخى حد قال لك خيب نفسك واطلع استاذ جامعة •

فلنعد النظر فى السياسة التعليمية :

وأياما كان نصيب هذه الرواية من الصحة فان الأمر يدلنا على أن هناك عجزا فى الأيدى الحرفية والمهنية يستوجب أن نخطط لعلاجه داخل الأسرة ذاتها ، ومن ثم **فان الذين يعنون بتنظيم الأسرة يجب أن يهتموا بتغيير النظرة الى العملية التعليمية بحيث يوجه القدر الاكبرمن التلاميذ الى التعليم الفنى بعد الشهادتين الاعدادية والثانوية ٠** ولست بحاجة الى أن أشير الى تفوق دخل الحرفى أو الفنى على خريج الجامعة ، بل انه أصبح من الصعب أصلا ايجاد نوع من المقارنة ٠

التنظيم لايتعارض مع الشرع :

أما عملية تنظيم النسل فانه لا يصح أن تكون حكما عاما ، وانما يجب أن يترك الأمر لكل أسرة على حدة وفقا لظروفها ، فالأسرة التى لديها من الأسباب ما يقتضى المنع كمرض الزوجة أو ارهاقها أو اصابة الأولاد بمرض وراثى كالعته أو التخلف العقلى أو الشلل عندئذ يجب المنع لأن ظروف الأسرة تقتضى ذلك ٠

السائل : ولا يتعارض هذا مع الشرع ؟

فضيلة الامام : لايتعارض مع الشرع طبعا ، ولا مع نظام الأسرة ومصلحتها **وهذا ليس رأيى فقط وانما هو رأى مجمع البحوث الاسلامية** حينما سئل فى هذه المسألة ٠

السائل : ولعل هذا يتفق مع معنى الحديث الشريف « يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ٠ قالوا أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا ، بل أنتم حينئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل » ٠

أى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريدنا أمة قوية بين الأمم ،

ولاشك أن قوة الأمة تقوم على قوة أفرادها ، ولا يريدنا الرسول — صلى الله عليه وسلم — غثاء أو كثرة بدون فعالية ، ما هو الحال حينما يكون النسل مصابا بالعته أو التخلف العقلى أو الشلل أو غير ذلك مما أشرتم اليه من قبل كموجب لمنع النسل •

فضيلة الامام : نعم ، ويضاف الى ذلك المنحرف أخلاقيا ، أو غير المتماسك ، لأنه لم يرث التربية الصحيحة ولم ينشأ التنشئة الطيبة الصالحة ، فقد يكون صحيح البدن والعقل ، ولكنه لا يريد أن يعمل **لمجتمعه ،ويؤثر نفسه ،ولا يشارك بايجابية فى بناء المجتمع • هذا يكون غثاء كغثاء السيل أيضا ، وليس المرض فقط** ، صحيح أن المرض قاطع بأن هذه الاسرة يجب أن تمنع من الانجاب لأن **الله لايريد للمسلمين ولمجتمعهم أن يكونوا جماعة من المتخلفين عقليا** والمشلولين وما الى ذلك اذا كان ذلك مرضا وراثيا ، أو ثبت أن الأسرة غير صالحة للانجاب •

لكنى أريد التأكيد على ضرورة استثمار الزيادة السكانية فى مجالات العمل ، خاصة ونحن نسعى الى توسيع الرقعة الزراعية ، من الذى سيفلح الأرض ولدينا هذا العجز فى الأيدى العاملة فى الزراعة ؟ ولتذهب الى الريف لترى •

السائل : أنا من أعماق الريف •

فضيلة الامام : اذن أنت تعرف ذلك ، ولا يخفى عليك أن الميكنة الزراعية ليست فى مقدور الأفراد ولابدأن تتولاها الدولة وهذا أمر يحتاج الى امكانات قد لاتكون متوفرة الآن وحتى لوتوفر لنا استخدام الميكنة الزراعية وأصبح لدينا فائضا من الأيدى العاملة فان هذا الفائض يجب استثماره فى مجالات أخرى من العمل ، وهنا يأتى دور التخطيط للسياسة التعليمية فى مصر •

أن الشباب الجامعى يجب أن يدرب ويؤهل للقيام بأعمال أوسع من دائرة الدراسة التى تلقاها ، حتى يزيد من دخله ، ولايقتصر على

الوظيفة الحكومية ، وهذا موجود فى جامعات أوربا كلها ، ولايغيب عن بالنا ما تحتاجه سوق العمل العربية من الأيدى العاملة فى كافة المجالات .

اذن نحن بحاجة الى سياسة تعليمية جديدة بحيث لا يخطو الى المرحلة الثانوية الا مستوى معين من التلاميذ ، ويوجه الباقون الى الحرف ، والصناعات ، ثم لايمر الى التعليم الجامعى الا الأفذاذ الذين يسدون **حاجة التخصص الدقيق الذى نحتاجه** ، ويوجه الباقون الى التعليم الفنى وهكذا .

مزيدا من التنسيق والتنظيم لأمور حياتنا :

أيضا نحن نفتقر الى التنسيق العام بين أجهزة الدولة والنظرة الشمولية فى التخطيط ، فلا يصح أن يكون البحث دائرا بين أعضاء بعض لجان مجلس شعب وادى النيل حول أزمة اللحوم ومشكلة الأعلاف وما الى ذلك ، وفى نفس الوقت نقرأ فى الصحف أن محافظة مرسى مطروح صدرت خمسة آلاف رأس من الأغنام الى ايطاليا ، وتزمع تصدير مثل هذا العدد على رأس كل شهر !!

مثال آخر ، لافتقاد التنسيق والتنظيم فى أمور حياتنا ، أنك تجد كل مصلحة تعمل منفصلة عن الأخرى ، مصلحة التليفونات تحفر الشارع ، وبعد ردمه تحفره هيئة الكهرباء ، ثم بعد ذلك المياه ثم المجارى وهكذا ‥ لماذا لا يتم التنسيق والتنظيم بين هؤلاء جميعا قبل البدء فى المشروع اذ أن ، كل ذلك وثيق الصلة بتنمية موارد المجتمع لتتعادل مع الزيادة السكانية .

السائل : تأذن لى فضيلتك بالقول بأن جهاز تنظيم الاسرة والسكان أصبح يهتم فعلا بعملية التنمية بعد أن لاحظ أن عملية تنظيم النسل وحدها ليست كافية خاصة ، وأن ارتفاع المستوى الصحى العام يسهم بطريقة غير مباشرة فى زيادة السكان .

وبالتالى فهناك الآن عدة مشروعات للتنمية على مستوى القرية فى اثنتى عشرة محافظة وأنا شخصيا زرت مواقع هذه المشروعات على الطبيعة فى قرية « نواج » بمحافظة الغربية ، وشاهدت مشروعات لتربية الدواجن والنحل ،ومصنعا للالبان وآخر للبلاط ،وورشةللنجارة وقد حققت هذه المشروعات نجاحا كبيرا بالفعل لأنها خلقت موارد جديدة بالقرية ، وأصبح يتهافت على انتاجها : لجودته من جهة ، ولرخصه من جهة أخرى ، لكن هذه الجهود تحتاج الى دعمورعاية السادة المحافظين لها — خاصة — بعد منحهم سلطات رئيس الجمهورية •

وقـــل اعملوا

فضيلة الامام : أعرف قرية « نواج » وهذا عمـل طيب ولا شك بالاضافة الى أننى لا أطالب جهاز تنظيم الأسرة بأن يرفع يده نهائيا عن مراقبة النسل ، وانما عليه أن يستمر فى مراقبته وتنظيمه بل ومنعه فى الحالات الى أشرت اليها من قبل ، والتى تجعل المسلمين غثاء كغثاء السيل لأن الله سبحانه وتعالى أراد بالمسلمين خيرا ، **والاسلام جعـل** قيمة الفرد فى أن يعمل ، وبمقدار مايكون الفرد عاملا ومصلحا ، تكون منزلتـه من الله ومكانتـه عند الناس **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة »** •

اذن السبيل الى الحياة التى ننشـدها لمجتمعنا هو التنمية ، تنميـة الحياة وترقيتها وسد حاجات المجتمع أفرادا وجماعات ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى المعول فى ذلك على العمل واستثمار الطاقات ، فليست حياة طيبة حياة الكسالى الذين لايريدون أن يعملوا أو يريدون أن يتقاضوا من الدولة مرتبات أو معونات ثم لا يستثمرون جهودهم فى العمل لصالحهم وصالح المجتمع ، قال تعالى : **« من عمل صالحا فلنفسـه ومن أساء فعليها »** ويقول أحد الفلاسفة فى هذا الصدد « اذا لم تكن لنفسـك فلمن تكون ؟ ولكن اذا كنت لنفسك فقط فلم تكون » ؟

اذن طولب المرء بأن يؤهل نفسه ويرقيها فى جوانبها المادية والفكرية والروحية ، الفكرية بتحصيل المعارف والخبرات ، والروحية بممارسة الفضائل والأخلاقيات ، أما الجانب المادى فبتمرين الجسد على الرياضيات البدنية وتحمل المشاق من الأعمال ، شريطة الا يطغى بقوته على الضعفاء • أو يتباهى على الجهلاء ، أو يستغل بذكائه الأغبياء •

بهذا يكون الفرد عضوا نافعا لنفسه ولمجتمعه وهذا أمر يجب أن تستهدفه التنمية ، تنمية الانسان فى ذاته وتنمية الانسان باعتباره عضوا فى المجتمع ، وليكن ذلك هدفا ورسالة يتحملها لا أقول جهاز تنظيم الأسرة فحسب وانما كل أجهزة الدولة ، هذا وبالله التوفيق •

« أشياء سميت بالرحمة »

سمى الله — تعالى — الايمان رحمة ، فقال سبحانه :

« وآتانى رحمة من عنده » أى الايمان •

وسمى الاسلام رحمة فقال — عز وجل :

« يدخل من يشاء فى رحمته » أى الاسلام •

وسمى القرآن رحمة ، فقال :

« وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين »

وسمى التوفيق رحمة ، فقال :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا » أى التوفيق •

وسمى الرسول رحمة ، فقال :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »

مكانة الحديث فى التشريع الإسلامى

للدكتور الحسينى هاشم
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

اصطفى الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا « صلى الله عليه وسلم » وأعده أعدادا كاملا ليتحمل أسمى رسالة يعطر بأريجها الدنيا تزكية للنفوس ، وتطهيرا للقلوب ، وتثبيتا للعقيدة الصحيحة وسيرا نحو النور فى الطريق المستقيم فى ميدان العقيدة والشريعة فأنزل على نبيه « صلى الله عليه وسلم » كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه **« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »** .

وأشرق ذلك الكتاب المبين يحمل فى نفسه دليل صدقه ذاتيا وهو الدليل الخالد على صدق الرسول « صلى الله عليه وسلم » فى كل ما جاء به ، وكان المعجزة الكبرى ، وبه تحدى الانس والجن **« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »** .

وعرف أرباب الفصاحة والبلاغة حلاوته وطلاوته وبلاغته وفصاحته ، وأيقنوا أنه ليس من كلام البشر ، وأن الذى جاء به انما هو رسول رب العالمين ، وحمل القرآن الأسس الكاملة للرسالة العامة الخالدة .

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » وأمره الله بتبليغه .

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما

بلغت رسالته ، والله يعصـــمك من الناس ان الله لا يهـــدى القـــوم الكافرين » .

ولكن هل كل العقول مســـتعدة لفهم كل ما جاء به القرآن ؟

واذا فهمته فهل من سبيل الى تفصيل اجماله ، وبيان ابهامه ؟

اذن لابد من البيان والتفصيل والتوضـــيح فأمر الله نبيـــه فى كتـــابه أن يبين للناس مانزل اليهم بسنته .

قال تعـــالى : **« وأنزلنا اليـــك الذكر لتبين للنـــاس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكـــرون » « وما أنزلنا عليـــك الكتـــاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهـــدى ورحمة لقوم يؤمنون »** وتكفل الله بعصـــــمة الرسول وامداده بالوحى وعصمته عن الخطأ والهوى فى كل ما يأتى به من قرآن وســـنة فيها بيـــان للقرآن أو تشريع مســـتقل **« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى » « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينـــا بيـــانه »** .

ومهد له الطريق وعبده لتذليـــل مهمتـــه ، فأمر النـــاس بطـــاعة الرسول ونص فى قرآنه على أنها طاعة لله ، كمـــا نص عـــلى أنـــه لاخيرة فى الأمر بعد كلام الرسول « صـــلى الله عليه وســـلم » **« من يطع الرســـول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظـــا » « يا أيهـــا الذين آمنوا أطيعوا الله ورســـــوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون »** وقال تعالى **« فلاوربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفســـهم حرجـــا ممـــا قضـــيت ويســـلموا تسليما »** .

قال ابن القيم : أقسم ســـبحانه وتعالى بنفســــه على نفى الايمان عن العباد حتى يحكموا رســـوله فى كل ما شـــجر بينهم من الدقيـــق والجليـــل ولم يكتف فى ايمـــانهم بهـــذا التحـــكيم بمجرده بل حتى ينتفى عن صـــــدورهم الحرج والضيق من قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم أيضــــا بذلك حتى يسلموا تسليما وينقادوا انقيادا .

وقال الامام الشافعى « نزلت هذه الآية فيما بلغنا — والله أعلم — فى رجل خاصم الزبير فى أرض فقضى النبى صلى الله عليه وسلم للزبير ، وهذا القضاء سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حكم منصوص فى القرآن . أ هـ فكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وأثر عنه من السنة فاتباعه انما هو واجب لصريح أمر الله فى قرآنه باتباعه ، وهو بالتالى اتباع الله وقرآنه ، وهذا صريح فيما تقدم . وفى قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، ومانهاكم عنه فانتهوا » وأخبر تعالى : أن الرسول أوتى القرآن والحكمة وهما مصدر التشريع فقال : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين» وذهب جمهور العلماء والمحققين بأن الحكمة هى السنة ، وجزم بهذا الامام الشافعى لتغايرهما بالعطف ، وهى فى مقام المنة ، ولم يوجب علينا الا اتباع الرسول فلا يمكن أن تكون شيئا غير السنة .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وحب الله فى اتباع الرسول وسنته « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم » .

فالقرآن هو الأصل الأول فى الدين الداعى الى السنة ، والسنة هى الأصل الثانى فى الدين ، وهى المبينة للقرآن ، المفصلة لاجماله ، والمستقلة بالتشريع ، فيها يعرف مثلا أوقات الصلاة ، وعدد ركعاتها وسجداتها وما يقيمها أو يبطلها مما لم يفصله القرآن ، بل أجمله فى الأمر بالصلاة كما انفردت السنة ببعض الأحكام مما لم يذكره القرآن مثل : تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها ، وتحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع أو مخلب من الطير ، الا أن مثل هذه الأمور يمكن أن يقال بأنها ليست مستقله استقلالا تاما عن القرآن ، حيث ان الأخذ بها

مندرج تحت أمر القرآن ، باتباع الرسول وسنته ، وأخرج أبو داود والتـــرمـــذى عـــن المقـــــدام ابن معديكرب • قال : قال رسول الله صـــلى اللـــه عليـــه وســـلم «يوشك رجل منكم متكئا على أريكة يحدث» بحـــديث عنى ، فيقـــول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حـــرام حرمنـــاه ألا وان ما حرم رسول الله مثـــل ما حرم الله ـــ زاد أبـــو داود ـــ ألا انى أوتيت الكتـــــاب ومثله معـــه » والماثلة للكتاب هى السنة •

ومن رياض الســــــنة تفجرت ينابيع التفســـــير بالمأثور ، ومن رياض القرآن والســـــنة تكونت ثروة الفقه الاسلامى ، وهما أصل مصادر التشريع وهما ميزان العدل الالهى الصـــادق ، وعلى هديهما يستطيع المصلحون فى كل وقت أن يقيسوا أعمال الأفراد والجماعات والأمم ، ولا يكـــون الاعتـــدال الكامل فى الأخـــــلاق والمعاملات والعبادات الا بالكتاب والسنة وقد توفى الرسول بعد أن ظل الناس بمكة والمدينة مركزى اشـــــعاع الـــدعوة الى الدنيا ثلاثا وعشرين سنة يقيم الناس معالم الدين على منهاج الحق بالكتـــاب والســـنة ، توفى وهو مطمئن الى أنه تركهما لنا ميزان حق وصـــدق لن نضـــل ما تمسكنا بهما قال « صـــلى الله عليه وسلم » « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله وسنتى » •

تدوين الحـــديث الشريف

بعث الله فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وببعثه الرسول، وتلاوته الكتاب والحكمة النبوية ، وهى السنة ، زكت نفوس وطهرت قلوب وعمرت صـــــدور بالايمان فأقبلوا على رسول الله صـــلى الله عليه وســــلم يتعلمون الكتـــاب والحكمة ، وأذكى فيهم ذلك الاقبال قدوة حسنة متمثلة فى الرســـول ، وبلاغـــة نادرة متمثلة فى الكتـــاب والســـنة ، وذوق عربى أصـــيل فى الصـــــحابة ، حبب اليهم الكتاب والحكمة ، وذاكرة واعية ضربوا بها

المثـــل الأعــلى فى قوة الحفظ ، أسعفهم بتســجيل ما يلقى عليهم من الرســـول ، ووضـــعوه فى صـــدورهم الأمينة التى طهرها الاســلام .

والقرآن يدفعهم ويوجههم الى العناية بالســنة واتباع الرســول والرســول يفسر ويشرح بالســنة وهم يحفظون ، ومعلوم أن القرآن نزل فى خلال ثلاثة وعشرين عاما ، فكان الرسول يبلغ الآيات ويفسرها وتطبق عمليــا ، وفى ذلك يقــول أبو عبد الرحمن الســلمى . حدثنا الذين يقرئوننا القــرآن كعثمــان ابن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، انهم كانوا اذا تعلمـــوا من النبى صلى الله عليه وسلم . عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمــل . قالــوا فتعلمنــا القرآن والعلم والعمــل جميعا . ونهج النبى معهم المنهج التربوى النبوى ، فكان يتعهدهم بالموعظــة كراهة الســـآمه وفى ذلك تثبت للمعلومات .

روى البخارى بالسند المتصــل عن ابن مســعود قال : كان النبى صلى الله عليه وســلم : « يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهية السآمة علينا » والقرآن يدعوهم الى العلم « **قل هل يســتوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » والسنة تدعوهم الى العلم روى البخارى بالســند المتصل قال النبى صــلى الله عليه وســلم : « من يــرد اللــه بــه خــيرا يفقــه » وانمــا العــلم بالتعلم وفى رواية « من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين » ويأمرهم النبى صــلى الله عليه وســلم . بالتبليغ ويقــول لهم « هذا فيبلغ الشاهد منكم الغائب فان الشــاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منــه » ودعــا لمن أدى مقالتــــه كمــا حفظها فقال : نصر الله امرءا سمع مقالتى فحفظها ووعاها حتى يبلغها غيره » وقد التزموا أوامر رسولهم وتفــانوا فى الحرص عــلى تبليغ العلم .

روى البخـــارى ، قال أبو ذر رضى اللــه عنــه : لــو وضــعتم الصمصامة (السيف) على هذه ــ وأشار الى قفاه ــ ثم ظننت أنى أنفــذ كلمة من رســول الله صلى

الله عليه وسـلم قبـل أن تجيزوا على وتقطعوا رأسى لأنفذتها .

وقـال ابن عبـاس : « كونوا ربانيين حكمـاء فقهـاء » ويقـال الربـانى — الذى يربى النـاس بصغار العلم قبل كباره .

وكان من عناية الصحابة بحديث النبى أنه كان الواحـد منهم اذا شغله عمل أرسل صـاحبه الثقة ليخبره بما يقول الرسـول فكانوا يتناوبون فى السماع ويبلغ الشاهد الغائب ويسأل الغائب الشـاهد ، وسطروا السنة على صـفحات قلوبهم ، ووعوا كل ما سـمعوا وما شـهدوا ، وحرصوا على نشره وتبليغه ، وتعاون ثقـات المجتمع الاسلامى من الصحابة فى حيـاة الرسول وبعد وفاته على حراسـة سنة نبيهم ، وهل يشق على الآلاف الثقات من الصـحابة المخلصـين حراسة تراث رجل واحد رأوا فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ؟

وعدتهم فى ذلك ايمـان عميق ، بنبيهم ، وبسمو سـنته وذاكرتهم الواعية ، التى فاقوا فيهـا جميع الأمم ، وشـعورهم الفياض بأن السنة هى سنة رسول رب العالمين، فلو تخصص عشرة من الصحابة ، وحفظ كل واحد منهم فى صـدره ما يسـاوى كمية نصف القرآن الكـريم الـذى حفظوه لكـانوا جديرين بحراستها ، فما بالك ، قد جند لها الآلاف الثقـات الحفاظ أنفسهم ؟

هذا فضلا عن ان منهم من بدأ يكتب الحديث فى عهد النبى « صلى الله عليه وسـلم » وان لم يكن التدين عاما قد كانت هناك صحائف خاصـة ، كان عبد الله بن عمرو « رضى الله عنه » كاتبا محسـنا ، اشـتهرت صحيفته التى دون فيها الحديث « بالصحيفة الصـادقة » لأنه كتبها عن رسول الله « صـلى الله عليه وسـلم » مباشرة فهى أصـدق ما يروى عنـه ، ويقول عبـد اللـه بن عمرو بن العـاص لمجاهد : « هذه الصحيفة الصادقة فيها ما سـمعته من رسـول الله « صـلى الله عليه وسلم » وليس بينى وبينه أحد ، وكـانت عزيزة عليه للغاية حتى كان يقول ابن عمرو

« ما يرغبنى فى الحياة الا الصادقة والوهط » (١) .

وكـــان لجـــابر بن عبـــد الله الأنصـــارى صحيفة ، وكان لأنس ابن مالك صـــحيفة كان يبرزها اذا اجتمع الناس ، واشتهر ابن عباس يطلب العلم ، ودأ به عليه ، وكان بعد وفاة الرسول « صلى الله عليه وسلم » يسأل الصـــحابة ويكتب عنهم وكان رسول الله « صـــلى الله عليه وســـلم » قد دعا له كما فى صحيح البخارى فى باب العلم بالســـند المتصـــل عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله «صـــلى الله عليه وسلم » وقـــال : « اللهم علمه الكتاب » وفى الكفاية : اللهم علمه الحكمة وعلمه التأويل ولهمام ابن منبه صحيفة وتسمى الصحيفة الصـــــحيحة ، وهو أحد أعلام التابعين ، رواها عن أبى هريرة ،. ويقول الاســـــتاذ الندوى : ان تأليف هذه الصـــحيفة يرجع الى أواسط القرن الأول لأن أبا هريرة توفى سنة ٥٨ هجرية ، وهى من املاء أبى هريرة ويقرر الاستاذ أبو الحسن النـــدوى متفقـــــا مع صـــاحب تدوين الحديث العلامة منـــاظرا حسن الكيـــلانى رئيس القســـم الدينى العلمى بالجامعة العثمانية « بحيـــدر آباد » بأنه اذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع ، وما احتـــوت عليه من الأحـــاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث ، وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث ســـبق تسجيله من غـــير نظـــــام وترتيب فى عصر الرسول « صلى الله عليه وسلم » وفى عصر الصـــحابة « رضى الله عنهم » . وقد شاع فى الناس — حتى المثقفـــين والمـــؤلفين ، أن الحديث لم يكتب ولم يسجل الا فى القـــرن الثـــالث الهجـــرى ، وأحســـنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى ، وما نشأ هذا الغلط الا عن طريقتين :

الأولى : أن عامـــة المؤرخـــين

---

(١) الوهط : أرض لعمرو بن العاص تصدق بها ووقفها .

يقتصرون على ذكر تدوين الحديث فى القرن الثانى ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول لأن عامتها ضاعت مع أنهـا انـدمجت وذابـت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانية : أنهم لا يتصـــورون ســـعة هذه الصـــحف لكثرة الأحـاديث الموجودة ، ويقـــول الكيلانى ، قد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية .

فيقال : ان أحمد بن حنبـل كان يحفظ رضى اللـــه عنـــه أكثـــر من ســـبعمائه الف حديث ، وكذلك يقال عن أبى ذرعة .

ويروى عن الامام البخارى أنه كـــان يحفظ مـــائتى ألـــف من الأحاديث الضـــعيفة ، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثـــلاثمائه ألف حـــديث . ولا يعرف كثير من المتعلمين فضلا عن العامة أن الذى يكون هذا العدد الضـــخم هو كثـــرة المتابعـــات والشواهد فحديث « انما الأعمال بالنيـــات » يروى عن ســـبعمائة طريق ، فلـــو جردنـــا مجاميـــع الحديث من هـــذه المتـــابعـــات والشـــــواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث .

وقد صرح الحاكم أبو عبد الله الذى يعتبر من المتســـــامحين المتوسعين : أن الأحاديث التى فى فى الـــدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف .

ومعظم هذه الثروة الحديثة قد كتبت ودونت بأقلام رواة العصر الأول وقد يزيدها ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا فى العصر النبوى ، وفى عصر الصحابة «رضى الله عنهم» على عشرة آلاف حديث اذ جمعت صـــحف ومجـــاميع أبى هريرة ، وعبد الله بن عمـــرو ابن العاص وأنس بن مالك وجابر ابن عبد الله ، وعلى بن أبى طالب، وابن عبـــاس « رضى الله عنهم » فيمكن أن يقـــــال : ان ما ثبت من الأحاديث فى الصـــحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتبت ودونت فى عصر النبوة ، وفى عصر الصـــحابة قبـــل أن يدون الموطـــأ

والصـــحاح بكثير « أ هـ » وهكذا تعاون الحفظ والتدوين على حفظ ســــنة النبى « صــلى الله عليه وســلم » فى عصر الصـــحابة ، وعضوا عليها بالنواجز ، وعرفوا قدرها .

ولا نغفل ما حصل من أمر الوضع فى الحديث منذ ســنة أربعين من الهجرة بعد وقوع الفتنة ، وحرب الامام على ومعاوية والخـــلافات السياسية والمذهبية والالحادية .

ولــكن مــن الطبيعى أن ذلك لا يصـــــدر الا عمن لا معــرفة ولا عناية لهم بالســـنة ، ولا ثقة للنـــاس بهم ، ولا صـــــحبة لهم حقيقة مع الرسول ، ومن يحاول تقليد شىء لا علم له به يكون أمره مفضـــوحا واهيا ، وماذا يفعلـــون امام التيـــــار الجـــــارف من الحرص على السنة ، وقـــد أحس الثقات بهم فحصروهم فى قـــوائم سوداء ، وحصروا معهم الضعفاء فى قوائم الكذابين ، والوضـــاعين والضعفاء .

وحصروا أحـــاديثهم فى قوائم الموضـــوعات .

وقوبلت حركة الوضع الهزيلة من الذين لا عناية لهم بالسنة ولا معرفة لهم بها ، بحـــركة قويـــة جبارة من علماء السنة ووضـــعوا المقـــاييس الفريـــدة ، والمنهج القويم ، يســـــاند ذلك الحق والالهام والذوق والملكة ، ومعرفة أبطال الســـنة وحرصـــهم عليها ، فالتزموا الاسناد .

يقول محمد بن سيرين فى ذلك : لم يكونوا يسألون عن سناد فلمـــا وقعت الفتنة ، قالوا ســـموا لنـــا رجالكم فينظر الى أهل الســـــنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر الى أهـــل البدع فلا يؤخذ حديثهم ويقـــول أبو العالية « كنا نســـمع الرواية بالبصرة ، عن أصحاب رسول الله « صـــلى الله عليه وســلم » فما رضينا حتى رحلنا اليهم فســـمعنا من أفواههم » .

ويقول عبد الله بن المبـــارك : « الاســـــناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء » .

وعنه أنه قـــال : « بيننا وبين القوم القوائم » يعنى الاسناد .

ويقول سيفان الثورى : « لمـــا

استعمل الرواة الكذب ، استعملنا لهم التــاريخ » ورحلوا من أجل الحديث •

يقول سعيد بن المسيب « ان كنت لأســـير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد » • ووضـــعوا قواعد الاسناد والمتن وقضوا على حركة الوضاعين •

ولا يعــارض كتابة الحديث فى عصر النبوة والصحابة ، ما روى مسلم فى صحيحه عن أبى ســعيد الخــدرى « رضى الله عنــه » أنه قال : قال رسول الله « صلى الله عليه وسلم « لا تكتبوا عنى غــير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحــه وحـــدثوا ولا حرج ، ومن كذب على متعمــدا فليتبوأ مقعده من النار » فان ذلك كان فى بــدء الدعـــوة حتى لا يختلط القرآن بالســنة ، ولم يســتقر الأســـلوب القــرآنى بعــد فى النفــوس ، أو كــان ذلك النهى بالنسبة لكتاب الوحى خاصة حتى يتفرغوا لمهمــة القرآن ، أو النهى كان خاصـــا بكتابة الحديث مع القرآن فى صــحيفة واحدة ، فانه يــدل عــلى الكتــابة ، ما رواه البخارى ومســلم عن أبى هريرة « رضى الله عنه » أنه قال : « لما فتح الله على رسول الله « صلى الله عليه وســلم » مكة قــام فى الناس فحمد الله وأثنى عليــه ثم قــال : « ان الله حبس عن مكــة الفيل وســـلط عليها رســـوله والمؤمنين ، فقام أبو شاه (رجل مــن اليمن) فقــال أكــتب لى يا رسول الله • فقال رســول الله « صلى الله عليه وسلم » : اكتبوا لأبى شاه » وماروى البخارى فى كتاب العلم ، عن ابن عباس قال « لما اشــتد بالنبى « صــلى الله عليه وسلم » وجعه قال : أتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضــلوا بعده ••• » الحديث •

وهكذا كان عصر الصحابة الذين شـــهدوا الــوحى والتنزيــل ، واختــارهم الله لصــحبةنبيه ، وجعلهم أعلاما وقدوة ونفى عنهم الشك والكذب والريبة ، وسماهم عدول الأمة ، فقــال عز ذكره فى محكم كتابه « **وكذلك جعلناكم أمة وســـطا لتكونوا شـــهداء على الناس** » •

وفسر النبى « صلى الله عليه وسلم » وسطا : عدلا فكانوا أئمة الهدى ، وحجج الدين ، ونقلة الكتاب والسنة والحراس عليها ومعهم التابعون ، اختارهم الله لاقامة دينه ، وفقهوا فيه فأخذوا السنة عن الصحابة ، والذين اتبعوهم باحسان « رضى الله عنهم ورضوا عنه » •

يقول ابن أبى حاتم : ندبهم الله عز وجل لاثبات دينه ، واقامة سنته وسبيله المستقيم ، فلم يكن لاشتغالنا بالتمييز بينهم معنى اذ كنا لا نجد منهم الا اماما مبرزا مقدما فى الفضل والعلم وفى السنة واثباتها ولزوم الطريقة واحتذائها ، رحمة الله ومغفرته عليهم أجمعين ، الا ما كان ممن ألحق نفسه بهم ودسها بينهم ، ممن ليس يلحقهم ، ولا هو فى مثل حالهم لا فى فقه ولا حفظ ولا اتقان ولا تثبيت •

على أنه قبل أن ينقضى عصر الصحابة أمر الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز بتدوين الحديث ، فكان التدوين الرسمى بأمر الخليفة على رأس المائة حينما رأى اتساع الفتوحات الاسلامية وانتشار الصحابة فى الأقطار وموت أكثرهم •

روى البخارى فى كتاب العلم من صحيحه « وكتب عمر ابن عبد العزيز الى أبى بكر ابن حزم ، انظر ما كان من حديث رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل الا حديث النبى « صلى الله عليه وسلم » ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا » •

وأبو بكر بن حزم هو عامله وقاضيه على المدينة •

وأوصاه أن يكتب ما عنده عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارى ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر المتوفى سنة ١٢٠ هـ •

وكذلك كتب الى عماله فى أمهات المدن الاسلامية بجمع الحديث •

فقد أخرج أبو نعيم فى تاريخ أصـبهان أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أهـل الآفـاق : أنظروا حديث رسـول الله « صـلى الله عليه وسلم » فاجمعوه •

وأمر خليفة المسـلمين كعمر ابن عبد العزيز كفيـل بأن يشـغل الهمم ، ويصادف القبول فى النفوس المسـتعدة فتسرع للاجابة لتنفيذ أمره عـلى خـير وجه ، وقد لبى الأمر الامام الكبير محمد بن مسلم ابن شهاب الزهرى المتوفى سـنة ١٢٤ هـ وللزهرى مكانته وأمانته •

ثم شاع التـدوين فى الجيـل الذى يلى جيل الزهرى •

وكان أول من جمعـه بمكـة ابن جريج (١٠٥ هـ) وابن اسحاق (١٥١ هـ) ومـالـك (١٧٩ هـ) بالمدينة وسـعيد بن أبى عروبة (١٥٦ هـ) والربيع ابن صـبيح (١٦٠ هـ) وحمادين سلة (١٧٦ هـ) بالبصرة ، وبالكوفة سفيان الثورى (١٦١ هـ) وبالشام أبو عمرو بن الأوزاعى (١٥٦ هـ) وبواسـط هشيم بن بشر (١٨٨ هـ) وشعبة ابن الحجاج (١٦٠ هـ) ونجرسان ابن المبـارك (١٨١ هـ) وباليمن معمـر (١٥٣ هـ) وبالرى جرير (١٧٥ هـ) وبمصر عبـد اللـه ابن وهب (١٩٧ هـ) وهؤلاء كانوا فى عصر واحـد لا يدرى أيهـم أسـبق فى التـدوين ومنهجهم فى التدوين جمع حديث رسـول الله « صلى الله عليه وسلم » مختلطا بأقوال الصـحابة والتابعين ، مع ضم الأبواب بعضها الى بعض ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم نسجا عـلى منـوالهم الـى أن رأى بعض الأئمة أن يفرد حديث النبى « صلى الله عليه وسلم » خاصة على رأس المائتين فى أوائل القرن الثالث ، فألقت المسانيد ، ومنهج المسـانيد أن يجمع أحاديث كل صـحابى على حدة ، وأن تعدد الموضوع ومن هذه المسانيد مسند عبد الله بن موسى العبسى الكوفى ، ومسـند مسـدد بن مسرهد البصرى ، وأسـد بن مـوسى الأمـوى ، ونعيـم ابن حمـاد الخزاعى •

ثم اقتفى الأئمة أثرهم كالامام أحمد بن حنبل واسحاق ابن راهوية وهما من اساتذة الامام البخارى ، وكان منهج هؤلاء مزج الصحيح وهو ما ثبت صحته بغيره ، ثم افرد البخارى الحديث الصحيح فى كتاب الجامع الصحيح .

د . الحسينى هاشم

من كلمات السيد الرئيس محمد أنور السادات فى خطابه التاريخى فى ١٤ مايو سنة ١٩٨٠ م

« رئيس مسلم لدولة اسلامية »

أقول لكم ولشعبنا – اننى يوم أن توليت الحكم فى مصر ، أحكم كرئيس مسلم – أنا قلت يجب أن تسمى الأشياء بمسمياتها مصر ، دولة اسلامية ، ومش دولة اسلامية عادية ، بل لها مركز قيادى فى عالمها الاسلامى ، ومركز ريادة ، حيث حافظ الأزهر على الاسلام طوال ألف سنة بشهادة مسلمى العالم ، وكان يجب أن يعلم مثيروا الفتنة أن الضمانة الحقيقية للمسيحية فى مصر هو الاسلام .

لما أقول رئيس مسلم لدولة اسلامية ، ليس معنى هذا أبدا أننى لا أؤدى حق المسيحى قبل المسلم ، ولكن هذه دولة اسلامية – من عهد « البطريرك بنيامين » – وقت أن أرسل جميع المسيحيين لكى يعاونوا الجيوش العربية « جيوش عمر بن العاص لكى ينتهى الاضطهاد الدينى البيزنطى لأقباط مصر » .

دراســات إسـلامية :

انتشار الإسلام خارج بلاده لا تزرعوا السموم فتقتلكم

لفضيلة الشيخ مصطفى الطير

قال تعالى فى آخـر ســـورة محمد : « وان تتولوا يســـتبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» •

البيـــان

بنظرة فاحصة الى الاســلام اليوم ، نراه بين امتداد وانتشار فى بعض بقاع الأرض ، وخمــول واسترخاء بين أهله وذويه ، وقد خرست ألسنة الدعاة فيهم ، رهبا مــن حاكميهــم ، أو رغبـــا فى استرضـــائهم ، والله من ورائهم محيط •

ألست ترى الاسلام فى البلاد الغربية وغــيرها ينمو وينتشر بين المثقفين وســـــواهم ، وأنهم حين يتعرفون على عقائده الســمحة ، ومبادئه الرشــيدة ، يقبلون عليه اقبال الهيم الظماء على الماء ، من غير أن يبعث اليهم المسلمون بخيل ولا بركاب ، ودون أن يوفــدوا اليهم بعثات تبشـــيرية ، كالذى يصنعه المسيحيون فى نشر دينهم فى مجاهل أفريقيا ونحوها •

فى حين أنك تجد الاســلام فى بلاده يندب حظه مع أهله ، الذين أدبروا عن تعاليمـــه ، ووالــوا أعداءه ، ومكنــوا لهـم فى بعض معاقله ، ويسروا لهم سبيل القضاء على حماسة أهله فى نصرته ، وبث مبادئهم الهدامة بين ربوعه •

صورة مشرقة من انتشار الاسلام

فى سنة ١٩٣٤ حضر الى مصر رجل سودانى اسمه محمد ساتى ماجد ، وقابل شيخ الأزهر وقتئذ ــ فضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد الأحمــدى الظــواهرى ــ وأخبره أنه أســلم على يديه فى ولاية نيويورك ألفان معظمهم من

السود ، وطلب من شيخ الأزهر أن يمده ببعض العلماء ليعاونوه فى مهمته ، فاعتذر له شيخ الأزهر بأنه لا يوجد فى ميزانية الأزهر وقتئذ شىء بشأن البعثات التبشيرية أو التربوية ، ووعده بأن يضمن الميزانية مستقبلا ما يغطى هذا الفراغ ويملؤه ، ولم يستطع الرجل أن يعود الى نيويورك فعاد الى بلاده ، وقام خلفاؤه ممن أسلموا على يديه أولا ، وعرفوا بعض المعارف الاسلامية — قاموا — بتثقيف المستجدين منهم ، وقد نما هؤلاء نموا عجيبا، وممن أسلموا على أيدى خلفائه محمد على كلاى بطل العالم فى الملاكمة .

وكان السيد محمد سانى ماجد — عليه رحمة الله — طويل القامة فصيح العبارة ، وهو من أسرة سوار الذهب بالسودان ، وكان ينعت نفسه بشيخ اسلام أمريكا ، ويكتب ذلك فى بطاقة باسمه لا تزال عندى منذ قدم الى مصر، وقد حدثنى عن بعض مواقفه فى الدعوة الى الله تعالى فى نيويورك ليس هذا المقال موضع الحديث عنها .

وفى مدينة البعوث طلاب وطالبات من أمريكا وانجلترا أصلهم مسيحيون ، ثم اقتنعوا بما قرءوه عن الاسلام فأسلموا ، وجاءونا ليحفظوا القرآن ويعرفوا الاسلام من معينه .

ومن الأنباء الطريفة أن قرية انجليزية يطلق عليها اسم نوريش ، أسلم أهلها جميعا ، ورفضوا حياة الغرب التى يسيطر عليها الترف ، وهم يخططون لبناء قرية على غرار المدينة المنورة كما يتصورونها ، وقد ذكرت هذا الخبر صحيفة القبس فى عدد ١٦/٢/١٩٧٩ ، وفى اليابان عشرات الألوف من المسلمين ، قرأ بعضهم ترجمة لمعانى القرآن فأسلم ، وأسلم باسلامه خلق كثير هناك ويتزعمهم طبيب كبير ، وفى كل عام يذهب الى حج بيت الله الحرام ومعه عشرات منهم ، وفى المولد النبوى يقيم حفلا كبيرا ، فى صالة أفخم فنادق طوكيو ، ويدعوا اليه المسلمين وسواهم ،

وفى كل حفـــل يقيمه يســـلم عدد من المثقفين •

ولصديقنا الفاضل الاستاذ عباس العوضى نجل يســمى الدكتــور عباس على اسم أبيه ، وهو استاذ فى احدى الجامعــات بولاية من الولايات المتحدة ، وقد اتاه اللـــه دينا قيما وأسلوبا حكيما ، فأسلم على يديه كثيرون هناك ، وأقــام بينهم اقامة ، وممن أســلم على يديه زوجته الامريكانية •

وحدث أن رجلا أمريكيا أسلم هو وزوجته ، وقدما الى مصر على متن احدى الطائرات ، وكان فى يد الرجل مسبحة يتلو عليها أذكاره ، فلقيه فى رحلته رجل يهودى وسأله ماذا يقول فأخبره أنه أسلم ، وأنه يذكر الله على حبات المســبحة ، فقال له أن اليهودية دين التوحيد أما الاسلام فان الآلهة فيه يصــل عددهم ٩٩ تسعة وتسعين ، وكان الرجل فقيها دارسا فأجابه عــلى الفور : لا تجد التوحيد الحقيقى الا فى الاســـلام دون غيره من الاديان ، وأما الآلهــة التســـعة والتســـعون فشىء تفتر به على الاســلام ، فانها أســـماء الله وصفاته ، فالاله واحد ، وصفاته متعددة ، وذلك أمر واقعى فالرجل منا واحد وله صــــفات كثيرة ، ولايخرجه تعدد صــــفاته عن أن يكون واحدا فى ذاته ، وقد أذيعت هذه الواقعة فى حينها على القناة (٩) فى التليفزيون المصرى •

ولنا قريب اسمه : أحمد خــالد الغزاوى ، ذهب الى أمــريكا فى بعثة ليكمل دراسته العليا فى الطب هناك فعجب من اقبال الشــباب المثقف على الاســـلام هنــاك ، ووجــدهم يعرفون كبار الكتــاب المسلمين ، والمفسرين المعــاصرين ، ورأى لديهم تفسير (فى ظلال القرآن) لســيد قطب ، وأرسل الى والده يطلب منه نسخة من الظلال وكتبا اسلامية أخرى ، فبعث له بها — الى غير ذلك من الصــور المشرقة الكثيرة •

حالة الاســلام بين أهله

وبينما ترى الاســـلام يمتد وينتشر فى بلاد غير مسلمة ، نراه أصبح فى أوطانه هدفا للرماة من

الملحدين وأهل المذاهب الهدامة ، فى حين أن حكام المسلمين لا هون فى المتعة والثراء ، أو مسخرون لدول تعادى الاسلام ويعاديها ، وتسعى لهدمه والقضاء عليه على أيدى بعض حكامه الأجراء وعن طريق الهيئات الشيوعية التى اشتروها فى المجمعات الطلابية والعمالية .

واذا كان الله تعالى يدعو المسلمين الى الاتحاد بقوله « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » فانهم بدنياهم مشغولون ، وعلى شهواتهم عاكفون ، وحكامهم مأجورون أو غافلون ، والمحكومون بالحديد والنار يحكمون .

ولقد أضعف بعضهم بعضا بحقده على جيرانه ، وتدبير المؤامرات له ، وقد أدى ذلك الى طمع الكفار فى ثروات البلاد الاسلامية ، وشراء طغمة فاسدة من أهل تلك البلاد ، ليصنعوا فيها الانقلابات لحسابهم ، حتى اذا تم لهم ما أرادوا ، نشروا فيها الالحاد ، وعطلوا دعوة الاسلام وصادروها ، ولقد استطاع الشيوعيون بأساليبهم الماكرة ، أن يضعوا لهذه الانقلابات مناهج ناجحة ، مكنتهم من الاستيلاء على أقاليم عظيمة التأثير فى العالم الاسلامى ، ومكنتهم من تطويق المسلمين وثرواتهم فى المشارق والمغارب .

ألم يضعوا أيديهم بهذا الأسلوب الماكر على اليمن الجنوبية ، حيث يتحكمون فى مداخل البحر الأحمر ، ويجعلوا من اليمن الشمالية والسعودية ودول الخليج البترولية مرماهم فى أية جولة مقبلة ؟ كما وضعوا أيديهم على حاكم ليبيا وحكومة الجزائر وحكومة سورية والحبشة ، وأدخلوهم فى دائرة نفوذهم ، ليطوقوا مصر والسودان ، وتونس والمغرب .

وأخيرا فاجئوا العالم بغزو أفغانستان والاستيلاء عليها ، وحرب أهلها وثوارها المسلمين حرب ابادة ، وما كان لهم أن يحدثوا ذلك فى بلاد الاسلام لو

كان حكامها على مستوى قوله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » •

أضاع العرب فلسطين أو كادوا

لقد أضاع العرب بتفرقهم وسوء سياستهم ، وطاعتهم لأعداء دينهم — أضاعوا فلسطين أو كادوا فلا ترى دولة منهم تعمل لاستردادها واقرار أهلها فيها ، وكل الذى يحدث منهم أقوال بلا أفعال ، ووعود بلا وفاء ، وصراخ بلا عمل، وهجوم على مصر التى تركوها وحدها ، تجاهد بالسلام والمفاوضة من أجلها ، بعد أن جاهدت بالسلاح وحدها ، وانتصرت على اسرائيل بالسلاح وحدها فى حرب ١٠ رمضان سنة ١٣٩٣ — الموافق ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، ولولا تدخل أمريكا لانتهت اسرائيل الى الأبد •

واذا كان المجتمع الدولى قد فرض اسرائيل ، وجعلها حقيقة لا مفر من الاعتراف بها ، واذا كانت أمريكا من خلفها تشد أزرها ، وتدافع عنها لمصالح تراها ، فما هو السبيل لاسترداد الأرض التى احتلتها فى الدول العربية سنة ١٩٦٧ ، أتتركونها فى يدها تصنع فيها ما تشاء ، وتبنى فيها المستوطنات اليهودية ، وتجعلكم أمام الأمر الواقع ، أم تعلمون على تخليصها من يدها ، فاذا كان لا يرضيكم ما فعلت مصر من التفاوض والصلح ، فما هو البديل لديكم ، وحيث لا بديل غير السلام ، فلماذا لا تسلكونه ، وانتم تنادون به قولا وسكوتا ، وتتركون عدوكم وتحاربون مصر أختكم التى رفعت بالنصر رءوسكم •

قالت مصر : ان السبيل الى استرداد الأرض العربية المحتلة هو السلام والمفاوضة ، بعد أن قدمت العرب فرصة السلام بانتصارها الساحق على اسرائيل ، حتى دخلت أمريكا لانقاذها بعد ركوعها ، ومارست مصر السلام

وتفاوضت عن طريقه ، واستردت به معظم سيناء ، والبقية فى الطريق اليها خلال عامين بمشيئة الله ، وهى الآن جاهدة فى مفاوضات الحكم الذاتى لفلسطين ، تمهيدا لحصول أهلها على حقوقهم فيها كاملة ، فما الذى جعلكم تنفرون من مصر ، وتؤلبون عليها الدول فى المؤتمرات الدولية ، لقطع علاقاتهم بها كما فعلتم ؟ ولم تقتصروا على ذلك بل سعيتم فى تجويع أهلها واذلالهم !!

لماذا فعلتم كل ذلك بمصر أختكم الكبرى ، وسندكم فى الملمات ضد أعدائكم ؟ وما فعلت ذنبا يستوجب ما فعلتم ، سوى أنها فطنت قبلكم لدسائس روسيا الشيوعية ،

فأبعدت خبراءها ، وانتصرت بدونهم ، وأنهت معاهدتها معهم ، لأنهم يريدونها كسيرة الجناح ، راكعة أمامهم مستعبدة لسياستهم ، كافرة بدينها وأخلاقها من أجلهم ، فلهذا كله جن جنونهم حين انتصرت بدونهم ، ولم توقف الحرب وهى منتصرة من أجل سواد عيونهم ، فسلطتكم عليها وأنتم تزدلفون وبأمرها تأتمرون ، وقفت فى سبيل السلام ، وقدمتكم للخصام ، كما يفعل اللئام ، فاندفعتم لتنفيذ سياستها رهبا ورغبا فى مساعدتها ، وأقسم بمن خلق الحب والنوى لن يكون أمرها معكم أحسن من أمرها معنا ، ولن ينالكم منها أى نصر تبتغون ، وأية أرض محتلة تستردون ، وما أنتم معها الا مخالب قط ، وعبيد سيد متسلط ظالم قاس القلب ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولو فطنتم كما فطنت مصر ، وكنتم معها فى سلامها ومفاوضاتها ، لوصلنا الى خير أكثر وسلام أسرع ، ولكنكم غافلون ، وغدا ستأكلكم كما أكلت سواكم ، والمخطط الشيوعى للاستيلاء عليكم واحدة بعد أخرى قد أعده المختصون منهم ، وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية •

الصلح مع الأعداء مشروع فى الاسلام

أفتونا أيها العرب : هل الصلح مع الأعداء حرام فى الاسلام حتى تحاربوا مصر من أجله ؟

ألم يصالح الرسول « صلى الله عليه وسلم » قريشا صلح الحديبية سنة ست ، مع أنها أخرجته مع المؤمنين من ديارهم ، وكان بالصلح شروط واضحة الاجحاف بالمسلمين، فقبلها الرسول رغبة فى السلام ، وتطلعا الى مستقبل مشرق يراه بنور النبوة •

رأى الرسول « صلى الله عليه وسلم » فى منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، فأخبر أصحابه بذلك وأنه يريد العمرة تحقيقا لمنامه ، واستنفر الاعراب حول المدينة ، ليكونوا معه حذرا من أن تردهم قريش عنه عمرتهم ، لكن الأعراب أبطأوا وتقاعسوا ، بظنهم أن الرسول والمؤمنين لن ينقلبوا الى أهليهم أبدا ، واعتذروا قائلين : (**شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا**) فخرج صلى الله عليه وسلم فى ألف وخمسمائة من المهاجرين والأنصار ، وأخرج معه الهدى ليعلم أهل مكة أنه لم يأتهم محاربا ، ولم يكن مع الرسول وأصحابه من السلاح سوى السيوف فى القرب •

وحينما وصل الجيش الى عسفان ــ على مرحلتين من مكة ــ جاءه أحد رجاله يخبره أن قريشا أجمعت على صدهم عن مكة ، وتجهزوا للحرب ، وكان خالد ابن الوليد حينئذ مشركا ، فخرج فى مائتى فارس طليعة لهم ، ليصدوا المسلمين عن التقدم ، فقال صلى الله عليه وسلم ، هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من قبيلة (أسلم) أنا يا رسول الله ، فسار بهم فى طريق وعرة ، حتى وصل بهم الى مستوى سهل يملك مكة من أسفلها •

فلما علم خالد ما فعله المسلمون ، رجع الى قريش وأخبرهم الخبر ، ولما كان الرسول بثنية (المزار) ــ مهبط الحديبية ــ بركتناقته فزجروها فلم تقم ، فقالوا خلأت القصواء ــ أى حرنت وبركت من غير علة « فقال صلى الله عليه وسلم » والله ما خلأت وما ذلك بخلق لها ، ولكن حبسها حابس

الفيل ، والذى نفس محمد بيده : لا تدعونى قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله الا أجبتهم اليها — مع أن المسلمين لو قاتلوا اعداءهم فى هذا الوقت لظفروا بهم ، ولكن الله تعالى كف أيدى المسلمين عن قريش ، وأيدى قريش عن المسلمين ، حفاظا على حرمة البيت الذى جعله الله حرما آمنا ، يوطد المسلمون دعائم الأمن فيه ، فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالنزول أقصى الحديبية .

واختارت قريش عروة ابن مسعود الثقفى سيد الطائف ، ليتكلم باسمهم مع النبى صلى الله عليه وسلم وقد كانوا يظنون أنه جاء لحربهم والاستيلاء على مكة فى صورة مريد للعمرة ، فحضر اليه صلى الله عليه وسلم ، وذكره بأن قريشا أهله فكيف يحاربهم بالغرباء ، وقال انهم أقسموا أن لا يدخلها عليهم عنوة ، وبعد نقاش عاد عروة بن مسعود الى قريش ، وحدثهم بمكانة النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، فقد قال : انه لا يتوضأ وضوءا الا كادوا يقتتلون عليه ، ليتمسحوا به ، واذا تكلموا بحضرته خفضوا أصواتهم اجلالا لمقامه ، ولايحدون النظر اليه ، وقال : والله يا معشر قريش . جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى عظمته ، فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا ، فانظروا رأيكم ، واقبلوا ما يعرضه عليكم ، وانى أخشى أن لا تنصروا عليه ، فأصروا على رده فى هذا العام ليعود الى العمرة فى العام المقبل ، واختار النبى صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، ليبلغهم أنه لا يريد سوى العمرة ، وأنه ساق الهدى ولا يريد حربا ، واستأذن معه عشرة من الصحابة ليزوروا أقاربهم ، وأمر النبى عثما بن عفان أن يأتى المستضعفين ويبشرهم بقرب الفتح واظهار الاسلام ، فدخل عثمان فى جوار أبان بن سعيد الأموى ، ثم بلغ الرسالة ، فأصرت قريش على منع

الرسول من دخول مكة هذا العام ، وحلفت أن لا يدخلها عليهم عنوة ، ثم طلبوا من عثمان أن يطوف بالبيت ، فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع ، ثم حبست قريش عثمان ، فشاع عند المسلمين أنهم قتلوه ، فقال صلى الله عليه وسلم « ان كان ذلك فلا نبرح حتى نناجزهم الحرب » •

بيعة الرضوان نذير الحرب

دعا النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ليبايعوه على القتال ، فبايعوه تحت شجرة هناك على الموت ، وفيهم نزل قوله تعالى **« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة •• »** الآيات من سورة الفتح ، فسميت هذه الشجرة شجرة الرضوان ، لأنه تعالى رضى عن المؤمنين الذين بايعوا الرسول على الموت فى سبيل الله تحتها •

وشاع أمر هذه البيعة عند قريش ، فرعبوا منها رعبا عظيما ، وكانوا أرسلوا خمسين رجلا ليطوفوا حول عسكر المسلمين ، وليصيبوا منهم غرة ، فأسرهم محمد بن مسلمة حارس الجيش ، وفر رئيسهم مكرز بن حفص ، فجاء جمع منهم لمناوشة المسلمين ، فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا ، وقتل من المسلمين رجل واحد •

شروط الصلح

لما رأت قريش النتائج الأولية للمناوشات ، أرسلت سهيل ابن عمرو ليتكلم فى الصلح مع الرسول ، فاعتذر عما حدث من المناوشات بأنها من عمل سفهائهم ، وطلب منه رد الأسرى ، فقال حتى تردوا عثمان والعشرة الذين أسرتموه ، فردوهم ، وعرض سهيل شروط الصلح التى تريدها قريش ، وهى (١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات (٢) من جاء من المسلمين مرتدا الى قريش لا يلزمون برده الى المسلمين ، ومن جاء من قريش الى المسلمين مؤمنا فانهم يلزمون برده الى قريش (٣) أن يرجع النبى بغير عمرة هذا العام ، ثم يأتى مع

أصـــحابه فى العام المقبـــل فيدخل مكة ، ويقيم بها ثـــلاثة أيام وليس معه ومع أصحابه الا السـيف فى القراب والقوس (٤) من أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم هذه الشروط ، ولكن المسلمين داخلهم منها أمر عظيم ٠ وقالوا كيف نرد اليهم من جاءنـــا مسلما ، ولا يردون الينا من جاءهم منـــا مرتدا ؟ ورد النبى قائلا : من ذهب منا اليهم فقد أبعده الله عنا ، ومن جاءنا منهم مســلما مخلصـا فرددناه فســـيجعل الله له فرجا ومخرجا ٠

وقد سأل عمر أبا بكر : أليس رسول الله قد أخبرنا أنه رأى فى منامه أننا سندخل المسجد الحرام آمنين ؟ فأجابه بقوله : وهل ذكر أنه فى هذا العام ؟

ثم أملى النبى صلى الله عليه وسلم شروط الصلح قائلا : بســم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل ابن عمرو : اكتب باسمك اللهم ، فأمره الرسول بذلك ، ثم قال : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما خالفنـــاك ٠ اكتـــب محمد ابن عبد الله ، فأمر الرســـول عليا بمحوها وكتابة محمد بن عبد الله ، فلم تطاوعه نفسه ، فمحاها النبى بيده ، وكتبت نسختان ، احداهما لقريش والأخرى للمسلمين ٠

وبعد ذلك تحلل النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون من احرامهم بالحلق ونحر الهـدى ، وكان ذلك عليهم كحز الرقـــاب ، ولكن هـــذا الصلح بشروطه القاسية كان خيرا وبركة على الاسلام والمســلمين ، واتضـــحت لهم مع الأحداث حكمة الرسول فى قبوله ، وما أكثر أحداث هذا الصلح وآثاره العظيمة !!!

ومن أحداثه أن عتبة بن أســيد الثقفى ــ وكنيته أبو بصير ــ فر بدينه من قريش الى رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرســلت قريش فى أثـــره رجلين يطلبـــان تسليمه ، فأمره النبى بالرجـــوع معهما ، فقال : يا رســـول اللـــه ،

أتردنى الى الكفار يفتنونى فى دينى بعد أن خلصنى الله منهم ؟ فقال : ان الله جاعل لك ولاخوانك فرجا ، فرجع مع الرجلين ، ولما بلغ ذا الحليفة قتل أحدهما وهرب منه الآخر ، فرجع أبو بصير الى المدينة ، وقال : يا رسول الله . لقد وفت ذمتك ، أما انا فنجوت ، فقال له : اذهب حيث شئت ،ولاتقم بالمدينة ، فذهب الى موضع بطريق الشام تمر به قوافل قريش فأقام به ، واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة وجمع من الأعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش، فأرسلت قريش يستغيثون به ، ويطلبون منه ابطال هذا الشرط ، ويعطونه الحق فى امساك من جاءه مسلما ، فقبل منهم وأزاح الله بذلك غمتهم من هذا الشرط ، وعلموا حكمة الرسول فى قبول بنود الصلح التى كان من آثارها اتصال الكفار بالمسلمين ، ومعرفتهم سماحة الاسلام ، فخالطت بشاشة قلوبهم وأعدتهم لقبوله ، كما أنه مكن الرسول من مكاتبة قيصر والمقوقس والنجاشى وكسرى والمنذر ابن ساوى ملك البحرين وملكى عمان جيفر وعبد ابنى الجلندى وغيرهم من الملوك والأمراء ، يدعوهم الى الاسلام فمنهم من أجاب بالاسلام ، ومنهم من أحسن الرد ولكنه لم يسلم ، ولكن هذه الكتب كان لها أثرها العظيم فى الحديث عن الاسلام ، وتهيئة الجو لقبوله وتعرف أخباره ، والحديث فى ذلك يطول فنكتفى بذلك الموجز الآن .

الصلح مع تيماء اليهودية

وكما صالح النبى صلى الله عليه وسلم المشركين ، وقبل شروطهم الجائرة كمرحلة فى سبيل السلام والفتح ، فانه صالح اليهود أيضا فبعد أن فرغ من عقاب يهود المدينة وخيبر على نكثهم عهودهم معه ، وغدرهم وخيانتهم له ، سالم من وجده مسالما منهم وعاهده على البقاء فى دياره ، ومن هؤلاء يهود تيماء ــ قرية على ثمانى مراحل من المدينة ــ فانهم لما عرفوا مصير اخوانهم الذين خانوا

عهودهم مع الرسول ، صالحوه على دفع الجزية ، ومكثوا فى بلادهم آمنين .

يهود وادى القرى

أما يهود وادى القرى فقد حاصرهم ودعاهم الى الاستسلام ، فلما أبوا قاتلهم ، ولما انتصر عليهم أبقاهم فى الأرض يزرعونها بشطر مايخرج منها .

صلحه مع المسيحيين

لما خرج صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، ولم يجد هناك جيشا يلقاه ، مكث هناك أياما جاءه خلالها صاحب أيلة واسمه يوحنا ، وصحبته أهل جرباء — قرية جنوب الشام — وأهل أذرح — مدينة قرب السراة — وأهل ميناء ، فصالح يوحنا رسول الله على اعطاء الجزية ولم يسلم ، وكتب له الرسول كتابا نصه كما يلى : —

(بسم الله الرحمن الرحيم : : هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليوحنا وأهل أيلة ، وسفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر) ثم قال (وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر) .

وكتب لأهل أذرح وجرباء (بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والاحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارهم .

صلحه مع أهل نجران المسيحيين وصلاتهم فى المسجد

وفد على النبى نصارى نجران، وكانوا ستين راكبا ، ودخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير ، مختمين بالذهب، ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاءوا بها هدية للرسول ، فقبل المسوح ورد البسط لما فيها من

التماثيل ، ولما جاء وقت صلاتهم ، سمح لهم الرسول بالصلاة فى المسجد مستقبلين بيت المقدس ، ودعاهم الى الاسلام فامتنعوا ورضوا باعطاء الجزية ، وهى ألف حلة فى صفر وألف حلة فى رجب ، مع كل حلة أوقية من ذهب ، ثم قالوا : أرسل معنا أمينا ، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ، وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة.

خاتمة

تبين من هذا السرد أن الصلح مع أهل الكتاب مشروع ، وأن النبى باشره بنفسه مع اليهود والنصارى ، كما أنه معروف بأول النظر ان الاسلام انما شرع الجزية مع أهل الكتاب عندما نصالحهم ونعاهدهم ، وأنه تجاوز أهل الكتاب الى المشركين فأجاز الصلح معهم ، اذا وجدت فيه مصلحة للمسلمين — مع أنهم أشد بعدا عن الاسلام من اليهود والنصارى ، كما حدث من النبى فى صلح الحديبية ، وتجاوبا مع قوله تعالى « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** » •

فكيف يعترض الرافضون على الصلح مع اليهود وتخليص حقوقنا منهم بالمفاوضات ، حيث تعذر حصولنا عليها بالحرب لدخول أمريكا الحرب معهم حماية لهم ، ولأن المجتمع الدولى فى صفهم فيما أخذوه من الأرض قبل سنة ١٩٦٧ ؟!! فاذا كانت المفاوضات لاتعجبهم والسلام لا يرضيهم ، فلماذا لم يدخلوا الحرب مجتمعين ليلقوا اسرائيل فى البحر كما يريدون ، ماداموا رافضين للصلح الذى يستردون به الأرض التى انتزعت فى حرب سنة ١٩٦٧ •

يا قوم : ان الاسلام يجنح للسلام ، وان موقفكم السلبى يضر أكثر مما ينفع ، وان أهل فلسطين هم الذين يقاسون ويلات العذاب فى أرضهم وفى مخيمات لبنان وأنتم عنهم لاهون ، وبسوء سياستكم متورطون مكبلون ،

فان لم ترجـع اليـكم عقولكم ، وتتيقظ فيكم ضمائركم ، فلسوف تتقلب بكم عروشكم وكراسيكم ، ويحـل بكم انذار ربكـم « **وان تتولوا يسـتبدل قوما غـيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** » ولا يبعد أن يكون البـديل عنكم من بلادكم ، ثم من بعد ذلك من بلاد غيركم ، حيث انتشر الاسـلام وعاد اليه شـبابه بينهم ، وتنبه فى أعماقهم شـعور دينى دافق ، يـدعو الى تنفيذ شريعة القـرآن ، لانقـاذ البشرية من سوء المصير ، بعد أن انتشر الكفر والطغيـان ، والظلم والحرمان ، وفشلت سياسة البشر فى علاج بلايا الانسان ، اللهم انى بلغت . اللهم فاشهد .

مصطفى محمد الحديدى الطير

* * *

نظرات قرآنية :

من الجديد عن أصحاب الكهف

للدكتور محمد رجب البيومى

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها ،لقد قلنا اذن شططا »

قرآن كريم

قصة أهل الكهف ذائعة مشتهرة وقد شرح المفسرون سورة الكهف شرحا يجلوها أمام من تخفى عليه رائعات المعانى ، ودقائق الاشارات وخصها نفر من العلماء بكتب مستقلة منها ما يشرح الأحداث شرحا وعظيا ، ومنها ما يحلل الأسلوب القصصى فى كتاب الله تحليلا فنيا يظهر قوة الترابط ، وتتابع الأحداث ، وتفسير النوازع ولكن ذلك كله لا يمنع أن نتحدث عن السورة الكريمة بما نعتبره كالجديد ، لدى بعض القارئين ، اذ لا يكفى أن نفهم أحداث السورة بعيدا عن مسرحها التاريخى حيث يحدد الاطار الدقيق للملامح الخافية فتكمل الصورة بقسماتها الواضحة أمام الناظرين .

لقد بعث الله أصحاب الكهف فى زمن معين ، تبرز أحداثه الحكمة الخالصة فى بعث هؤلاء النائمين من سباتهم العميق ، اذ أن دعوة عيسى عليه السلام كانت فى عهده دعوة التوحيد الخالص ، وكذلك دعوات الأنبياء جميعا من لدن آدم عليه السلام الى خاتم النبيين

محمد «صلى الله عليه وسلم» تصديقا لقول الله عز وجل : **(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا أليك ، وماوصينا به ابراهيم وموسى وعسى أن أقيموا الذين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى أليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب)** (١) .

هذه الدعوة الخالصة لله ، ذات التوحيد الخالص من شوائب التعدد ، قد حرفت بعد فترة ، وخرجت عن لبابها الالهى الى نحو يتجه وجهة التثليث ، ويتحدث عن الأب والابن وروح القدس ، وقد تشعب الجدل بين رؤساء الكنائس دون أن يتجه وجهته الصحيحة ، حتى افتتن الناس ، وضلوا معنى الألوهية المنفردة بالكمال ، فشاء الله عز وجل أن ينهض أصحاب الكهف من رقادهم الطويل ، ليعلنوا كلمة التوحيد الخالص ، لمن حادوا عن الطريق ، وليذكروا قومهم بالاله الواحد فاطر السموات والأرض ، وبتنزيهه عن الأبوة والبنوة ، وما يمت الى البشرية من صفات ، وتجد أدلة ذلك فى مفتتح سورة الكهف اذ يقول الله عز وجل **(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ، ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا)** (٢) .

فهذا الافتتاح المجلجل بحمد الله الذى أنزل على عبده الكتاب ليبشر المؤمنين وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا دون علم صحيح ، يعتبر براعة استهلال جيدة تمهد لقصة هؤلاء المبعوثين بعد الرقاد لأن الله عز وجل قد جعل استيقاظهم الواثب تصحيحا لخطأ

---

(١) سورة الشورى : الآية : (١٣)
(٢) سورة الكهف الآيات من (١) الى (٥)

وقع فيه المتدينون حين ضلوا سبيل التوحيد واتخذوا من دون الله آلهة تشاركه السيطرة والنفوذ وذلك بعض ما يفهم من قول الله عز وجل (**نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذ اعتزلتموهم ومايعبدون الا الله ، فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا**) [١] .

وتمضى السورة الكريمة متحدثة عن أمر هؤلاء الفتية بما يعلمه قارئها المتأمل ، حتى اذا أوفت على نهايتها شاء الله عز وجل أن يعود الى حديث التوحيد الخالص فيقول تعالى شأنه (**ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ، مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا**) [٢] ، وهكذا تلتئم براعة الاستهلال مع توجيه الخاتمة فى نهاية المقطع بما يضع القصة فى حيز مميز ناطق الدلالة ، واضح التفسير .

هذا الزمن المشرك الذى اختلط فيه معنى التوحيد اختلاطا ملتبسا لدى اتباع عيسى عليه السلام ، كان ظرفا مهيئا لبعث هؤلاء الفتية ، كى يعلنوا حقيقة الاعتقاد الصحيح ، فيعيدوا الى المسيحية روحها الأولى كما دعا اليها نبيها الكريم ، اذ يجهرون وسط المحتفلين ببعثهم الخارق بأن الله واحد مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا ، واذ يعلنون أنهم فروا من تعدد الآلهة حين اضطهدهم دقيانوس الوثنى فمضوا الى الكهف هاتفين (ربنا رب السموات

---

(١) سورة الكهف : الآيات من (١٢ : ١٦)
(٢) سورة الكهف : ٢٥ ، ٢٦

والأرض ، لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا) وتلك احدى آيـــات الله فى بعثهم الخارق ، ونشرهم المعجـــز بعد أكثر من ثلاثمائة عام •

واذا كانت العامة حينئذ قـــد ضلت سبيل التوحيد ، فـــان ذوى العقول المفكرة من متعاطى الفلسفة الجدلية مناقشى القضـــايا الفكرية قد وقعوا فى ضلال مماثل حـــين أخذت الأ فلاطونية الحديثة ، تغمر الفلسفة المسيحية اذ ذاك بضباب قـــاتم ، يطمس لألاء الحقيقة ، فأخذ مفكرو المسيحية بنظـــرية العقول المتعددة ، متأثرين بفلسفة اليونان ، اذ تجعل من العقـــول المتعددة ما يرمز الى الأب والابن وروح القدس ، لتوائم بين الوثنية القـــديمة فى فلسفة الاغـــريق ، وماتظنه يتصل بما جاء به المسيح عن السماء ، ونحن نعـــرف أن الافلاطونية الحـــديثة قد تأثرت بالاغريق غربا ، والهنـــد شرقا ، فآخذت نظرية العقول من الاغريق وأخـــذت انبثاق الابن عن الأب الآلهة من الهند ، ومزجت ذلك كله فى فلسفة تفسر ما تظنه ديـــانة المسيح ، وقد كان لهـــا رجالها الأعـــلام ، ودعاتهـــا المؤثرون ، فألبسوا العقيدة لباسا تنكره دعوة التوحيد ، وشاركوا العامة فى تعدد الآلهة ، فكان مبعث أهـــل الكهف هاتفين بالتـــوحيد الخـــالص ، تصحيحا لما ارتطم فيـــه العامة والخاصة من ضلال ، لو وجدوا من يستجيب للحـــق على وجهـــه الصحيح •

وأكبر ما هز دعاة الافلاطونية من بعث أهل الكهف هـــو تحطيم مبدئهم الفلسفى فى الايمان بالعلية التى تربط السببيالمسبب ، وتتنكر للمعجزات النبوية والخـــوارق الشاذة عن طبائع الأشـــياء ، لأن بعث هؤلاء النائمين فى كهفهم العتيق بعد أكثر من ثلاثمائة عام أمـــر خارق يحطم هذه العلية المقدســة لدى المتحمسين لها من أصـــحاب الأقيسة والأدلة ، اذ يجعل هـــذه الفجاءات المدهشة ذات قطر جديد لدى من يحتمون أن تسير الأمـــور فى طريقها المعهود ، واذن فقـــد بعث الله أصحاب الكهف ليقولوا

لدعاة الأفلاطونية الـذين يصرون على ربط المسببات بالأسباب دائما دون تصديق لمعجزة ربانية تخرق السنن الطبيعى حين تجتـازه الى سواه ! أجل لقد بعث الله أصحاب الكهف ليقولوا لهؤلاء : لقد قمنـا من الرقاد العميق منذ ثلاثمائة عام على غير ما تتوقعون ، فأين يذهب ايمانكم الشديد بمبدئكم الفلسفى فى انكار المعجـزات ؟ واذا كنتم — أو بعضـكم بالتأكيد — تنكرون البعث الأخروى بدعوى استحالية فى افهامكم المحدودة ، فان مبعث أهل الكهف قد هدم هذا الانـكار بمالا شبهة فيه ، اذ جـاء دليلا ملموسا على البعث الأخروى دليلا يراه العيان ، وهو أقوى من كـل برهان ، ولذلك يقول الله عز وجل **(وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لاريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمـرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهـم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا عـلى أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) (١)**

وكما كان بعث أهـل الكهف مفاجأة لمن حرفوا دعـوة المسيح عن اعتقادها الصـحيح ، فقد كان نزول سورة الكهف مفاجأة مماثلة لمشركى مـكة ، حيث أرادوا أن يعجزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ظنوا أنه ليس فى مقدوره فأرسلوا وفـدا من المشركين الى يهـود المدينة ، يتقدمهم عقبـة ابن أبى معيط ، والنضر بن الحارث وغـيرهما من صـناديد قريش ليعلموا من أحبـار أهل الكتـاب ما يظنونه هدما لدعوة الاسـلام ، وقد سأل عنه هؤلاء الاحبـار أسئلة من يتطلع الى أمر يضايقـه وجوده ، ويود بجدع الأنف أنـه لم يكن ، ولذلك أعملوا تفكـيرهم الجاهد فى ابتداع أسئلة يظنونها ذات اجابة مستعصية ، وقـد أفهموا المشركين أن محمدا اذا لم يجب عنها فليس برسـول ، وفى ظنهم الواهم أنه لن يجيب ، وكان فى طليعة هذه الأسئلة المتحـدية سؤال تاريخى عن فتيـة بعثوا من

(١) سورة الكهف آية : ٢١

رقادهم بعد مدى طويل ، وواضعو هذا السؤال يفترضون افتراضا لا دليل عليه أن رسول الله قد قرأ التوراة والانجيل ثم ادعى الرسالة ليكون نبيا من طراز موسى وعيسى ، فشاءوا أن يتقدموا بسؤال عن قوم لم يذكروا فى التوراة والانجيل حتى يعجزوا الرسول فلا يجيب ، وقد طار المشركون فرحا بما أحضروه من الأسئلة وتقدموا بها الى الرسول فى تحد صريح ، وشاء الله أن يمكث الرسول قرابة خمس عشرة ليلة دون اجابة ، اذ أبطأ عنه الوحى ، فعدوا ذلك التأخير انتصارا مبينا على رسول الله ، ولم تدم لهم هذه الفرحة الشامتة اذ نزل الوحى الأمين بسورة الكهف ليكشف الجواب الصريح فى صدق أمين •

أما المفاجأة المذهلة التى نعنيها فى هذا النطاق ، فهى مفاجأة المشركين أنفسهم بدعوة التوحيد فى قصة أهل الكهف ، اذ أعلنت صراحة ايمان المبعوثين بالوحدانية ، وأكدت ما يدعو اليه رسول الله حين جعل التوحيد عقيدة الاسلام ، ونادى بمحاربة من يدعون من دون الله ، فماذا عسى أن يقول هؤلاء المشركون ، وهم يسمعون حديث فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى ، وقد ربط على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا ، !! يالله ، لقد نزلت الآيات شافية صدور قوم مؤمنين ، وكاتمة أفواه نفر مشركين ، ثم هى بعد تملأ بالحيرة والدهش عقول الأحبار بالمدينة حين أذهلهم أن يعلم نبأ هؤلاء المستيقظين عربى أمى نشأ فى بلد بعيد عن موقع هذا الحدث الخطير وقد أتى بأدق وصف يعلمه هؤلاء من أمر القوم ، اذ جاء بوصف الشمس متيامنة متياسرة ، وبمشهد النائمين فى فجوة مستترة لا يحيط بعلمها غير الله « **وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ،واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ،**

ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » (١) •

لقد أبدعت السورة الكريمة تصوير هذا البعث المفاجىء ، وما يتضمن من حيرة مذهلة شملت أهل الكهف أنفسهم كما غمرت من بعثوا فى عهدهم من الناس ، وقد تدرج الأمر طبيعيا حين استيقظ الفتية من النوم وهم يظنون أنهم رقدوا يوما أو بعض يوم ، ثم أحسوا بالجوع فطلبوا من أحدهم أن يذهب الى المدينة ليشترى الطعام ، وأوصوه أن يكون حذرا كيلا يدركه الأعداء فيوقعوا بهم أشد العذاب ، **(انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذن أبدا)** (٢). أما الدهشة الكبرى وهى انتفاضة البعث بعد النوم الطويل فقد أوجزها القرآن ايجازا بليغا لأنها بواقعها المشاهد تمثل اطنابا نفسيا يمتد ويتسع ، ليشمل أفسح الفراغات فى المشاعر والعقول ، وقد عصفت حقيقتها الخارقة بكل سفسطة وأتت على كل اعتراض •

ومعلوم « أن القصص القرآنى فى كل مشاهده لا يساق لذاته ، بل لما يطوى من عبر تهدى الى الخير فى الحياة ، وترتفع بالسلوك الانسانى حين تشتبه المسالك ، وتوحش الدروب ، وقد ختمت قصة هؤلاء بما يجب التقيد به من هدى ربانى حين يجدر أن نعقب بمشيئة الله اذ نصور ما نأتى به من الافعال **« ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا »**(٣) هو تنبيه ضرورى للمؤمن اذ يجعله متصرفا وفق مشيئة خالقه ، تلك التى تسيطر على الكون بما يضم ومن يضم من الكائنات ، وبها تنتظم الأمور وتطرد الأحوال •

د• محمد رجب البيومى

---

(١) سورة الكهف آية : ١٧ ، ١٨
(٢) سورة الكهف آية : ٢٠
(٣) سورة الكهف آية : ٢٣ ، ٢٤

المشكلة الاقتصادية في ضوء تعاليم الإسلام الحنيف

دكتور رءوف شلبي

(٢)

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» «١٠٣ ، ١٠٤ الكهف • »

تتفق النظريات الاقتصادية على وجود ما يسمى اصلاحيا بالمشكلة الاقتصادية •

* فالرأسمالية تذهب الى ان المشكلة الاقتصادية هى :

قلة الموارد الطبيعية نسبيا نظرا الى أن الطبيعة محدودة فالأرض لا يمكن زيادة كمها ولا يمكن زيادة ثرواتها المتنوعة رغم ان احتياجات الانسان تنمو وتزيد وتطرد وفقا لتقدم المدنية وازدهارها •

ويظنون أن الطبيعة عاجزة عن تلبية جميع تلك الحاجات بالنسبة للتطور الحضارى فلن يسع هذا التطور جميع الافراد ، ومن هنا ينشأ عندهم ما يسمى بالمشكلة الاقتصادية نظرا لعدم امكان اشباع جميع الافراد بحاجاتهم •

فالمشكلة الاقتصادية اذن فى نظر الرأسماليين :

ان الثروة الطبيعية لا تستطيع مواكبة التمدن المتلاحق وبالتبع لا تستطيع اشباع جميع ما يستجد من البشر خلال التطور المدنى •

وعناصر المشكلة فى نظر هؤلاء ثلاثة :

١ ــ الحاجة

٢ ــ الموارد

٣ ــ المواءمة بينهما .

* فبالنسبة للحاجات : فانها رغبة طبيعية تتجدد وتتطرد وتتنوع وهذا يتطلب موارد تغطى الكم لاشباع الرغبات .

* وبالنسبة للموارد فالارض الزراعية لا يمكن ان تنتج لنا من المأكولات كل مانشتهيه ومن الغذاء كل ما نحتاج اليه وكذلك بقية المواد الطبيعية فهناك ندرة نسبية بين الحاجات والموارد وتبعا لهذا فان المواد تتناسب طردا وعكسا فى ندرتها .

* يظهر من ذلك ان الرغبات لا تغطيها كمية الموارد وعليه تقوم مشكلة اقتصادية هى محاولة التوفيق بين الحاجات والمواد بقدر ما يمكن .

وعلة هذا الخلط فى الفكر الرأسمالى :

(أ) انه يعيش فى رقعة ضيقة سببت له عدة حروب من اجل التنفس عن ضيقه والبحث عن مصادر للمواد المعيشية .

(ب) انه لا يملك مصدرا فى عقيدته يغذيه بأبعاد ما تحتويه الارض من قدرة على اشباع جمع الرغبات حتى تأخذ هى زينتها .

(جـ) ان الدين لم يستطع ان يضع لهمتصورا صحيحا عن علاقة الانسان بالكون .

* وأما الشيوعية أو الاشتراكية فتذهب الىان المشكلة الاقتصادية هى : مشكلة التناقض بين شكل الانتاج وعلاقات التوزيع فاذا تمالوفاق بينالانتاج والتوزيع ساد الاستقرار فى الحياة الاقتصادية .

واذا كان الشيوعيون يقولون بنظرية التناقض فماهو الحد الذى تقف عنده موجات التناقض ومن الذى سيوقف هذا التناقض ، ومن الذى سيحدث الوفاق بين الانتاج والتوزيع اذا سلب الفرد حريته فى اختيار العمل المعين ولم يأمل فى توزيع عادل يضمن له حاجاته من بعد .

ولعل الواقع الشيوعى والاشتراكى يعفينا من الاطالة فى تصوير فشل المذهب بكل أبعاده وقضاياه فالاشتراكية فى جميع البلدان فاشلة فى تحقيق حاجة الانسان الى الحرية قبل الطعام .

والخلاصة : ان المشكلة الاقتصادية نتاج طبيعى للنظريات الاقتصادية حسب تصورها بدليل أن الحياة الاقتصادية فى عصر المقايضات والبدائل العينية لم تشعر بمشكلة اقتصادية فان الكل ينتج حاجاته وتبادل الحاجات عن طريق العينات قبل ان يكون التداول نقديا هو عصب التوازن الاقتصادى قديما .

فالمشكلة الاقتصادية نتيجة

(أ) ظهور النقد كبديل فى المقايضات .

(ب) استخدام النقد فى الادخار وابعاده عن مجال الاستثمار الفعلى لصالح المجتمع .

(جـ) استخدام النقد فى التعامل الربوى الذى يعطى رأس المال نسبة من العمل دون ان يجهد صاحبها فى الانتاج .

(د) تحويل مفهوم الربح من محتواه الانسانى فى المحافظة على استمرار رأس المال ليؤدى وظيفته الاجتماعية الى رغبة جامحة فى الثراء بشتى الطرق .

(هـ) انفاق مسرف على المظاهر البراقة فى الدعاية ، والترفيه والأمزجة غير الاخلاقية وهى ممارسات تحدث مشكلة اقتصادية من حيث :

(أ) ضياع جزء من المال هباء .

(ب) ضياع وقت من الزمن دون انتاج .

(جـ) الاصابة بأمراض تسبب خسارة فى انفاق طبى دون مقابل ، لأنه كتطبيب لصحة معلولة .

(د) تعطيل قوة من قوات وسائل الانتاج .

ولهذا حذر الاسلام من كل هذه المظاهر التى تسبب الضيق الاقتصادى على نحو ما سنعالجه ان شاء الله فالمؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف .

الاسلام والمقومات الاقتصادية

(أ) الملكية وحرية الانتاج .

(ب) وسائل الانتاج .

(جـ) الانفاق والتصديق .

(د) العدالة الاجتماعية .

(هـ) التـــداول .

نظرية الاســلام الاقتصــادية احـــدى النظريات التى تدخل فى الاطار العام للدين الاسلامى كمنهج للحيــاة .

فاذا كانت الاديان الاخــرى قد تحددت بقوم مخصوصين وأماكن وأزمنة محددة حسب نصــوصها ، فان الدين الاســـلامى دين عام وشـــامل للناس جميعا ، وللزمان كلـــه ، وللمكــان بأجمعــــه

« وما أرسلناك الا كافة للنـــاس بشيرا ونذيرا » ٢٨ سبأ

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » ١٥٨ الأعــراف

والاســـلام كمنهج للحيـــاة الانسانية يضع الاســـلوب الذى يتعايش الناس عليه قد وضــــع للاقتصـــــاد حدودا وقواعد تحقق الغاية التى ينشدها الانســـان فى حياته وهو ان يعيش راضيا وسعيدا مشرئبا لحياة افضل فى دار النعيم يوم يحاســـب المرء على ما قدم وأخر ، وعلى ما كســبت يداه وعن ماله مما جمعه وفيم انفقه ؟

والمقومات التى وصفها الاسلام كمذهب اقتصـــادى ينسب اليه وبه يتحقق الخير للناس هى :

* الملكية .
* وســائل الانتاج : الارض ، البحــار ، والافـــلاك ، والقـــوى البشرية .
* وقواعد الانفاق والتصدق .
* وتحقيق العدالة الاجتماعية .
* والتداول .

أولا ــ الملكية وحرية الانتاج :

تقوم نظرية الاســـلام فى الملكية على تحـــديد مفهوم المال فى نظر الاســـلام .

فالمال فى الاسلام وسيلة لخدمة الجماعة ولتحقيق اغراضها واغراض الجماعة الاسلامية هى :

(أ) حفظ النفس .

(ب) حفظ الاسرة .

(جـ) حفظ العقيدة .

(د) حفظ الوطن الاسلامى .

فى مجـــال الحث على الانفاق يطالب الاسلام المسلمين ان ينفقوا مما هم مستخلفين فيه .

يقول الله تعالى :

« آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيــه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »
٧ — الحديد

ويقول جل جلاله :

« وآتوهم من مال اللـــه الذى آتاكم » ٣٣ — النور

وهذا دليـــــل على أن الملكيـــة الاصلية هى لله جل جلاله ..

« ولله ميراث الســــــموات والارض » .

« له ملك السموات والارض » .

وهذا يشير الى ان ملكية الناس للمـــال انمـــا هى ملكيـــة بالوكالة أو ملكية انتفاع وادارة .

ولذا فعندما تأتى التكاليف التى يترتب عليها الثواب والعقاب واللوم والمؤاخذة ينسب الله تعالى الملكية الى العباد فيقول جل جلاله :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانيـــة فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنـــون ، الذين يأكلـــون الربا لا يقــــومون الا كما يقـــوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » .

٢٧٤ — ٢٧٥ البقرة

« مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت ســبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ماانفقوا منا ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خـــوف عليهم ولاهم يحزنون ، قـــــول معروف ومغفرة خير من صـــدقة يتبعهـــا أذى واللـــه غنى حليم ،

يا أيهـــا الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء النـــاس ولا يؤمن باللـــه واليوم الآخر فمثله كمثل صــفوان

عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين »
٢٦١ — ٢٦٤ البقرة

« ولا تؤتو السفهاء أموالكم ألتى جعل الله لكم قياما »
٥ — النساء

اذن الملكية فى نظر الاسلام لها جانبان •

جانب اصلى ثابت هو ان الله وحده هو الذى يملك السموات والارض والعباد •

جانب تفويضى وظيفى هو ان العباد موكلون من قبل الله تعالى فى الانتفاع بهذا المال فهى ملكية انتفاع ، والنبى « صلى الله عليه وسلم » يصور هذه الملكية أصدق تصوير فى قوله الشريف :

« يتبع الميت ثلاثة : يرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه : أهله ، وماله ، وعمله فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » •

متفق عليه

وملكية الانتفاع هذه ملكية ذات اشكال متنوعة :

* فالاسلام يؤمن بالملكية الخاصة ويجعل الدفاع عنها حقا مشروعا والحديث الشريف يقول :

« ومن قتل دون ماله فهو شهيد »
رواه أبو داوود والترمذى

* كذلك الاسلام يؤمن بالملكية العامة وحدها فى نظر الاسلام كل ما لا دخل للفرد فى انتاجه مثل الارض والمعادن والبترول ، والبحار والغابات ، وكنوز الجبال •

* كذلك الاسلام يؤمن بملكية الدولة وهو بيت المال غرما وغنما يقول النبى « صلى الله عليه وسلم » :

« من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلا فالينا » « متفق عليه »

وغنائم الحرب ، والفىء كلها من حقوق الدولة الاسلامية •

ومن هنا يظهر الخطأ الفادح علميا لمن يصف النظام الاقتصادى فى الاسلام بأنه رأسمالى أو اشتراكى •

وسبب ذلك الخطأ يرجع الى أن :

(أ) النظـــام الرأسمالى يؤمن بالملكية الفردية وبحريتهـــا غير المقيدة كقاعدة عامة ولا يلجـأ الى الاعتراف بالملكيـــة العامة الا فى ظروف اجتماعية خاصة •

والحرية الفردية عندها : الغاية تبرر الوسيلة ، وعندها الربح قبل خدمة المجتمع ولهذا فان المجتمـع الاســـلامى يرفض ان يطلق على نظامه الاقتصادى مثل هذه التسمية لاختلاف قواعد العمل الاقتصادى بين الاسلام والرأســـمالية ، فالاســـلام يرى ان الملكية متنوعة وأنها لخدمة المجتمع ، والرأسمالية ترى أن الملكية فردية ولها ان تفعل ما تشاء فى سبيل الحصول على ربح اكبر •

(ب) والنظام الاشـــــتراكى لا يؤمن بالملكية الفردية ولا يضع لها ادنى حســـاب فهو قائم على قاعدة الملكية العامة •

فمن الخطأ علميا أن يوصف نظام الاقتصـــاد الاســـلامى بأنه اشتراكى •

صحيح ان الاشتراكية بـــدأت تنزع فى الآونة الاخيرة الى نوع من الملكية الخاصة الجماعية ــ لكنــه نزوع سببه فشـــل التجربة وليس ملكية خاصـــة بالمفهوم الصـــحيح والملكية العامة التى يقرها الاسلام ليست هى الملكية العـــامة فى نظر الاشتراكية لأن الملكية العـــامة فى نظر الاسلام هى المصادر الاساسية التى لا دخـــل للاكتســـاب الفردى فيها مثل الارض والنهر ،والبترول، والمعادن الاخرى •

أما الملكية العامة فى نظر النظام الاشـــتراكى فهى التلصـــص على ممتلكات الافراد •

ومن هنا يفترق نظام الاصـــلاح بين الاســـلام والاشتراكية ، ومن هنا أيضا نقول بخطأ اطـــلاق لفظ الاشتراكية على النظام الاسلامى •

كما أن مفهوم الملكية الفردية فى الاســـلام ليس هـــو مفهومهـــا الرأســـمالية لأن الملكية الفردية فى الاســـلام محاطة بقوانين تحد من استغلالها للمجتمع •

لأن الانتـــاج فى نظر الاســـلام مرتبط بالقيم والمبادىء الاسلامية•

* فلا يجوز للأفراد اقامة مصنع للخمر وان صح ذلك فى النظام الرأسمالى لان الاسلام حرم الخمر .

* ولا يجوز للافراد التعامل بالربا وان صح ذلك فى النظام الرأسمالى لأن الاسلام حرم الربا الى يوم القيامة .

* ولا يجوز ان يغش او يحتال أو يغتصب ، أو يسرق أو يغل أو يخون .

* ولا يجوز للحاكم أن يتاجر على المسلمين فان فى عمله بالتجارة خلخلة لموازين العمل الاقتصادى بما يبتزه أو يحتكره من طعام **المسلمين يقول النبى صلى الله عليه وسلم « من أخون الخيانة تجارة الوالى فى رعيته »**

رواه الطبرانى حديث صحيح

ويمكن ان نصوغ مجتمعنا الاسلامى فى حياته الاقتصادية على هذا اللون من الملكية ومن الحرية فى الانتاج المشروط بقواعد الشرع الحنيف حيث يبرز الجانب الانسانى فى النواحى بالخير والحق والعدل والرحمة بعيدا عن التنافس والسعى وراء ربح أكثر ولو على حساب الضعاف والمساكين .

وسائل الانتاج

من سمات الحياة الاسلامية أنها حياة انتاج لا استهلاك والملاحظون لنظام العبادة يرون نظام الصوم المفروض والمسنون يوحى بأن الامة الاسلامية أمة انتاج لا أمة استهلاك .

ولقد دعا الله الامة الاسلامية الى العمل والى زيادة الانتاج فى عديد من آيات القرآن الكريم واحاديث السنة الشريفة المطهرة .

يقول الله تعالى :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » .

الملك

ويقول النبى « صلى الله عليه وسلم » :

« اذا بات الرجل كالا من عمل يده بات مغفورا له »

«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده »
رواه أحمد

ووسائل الانتاج فى الاسلام أكثر من التى عرفها الاقتصاديون.

انهم يرونها فى : العمل ، والموارد الطبيعية ورأس المال ويقصدون به: الالات والمعدات والمنشآت التى تمكن الافراد من القيام بعملية الانتاج ، ثم التنظيم ويقصدون به دراسة المشروعات من حيث احتمالات النجاح والفشل فهم يدرسون :

* عوامل الانتاج وقت انشاء المشروع .

* وأسلوب الانتاج .

* وتحديد افضل النسب التى يمزج بها عناصر الانتاج اللازمة للمشروع .

* واختبار الموقع .

* وتجميع رأس المال .

* ومستوى تواجد الايدى العاملة .

* وكيفية التسويق ... الخ .

ولهذه النظرة الضيقة حكموا على وسائل الانتاج الطبيعية بأنها ضيقة وأنها لا تكفى الأقوات الناس ورتبوا على ذلك قضايا منها تحديد النسل وانفجار السكان .. والندرة الاقتصادية ... الخ .

ولقد كانت نظرتهم من منطلق اعتقادهم وعجز اديانهم الاوربية عن أعطاء تصور صحيح لقدرة الله الرزاق المتين وما اودعه فى هذه الارض وما ادخره فى السماء وما اودعه البحار والجبال من كنوز .

ولهذا كانت نظرة الاسلام اشمل واصدق فقد اضاف الى هذه الوسائل .

(أ) الكون .

(ب) طاقات الانسان .

فصارت وسائل الانتاج فى الاسلام أشمل وأكثر وأدق فهى :

(أ) الارض وما عليها وما فيها .

(ب) والسماء وما فيها .

(جـ) الرياح اللواقح .

(د) السمع والبصر والفؤاد .

أولا — الأرض وما عليها وما فيها:

يقول الله تعالى :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم »

٢٩ — البقرة

« وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وانهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

٣ — الرعد

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برزاقين .

وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » .

١٩ — ٢١ الحجر

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس أن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

٥ — ٩ النحل

« وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه أن فى ذلك لآية لقوم يذكرون، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون»

١٣ — ١٥ النحل

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ،وهذا ملح اجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حليه تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »

١٢ — فاطر

« الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماءبناء وصوركم فأحسن

صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » ٦٤ — غافر

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » ٩ — ١٠ فصلت

ثانيا — السماء وما فيها :

يقول الله تعلى :

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار » ٣٢ — ٣٤ ابراهيم

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .

وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

١٠ — ١٢ النحل

*** « و فى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون »** ٢٢ — ٢٣ الذاريات

ثالثا — الرياح اللواقح :

*** « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين »**

٢١ — ٢٢ الحجر

*** « وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا »** ٤٨ — ٤٩ الفرقان

« وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد » ٢٨ — الشورى

رابعا ــ السمع والبصر والفؤاد :

انــه من غـيره لن تسـتطيع جميع الموارد الطبيعية ان تثمـر شيئا ما الا بجهـد الانسـان البشرى ، وهـذا الجهـد طـاقة جسـمانية ، وطـاقة روحيـة ، وطاقة عقليـة .. وتلك لاتعطى مداها الطبيعى من القوة المطلوبة فى الانتـاج الا اذا كانت سـليمة معفية من النقص وهذا هو السرفى جعل الاسلام قوى الانسان عنصرا من عناصر الانتاج فهى مركز التكليف الشرعى فى هذا المجـال يقول الله تعالى :

** « ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .**

٣٦ ــ الاسراء

** « والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »**

٧٨ ــ النحـل

هكذا يربط الاسلام الفرد المسلم بهذا الكون الفسـيح فى عملية الانتاج .

* فالأرض سهلة مذللة له .

* والبحـار والأنهـار مهيأة لعمله .

* والشمس والقمر والليـل والنهـار مسـخرات لخدمة زرعه وسفره وراحته وسعيه .

* والرياح تسـعفه فى البر والبحر فتسوق اليه السـحب المزن الثقال لتروى ظمأه وزرعه فى الواحة البعيدة ، كما تسوق اليه سفينته فى الشط البعيد كذلك .

وقد جعـل الله ذلك تذكرة من آياته الدالة على عظمـة ابداعه وتدبيره للكون :

« ومن آياته الجـوار فى البحر كالأعلام ، ان يشأ يسكن الريـح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ،أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير » .

٣٣ ــ ٣٤ الشورى

والاسلام بهذا يحرر المسـلم من ربقة اليأس كما يحـرره من

العجز والكســــل ، ويفتح له باب التفاؤل فى رحمة الله الواســعة ، فهو وحده جل جلاله فالق الحب والنوى ،كما هوفالق الاصباح ومع هــذا الرجاء فى رحمة الله وهــذا الفيض المدرار من نعمة جل جلاله فانه لا ندرة ولا مشكلة فى الاقتصاد الاسلامى الا ان يجنح المســلمون الى غير ما افاءهم الله به من نعم وخيرات ومبادىء ودين قويم ٠

والحديث موصول

دكتور رءوف شلبى

من كلمات السيد الرئيس محمد أنور السادات فى خطابه التاريخى فى ١٤ مايو سنة ١٩٨٠ م

« تكريم القرآن للمسيح »

أخبرنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن بالحديث الذى دار بينه سبحانه وتعالى وبين المسيح عيسى عليه السلام :

« واذ قــال اللــه يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال ســـبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ٠٠ ان كنت قلتــه فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفســك انك أنت علام الغيوب » ٠

هذه أوامر ربنا سبحانه وتعالى ، لنا فى القرآن — مريم أطهر نســاء العالمين الى يوم القيامة ، والمسيح يخلق من الطين كهيئة الطير فتكون طيرا باذن الله ، ويبرىء الأكمه والأبرص باذن الله ويحيى الموتى باذن الله » ٠

في مواجهة الإلحاد العلمي

منشأ القصور في المنهج العلمي

للدكتور يحيى هاشم

(١٣)

منشأ القصور « العلمى » على النحو الذى بيناه كامن فى عـــزم الانسان على الاستقلال بالفهم عن طريق العقل ، أو عن طريق العلم ، **أما « أقـــرأ »** •

« اقرأ باسم ربك » •

أى العلم المستند الى الله منذ الخطوة الأولى ، فهو عاصـــم عن كل هذا التخبط ، فضلا عن كونـــه ضرورة عملية لا محيص عنها •

ومن عجيب الاتفاقات أن حقيقة المعرفة فى القرآن الكريم هى أول ما نزل من القرآن •

انها موجودة فى قوله تعـــالى :

(اقرأ باسم ربك الـــذى خلق • خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، عـــلم الانسان مالم يعلم) •

ثم تأتى تتمتها من قولـــه تعالى اثر ذلك :

« كلا ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، ان الى ربك الرجعى » وبيان ذلك ، ان هذه الآيات تقول لنا :

١ ـ ان المعرفة لا يعثر عليهـــا فى أعماق النفس البشرية ذاتيا (١) وانما تأتى باجتهاد تمثله كلمـــة (اقرأ) •

(١) «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا» صدق الله العظيم ٧٨ النحل •

٢ ـ هذا الاجتهاد لا يقوم به الانسان مستقلا وانما يقوم به :

« باسم الله » .

وباسم الله لا تعنى مجـــرد البركة وانما تعنى الاستعداد .

فهو اجتهـــاد يستمد مبـــادئه ورسائله ووسائله وغـــاياته من الله .

٣ ـ ولتوضيح المقصود من كون المعرفة اجتهادا بشريا مستمدا من الله .

تذكر الآية نظير ذلك فى حيـــاة الانسان :

وهو خلق الله للانسان .

الذى خلق (١) .

الانســـــان لم يعثر عليـــه فى الطبيعة ، ولم يصدر عن العلــــة الأولى بطريق الفيض .

ولكن الله هو الذى خلقه .

خلقه من بداية صغيرة .

« خلق الانسان من علق » .

وصاحب هذا الخلق جهد بشرى ضئيل ، مجرد مصاحبة .

هكذا الأمر فى المعرفة .

فهل خلق الله الانسان وتركـــه دون أن يعلمه ؟ ذلك لا يتفق مـــع وصفى :

١ ـ الربوبيـــــة .

٢ ـ الكرم ، أو الأكرم .

فهو اجتهاد يســــتمد مبادئه ووسائله وغاياته من الله .

٣ ـ ولتوضيح المقصود من كون المعرفة اجتهادا بشريا مستمدا من الله :

---

(١) لعل فى هذا اشارة الى ان المعرفة الحسية موقوفة على تدبير من الله سبحانه فلقد أثبت العلم الحديث أن المعرفة الحسية لا شأن لها بما يسمى الشىء فى ذاته وانما هى تمثل هذه الأشياء وكما تؤثر فى حواسنا فحسب ، وبما ان هذه الحواس قد خلقها الله ســـبحانه على نحو معين دون غيره فان الخالق سبحانه يحدد لنا بذلك وجه الثائر الذى تتـــأثر به الحواس من هذه الاشياء ، وبناء عليه يمكن القول بأن معارفنا الحسية تنفذ الينا من خـــلال ارادة الهبة ، وتدبير الهى ..

تذكر الآية نظير ذلك فى حيـــاة الانسان :

« وهو خلق الله للانسان » .

« الذى خلق » (١) .

الانسان لم يعثر عليه فى الطبيعة ولم يصدر عن العلة الأولى بطريق الفيض .

ولكن الله هو الذى خلقه .

خلقه من بداية صـــغيرة .

« خلق الانسان من علق » .

وصـــاحب هذا الخلق جهـد «بشرى ضئيل ، مجرد مصاحبة» .

هكذا الأمر فى المعرفة .

فهل خلق الله الانسان وتركــه دون أن يعلمه ؟ ذلك لا يتفق مــع وصفى :

١ ــ الربوبيـــة .

٢ ــ الكرم « أو الأكرم » .

وذلك ما تقوله الآية الثالثة .

« اقرأ وربك الأكرم » .

فالنتيجة اذن فى الآية الرابعة .

٤ ــ « الذى علم بلقلم » .

فهو الذى علم .

كما أنه هو الذى خلق .

واذا كان الخلق من الله مــع مصاحبة جهد بشرى ضئيل ..

مجرد مصاحبة فان التعليم من الله مع مصاحبة جهـــد بشرى ضئيل أيضا هو الامساك بالقلم والقـــراءة .

فماذا علم الله للانسان ؟

---

(١) لعل فى هذا اشارة الى ان المعرفة الحسية موقوفة على تدبير من الله سبحانه فلقد أثبت العلم الحديث أن المعرفة الحسية لا شأن لها بما يسمى الشىء فى ذاته وانما هى تمثل هذه الأشياء وكما تؤثر فى حواسـنا فحسب وبما ان هذه الحواس قد خلقها الله سبحانه على نحو معين دون غيره فان الخالق سبحانه يحدد لنا بذلك وجه التأثر الذى تتأثر به الحواس من هذه الأشياء وبناء عليه يمكن القول بأن معارفنا الحسية تنفذ الينا من خلال ارادة الهية وتدبير الهى .

هذا ما تجده فى الآية الخامسة.

« علم الانسان ما لم يعلم » .

٥ ــ علمه الأشياء التى لم يتعلمها .

الأشياء التى لم يعلمها أصلا أو التى لم يتعلمها ــ فى الحقيقة ــ بنفسه ، وان كان قد صحب عملية تعلمها بجهد بشرى ضئيل .

وهذه العلوم نجدها فى البداية :

فى العلوم الضرورية .

ويلحق بها أدوات المعرفة .

وفى الوسائط : فى افاضة هدى الله على جهد الانسان فى مسالك الوصول الى النتائج .

وفى النهاية : فى افاضة اليقين ، لجبر ثغرات الظن فيما يتعلق بالوثوق بالنتائج .

٦ ــ ولكى لا يلتبس أمر هذا كله بالوحى أو الكشف أو الالهام الخاص فقد جاء قوله تعالى « الذى علم بالقلم » ليؤكد الأسلوب العادى فى التعلم كما أن قوله تعالى « الذى خلق ، خلق الانسان من علق » يوضح الأسلوب العادى فى الخلق .

أما الأسلوب غير العادى .

أسلوب خلق آدم .

وأسلوب خلق عيسى .

وأسلوب الخوارق والمعجزات .

فذلك موضوع آخر لا يصح أن يختلط بما نحن ازاءه .

ذلك موضوع الوحى أو الكشف أو الالهام الخاص ، موضوع لا يتعلق بنظرية المعرفة العادية التى يشترك فى الخضوع لها البشر جميعا على سواء .

ثم تبين الآيتان التاليتان أن استقلال الانسان بالتعلم ، أو بالعلم انحراف عن مصدر التعليم .

« كلا ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى » .

٧ ــ ثم تبين الآية الأخيرة فيما ذكرناه أن المرجع فى المعرفة هو

الله « ان الى ربك الرجعى » (١).

ان كلا من المعتزلة والاشاعرة يقررون أن العلوم الضرورية — وهى أساس اليقين فى حركة العقل مخلوقة لله .

واذن فجملة البناء العقلى الذى بنوه يحتاج أولا الى معرفة الخالق وبهذا وقعوا فى الدور الذى حسبوا أنهم يهربون منه ..

ظنوا أنهم يحتاجون فى بناء الايمان الى العقل المستقل فاذا هم :

يجدون أنفسهم محتاجين فى بناء العقل الى الايمان .

والحقيقة هى هذه :

يحتاج العقل الى الايمان لكى يقوم ، ولا يتطلب الايمان الا مصاحبة العقل ، مجرد مصاحبة ، للتلقى .

وتلك سنة الله فى المعرفة .

كما هى سنته فى الخلق .

كما هى سنته فى الرزق .

وكما هى سنته فى كل ما يحصله الانسان ...

فاذا هو — أى العقل — بتواضعه ، وبمصاحبته للايمان ، يصل الى هدفه الذى يعجز عنه مستقلا .

الا وهو اليقين (٢) .

ليكون كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. وفى هذه النظرية تعود الثقةبالضروريات اذا قلنا انها من الله سبحانه وتعالى .

ومع ذلك فهى لا تصلح أساسا أوليا . فى منهج وبناء العلوم لأنها تحتاج الى أساس والأساس هو فى الاعتقاد فى الله .

يقول أبو الحسن محمد ابن يوسف العامرى :

---

(١) لا داعى لتخصيص مدلول هاتين الآيتين بطغيان الغنى بماله وانذاره بالرجوع الى الله فى اليوم الآخر ، مادام النص أكثر شمولا ، ومادام المعنى الذى نراه مرتبطا بالسياق ولا يؤدى الى محظور .

(٢) هذا ما نبينه فى القسم الثالث من هذا الفصل .

من فلاسفة الاسلام فى القرن الرابع الهجرى (ت ٣٨١ هـ) •

(ان العلم الدينى قد يصير أساسا تبنى عليه العلوم •

فانه لن يقتبس الا من المشكاة التى تعزى اليها الأوضاع الأولية لكل صناعة نظرية • هذه المشكلة هى الوحى الالهى الذى لا يعرض الشك عليه ولا يجوز السهو والغلط فيه •

فأما العلوم الأخر فليس واحد منها بحيث يقوى على أن يؤسس عليه علم الدين أو يقضى على شىء من أبوابه •

فاذن العلم الدينى لا محالة ينزل فى ذاته منزلة أصول الصناعات النظرية ومبادئها فى الصد والقوة •) (١) •

والنتيجة أن نظرية المعرفة القرآنية يمكن صياغتها على النحو التالى :

الانسان لم يعثر على المعرفة ولكن الله هو الذى أعطاه اياها •

أعطاه بذرتها منذ البداية فى البدهيات أو العلوم الضرورية وصاحب نمو هذه البذرة اجتهاد بشرى مشروط بالاستمداد من الله •

وتنمو هذه البذرة لتقوم على ساقها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء •

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)

(سورة ابراهيم ٢٤ : ٢٥)

ومن هنا تتقرر حقيقة هامة :

ان العقل يحتاج الى الايمان بالله •

فالعقل المستقل طغيان وانحراف وخبث •

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة

---

(١) الاعلام بمناقب الاسلام ص ١٠٦ •

اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) •

(٢٦ سورة ابراهيم) •

كلمة اجتثت من أصـــولها : من البدهيات ، ضربت البدهيـــات — باعتبارها يقينات فى الفلســـــفة النقدية ، اجتثت •

كلمة خبيثة مهتزة بالشــــكوك التى لا حاســـــم لها ، محـــوطة بالاوهـــام والاحتمـــــالات التى لا خروج منها ، كما قدمها فلاسفة الشــــك •

والعقيدة لا تتبنى عـــلى العقل النظرى المستقل

وانما هى تتبنى عـــلى منطق آخر •

منطق الضرورة العملية •

والتعرض للانـــذار بعـــذاب الآخرة •

والتعرض لعوامل تصـــــديق الرســـــول •

وهى بداية وتترقى الى اليقين ، بهدى الله •

يقول تعالى :

«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » •

١٤٦ البقرة •

لم يقل ســـبحانه وتعالى « كما يعرفون انفســــــهم » لان هــذا مستوى من المعرفة لا يصـــل اليه الانسان ويكفى مســـتوى معرفة الابن ، كجهد بشرى •

اما اليقين الكامل فمن الله

لذلك تأتى الآية التالية لتقول :

« الحق من ربك فلا تكونن من الممتـــرين » • ثم تأتى الآية التى بعدها لتعقب ببيان سبب عجـــز الانسان عن المعرفة الكاملة التى هى اليقين • ذلك •• اذ تقـــول :

« ولكل وجهة هو موليها » •

فهذه طبيعة البشر ، ونقصه ، الاتجاه الواحد فى الرؤية ، الاتجاه الجزئى ، الاتجاه غير المحيط •

وهذا لا يحصـــــل الاحاطة فى المعرفة ، ومن ثم لا يحصل اليقين الكامل بالعقل •

ومن هنـــا كانت تكملة الآية :

مسحة حنان على هذا الضـــعف البشرى ووعد بالرعاية الالهيـــة التى تكمل النقص وتلم الشعث .

« .. فاســتبقوا الخيرات .. أينمــا تكــونوا يأت بكم اللــه جميعا .. ان الله عــلى كل شىء قدير .. »

١٤٨ البقرة .

اذا تقرر ذلك فاننا نجد الآيات القرآنية تزيــده ايضــاحا وتوثيقا من ذلك قوله تعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها »

٣١ البقرة

« قالوا ســبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » .

٣٢ البقرة

« وقل رب زدنى علما »

١١٤ طه

« ولا يحيطون بشىء من علمه الا بماشاء »

٢٥٥ البقرة .

ويقول رسول الله صــلى الله عليه وسلم « اللهم انك سألتنا من أنفســنا مالا نملكه الا بك اللهم فاعطنا ما يرضيك عنا » (١)

واذن فالنتيجة النهائية ان مصدر المعرفة هو الله ..

وهو مصدر قريب .

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » .

١٨٦ البقرة .

«ونحن اقرب اليه مــن حبــل الوريد » .

١٦ ق .

« فأينما تولوا فثم وجه الله ».

٦٧ الزمر .

هذا هو أصل المعرفة بوجه عام كما نراه فى القرآن الكريم . (٢)

اصول الهداية :

اذا كان من عجيب الاتفــاقات كما قلنــا ان تكون الآيــات التى

---

(١) ذكره الامام السيوطى فى الجامع الصغير بسنده عن أبى هريرة ورمز له بالصحة .

(٢) أنظر ما ذكرناه آنفا فى هذا القسم من ان المتكلمين لا ينكرون ان الله هو مصدر المعرفة ، لكن خطاهم كان منهجيا

تستقى منها نظرية فى المعرفة القرآنية هى اول ما نزل من القرآن .

فانه من عجيبها كذلك ان تكون الآيات التى نستقى منها نظرية فى الهداية القرآنية هى أول ما صدر به القرآن .

تلك هى سورة الفاتحة .

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وبيان ذلك أن هذه السورة تبين :

أولا : مصدر الهدى .

ثانيا : اسباب افاضته من الله .

ثالثا : اسباب منعه .

رابعا : فائدته

أولا : مصدر الهدى :

ان صدر السورة الكريمة يبين ان الهدى يأتى من الله سبحانه وتعالى :

« اهدنا الصراط المستقيم » .

ويتأيد ذلك بآيات اخرى كثيرة :

« قل ان هدى الله هو الهدى »
١٢٠ البقرة

« ان علينا للهدى ... »
١٢ الليل

« من يهد الله فهو المهتد »
٩٧ الاسراء

« وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله » .
٤٣ الاعراف

« وان اهتديت فيما يوحى الى ربى »
٥٠ — سبأ

« فاما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
٣٨ البقرة

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(والله لولا الله ما اهتدينـــا) ــ صحيح البخارى .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

(سل الله تعـالى الهــدى والسداد ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وأذكر بالسداد تسديدك السهم) .

وهذا الحـــديث يدعــو الى الاستعانة بهدى الله فى الصغيرة والكبيرة من شئون حياتنا .

ثانيا : أسباب افاضة الهدى من الله :

تبين السورة أيضا أن الهــدى نعمة من الله تأتى نتيجـــة التوجه اليه بحمده والثناء عليــه بأسمائه الحسنى .. من حيث هو سبحانه المستحق وحده ــ للعبادة ..

ومن حيث هو سبحانه وحــده المستعان .

« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .

اياك نعبد .

واياك نستعين ..

« اهدنا الصراط المستقيم » .

ويتأيد ذلك بآيات أخرى أيضا تبين أن الله سبحانه يعطى الهدى لمن يأخذ بأسبابه .

يقول تعالى « **والذين جــاهدوا فينا لنهــدينهم ســـــبلنا** » ٦٩ **العنكبوت .. ويقول تعالى « يهدى به الله من اتبع رضوانه ســـبل السلام » .**

(١٦ المائدة)

ويقول تعالى « **ويهدى اليـــه من أناب** » .

(٢٧ الرعد)

ويقول تعالى« **هـــدى وذكرى لأولى الألباب** »

« ٥٤ غافر »

ويقول تعالى « **يا أيهــا الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لـــكم فرقانا** » .

(٢٩ الانفال)

يقول الغزالى : (أى نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من

الشبهات) • (١)

ويقول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة •

ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم (٢) •

ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار) •

ويقول تعالى :

(واتقوا الله ويعلمكم الله) •

ثالثا : اسباب منع الهدى :

تبين السورة أيضا ان الهدى لا يحصل عليه صنفان من الناس من يعادون الله فيغضب عليهم •

(غير المغضوب عليهم) •

ومن يستقلون بمنهجهم عن الله فيضلون :

(ولا الضالين) •

وتفصل الآيات الاخرى جوانب من اسباب منع الهدى •

يقول تعالى :

(والله لا يهدى القوم الظالمين)

٢٥٨ البقرة

(والله لا يهدى القوم الكافرين)

٢٦٣ البقرة

(والله لا يهدى القوم الفاسقين)

١٨ المائدة

(فان الله لا يهدى من يضل)

٣٧ النحل

(ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار)

٣ الزمر

(أن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب)

٣٨ غافر

(كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) •

٣٤ غافر

(ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)

٣٧ ابراهيم

---

(١) احياء علوم الدين جـ ٨ ص ٤١

(٢) قوله « تاه فيما يعلم » تصريح بضلال النظر التجريدى . والحديث صحيح رواه الامام مسلم والبخارى ، وهو حديث مشهور .

ويقول تعالى :

(فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) .

١٥٥ ، ١٥٦ النساء

ويقول :

(سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)

١٤٦ الاعراف

ويقول :

(فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) .

٧٧ التوبة

ويقول **(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)**

٥ الصف

ويقول :

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم) .

١ محمد

رابعا : نتيجة الهدى :

تبين السورة ان نتيجة الهدى هى الوصول الى « الصراط المستقيم » (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم) .

وفى هذا الصراط المستقيم يحصل اليقين المنشود الذى أثبتنا انه لا يمكن الحصول عليه بالجهود العقلية الذاتية ، المستقلة عن الله ،

ان العقل المتمرد أو المستقل يمكنه ان يصل الى شىء من الظن لكنه لا يصل مستقلا الى شىء من الهدى ، الذى تشعر فيه النفس بالطمأنينة والسكون واليقين .

ان الفلسفات والعلوم التجريبية التى يضل اليها العقل مستقلا خاضعة حتما لما تخضع له عقولنا من النسبية والنقصان .

لذلك فان ما نصل اليه اليوم من علم يظهر لنا نقصه غدا ، وما نزال

نكتشف بتقدم البحث جهلنا ، وهزال معارفنا ، وحاجتنا الى الهدى واليقين الذى لا تفرزه عقولنا .

وفى ظل هذه العلوم النسبية والفلسفات الناقصة يتقدم العلم التجريبى ويطرد الحصول على بعض منافع الدنيا ، لكن الانسانية لابدمن حركتها الى الامام — سواء عن طريق العلم أو الفلسفة — من أن يكون لها أهداف ثابتة واضحة ، راسخة على مدى الدهور ، والا كان ضلالها على أهدافها لا يمكن تلافيه أو الخلاص منه ، والعلوم النسبية تضل دائما عن الاهداف الراسخة .

ان دور العلم المحدود فى حياتنا ان صرح العلم العظيم يحتاج دائما الى من يحركه نحو هدف نضعه وفقا لعقائدنا .. اننا اذا ما سألنا عالما عن الطريق الذى يجب ان نسلكه ، فان الجواب الوحيد الذى نجده لديه هو : ان هذا يتوقف على المكان الذى نقصده، انه يتوقف على الهدف الذى نحدده .

وكما يقول الدكتور كيمينى — الفيلسوف العالم الذى عمل مساعدا لا ينشتين (علينا ان نقرر بوسائل غير وسائل العلم الهدف الذى نود بلوغه ، وبعدئذ يبرز دور العلم ، حيث يكون باستطاعته ان ينبئنا بكيفية المسير واتجاهه وأسرع الوسائل وافضلها لبلوغ الهدف)(١)

فهذا ليس من شأنها ، ولا يمت الى قدرتها بسبب ، ومن هنا كان الانسان بحاجة الى مصدر خارجى يهديه الى هذه الاهداف ، ويرسم لها الطريق .

(الصراط المستقيم)

وليس ثمة غير هدى الله :

« قل ان هدى الله هو الهدى »

١٢٠ البقرة

وخلاصة هذا البحث :

١ — ان مصدر الهدى هو الله .

٢ — ان اسباب افاضة الهدى من الله تكمن فى التعرض له ،

---

(١) الفيلسوف والعلم ص ٣٤١ .

والاخلاص فى طلبه منه سبحانه •

٣ ـــ ان اسباب الضلال عن هدى الله تكمن فى الاعراض عنه، والاتجاه الى مصادر من النظـــر أو العمل مقطوعة الصلة بالله •

٤ ـــ ان فائدة الهدى تحصـــيل اليقين ، الذى نحن بحاجة اليـــه لصـــــون النفس أولا ، وللعلم بالاهداف العليا والطريق اليهـــا ثانيا ••

دكتور يحيى هاشـــم

« الصـــبر »

قال خالد بن الوليد : ان الصـــبر عز ، وان الفشـــل عجـــز ، وان النصر مع الصبر •

وقال حكيم : الضعيف الصبور قوى بصبره ، والقوى الجزع ضعيف بجزعه •

وقال آخر : لا توجد العظمة بين الرجال الا حين يوجد الصـــبر •

القرآن والدراسات النفسية

للدكتور عبد الغني الراجحي

عالم الكائنات هو الكون الكبير وعالم الانسان هو الكون الصغير وخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس(١) والنفس البشرية لا تعدو أن تكون مظهرا من مظاهر الكون • والله سبحانه وتعالى برحمته وحكمته وجوده الذى أفاضه على جميع الكائنات قد تعهدها هى الاخرى بالاصلاح والتقويم والهدايات والامدادات التى يمد بها كل كائن لصلاح حاله واستقامة وجوده وكينونته • فهو الذى أحسن كل شيء خلقه •وهو الذى خلق فسوى • والذى قدر فهدى • وكل شيء خلقه بقدر وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى • ولعله مما يشير الى هذا المعنى ويؤكده بالنسبة للانسان صراحة هذا الاستفهام الانكارى الذى صدر الله به سورة الانسان حيث يقول : « **هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا • انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا • انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا** » خلق مادى تكويني وهداية وتربية حتى نهاية الطريق • لم تهمل البشرية ولم

---

(١) انظر سورة غافر آية ٥٧ وسورة يس : « اوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم » وسورة النازعات : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها » .

تحرم من الهدايات والنبوات على طول العصـــور والدهور • **« وان من أمة الا خلا فيها نذير »** •
سورة فاطر آية ٢٤ •

لابد اذن للقرآن الكريم الذى أنزله الله لصـــلاح النفوس الانسانية من أن تكـــون له فى بلاغته وأساليبه وهديه وتشريعه التصـــاقات بالنفس البشرية • ولمسات قوية لأعماقها وانفعالاتها وطبائعها وانطباعاتها ليستنى لـــه علاجها ومداراتهـــا كما يتسنى للطبيب علاج مريضه بوضع الدواء حيث يكون الداء • ولابـــد اذن وبالتالى أن يكون دارس القرآن ومفسره على معـــرفة بالنفس وغرائزها وانفعالاتها وكل ماتبحث فيه علوم النفس والاجتماع حتى يتسنى له الكشـــف عـــن عظمة القرآن وجلاله ، وأخذه بمجـــامع القلـــوب ، ونـــواصى النفـــوس وصلاحية مبادئه وأحكامه لكـــل زمان ومكان لأنه كتـــاب الفطرة والنفس البشرية حيثما كانت • ثم تفنيد وابطال مايوجه الى هـــذا القرآن العظيم من شـــبهات واتهامات تتعلق باعجـــازه وهديه وأحكامه وبلاغته ويمكن ابطالهـــا وردها من أقصر طريق على ضوء مقررات علم النفس الحديث الذى كان وليـــد النهضـــة العلمية فى العصور الحديثة والتى كانت بعد نزول القرآن بقرون كثيرة فيكون فى ذلك نمط من اعجاز القـــرآن شاهد بصدقه وحقيته ونزوله من عند الله ويكون الشأن فى ذلك كما وعد الله بقوله : **« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شـــهيد »** ســـورة فصلت السجدة •

ولنأخذ مثلا قضيـــة التكرار الذى جاء فى القرآن الكـــريم والذى كان مثـــارا للشـــبهات واتهامات توجه بسببه الى القرآن الكريم بدعوى أن التكرار لافائدة منه وأنه مخل بالبلاغة والأساليب البلاغيـــة وليس فيه أى جمـــال تعبيرى سواء كان المكـــرر لفظا بعينه كقوله تعالى : « دكا دكا »

وقوله تعالى : « صفا صفا » (١) • أم تكرار جمله وعبارة بعينها كقوله تعالى : « **ان مع العسر يسرا •• ان مع العسر يسرا** »(٢) وقوله « **كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون** » (٣) وقوله : « **ويل يومئذ للمكذبين** » (٤) وقوله : « **فبأى آلاء ربكما تكذبان** » (٥) وقوله : **فكيف كان عذابى ونذر**»(٦)وقوله: « **ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** » (٧) أم كان تكرار المعانى والعبارات بأساليب تختلف اطنابا وايجازا ،وتختلف فى بعض الألفاظ تقديما وتأخيرا وتنكيرا وتعريفا وذكرا وحذفا ، وابدال لفظ بآخر ونحو ذلك ، كالذى كان من تكرار قصص القرآن فى أكثر من سورة وأكثر من موضع تكرر القصة أو يكرر طرف منها مع الزيادة والنقص واختلاف طرق الأداء باختلاف العبارات والألفاظ • وان كان المعنى الأصلى واحدا أو كالواحد كالذى كان من تكرار قصص موسى وآدم ونوح وابراهيم وكثير من الرسل فى كثير من الآيات والسور وقد جاءت هذه الظاهرة أيضا فى غير القصص من آيات التوحيد والعقائد واليوم الآخر والحلال والحرام وسائر الأغراض التى سيقت لها آيات الذكر الحكيم •

عيب القرآن بذلك المستشرقون والباحثون الغربيون الذين هم بمعزل عن معرفة البلاغة العربية وادراك أسرارها وتذوق حلاوتها مهما استشرقوا ودرسوا من القرآن ولغة العرب • « ومن يك ذا فم مر مريض •• يجد مرا به

---

(١) سورة الفجر « كلا اذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا » ..
(٢) سورة الشرح •
(٣) سورة التكاثر •
(٤) سورة المرسلات •
(٥) سورة الرحمن •
(٦) سورة القمر •
(٧) سورة الشعراء •

المـــاء الزلالا » جاء فى دائرة المعارف البريطانيـة مادة قرآن ، قول الكاتب بعد أن أشار الى مافى القرآن من تكرار فقال : « وليس هناك مهارة أدبية عظيمة واضحة فى هذا التكرار الذى لالزوم له» .

وعيب القرآن بذلك الزنادقـة والملحدون منذ فجر الاسـلام . حيث يحكى الامام السـكاكى ذلك عنهم فى كتابه « مفتاح العلوم » فيقـــول : « ومنها — أى من اعتراضات الزنادقة على القرآن — انهم يقولون اننا نرى المعنى يعاد فى قرآنكم فى مواضع اعادة مـع تفاوت فى النظم بين حكاية وخطاب وغيبه وزيادة ونقص وتبـديل كلمات ، فـان كان النظـم الأول حسنا لزم فى الثانى الذى يضاده بنوع من الزيادة والنقصان أو غير ذلك أن يكون دونه فى الحسن ، وفى الثالث الذى يضاد الأولين بنوع مضاده أن يكون أدون ، وقرآنكم مشحون بأمثال ذلك فكيف يصـح أن يدعى فى مثله أنه معجـز ؟ والاعجاز يسـتدعى كونه فى غاية الحسن ، لا أن يكـون دونها بمراتب .

هذه هى قضية التكـرار فى القرآن ، وان كان لها جـذور فى أعماق الماضى البعيـد الا أنهـا كثيرا ماتثار فى أقوال المحـدثين من الباحثين ، فتأخذ أوضـاعا وأشكالا وتكييفات تتناسب مـع الزمن الذى تثار فيه ، فيجب أن تكون دراستها والرد عليها وتفنيد مطاعنها كذلك مكيفا ومتناسبا مع الزمن الذى يقال فيه ، وقد ذكـر علماؤنـا الأولون — طيب الله ثراهم — الردود القوية والمفحمة التى تتلخص فى أن التكرار اللفظى فى الكلمة والعبارة ظاهرة معروفة فى الكلام العربى والأسـاليب العربية التى نزل بها القـرآن العربى المبين ، وفائدته التأكيـد وزيادة التقرير فى نفس السـامع ووعيه ، لا يخل بشىء من فصاحة الكلام وبلاغته ، بل يريده فصاحة وبلاغة ، لاسيما اذا كان فى مقامات التضخيم والتهويل وعظائم الأمور وفحول المعانى ، واستشهدوا على ذلك بعشرات الشـواهد من بليغ

كلام العرب الذى نزل القـرآن بلغتهم ، وان تكـــرار المعنى الواحد بعبارات وأساليب مختلفة يعتبر فى القرآن الكريم زيادة على ما أشرنا اليه من حكمة التكـرار مقدرة فائقة ومعجـــزة خـارقة للعادة ، حيث يكون المعنى الأصلى واحدا لكنه تحدث بتكـــراره زيادات ومعان ثانوية وفنـــون متجددة من التعبـــير ، فيلبس الأسلوب فى كل موضع يقع فيـه المكرر ثوبا جديدا موشى بالحسن والرونق والجلال ، فـلا يزداد المكرر بالتكرار الا حلاوة ، وطلاوة ويكون المعنى الأصلى كالجوهـرة الثمينة التىتقلبها بينيديك ، وأمام ناظريك فتعطيك من كل جهـة من جهاتها وجها من وجوه الحســن ، تزداد لرؤيته نفســك ابتهاجا لاتستطيع أن تفضل وجها منهـا على وجه وذلك على خلاف المعهود فى كلام الناس ، فانه كلام البليغ والأديب اذا تكرر فى موضــوع واحد ومعنى واحد هجمت عليـه أعـــراض التخاذل والتفـاوت والتفكك ، وتبدل حاله وتردد بين الضعف والقوة على حسب تبـدل المزاج البشرى واختــلاف قواه وطاقته من حين لآخر حســب الطبيعة البشرية والقصــــور الانســــانى ، أضف الى ذلك أن العرب كانوا يقولون عن القـرآن حين يسمعونه :«قد سمعنا لونشاء لقلنا مثـــل هــذا ، ان هــذا الا أســـاطير الأولين ، اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا» فتحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، فعجزوا، فأخذ القرآن نفسه يكـرر المعنى الواحد والقصة الواحدة فى أكثر من موضع وبأكثر من أســـلوب ليوسع لهم فى مجال المعارضــة بالايجــاز تارة وبالاطناب أخـرى كأنه يعطيهم أنماطــا للامثــال المطلوب ، ومع كل ذلك فقــد عجزوا عجزا تاما عن أن يعارضوا القرآن أو يأتـــوا بمثله من أى أسلوب شاءوا ، فقد كان منهم من يجيد بطريقة الاطناب وأسلوبه ، وكان منهم من يجيـــد بطريقة الايجاز وأسلوبه ، فجاء القـرآن مجيدا بليغا بكل أســلوب ، فكان ذلك ضربا آخر منضروب الاعجاز

ينطق بأن القرآن ليس من كلام بشر ، ولكنه من كلام خلاق القوى والقدر .

يقول السكاكى فى كتابه مفتاح العلوم باب التقديم والتأخير : « ولله در التنزيل واحاطته على لطائف الاعتبارات فى ايراد المعنى الواحد على انحاء مختلفة بحسب مقتضيات الاحوال ، لا نرى شيئا منها يراعى فى كلام البلغاء من وجه لطيف الا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف الوجوه ، وانا ألقى اليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضىء بها فيما عسى أن يظلم عليك من تظاهرها ، اذا أحببت أن تتخذها مسارح فكرك ومطارح نظرك ـ . ثم أطنب » رحمه الله ـ بذكر أمثلة كثيرة لما أشار اليه ، نعتقد أن مراجعتها هناك لمن شاء مغنية عن الاطالة بذكرها هنا .. ويقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه اعجاز القرآن وتحت عنوان اسلوب القرآن : « وهنا معنى دقيق فى التحدى ما نظن العرب الا بلغوا منه عجبا ، وهو التكرار الذى يجىء فى بعض آياته فتختلف فى طرق الأداء وأصل المعنى واحد كالذى يكون فى قصصه وتوكيد الزجر بالوعد والوعيد ، وهو مذهب للعرب معروف لايذهبون اليه الا فى ضروب من خطابهم للتهويل والتوكيد والتخويف والتضجيع وما يجرى مجراها من عظائم الأمور ، لكن وروده فى القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته لقوة غريبة منه لأن المعنى الواحد يتردد فى أسلوب واحد بصورتين أو صور ، كل منها غير الأخرى ، وجها وعبارة ، وهم على ذلك عاجزون عن الاتيان بصوره ، ومستمرون على العجز لايطيقون ولا ينطقون . السكاكى ـ رحمه الله ـ ينقب عن حكمة دقيقة وعميقة لهذه الظاهرة حيث يرى أنها كانت للتبكيت والرد على الخصم لو قال عند تحديه بالقرآن بألفاظه ومعانيه قد سبق الى صوغها الممكن فكيف نأتى لها بالمثل ، فكأن القرآن

يقول له هذا هو المثل بل المثلان بل الامثال حسب عدد التكرار .

اننا بعد ذلك كله نستطيع بانعطافة بسيطة نحو دروب علوم النفس والاجتماع ان نجد فى مقرراتها التبرير النفساني والاجتماعي لوجود هذه الظاهرة ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم وانها وجدت فيه لاتصالها الوثيق بتحقيق الأهداف التى من أجلها نزل القرآن وذلك حيث يقول الدكتور غوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسى الاجتماعى المعروف فى كتابة « الآراء والمعتقدات » : « التوكيد والتكرار عاملان قويان فى تكوين الآراء وانتشارها واليهما تستند التربية فى كثير من المسائل ، وبهما يعتنى رجال السياسة والزعماء ، والتكرار هو التنمية الضرورية ، وهو يحول المكرر الى معتقد » وفى كتابه « روح الاجتماع »يقول :«للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات ، والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الانسان .

ويقول الأستاذ مظهر سعيد العالم النفساني الكبير فى كتابه علم النفس الاجتماعى : « على الداعى والزعيم أن يكثر من ترديد المسائل الهامة فى مناسبات عدة كأنه يلقنها للناس ، فذلك يكسبها قوة تستهويهم ، وقد ورد فى القرآن آيات التوحيد ونبذ الشرك ثلاثمائة وخمسين مرة والايمان والاعتقاد فى الله ثلاثمائة مرة ، ووصف جهنم لردع الناس مائة وتسعين مرة ، ووصف الجنة للترغيب مائة وخمسة وتسعين مرة وذكرت الصلاة مائة مرة وذكر الصبر كذا مرة .. ، ويقول الأستاذ أحمد أمين عالم الأخلاق الكبير فى كتابه (الأخلاق) : « من القوانين النفسية ان الفكرة اذا عرضت للمخ ورحب بها وقتا طويلا اثرت فيه أثرا كبيرا ثم تحولت الى عمل وان الفكرة الأول عرضها تؤثر فى المخ اثرا ما وكلما تكررت كبر أثرها وسهل ورودها وانتجت العمل لا محالة ثم يصير ذلك عادة بالتكرار ، وقد ترفض الفكرة الأول

مرة ، ولكن كثرة ورودها على المخ تجلعه يقبلها » •

ويمكننا نحن أن نضيف الى ذلك كله أننا نرى فى عصورنا الحديثة التى نضجت فيها علوم النفس والأجتماع كيف يعمد أصحاب الدعوات والدعايات الى التكرار فى نشراتهم واعلاناتهم مع التلوين فى عباراتها على غرار ما جاء فى كتاب الله قبل أن تخلق علوم النفس والاجتماع ، وأنه كان من مظاهر ذلك أن القرآن الكريم ابتعد عن الافراط فى الجدل والقياسات المنطقية التى لا تلزم الخصم الا فى الظاهر ، لأنه الاقرار النفسى والانقياد الجوابى الباطنى والامتثال النابع من الأعماق انما يكون الاعتماد فى تكوينه على الموعظة الحسنة والتأثير بالوحدانيات ، الأمر الذى اشاد به وامتدح نفسه به القرآن الكريم نفسه ، حيث يقول الله تعالى فيه:

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى من يشاء .. ومن يضلل الله فما له من هاد » •

سورة الزمر آية ٢٣ •

وبعد :فاذا كان ذلك كذلك وكان التكرار فى القرآن ضربا من ضروب عظمته وجلاله وكان الجاهلون قد عيبوه به ، فما الأمر فى ذلك الا كما قال القائل •

اذا محاسنى اللاتى أدل بها
كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر ؟

د : عبد الغنى الراجحى

* * *

مع العلامة الندوى فى روائع إقبال

عرض : للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

مقـــــدمة :

يقول الجرجـــــانى : « ان من كمال الجمال البلاغى أن تـــــكون مادته الخير والفضيلة » ، والأدب الهادف هو أعظم ما يقصده النقاد ويدعون اليه ، وهو أن تكون لـــه رسالة ســامية ينشرها ويدعـــو لتحقيقها ، والأديب الحـــق رسول يجمل بيده مشعل الحب والحــــق والحرية ، ويبحث بكل مافى ضميره من شوق وشغف وما فى نفسه من نشاط واخــــلاص عن مصـــدر السعادة والمعرفة فى الحياة ليهدى اليها نفوس البشر الحائرة ــ كما يقرر ذلك بعض الأدباء .

وان ذلك لينطبق تمــاما عـــلى شاعر الاسلام محمد اقبال الذى يقول العلامة الندوى عنه فى كتاب صدر له بعنوان « روائع اقبال » ان أعظم ما حملنى على الاعجــاب بشعره هو الطموح والحب والايمان وقد تجلى هذا المزيج فى شعره وفى رسالته أعظم مما تجلى فى شـــعر معاصر ، ورأيت نفسى قد طبعت على الطموح والحب والايمان وهى تندفع اندفاعا قـــويا الى كل أدب ورسالة تبعثان الطمـــــوح وسمو النفس وبعد النظر والحرص على سيادة الاسلام وتسخير الـــــكون لصالحه والسيطرة عـــــلى النفس والآفاق ، ويغذيان الحب والعاطفة ويبعثان الايمــــان بالله والايمـــان بمحمد صلى الله عليـــــه وســلم وبعبقرية سيرته وخلود رســالته

وعموم امامتـــه للأجيـــال البشرية كلها .

وهذا تعليل معقول لاقبـــال العلامة أبو الحسن النـــدوى ــ وهو أستاذ جيـــل ورائد من رواد النهضة الاسلامية ، وحبه لدينـــه وأمته الاسلامية مازال منبعـــا ثرا فياضا بالخير والعطاء نرجو اللـــه أن يمتد الى أن تتحقق آماله وآمال المسلمين فى نهضة عظيمـــة تؤتى أكلها وثمارها شهية يانعة باذن الله ــ هـــذا تعليل مقبول لاقبـــاله على شعر اقبـــال ذلك الشـــاعر الاسلامى الذى يعد فلتـــة من فلتات التاريخ ، فيقدم لنا باقات منه فى هذا الكتاب الذى أصدرته دار القلم فى طبعة ثالثة بعـــد أن نفدت طبعتاه الأولى والثانيـــة فى وقت وجيز .. ويقدم بين يـــدى هذه الباقات دراسة مستفيضـــة للشاعر وشعره نوجزها فيما يلى :

شـــاعر الاســـلام :

أما اقبـــال فقد تضـــافرت العوامل المهنية لتكوين شخصيتـــه الفذة لتخرج منه شاعرا اسلاميـــا لا يشق له غبار ، فقد نشأ فى ظلال أب صوفى فى بيئة عرفت بالصلاح والتصوف فى مدينة : « سيالكوت » البنجابية ، وكان له أستاذ يعلمـــه الفارسية والعربية من نـــوادر المعلمين الذين يطبعـــون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثـــون فيهم ذوق العلم ، فأثر فى الشاب الذكى أكبر تأثير وغـــرس فيه حب الثقـــافة والآداب الاســـلامية ، وكان لديه الاستعداد الخاص لتلقى العلـــم والطبـــع الصافى لقول الشـــعر والاستجابة السليمة والانفعـــال الصادق والمثابرة المستمرة ، حتى انه لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره حتى حقق نجاحا منقطـــع النظير فى العلم والتدريس والقـــاء المحاضرات فى مختلف العواصم ، ونبغ فى كثير من المواد ومنها مادة الاقتصاد والسياسة التى نال فيها اجـــازة الدكتوراه من جامعـــة « ميونيخ » فى ألمانيا .

لقد طوف اقبـــال فى كثير من البلدان التى ترك فى كل منهـــا أثرا لا ينسى ، ومن بينها : « صقلية » بلد القائد جوهر الصقلى قـــائد

المعز لدين الله الفاطمى ومنشىء القاهرة والازهر وسكب على ترابها دموعا وقال قصيدة افتتحها بقوله :

« ابك أيها الرجل أدمعا لا دمعا
فهذا مدفن الحضارة الحجازية »

لطالما حز فى نفس اقبال ذلك التأخر الذى أصاب المسلمين ونظم فى ذلك قصائد رائعة ومن بينها تلك القصيدة التى يعتب عليهم فيها ضعفهمويشكو الى الله علىلسانهم ماحل بهم ، مذكرا لهم بأعمالهم الخوالد فى سبيل الله وفى الجهاد من أجل الاصلاح .. وأبان فى قصيدة أخرى على لسان الحضرة الالهية أن ما أصابهم من ضعف وتأخر انما كان بسبب اهمالهم للدين وعدم اتقانهم أمر الدنيا فاستحقوا الخزى والهوان ، ولقد كان لهاتين القصيدتين أثر كبير بين الناس ، فقد تغنى بهما الاطفال وحفظهما الرجال والنساء وأصبحتا مشهورتين تماما .

لقد كان فى شعره كله مبتكرا ، فى الأسلوب والمعانى وقوة العاطفة وروعة الأخيلة ، ما يقول قصيدة حتى تصبح أسير من المثل الذائع ، ومازال نشيده الوطنى ، وأنشودة المسلم لهما دويهما الرائع فى الأوساط والحفلات والمجتمعات .

كما كان للأحداث التى تنتاب الأمة العربية أثر كبير فى جيشان عاطفة الشاعر واثارة مشاعره حتى انه أصبح عدوا لدودا للحضارة الأوربية التى أقامت بنيانها على تقويض حضارة العرب والاسلام وله فى ذلك قصائد لا يشق له فيها غبار ، وقد نص على الزعماء الاسلاميين الذين ليست لهم بقائدهم الأعلى المصطفى صلى الله عليه وسلم صلة روحية ، حتى لقد أنشأ قصيدة بعنوان « شكوى الى الرسول » يقول فيها : أنا برىء من أولئك الذين يحجون الى أوربا ويشدون اليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبدا فى حياتهم ولا يعرفونك .

كما أنه أنشأ قصيدة من وحى أحداثطرابلس سنة ١٩١٠ بعنوان « هدية الى الرسول » جاء فيها :

أنه حضر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ماذا حملت الينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا وقال : انها لا تليق بمقامكم الكريم ولكننى جئت بهدية يتجلى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس .

وكان له موقف لا يبارى من الحرب العالمية الأولى حيث انفجر البركان الأوربى عام ١٩١٤م ففاض خاطره بالقصائد الرائعة التى تفيض بالحكمة والتجربة الصادقة والحماس للاسلام ، وكان تاج هذه القصائد قصيدة « طلوع الاسلام » التى لا يوجد لها نظير فى الشعر الاسلامى فى القوة والانسجام .

اختيار الفارسية لشعره :

وظل فكر اقبال يتسع وأفق معارفه يزداد حتى انتظمت دعوته واتضحت رسالته ، فنشر له عدة كتب فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من اللغة الأردية وهى اللغة الاسلامية التى تلى اللغة العربية فى الأهمية والانتشار فى العالم الاسلامى ، ويتكلم بها قطران مهمان هما ايران وأفغانستان ، وتفهم فى الهند ويحذقها كثير من أهلها وأهل تركستان وروسيا وتركيا .

وقد ذاعت مؤلفاته وشعره وترجم أكثر كتبه الى مختلف اللغات ، وألفت فى ألمانيا وايطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب رئيسا لحفلة الرابطة الاسلامية السنوية التى عقدت فى « اله آباد » سنة ١٩٣٠ م وأثار فكرة باكستان لاول مرة ، وتقلب فى عدة مناصب رئيسية وسياسية هامة ، ودعى الى عدة دول من بينها : فرنسا وأسبانيا وايطاليا ، وألقى عدة محاضرات اسلامية ، وزار فى أسبانيا مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة فى التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعا غزارا وتذكر العرب الأوائل الذين حكموا هذه البلاد عدة قرون واستنشق عبير حضارتهم ، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو اليه حرمانه

من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو اليه بعد عهده من الاذان ، وكان فى زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة وتكريم بالغين •

رفضه زيارة المستعمرات الفرنسية

وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها فى شمال افريقية ، ولكن الشاعر الغيور رفض ذلك ، كما رفض أن يزور جامع باريس وقال كلمته المشهورة : ان هذا ثمن بخس لتدمير دمشق واحراقها •

ولقد ظل طول حياته يؤرقه حال المسلمين ، وقد وقف شعره على دعوتهم الى النهوض ورثاء أحوالهم وتذكيرهم بماضيهم المجيد لعلهم يحلون به مستقبلا مشرقا زاهرا ، ولم يقعده انحراف صحته ومعاودة العلل له عن رسالته وقال قبل أن يلفظ أنفاسه بعشر دقائق : ليت شعرى هل تعود النغمة التى أرسلتها فى الفضاء ؟ وهل تعود النغمة الحجازية ؟ قد أظلنى موتى وحضرتنى الوفاة ، فليت شعرى هل حكيم يخلفنى ؟

وقال وهو يجود بنفسه : أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت باسما •

وكان ذلك آخر برهان أقامه على صدق الاسلام وايمان المسلم ويقينه ، وغربت هذه الشمس التى ملأت القلوب حرارة ونورا قبل أن تطلع شمس الحادى والعشرين من ابريل عام ١٩٣٨ م •

العوامل التى كونت شخصيته :

لقد جمع اقبال بين مختلف الثقافات العصرية واردا مناهلها فى مختلف الأمصار والبلدان ، ولكنه لم يكتف بذلك ، ولكنه كان يرد الفضل الأول فى تكوين شخصيته الى تعاليم المدرسة الالهية والتربية الروحية التى تشرب بها قلبه ووجدانه • لقد كان شديد الايمان بالاسلام وقوى الاخلاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقتنعا بأن الاسلام هو الدين الخالد الذى لا تسعد الانسانية الا به ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل والبصير بالسبل وامام الكل •• ولقد كان هذا

سببا فى تماسكه أمام المادة ومغرياتها ، فالحب خير حارس للقلب وحافظ له ، فما بالك اذا كان هذا الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ استمع اليه وهو يقول فى ذلك : « لم يزل فراعنة العصر يرصدوننى ويكمنون لى ، ولكنى لا أخافهم فانى أحمل اليد البيضاء ، ان الرجل اذا رزق الحب الصادق عرف نفسه واحتفظ بكرامته واستغنى عن الملوك والسلاطين . لا تعجبوا اذا اقتنصت النجوم وانقادت لى الصعاب ، فانى من عبيد ذلك السيد العظيم الذى تشرفت بوطأته الحصباء فصارت أعلى قدرا من النجوم ، وجرى فى أثره الغبار فصار أعبق من العبير » .

ولم يزل حبه للنبى يقوى ويسيطر عليه حتى اذا كان فى آخر عمره اذا جرى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فاضت عيونه بالدموع الغزار ، وقد ألهمه ذلك دررا غوالى ستظل على الدهر تتحدى الشعراء البلغاء ، ومن هذه المعانى العجيبة فى شعره قوله وهو يناجى الله عز وجل : « أنت غنى عن العالمين وأنا عبدك الفقير، فاقبل معذرتى يوم الحشر ، وان كان لابد من حسابى فأرجوك يا رب أن تحاسبنى بنجوة من المصطفى صلى الله عليه وسلم فانى أستحيى أن أنتسب اليه وأكون فى أمته وأقترف هذه الذنوب والمعاصى » .

الشعر والحب :

ان هذا الايمان وهذا الحب العميق هو الذى كون شخصيته الشعرية ، ولا عجب : فان من تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق والعلم العميق والحكمة الرائعة والمعانى البديعة ، والى الايمان والحب يرجع الفضل فى غالب عجائب الانسانية والآثار الخالدة .

ان الشخص اذا تجرد من الحب أصبح صورة من لحم ودم ، والأمة اذا تجردت منه أصبحت قطيعا من غنم ، والشعر اذا تجرد منه كان كلاما موزونا مقفى فحسب ، والعبادة اذا تجردت منه أصبحت

طقسا من الطقوس وهيكـــــلا بلا روح ، والحياة بدونه تصبح طبعا كليلا وقريحة جامدة وعقلا مجدبا وشعلة خابية ومواهب معطلة .. هذا اذا كان الحب صادقا خالصا لا زيف فيه .

وهذا الحب الصـــادق للحقائق والمعانى الباقية هو الذى يتفاضل به العظماء وهو المقيـــاس الحقيقى لقوتهم ، لقد جنت المدنية الحديثة على الانسانية جناية عظيمة لأنها قضت على هذه العاطفة التى كانت قوة كبرى ومنبعا فياضا للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمـــادية أو الحب الجنسى والغرام المادى ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضـــيق تفكيرها أن تفهم أن هناك حبــــا للمعانى السامية أقوى من هـــــذا الحب الرخيص . لقد أســـــاءت المدرسة العصرية اذ لم تحتفل بهذه العاطفة النبيلة والوجدان الصادق ولم تحسن توجيه القلوب واشعالها بحرارة الايمان .

القرآن الكريم وأثره :

وهناك عامل آخر أثر فى تكوين شخصية اقبال وشعره : هو القرآن الكريم الذى أثر فى عقليته ونفسه تأثيرا كبيرا . لقـــد أقبل عـــــلى قراءته بشوق ونهم وتذوق وقال فى ذلك : « قد تعمدت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبى يرانى فيسألنى : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألنى سؤاله فأجيبه جوابى ، وذات يوم قلت له : مابالك يا أبى تســــألنى نفس السؤال وأجيبك جوابا واحدا ثم لا يمنعك ذلك عن اعادة السؤال من الغد ؟ فقال : انمـــــا أردت أن أقول لك : يا ولدى اقـــرأ القرآن كأنما نزل عليك .. ومنــــــذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبـــل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت » .

ولم يزل اقبال الى آخر عهـــده بالدنيا يغوص فى لجج القـــــرآن فيخرج بعلم جديد واشراق جديد ، وكلما تقدمت دراسته واتســـعت آفاقه ازداد ايمانا بأن القـــرآن هو الكتاب الخالد والعلـــم الأبدى وأساس السعادة ، ولم يزل يدعو

المسلمين وغير المسلمين الى التدبر فى هـذا الكتـاب العجيب وفهمـه ودراسته والاهتداء به فى مشكلات العصر ، وحينما زار أفغانستـان قدم الى الملك نادرخان نسخة من القرآن الكريم وقال له « ان هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، فى ضميره الحياة وفيه نهاية كل بداية وبقوته كان على فاتح خيبر » فبكى الملك وقال : لقد أتى على نادرخان زمان وماله أنيس سوى القـرآن وهو الذى فتحت قوته كل باب .

معرفة النفس :

ويضاف الى ما سبق عامل هام هو معرفة النفس ، والغـوص فى أعماقها والاعتداد بقيمتها ، كـان يخاطب غيره بقوله الذى يؤمن به « انزل فى أعماق قلبك وادخل فى قرارة شخصيتك حتى تكتشف سر الحياة ، ما عليك اذا لم تنصـفنى وتعرفنى ، لكن أنصف نفسـك واعرفها وكن لها وفيـا ، ما ظنك بعالم القلب ؟ هو كله حرارة وسكر وحنان وشوق .. أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال . ان ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أمـا ثروة الجسم فظل زائـل ونعيم راحل . ان عالم القلب لم أر فيه سلطة الافرنج ولا اختلاف الطبقات لقـد كدت أذوب حيـاء وينـدى جبينى عرقا اذ قال لى حكيم : اذا خضعت لغـيرك أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك » .

يستطيع العبد أن يسمو بنفسه الى درجة المـلوك بل يعلوهم اذا كان جريئا مقداما ، ويقول اقبـال فى ذلك : « ان الانسان اذا عـرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك بآداب هذه المعـرفة انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك » .

ومن أجل هذا الاعتداد بالنفس كان اقبال يرفض الرزق الذى يقيد حريته ، وتراه يقـول فى ذلك : « يا صاح ان الموت أفضل من رزق يقص من قـوادمى ويمنعنى من حرية الطيران » .

ومع اعتداده بنفسـه لم يكن صلفا أو مغرورا ، وفرق كبير بـين الغـرور والاعتزاز بالـكرامة والمحافظة عليها ، وقـد رفض فى

سبيل ذلك كل عرض رأى فيه جرحا لكرامته ، عرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك فى أفريقية الجنوبية — ومن تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة تستقبل الضيوف فى الولائم الرسمية وتشارك زوجها فى حضور الاحتفالات ، فرفض هذه الوظيفة وقال : « مادام هذا شرطا لقبول الوظيفة فلا أقبله لأنه اهانة دينى ومساومة كرامتى » .

كان طرازا جديدا فى شاعريته ولذلك لم يحذ حذو الشعراء التقليديين فى انشاء قصائد المناسبات ، وهذا اعتزاز آخر بشخصيته وكرامته ، انه ينأى بنفسه أن يكون بوقا يهتف مع الهاتفين ويمشى فى ركاب العظماء والسلاطين .

رسالة الشعر :

لقد ركز اقبال فكره وشعره على بعث الحياة والروح فى المسلمين وايجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم والايمان برسالتهم ، وكان شاعرا مطبوعا فلو أريد له أن يكون غير شاعر لما استطاع ، وكان مع ذلك مبدعا سلم له شعراء عصره بالامامة والاعجاز وتأثر به كافة الشعراء .

يتميز شعره بابتكار المعانى وجدة التشبيه والاستعارات ، وساعده على ذلك اتصاله بالشعر الانجليزى والالمانى والفارسى ، الا أن أهم ما يتميز به اقبال هو أنه أخضع شاعريته القوية وعبقريته لرسالة الاسلام .

لقد وقف على الاسلام شعره واستخدمه كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء فتكون أسرع وصولا ، ولطيب الازهار نفحات الهواء فيكون أكثر انتشارا ، وبذلك الشعر : أيقظ أمة وأشعل قلوبها ايمانا وحماسا وطموحا الى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم الاسلامى ، حتى أصبحت هذه الامة لا ترضى الا بدولة تحكمها وتدير دفتها .

ولا نعرف شاعرا أو أديبا يرجع اليه الفضل فى تأسيس دولة وتهيئة

النفوس لها مثل ما يرجع الى هذا الشاعر الاسلامى . كان شـعره هو الـذى أقام دولة باكسـتان ، وهيأ الثورة الفكرية لها .

وكم ضـاع رجال من العباقرة وأصحاب المواهب لأنهم لم يحسنوا تقدير أنفسـهم ، وباعوا أقلامهم وضمائرهم بالمـزاد العلنى وقتلوا مواهبهم « وما ظلمهم الله ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

اقبال والطبيعة :

ومن العوامل المؤثرة فى شـعر اقبال اتصـاله بالطبيعة من غـير حجـاب ، وتعرضـه للنفحـات السحرية ، يقوم آخر الليل مناجيا ربه شاكيا بثه وحزنه اليه ، فيتزود بنشاط جديد واشراق قلبى جديد وغذاء فكرى جديد ، ويطلع كل يوم على أصدقائه وقرائه بشعر جديد، فيه قوة جديدة وحياة جديدة ونور جديد ، وكانت سـاعات السـحر رأس ماله يقـدرها حق التقـدير ويقول فى ذلك : « كن مثل الشيخ فريد الدين العطـار فى معرفتـه وجلال الدين الرومى فى حكمته أو أبى حامد الغزالى فى علمه وذكائه وكن من شئت فى العلم والحكمـة ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة فى السحر » وكان يقـول : « خذ منى ما شـئت يارب ولكن لا تسـلبنى اللـذة بأنة السـحر ولا تحرمنى نعيمها » .

وكان يتمنى على الله أن يشعر بهذه الساعة شباب الامة المتنعمون فتتحرك لها سواكن قلوبهم ،ويبتهل قائلا : « اللهم اجرح أكباد الشباب بسـهام الآلام الدينيـة ، وأيقظ الآمال والامانى النائمةفى صدورهم بنجوم سماواتك التى لا تـزال ساهرة وبعبـادك الذين يبيتـون سجدا وقياما ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الاسـلامى لوعـة القلب وارزقهم حبى وفراستى ».

تأثره بجلال الدين الرومى :

ولقد كان للمثنوى المعنوى الذى ألفه «جلال الدين الرومى» فى ثورة وجدانية ضد الموجة الاغريقية التى اجتاحت العالم الاسلامى فى عصره أثر كبير فى نفس اقبال وشعره ، لقد انتصر جلال الدين الرومى فى

هــــذا المثنوى للايمان ، وانتصف للقلب والــروح والحب الصــادق والمعانى الصــافية من المبــاحث الكلامية الجافة والقشور الفلسفية التى كانت تشغل أذهان المسلمين وأوســاطهم العلمية ومدارســهم الدينية •

وكان عصر اقبال يشبه الى حد كبير عصر جلال الدين وزاد عليــه ما أنتجته المدنيــة الاوربيــة من مخترعات صــناعية وآلات للدمار صــبغت الحيــاة بصــبغة مادية أرجوانية ، حتى مكث اقبال فترة يتنازعه عاملان : عامل العقل وعامل القلب ، وكان للمثنوى أثره الكبير فى انقاذه من هــذا الاصــطراع الفكرى والاضطراب النفسى ،وقد اعترف بذلك الفضل للمثنوى فقال للمأخوذين بعلم الغرب « قد سحر عقلكسحر الافرنج ، فليس لكدواء الا لوعة القلب الرومى وحــرارة ايمانه ، لقد استنار بصرى بنوره ووسع صدرى بحرا من العلوم » وقال أيضا « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم ، وان كليما واحــدا ــ يشير الى سيدنا موسى ــ هامته على راحته يغلب ألف حــكيم قد أحنوا رءوسهم للتفكير » • وكان يتوق الى أن يحمل رسالة الرومى ويجدد علمه فى القرن العشرين ، ولكنه كان يعترف بتفوق جلال الدين عليه فى الجانب الروحى ولذلك قال فى احدى قصــائده : « لم ينهض رومى آخر من ربوع العجم مع ان أرض ايران لا تزال على طبيعتها ولا تزال تبريز كما كانت ، الا أن « اقبال » ليس قانطا من تربتــه فاذا سقيت بالدمــع أنبتت نباتا حسنا وأتت بحاصل كبير » •

اقبال ونظم التعليم :

جنت المدرسة الحديثة فى نظــر اقبال على هذا الجيل جناية عظيمة لأنها اهتمت بعقله ولسانه وغفلت عن قلبه ووجدانه • ولذلك أنشأت جيلا غير متوازن القوى وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه شاسعة، وهو يقول فى ذلك « ان الشــباب المثقف فــارغ الاكــواب ظمــآن الشفتين ، مصــقول الوجه مظلم الروح ، مستنير العقل كليل البصر ضعيف اليقين كثــير اليــأس ، لم

يشاهدوا فى هـذا العالم شـيئا ، هؤلاء الشبان أشـباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، يبنى الاجانب على ترابهم الاسلامى كنائس وأديارا ، شباب ناعم رخو رقيق فى الثياب كالحرير يمـوت الامل ـ فى مهـده ـ فى صدورهم ، ولا يسـتطيعون أن يفكروا فى الحرية • ان المدرسـة نزعت منهـم العاطفـة الدينيـة وأصبحوا خبر كان • أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم عن شخصياتهم شـغفتهم الحضـارة الغربيـة ، فيمـدون أكفهـم الى الاجـانب ليتصـدقوا عليهم بخبز شـعير ، ويبيعـون أرواحهم فى ذلك • ان المعلم لا يعرف قيمتهم فلم يخبرهم بشرفهم ولم يعرفهم بشخصيتهم، مؤمنون ولـكن لا يعـرفون سر الموت ولا يؤمنون بأنه لا غالب الا الله ، يشترون من الافرنج اللات ومناة ، مسلمون لكن قلوبهم تطوف حول الاصنام • ان الافرنج قـد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة وقلوب قاسية وعيون لاتعف عن المحـارم وقلـوب لا تـذوب بالقوارع ، كل ما عندهم من عـلم وفن ودين وسياسـة وعقل وقلب يطوف حـول المـاديات ، قلوبهم لا تتلقى الخـواطر المتجـددة ، وأفكارهم لا تساوى شيئا ، حياتهم جامدة ، واقفة ، متعطلة » •

ويرجع السـبب فى كل هـذه الظواهر الى نظم التعليم الحاضرة ذلك :

ـ أن التعليم الآن يبعث عـلى التعطل وحب الهـدوء والراحـة ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء لا حركة فيه ولا اضطراب •

والتعليم الآن يحـدث الفوضى الفكرية ويقـول فى ذلك : « أن المدرسة تحرر العقل بلا شك ولكنها تتـرك الافكار بغـير نظـام ولا ارتباط » •

ـ والمدرسـة الآن تقـوم على التقليد والجمـود ومجـردة من الابتكار والاجتهاد ، انه يرى أن هذا الجيل ليس حيا قائما بنفسـه مفكرا بعقله، ولكنه ظل لأوربا وأن حياته مستعارة من الغرب •

ـ لقد أضعف نظام التعليم الغربى الروح المعنوية فى الشباب المسلم وجنى على رجولته ،فأصبح شبابا رخوا رقيقا مائعا ، لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المكروه •

انه يطالب المعلم بأن يعلم ابناءه المثل الاسلامية التى درست فى نفوس الشباب حتى تعود اليهم شخصيتهم الايمانية والمحمدية ، وكان لا يغتفر للغرب جريمة جنايته على نظم التعليم فى بلاد الاسلام ، ويقول فى ذلك : « أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزنا ، الحكمة التى تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزلا ضعيفا » •

رسالة الأدب :

يرى اقبال أن الأدب موهبة من الله يحدث به صاحبه ثورة فكرية تضرب الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية ، وتشعل القلوب حماسة والبلاد ثورة ، وتملأ النفوس تذمرا من الشر وتطلعا الى الخير ، فلابد أن يكون فى قلم الاديب التأثير الذى فى عصا موسى ، وأن يؤدى رسالته فى العالم ، وكل أدب استغل لجمع المادة أو لارضاء الأغنياء واثارة الشهوات أو اتخذ أداة للهو والتسلية فهو أدب ضائع مظلوم استعمل لغير ما خلق له •

والأدب لا يصل الى حد الاعجاز الا اذا استمد حياته وقوته من أعماق القلب الحى وسقى بدمه ، ومهمة الأدب والشعر تظهر فى قوله « يا أهل الذوق والنظر العميق ، أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أى قيمة للنظر الذى لا يدرك الحقيقة ، لا خير فى نشيد شاعر ولا فى صوت مغن اذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله فى نسيم السحر اذا لم تستفد منه الحديقة الا الفتور والخمول والذوى والذبول • ما قيمة شرارة تلتهب سريعا وتنطفىء سريعا ، وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اضطراعا فى الأمواج ولا اضطرابا فى البحار ، لا نهضة للأمم الا بمعجزة فى أدب ولا شعر اذا تجرد من عصا موسى » •

لقد استعبدت المرأة — فى نظر اقبال — الأديب فى الشرق الاسلامى ، فأصبح لا يتحدث الا عنها ولا يتغنى الا بها ، وهذه عقيدة جديدة فى وحدة الوجود التى يمكن ان تسمى الوجودية الأدبية ، وكأن الأدب العصرى ينادى بلسان حاله لا موجود الا المرأة « أسفا للشعراء والرسامين وكتاب القصة فى بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة » ولا شك أنه تصوير صادق للاتجاه الأدبى العام فى الشرق الاسلامى واندفاع الأدب المتهور وراء المرأة وهيامه بها .

ورأيه فى الفلسفة :

يرى اقبال أن الفلسفة لا تعيش الا بالجهاد والتضحية ، والفلسفة التى تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية وتتلهى بالمناقشات اللفظية ، ولا تدخل فى صميم الحياة والمجتمع هى فلسفة منهارة انه يقول « ان الفلسفة التى لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة » .

لقد انتهى اقبال من دراسة الفلسفة الى اقتناعه باخفاقها فى حل المشكلات الحيوية ، وشبهها بالصدفة اللامعة الخالية من اللؤلؤ مادامت هذه الفلسفة فى معزل عن الحياة والكفاح .

والدين فى رأيه هو الذى ينظم المجتمع وينير الطريق ،ويقدم دستور الحياة ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو المصدر الوحيد الذى يستفاد منه هذا العلم . يقول فى رسالة الى صديق له من الهاشميين كان مشغوفا بالفلسفة حتى تزلزلت عقيدته الاسلامية : « ان الحكمة الفلسفية ليست الا حجابا للحقيقة وأنها لا تزيد صاحبها الا بعدا عن صميم الحياة وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل . هذا « هيجل » الذى تبالغ فى تقديره ان صدفته خالية من اللؤلؤة ، وان نظامه ليس الا وهما من الأوهام . لقد انطفأت شعلة القلب فى حياتك أيها السيد وفقدت شخصيتك فأصبحت أسيرا « لبرجسان » . ان البشرية تريد أن

تعلم كيف تتقن حياتها وكيف تخلد شخصيتها . ان بنى آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستور الحياة ولكن الفلسفة لا تساعدهم فى ذلك . بالعكس من ذلك ان المؤمن اذا نادى بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون . ان الدين هو الذى ينظم الحياة وأنه لا يكتسب الا من ابراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فعليك أيها السيد بتعاليم جدك صلى الله عليه وسلم . الى متى يا ابن على رضى الله عنه تقلد أبا على بن سينا ؟ اذا لم تكن بصيرا بالطريق فالقائد القرشى خير لك من القائد البخارى » .

هو والشباب المسلم :

انه يتمنى للاسلام جيلا جديدا ، شبابه طاهر نقى ، وضربه موجع قوى ، فى الحروب أسد الشرى وفى السلام غزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الاعداء وذاك مع الأولياء ، وهو فى حالتى الحرب والصلح عفيف نزيه ، آماله قليلة ومقاصده جليلة ، غنى القلب فى الفقر ، فقير الجسم والبيت فى الغنى ، غيور فى العسر ، رءوف كريم فى اليسر ، يظمأ ان أبدى له الماء منة ، ويموت جوعا ان رأى فى الرزق ذلة ... يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب فى ظلمات الصحراء ، يعرف فى محيطه بحكمته وفراسته وبأذان السحر ، الشهادات فى سبيل الله أحب اليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ويصطاد الأسود ، ويبارى الملائكة ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد فى سعره حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق فى اللباس ، وشعر بانسانيته فترفع عن تقليد الطاووس فى لونه والعندليب فى حسن صوته » .

الحضارة الغربية :

لاحظ اقبال جوانب الضعف الأساسية فى حضارة أوربا ، لأنها اتجهت اتجاها ماديا صرفا ، ولأن أصحابها ثاروا على الديانات والقيم الخلقية والروحية ، وعلل فساد

القلب والفكر الذى اتسمت به هذه الحضـــارة بأن روح هذه المدنية ملونة غير عفيفة وبأنه استولى عليها القلق الدائم « لقد أظلم الجـو فى عواصمها بدخان المصانع المتصـاعد الكثيف ولكن بنيتهـــا على كثرة أنوارها غير متهيئة لفتح جـديد فى الفكر واشراق من عالم الغيب » •

وقد أشار الى أساس الحضـــارة اللادينية بأنها عجنت مع الثورة على الدين فهى فى خصـومة دائمة مع الـدين والأخـــــلاق وهى عاكفة على عبادة آلهـة المادة ، ان القلب يعمى بتأثير سحرها والروح تموت عطشا فى سرابها ، انهـا لص تمرن على اللصوصية فيغير نهـارا جهارا ، انها تدع الانسان لا روح فيه ولا قيمة له ، ان شعار الحضارة الحديثة الفتك ببنى آدم الذى تقوم عليه تجارتها ، ليست هذه المصارف الا وليدة دهاء اليهود الأذكيـــاء والذى انتزع نور الحق من صـــدور بنى آدم ••• وليس غريبا أن تنهار هذه الحضارة وشيكا ، وان لم تمت حتف أنفهـا فســتنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، فان كل وكر يقوم على غصـــن ضـــعيف ليس له استقرار •

ان اقبال يصف المجتمع الاوربى ـ على اختلاف نظمه الرأســمالية والاشـــتراكية ـ بمجتمع يحركه تنافس وحشى ، ويصف حضـــارته بحضـــارة فقدت وحدتها الروحيـــة بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم الســـياسية • ان الرأســمالية والشيوعية فرعان من دوحة المـــادية ، وهما أسرتـــان للحضـــارة الغربية احداهما شرقية والاخرى : غربيةتلتقيانعلىالنسب المادى ، والتفكير المادى ، وللنظـــر المحدود للانسان ، استمع اليه وهو يقول بلســـان جمال الدين الافغانى « ان الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح فى المعـــدة ، ان الروح ليست قوتها وحياتهـا من الجسم ، ولكن الشيوعيةلا شأن لها الا بالمعدة والبطن ، وديانة ماركس مؤسســـة على مســاواة البطون ، ان الأخوة الانســـــانية لا تقوم على وحدة

الاجسام والبطون ، انما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس » .

أثر التعليم العصرى فى نقل هذه الحضارة :

والقنطرة التى تعبر عليهـــــا الحضـــــارة الاوربية الينا هى : التعليم الذى يقول فيه اقبال « اياك أن تكون آمنا من العلم الذى تدرسه فانه يســـــتطيع أن يقتل روح أمة بأسرها ... انه الحامض الـــذى يذيب شخصـــية الكائن الحى ثم يكونها كما يشاء .. ان نظام التعليم الغـــربى مؤامرة على الـــدين والخلق » .

انه على الرغم من أنه خاض لجج التعليم الغربى الا أنه ومعـــه قلة معدودة خرج من هذه اللجج سالما ، لم ينصـــهر فى بوتقـــة الغـــرب كما انصهر غيره ولكنه تغنى قائلا : « كسرت طلسم العصر الحـــاضر وأبطلت سحره ، التقطت الحبـــة وأفلت من شبكة الصياد ، يشهد الله أنى كنت مقلدا لابراهيم فقد خضت فى هذه النار واثقا بنفسى وخرجت منها سليما محتفظا بشخصيتى » .

الانســان الكامل فى نظر اقبال :

ان المســـــلم فى نظر اقبال هو الانســـان الكامل ، ولكن من هو المســـلم ؟ هـــو المســـلم المثـــالى الذى يتميز بالايمـــان واليقين والشجاعة والقوة الروحية والتوجيه الخالص والأفق الواسع ، والانسانية والتجرد من الشـــهوات والتمرد على موازين المجتمع الزائفة والقيم الحقيرة ، هو الذى يعيش برسالته ولرسالته ، هو ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحيـــاة لايزال الحقيقـــة الثابتة التى لا تتغير ، هو الشـــجرة الطيبة **التى أصلها ثابت وفرعها فى الســـماء** .

ان المسلم له وجودان ، الوجود الانســـانى والوجود الايجابى ، والوجود الانسانى يشاركه فيه كل انسان ، أما الوجود الايجابى فهو أنه يحمل رسالة خاصـــة هى رسالة الأنبياء والمرسلين ، ويؤمن بمبادىء خاصة ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق وحاجة من حاجات البشرية يستحق أن يعيش وأن ينتصر ، فحـــاجة

البشرية اليه ليست أقل من حاجتها الى الماء والهواء والنور والحرارة ، فاذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بهذه كانت معانى الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والايمان والأخلاق ، التى تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ويتكفل المسلم باعلانها والجهاد فى سبيلها ، فلولاه لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سرا مكتوما .

والمسلم بذلك حى خالد لأنه يحمل رسالة خالدة ، يقول اقبال فى ذلك « لا يمكن ان ينقرض المسلم من العالم لان وجوده رمز لرسالات الأنبياء ، وان أذانه اعلان للحقيقة التى جاء بها ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم » .

والمسلم هو غاية هذا الكون خلق العالم له وخلق هو لله ؛ وهو جارحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخادم له وهو خليفة الله فى أرضه . يقول فى ذلك « ان العالم تراث للمؤمن المجاهد لا يشاركه فيه أحد ، ولا يعد مؤمنا كاملا من لا يعتقد أن العالم خلق له » .

والمسلم : خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها ارادته ، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم واليقين وهو مسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهه فلا ينبغى أن يكون مقلدا متبعا ، فمقامه مقام الامامة والقيادة والارشاد والتوجيه ، ويقول فى ذلك « يقول من لا خلاق له : در مع الدهر حيث دار واذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول : اذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يفىء الى أمر الله » .

والمسلم هو مصدر الانقلاب الصالح فى التاريخ ومطلع فجر السعادة فى العالم ، وهو رسول الحياة ومؤذن الفجر فى الليل البهيم « ان المؤمن اذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون » .

ان قوة المؤمن مستمدة من رسالته وايمانه وباندماجه واضمحلاله فى ارادة الله ، فعند ذلك يتحول جارحة للقدرة الالهية وقوة

قاهرة لاتصدها الجبال ، ولاتقف فى سبيلها البحار ، والتاريخ الاسلامى القديم يصـــدق ذلك حينما قهر المســلمون الأوائل جميع العقبات التى وقفت فى طريقهم •

والمسلم لا ينحصر فى الأوطان والشعوب فهو حقيقة عالمية تتخطى حـــدود المكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية وكالانســانية العامة فى مساحة زمانية شـــاسعة كمساحة التاريخ الاســلامى ، وفى مســاحة مكانيـــة كمســاحة العالم الاسلامى ، ويقول فى ذلك « المسلم الربانى ليس بشرقى ولا غربى ، ليس وطنى دهلى ولا أصـــفهان ولا ســـمرقند انما وطنى العالم كلــه » •

والمســـلم متخلق بأخلاق الله يأخذ من صـــفات الله المغفرة والتســـامح ، كما يأخذ الغضب للحق ، وهكذا •• ولا يكون المثــل الكامل لدينه والصــورة الصــادقة للاســـلام حتى يجمع بين هذه الاخلاق العلوية الالهية •

والمســلم كالشمس اذا غربت فى جهـــة طلعت فى أخرى فلاتزال طالعة ، كذلك الاسلام لم ينكب فى ناحيـــة الا قامت له دولة فى جانب آخـــر •

والمســـلم الحق ليس يائســا ولا متشائما ولا فانيا عن نفسه فناء يقعده عن كل تطلع ويقيـــده عن كل حركة ، ولكنـــــه عزيز أبى واثق بنفســــه وبربه يعرف مكانته فى الوجـــود ومركــزه فى العالم الانسانى ، اســـمع اليه يخاطب المسلم ليعرف واجبه : « عجبــا لك أيها المسلم تجلت لك الآفاق وغابت عنك نفســـك ، الى متى تظل غافلا جاهلا وتجلس ضائعا عاطــلا ؟ ان نورك الوهاج اضاء العالم القديم ، ونســـخ الليل البهيم ، ولاتزال اليد البيضـــاء التى ورثتها عن موسى فى كمك ، فأنت الســـابق لها والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن وستكون ولا تكون • هل تخاف الموت أيهـــا الانســـان الخالد ؟ لقد كان جديرا بالموت أن يخافك » •

ويقول له « افتح عينيك أيهـــا الـــزهر النائم مثل النـــرجس الذى لا يطبق عينيه لحظـــة ولا يعرف الكرى اليه ســـبيلا ، لقد أغار على

وكرنا الأعداء ، ونهبوا كل مافيه من كنوز وخيرات ، ألا يكفى هـــدير الحمام وصفير الأذان وأنين القلوب والارواح أن يوقظك ، انتبه من هذا الســبات العميق الذى طال أمده واشتدت وطأته » .

ان شــعر اقبال كله يجرى على هذا النمط الذى يوقظ الشــباب المسلم وتنبهه الى واجبه ، ويذكره بماضيه المجيد ، ليصل به مستقبلا مشرقا مضـــيئا مليئــا بالخــير والسعادة .

ان شعره بلاغ للشباب المسلمين الذين خضـــعوا لنظام التربية الحديثة والفلســفات المادية التى حجبت عنهم شخصــيتهم وأعمتهم عن حقيقة أنفســهم وغطت على تاريخهم وأغفلتهم عن الطمــوح الروحى المشرق ، ولم تصــور لهم العالم الا سوق تجـــارة أو مركز انتاج أو حانوت خمــر أو بيت مقامرة أو مكان تتنافس على القيادة وصراع فى مجــال الاقتصاد . ذلك مبلغهم من العلم .

من روائع اقبال :

لقد قدم الندوى ــ أبقاه الله ــ فى هـــذا الكتاب بعد تلك المقدمة المستفيضــة التى درس فيها حياة اقبال وشعره وفلســفته وآراءه ورسالته ــ مجموعة من القصــائد الرائعة ، منهــا « **برلمان أبليس** » التى تخيل اقبال فيهـــا مؤتمــرا شيطانيا يعقد جلسة يناقش فيهــا خطورة الاسلام ، ويضــع الخطط للقضــاء على ذلك المسلم المنافس الوحيد لحيله ومؤامراته ، وأدلى كل برأيه وخطته ، واتفقوا على شىء واحد وهو أن يظل الدين الاسلامى متواريا عن أعين المســلمين ، فليشغلوا المسلم عنه حتى لا ينتبه الى جوهـــره ولا يعــرف أسرار قرآنه ، عليهم أن يخرجـــوا روح محمــد من جسمه فيصــبح قليل الصبر جزوعا من الفقر شــديد الخــوف من الموت ، وعليهم أن يشــغلوا العرب بالأفكار الغربية وينتزعوا من أهل الحــرم تراثهم الدينى حتى يجلو الاسلام الحجاز واليمن ــ وان فى الافغــان غيرة

دينية وعلاجهـــا أن يقصى العالم الدينى من جبالها وسهولها •

رحمـك الله يا اقبال ، لقد كنت تنخر بعين الغيب ، تستشف صحف المســتقبل ، فما هو حادث الآن فى أفغانستان تطبيق رهيب لخطط هذا المؤتمر الشيطانى الخطير • فهل آن للمسلمين أن ينتبهوا من نومهم ؟

الى الأمة العربيـــة :

كما قدم قصــــــيدة الى الأمة العربيـــة يســـــــجل فيهـــا فضلها وسبقها وحملها لرســـــالة الاسلام والأخذ بيد الانســـانية وافتتاحها لتاريخ جديد وفجر سعيد ـــ انه يرثى لحالها الآن بعد أن تبدل الحال غير الحال ، وأصـــبح العرب ذيولا بعد أن كانوا رءوسا ، وتابعين بعد أن كانوا متبوعين ، وسوقة بعد أن كانوا ملوكا • اســــــمع اليه يقـــول لهم آســــــفا عـــلى هــــذا الخمــود والجمــــود :

« أيهـــا العرب ، ألا ترون الأمم الأخرى كيف تقدمت وســـبقت ؟ أما أنتم فما قدرتم قـــدر هــذه الصحراء التى نشأتم فيها ، وهذه الحرية التى ورثتموها • كنتم أمــة واحدة : أمةالأسلام ، فصرتم اليوم أمما وكنتم حزبا واحدا حزب الله فأصـــــبحتم أحزابا ، لقد فرقتم جمعكم ومزقتم شملكم وانقسمتم على أنفسكم » •

وفى جامع قرطبـــة :

حيث زار الشــــاعر أسبانيا عام ١٩٣٢ م وقف وقفــــة المؤمن الخاشــــع ، وتحركت فى قلبـــه الذكريات الجليلة ، وتخطت عاطفته القرون ، حيث شهدت طارق بن زياد يفتح الاندلس ، ورأت صقر قريش : عبد الرحمن الداخل يخضع هــذه البلاد النائية الجملة لعقيدته وعزمه ومعه حفنة مؤمنة • انه تذكر هذا الجامع الذى لم يشهد صـــلاة المسلمين منذ جلوا عن الاندلس منذ قرون ، فيقول وقد خنقته العبرات :

« تدين أيها المســـجد العظيم فى وجودك لهذا الحب البرىء ولهذه العاطفة القوية التى كتب لها الخلود فهى لا تعرف الزوال والانقراض ، ان البدائع الفنية اذا لم ترافقهـــا العاطفة ولم يسقها دم القلب الحب أصبحت مصـــنوعات سطحية مـــن

لون أو قرميد أو حجر أو لفظة .. لا حياة فيها ولا روح. ان المعجزات الفنية لاتعيش الا بالحب،ولا تقوم الا على العاطفة والاخلاص ..

انه يذكر هذا المسجد العظيـــم بالمسام العظيم ، الذى رفعه وشاده وبالأمة الاســلامية التى تعبد الله فى أمثــال هــذا البيت ، فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ويقول : « ان المسلم حى خالد لا يزول ولاينقرض لانه يبلغ فى أذانه تلك الحقـــائق والرسالات التى جاء بها ابراهيــم وموسى والنبيون ، وقد قضى الله بخلودهاوبقائها ، فكيف تنقــرض الأمــة التى حملت هــــذه الأمانة وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة » ؟

ان هذه القصيدة ــ كغيرها مــن قصائد اقبال ــ تحفة فنية ابداعية فيها عصارة روح ودمــــاء قلب وانفاس ملتهبة لشاعر يعشق دينه العظيم ، وما أعظــم النتاج الأدبى اذا كان كذلك « ان كل مأثرة وكل انتاج لم تذب فيه حشاشة النفس ناقص وجدير بالفنــــاء والزوال السريع ، وكل رنة أو نشيد لم يدم له القلب ولم تألم له النفس ضرب من العبث والتسلية ولا مستقبل اه فى المجتمع وعالم الافكار » .

أجل وهــــذا سر خلود الادب العظيم ــ كما يقول العلامة الندوى ــ وهذا سر تفاهة الادب الجــديد الذى يولد سريعا ويموت سريعــا وهذا هو سر التأثير والخلــود فى شعر اقبال وانتاجه . فهل يســمع أدباؤنا وشعراؤنا ؟

ان مجموعة القصائد التى قدمهــا المؤلف فى هذا الكتاب جديرة بلقب الروائع التى أطلقت عليها ، تشــهد عناوينها قبل أن يشهد مضمونهــا بذلك . ومن هذه القصــــــائد : « فى أرض فلسطين » « فى غزنين » وغزنين هذه عاصمة اســــــكندر الاسلام السلطان محمود الغزنوى صاحبالفتوحات الاسلامية العظيمة « دعاء طارق » فاتح الأندلس الذى قال فى خطبته المشهورة أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصــــــدق

والصبر.» « **وحديث الربيع** » وفى ذلك رمز يتطلع به الى أن يعود للأمة الاسلامية ربيعها فيبدل هذا الجفاف والذبول الذى اعتراها .

و « **نياحة أبى جهل** » ويتحدث فيها عن نور الاسلام الذى طهر قلوب العرب من رجس الجاهلية والتفاخر بالآباء والاجداد ، وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس .

و «**عودة الجاهلية**» وهو يأسى فى هذه القصيدة على ما أصاب المسلمين من ضياع وجهالة، وارتماء فى أحضان الغرب ، وبعد عن تعاليم الاسلام.

و «**ساعة مع جمال الدين الأفغانى**»

وفيها يتحدث عن رسالة هذا العالم الجليل ، وقضى وقف عليها حياته ، وقضى فيها ايامه سائحا يثير فى المسلمين النخوة والعزة ، حتى يعود مجدهم ونهضتهم ووحدتهم . و « **فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم** » و « **شكوى ومناجاة** » وفى هاتين القصيدتين يناجى المصطفى صلى الله عليه وسلم سعيدا بزيارته متشوقا الى رحابه شاكيا له تفريط المسلمين فى واجبهم ودينهم ، موازنا بين عصرين : عصر المصطفى المنير المشرق وهذا العصر المضطرب الملىء بالفتن والضياع .

انه من العسير تقديم ملخص لهذه القصائد الرائعة ، فالشعر لا يلخص، ولكنه يقرأ بتأمل ، فكل كلمة فيه نبضة من نبضات الشاعر ، وكل بيت فيه جزء من عاطفته وروحه وفكره واحساسه ، يحمل معنى لا غنى عنه ، والقصيدة الفنية كل لا يتجزأ ــ ومن الخير أن تقرأ هذه القصائد فى دواوين الشاعر لينتفع بها القارىء ويتذوق ما فيها من ابداع فنى ومعنوى .

لقد انتهى العلامة أبو الحسن الندوى فى تقديم هذه الروائع بدراسة حول الحقائق التاريخية فى شعر اقبال كان أهم ما فيها أن اقبال لم يقرأ التاريخ قراءة علمية جافة ولكنه قرأه ليستخلص منه نتائج وحقائق لا يصل اليها الباحثون والعلماء والمؤرخون الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، وقد دله على الوصول الى هذه الحقائق فهمه العميق للقرآن الكريم

ودراسته المخلصة المتواصلة له •

أجل : فالقرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذى يقول اقبال فيه « ان هـــذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة فى الأزل ، ســـارية الى الأبد ، انه يفشى اسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذى تزلزلت أقدامـــه بالقول الثابت » •

اللهم اهد المسلمين الى كتابهم الخالد ووثق صلتهم به •

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

من كلـــات السيد الرئيس محمد أنور الســادات فى خطابه التاريخى فى ١٤ مايو ١٩٨٠

«الأقبــاط واليهود مســئوليتى »

وانا أقول اننى رئيس مسلم لدولة اســـــلامية ، أعرف مسئوليتى الأقبــاط واليهود المصريين كالمســلمين تماما « بنص القرآن » •

من أجل هذا أنا أقول ان الاسلام هو أكبر ضمانة • ماذا أمرنا الله ســبحانه وتعــالى ، وأمرنى به كولى أمر مسلم لدولة مسلمة ، يسكن فيها مع المسلمين مسيحيين ، ماذا أمرنى به • **« قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأســباط ــ وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيــون من ربهــم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »** •

هــكذا أمرنا اللــه ، وأمرنى كولى للأمر فى دولـــة اسلامية ، أن أومن بما أنزل على ابراهيم ، واســماعيل واسحق ويعقوب والأســـباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون ، وألا أفرق بين أحد منهم •

الباحث عن الحقيقة

للمرحوم "محمد عبد الحليم عبد الله"

من منظور الفن الروائى

للدكتور فتحى محمد أبو عيسى

(٥)

كان على « سلمان » أن يذعن لما برق فى خاطر أبيه حين فكر أن هذا التمرد من الابن أضحت الملاينة ازاءه سيفا مفلولا لا يجدى فى حسم الموقف، وأن عليه ــ كى يعيده الى صوابه ــ أن يستبدل المخاشنة بالملاينة ، متمثلا فى ذلك قول الشاعر :

ان الحديد تذيب النار قسوته
ولو صببت عليه البحر مالانا

فماذا لو أوثقه بالقيود ، وأدماه بالاغلال !!

واستسلم « سلمان » فى غير برم ولا مرارة ، وكله ثقة أكيدة بأن هذا العنف سيرتد مدحورا فى النهاية ، وزاده ذلك اصرار على المضى فى الطريق التى استبانت له ، ثم ما هذا الوثاق أمام سبحة القلب فى واد ريان يندى بالشوق ويغرى بالتضحية ؟ !!

وتخف اليه أخته « بوران » ضارعة متوسلة أن تحله من وثاقه ، ويهتف بها « سلمان » :

« لا تفعلى ، فالقوة التى حلت وثاق القلب ليست عاجزة يا «بوران» عن أن تحل وثاق القدم، هذه ذراعاى خلفى ، وهذه قدماى موثوقتان ، ولكن الراحة تملأ القلب ، عينى وراء أفقكم يا « بوران » هناك صلاة ذات أجنحة ترتفع بأصحابها الى السماء ، وهناك صلاة كسلاسل (الميناء) تشد السفينة الى الأرض » .

(٦)

بسط الظلام رداءه على الكون ، ودنت ساعة الخلاص فى التماعة برق ، تسلل منه شعاع هدى « سلمان » الى اعمال الحيلة ، بعد أن لمح — فى حجرته — سيفا أثريا معلقا على الحائط ، أجل ، دنت ساعة الخلاص ، لم يبق الا أن يبذل جهدا ومحاولة فى الوصول الى هذا السيف ، أملا فى نشدان ضالته ، ومضى الى السيف جاهدا ومازال به حتى تطامن للمحاولة ، ثم راح يعالج القيد ، فيحكه بالسيف مرة ومرة الى أن استخذى واستكان وقد كان صلفا يتأبى ولا يلين ..

وسيطرت على «سلمان» لحظات أكدت له أن المقام فى تلك البيئة لن يثمر غير العقم والخواء ، وأن عليه أن يسعى الى حيث يعانق الحياة الناضرة ، فعن له أن يتسلل الى « الشام » .

(٧)

وهاجر « سلمان » الى أرض « الشام » وكان حنينا الهيا يناديه ويجذبه ، أليس استعلاؤه على المغريات التى كانت تشده الى البقاء والدعة دليلا على أن هناك سرا من الأسرار الكوامن يدفعه فى غير ريث الى أن ينضم الى القافلة التى أخذت صوبها تجاه هذه البلاد ؟

وبينما القافلة تضرب فى السير اذ بصر بشاب يحدو بغناء مرن ، انساب فى مسامعه لحنا بعث الطرب والنشوة .. ويعرف « سلمان » أن صاحب الصوت الرخيم يدعى « سهيلا » وأنه مفتون بدين يأخذ عليه لبه ، ويملك عقله ، الا أنه — مع تلك الفتنة والهيام — يحس بفتور العلاقة بين صاحبه (سهيل) والهه الذى يعبده ، كان ذلك فى وقت اضطرت فيه الأمواج ، وعلت الاثباج ، وتقاذفت السفينة يمنة ويسرة ، وطلب « سلمان » الى رفيقه الايكف عن الغناء .

فهمهم «سهيل» به على استحياء، وواجهه « سلمان » قائلا :

«مالى لا أشم من ندائك رائحة الحقيقة ، لا تظننى يا أخى أسفه الهك ، ولكنى أسفه ضحالة العلاقة بينك وبينه الآن ، لو كان حاميك

ما أخافك النهر ، انظر واسمع ، فلو تصورت أنك تعبد هذا النهـــر كبعض الهنود ربما لم تخف مــن الغرق فيه ، ولو عبدت الها تسـع مملكته السموات والأرض ماخفت من شيء فى الأرض الا ممــا يرضى هو عنه غن ياسهيل ان كنت تحب صـــنمك فغن له فى المخاطـــر بقلب مطمئن ، الا تســــــمع همهمة المجوسى ، ان فكه يرتعش من الخوف من اله الظلام » •

وانحسرت المخاوف بعد قليل ، ومضى الليل بظلماته العاتية ، وألقى كل من العربى والفارسى بلابله ، وراح « سلمان » يسأل العربى : لماذا يتوسل بالصنم الى الله ؟ !!

وكانت مفاجأة مذهلة أن يفضى العربى الى « سلمان » بسر ينوء به، حين قص عليه أن عبادة الاصنام تقليد ، نزل على الاخــذ به قسرا ، وأن قلبه ــ لذلك ــ خلو من اليقين• واستيقن « سلمان » ووقف عــلى السر فى فتور العبادة عند صاحبه •• واختلفت السبل ــ بعد ذلك ــ بالصديقين ، ونسى كل منهما نفسه مع صاحبه ••

(٨)

ويحل « سلمان » بأرض الروم ، بعد أن جاوز « الشام » ، ليكــون التحول الكبير فى حياته ، ويلتقى ــ هناك ــ بعابد معروف بالورع والتقوى ، وتصافح ســمعه كلمات عجيبة تصدر من العابد :

« مرحبــــا بك ، ولكنك جئت والشمس تغرب ، ليت الله يمد قليلا فى عمرى » •

ومضى العابد يسأله : كيف حال « كسرى » ؟ ويجيب « سلمان » لفوره بما يعرف ، بيد أن العابـــد ما يلبث أن يقول : حاله ستتحــول وأنت كذلك •

وصكت كلمة « التحول » أذنيه ، وداخله شيء من الخوف ، ولكنه سرعان ما تبدد ، نعم ان التحــول عنده رغيبة مــودودة ، والا ففيم كانت خدمته للاساقفة والاحبـــار سنين عددا !!

ثم تحدث اليه العابـــد ببعض ارهاصات سوف يعايشها بنفسه ، ويعالنه بقوله له :

« أنت خير منى أيها الشاب !! لا تعجب ، فأنت تركت أرضك وأهلك

والمراكب والعبيد ، وخرجت تبحث عن الحقيقة ، لانك لم تجد الحقيقة فى شىءمن حولك ، لم تجدها فىبريق الذهب ، ولكنك ربما ستجدها فوق رأس نخلة وأنت تحصد ، أو تحت اقدامها وأنت تزرع ، وستجد تلك الحقيقة المطلقة الكبـــيرة التى هى « الله » أو الطريق اليه ، ستجدها فى الحب لا فى الحرمان ، ستجدها فى ابن ترعاه لترعى غيره من عباد الله ، وفى زوجـــة تحبك وتخلص لك ، وتخلص لها ، وفى هذه الارض تزرع الفضـــائل ، الأرض التى لا تلقى من الانسان شـــيئا ، بل تعترف به طينيا ونورانيا ، ويكون فى كلتا الحالتين عبدا طيبا من عبيـــد الله » •

وكان أمرا محتوما أن يخبر كل منهما الآخر بجلية أمره وحقيقته ، واستطاع العابد — وهو يقص خبره — أن يشعل الاضواء أمام «سلمان» حتى يعرف الطـــــريق الى الله ، والاشواق التى تهديه الى ادراك الوجود وحقائقه الاساسية •

(٩)

واتفق أن رأى « سلمان » فى أعقاب ذلك ما أثار دهشته واستياءه حين كان يمضى فى سوق شاهد فيها اثنين من النصارى يتسابان ويتأكد ذلك بصورة أخرى لعينيه حين قدم الى العابد رجل تكسو ملامح وجهه آيات الكآبة يســـأله أن يفتيه فى أمر ابنه الذى مات فى « مصر » وهو يتجر فى المنسوجات بسبب الفتنة التى اجتاحت النصارى فى عقائدهم ، فكان أن قتل •• وتكلم العابد ، وتنبأ بأن الانسانية فى حاجـــة الى دين جديد ، فقد سادت الفتنة أوساط الناس ، يستوى فى ذلك اتبـــاع « المسيح » المحكومون بشريعته ، •أولئك الذين كانت تظلهم قوانين « روما » الارضية ، هذه القوانين الرثة التى هرمت وأصابها البلى •

(١٠)

واذ قد أشرب « ســلمان » حب العابد فكر فى الرحيل عنه ، ابتغاء أن يفسح الطريق لغيره من جهـــة ، ورغبة منه فى أن يستقل بحيـــاته وشئونها من جهة أخرى ، شريطـــة أن تظل الشابكة بينهما موصولـــة قائمة ، ولم لا ؟ ألم يخــرج مــن

(سلمان) ــ فى صحبة العابد الشيخ ــ انسان جديد بعد أن مات فيــه انسان ؟

ومضت الحال بهما عــلى تلك النحيزة أياما معدودات ، أعقبتها اشارة من الشيخ لسلمان بالرحيل ، وعليه أن يتأكد أن مستقبلا مضيئا يترقبه ، كذلك عليه الا يخاف مــن الاشواق فنارها نور . ولــكن ذلك لن يكون له الا بضريبة يدفعها ، وتبعــات يتحملها ، وعلى الرغم من قســوتها ستبقى روحه طليقة .. هكذا لخص الشيخ الموقف ، وأردف يزف اليــه البشرى النــدية فى كلمات :

« قد أظلك زمان نبى يبعث بدين « ابراهيم » حنيفا ، يهاجــر الى أرض ذات نخل بين حرتين ، فان استطعت أن تذهب اليه فافعل » .

وهرولت الايام ، وتغير كل شىء، فالعابد قد عبر الى الشاطىء الآخر مودعا الحياة ، والمكان ــ كذلك ــ استحال شيئا آخر ، وكل ما حوله يهيب به أن يأخذ أهبته وسمته الى « الجزيرة العربية » .

(١١)

أحس (سلمان) ــ وقد انضم الى القافلة ــ بشوق طاغ يستحث كل فرد فى القافلة أن يطوى الارض طيا ، ولكن ما كل ما يتمنى المــرء يدركه ، فقد كانت القافلة قافلــة سوء ، فاليهود هم الرءوس فيها ، وناهيك بذلك مــن معنى ، اذ كيف تســمح القافلة لفتى وسيم فاره كسلمان أن ينضم اليها ليبلغ مأمنه دون أن تتقاضاه أجرا على ذلك !! وبالرغم من تضحياته الجسام بكل ما فى يديه من مال لم يشــبع ذلك اليهود ، فكان لامناص من استرقاقه .. ولله « سلمان » ، فهى ضريبة باهظة لا تعدلها ضريبة !!

ترى ماذا فعل ؟

لا شىء غير أن نبعا من الخواطر الايمانية انساب بين جوانحه فروى منه المواجد والاشواق ، لقــد أخذ يناجى نفسه : « وماذا يضير مادمت فى الطريق اليه ؟ ان المملوك لا يملك مرتين فى وقت واحد ، ونفسى ملك لله ، فهى فى طلاقة الافق ، وحرية النسيم ، وماذا يفعلون بجســم

رقيق ؟. لست أرى فى هذا تناقضا ياربى .. آه أين أنت يا عابد « عمورية » لتقول لى رأيك ، لست أرى تناقضا فى أن أخدم عبدا ، وأعبد الها مادمت ياربى قد كتبت على أن أبكى فى الطريق اليك » ..

كان استرقاق « سلمان » صفقة ود الجميع لو يحصلون عليها ، بيد أن (أبا يعقوب) وقعت له هذه الصفقة بثمن بخس ، وفجأة أحس « أبو يعقوب » أن الفتى الفارسى مهيب كأن الشرر ينقدح فى عينيه كلما نظر اليهما ، فماذا عسى أن يفعل حتى يطفىء فيهما ذلك البريق واللمعان ؟ لقد بيت النية على أن يرهقه من أمره عسرا ، وذلك بأن يحمله من العمل فوق طاقته ، وقام « سلمان » بما وكل اليه خير قيام غير ملول أو ضجر ، ثم اسلمته يد (أبى يعقوب) هذا الى (أبى كعب القرظى) بعد أن حمله فوق ظهر ناقته الى المدينة .

ويترامى الى سمع (سلمان) خبر النبى الجديد فى أثناء رجوعه بالقطيع الى الحظائر ، وأن دعوته التى ينشرها تسوى بين الناس ، لا فرق بين سادة وعبيد ، وملوك وسوقة ، فيخفق قلبه ، ويخطر له أن هذا هو النبى الذى كان يحلم به، ويتوق الى الايمان به قبل لقياه ، ويسترعى انتباه (سلمان) قيام « بنى قريظة » على قدم وساق فى ترميم حصونهم وتجديدها ، ويردد كلمات كان قد سمعها من قبل :

يا نخل تحت ظلك الحبيب
يا ليت لى فى الظل من نصيب

ويجهد (سلمان) فى الذهاب الى حيث ينزل النبى صلى الله عليه وسلم ، وما ان بلغ المكان حتى « أخذته عينا النبى » .. أحس بقوة رفعته ثم التقطته ، شعر أنه فى محتواها ، فى حيزها بكل كيانه ، التلاشى مع الوجود فى وقت واحد ، لكنه عاد يشعر بوجوده أكثر من تلاشيه ، وعرف النبى صلى الله عليه وسلم أن ذلك الرجل الذى تقدم نحوه (سلمان) ، كما عرف (سلمان) أن ذلكم هو « النبى » الذى كان شيخ « عمورية » يفيض فى الحديث عنه .

ويتحرر (سلمان) ــ رضى الله عنه ــ فى هذا الوقت من ربقة العبودية ، منتشيا بدعوة الاسلام التى جاءت تؤكد ذاتية (الانسان) وتعمل على اسعاده ، ثم تمضى الايام بالمسلمين حتى يكونوا وجها لوجه أمام أعدائهم من « بنى قريظة » ، وهنا يزداد نجم « سلمان » تألقا ، حيث أشار ــ رضوان الله عنه ــ بحفر خندق حول مدينة النبى صلوات الله عليه على غرار صنيع الفرس اذا توجسوا خيفة من هجمات الاعداء .. ويأخذ (سلمان) مكانه بين المسلمين ويحظى بهذا الشرف الرفيع .. وفجأة تنبعث فى الجو أصداء حبيبة ليست غريبة على (سلمان) ويرهف سمعه ، ليتأكد من صاحبه ، ولشد ما كان فرح « سلمان » حين رأى صديقه « سهيلا » يشارك المسلمين فى حفر الخندق .. ويلمح (سلمان) صخرة عاتية جاثية ، فيحاول ــ كما حاول غيره من المسلمين ــ تفتيتها ، وتقف من دونه الصخرة تتحداه ، حتى جاءها النبى صلى الله عليه وسلم فى فتلين لقبضته .

(١٣)

عاش المسلمون ــ بعد ذلك ــ أحداثا تعاورتهم الى أن أظلهم عهد الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه ، وتتداح الفتوحات الاسلامية ، ويشهد (سلمان) بعينيه كيف وقعت بلاد «فارس» فى حوزة المسلمين ، ووقتها أخذت الخواطر اللامعة تنثال عليه ، فاذا هو فى حديث مع نفسه ، وحديث الى « سهيل » :

« هل أنا عائد الى وطنى ؟ أو هل أنا قد تركت خلف ظهرى وطنى فى المدينة ؟ اننى أشعر أن وطنى خلفى، لقد وطئت قدماى حافيتين الى الرسول فى مجلس ، فأحسست أنهما تطآن ــ مقدما ــ بساط « كسرى » ترانى يا « سهيل » أرى أحدا من أهلى ؟ أهلى بحكم أنهم نسلونى ، أخذت منهم اللون، وليس اللون هو البناء كله .. ان (محمدا) هو الذى بنانى ، ماذا أقول يا « سهيل » لا شىء وبحسبى

ما قلت ، دعنى أذهب لسعد بى أبى وقاص لأسأله ما ينتظر ، فقد جاء الى منذ قليل ، وأخبرنى أن الفرس يرحلون بكل ما يملكون عن مدينة (الايوان) »

وترك (سلمان) صديقه ، ويمم صوب (سعد) و « سهيل » يذكر ما كان من « سلمان » وهو شاهر سيفه يوم دخل المسلمون « المدائن » الدنيا ، وكلماته العذبة تغرى بالالتفاف حوله ، كان يقول :

« ليس غاية المسلمين مافى أيديكم بل غاية المسلمين ما فى قلوبكم ، اننا نريد أن تخرجوا من ضيق الدنيا الى سعة الآخرة ، كنت ابن دهقان « كسرى » ، كفرت بالشرك ، وتركت أرضكم ، وخرجت أبحث عن الله فهدانى (محمد) اليه ، وهأنذا قد عدت لا لابحث عن أرض أبى ، وحظائره ورقيقه ، فقد ذقت ذل الرق ، ولكننى عدت مع المسلمين ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

ويقلده « عمر » وساما من الأوسمة ، فيوليه على « المدائن » ، ولكن أتراه مع هذا قد نسى موقف الراعى منه ، وقد عقد العزم على الرحيل من البيئة فى بداية الأمر ؟

كان مستحيلا أن يغيب هذا الموقف عن وعيه ، فكم تمنى أن يكون الراعى موجودا وهو يصحب « سهيلا » فى الطريق اليه وهالته رؤية الراعى لا على سابق العهد به ، بل على صورة أخرى أصبح فيها رجلا من رجالات الاسلام ، وبقدر ماكان فرحه كانت المحاذير والمخاوف التى بثها ، ووجهها الى « سهيل » اذ قال :

« أخاف أن يمتد بى الأجل حتى أرى المسلمين وقد فتنهم متاع الدنيا وزخرفها ، فى هذه الزخارف التى حولك يا « سهيل » لا يستطيع أحد أن يرى الله ، لكنها اليوم تحت ظل الاسلام الفتى القوى تتحدث عن « الله » ، لأن فيها حقا لكل مسلم ، ولكن يا « سهيل » ، انها يوم يستأثر بها القوى دون الضعيف ، والحاكم دون المحكوم فانها ستكف عن التحدث عن الله ، سيعود زخرفا أخرس

ذا لغة شيطانية ، وسيقول الناس مقالة الرسول صلى الله عليه وسلم: « رحم الله أباذر » •

آه يا « سهيل » ، ما أجمل احتياجنا الى الله وكل شيء يلهى — حتى ننسى احتياجنا الى الله — فهو قبيح لا يساوى شيئا ، فأهلا بالمكاره مادامت هى الطريق اليه » •

(يتبع)

دكتور فتحى محمد أبو عيسى

« من أقوال السلف »

(أربعة) يسودبها المرء : الأدب ، والعلم والعفة ، والأمانة •

(أربعة) ينبغى للعاقل أن يمنع نفسه منها : العجلة واللجاجة والعجب والتوانى •

(أربعة)تزيد ماء الوجه : الوفاء بالعهد ، والكرم ، والكلام الطيب ، وطاعة الله سبحانه وتعالى •

(أربعة) من علامات الكرم : بذل الندى ، وكف الأذى ، وتعجيل المثوبة ، وتأخير العقوبة •

القرآن الكريم .. وحرية الرأى

للدكتور عبد الحليم حفنى

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لاتعلمون • وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (١) •

١ ـ طابع المحاورة :

هذه المحاورة من طراز يختلف عن سائر المحاورات ، فهى نموذج أعلى للارشاد والقدوة والتوجيه ، حيث يجعل الله سبحانه من ذاته فيها معلما ومثلا أعلى يقتدى به فى مثل موضوع المحاورة •

وهى بهذا المقياس أسلوب من أساليب التعليم المتعددة التى يسوقها القرآن الكريم التماسا لكل السبل فى ارشاد البشر وتوجيههم ، وبيان ذلك أن موضوع المحاورة كما سنرى مراجعة بين الملائكة وربهم فى

---

(١) سورة البقرة : الايات ٣٠ ـ ٣٤ •

بعض ماخلق ، أو ما قضى بخلقه ، ولا يصلح قط أن نفهم هذا الأمر على ظاهره البسيط القريب ، فالله سبحانه يستشير الملائكة فى خلق آدم ، والملائكة يظهرون فى وضوح عدم موافقتهم على خلق آدم ، أو على جعله خليفة فى الأرض ، وينكرون على الله سبحانه أن يفعل ذلك ، بل يسوقون انكارهم على الله فى أسلوب يشبه التقريع أو وصف الله سبحانه بعدم الحكمة ، متسائلين : كيف يترك الله سبحانه الجنس المتسم بالخير وهم الملائكة ، ثم يستخلف الجنس المتسم بالشر وهم بنو آدم ؟ (**قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**) ؟

ومن البدهى أن شيئا من هذا كله غير مقصود فى ظاهره ، فلا الله سبحانه فى حاجة الى المشورة لأن المستشير انما يلتمس خير الآراء وليس هناك رأى يعلو حكمة الله حتى يلتمسه الله سبحانه . ولا الملائكة بطبيعة تكوينهم يستطيعون مراجعة الله فى أمر قط ، لأن الذى يراجع غيره ، انما يكون غير مطمئن فى الأمر الذى يراجع فيه ، وهذا يجوز فى البشر اذا راجعوا الله لقصور عقولهم حين لا يفهمون حكمة الله أو لمخالفة بعضهم لله حين يفهمون ، أما الملائكة فهم جنس خالص لله ، ليس فى طبيعته ما يدعو الى المراجعة أو الى المخالفة ، واذن فهناك هدف تحمله المحاورة أبعد من ظاهرها .

والذى لا شك فيه أن هذه المحاورة حقيقة ، ولكن موضع التأمل هو : لماذا أوجد الله سبحانه هذه المحاورة ؟ ولماذا ساقها ؟ ويمكن الاجابة عن ذلك بأن من أبرز الأهداف الواضحة التعليم ، أى أنها سيقت لتكون وسيلة من وسائل التعليم ، وأن الله سبحانه ييسر للناس أساليب التعليم والتوجيه حتى انه يجعل من ذاته سبحانه قدوة يتعلم منه الناس ، فمع أنه فى غير حاجة الى المشورة والرأى الا أنه يلتمس

المشـــورة والرأى من المـلائكة ويجعلهم مستشارين لـه ، ليعلم أصـحاب الأمر والسـلطان الا يتخلوا عن الشورى مهما تكن الاحوال كما فعل الله سبحانه ، وليعلم المحكومين أن يبدو رأيهم صريحا واضـحا مها كان مخالفا للسلطان ، ومهما كانت سلطة هذا السلطان ، كما فعل الملائكة ، ولكنه يعلمهم أن يرجعوا الى الحق اذا اسـتطاع السـلطان أن يقنعهم بالمحـاورة والمنطق كمـا رجـع الملائكة ، وألا يتمادوا حينئـذ فى الخلاف ، لان خلافهم اذن سيكون باطلا وليعلمهم سبحانه أشـياء أخرى مما تضمنته المحاورة •

٢ ـ الموضـوع :

والواقع ان الموضوع الأساسى للمحاورة هو تكريم آدم بوصـفه جنسا وليس شخصا ، أعنى تكريم جنس بنى آدم الـذين يعمـرون الأرض ويصبحون خلفاء لله فيها • ولكن تكرار هذا المعنى فى القرآن الكريم بأكثر من أسـلوب يجعله وان كان واضحا بـارزا الا أن فى المحاورة ما هو أبرز منه لغرابتـه أو طرافته ، ومن ذلك حرية الرأى التى أبداها الملائكة فيما يشـبه الانكار على الله سبحانه فى خلقه آدم واستخلافه اياه فى الأرض ثم قبول الله ذلك منهم دون غضب ، بل فيما يشبه التشجيع لهم على ابداء الرأى الصريح الواضـح ليكون سـبيلا الى الحوار ، ثم الوصول الى الحق المقنع ، الذى يبعث فى النفس اليقين والاطمئنان وهو غاية الايمان وهدفه •

٣ ـ مراحل المحاورة :

من حيث ان أظهـر اغـراض المحاورة الارشـاد والتعليم ، نلاحظ أنها صـيغت فى القالب العادى المألوف للبشر ، وكـأنها محاورة بين طرفين من النـاس ، حيث تعـرض علينـا المحـاورة ما يأتى :

١ ـ الله سبحانه يعرض على الملائكة الموضوع فيما يوحى بأنه يطلب رأيهم ، وقد عرض سبحانه الموضوع على الملائكة بصـيغة تحمل فيما تحمل معنيين :

(أ) احدهما أنه قضى بجعـل آدم خليفة فى الأرض أى مالكـا

لهـــا ، ومسيطرا عليها نيـــابة عن الله المـــالك الحقيقى وأن هذا القضاء لا رجوع فيه ، وكل قضاء الله لا رجعـــة فيـــه ، ولذلك كان التعبير « **انى جاعـــل فى الأرض خليفـــة** » .

(ب) والمعنـــى الآخـــر أنـــه سبحانه لا يطلب رأيهم فى خلـــق آدم وانما فى جعله خليفة ، كمـــا هو واضح من التعبير السابق .

ومفهـــوم الآية يتضـــمن أن الملائكة لديهم علم بطبيعـــة بنى آدم الذين سيجعلهم الله خلفـــاء فى الأرض ، وليس يعنينا كيف كان لديهم هذا العلم ، فهذا أمر قـــد يطول حديثه أو الاختـــلاف فيه ، وانما يعنينا أن الوضع الطبيعىأن من يرشـــح شخصـــا لمنصب ، أو لتولى أمر ذى أهميـــة يعرض عادة تعريفا بهذا المرشـــح واذن فمن المتوقع ان الله حينما أخبرهم باســـتخلاف بنى آدم أخبرهم بطبيعة هؤلاء الآدميـــين ، أو أن الملائكة توقعـــوا ذلك من فهمهم لطبيعة آدم فى تكوينه ويكفى أن يكون من هذه الطبيعة أنه يـــأكل ويشرب ، فليس غريبا أن يكـــون من فى مثـــل درجة المـــلائكة من الادراك متوقعا لما سيصدر من بنى آدم ، ويحتمل أيضا أن تكون لهم تجـــارب مع مخلوقـــات أخـــرى ســـابقة لآدم ، فقاسوا طبيعـــة آدم عليها .

وأما عن كيفية استخلاف اللـــه آدم ، فمـــع مراعـــاة اختـــلاف المفسرين فيها يمكن القـــول بأن أقرب مايناسب العقول منهـــذا المعنى أن الله جعل بنى آدم هم المالكـــين للأرض ، والمســـيطرين عليها دون أن ينافســـهم فى ذلك جنس آخر ، وكأنهم بذلك نائبون عن الله فى هذه الملكية والسيطرة وذلك أن الأرض تحوى مالا يعد ولا يحصى من أنواع المخلوقـــات الحية وغير الحية،وهذه المخلوقات على كثرتها واختلافها ليس مـــن بينها قـــط جنس له ســـيادة أو سيطرة الا بنو آدم ويمكـــن أن نتصور كيف يكون حال الارض لو خلت مـــن بنى آدم ؟ والتملك فى حقيقته لله وحده ولكنه ســـبحانه كأنه أنـــاب بنى آدم واستخلفهم

عنــــه فى تملك الأرض ومافيها ، والتعبير يشير بوضـــــوح الى أن الأرض وما فيها ســابقة لآدم وهذا مطابق للبحث العلمى •

٢ ــ الملائكة يظهرون فزعهم من أن يكون بنو آدم خلفاء لله فى هذا الكوكب ذى الأهميــة أو فى أى مكان ، وذلك بعد أن علموا أن من طبيعة بنى آدم الافســاد وسفك الدماء ، والملائكة جنس لايحمل فى طبيعته وتكوينه الا الخــير ، فهم يستغربون الشر وينفرون منـــه ، ولا يتصورون كيف يرضى اللـــه بأن يستخلف مخلوقا يحمل شيئا من الشر ، مهما كان فيه من الخير وكأنهم يقترحون عـــلى الله أن يجعلهم خلفــاء لـــه فى الأرض ، ليس حبــا فى الخلافــة ، وانمــا محافظة على طهر الأرض وجعلها مكانا خالصا لتسبيح الله وتقديسه، وليس مــكانا للافســاد وســفك الدماء،وتوجهوا بكل مافى نفوسهم الى الله ، لأنهم لايخفــون عنــه شيئا ، ومانفع الاخفاء عمن يعلم كل شىء ؟ « **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحــن نسبح بحمدك ونقدس لك** » ؟ •

٣ ــ يرد الله ســـبحانه على الملائكة بما من أجله اختــار آدم خليفة ، ولم يكن الله فى حاجة الى تبرير شىء مما يفعل ومــا كــان لاحد أن يكون له فى خلق اللـــه رأى « **لا يســـأل عما يفعل وهم يسألون** » ولكنه سبحــانه يريد أن يعلم الناس ، ومما يعلمهم ايــاه ألا يستبد صاحب الامــر برأيــه يفرضه فرضا على الاتباع ، بــل ينبغى أن يكون سبيله دائمـــا الحوار والاقناع بالمنطق والحجة كما فعل الله سبحانه ، فى اقناعــه الملائكـــة •

ونلاحظ أن جواب الله سبحانه فى بيان استخلافه آدم ، يتضمن جانبين :

(أ) أحدهما أن آدم استحق هذه المنزلة لأســباب خاصــــة يعلمها الله ، ولايريد أن يبسطها للملائكة أو أن بسطها غــــير ذى نفع لأنهم لن يفهموهــا ، حيث ان طبيعة آدم فى تكوينه تختلف عن طبيعتهم فلن يفهموا الحديث عن طبيعة لايعرفونها ،واذا أراد امرؤ

أن يتخيل شيئا من هذه الاسباب التى حجب الله حديثها عن الملائكة فقد يلتمس أسـبابا من أبرزها فى فضل آدم على الملائكه أن عمـل الخير لدى الملائكة يسيرهين ، لأن طبيعتهم مهيأة للخير ، ولا تحمل الا الخير أو الدافع الى الخـير ، أما الآدمى فان عمل الخير لديـه شاق عسير ، حيث ان نفسه تحمـل الشر والدوافع الى الشر ، وحين يريد عمل الخير تثور فى نفسـه نوازع شتى لتثنيه عن هذا الخير، فلا يستطيع عمل الخير الا بعـد اجتياز صراع مع نفسه ، وحينئذ يكون الآدمى صاحب الخير أفضل من الملك ، لأن الملك يفعل الخـير بسجيته دون عنـاء ، أما الآدمى فيفعله ضد سجيتـه وفى صراع وجهد ، كما أن الآدمى الشرير أخف شرا من الملك الشرير وهو ابليس ــ باعتباره أصلا من الملائكـة

ــ وبهذا المقياس يكون الادميون فى كل أحوالهم خيرا من الملائكـة فهم فى الخير أعظم منهم خيرا وفى الشر أيسر منهم شرا ولئن صلح هذا سببا من الأسباب التى لـم يبسطها الله للملائكه فى تفضـيل آدم عليهم ، فهناك سـبب أو أسباب من أجلها استخلف اللـه آدم ومن أجلها فضله على الملائكة حتى أمرهم بالسـجود له ليس سجود العبادة وانما سـجود التكريم والاعتراف بالأفضلية •

(ب) والجانب الآخر فى فضل آدم على الملائكة ظاهر واضـح ، وهو العلم المكتسب فالملك يعلـم ما يعلمه منذ خلقه الله وبطبيعـة تكوينه ، فهو لايبذل جهدا فى العلم ولاتزيد معلوماته بمرور الزمن ، وأما الآدمى فعكس ذلك ، لأنـه يخرج من بطن أمه جاهـلا كل الجهل ، ثم يتدرج فى المعـرفة والعلم فى بطء وعناء شديدين وكل ما يحصله من المعرفة والعلم انما يأتى بالجهد ، قل هذا الجهـد أو عظم ، ولايتصور أن يعرف الانسان شيئا دون أن يبذل فيه جهدا •

ويريد الله سبحانه أن يبـرز هذا المعنى للملائكة بصـورة واضحة لهم ، فيعقد امتحانا علميا يعرض عليه الملائكة أولا ،فاذا هم يفشلون فيه كل الفشـل ، حيث

لايجيبون عن شىء منه قــط ثم يعرض عليه آدم بما علمه الله من علم مكتسب ، فاذا هو ناجح كل النجاح ، حيث يجيب عـــن كل ماطلب منه •

هنالك أيقن الملائكة بفضل آدم عليهم ، وباستحقاقه الخــلافة ، وقد عبروا عن ذلك بالسجود لآدم حين طلب الله منهم ذلك تكريمــا لآدم واظهارا لفضله •

وفيما يتعلق بنوع العلم الذى اختص به آدم ، يمكن أن نقول : ان التعبير فى الآيات يوحى بأنــه ليس المراد تحديد نوع معين من العلم ، وانما الواضح ابراز نقــاط معينة تبدو من خــلال الالفــاظ وأوضح هذه النقاط :

(أ) أن علم آدم مكتســب ، وليس نابعا من طبيعة تكوينه أو نحو ذلك ، ويشير الى هذا (وعلم آدم) فهو صريح فى أن آدم تعلم أشياء لم تكن معلومة له •

(ب) أن علم آدم واســع ، ومتسم بالشمول ، ويدل على هــذا التأكيد بلفظ (**كل**) فى قوله : (**وعلم آدم الاسماء كلها**) •

(جـ) أن آدم اختص بهـــذا العلم دون الملائكة ، كما هو واضح فى الآيــات •

أما ذكر الأسماء فأغلب الظــن أنها مجرد رمز لهذه النقاط التى سبقت ، حيث ان السياق لا يركز على بيان نوع العلم ، وانما على تميز آدم وانفراده بعلم لايعرفه الملائكة •

٤ ـــ رجع الملائكــة الى الحــق فاعترفوا بفضـــل آدم عليهم ، وهـــذا يمثل النتيجة للمحــاورة فالموضوع الاساسى للمحاورة كما سبق ، هو تكريم آدم وبيـــان فضله ، وقد آثر الله ســـبحانه الا يفرض هذا على الملائكة فرضا وانما اراد أن يقنعهم به اقنــاعا بأسلوب المحاورة وقــــد أبدى الملائكة اعترافهم بفضل آدم من جانبين على سبيل التضمين :

(أ) أحدهما اعترافهم ضـــمنا بفضل آدم فى العلم ، حين أعلنوا عجزهم عن الاجابه ، بينما أجاب آدم ، ونتيجة الموقف حينئذواضحة وهى تفوق آدم على الملائكة •

(ب) سجودهم لآدم حين أمرهم الله بذلك ، فان السجود لا يكون الا للأفضل والأعظم ، ولذلك امتنع ابليس عن السجود لآدم حين لم يعترف بفضله .

العبرة :

ومن الواضح كما سبق أن المحاورة مسوقة للتعليم ، ومواطن العبرة التى ينبغى أن يتعلمها الناس فى هذه المحاورة كثيرة وأبرزها :

١ ــ يجعل الله سبحانه من ذاته ، ومن الملائكة ، قدوة يتعلم منها البشر ، وفى هذا أقصى مايمكن من حفز الى التعليم والاقتداء .

٢ ــ الشورى يجعلها الله منهجا أساسيا فى كل أمور الناس وشئون حياتهم،وخاصة ولاة الأمر فلا ينبغى لولى الامر مهما بلغ من سداد الرأى أو النفوذ والسلطان أن يستبد برأيه وحكمه وحسبه أن يجد الله سبحانه يشاور بعض خلقه فى شئون ملكه، بل نلمس من خلال التعبير كأن الله شاور الملائكة جميعا **(واذ قال ربك للملائكة)** .

٣ ــ حرية الرأى يجب أن تكون مكفولة للجميع ، ولايشترط فى صاحب الرأى أن تكون له صفات معينة أو منزلة خاصة ، فان الملائكة ليسوا جميعا فى منزلة واحدة ، بل فيهم أعلام متميزون ذكر القرآن بعضا منهم بأسمائهم كجبريل وميكائيل أو بصفاتهم كحملة العرش ، ولكن الله لم يخصهم وحدهم بالمشورة ، كما أنه لم يجعل لهم وحدهم حق التعبير عن رأيهم وانما منح هذا للملائكة فى جملتهم ، ولذلك صدر الرأى عن الملائكة جميعا « **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** » ؟ فقد استطاع الملائكة أن يعبروا عن رأى يعتبر فى ظاهره غاية فى الجرأة على الله ، لأن الله يريد أن يعلم الناس أن يجهروا برأيهم مهما كان مخالفا لصاحب الأمر والسلطان ، وليس ذلك للشقاق أو الخلاف ، وانما هو تتمة لمبدأ الشورى الحقيقية ، فالمستشار الصادق المخلص لابد أن يعبر عن رأيه كما يراه هو ، وليس كما يرضى ولى الأمر ، ولكن

هذه الحرية التى يمنحها القـرآن للتعبير عن الرأى مقيدة بقيدين :

(أ) احدهما صدق التعبير عما فى النفس ، بمعنى أن يكون الرأى نابعا عن صدق واخلاص ولو كان فى حققيته خطأ ، كما فعل الملائكة، فانهم بداهة لم يظهـروا رأيهم هذا للمخالفة وانما خوفا من الشر الذى سيغرسه آدم فى الأرض ، ورغبتهم فى الخـير الذى تعودوه هـم .

(ب) والآخر الرجـوع الى الحق فور ظهوره ، فـلا ضـير فى خلاف الرأى مهما يبلغ،وانما الشر فى التمادى فى الباطل ، أو عـدم الرجوع الى الحق حين يتضـح ، وقد أسرع الملائكة الى الحق حين ظهـر .

٤ ــ العلم أعظـم مايحمله الانسان ، بل أعظم ما فى الكـون على الاطلاق،وذلك شديد الوضوح فى آيات هذه المحـاورة ، فـآدم انما علا على الملائكة بشىء معـين حددته الآيات هو العلم وشـعاره (**وعلم آدم** ..) وحين أراد الله سبحانه أن يقنع الملائكة بفضـل آدم عليهم اجرى لهم وله امتحانا فى العلم وحين تفوق عليهم بالعلم اعترفوا بعلو قدره عنهم ونلاحظ ايضا أن الله سبحانه حينما وصف نفسه بأنه فوق الجميع ، جعـل صفته فى هذا المقام العلم **« ألـم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون »** مبينا أن العلم هو الـذى يحدد المنازل ، فالله سبحانه فوق الجميع لأنه يعلم ما لايعلمه أحد، وآدم فوق الملائكة ، لانه يعلـم مالا يعلمـونه ، والملائكة دون آدم لأنهم لايعلمون ما يعلمـه آدم ، ويكفى تعظيما للعلمأن صفة العلم فى آدم كانت أهم دواعى سجود الملائكة لـه .

٥ ــ الأحكام يجب أن تكـون مبنية على الاقنـاع مهما يكـن مصدرها ، حيث نجد فى المحاورة أن الله سبحانه قضى بفضل آدم فجعله خليفـة عنه فى الارض وبتفضيله على مخلوقات أخـرى منها الملائكة حتى أمرهم بالسجود له وقد كان الله سبحانه يملك أن يقضى بما يشاء وأن يأمر بما يريد

ويملك أن يفرض طاعتة على كل مخلوق ، ولكنه جلت حكمته يريد أن يعلم الناس أن تكون أحكامهم مبنية على الاقناع فبين للملائكة مايقنعهم بفضل آدم ، بل جعل هذا الاقتناع عمليا فى صورة امتحان وصل فيه الملائكة فى اقتناعهم الى حد اعلانهم العجز عن مجاراة آدم فى العلم ، وهذا يقتضى تسليمهم الكامل بتفوقه وفضله عليهم •

٦ — من أبرز ماتضمنته المحاورة اظهار تكريم الجنس الآدمى ، ليتعلم الناس أن كل آدمى يكتسب كرامته من مجرد كونه آدميا ، وأن الآدميين جميعا فى هذا سواء ، حيث انهم لايتفاوتون فى صفة الآدمية ، وقد سبق القول بأن هذا هو الموضوع الاساسى للمحاورة ويؤكد ذلك أن هذا المعنى تردد كثيرا فى القرآن الكريم ، سواء فى صورة محاورة كهذه المحاورة أو فى اسلوب آخر كقوله تعالى « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ويطبق الاسلام هذا المعنى فى كل تشريعه من جانبين : أحدهما المحافظة على كرامة الآدمى وحقوقه لمجرد كونه آدميا ، مهما صغرت منزلته فى أعين المجتمع ، والآخر المساواة بين الآدميين جميعا وعلى الاطلاق فى كل الحقوق والواجبات •

دكتور عبد الحليم حفنى

* * *

اللغة العربية والبيان القرآنى
ألفاظ القرآن

للدكتور إبراهيم عوضين

العربية لغة البيان القرآنى ولسانه ، لا شك فى هذا على اجماله ، فقد قال الله تعالى : « **انا أنزلناه قرآنا عربيا** » • (٢ يوسف)

واللسان أو اللغة لاتعنى شيئا واحدا — كما قد يتبادر الى الذهن — انما تعنى مناحى ثلاثة هى : المادة ، والشكل ، والروح • ولكل أبعاده ومظاهره وأسسه •

أما مادة اللغة فهى اللفظ المستعمل فى اللغة ، حيث تتميز كل لغة بألفاظها ، بالقدر الذى يتناسب مع أهلها وقدراتهم الصوتية التى تمنحهم اياها بيئاتهم المختلفة •

وأما شكل اللغة فهو ذلك البناء التركيبى القائم على تجميع الالفاظ فى هيئة معينة توحى بها طبيعة الحياة التى تكتنف أصحابها ، حيث يختلف بناء الجملة فى لغة عنه فى لغة أخرى •

وأما روح اللغة فمعانى التعبير وأخيلته ، حيث تتباين اللغات فى معانيها وأخيلتها ، استجابة لتباين البيئات البشرية ، اذ روح اللغة ترتبط أوثق الارتباط بمناخ كل لغة وبيئاتها وظروف حياة أبنائها ، وأسلوب تعاملهم ومعايشتهم •

ونحن حين نوجه بحثنا وتأملاتنا الى لغة البيان القرآنى نجد أن علينا تأمل كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة المكونة للغة على حدة ، حتى يتم لنا التعرف والتعريف الشافى بها ، وسنبدأ بعنصر الالفاظ فنقول:

ليس لدينا مجال بحث فى ألفاظ القرآن ونسبتها للعربية ، اذ أن اللغة معروفة ، والالفاظ محددة

المعنى ، واضحة الدلالة ، بينة الاصل .

بيد أن باب القول فى الفاظ القرآن لم يظل مغلقا ، بل لقد فتح ذاك الباب عنوة حين بدت اختلافات طائفة من الباحثين والدارسين فيه، فاضطررنا الى خوض البحث فيه ، شأن كثير من المباحث المتصلة بالقرآن الكريم !.

ان دارس القرآن الكريم ولغته يواجه بأقوال منسوبة الى الاقدمين تبدو متضاربة حول طائفة من الفاظه ، لما رأوا فيها من الغرابة .

فقد قالت جماعة بأن هذه الالفاظ ليست من لغة العرب ، وعملت على ارجاعها الى أصولها ونسبتها الى لغاتها غير العربية . وكان فى مقدمة هذه الجماعة عبد الله بن عباس ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وأبو موسى الاشعرى .

فكلمة (الطور) معناها جبل بالسريانية ، و (هدنا اليك) معناها تبنا اليك بالعبرانية ، وكلمة (درى) معناها مضىء بالحبشية ، و(قسورة) تعنى الاسد الحبشية .

وقرر آخرون أن القرآن الكريم عربى ، لغته عربية خالصة ، ليس فيه أية ألفاظ غير عربية ، لأن الله تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ودلالة قاطعة لصدقه ، وليتحدى العرب العرباء به ، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته ، فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة .

والى هذا ذهب الامام الشافعى ، وبه قال جمهور العلماء ، ومنهم : أبو عبيدة ، ومحمد بن جرير الطبرى ، والقاضى أبو بكر بن الطيب ، وأبو الحسين بن فارس اللغوى وغيرهم (١) .

ثم اختلف هؤلاء فى نحو تاك الكلمات التى نسبت الى لغات غير العربية .

فقال الطبرى : هذه الامثلة والحروف التى تنسب الى سائر اللغات انما اتفق فيها أن تواردت اللغات فتكلمت بها العرب والفرس

(١) الرسالة للامام الشافعى ص ٤١ بتحقيق أحمد محمد شاكر .

والحبشة بلفظ واحد . وحكاه ابن فارس عن أبى عبيدة (١) .

واستبعد ابن عطية هذا الذى قال به ابن جرير الطبرى ، ثم قرر أن القرآن بلسان عـــربى مبين ، فليس فيه لفظة تخرج عن كـــلام العرب فلا نفهمها الا من لســان آخر .

أما هذه الالفاظ وما جرى مجراها فقد عربت قبل نزول القرآن بتغيير بعضها بالنقص من حروفها وتخفيف ثقيل عجمتها واستعملتها العرب فى اشعارها ومحاوراتها حتى جــرت مجرى العربى الصريح ، ووقـــع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن الكريم (٢) .

وقال القاضى أبو المعالى عزيزى ابن عبد الملك : انما وجدت هذه فى كلام العرب لانها أوسع اللغـــات وأكثرها ألفاظـــا ، ويجوز أن يكون العرب قد سبقها غيرهم الى هـــذه الالفاظ .

ونسب أبو عبيد القاســـم بن سلام القول بوقوعه الى الفقهاء ، ونسب المنع الى أهل العربية . ثم قال : والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا ، وذلك أن هذه الاحرف أصولها أعجمية ، كما قال الفقهاء ، الا أنها ســقطت الى العرب فعربتها بألسنتها ، وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظهـــا ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صـــادق ، ومن قال أعجمية فصادق (٣) .

* * *

حول هذه الآراء دار الاختلاف فى بعض كلمات القرآن الكريم .

وواضح أن هذا الاختلاف يقوم على واحد من اتجاهين هما : القول بأن فى القرآن الكريم ما هـــو غير عربى ، والقول بأنه لا يمكن أن يكون فى القرآن ما هو غير عربى .

أما القول الأول فلا يصح أن

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٣ وما بعدها بتحقيق أحمـــد محمد شـــاكر .
(٢) تفسير ابن عطية جـ ١
(٣) الصاحبى فى فقه اللغة لاحمد بن فارس ص ٢٩ .

يكون ــ أياكانت تعليلاته ــ مع قول الله تعالى :

«وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .
(٥ ابراهيم)

« وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

(٦٤ النحل)

« أن أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .

(٢ يوسف)

« وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ».
(١٩٢ ــ ١٩٥ الشعراء)

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد » .

(١١٣ طه)

« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون » .
(٢٧ ، ٢٨ الزمر)

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » .
(٣ فصلت)

« وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » .
(٧ الشورى)

« أنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .
(٣ الزخرف)

« ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا » .
(١٢ الاحقاف)

فقد وصف جل شأنه القرآن الكريم فى تلك الآيات ــ على اختلاف مواردها ــ بأنه عربى مبين ، وأنه بلسان عربى مبين ، وأنه عربى غير ذى عوج، وأنه لسان عربى . فكيف يسوغ ــ مع هذه الصفات المتكررة ــ لقائل أن يزعم بأن فى القرآن ما هو غير عربى ؟ !

بل لقد شاء سبحانه وتعالى الا يقف بنا عند حد الصفات المثبتة ، فعرفنا بلغة القرآن بطريق السلب فى قوله :

« ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

(١٠٣ النحل)

حيث يخبر سبحانه وتعالى عن قالة طائفة من المشركين ، فقد ادعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما جاء بما جاء من القرآن الا اثرا من التقائه ببعض أهل الكتاب حيث تعلم منهم وأخذ عنهم ما قال . ثم يفند سبحانه هذه الدعوى فى ايجاز واضح مقنع ، وذلك بلفت النظر الى اللغة التى يقدم فيها تلك الاحكام والتعاليم ، حيث الخلاف البين بين لغة من يدعون أنه يعلمه وبين لغة القرآن الكريم .. **« لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .**

اذن أين مكان الكلمات غير العربية من هذا اللسان العربى المبين ؟ !

ان المؤمن بكتاب يتناقض مع ما آمن به لو أنه خالج نفسه مجرد شك فى أن بعض القرآن غير عربى ، لما فى ذلك من نفى العربية عن بعض القرآن، ولما فيه من اثبات الاعجمية – كذلك – لبعض القرآن . والله سبحانه وتعالى يصف القرآن بأنه عربى مبين ، وينفى عن القرآن جميعه أن يكون ذاعوج أو يكون أعجميا .

وليس لنا أن نخصص مشمول الصفة التى وصف الله تعالى بها كتابه ، لانه لو صح ذلك لكان جائزا أن يقول واحد : بعض القرآن حبشى لا عربى، أو فارسى لا عربى، وأن يقول آخر : القرآن حبشى أو فارسى أو رومى أو أعجمى ، وذلك لأن مبدأ تخصيص شمول الصفة يعتمد على وصف الله تعالى القرآن بأنه عربى انما هو وصف يقوم على تغليب احدى الصفات على سائر الصفات الاخرى ، ومثل ذلك يجيز للآخرين أن يغلبوا احدى الصفات الاخرى ، فيقولون : هو حبشى ، أو هو رومى .. الخ .

ومن ثم فمنطق الايمان يستبعد أن يكون فى القرآن الكريم كلاما غير عربى ، قل ذلك أو كثر .

* * *

فاذا ذهبنا الى منطق التاريخ اللغوى والتاريخ العام نجدهما يقرران أن القرآن لا يشتمل الا ما هو عربى •

يقول جرجى زيدان فى كتابه (اللغة العربية كائن حى) :

نعتقد أن اللغة العربية نشأت ونمت ، أى تميزت فيها الاسماء والافعال والحروف ، وتكونت فيها معظم الاشتقاقات والمزيدات ، وهى لا تزال فى حجر أمها ، أى قبل أن تنفصل عن أخواتها (الكلدانية والعبرانية والفينيقية) وغيرها من اللغات السامية • وبعبارة أخرى : ان أم هذه اللغات — ويسمونها اللغة السامية أو الآرامية — تم نموها ، فتكونت أفعالها وأسماؤها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل أن يتشتت أهلها أو ينزحوا الى فينيقية وجزيرة العرب وما بين النهرين ، حيث اختلفت لغة كل قوم منهم بعد ذلك النزوح باختلاف أحوالهم •• فتولدت منها اللغات السامية المعروفة — مع وجود اختلاف كبير حول المهد الاصلى للسامية ، فهى أرمينية ، أو شمال أفريقية ، أو شبه الجزيرة العربية ، أو ما بين النهرين أو بلاد العموريين فى سورية — فالساميون الذين نزلوا جزيرة العرب تنوعت لغتهم تنوعا يناسب ما يحيط بهم من الاحوال ، فتميزت عن أخواتها بأمور خاصة هى خصائص اللغة السامية الاصلية •

وتشعبت هذه اللغة فى أثناء ذلك الى فروع يختلف بعضها عن بعض باختلاف الاصقاع ، وهى لغة الحجاز ، واليمن ، والحبشة • وتفرعت لغة كل من تلك البقاع الى فروع باعتبار القبائل والبطون •• الخ (١) •

من ذلك يتبين أن اللغة العربية فرع من فروع السامية الأم ، وأن هذا الفرع كذلك نشأ عنه فروع هى لغة الحجاز واليمن والحبشة •

ومن ثم فاذا وجدت فى اللغة العربية كلمة تماثلها أخرى فى لغة

---

(١) «اللغة العربية كائن حى» لجرجى زيدان ص ٢٨ ، ٢٩ طبع دار الهلال

الحبشة لم يكن من المنطق العاقل أن نسلب عنها عربيتها لذلك السبب.

بل ان الامر على العكس من ذلك فالحبشـــــية واليمنية فرعان عن العربية المتفرعة عن السامية.

فاما أن نسلم بوجود المشترك بين اللغات باعتبار أن الاصل واحد، واما أن نقرر بأن كل ما هو حبشى عـــربى. وليس العـــكس، لأن الحبشية فرع العربية.

هذا بالنسبة للعلاقة بين العربية وشقيقاتها أو فروعها الساميات من حبشية وعبرية ويمنية.

أما عن العلاقة بين العربيـــة واليونانية فالتـــاريخ البشرى واللغوى يقرران وجود العلاقـــة القديمة بين الحضـــارة العـــربية والحضارة اليونانية منذ عصر الملك (قدموس) ــ على ما ذكر العقاد ــ ولعل أوضح مظاهر تلك العلاقـــة موافقة الابجدية التى يكتبهـــا اليونانيون فى عصرنا هذا بترتيبهـــا حرفا حرفا لترتيب الابجـــدية العربية، اللهـــم الا اذا كان فى الابجدية العربية حرف من حروف، الحلق، فانه فى الابجدية اليونانية يقابل بحرف آخر يقاربه فى النطق الاوربى، لان الاوربيين لا ينطقون حروف الحلق كما هـــو معلوم لاختلافات عضوية فى أدوات النطق بعامل البيئة.

فالابجدية اليـــونانية تبتدىء بحروف (ألفا وبيتا وجاما ودلتا) وهى حروف الالف والباء والجيم والدال فى (أبجد) وعلى ترتيبهـــا نفسه، ثم تتقابل حروف (هوز) بما يقاربها مع اختلاف نطق الهاء ونطق الواو حيث تكون حركـــة من عندهم وحرفا منطوقا عندنا فى بعض الاحيان. ثم تأتى حروف (كلمن) متتابعة كما هى عندنـــا بغير اختلاف لخلوها من حـــروف الحلق والمد، وهم ينطقونهـــا (كافا، ولا متا، ومى، ونى)، ويتبعونها ببقية حروفنا على النحو الذى أشرنا اليه (١).

ولا يمكن أن تكون تلك الموافقة الا بين آخذ ومأخوذ عنه.

---

(١) «اشتات ومجتمعات فى اللغة والادب» للعقاد ص ٢٥ طبع دار المعارف.

وغير مقبول أن تكون العربيـــة هى الآخذة عن اليونانية لأن أسماء الحروف العربية عرفت بمعانيهـــا وأشـــكالها ، أما فى اليونانية فلم يعرف لها معنى ولا شكل يعود بها الى لغة من لغات الاوربيين •

ومن معانى هذه الحـــروف فى العربية ما نفهمه فى أحاديثنا اليومية الى هذه الايام ، كالباء من البيت ، والجيم من الجمل ، والعين مـــن العين المبصرة ، والكاف من الكف ، والنون من النون أى الحوت •

ومن ثم فاذا صادفنا فى اللغـــة العربية كلمة تماثلها أخرى فى لغـــة من اللغات الاوربية لم يكن معنى ذلك أن العربية أخذتها عنتلك اللغة، وانما الامر على العكس من ذاك ، يعنى أن اللغة الاخـــرى هى التى أخذتها عن العربية لان العربية هى اللغة الاقدم ، وحضـــارتها هى الحضارة المعطاءة منذ أكثـــر من خمسين قرنا •

ومن هذا يتبين لنا أن أصـــحاب القول الأول حين نســـبوا بعض كلمات القرآن الكريم الى الحبشية أو العبرانية أو الرومية أو الفارسية لم يسلبوا عن تلك الكلمات عربيتها فى واقع الامر ــ وان ظنوا ذلك ــ لأن العربية أصل تلك اللغات جميعا، عـــلى ما تبين لنـــــا من النظرة التاريخية •

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر أن لغة القرآن عربية خالصة ، صدورا من منطق الايمان بما جاء به القرآن نفسه ، ومن منطق التاريخ اللغوى والتاريخ العام •

ثم من منطق العقل المجرد من الغرض •• !

وذلك لأن نســـبة بعض الكلام الى لغات غير العرب لا ينفى عنهـــا عربيتها ، فلم يرد نص ثابت يقرر أن شيئا من هذا الكلام لم يكن من كلام العرب قبل نزول القرآن ، أو أن العرب كانوا يجهلونه •

فنسبة الكلمة الى من يعرفهـــا أو يعرف اســـــتعمالها أو الى من سمعت منه لا ينفى أن هناك غيره يعرف اســـتعمالها وسمعت منه ، وبالتالى يصح نسبتها اليه كذلك •

فالكلمة التى يستعملها العـــربى وحده تكون عربية ، والكلمـــة التى يستعملها الفارسى وحده تكـــــون

فارسية ، ولكن هذا لا يعنى أنهما متنافران لا يلتقيان حول كلمة يستعملها العربى كما يستعملها الفارسى ، فتكون عربية فارسية ، وذلك كالدرهم والدنيار ، والدواة والقلم والقرطاس .

ولا يظنن ظان أن اجتماع ذلك فى الكلام مستحيل ، فقد عرفنا من تاريخ اللغة أن اللغات العربية والحبشية والعبرانية والفينيقية من أصل واحد .

هذا الى أن الكلام ينسب الى من يعرف أنه يستعمله ، ومثل ذلك لا ينشأ عنه تناقض، وانما التناقض ينشأ من وصف الشىء بصفتين لا يلتقيان فى شىء واحد ، كالقيام والقعود فى وقت واحد من شخص واحد .

ومن ثم فالكلمة اذا نسبت الى جنس لم يلزم عليه نفيها عن غيره من الاجناس الاخرى ، فقولنا فلان قائم لا ينفى عنه الكلام والضحك ، ولا ينفى القيام عن غيره ، وانما الذى ينفى عنه هو نقيض القيام فقط وهو القعود فى الوقت نفسه .

وبذلك يتقرر أن لغة البيان القرآنى هى العربية ، وأن عربية القرآن ضرورة يحتمها النص القرآنى ، ويسلم بها الواقع التاريخى ، ويوجبها العقل .

دكتور / ابراهيم عوضين

« حوائج الناس اليكم نعمة » .

قال فيض بن اسحاق : « كنت عند الفضيل بن عياض اذ دخل عليه رجل فسأله حاجة والح فى السؤال فقلت : لا تؤذ الشيخ .

فقال لى الفضيل : اسكت يا فيض ، أما علمت أن حوائج الناس اليكم نعمة من الله فاحذروا أن تملوا النعم فتتحول نقما ، ألا تحمد ربك أن جعلك موضعا للسؤال .

ملامح الأصالة في الفكر العربي الإسلامي

للدكتور عبد الحميد محمد العبيسى

تشير الدراسات الفكرية الحديثة الى أن قضية أصالة الفكر العربى الاسلامى لم تعد بحاجة ما الى اثبات أو تأكيد ، فقد بات مقررا خطأ تلك الفكرة الشاذة التى كان يروج لها البعض بنفى أصالة هذا الفكر العربى الاسلامى ، ومحو شخصيته !! ..

وفى مواجهة محاولات الغزو الفكرى الاجنبى التى تهدف فيما تهدف الى الغاء كل أصالة ، وانكار كل ابداع لدى الامة العربية والاسلامية — فانه قد يكون من المفيد حقا أن نعرض فى تلك الدراسة بشىء من التركيز — أبرز سمات الأصالة فى فكرنا العربى الاسلامى العريق ، وهى كبرى قضاياه ، لأنها تمس الوجود الاسلامى كله فى الصميم .

ان المتأمل فى جوهر هذا الفكر الاسلامى ، وطبيعة نشأته الاولى القرآنية ، يدرك بجلاء أنه قد انبعث من باطن الامة الاسلامية ، وصدر عن ذاتيتها الفرقانية ، ليغدو أداة تعبير عن منهج حياتها، وليطور مظاهر رقيها وحضارتها ، وليضىء مسالك مسيرتها ، وليصور أمانى وآلام أفرادها وجماعاتها .!

كما يعلم الباحث حقيقة الاختلاف فى طبيعة الفكر الانسانى من أمة الى أمة ، ومناط التفاوت بين مذاهبه وقضاياه ، واذا كان الفكر العربى الاسلامى يمثل حلقة من حلقات الفكر الانسانى — فان

ذلك لا يعنى أن تتطابق أو تتشابه الافكار فى جوهر مذاهبها ، بل تختلف تبعا لاختلاف واقع البنية الأجتماعية واللغوية لتلك المجتمعات فلنا أن نتساءل : هل تشابه اليونان مع الهنود فى شىء ؟ وهل استطاع الهنود — وهم أمة آرية عريقة — أن تقدم للانسانية ما قدمه اليونان؟ وهل استطاعت ايران القديمة — وهى أمة آرية أخرى — أن تقدم للفكر الانسانى ما قدمه الهنود أو اليونان ؟ لكن المسلمين القادمين من شبه جزيرة العرب بتلبيتهم دعوة القرآن فى بسط السيطرة على الحياة ، وايجاد الابداع العملى فى أرجائها ، والتحامهم بغيرهم من الامم والشعوب ، وتكوينهم معدلا بشريا جديدا ، ومزيجا فكريا فريدا — استطاع هؤلاء العرب المسلمون أن يقدموا للانسانية كلها فكرا خلاقا لم يعرفه اليونان ولا غيرهم !! •

وكذلك يقف الدارس الفاحص على خصائص المنهج التجريبى أو الاستقرائى ، كمنهج ادراكى تأملى وهو المنهج الذى ابتكره المسلمون الاولون وصاغوه ، وطبقوه علميا وعمليا ، فصبغ حضارتهم وثقافتهم معا ، بخلاف ذلك المنهج العقلى القياسى الذى ارتضاه اليونان ، حيث احتقر (أرسطو) معلمهم : التجربة ، والتجريب ، بقوله :

« النظر للسادة ، والتجربة للعبيد •• » ، بل ان فكرة القياس التى افترعها العرب المسلمون تجافى تماما : القياس الارسطى ، اذ أن قياس اليونان يعتمد على حركة فكرية ينتقل فيها العقل من حكم كلى الى أحكام جزئية ، أو من حكم عام الى حكم خاص ، بواسطة استخدام الحد الثالث •

بينما قياس العرب المسلمين يكون الانتقال فيه من حالة جزئية الى حالة جزئية ، لوجود جامع وشبه بينهما ، بواسطة تحقيق علمى دقيق !•

ولقد سيطر ذلك المنهج التجريبى العربى الاسلامى سيطرة كاملة على مناهج العلماء الغربيين منذ أواخر العصر الوسيط لدى (روجر بيكون) وحتى عصرنا الحديث ، وبخاصة

فى العلوم : الطبيعية ، والكيمائية، والدراسات التاريخية، والاجتماعية والنفسية ، وغيرها .

ومن المعلوم أن الفلسفة العملية التى شغل المسلمون بوضعها فى ضوء الهدى القرآنى ، وهم يسعون نحو صياغة منهجهم التجريبى المتميز — كانت هذه الفلسفة تدرك بداهة عجز العقل الانسانى عن التوصل الى الشىء فى ذاته ، وادراك كنهه وحقيقته ، ومن ثم فلا مجال للبحث فى تلك المسائل التوقيفية التى لم يشأ الوحى كشفها للرسول (ص) نفسه فان القرآن الكريم قد حدد مسائل : « ما بعد الطبيعة » تحديدا وافيا وطاب عدم البحث فيما وراءها ، ثم حث على النظر فى آفاق الكون، والبصر فى أنفس البشر ، ترسيخا لقاعدة الايمان فى القلوب ، وواضح أن هذا بحث عن (الخصائص) ، لا عن (الجوهر) الذى لا طائل من ورائه ، على أن الفكر اليونانى بمذاهبه المتعددة المتعارضة — يبدو تعبيرا خاصا متلائما صادرا عن ذات مفسرة فى عالم يموج بتيارات الالحاد — بخلاف الفكر العربى الاسلامى الذى يأبى (بقوة) هذا النمط الشاذ من التفكير ، بل المخالف لصورة الكون الجلية العميقة، وبدهى أن الاسلام دين اجتماعى لايأخذ بمبدأ الفردية فى التفسير الوجودى .

وأبسط ما يقال : ان روح الفكر اليونانى مجافية لروح الفكر الاسلامى ، فان الروح اليونانية حينما أعلنت ايمانها الكامل بفناء الفرد فناء أبديا ، وبخلود النوع خلودا سرمديا ، لم تعرف قصة البعث ، ومن ثم لم تدرك قصة الخالق ! وظلت هذه الروح تبحث هائمة فى زوايا العقل عن الحقيقة، فضلت الطريق اليها ، لانها لم تعلم أن هناك قوة علوية فوق هذا الوجود العقلى ! .

لكن الروح الاسلامية كانت منسجمة تماما مع هذه الحقيقة الكبرى ، فقد كفى القرآن المسلمين عناء البحث عنها ، ووضح لهم أصول الغيبيات ، وبين لهم حدود العقل الانسانى وآفاقه ، ومدى

فاعليته ، ثم نهاهم عن الخوض فى علل الوجود ، وحذرهم منها ! •

وقد استطاعت هذه الروح الاسلامية أن تقدم للبشرية كلها : فلسفة مسلمة معبرة عن حقائق واضحة كاملة فى الجانب الالهى ، والعالم الطبيعى ، والكيان الانسانى •

ولا بدع فى ذلك ، فان الامة التى تفتح قلوبها لبواعث الهدى ودلائله فى الكون والنفس — هى أمة مهتدية الى الله سبحانه بالاهتداء الى نواميسه المؤدية الى معرفته وطاعته ، والامة التى تغلق قلوبها، وتصم آذانها دون تلك البواعث والدلائل هى أمة ضالة ضائعة تزداد ضلالا وضياعا كلما زدات اعراضا عن الهدى وبواعثه •

واذ وضح لك هذا التباين بين الفكر اليونانى وبين الفكر العربى الاسلامى فى الاسلوب ، والمنهج ، والخصائص — فهل يمكن قبول هذه الدعوى المزعومة من أن الفكر الاسلامى صورة من الفكر اليونانى وأن (أرسطو) هو المعلم الاول للمسلمين فى الفلسفة الى جانب أنه المعلم الاول فى علم البيان العربى(١) !!؟•

وان نظرة فاحصة الى الخريطة فى شبه الجزيرة العربية حين ظهور الاسلام لترينا أن العرب فى مجموعهم كانوا يدينون بالوثنية ، وأن قلة منهم محدودة آمنت باليهودية والمسيحية ، وهذا دليل على انعدام أثر ما لهاتين الديانتين فى الجانب الفكرى عند العرب المسلمين •

وحتى الفلسفات الوضعية الاخرى وبخاصة الهندية لم تجد رواجا لدى العرب ، ولا يكاد الباحث يجد لها أثرا فى الحياة الفكرية عندهم •• وعلى هذا فيمكن القول : ان الفلسفة المسلمة — وهى احدى شعب الفكر الاسلامى — ظلت بمنأى عن الافكار الاخرى •

---

(١) حسين : د. طه — مقدمة نقد النثر لابن وهب •

أما ما عرف بالفلسفة الاسلامية التى رأيناها عند الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن طفيل ، وابن باجة وغيرهم ــ فان هذه الفلسفة شابتها فلسفات أجنبية وبخاصة اليونانية بعد ترجمة مصادرها الى العربية خلال القرن الثالث الهجرى وقد اعتبرها بعض (١) المعاصرين : « ترفا علميا قامت به مجموعة من الاسلاميين انفصلت فكريا عن هذا المجتمع الاسلامى » .

وقد يكون من الاولى أن نتناول بشىء من التفصيل شعب الفكر العربى الاسلامى الاخرى المتمثلة فى : فلسفة النحو والبلاغة واللغة وعلم الاجتماع ، وعلم الكلام ، وعلم أصول الاحكام ، وعلم التصوف ، لتتضح لنا مدى أصالة هذه الانماط وابداعها :

أولا ــ فلسفة النحو ، والبلاغة ، واللغة :

لا جدال فى أن نزول القرآن الكريم المصدر الاساسى للتفكير عند المسلمين بلغة العرب كان عاملا مهما فى نشر هذه اللغة عالميا ، وصبغها بالقدسية والجلال ، ولقد كان ظهور النحو ، وبروز البلاغة من أهم الظاهرات التى جعلت تبحث من منطلق فكرى رتيب ، لتأكيد عالمية تلك اللغة الشاعرة الشريفة ، وتكون النحو العربى معتمدا على دوافع لغوية فى البداية وسرعان ما نضج واستوى بأحكامه وقضاياه ومذاهبه على يد (ابن الانبارى) فى القرن الخامس الهجرى ، ولا ريب أن هذا التفكير النحوى الاصيل المستند الى أعماق اللغة ، وأصول الاحكام قد صدرت عنه فلسفة اسلامية خالصة فيها تتضح فكرة الزمان بأحواله : (الماضوية ، والحاضرية ، والمستقبلية) ، كما تبدو فكرة العلية ، والاخذ بالقياس النحوى بالاضافة الى السماع الذى هو الاصل .

---

(١) النشار : د. على ــ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج ١ ص٢٢٦

أما حظ البلاغة فكان أوفر ، باعتبارها علما حضاريا يحقق الارتباط بين المتكلم وبين المخاطب أو السامع ، ويقدم الكلام في صورة محببة ، وخصوصية مقبولة ، فيكتسب الكلام قوة وشرفا ، ويتحقق الغرض من القاء الكلام ، ولقد نضج هذا العلم على يد الامام (عبد القاهر الجرجانى) فى القرن الخامس الهجرى كذلك ، وقد استطاع بكتابيه البلاغيين المشهورين : (أسرار البلاغة) ، و (دلائل الاعجاز) — وضع ، وصياغة أهم نظرية فى العلاقات بين الكلم ، وهى النظرية التى عرفت باسم « النظم » ، توصلا الى اثبات اعجاز القرآن بنظمه ونسقه .

وجهود الجرجانى تكشف عن تفكير عربى اسلامى خالص ، مما يجعلنا مطمئنين الى أصالة فكرنا الاسلامى فى هذا المجال ، ومدى ابداعه واقتداره على المستوى العالمى ، وما يزال تأثيره فى الفكر الغربى بخاصة قائما حتى الآن(١) .

ثانيا — علم الاجتماع :

ويسميه البعض فلسفة التاريخ أو السياسة ، ونرى فيه اتجاهين مختلفين :

١ — الاتجاه الاول : ويقوده الماوردى فى (الاحكام السلطانية) بنظريته السياسية ، ومن بعده فلاسفة المنهج التاريخى من المسلمين كالمسعودى ، واليعقوبى ، والطبرى ، والغزالى ، ثم ينتهى الى ابن خلدون صاحب المقدمة ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وابن الأزرق .. وخير مثل توضيحى لهذا الاتجاه المسلم الخالص هو مؤلف ابن خلدون (المقدمة) التى استقى مادتها من التاريخ الاسلامى والعالمى ، كما ارتكز على البناء الفقهى ، والكلامى ، والسياسى للفكر الاسلامى — فى عرض فكرته .

---

(١) العبيسى : د. عبد الحميد — الاعجاز النظمى للقرآن ص ٧٢ .

٢ ـ الاتجاه الثـانى : وكان يقوده عبد الله بن المقفـع الكاتب الاديب ، وغـيره من المفـكرين الاعاجم من بعده ، الى أن انتهى الى الفارابى وغيره من الفلاسـفة الاسلاميين •

ولا شك أن هـذا الاتجاه يتميز بالحرص على التوفيق ، والتنسيق بين الفكر الاسـلامى وبين الفكر اليـونانى ـ ما أمكن ـ فبـدت صورته مشوبة غير خالصة للروح الاسلامية •

وعليه فانا مطمئنون الى ابداع الفكر الاجتماعى من خلال الاتجاه الاول دون الثانى ••

ثالثا ـ علم الكلام :

ويطلق عليه علم التوحيد ، وقد أودع المسلمون فى نطـاقه علمهم العظيم فى تفسير الكون ، ومعرفة القوانين الوجودية ، وتوصلهم الى مفهوم للوجود وللحركة وللعلة على نحو مخالف لمفهوم اليونان ، وقـد حقق علماء التوحيد بهذا سبقا على مفكرى أوربا المحدثين !!•

وحقيقة الامر فان المطلع عـلى جهود علماء الكلام المسلمين يدرك بيقين أن هذا العلم ظل اسـلاميا خالصـا حتى القـرن الخـامس الهجرى ، ثم دخلته عناصر يونانية ومزج بالعلوم الفلسفية •

وقد أنكر بعض فقهـاء المسلمين هذا الاتجاه الذى فرضـته ظروف ـ فيما يظهـر ـ من رد هجـوم الآباء المسيحيين على الاسلام منذ فتحت بلادهم ، ودخلها المسلمون، وواضح أن هؤلاء الآباء كانوا قد درسوا منطق (أرسطو) ، واتخذوه أساسا فى حوارهم وجدالهم مـع المسلمين ، فكان عـلى علماء الكلام المسلمين أن يستخدموا هذا المنطق اليونانى ، درءا للخطر ، ودفاعا عن العقيدة •• وعـلى الرغم من ذلك فان علم الكلام بأى مقياس يظـل مفخرة للتفكير الاسلامى الخالص، وتبدو فيه الاصالة جلية !!•

رابعا ـ علم أصول الاحكام :

ويطلق عليه اسم (أصول الفقه) وتتضح أصالته فى أنه منهج الفقيه ومسلكه ، بل أداته ومنطقـه ، اذ

بقواعده يتسنى للفقيه أن يستنبط الاحكام ، وقد أرسى قواعده ، وأقام مبادئه الصحابة الاولون حين تحدثوا عن : نقد الاخبار ،والقياس وقد أضاف التابعون بعد ذلك بعض عناصره حتى رأيناه كاملا على يد الامام الشافعى وتلاميذه .

وقد قدر لعلماء الكلام من الاشاعرة والمعتزلة أن يؤلفوا فى أصول الفقه فكانت صورة الاختلاط بين علمى الكلام ، وأصول الاحكام فى العصور المتأخرة ، مما أسفر عن وجود مذهب فلسفى متكامل : نظرية فى المعرفة ، ونظرية فى المنهج ، ثم تطبيق لهذا المنهج ، ثم بحث الهى ، وأخلاقى .

خامسا ــ التصوف الاسلامى :

ونجد فيه تيارين :

١ ــ تيار فلسفى : وقد تأثر بأخلاط من الفكر اليونانى ، وبخاصة الافلاطونية المحدثة ، والمجموعة الهرمسية ، وبعض الافكار الاجنبيةالاخرى ، وأمشاج من اليهودية والمسيحية والاسلام !

٢ ــ تيار مسلم : ويستمد أصوله من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، ويهتم بالجانب السلوكى فى الانسان ، ويركز على الناحية الخلقية فيه ، كما ينكرعلى التيار الاول الفلسفى معظم عقائده .

وهذا التصوف المسلم الخالص فى جوهره ثورة اجتماعية على الترف العقلى من جهة ، وعلى الترف الاجتماعى والاقتصادى من جهة أخرى .. وقد استطاع التصوف المسلم أن يصف حركات القلب الدقيقة ، ويضع المذهب الذوقى فى الاسلام ، ويكتشف فكرة الضمير ، ويجعل من التصوف سبيلا لثورة المحرومين الفقراءعلى مجتمع القهر والاحتكار .

وهذه كلها بلا شك نسجلها له بكلاعزاز ، وهى أمور تنهض دليلا على ابداعه .

وخلاصة القول : أن هناكجانبا كبيرا من الفكر الاسلامى قد خلص من شوائب الثقافات الاجنبية ،

مما أبقى على ذاتيته الاسلامية ، كما أن هناك جانبا أخيرا محدودا كان للتأثير الاجنبى دوره فى جعله فكرا مشوبا غير خالص .

وعمـوما فان الفكر العـربى الاسلامى فى شتى العصـور ، ومختلف الأمكنـة يبدو أصـيلا فى مناحيه ، كما يظهر مبـدعا فى مجالاته ، وواجبنا جميعـا أن نراجع باسـتمرار جـوانب الفكر الاسلامى المضيئة ، لنبدد الغشاوات وننقض الشبهات واللـه متم نوره ولو كره الكافرون .

د. عبد الحميد العبيسى

« رءوس النعم »

قيل رءوس النعم ثلاثة :

أولها : نعمة الاسلام التى لا تتم النعم الا بها .

ثانيها : نعمة العافية التى لا تطيب الحياة الا بها .

ثالثها : نعمة الغنى التى لا يتم العيش الا بها .

الأزهر جامعاً وجامعة
أو مصر فى ألف عـــام

للاستاذ محمد كمال السيد

— ١٢ —

ذكرنا فى المقال السابق توســـع الخديوى اسماعيل فى حـــركة التعليم بمصر • وكان على رأس هذه الحركة ثلاثة رجال : اثنان منهم أزهريا النشأة ، هما : رفاعـــة بك رافع الطهطاوى وعبـــد اللـــه باشا فكرى • والثالث أزهـــرى النزعة وهو على باشا مبارك •

أما رفاعة رافع فقد مر ذكـــره فى المقال السابق •

وعبد الله باشا فكرى (١٨٣٤ — ١٨٨٩ م = ١٢٥٠ — ١٣٠٧هـ) هو الاديب الشاعر الناثر • كان جده الشيخ عبد الله محمـــد من العلماء المدرسين بالأزهر • وتلقى أبوه : محمد افندى بليغ العلـــم بالازهر ، ثم بالمدارس الحكوميـــة حتى تخرج مهندســـا التحـــق بالجيش المصرى • واشـــترك فى حرب المورة (اليونان) فى عهـــد محمد على • حيث أتى منها بوالدة عبد الله فكرى • ثم ذهب بها الى الحجاز مع الجيش المصرى حيث ولدت المذكور فى مكة المكرمة •

وتوفى أبوه وهو صـــغير فكفله بعض أقاربه • فأحفظه القـــرآن ثم أرسله الى الازهر حيث تلقى العلوم الدينية واللغـــوية التى كانت تدرس به وقتذاك • وأتقن علاوة على ذلك اللغة التركية مما أهله أن يعين فى وظيفة مترجم • ثم انضم الى حاشية سعيد باشا ومن بعده الى حاشية اسماعيـــل باشا • فعينه مدرســـا لأولاده وبعض أمراء الاسرة الحاكمة — ومنهم الخديوى توفيق والسلطان

حسين كامل ولدا اســـماعيل — وتقلب فى عدة وظائف حتى وصل الى نظارة المعارف ســـنة ١٨٨٢ (١٢٩٩ هـ) وكان محمود سامى باشا البارودى ناظرا للنظار .

وقامت الثورة العـــرابية . فسقطت الوزارة . واتهم عبد الله فكرى بالانضمام الى الثـــورة فسجن وأوقف صرف معاشه . ثم أطلق سراحه وعفا عنه الخديوى توفيق لما تقدم له بقصيدة طويلة يذكـــر فيها براءتـــه وأنه برغم اشتراكه فى الوزارة كان بعيـــدا عن أحداث الثورة . ورد اليـــه توفيق معاشه . فشـــكره بقصيدة طـــويلة مـــن تســـعين بيتا . وقد أورد له على مبارك ترجمـــة مطولة ذكـــر فيها القصـــيدتين وغيرهما (الخطط التوفيقية حـ ٢ ص ٤٦) .

ويعد عبد اللـــه فكـــرى من واضـــعى الاصطلاحات والالفاظ الديوانية المصرية الحديثة وبعضها مقتبس من اصطلاحات دولـــة المماليك . وشعره متوسط الجودة وتوفى سنة ١٣٠٧ هـ ولم يذكـــر على مبارك تاريخ فاته ، لان الخطط التوفيقية انتهى طبعها ســـنة ١٣٠٦ هـ .

وعلى باشا مبـــارك (١٨٢٣ — ١٨٩٣ م = ١٢٣٩ — ١٣١١ هـ) هو العالم المؤرخ المهندس .فضله معروف فى نهضة التعليم والاكثار من المدارس .

التحق على مبارك بأحد كتاتيب قريته برمبال (محافظة الدقهلية) فحفظ به القرآن . ثم دخـــل مدرسة (أبو زعبل) . ثم مدرسة القصر العينى . فدرس الرياضة والهندسة . وأرسل الى أوربا فى بعثة سنة ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ) . ومكث هناك أربع ســـنوات درس فيها الهندسة والفنون الحربية .

وعينه عبـــاس حلمى الاول رئيســـا لديوان المدارس . لأنه مجاراة لرغبة عباس نفذ ما أراده من الغاء المدارس وادماجها جميعا فى مدرسة واحدة وبلغت نفقـــات التعليم فى عهد عباس الاول ٥٠٠٠ خمسة آلاف جنيه بعـــد أن كانت فى عهد جده محمـــد على ٨٨٠٠٠ جنيه .

وبعد عباس لم يكن مرضيا عنه في عهد سعيد • فأرسل فى حرب تركيا مع روسيا فى القرم ولاقى هناك مشقة وأهوالا •

وفى سنة ١٨٦٤ (١٢٨١ هـ) فى عهد اسماعيل عين وكيلا لديوان المدارس • ثم تقلب فى عدة وظائف : مديرا للسكة الحديدية • وناظرا للمعارف وللاشغال • وللاوقاف • وللقناطر الخيرية •

وفى أواخر عهد اسماعيل بلغ عدد التلاميذ ١٤٠٫٩٧٧ وعدد المدارس ٤٨١٧ مدرسة • وكان فى القاهرة وحدها مايزيد على ٢٩٥ مدرسة بلغ عدد تلاميذها ١٠٫٠٠٠ تلميذ • عدا طلبة الازهر الشريف والمعاهد الاجنبية والمعاهد التابعة للاوقاف • والمدارس الحربية (تاريخ مصر فى الفتح العثمانى تأليف عمر الاسكندرى وسليم حسن ص ٢٢٥) • وقد نقل المؤلفان عن ادون دى ليون فى كتابه عن اسماعيل مقارنة بين عدد المتعلمين ممن فى سن التعليم فى مصر وبين نظرائهم فى أوربا وقتذاك أن نسبة المتعلمين فى مصر تبلغ ٢٣٪ حين أنها تبلغ فى الدولة العثمانية ١٠٪ وفى روسيا ٣٪ وفى ايطاليا لم تتجاوز ٣١٪ •

وعندما قامت الثورة العرابية كان على مبارك من (المعتدلين) الذين لم ينضموا الى الثورة فعينه توفيق ناظرا للمعارف • وظل فى وظيفته الى قبيل وفاته • فاعتزل العمل وتوفى سنة ١٨٩٣ م (سنة ١٣١١ هـ) •

ومن آثاره الباقية انشاء دار الكتب سنة ١٨٧١ م • وانشاء مدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢ م •

دار الكتب :

جمع على مبارك الكتب المنسوخة باليد • والمصاحف المزخرفة التى كانت مبعثرة فى المساجد وفى أنحاء البلاد • كما أن الخديوى اسماعيل اشترى مجموعة الكتب التى كانت عند أخيه مصطفى فاضل بعد وفاته بمبلغ ٤٠٫٠٠٠ جنيه • وكان هذا وذاك نواة لدار الكتب التى جعل على مبارك مقرها بسراى مصطفى فاضل بدرب الجماميز (التى

اخترقها الآن شارع مجلس الشعب وفى جزء من مكانها توجد المدرسة الخديوية الحالية).

وظلت دار الكتب هناك حتى انشئت لها الدار بباب الخلق فى عهد عباس حلمى الثانى .

دار العلوم : خطوة لتطوير الازهر :

كان انشاء دار العلوم لتزويد المدارس بحاجتها من المدرسين . وكان طلبتها من النابهين من طلبة الازهر . ومدرسوها فى اللغة العربية والشريعة من علماء الأزهر . وكانت تدرس بمدرسة (دار العلوم) العلوم المختلفة من طبيعة وكيمياء ورياضيات ولغات تركية وفرنسية وغيرها مما كان الازهر قد ابتعد عن دراستها . فكان انشاء دار العلوم فى الواقع أولى المحاولات لتطوير أو اصلاح الازهر .

وكانت عند انشائها فى سراى مصطفى فاضل بدرب الجماميز السابق ذكرها . ثم نقلت الى سراى عثمان بك البرديسى بالناصرية (محل المدرسة السنية للبنات) . ثم الى مكانها الحالى فى المنيرة .

وفى سنة ١٩٤٥ ضمت مدرسة دار العلوم الى جامعة القاهرة وأصبحت احدى كلياتها . وبطل تخصصها بالطلبة الازهريين .

الخطط التوفيقية :

وأهم ما يذكر به على مبارك كتابه الخالد : الخطط التوفيقية (نسبة الى الخديوى توفيق) فى عشرين جزءا وما يقرب من ٢٨٠٠ صحيفة من القطع الكبير كاملة السطور تكلم فيها عن القاهرة وشوارعها وأحيائها وآثارها من مساجد ومدارس وقصور . وتاريخ كل ذلك . وتناول فيها المدن والقرى المصرية مرتبة ترتيبا أبجديا . ونشأة هذه القرى . حتى يرجع بعضها الى أصولها الفرعونية . وما فيها من زراعات وصناعات وما مر بها من أحداث تاريخية . وتراجم النابهين منها .

وتكلم عن مقياس النيل والنقود والمكاييل والموازين والأقيسة والترع والآلات الرافعة المركبة عليها وغير ذلك من المعلومات التى ترتفع بكتابه الى مستوى الموسوعات .

ويعد كتاب الخطط التوفيقية

وصـــــلا لأعمـال المؤرخ الكبير المقريزى • وبينهمـــا ما يقرب من الخمسة قرون •

مجلس شورى النواب :

وفى سنة ١٨٦٦ أنشأ اسـماعيل مجلس شورى النواب • لتأخذ مصر الشكل الدستورى للدول الاوربية • ولكنه كان مجلسا مشوها • مكونا من ٧٥ عضوا ينتخبهم مشـــايخ البـلاد والقرى • وللمديرين بذلك أثر كبير فى توجيه الانتخاب • ومدة المجلس ثلاث ســنوات • ثم يعاد الانتخاب •

ويكفى لمعرفة الحالة الثقافيـــة للأعضـــاء أنه نص فى اللائحــة التأسيســـية أنه فى الانتخـــاب السابع (أى بعد ١٨ سنة) يشترط فى العضو معرفة القراءة والكتابة • وفى الانتخاب العاشر (أى بعد ٢٧ سنة) يشترط هذا الشرط أيضا فى الناخبين •

وتقرر انعقاد المجلس سنويا مدة شهرين من ١٥ كيهك ــ ١٥ أمشير وكان هذا يوافق من ٢٤ ديسمبر الى ٢٢ فبراير) •

وذكر التقويم القبطى فى الفقرة السـابقة يرجع الى أن محمد على أصـدر أمره سنة ١٨٣٩ بأن يكون سير حسابات الحكومة المصرية على مقتضى السنة التوتية (نسـبة الى توت أول شـهور التقويم القبطى) وفى سنة ١٨٧٥ أصـــدر الخديوى اسماعيل أمرا باســتعمال التقويم الميـــلادى الجريجـورى فى مصر رسميا بجانب التقويم الهجرى •

السيد جمال الدين الأفغانى :

وفى سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٦ هـ) شهدت مصر حادثا من أهم المؤثرات فى مجـرى الأحـوال وهو قـدوم السيد جمال الدين الأفغانى •

وهو الزعيم الاسلامى الثائر • الذى رأى ما فيه الأمة الاسلامية من عوامـل التخلف والتفكـــك • وما عليه الدول الغربية من تقدم • فثار على هذه الأوضاع فى بلاده • ثم قدم الى مصر واســـتقر بها • واخـــذ يبث دعوته الى وحــــدة اسلامية • أو على الأقل الى دولة اسلامية تقود باقى الدول الاسلامية الى التقدم • ووجد فى مصر الارض الطيبة لانبات بذرة هـــذه الدولة ونموها •

وكان فى دروسه بالازهر • وفى الندوات الخاصة والعامة • يدعو المسلمين الى الاشتغال بالعلوم الحديثة من طبيعة وكيمياء ورياضيات • فقد كانت لهم سابقة التفوق فيها على الغرب • ثم أهملوا دراستها • وجمدوا عن متابعتها أثناء الركود الذى أصاب العالم الاسلامى بالحكم العثمانى •

وكان حسن الحديث • واسع الاطلاع • قوى الحجة • شديد الاقناع • فالتف حوله الكثيرون من المثقفين منهم : الامام الشيخ محمد عبده وأحمد عرابى وسعد زغلول وعبد الله النديم • وغيرهم • وكلهم أزهريو النشأة •

ونحسب عبد الله النديم من الازهريين تجوزا • فهو لم يدرس بالازهر • ولكنه درس فى مقتبل حياته فى جامع الشيخ ابراهيم (ابراهيم باشا) بالاسكندرية • وكان والمسجد الأحمدى فى طنطا يسيران على غرار الأزهر • وقبسين من اشعاعه •

وكان السيد جمال الدين ينادى بضرورة حكم الشعب بنفسه • وعدم استبداد الحاكم ــ ومثل هذه الأفكار كانت جديدة على الأذهان ــ فوجد من تلاميذه والمستمعين له آذانا صاغية • وعقولا واعية • وقلوبا دب فيها الحماس والرغبة فى مجتمع أفضل • وبدأ يدور فى الأذهان خلع الخديوى اسماعيل •

وكان اسماعيل ــ دون ان يدرى ــ من جانبه يساعد بتصرفاته السيئة على انتشار قوة هذا التيار • فقد استبد برأيه فى مسألتين ضاربا برأى العلماء عرض الحائط : هما انشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ • والعمل على الغاء الرقيق •

كما أنه عزل الشيخ مصطفى العروسى من مشيخة الأزهر سنة ١٨٧٠ • وعين مكانه الشيخ محمد المهدى العباسى •

والشيخ مصطفى العروسى أول شيخ يعزل من شيوخ الازهر • فقبله كان شيخ الازهر يظل فى منصبه حتى يتوفى الى رحمة الله • حتى انه فى مشيخة الشيخ الباجورى ــ السابق للعروسى ــ لما تقدمت به السن • وعجزت

صحته عن أعباء العمل . استمر فى منصبه . وتعين معه أربعة وكلاء : واحد من كل مذهب من المذاهب الأربعة . برئاسة الشيخ العروسى . وظلوا يديرون شئون الجامع والوظيفة حتى توفى الباجورى سنة ١٨٦٠ م (١٢٧٧ هـ) .

واستمر اسماعيل فى سفهه . دون تبصر فى عواقب الأمور . وكم خدعوه فى صفقات . وكم سهل المقربون اليه الاستدانة بأسوأ الشروط نظير ما يعود عليهم خاصة من عمولات .

ونذكر على سبيل المثال أنه اتفق على تعمير ميناء الاسكندرية نظير مليونين ونصف من الجنيهات . وربحت الشركة التى قامت بالعمل أكثر من مليون جنيه . كذلك تنازل عن نصيب مصر من أرباح شركة قناة السويس — وقدر هذا النصيب ١٥ فى المائة . نظير مبلغ تافه هو ٧٠٠,٠٠٠ جنيه . وليته قبضه . ولكنه كان سدادا لقرض عجز عن سداده للشركة التى اشترى هذا النصيب . وهذا غير ما كانت تملكه مصر من سندات قناة السويس . فقد باعه اسماعيل الى انجلترا بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات .

وقدرت الديون على مصر فى تسويتها الأخيرة بمبلغ ٩٨ ثمانية وتسعين مليونا من الجنيهات . ولكن ما قبضه اسماعيل فعلا لا يزيد عن النصف . والباقى عمولات وفوائد .

وتدهورت ثقة الدول فى مالية مصر . فلجأ اسماعيل الى القروض الداخلية فأصدر قانونين : الأول عرف **بقانون المقابلة** . مجمله أن من يدفع المطلوبات الأميرية معجلا عن ست سنوات يعافى منها نهائيا .

والثانى عرف **بقانون الروزنامة** مجمله أن من يدفع للحكومة مبلغا يأخذ عنه فائدة قدرها تسعة فى المائة على الدوام .

وبدأ العجز عن السداد . فتدخلت الدول صاحبة الديون . وتشكلت لجنة فى ٢ / ٥ / ١٨٧٦ عرفت **بلجنة صندوق الدين** . واقترحت عدة اقتراحات . ولكن وجد اسماعيل أنها تحد من تصرفاته فلم يقبلها . ولكنه قبل تعيين مراقبين اثنين على التصرفات المالية للحكومة

أحدهما انجليزى والثانى فرنسى •

ثم رأت لجنة صـــندوق الدين تأليف لجنة اسمها : **لجنة التحقيق** لتقصى مدى اســتطاعة الحكومة السداد • وكان يرأس هذه اللجنـــة الأخيرة ديلسبس ولها وكيلان هما : رياض باشا والسير رفرز ويلسن • والأعضــــاء هم مندوبو الدول فى صندوق الدين • وهى لجنة كما ترى كلها أجانب ماعدا رياض باشا •

ورأت لجنـــة التحقيـــق أنهـــا لا تستطيع المضى فى أعمالها الا اذا وافق اســـماعيل على اقتراحين : أحدها أن يتنازل اســـماعيل عن جميـــع أملاكه للحكومة مقابل أن يجعل له مرتب ســنوى مناسب • والثانى أن يشترك فى الحكم وزراء مسئولون عن أعمالهم • فلا ينفرد اسماعيل بالسلطة •

الوزارة الأولى :

ووافق اسماعيل • وتشكلت أول وزارة فى مصر بالمعنى المفهـــوم • برئاســـــة نوبار باشـــــا فى ٢٣ / ٨ / ١٨٧٨ • وأدخـــــــل اسماعيل ضمن أعضاء هذه الوزارة المراقبين الانجليزى والفرنسى •

ولم تكن موافقة اســــماعيل الا ظاهرية • فما فيه من طغيـــان يأبى القيود • فافتعل مظاهرة قام بها بعض ضــباط الجيش فى مبنى الوزارة الجديدة بحجة تأخر صرف مرتباتهم • كما عجزت الوزارة عن تحصيل الضرائب لســداد الفوائد والأقســـــاط فى مواعيدها لعدم مساعدة الخديوى بنفوذه الأدبى • وأعطى هذا وذاك الحجة لاسماعيل للتنصل من المسئولية مادام غـــير حر التصرف •

فاستقال نوبار • وتشكلت وزارة جديدة برئاسة توفيق بن اسماعيل • وكان من أعضــــائها المنــدوبان الانجليزى والفرنسى أيضا •

ووضحت نية الدول على اعـــلان مصر • لتعامل معاملة المفلســين • فلم يقبل اسماعيل • واحتج مجلس شـــورى النواب بتحـــريض من اسماعيل •واحتج العلماء • فأقال اسماعيل الوزارة • وتشـــــكلت أخرى برئاسة شريف باشا • وكان جميع اعضائها من المصريين •

خلع اسماعيل :

وسئمت الدول من هذا التلاعب

وخشيت أن تصل الوزارة الجديدة الى تســـــوية حالـــة مصر فيزداد مركز اسماعيل توطـــدا ، فاتصلت بالباب العالى فى استانبول وفعلا صدر القرار بخلع اسماعيل فى ١٨٧٩/٦/٢٦ .

وخرج اسماعيل من مصر فى ٣٠ يونيه بعد أن عهد الى ابنه توفيق بادارة شئون البلاد .

ورأت تركيا الفرصة ســـانحة لاسترجاع الامتيازات التى نالهـا اسماعيل فى سنوات ١٨٦٦ ، ١٨٦٧، ١٨٧٣ ومنها انحصار ارث الاريكة الخديوية فى أكبر أولاد اســماعيل جيلا بعد جيل . بعـــد أن كان فى الاكبر من أسرة محمد على. فأخرت اصدار الفرمان (المرسوم) بتعيين توفيق حتى ١٨٧٩/٨/١٤ لـولا تدخل انجلترا وفرنسا مما جعـــل توفيق يشعر بالجميل والامتنـــان للدولتين .

وكانت الآمال معقودة على توفيق لما كان يبديه من العطف على مطالب الشعب . والتودد الى جمال الدين الافغانى وجمـــاعته . والتنديد بتصرفات أبيه ولكن ما أن استقر له الامر بوصول الفرمان حتى ظهر على طبيعته .

وقدم شريف باشـــا الى توفيق مشروعا يجعل الحكومة نيابية . فلم يوافق توفيق وعزل شريف باشا فى ١٨ أغسطس . وتشـــكلت وزارة جديدة برئاسة رياض باشا .

كما أنه أصـــــدر قـــرارا فى ٣١ أغسطس بابعاد السيد جمال الدين الافغانى عن البلاد بمنشـــور فيه بذاءة . تكلم فيه عن الامن وقطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر الدنيا والدين . ويقول فيه عـــن جماعة جمال الدين (رئيســــــها شخص يدعى جمال الدين الأفغانى مطرود من بلاده . ثم من الآستانة العليا . لما ارتكبه من أمثال هـــذه المفسدة فى ديارنا المصرية وهـــذا من أكبر ما يغير الافكار . ويجب أن يعامـــــل مرتكبه بالتشـــــديد والانكار . فالتزمت هذه الحكومـــة الحازمة . أن تتخذ الطرق اللازمة. وتستعمل السداد فى قطع عرق هذا الفساد . فأبعدت ذلك الشـــخص المفسد من الديار المصرية . بأمر ديوان الداخلية . ووجهتـــه مـــن

السويس الى الاقطار الحجــازية) (محمد عبدهللمرحوم عباس العقاد ص ١٤٦) ولـــكن البذور التى وضعها جمال الدين كانت قد أينعت نباتات قوية صالحة للتحرر والثورة ومن أنضج ثمارها الشيخ الامــام محمد عبده • فقد خرج جمال الدين من مصر وهو يقول لمن يسألونه عن وصيته فى البلاد : حسبكم محمد عبده •

الشـــيخ محمد عبده (١٨٥٠ ــ ١٩٠٥ م = ١٢٦٦ ــ ١٣٢٣ هـ) •
الامام العالم الكاتب المفكر المصلح ذو النزعة التحـــررية والافكار التقدمية •
درس أولا بالجامع الأحمــدى فى طنطا • ثم أتم دراسته فى الجامع الأزهر • ونبغ فى علومه • وتتلمذ للسيد جمال الدين الأفغانى عندما كان يلقى دروسه فى الأزهر وكان من أنبغ تلاميذه •

وحصل على درجة العالمية سنة ١٨٧٧ م • (١٢٩٤ هـ) ثم اشتغل مدرسا بمدرسة دار العلوم • ولكن مالبث أن أبعد عن وظائف التدريس لما كان يجاهر به من آراء • وعين رئيسا لتحرير الوقائع الرسمية • فحررها مــن الســجع الذى كان سائدا على أقلام الكتاب •

وكانت نصائحه لأحمد عــرابى متزنة بالعقل وعــدم الشـــطط والتهور • ولكن لما ســاءت الأمور وفشلت الثورة لم يتنكر لهــا ولم يهرب من مسئولية المشاركة فيها • فنفى الى الشام • وتولى هنــاك التــدريس مــدة • ثم انتقل الى باريس حيث شارك مع جمال الدين الافغانى فى اصدار مجلة العــروة الوثقى •

وقد صدر من هذه المجلة وقتذاك ١٨ عددا فى ثمانية شهور حتى عام ١٨٨٤م (١٣٠١هـ) • ثم توقفت عن الصــدور • فالمشتركون فيها كانوا يعرضــون للاضطهاد مــن حكوماتهم ويعرفون مــن وصــول أعدادها اليهم •

وعاد الى مصر فى عهد توفيق • فعين قاضيا بالمحاكم الاهلية ثم فى سنة١٨٩٤ فىعهد عباس حلمىالثانى عين عضوا بمجلس ادارة الازهر وفى سنة ١٨٩٩ عين مفتيا للديــار

المصرية مع مواظبتـه على القـاء الدروس بالازهر .

وكان له الفضل فى استصـدار قانون عام ١٨٩٥ لاصلاح الأزهر فى مشيخة الشيخ حسونة النواوى وهو ثانى القوانين لاصلاح الأزهر بعد قانون عام ١٨٧١ كما سـنرى باذن الله . ولو أن بعض المحافظين من علماء الأزهر أخروا تنفيذه .

ومن مؤلفاته رحمه الله تفسـير جزء عم وجزء تبـارك سـلك فى تفسيرهما طريقة غير مسبوقة . وله رسالة فى التوحيد . وأملى تفسير سورة البقرة وآل‌عمران والنساء . ولـه شرح نهج البـلاغة . وشرح مقامات الهمذانى . وغيرها من المؤلفات . ولو أنه يعد من غير المكثرين فى التأليف لانشـغاله بالنواحى السياسية والاصلاحية .

الأزهر والثورة العرابية فى سطور

قد أطلنا فى بعض هذه المقالات عن الأزهر بعض الاطالة مما قـد يعد خروجا عن الموضوع . ولكن كان واجبا أن نجتزىء من التاريخ صفحات نبين عليها تقـدم الأزهر على مدارج الزمن .

ولا نريـد أن نـؤرخ الثـورة العـرابية الا بقـدر ما يرتبـط بموضوع الأزهر . فقد شارك فيها الأزهريون بجهـودهم وأقـلامهم وخطاباتهم .

وأحمد عرابى نفسه كان أزهرى النشأة . فقـد حضر مـن قريته بمحافظة الشرقية وهو صـبى الى القاهرة عام ١٨٤٩ والتحق بالأزهر ومكث به أربع سنوات أتم فيـها حفظ القرآن الكريم . وتلقى شيئا من علوم اللغة والفقه والتفسير . ولم يتم دراسـته بالأزهـر حيث التحق بالعسكرية تنفيذا للقـوانين وقتذاك .

وقد جرت الثورة العرابية نكبة الاحتلال الانجليزى لمصر . بمـا كان لدى قادتها من تسرع وتهـور وشطط . وعـدم التخطيط لهـا . وقصر النظر عـن ادراك المطامع الأوربية فى مصر . خصـوصا انجلترا . منذ أخرجت الفرنسيين منهـا فى أوائل القـرن . ومنـذ هزيمتها فى رشيد عـام ١٨٠٧ كما سبق ذكره . ولم تجد فرصتها فى عهد محمد على . ولكن وجدتها فى

الارتبـــاك المالى الـــذى أدى اليه اسراف اسماعيل •

ولكنها كانت ثورة قومية أذكت الشعور الوطنى • ونفضـــت عـــن الشخصية المصرية تراب القرون من الحكم العثمانى • وكانت البعثات العلمية للخارج ــ وقوام أغلبها من طلبة الأزهر كما ذكرنا ــ قد بدأت تؤتى ثمارها • فسار الشـــعب الى الأمام قدما • وقد فتح له الطريق ومهـــــدت له أصـــــالته وعراقته التاريخيتان هـــذا الطريق فانطلق يريد تحطيم ما فى طـــــريقه مـــن معوقات •

ومرت سنة ١٨٨٠ م • هادئة • تمكنت فيها الحكومة من الوصول الى تسوية موضوع الدين المصرى وتقســيطه • وكانت هـــذه أكبر مشاكل البلاد •

ثم بدأت **الثورة العـــرابية** سنة ١٨٨١ ثورة عسكرية • فقد اجتمع بعض ضباط الجيش مـــن المصريين وتدارسوا حالتهم • وما يلقـــــاه الضـــباط الجركس والاتراك مـــن حظوة فى التقدم والترقى • حـــين لا يرتفع الضابط المصرى الى أكثر من رتبة معينة • واتفقوا على كتابة (عريضة) الى رياض باشا ناظر النظار بمطالبهم • وهى عزل عثمان باشـــا رفقى ناظر الحـــــربية • واختاروا أحمد عرابى زعيما لهم • وتعاهدوا على الوفاء والاتحاد •

وكان عثمان رفقى أصـــدر أمرا بنقل الأميرالاى عبدالعال بك حلمى قائد آلاى طره الىديوان الجهادية (وزارة الحربية) معاونا بها • وفى هذا انقاص لدرجته • وعـــين بدله ضابطا جركسيا كما أصدر أمـــــرا بفصل أحمد بك عبد الغفار قائمقام سلاح الفرسان وعين بدله أيضـــا ضابطا جركسيا (الزعيم الثائـــــر أحمد عـــــرابى لعبد الرحمـــــن الرافعى) •

وكان هذا الاجتماع بمنزل أحمد عرابى بباب اللوق فى ١٦ ينـــــاير سنة ١٨٨١ •

وكان اسناد الزعامة لأحمـــــد عـــرابى طبيعيا • فقـــد كانت له شخصية قوية • فضلا عما هيأته له دراسته بالأزهر من مستوى علمى فوق مستوى زملائه • يضاف الى

هذا ما كان لديه من فصاحة وملكة خطابية . مما أهله لهذه الزعامة .

وفى اليوم التالى تقدم بالعريضة أحمد عرابى وزميلاه عبد العال حلمى وعلى فهمى وقابلوا رياض باشا فهددهم بأن هذه العريضة تعرضهم للضياع . ولكنهم أصروا على موقفهم .

واجتمع مجلس الوزراء فى ١٨٨١/١/٣١ . وقرر محاكمة الضباط الثلاثة . وتعهد ناظر الحربية بتنفيذ ذلك . فدعاهم للحضور عنده بنظارة الحربية (وكانت بقصر النيل كما سبق ذكره) فى اليوم التالى بحجة ترتيب أحد الاحتفالات . فارتابوا فى الأمر . واتفقوا مع زملائهم أنهم سيذهبون تلبية للأمر . فاذا كانت هناك مكيدة وتأخرت عودتهم فعلى اخوانهم العمل على اطلاق سراحهم .

وفعلا بمجرد أن ذهبوا الى قصر النيل ألقى القبض عليهم . فتحرك زملاؤهم متجهين الى قصر النيل . واقتحموا المكان وأفرجوا عنهم . وكان الخديوى توفيق وقتذاك فى سراى الاسماعيلية (مكان مجمع التحرير ومجاوراته) وقد شاهد منها تحرك الجيش .

ثم اتجه رجال الجيش المتحالفون الى ميدان عابدين . حيث اجتمعوا هناك بأسلحتهم وعتادهم الحربى . واضطرب توفيق وحكومته . فأشار محمود باشا سامى البارودى — وكان وقتها ناظرا للأوقاف — باجابة طلبات الضباط . وهى عزل عثمان باشا رفقى والعفو عنهم . لأنه السبب فيما حصل . فتقرر عزله من نظارة الحربية واسنادها الى محمود سامى البارودى . وهكذا توطدت الصلة بين البارودى والعرابيين .

وأراد توفيق أن يزيل أثر أول فبراير سنة ١٨٨١ من النفوس . فدعا كبار ضباط فرق الجيش بالعاصمة الى سراى عابدين فى ١٢ منه وأعلن لهم عفوه . وطلب منهم التزام الطاعة والنظام . وأجاب الضباط بالشكر على العفو . والوعد بالتزام الأوامر والقوانين العسكرية .

ولكن لم ينته الأمر . فقد كان

للضباط طلبات تختص بمرتباتهم ونظام الترقية والتقاعد والأجازات والمكافآت وغير ذلك من الشئون . فقدموا الى ناظر الحربية عريضة بذلك . فأجيبوا الى كثير من هذه الطلبات . مثل تحسين المأكل وزيادة رواتب الضباط والجند . وتقرر تأليف لجنة لوضع قانون ينظم الترقيات والمكافآت وغير ذلك من الشئون العسكرية .

وألهب هذا النجاح حماس العرابيين . وأصبح اسم احمد عرابى ملء الأفواه والأسماع وذاع صيته فى الداخل والخارج لما حققه من انتصار .

ثم حدث فى يوليه سنة ١٨٨١ أن توفى أحد الجنود فى الاسكندرية نتيجة لحادث تصادم عادى . فحمل جثته زملاؤه الى سراى رأس التين . حيث كان يصطاف الخديوى . مطالبين بالعمل على عقوبة الجانى . وكان فى هذا التصرف كثير من عدم اللياقة وسوء الادب . والخروج على النظام . فهذا من شأن الشرطة لا الخديوى صاحب السيادة .

فغضب توفيق وأمر بمحاكمة هؤلاء الجنود أمام مجلس عسكرى . وحكم عليهم – وكانوا ثمانية – بعضهم بالأشغال الشاقة المؤبدة وبعضهم المؤقتة . على أن يمضوا مدة العقوبة فى ليمان (سجن) الخرطوم .

وطلب البارودى – بناء على ايعاز أصدقائه العرابيين – تخفيف الحكم . فاعتبر الخديوى هذا الطلب اهانة وقرر عزل البارودى – فاستقال . وعين الخديوى بدله صهره داود باشا يكن ناظرا للحربية . كما عزل محافظ العاصمة احمد باشا الدره مللى وعين بدله عبد القادر باشا حلمى . لميل الاول وعداء الثانى للعرابيين .

وحرم الوزير الجديد اجتماعات الضباط فى المنازل أو نواحى المدينة وراقب المحافظ الجديد تنفيذ هذا الأمر .

وشعر العرابيون أن المقصود هو تفتيت وحدتهم وعدم تمكينهم من الاتفاق على شئونهم فقرروا عدم **الطاعة** . وكان هذا بادرة التحرك **الثانى** .

فقرروا القيام بمظاهرة عسكرية من جميع فرق الجيش الموجودة فى العاصمة فى ميدان عابدين . عـلى أن يقدموا فى هذه المظاهرة طلبات الجيش .

وحددوا لذلك ٩ سـبتمبر سنة ١٨٨١ . وأخطر أحمد عرابى ناظر الحربية بذلك كما أرسل لقناصـل الدول يطمئنهم على أرواح الاجانب وأموالهم . وأن هذه مسألة داخلية المقصود منها تحقيق مطالب عادلة لمصلحة البلاد .

واجتـمع الجيش فى الموعـد المحدد . وواجه أحمـد عـرابى الخديوى توفيق . وهذه المواجهـة تاريخية مبسوطة تفاصيلها فى كتب التاريخ وتقدم أحمد عرابى بطلبات الجيش . وهى اسـقاط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس نيابى.

ووجد توفيق نفسه لا حول لـه ولا قـوة . فاضـطر للموافقة . واسـتقال رياض باشـا . ودعى محمد باشا شريف لتشكيل الوزارة الجديدة فى ١١ سبتمبر .

وتردد شريف باشا ــ وقد كان حـرا أبيا . خـوفا من تدخـل العسكريين فى شـئون الحكم . ولكن قدم له العرابيون وعدا كتابيا بعدم التدخل . ما دام يقبـل أن يجعل بـين وزرائه محمـود باشا سامى البارودى ومصطفى باشـا فهمى .

وتشكلت الوزارة الجديدة فى ١٤ سـبتمبر وسـميت هـذه الوزارة بوزارة الأمة فتشكيلها أول نجـاح يمارسه الشعب فى ادارة شئونه .

محمد باشا شريف أزهرى النشأة

ويجدر بنا أن نذكر أن محمـد باشا شريف تلقى دروسه الأولى فى الأزهر فقد كان والده أحمد افندى شريف تركيا حضر مـن استانبول للدراسة بالأزهر . فلما أتم علومه عاد الى استانبول فعين هناك شيخا للاسلام . وأرسل ابنه محمد شريف الى القاهرة ليدرس أيضا بالأزهر . فجاور فى رواق الأتراك .

ولمـا ذهب محمـد عـلى الى استانبول والتقى هناك بشـيخ الاسلام أوصاه على ابنه محمـد . فلما عاد محمد عـلى طلب محمـد شريف وألحقـه بالمعيـة وهى من

(مع) وتعنى الملازمين لشخص الحاكم معه وفى خدمته .

وتزوج محمد شريف بابنة الكلونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ورزق منها بابنتين تزوجت احداهما بعبد الرحيم باشا صبرى . فولدت له نازلى والدة فاروق الملك المخلوع .

وحضر محمد شريف مؤتمر لندن سنة ١٨٤١ مندوبا عن الحكومة المصرية . بصفته مستحقا فقط . وهذه الصفة هى آخر ما أمكن الوصول اليه فى تمثيل مصر فى هذا المؤتمر الذى كان يقرر مصير مصر وعلاقتها بالدولة العثمانية .

وتقلب محمد شريف فى عدة مناصب فى عهد محمد على . ثم فى عهد سعيد عين فى وظيفة باشمعاون الوالى . وهى الوظيفة التى حلت محل الكتحدا (الكخيا يعنى الوكيل) وتعادل رئاسة الوزارة تقريبا . ثم لما أنشأ اسماعيل المجلس المخصوص — وهو يعادل الوزارة — وكان اسماعيل يتولى رئاسته . فتولى شريف باشا وكالته أكثر من مرة .

ثم شكل وزارته الاولى سنة ١٨٧٨ م . بعد الوزارة التى كان يرأسها توفيق بن اسماعيل كما سبق ذكره . فأخذ يعد فيها الدستور . ولكن عزل اسماعيل وأقال توفيق وزارة شريف باشا وتشكلت وزارة رياض باشا .

ثم توالت الاحداث كما ذكرنا حتى شكل شريف باشا هذه الوزارة التى عرفت **بوزارة الامة** فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ .

محمد كمال السيد

قيس بن عاصم
سيد أهل الوبر

للدكتور عفيف عبد الرحمن

وفد قيس بن عاصم المنقرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **هذا سيد أهل** الوبر » (١) .

هذا هو قيس بن عاصم المنقرى التميمى موضوع البحث وتعود صلتى بقيس بن عاصم الى ثمانى سنوات خلت ، حينما كنت أعد رسالة الدكتوراه ، وكان موضوعها : « الشعر وأيام العرب فى العصر الجاهلى » . وقد جعلت الباب الثالث من البحث فى البداية للحديث عن نماذج متميزة من شعراء الايام ، ووقع الاختيار على النماذج التالية :

المهلهل : بطل حرب البسوس وعنترة : بطل حرب داحس والغبراء ، وقيس بن عاصم : بطل حروب تميم . ولكننى اكتفيت حينما أعددت البحث للمناقشة باثنين من ثلاثة هما : المهلهل وعنترة ، وكان ذلك بسبب قلة ما توفر لدى فى ذلك الحين من شعر قيس بن عاصم .

ومن خلال تدريسى لمادة الأدب الجاهلى فى الجامعة بدأت تتضح لى صورة قيس بن عاصم بصورة أفضل مما كانت عليه قبل ثمانى سنوات ، كما أحسست أن قيس

---

(١) انظر : الاغانى (دار الكتب) ١٤/٧٤ ، معجم الشعراء للمرزبانى ٣٢٤ ، الاصابة ٣/٢٤٢ ، امالى المرتضى ١/١١٢ .

ابن عاصم شخصية متميزة ، وان قل شعره ، تستحق البحث والدراسة . ولا أظن أن الرسول (ص) قد اطلق عليه هذا اللقب : « سيد أهل الوبر » من باب المجاملة ، وحقا لقد وجدت الكثير من أخباره المبثوثة فى المصادر وان كان بعضها يؤكد بعضا ويكرره ، الا ان هذه الاخبار تؤكد قيما معينة كانت سائدة ، وكان قيس يمثلها أصدق تمثيل ، وأقرها الاسلام فيما بعد .

وينتهى نسب قيس : الى قبيلة تميم التى تنتسب الى مضر (١) وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة ، حتى يتصلوا بالبحرين وانتشرت الى العذيب فى أرض الكوفة .

ومن بطونهم : الحارث ابن تميم ، وبنو العنبر ، وبنو الهجيم بن عمرو بن تميم ، وبنو أسيد بن عمير ، وبنو مالك ابن عمرو بن تميم ، وبنو عمرو ابن العلا بن عمار بن عدنان ابن الحارث ، وبنو أمرىء القيس ابن زيد مناة وبنو سعد بن زيد مناة وبنو منقر بن عبيد بن مقاعس وبنو صريم بن مقاعس ، وبنو عرف بن كعب بن زيد مناة ، وبنو مالك بن سعد بن زيد مناة ، وبنو ربيعة بن مالك بن زيد مناة ، وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة ، وبنو الحارث بن يربوع ، وبنو رياح ، وبنو طهية بن مالك ، وبنو دارم ابن مالك بن حنظلة (٢) .

ومن منازلهم : صلب والدهناء والاحساء ، ووبرة ، والصمان وشرف الارطى ، والهراء والصمان الشعر ، والرمادة (٣) .

ومن مياهم : حمض كنهل

---

(١) أنظر : الاشتقاق لابن دريد ٢٠١ وما بعدها ، العقد الفريد ٣٤٤/٣ ـ ٣٤٦ ، معجم البكرى ٢٠٧/١ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦ ، نهاية الأرب للقلقشندى ١٨٨ ، معجم قبائل العرب لكحالة ١٢٦/١ .
(٢) انظر المصادر السابقة .
(٣) انظر المصادر السابقة .

والجفـــار ، وأواره ، وطويلـع واللهيماء ، ونطاع ، والكلاب (١) • وقد عـد الذين أرخـوا للعصر الجاهلي وعنوا بدراسته ودراسة حروبه وصـلات القبائل ، وأعنى المؤرخين القدامى : قبيلة تميم من جمـرات العـرب (٢) ، وعنـوا بالجمرة تلك القبيلة القوية الكثيرة العدد والعدة ، التى تسـتطيع أن تدافع عن نفسها ، وأن تغزو غيرها وتجبرهم عـلى احترامها • فقد كانت القبائل تسعى الى المحالفات طالبا للأمن ، ودفعـا للعـدوان وايثارا للعافية ، ومع ذلك : فلم تستطع هذه المخالفات حقن الدماء التى كانت تسفك لأتفه الاسـباب بل ربما كان الحلف نفسـه من أسباب الحرب ، الا أننا يجب أن لا ننسى أن هـذه الاتحـادات : اتحادات الأحـلاف ، قـد لعبت دورا كبـيرا ايجـابيا فى تكوين القبـائل ، اذ كانت تضم العشائر الضعيفة الى العشـائر القوية لتحميها وترد العدوان عنها (٣) •

وتعتبر قبيلة تميم من القبائـل التىخاضت حروبا كثيرة فى الجاهلية خاضتها مع قبائل يمانية ، وخاضت بعضـها مـع بكر عدوها اللدود وخاضت بعضها مـع الغساسـنة وبعض هذه الحـروب كان مـع قبائل عربية مختلفة • وقد أتيح لى خـلال بحثى الآنف الذكر أن أجمـع ما يقرب من ثلاثمـائـة وخمسين يوما ، كان نصيب تميم منها مائة يوم ، انتصرت فى ستين يوما منها ، وهـزمت فى أربعـين يوما (٤)

ومن الأيـام التى انتصرت فيها : طخفـة (لتميم عـلى المناذرة) : والكلاب الثانى : (لتميم على اليمن) ، والبنـاج : (لتميم على بكر) والغطالى : (لتميم على بكر) ، ومخطط : (لتميم عـلى بكر) ، وجدود : (لتميم على بكر)

---

(١) انظر المصادر السابقة .
(٢) انظر : اللسان مادة (جمر) وكذا تاج العروس (جمر) .
(٣) شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ، ٥٨ .
(٤) الأرقام والمعلومات من جداول ملحقة برسالة الدكتوراه •

وذو ذرائح : (لتميم على اليمن) ، والستار : (لتميم على بكر) ، وغول الثانى : (لتميم على الغساسنة) .

ومن الايام التى هزمت تميم فيها السلان : (لعامر على تميم) وأوارة الثانى : (لعمرو بن هند على تميم) ، والصفقة : (للفرس على تميم)، والجفار : (لبكر على تميم) ، ورحرحان الثانى : (لعامر على تميم) ، وشعب جبلة : (لعامر وحلفائها على تميم وحلفائها) والشيطين : (لبكر على تميم) .

بعد هذه المقدمة عن قبيلة الشاعر ومكانتها فى الجاهلية : ننتقل للحديث عن قيس بن عاصم . وسنتجول فى حديثنا فى رحلة تشمل : قيس بن عاصم الانسان والفارس البطل ، والمثال الجاهلى وقيسا المسلم ، وقيسا الشاعر .

وهكذا فسننتقل فى رحلتنا من مرحلة قيس فى جاهليته كفرد فى قبيلته ، ثم كفارس شجاع فى حروب تميم ، ثم كفرد دخل فى الاسلام ، فردته ، ثم عودته الى حظيرة الاسلام ، وأخيرا كشاعر .

وينبغى أن ننبه منذ البدء على أن قيسا ، شأنه فى ذلك شأن معظم الجاهليين ، لم تتوافر لدينا معلومات متكاملة عن نشأته ومراحل حياته بدقائقها المختلفة .

وهو : قيس بن عاصم بن سنان ابن خالد ، بن منقر ، بن عبيد ، ابن عبيد ، بن مقاعس ،ومقاعس ينتمى الى الحارث بن عمرو ، ابن كعب ، بن سعد بن زيد مناة ، ابن تميم (١). وكنيته : أبوعلى(٢). ويضيف ابن قتيبة أنه : « لم يكن فى الجاهلية أحد يكنى » أباعلى « غير قيس بن عاصم وعامر بن الطفيل » (٣) ونبحث عن سبب الكنية فلا نجد تفسيرا لأن المصادر لم تذكر ابنا له اسمه على . أما أمه : فكانت أم أصغر

---

(١) الاغانى (دار الكتب ٦٩/١٤) ، معجم الشعراء للمرزبانى ١٩٩ .
(٢) الاغانى ٦٩/١٤ ، المعارف لابن قتيبة ٣٠١
(٣) المعارف ٥٥٦

بنت خليفة ، بن جرول ، ابن منقر (١) .

وينتسب قيس الى بنى منقر من بنى تميم ، وقد عدد صاحب الجمهرة من ولد منقر : فقيما وبطنا ، وخالدا ، وسعدا ، وجرولا وصخرا ، وعوفا ، وأنيسا . وذكر قيسا أنه : بن عاصم بن سنان ابن خالد بن منقر (٢) .

ولم تهمل المصادر أبناءه وذريته ، فقد ذكرت : أن أولاده كانوا ثلاثة وثلاثين ابنا (٣) .

ولكنها لم تذكر لنا منهم الا طلبة والقعقاع ، والشماخ (٤) .

وذكرت من بنات أولاده : مية صاحبة ذى الرمة وهى : ابنة مقاتل ابن طلبة بن قيس (٥) . وأما ما ذكرت من ذريته فهم : شملة ابن بردة بن مقاتل بن طلبة ، وكان من الشراة خرج بالبادية فقتله محمد بن سليمان بن العباسى

ومنهم : عصيمة بن عاصم بن قيس ابن عاصم وقد قطعت يده فى يوم الوقبى وعرف بعاصم الجويرية كما عرف بعصبية الأجزم ، وقد قطع يده اليسرى أربد بن سنان فى يوم الوقبى الذى كان لبنى مازن ، من بكر على (٦) .

أما بناته : فلم يذكر لنا التاريخ بنتا لقيس ، وقد كثر ذكر الخبر الذى يروى عنه ، عندما قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم يسأله عن كفارة بسبب وأده عددا من البنات له ، وسنناقش ذلك فى موضعه من البحث ، وما عدا ذلك لم يرد ذكر الا لبنت واحدة له حدث بخبرها بعض الانصار والرسول (ص) (٧) . وسيأتى تفصيل ذلك فى حديثنا عن الوأد أيضا .

---

(١) الاغانى ١٤/٦٩ .
(٢) جمهرة أنساب العرب ــ ابن حزم ٢١٦ .
(٣) المعارف ٣٠١ .
(٤) المصدر السابق ٣٠١ .
(٥) المصدر السابق ٣٠١ ، والجمهرة ٢١٦ .
(٦) الجمهرة ٢١٧ .
(٧) الاغاني ١٤/٦٩ .

وتجمع المصادر على أن قيسا كان سيدا فى قومه كما كان شريفا ، قال عنه ابن قتيبة : « كان شريفا سيدا » (١) • وقد سئل قيس :بم سدت قومك ؟ قال : ببذل القرى وترك المرا ، ونصرة المولى (٢) • وفى رواية أخرى أنه قال : ببذل الندى ، وكف الاذى ، ونصرة المولى وتعجيل القرى (٣) • وقد : وصفه صاحب الاغانى : بأنه شاعر فارس شجاع حليم كثير الغارات مظفر فى غزواته ، أدرك الجاهلية والاسلام فساد فيهما •

وسنحاول فى عجالة أن نضرب أمثلة لهذه الخصال التى كان يتحلى بها قيس • أما الشاعرية فسنرجىء الحديث عنها قليلا وكذا فروسيته • أما الحلم : فقد رددت المصادر خبرا مفاده : أن الاحنف ابن قيس كان يقول : ما تعلمت الحلم الا من قيس ابن عاصم المنقرى ، لانه قتل ابن اخ له بعض بنيه ، فأتى بالقاتل مكتوفا يقاد اليه ، فقال : ذعرتم الفتى ، ثم أقبل على الفتى فقال :

يا بنى : بئس ما صنعت نقصت عددك ، وأوهنت عضدك وأشمت عدوك ، وأسأت بقومك خلوا سبيله ، واحملوا الى أم المقتول ديته ، فأنها غريبه ، ثم اصرف القاتل ، وما حل قيس حبوته ، ولا تغير وجهه (٤) •

وقد ضرب به المثل فى الحلم فقيل : « أحلم من قيس » (٥) ، وكان الاحنف يقول : لقد اختلفنا الى قيس بن عاصم فى الحلم كما نختلف الى الفقهاء فى الفقه (٦) •

وقد كانت السيادة فى الجاهلية يخص بها من توفرت فيه خصال حدد تلك الخصال أحد الباحثين

---

(١) المعارف ٣٠١ .
(٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ١/٢٢٥ والأغانى ١٤/٧٦ •
(٣) بلوغ الأرب للالوسى ٢/١٨٧ •
(٤) أنظر الخبر فى الأغانى ١٤/٧٣ ، وفيات الأعيان ٢/٥٠١ ، الجمان لابن ناقيا ٢٥٣ مع اختلاف فى بعض الكلمات لكن المضمون واحد .
(٥) الوسيط فى الأمثال الواحدى ٦٦ •
(٦) عيون الاخبار ٢/٢٨٧ .

حين قال : « كان أهل الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان » (١) ولعله من الواضح : ان هذه الصفات كان يتصف بها قيس بعد ان نستكمل حديثنا عن شجاعته وشاعريته . ومن أجل هذا كله قال عنه الرسول الكريم : « هذا سيد أهل الوبر » .

وكان قيس بن عاصم كريما يطعم الزاد لغيره ، ويكره أن يستأثره به . تزوج قيس ابن عاصم المنقرى منفوسة بنت زيد الفوارس الضبى ، وأتته فى الليلة الثانية من بنائه بها بطعام فقال : فأين أكيلى ؟ ، فلم تعلم ما يريد ، فأنشأ يقول :

يا ابنة عبد الله وابنة مالك
ويا بنت ذى البردين والفرس الورد
اذا ما صنعت الزاد فالتمسى له
أكيلا فانى لست آكله وحدى
أخا طارق أو جار بيت فاننى
أخاف ملامات الاحاديث من بعدى
وانى لعبد الضيف من غير ذلة
وما بى الا تلك من شيم العبد

قال : فأرسلت جارية لها مليحة فطلبت له أكيلا ، وأنشأت تقول له :

أبى المرء قيس أن يذوق طعامه
بغير أكيل انه لكريم
فبوركت حيا يا أخا الجود والندى
وبوركت ميتا قد حوتك رجوم (٢)

ولم يتوقف قيس بن عاصم عند حدود قبيلته وهو فارسها وسيدها ، بل كان فيمن وفد على النعمان بن المنذر للمفاخرة ، فقد كان منهم : الاقرع بن حابس وقيس بن عاصم . ومن بكر : بسطام بن قيس ، والحوفزان ابن شريك (٣) .

ولم يخل سجل قيس من بعض السقطات ، فقد ذكر صاحب الاغانى أن مما يعير به قيس وقومه أن عبادة بن مرثد بن عمر

---

(١) بلوغ الارب للالوسى ٢/١٨٧ .
(٢) الاغانى ١٤/٧٢ .
(٣) المرجع السابق ١/٢٨٠ .

ابن مرثد أسر قيس بن عاصم وسبى أمه وأختيه يوم أبرق الكبريت ، ثم من عليهم فأطلقهم بغير فداء ، فلم يثبه قيس ، ولم يشكره على فعله بقول يبلغه فقال عبادة :

على أبرق الكبريت قيس بن عاصم
أسرت وأطراف القناقصد حمر
متى يعلق السعدى منك بذمة
تجده اذا يلقى وشيمته الغدر (١)

ويذكر الاغانى خبرا آخر مفاده : ان زيد الخيل الطائى خرج عن قومه ، وجاور بنى منقر فأغارت عليهم بنو عجل ، وزيد فيهم ، فأعانهم ، وقاتل بنى عجل قتالا شديدا ، وأبلى بلاء حسنا حتى انهزمت عجل ، فكفر قيس فعله ، وقال : ما هزمهم غيرى فقال زيد الخيل : يعيره ويكذبه فى قصيدة طويلة منها :

ولست بوقاف اذا الخيل احجمت
ولست بكذاب كقيس بن عاصم(٢)

ولست أدعى لقيس العصمة ولكن بكرا، عدو تميم اللدود، قاسم مشترك فى الخبرين ، فعبادة ابن مرثد وبنو عجل كلاهما من بكر • وقيس لا يريد ان يعترف لبكر بالانتصار عليه وعلى قومه لذا نجده لم يشكر عبادة بقول يبغله ، لان فى ذلك اذلالا لقيس بطل تميم ، ولم يعترف بانهزام عجل الا به وبقومه • وليست بمصدق ان يهزم فارس قبيلة مهما كانت شجاعته •

ويرتبط قيس بن عاصم بقضية خطيرة فى الجاهلية ، تلك هى قضية وأد البنات • فقد ذكر القرآن الكريم فى سورة التكوير « **وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت** » (٣) •

والموءودة : المدفونة حية وكذلك كانت العرب تفعل ببناتها • هذا ما يورده الطبرى فى تفسيره ثم ينقل خبرا مرفوعا الى قتادة :

---

(١) قصة الخبر والشعر فى الاغانى ٨٩/١٤ •
(٢) الأغانى ٨٩/١٤ •
(٣) آية ٨ من سورة التكوير •

قتلت بلا ذنب ، كان أهل الجاهلية يقتل احدهم ابنته ويغذو كلبه فعاب الله ذلك عليهم ••• وكانت العرب أفعل الناس لذلك (١) •

وقد سميت بالموءودة : لان التراب يطرح عليها فيثقلها حتى تموت (٢) •

يقول متمم بن نويرة :

وموءودة مقبورة فى مغارة
بآمتها موسودة لم تمهد (٣)

ونسبه صاحب لسان العرب الى حسان وأورده هكذا :

وموءودة مقرورة فى مفاوز
بآمتها مرسومة لم توسد (٤)

ويورد صاحب « الكشاف » خبرا فى سياق شرح الآية المتعلقة بالوأد : بأن الرجل كان يستحيى ابنته احيانا فلم يكن يقتلها دائما فكان اذا أراد ان يستحييها ألبسها جبةمن صوف، أو شعر، ترعى الابل والغنم فى البادية • واما ان أراد قتلها تركها حتى اذا كانت سادسية فيقول لامها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى احمائها ، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها : انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالارض (٥) •

ولم يكن الرجل هو الذى يئد فحسب ، بل ان الحامل كانت اذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة ، فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة ، وان ولدت ابنا حبسته (٦) •

وفى ذلك يقول الراجز :

سميتها اذ ولدت تموت
والقبر صهر ضامن زميت (٧) •

---

(١) تفسير الطبرى (طبعة بولاق) ٤٦/٣٠ •
(٢) تفسير القرطبى ٢٣٢/١٩ •
(٣) تفسير القرطبى ٢٣٢/١٩ •
(٣) تفسير القرطبى ٢٣٢/١٩ •
(٤) لسان العرب مادة (عوز) •
(٥) الكشاف للزمخشرى ٢٢٢/١٤ •
(٦) المصدر السابق ٢٢٢/٤ ، تفسير القرطبى ٢٣٣/١٩ والقرطبى يرفع الخبر الى ابن عباس •
(٧) تفسير القرطبى ٢٣٣/١٩ •

وتثير هذه الأخبار أمورا عـدة منها : هل كان الـوأد منتشرا بين القبائل العربية ؟ ، من أول من وأد البنات فى الجاهلية ؟ هل كان الوأد من اختصاص الرجل أم أن المرأة كانت تئد أيضا ؟ ما سبب قيامهم بذلك ؟ .

أما التساؤل الاول فمنطلـق الامور ينفيـه ، لان الوأد لوعم القبائل العربية لما استمر بقـاء الجنس العربى بعد جيل أو جيلين أو ثلاثة . وأما أول من وأد بناته فى الجاهليـة فيطالعنـا خبران ، الاول أن قيسا أول من وأد البنات فى الجاهلية (١) والثانى أن الوأد عند العرب أقدم من قيس ، وربما يعود الى ماقبل الميـلاد ، مثـل ما ذكروه عن سـودة بنت زهرة الكاهنة ، وهى أقدم من قيس (٢) وقد كان الرجل يئد بناته كما كانت المرأة أيضـا تفعل ذلك ، وربما كانت تفعلـه لانها تعرف رغبـة زوجها ، ولعل ما فعلته زوج قيس ابن عاصـم شاهد على ذلك ، فقد حدث قيس بن عاصم الرسـول (ص) أنه ما ولدت لـه بنت قط الا وأدها ، وما رحم منهن موءودة قط لا بنية له ، ولدتها أمها وهو فى سفر ، فدفعتها أمها لى اخوالهـا فكانت فيهم ، وقدم ميس فسـأل عن الحمـل ، فأخبرنه امرأته انها ولدت ولدا ميتا ، ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصـبية ويفعت فزارت أمها ذات يوم ، فدخـل قيس فرآها وقد ضفرت شـعرها وجعلت فى قرونها شيئا من خلـوق ونظمت عليها ودعا ، وألبسـتها قـلادة جزع ، وجعلت فى عنقهـا مختنقة بلح ، فسـأل عنها قيس لانها أعجبته بجمالها وكيسهـا فبكت وقالت : هذه ابنتـك ؟ كنت أخبرتك أنى ولدت ولدا ميتـا وجعلتها عند اخوالها حتى بلغت هذا المبلغ ، فأمسـك قيس عنهـا حتى اشـتغلت أمهـا عنهـا ثم اخرجها يـوما فحفر لها حـفيرة

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ١/١٨٣ .
(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ــ جواد على ٥/٩١ ــ ٩٢ .

فجعلها فيها ، وهى تقــول يا أبت ما تصنع بى ؟ ، وجعل يقذف عليها التراب وهى تقول : يا أبت أمغطى أنت بالتراب ، أتاركى انت وحدى ومنصرف عنى ؟ ، وجعل يقذف عليها التراب ، حتى واراها وانقطــــع صــــوتها ، ويختتم قيس مقولته هذه : فما رحمت أحدا مما واريته غيرها (١) •

وهذا يعنى ان المرأة الجاهلية كانت تعلم مصير ابنتها ، ولو اخفتها الى حين ، ولهذا كانت تئدها منــذ ولادتها حتى لا تأسى عليهــا وهى تراها شابة يافعة تدفن حية •

واذا ما انتقلنا الى سبب الوأد نرى تعليل فعلتهم الشــــنيعة تلك تأخذ عللا وأســـبابا كثيرة : ففى خبر عن قيس بن عاصم انه كان يئد بنـــاته « للغيرة والأنفة مــن النكاح » (٢) وتبعه الناس فى ذلك الى أن أبطله الاســـلام • ويورد صــاحب الكشاف خبرا : يفيد بأن العرب يقولون : « ان الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به ، فهو أحق بهن » (٣) أما القرطبى فيرى انهم كانوا يدفنونهن لخصلتين : الاولى أنهم كانوا يقولون : أن الملائكــــة بنات الله ، فألحقوا البنـــات به • والثانية : مخافة الحاجة والاملاق أو خــــوفا مــن الســـــبى والاسترقاق • (٤) •

وهكذا نرى انه يمكن رد أسباب الوأد الى الغيرة والانفة من النكاح والى الخوف من الحاجة والاملاق والخوف من السبى والاسترقاق • واخيرا الى عقيدة يعتقدونها : وهى ان الملائكة اناث وهن بنات الله ، ولذا لحقوا البنات به فقتلوهــن

ونستطيع بمناقشة هذه الدوافع أن نتبين ان الخوف من الحــاجة والاملاق والســـبى والاسترقاق أمور يشترك فيها العرب جميعــــا ومن باب أولى : أن يخشى هــذه الأمور ضعاف العرب وفقراؤهم ،

---

(١) الاغانى ١٤/٦٩ ـ ٧٠
(٢) وفيات الاعيان ١/١٨٣
(٣) الكشاف ٤/٢٢٢
(٤) تفسير القرطبى ١٩/٢٣٣

فلماذا يكون قيس بن عاصم ـ وهو سيد قومه وعزيزهم ، وقبيلته من أقوى القبائل وهى احدى جمرات العرب ـ هو الذى يئد بناته ؟ واذا كانت العرب تعتقد أن الملائكة بنات الله ، وتؤمن بذلك كل القبائل العربية ، فلماذا لم تجمع على الوأد ؟ ، أم أن الامر متعلق بعقيدة معينة ، وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم . ولم لا يكون السبب شخصيا خاصا بقيس بن عاصم أو من صادف حالة مشابهة ؟ فقد أورد صاحب الاغانى : أن سبب وأد قيس بن عاصم بناته أن المشمرج اليشكرى البكرى ، وبكر خصم لدود لتميم ، أغار على بنى سعد فسبى منهم نساء وأستاق أموالا ، وكان فى النساء امراة خالها قيس بن عاصم ، وهى : رميم بنت أحمر بن جندل السعدى ، فرحل قيس اليهم يسألهم ان يهبوها له أو يفدوها فوجد عمرو بن المشمرج قد اصطفاها لنفسه فسأله فيها فقال : قد جعلت أمرها اليك ، فان اختارتك فخذها ، فخيرت فاختارت عمرو بن المشمرج . فانصرف قيس ، فوأد كل بنت وجعل ذلك سنة فى كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب فى ذلك فكان كل سيد يولد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة (١) .

وهذا الجزء الاخير من الخبر يتعارض مع ما ذكرنا من سبب الوأد بسبب الخوف من الحاجة والاملاق ، كما انه يتعارض خبر أورده القرطبى : بأن « الأشراف منهم يمتنعون من هذا ويمنعون منه » (٢) ، وربما ارتبط خبر القرطبى بما ذكر عن صعصعة ابن ناجية : جد الفرزدق الذى اشترى ثلاثين موءودة منهن بنت لقيس بن عاصم ، وفى ذلك افتحر الفرزدق فقال :

وجدى الذى منع الوائدات
وأحيا الوئيد فلم يوأد (٣)

---

(١) الاغانى ٧١/١٤ وتفسير الطبرى ٤٥/٣٠
(٢) تفسير القرطبى ٢٣٣/١٩
(٣) ديوان الفرزدق وأنظر وفيات الاعيان ٨٩/٦

ولا أدرى كيف يستوى هـذا المنطق ، فاذا اشترى صعصعة بنت قيس بن عاصم بالمال ومنع وأدها ، هل يمنع هذا العار من أن يلحق بقيس لو ارتكبت عملا مشينا ؟ ذلك سبب لا يقبله منطق العقل ، كما أن قيسا لا يقعل أن يبيعها بسبب الاملاق • يبقى احتمال من احتمالات كثيرة • أيكون فخر الفرزدق والخبر المتصل به من صنع الرواة ؟ •

وقد شغلت قضية الوأد بال قيس بن عاصم عندما دخل فى الاسلام ، فتعددت الروايات التى تجمع على ان قيسا كان يفد على النبى (ص) •

ففى خبر وأده لابنته بعد ان كبرت : أن الرسول (ص) دمعت عيناه ثم قال « ان هذه لقسوة ، وان من لا يرحم لا يرحم » (١) وهذا ما شغل بال قيس وأهمه •

وفى خبر مرفوع الى قتادة رواه الطبرى: ان قيسا جاء الى النبى (ص) وأخبره أنه وأد ثمانى بنات فى الجاهلية ، قال : فاعتق عن كل واحدة بدنة (٢) •

وفى خبر مرفوع الى قتادة انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انى وأدت ثمان بنات كن لى فى الجاهلية • فقال : فاعتق عن كل واحدة منهن رقبة • قال : يارسول الله انى صاحب ابل ، قال : فاهد عن كل واحدة منهن بدنة ان شئت (٣) •

ويروى ابن كثير ثلاث روايات: لا تحدد الاولى عدد البنات اللائى وأدهن فى الجاهلية • وتحدد الثانية العدد : بثمان ، وتذكر الثالثة : انه وأد اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة (٤) •

ولقيس بن عاصم موقف من الخمر فى الجاهلية قبل ان يحرمها الاسلام ، فقد عده رواة الاخبار انه ممن حرموا الخمر فى

---

(١) الاغانى ١٤/ ٧٠
(٢) تفسير الطبرى ٤٦/٣٠ .
(٣) تفسير القرطبى ٢٣٣/١٩
(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٨/٤

الجاهليــة ، وذكروا منهم نفــرا منهم : قيس بن عاصــم ، وعامر ابن الظرب العدوانى ، وصــفوان ابن أميــة ، وعفيف بن معد يكرب الكندى ، والعبـــاس بن مرداس السلمى ، وورقـــة بن نوفـــل والوليد بن المغيرة ، وزيد بن عمر ابن نفيــل ، وأبو ذر الغفـــارى وقس بن ســــاعدة ، وعبيـد ابن الابرص ، وزهـــير بن أبى ســلمى ، والنابغـــة الذبيــابى والنابغة الجعدى ، وحاتم الطائى وغيرهم (١) .

ويرجع سبب تحريم قيس لها أنه ســـكر ليلة ، فغمز عكنة ابنته فهربت منه . فلما صحا منها ، سئل عما صـــنع البارحــة فلم يعرف فأخبروه بصـــنعه ، فحرمها على نفسه ، وقال فى ذلك شعرا منه :

فلا والله اشربهـــا حيـــاتى
ولا أدعـــو لها أبدا نديمـــا
اذا دارت حميـــــاها تعلت
طوالع تسفه الرجل الحليما (٢)

وفى رواية أخرى عـــن عاصم بن الحدثان أن الزبرقان قال : انهـــا كانت أخته ، وقد أرادهـــا عـــلى نفســـها . ويضيف الخبر أنه أول عربى حرمهـــا على نفســـه فى الجاهلية (٣) .

وتحريم قيس للخمـــر مفخـــرة يضـــيفها قيس الى سجله الحافل بالمحامد والمكرمات ، علها تكفر عن فعلته بالبنات اللائى كن يولدن له .

تلك كانت جاهليـــة قيس ، فكيف نرى قيسا فى الاسلام ؟ ومتى بدأت صلته بهـــذا الدين الجديد ، وهل حسن اسلامه ؟ وما مدى تفاعله مع قيم هذا الدين ومثله ؟ .

تعود صلة قيس وقومه بالاسلام الى ما بعد فتح مكة (٤) ، فقد بعث النبى (ص) بشر بن سفيان على صدقات بنى كعب بن خزاعة ، فجاء

---

(١) انظر المحبر لابن حبيب ٢٣٧ ، أمالى للقانى ١/٢٠٤ ، نهاية الأرب للنويرى ٤/٨٨ ، بلوغ الأرب للآلوسى .
(٢) الأغانى ١٤/٨٤
(٣) المصدر السابق ١٤/٨٥
(٤) المعارف لابن قتيبة ٣٠٢

وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة ، فاستنكر ذلك بنو تميم وأبوا وابتدروا القسى وشهروا السيوف ، فقدم المصدق على النبى (ص) فأخبره ، فقال : من لهؤلاء القوم ؟ فانتدب لهم عيينة بن بدر الفزارى فبعثه النبى (ص) فى خمسين فارسا ، فأغار عليهم فأخذ أحد عشر رجلا واحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا ، فجلبهم الى المدينة .

وعندها قدم وفد من رؤساء بنى تميم منهم : عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم ابن سعد ، والاقرع بن حابس ، ورباح بن الحارث ، وعمرو بن الاهتم .. ويذكر الخبر ان الرسول (ص) قال فى قيس بن عاصم : هذا سيد اهل الوبر . ورد عليهم الاسرى والسبى وأمر لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفود (١) .

ولكن الخبر لم يحدثنا لماذا تنبه الرسول الكريم الى قيس دون بقية الوفد وقال عنه انه سيد أهل الوبر ، هل فعل ذلك لانه أحسن القول ؟ أم لان الرسول (ص) كان على علم بمآثر قيس ؟ أم انه توسم فيه الخير لهذا الدين ؟

ويبدو ان قيسا قد التقى بالرسول أكثر من لقاء ، يدل على ذلك حواره معه بشأن وأد من البنات وقد سبق ذكره ، وفى خبر آخر مرفوع الى قيس بن عاصم عن سفيان الثورى انه أمر من النبى (ص) ان يغتسل بماء وسدر (٢) . ومن الاخبار أيضا ما رواه صاحب الاغانى ان قيسا دخل على الرسول (ص) وفى حجره بعض بناته يشمها ، فقال له : ما هذه السخلة تشمها ؟ فقال : هذه ابنتى . فقال : والله لقد ولد لى بنون ووأدت بنات ما شممت منهن انثى ولا ذكرا قط . فقال الرسول الكريم : فهل الا أن ينزع الله الرحمة من قلبك (٣) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٩٣/١ — ٢٩٤ .
(٢) الاغانى ٨٩/١٤ .
(٣) الاغانى ٧٠/١٤

وفى خبر آخر عن ابن جعدية أن قيس بن عاصم قال : أتيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، **فرحب بى وأدنانى** فقلت : يا رسول الله ، المال الذى لا يكون على فيه تبعة ما ترى فى امساكه لضيف ان طرقنى ، وعيال ان كثروا على ؟ فقال : نعم المال الاربعون ، والاكثر الستون ، وويل لاصحاب المئين — ثلاثا — الا لمن أعطى من رسلها وأطرق فحلها ، وأفقر ظهرها ، ومنح غزيرتها ، وأطعم القانع والمعتر « فقلت : يا رسول الله ، ما أكرم هذه الاخلاق ! انه لا يحل بالوادى الذى أنا فيه من كثرتها . قال : « فكيف تصنع فى الاطراق ؟ » قلت : يغدو الناس ، فمن شاء أن يأخذ برأس بعير ذهب به ، قال : « فكيف تصنع فى الافقار » ؟ فقلت : انى لا فقر الناب المدبرة والضرع الصغيرة . قال : « فكيف تصنع فى المنيحة ؟ » قلت : انى لا منح فى السنة المائة . قال : « انما لك من مالك اكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت »(١) .

وفى خبر آخر عن ابن جعدبة أن النبى (ص) لما فتح مكة قدمت عليه وفود العرب ، فكان فيمن قدم عليه قيس بن عاصم وعمرو بن الاهتم ابن عمه ، فلما صارا عند النبى (ص) تسابا وتهاترا ، وحاول عمرو بن الاهتم ان ينال من نسب قيس وحسبه ، فيقال ان النبى (ص) نهى عمرو بن الاهتم عن هذا القول فى قيس ، وقال : ان اسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم كان احمر (٢) .

وفى حديث آخر عن جرير عن المغيرة عن ابيه شعبة عن التؤم ان قيسا سأل الرسول (ص) عن الحلف فقال : « لا حلف فى الاسلام ، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية » (٣) .

ويذكر رجل قيسا عند النبى (ص)

---

(١) الاغانى ٧٧/١٤
(٢) الاغانى ٨٨/١٤
(٣) الاغاني ٩٠/١٤

وكأنه توعده فيرد النبى (ص) : « اذا تحول سعد دونه بكراكرها » (١)

هذه الاخبار تشير الى انه وفد على الرسول (ص) كثيرا ، كما تدل على ان الرسول (ص) كان يبش فى وجهه ، ويرحب به ، كما تشير الى أن قيسا كان غنيا ولم يكن يخش الاملاق .

وتحدثنا الروايات بأن قيسا ارتد بعد النبى (ص) عن الاسلام وآمن بسجاح التميمية وكان مؤذنها ، وقال فى ذلك :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها
وأصبحت انبياء الله ذكرانا (٢)

ويضيف صاحب الاغانى أن خالدا ابن الوليد غزا اليمامة لقتال سجاح ومسيلمة الكذاب زوجها وأخذ قبسا أسيرا ، وأن قيسا ادعى عند خالد انه جاء يطلب ابنا له اخذه مسيلمة ، فأحلفه خالد فحلف ، فخلى سبيله (٣) .

وقبل مناقشة صحة هذه الرواية أو التعليق عليها نورد خبرا آخر عن المدائنى يفيد : بأن قيس بن عاصم كان على عهد الرسول (ص) قد ولى صدقات بنى مقاعس والبطون كلها ، وكان الزبرقان بن بدر قد ولى صدقات عوف والابناء . فلما توفى الرسول (ص) دس اليه الزبرقان من زين لقيس منع ما فى يده من الصدقات وخدعه بذلك ، ففرق قيس الابل فى قومه ، فانطلق الزبرقان الى أبى بكر بسبعمائة بعير فأداها اليه . فلما عرف قيس بالمكيدة قال : لو عاهد الزبرقان أمه لغدر بها (٤) .

والذى نميل اليه أن قيسا وقع ضحية مكيدة من الزبرقان فتأخر عن دفع الصدقات لابى بكر ، وربما فرقها فعلا فى قومه ، كما نميل الى أن العصبية القبلية ربما دفعت

---

(١) الأغانى ١٤/٩٠ .
(٢) الأغانى ١٤/٨٨ ، وهذا البيت وأبيات أخرى ذكرت فى ثمار القلوب للثعالبى ٣١٥ ، والمعارف لابن قتيبة ٤٠٥
(٣) الأغانى ١٤/٨٨ .
(٤) الأغانى ١٤/٧٦ .

قيسا الى تأييد سجاح التميمية • وبخاصة أن العرب بعامة — الا النزر اليسير — قد ارتدوا بعد وفاة النبى (ص) من هذا المنطلق • ولكن الذى نميل اليه ان قيسا زعزعت ثقته بسجاح عندما تزوجت من مسيلمة، ولهذا نسبت اليه بعض المصادر هذه الأبيات :

يالعنة الله والاقوام كلهم
على سجاح ومن بالافك أغرانا
أعنى مسيلمة الكذاب لا سقيت
أصداؤه ماء مزن حيثما كانا (١)

وربما كان قيس عندما أسره خالد ابن الوليد قد تراجع عن ردته قبل ان يأسره خالد ، وأن يمينه كانت صادقة •

واذا انتقلنا بعد هذا الى جانب هام من جوانب شخصيته وأحد مقوماتها ، ونعنى به **قيس بن عاصم الفارس** نجد أن أول ما يطالعنا خبر فى الأغانى يصفه فيه بأنه فارس شجاع كثير الغارات ، مظفر فى غزواته (٢) • ويطالعنا صاحب « المحبر » بخبر آخر يعد فيه قيس ابن عاصم من الجرارين (٣) ، والجرار هو القائد الذى يقود ألف رجل • وبدهى ان القائد الجرار الذى يقود ألف رجل محارب فى الجاهلية يعنى أنه فارس شجاع اذا ما اعتبرنا عدد الجيوش المقاتلة فى تلك الايام •

ونقلب فى المصادر التى أوردت أخبار تلك الايام والغارات فى الجاهلية فنرى أن قيسا كان قائدا وفارسا مبرزا فى الايام التالية : يوم جدود ، ويوم ثيتل أو النباج ، ويوم الكلاب الثانى ، وقتاله عبد القيس •

أما يوم جدود فقد كان من حديثه أن الحارث بن شريك جمع بنى شيبان وبنى ذهل واللهازم أغار على بنى مقاعس واخوتهم بنى ربيع فلم يجيبوهم ، فاستصرخوا بنى منقر ، فركبوا حتى لحقوا بالحارث ابن شريك وبكر بن وائل وهم قائلون فى يوم شديد الحر •• وكانت نتيجة

---

(١) ثمار القلوب للثعالبى ٣١٥ ، المعارف لابن قتيبة ٤٠٥ •
(٢) الاعانى ٦٩/١٤ •
(٣) المحبر — لابن حبيب ٢٤٦ •

المعركة ان هزم الحـــارث وبكر ، وقصد قيس بن عاصم الحوفزان ، ولم يكن له همة غيره ، والحارث على فرس له قارح يدعى الزبد ، وقيس على مهرزه ، فخاف قيس ان يسبقه الحارث ، فخفزه بالرمح فى استه ، فتحفز به الفرس فنجا ، فسـمى الحوفزان ، وأطلق قيس أموال بنى مقاعس وبنى ربيع وسباياهم وأخذ أموال بكـــر بن وائل واسراهم ، وانتفضـــت طعنـــة قيس على الحوفزان بعد سنة فمات (١) •

وفى يوم النبــاج وثيتــل ، أغار قيس بن عاصم على اللهازم ، فتبعه بنو كعب بن ســعد بالنباج وثيتل ، فتخوف ان يكره اصحابه لقاء بكر بن وائل ، فقام ليلا فشــق مزادهم ، لئلا يجدوا بدا من لقاء العــدو ، فلما فعل ذلك أذعنوا وصـــبروا للقائهم ، فأغار عليهم ، فكان أشهر يوم يوم ثيتل لبنى سعد ، وظفــر قيس بما شـــاء ، وملأ يديه من أموالهم وغنائمهم • وفى ذلك يقول ابنه على بن قيس بن عاصم :

أنا ابن الذى شق المزاد وقد رأى
بثيتل احيـــاء اللهازم حضرا
فصحبهم بالجيش قيس بن عاصم
وكان اذا ما أورد الامر أصدرا (٢)

وفى يوم الكــلاب الثانى ، وكان تاريخه بعد يوم الصفقة حيث أوقع كسرى بتميم ، اجتمعــت تميم الى سبعة منهم وشاوروهم فى أمرهم • وكان من بينهم قيس بن عاصم ، وقال كل رجـــل منهم ما رأى ، ووافقوا على رأى النعمـــان بن الحسحاس ، حيث أشـــار عليهم بالبحث عن ماء يجمعهم ولا يعلم الناس بأى ماء هم حتى يقـــوى ظهرهم ، وتصلح أحوالهم ، واقترح عليهم ماء قـــدة • وعلمت اليمن بضعف أمرهم بعــد أن بطش بهم كسرى ، فتنادت واحلافهـــا من قضاعة ، وخرج الجميع لغزو تميم ، ففزعت تميم الى اكثم ليشـــير عليها ان تنزل حنظلة بالدهناء ، وسعد والرباب بالكـــلاب ، وأى الطريقين اخذ القوم كفى احدهما صـــاحبه ،

---

(١) الاغانى ١٤/٧٩
(٢) الاغانى ١٤/٨١

وقبل القوم مشـــورته . واقتتل القوم وقتل النعمان بن الحسحاس آخر النهار ، ولما أصـــبحوا تولى قيس بن عاصم امرة تميم ، وحملوا على أهل اليمن حملة صـــادقة ، فانهزموا ، وقيس ينادى : يالتميم ! لا تقتلوا الا فارسا ، فان الرجـــالة لكم (١) .

ومن غارات قيس بن عاصـــم ، تلك الغارة على عبـــد القيس ، وقد كان بنو سعد برئاسة ســـنان بن خالد ، وكان بنو عبد القيس بأرض البحرين ، فأصـــابت بنو سعد ما أرادت ، وقد أبلى بنو سعد بلاء حسنا ، واحتالت عبد القيس فى أن يفعـــل ببنى تميم كما فعـــل بهم بالمشـــقر يوم أغلق عليهم بابه فامتنعوا . ويبدو أن هـــذا اليوم ، بين عبد القيس وبنى سعد كان هو يوم جؤاثى ، لان ســـوار بن حيان المنقرى يقول مفتخرا :

فيالك من أيام صـــدق أعـــدها
كيوم جؤاثى والنباج وثيتلا (٢)

ومن أخبار الايام ما نجده فى خبر يوم الســـتار ، وهو يوم بين بكر وتميم ، وفى هذا اليوم قتل قيس بن عاصم ، كما قتل فيه أيضا قتادة بن سلمة الحنفى فارس بكر (٣) .

هذا ما اسعفتنا به المصادر التى عنيت بأخبار الايام ، ومن المؤكد ان أياما أخرى قد ضلت طريقها الينا ، لان لابى عبيدة كتابين فى الايام ، كتاب الايام الكبير ، وكتاب الايام الصغير . وقد ذكر أبو عبيـــدة ألفا ومائتى يوم فى الكتـــاب الاول ، وأورد فى الثانى خبر خمســـة وســـبعين يوما (٤) . كما ألف صاحب الاغانى كتابا فى الايام جمع فيه ألفا وسبعمائة يوم (٥) .

ولكننا بالرغم من كل هذا لا نعثر

---

(١) أنظر خبر هذا اليوم مفصـــلا فى مصـــادره : شرح النقـــائض ١٣٧/١ ، الأغانى والعقد الفريد ٣٥٤/٣ ، الكامل فى التاريخ لابن الاثير ، خزانة الأدب ٣٧٠/١ .

(٢) الأغانى ٨١/١٤ .

(٣) مجمع الامثال للميدانى ٣٩٦/٢

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٩٩/١

(٥) كشف الظنون ٤٩٩/١

على أخبار ما يقارب ثلاثمائة يوم أو يزيد قليلا (١) • وبعبارة أخرى ان ما وصلنا اليه يعادل خمس الايام التى دونها العلماء الرواة •

ونتابع الرحلة مع سيد أهل الوبر لنبحث فى جانب آخر من جوانب شخصيته ، ونعنى قيسا الشاعر، فقد أسعفتنا المصادر بمقطوعات من شعره ، ولم تتح لنا المصادر ان نظفر بقصيدة واحدة له يزيد عدد أبياتها على العشرة • وقد كان هذا من أبرز الدوافع عندى لالغاء الفصل الخاص بقيس ، اذ لا ديوان شعر له بين أيدينا ، وليست بين أيدينا قصائد مطولة له ، كما أن عدد أبيات المقطوعات التى ظفرنا بها لا تربو على خمسين بيتا موزعة على احدى عشرة مقطوعة •

وسنحاول فى عجالة أن نعرض لنماذج من شعره لنتبين الموضوعات التى طرقها ، ولنتبين صلتها بجوانب شخصيته •

وأول ما نطالعه هنا حديثه عن الخمر التى حرمها على نفسه فى الجاهلية • ففى خبر عن أبى حاتم أن قيسا شرب ليلة حتى سكر، وكان يجاوره دارى تاجر ، فربط الدارى وأخذ ماله،وشرب من شرابهفازداد سكرا ، وجعل يتطاول ويثاور النجوم من السكر ليبلغها وليتناول القمر فقال :

وتاجر فاجر جاء الاله به
كأن عثنونه أذناب أجمال

فلما أصبح أخبر بما كان منه ، فآلى الا يدخل الخمر بين أضلاعه أبدا (٢) •

وفى رواية أخرى عن عاصم بن الحدثان وهشام بن الكلبى عن أشياخهما أنه حرم الخمر لسبب آخر ذكرناه سابقا وأنشد فى ذلك :

وجدت الخمر جامحة وفيها
خصال تفضح الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتى
ولا أدعو لها أبدا نديما
ولا أعطى بها ثمنا حياتى
ولا أشفى بها أبدا سقيما

---

(١) احصائيات ملحقة ببحثى المشار اليه آنفا
(٢) الاغانى ٧٦/١٤ ، ٨٥

فان الخمر تفضـــح شـــــــاربيها
وتجشمهم بهــــا أمرا عظيمــــا
اذا دارت حمياهـــــــــا تعلت
طوالــــع تسفه الرجل الحليما (١)

ونلحظ فى الابيات السابقـــة ان تحريمها على نفسه جاء نتيجـــة تجربة مريرة عاشها قيس ، قد تكون محاولة مع ابنته أو أخته ، ودليـــل هذا قولـــــه فِى البيتين الرابـــع والخامس ، كما نلاحظ ربط ذلك بما تحدثه للرجل الحليم • وهـــــــذه الاشارة ربما تعــود الى تصرفه أيضا مع تاجر الخمر نفســـه وربطه الى دوحـــة فى داره ، ولطمه اخته وخمش وجههـــا ، وهـــذه تصرفات تسفه الرجل الحليم •

ولقيس مقطوعة أخـــرى رويت عنه تتصل بالخمر ، يقول فيها :

فوالله لا أحســـو يد الدهـــر خمرة
ولا شربة تزرى بذى اللب والفخر
فكيف أذوق الخمر والخمر لم تزل
بصاحبها حتى تكسع فى الغــــدر
وصارت به الأمثال تضرب بعـــد ما
يكون عميد القوم فى السر والجهر
ويبـــدرهم فى كل أمـــر ينــــوبهم
ويعصمهم ما نابهم حـــادث الدهر
فيا شارب الصــــهباء دعها لأهلها
الغواة وســـلم للجسـيم من الامر
فانك لا تـــدرى اذا ما شربتهــــا
وأكثرت منها ما تريش وماتبرى(٢)

ونستخلص من هذه الأبيـــــات القليلة الاسباب التى حملته عـــلى الامتناع عن شربها ومعاهدته اللــــه عـــلى ذلك ، ومن ذلك انهـــا تزرى بصاحبها ولو كان ذا عقل ومحمدة يفخـــر بها ، ومنهـــا انهـــا لم تزل بصـــــاحبها حتى تجعله ينغمس فى الرذيلة ويتمـــادى فى الغدر ، ومنها أنها تجعل شاربها حـــديث القوم وتضرب به الامثال فى السفه والغدر بعد أن كان سيد القـــــوم فى السر والعلن ، وبعـــــد أن كان صاحب المبادرة فى كل أمر ينزل بهم، وكان يعصمهم ويحميهم من نوائب الدهـــــــــر • ونراه فى البيتين الاخيرين لا يقصر التحريم عـــلى

---

(١) الأغانى ٨٤/١٤ •
(٢) الأغانى ٨٥/١٤ •

نفسه بل تراه يوجه حديثه الى كل شارب لها ناصحا له بأن يتركهـا للغواة الضالين السـادرين فى الضلالة • وأن يتفرغ للأمور الهامة التى تهم قومه وتهمه ، ويعلل ذاك بأن الذى يشربها ويكثر لا يـدرى ماذا يفعل ولا يستطيع أن يميز بين الضار والنافع •

ومما أثر عن قيس بن عاصـم كرمه واطعامه زاده الآخـرين أن زوجه أتته فى الليلة الثانية من بنائه بها بطعام فقال : أين أكيلى ؟ فلم تفهم قصده ، فأنشأ يقول :

يا ابنة عبد اللـه وابنة مالك
ويا بنت ذى البردين والفرس الورد
اذا ما صنعت الزاد فالتمسى لـه
أكيلا فانى لست آكله وحـدى
أخا طارقا أو جـار بيت فاننى
أخاف ملامات الاحاديث مـن بعدى
وانى لعبد الضيف من غير ذلـة
وما بى الا تلك من شـيم العبـد

فأرسلت جارية لها مليحة فطلبت له أكيلا ، وأجابته :

أبى المرء قيس أن يذوق طعامـه
بغـير اكيـل انه لكـريم
فبوركت حيا يا أخـا الجود والندى
وبوركت ميتا قد حوتك رجوم (١)

بورك قيس بن عاصم ، فقد كان يخشى ملامات الاحاديث من بعده ، وقد كان يرفض أن ينفـرد بالزاد وهو يأبى الا ان يكون عبدا لضيفه الذى حدده بالطارق أو بالجـار ، وكلاهما له عليه حق فى زاده

ونرى قيسا حينما خدعـه الزبرقان وزين اليه أن يفرق كـل منهما الصدقات فى قومه ، وفعلها قيس ، وذهب الزبر قان بما لديه من الصدقات الى أبى بكر ، نراه يقول محددا سبب فعلته تلك ومعلنا ذلك ليصل الى قريش :

الا أبلغا عنى قريشا رسـالة
اذا ما أتتهم مهديات الودائـع
حبوت بما صدقت فى العام منقـرا
وأيأسـت منها كل أطلس طامع (٢)

ويتبين من البيت الثانى أنه خاف بعد موت النبى (ص) أن تقـع

---

(١) الاغانى ٤/٧١ ـ ٧٢
(٢) الاغانى ١٤/٧٥

هذه الصدقات فى يـــــد لص خبيث طامع ، والاولى أن يقسمها فى قومه، وربما كان عذره فى ذلك أنه لم يكن قد تمثل الاسلام بعد ، وأن مـوت النبى (ص) لا يغنى أن عقد الامور قد حل وعادت الامور الى سابق عهدها فى الجاهلية .

أما قيس الفارس الشاعر فلم نعثر له الا على مقطوعات ثلاث ، الاولى قالها فى يوم جدود ، وفيها يقول :

جزى الله يربوعا بأسوا سـعيها
اذا ذكرت فى النائبات أمـــورها
ويوم جدود قد فضـــحتم اباكم
وسالمتم والخيل تدمى نحورهــا
فأصـــبحتم والله يفعل ذاكم
كمهنئـوة جـربـاء أبـرز كـورها
كموءودة لم يبق الا زفيرهــــا
وأصبحت وغلا فى تميم وأصبحت
عظاما مساعيها سواك ودورهــا
أفخرا على المولى اذا مـــا بطنتم
ولوما اذا ما الحرب شـب سعيرها

وينتقل بعد هذا اللوم ليربوع لنكوصها على نصرة اخوتها ، الى الفخر بقومه فيقول :

عصمنا تميما فى الحروب فأصبحت
معادتها تحيى سواك وخيرهـــا
وهرت بنو يربوع اذ هشـها الوغى
هرير كلاب أوجعتها أيورهـــا

ثم يذكر يومين آخرين لقومـه وهما جواثى والنباج فيقول :

ويوم جواثى والنبـــاج وثيتل
منعنا ربيعا ان تباح ثغورهـــا
وغزكم من رهطكم كل مربـــع
جوابى جهنام يمد نحيرهـــا
تساقط افلاق الحصى فى نحوركم
بصحن العراق فاستبنتم نحورها(١)

ويرتجز قيس فى يوم الكلاب الثانى:

لمـــا تولوا عصـــبا شوازبا
أقســـمت لا أطعن الا راكبا
انى وجدت الطعن فيهم صائبا (٢)

ويجيب راجز مذحج قائلا :

عما قليل تلتحـــق أربـــابه
مثل النجـــوم حسرا سـحابه
ليمنعن النعم اغتصـــابه
ســعد وفرسان الوغى أربابه (٣)

(١) شرح النقـــائض لأبى عبيده ١/٤٦ ، ٣٢٨ ، الأغانى ١٤/٨١ ، العقد الفريد ٥/٢٠٠ ، الكامل لابن الاثير ١/٦١١
(٢) شرح النقائض ١/١٥٢
(٣) الكامل فى التاريخ لابن الاثير ١/٦٢٤

وفى الأغانى أن مهاترة نشبت بين قيس وابن عمه عمرو بن الاهتم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قدما عليه بعد فتح مكـــة ، وقال قيس يرد على ابن عمـــه ويفتخر :

لولا دفـــاعى عنكم كنتم أعبـــدا
مســـكنها الحيرة فالســـيلحون
جاءت بكم عفرة من أرضـــها
حيرية ليست كما تزعمـــون
فى ظـــاهر الكف وفى بطنهـــا
وسم من الداء الذى تكتمون (١)

ويبدو أن العمر قد امتد بقيس ، فقد عاصر أبا بكر ، لان صـــاحب فتوح البلدان يذكر خبرا عن فتوح السواد ، ذلك ان المثنى بن حارثه الشيبانى كان يغير على الســواد ، فبلغ أبا بكر خبره ، فســأل عنه ، فقال قيس بن عاصم لأبى بكر : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ، وأثنى عليه (٢) .

وأكسبته تلك السنوات حكمـــة أودعها بنيه ، فكان يقول لهم : اياكم والبغى ، فما بغى قوم قط الا قلوا وذلوا .

وقد امثل بنوه لما أو أوصـــاهم فكان بعضهم يلطمه قومه أو غيرهم فينهى اخوته عن أن ينصروه (٣). وأوصاهم بحفظ المال ، وقد حمل عليه وعلى قومه من أجل ذلك لانه يناقض الكرم ولا يلتقى معه. وربما كانت وصيته الا ينفقوا المال الا فى اهداف نبيلة ، وأن يتجنبوا اتلافه فى اللهو وغيره مما لا ينفع ، وممـــا يؤكد هذا الاتجاه ما ســـيرد فى وصيته الاخيرة .

ويروى ابن عدى أن قيسا جمع ولده حين حضرته الوفاة وأوصاهم بما يلى : يابنى اذا مت فسودوا كباركم ، ولا تســـودوا صغاركم فيسفه النـــاس كباركم . وعليكم باصـــلاح المـــال فانه منبهـــة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم ، واذا مت فادفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم . واياكم والمسألة فانها آخر مكاسب العبد ،

(١) الاغانى ١٤/٨٨
(٢) فتوح البلدان ــ البلاذرى ٢٤٢
(٣) الاغانى ١٤/٧٧

وان امرأ لم يسأل الا ترك مكسبه

•• ثم جمع ثمانين سهما فربطهـا وتر ، ثم قال : اكسروهـا ، فلم يستطيعوا ، ثم قال : فرقـوا ، فقال : اكسروها سهما سـهما ، فكسروها • فقال : هكـذا انتم فى الاجتماع وفى الفرقة ، ثم أنشد :

انما المجد ما بنى والد الصـــد
ق وأحيا فعاله المولـــــود
وتمام الفضل الشجاعـــة والحلم
اذا زانه عفـــاف وجـــود
كثلاثين من قـــداح اذا مـــا
شـــدها للزمان قدح شـــديد
لم تكسر وان تفرقت الاســـهم
أودى بجمعهـــا التبـــديد
وذووا الحلم والاكابــــر آولى
ان يرى منكم لهم تســـويد
وعليكم حفظ الاصـــاغر حتى
يبلغ الحنث الاصغر المجهـود (١)

ومات قيس بن عاصم بعـد ان انتهى من وصيته • هكـذا يروى صاحب الاغانى •

والوصية بنثرها وشعرها لم تأت بجديد مما عـــرفنا من جوانب شخصيته المتفردة فى الجاهليـة : الصدق فى الفعال ، وتمام الفضل يتمثل بالشجاعة والحلم اذا اقترن به عفاف وكرم ، وحفظ مقام الكبير، والعطف واحترام حقوق الصـغير حتى يكبر • كل هذه الخصال عشنا معها فى مسيرة حياة قيس وضربنـا امثلة لكل منها •

ويرثى عبدة بن الطبيب قيسا ، بعد أن كانت بينهما ملاحاة ، انتهت بصداقة عندما حمل قيس دية كان عبدة يسعى فى طلبها وجمعها ، ومنذ ذلك التاريخ أقلع عبدة عن ملاحاته • يقول عبدة فى رثائه :

عليك سلام الله قيس بن عاصـم
ورحمته ما شاء أن يترحمـــا
تحية من أوليته منك نعمــــة
اذا زار عن شحط بلادك ســلما
فما كان قيس هلكـــه هلك واحد
ولكنه بنيان قـــوم تهـــدما (٢)

دكتور عفيف عبد الرحمن

---

(١) الاغانى ١٤/٨٢
(٢) الاغانى ١٤/٨٣

باب الفتاوى

الاستاذ عبد الحميد شاهين

س : ما معنى قول الله تبارك وتعالى : **« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ؟**

وكيف نوفق بين ما تفيده هذه الآية وما يبتلى به المسلمون أحيانا من نكسات وهزائم تجعل لاعدائهم الكافرين السيطرة عليهم . والتحكم فى كثير من مقدراتهم ومصائرهم ؟ كما هو واقع المسلمين اليوم !!

ج : تأتى هذه الآية فى ثنايا استعراض سمات المنافقين ، وقبلها مباشرة قول الله تعالى : **« الله يحكم بينكم يوم القيامة »** ولهذا فقد قال الامام البيضاوى فى **تفسيره : ان قوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا »**(١) يكون حينئذ أى يوم القيامة ولكنه رضى الله عنه أورد رأيا آخر وهو أن يكون ذلك فى الدنيا .. كما فسر السبيل بالحجة .

ولعل هذا الرأى الاخير هو الذى استند اليه الاستاذ سيد قطب — رحمه الله تعالى — فى تفسيره لهذه الآية حيث قال : « انه وعد من الله قاطع وحكم من الله جامع . انه متى استقرت حقيقة الايمان فى نفوس المؤمنين ، وتمثلت عملا فى واقع حياتهم كما يجب أن تكون ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، ولن يغلب المؤمنون غلبة حقيقية ، ولن يهزموا الا هزيمة ظاهرية ووقتية ، والنصر

---

(١) من الآية (١٤١) من سورة النساء .

لهم مكتوب من عند الله لا يضيع .

هذه حقيقة يقررها الله ، ووعد لا يتخلف لمن استقرت فى نفسه حقيقة الايمان بالله . ولكننا قد نرى الظاهر يخالفها فى بعض الاحيان ..

ويقرر رحمه الله فى ثقة بوعد الله لا يخالجها شك .. أن الهزيمة لا تلحق المؤمنين ولم تلحقهم فى تاريخهم كله الا وهناك ثغرة فى حقيقة الايمان : اما فى الشعور واما فى العمل وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ، ثم يعود النصر للمؤمنين .

ففى « أحد » : كانت الثغرة فى ترك الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى الطمع فى الغنيمة ، وفى « حنين » : كانت الثغرة فى الاعتزاز بالكثرة ، لا فى الثقة المطلقة فى عون الله : « **ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا** » (١) .

ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين فى تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا نعرفه أولا نعرفه .. أما وعد الله فحق فى كل حين .

نعم : ان المحنة قد تكون للابتلاء ، ولكن الابتلاء انما يجىء لحكمة فى استكمال حقيقة الايمان .. وايقاظ كوامنه فى الصدور ، فمتى اكتملت تلك الحقيقة ، ومتى انبعثت بالابتلاء قوية ، جاء النصر وتحقق وعد الله .

على أننى انما أعنى بالهزيمة معنى أشمل من مدلولها الظاهرى ، انما أعنى بالهزيمة هزيمة الروح ، وكلال العزيمة ، فالهزيمة فى معركة لا تكون هزيمة الا اذا تركت آثارها فى النفس همودا وكلالا وقنوطا . فأما اذا بعثت الهمة ، وأذكت الشعلة ، فهى مقدمة للنصر ، ودافعة الى الاستعلاء .

ان غلبة الكفار علينا لا تتم يوم يغلبوننا فى معركة . ولكن يوم يغلبون أرواحنا ، فنراهم قوة لا تقهر ، ونرانا الى جانبهم ضعافا لا أمل لنا فى الانتصار .

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة التوبة .

وحين يقرر النص القرآنى الكريم أن الله لن يجعــل للكــافرين على المؤمنين سبيلا •

فانما يشير الى أن الروح المؤمنة هى التى تنتصر ، والفكرة المؤمنة هى التى تســـود • وانما يدعو المسلمين الى أن يســتكملوا حقيقة الايمان فى نفوسهم شـــعورا ، وفى حياتهم عدة وعملا ، وألا يعتمدوا على مجرد أنهم مسلمون ، فالنصر ليس للعنوانات • انما هو للحقائق التى خلف العنوانات •

وليس بيننا وبين النصر فى أى زمان وفى أى مكان • الا أن نستكمل حقيقة الايمان ، ومن حقيقة الايمان ألا نركن الى أعدائنا • وألا نطلب العزة الا من الله • ولا يقولن أحد : نتقوى بهم حتى نتقوى ، فان هذه القولة بذاتها هى الخطوة الأولى فى طريق الهزيمة ، فالضــعف لا يلد الاالضعف، والقوة لاتكون الابالله الذى وعد ووعده الحق **«ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا»**•

هذا الوعد يكفى بذاته لتقــرير حقيقته وتعليلها ، وهو يتفق كذلك مع حقيقة الايمان وحقيقة الكفر فى هذه الحياة •• ان الايمان صــلة بالقوة الكبرى التى لا تضعف ولا تفنى ، وان الكفر انقطاع عن تلك القوة التى لا قوة سواها • فطبيعى الا يجعل الله للكافرين على المؤمنين ســبيلا ، لأن هذا لو كان — ولن يكون — فان معناه أن قوة ظاهرة محدودة فانية تملك أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة فى هذا الكون جميعا •• وهو ما لم يكن ولن يكون أبدا •

غير انه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الايمان ومظهر الايمان • ان حقيقة الايمان قوة حقيقية ثابتة ، ذات أثر فى النفس وفيما يصــدر عنها من العمل ، وهى حقيقة كفيلة بأن تواجه حقيقة الكفر المنعزلــــة المبتوتة المحدودة فتقهرها ، ولكن حين يتحــول الايمان الى مظهــر فان حقيقة الكفر قد تغلبه اذا هى صدقت وعملت فى عالم الواقع ، لان حقيقة أى شىء أقوى من مظهـــر أى شىء فى هذا الوجود •

ونحن اليوم مع خصـــــومنا

وأعدائنا نمثل مظهر الايمان يواجه حقيقة الكفر ، لهذا هم يغلبوننا .. انهم يكفرون بالله ويؤمنون بالمادة والمادة ولو أنها صغيرة فهم يواجهوننا بحقيقة الايمان بشيء ما — ولو كان هذا الشيء صغيرا — ونحن نواجههم بغير ايمان . لا بحقيقة كبرى ولا بحقيقة صغرى !!

فأما يوم أن نحقق فى نفوسنا وفى واقعنا حقيقة الايمان بالله ذى الجلال فلن يغلبونا أبدا « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** » اهـ (١) .

وقد أجابت لجنة الفتوى بالازهر على الاسئلة التالية فيما يأتى :

س : ما حكم حجاب المرأة المسلمة الأوروبية وهل يختلف الحجاب بالنسبة لها ؟

ج : المرأة المسلمة يجب عليها أن تستر جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين وذلك عند أمن الفتنة أيا كانت اقامتها — فى بلاد اسلامية أو أوروبية أو غيرها فأوامر الدين لا تفرق بين موطن وموطن .

س : ما حكم وجود المرأة مع الرجل فى دور التعليم ؟

ج : لا يجوز للمراة أن تخلو بالرجل أو بالرجال ، حتى ولو كان ذلك للتعليم ، أما اذا كان هناك عدد من الرجال وعدد من النساء للتعليم مع المحافظة والستر وأمن الفتنة فهو جائز .

س : ما حكم عمل الموظف فى البنوك التى تتعامل بالربا ؟

ج : الموظف الذى يعمل فى بنك يتعامل بالربا ، ان كان عمله يتصل بعمليات الربا فليس له أن يعمل اذا وجد عملا آخر يقوم بمعيشته ، اذ أنه كما حرم تناول الربا حرم كتابته والشهادة عليه .

وان لم يجد عملا آخر فهو محتاج ، له أن يعمل حتى يجد المخرج من ذلك .

والله أعلم

عبد الحميد شاهين

---

(١) من كتاب فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

حكم وطرائف

اعداد الاستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« ذكــر الله »

قال تعالى : « الذين يذكــرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم »

وقال جل شـــأنه : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعــــد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

فالرجل المؤمن ، هو الـــذى يجلس بين الخلق يبيع ويشـــترى ويختلط بالناس ولكنه لايغفل عن ذكر الله « ذكر الله فى الغافلـــين كالشجرة الخضراء فى وســــط الهشيم » .

وقيل لعابد انك صائم ؟

قال : نعم صائم بذكره ، فاذا ذكرت غيره أفطرت .

وقيل للجنيد عند موته : قـــل لا اله الا الله ؟

قال: مانسيته فاذكره ثم أنشد:

حاضر فى القلب يعمـــره
لست أنســاه فأذكـــره
فهــو مــولاى ومعتمدى
ونصيبى منه أوفـــــره

ومر ابراهيم بن أدهم برجـــل يتحدث بما لا يعنيه ، فوقف عليه .

وقال له : أكلامك هذا ترجو به الثواب ؟

قال : لا .

قال : أفتأمن عليه العقاب ؟

قال : لا .

قال : فما تصنع بكلام لاترجو عليه ثوابا ، وتخاف منه عقابا ؟

عليك بذكر الله تعالى .

« لأغمــك »

كان لبعض النساك شاة فرآها على ثلاث قوائم .

فقال : من فعل بها هذا ؟

قال غلامه : أنا .

قال له : ولــم ؟

قال : لأ غمك .

قال : لأغمن من حملك على هذا أنت حر لو جه الله تعالى .

« أتهزأ بى !! »

بينما النبى ــ صلى الله عليــه وسلم ــ فى الطــواف اذ ســـمع أعرابيا يقول :

يا كــريم .

فقال النبى خلفه « يا كريم » فالتفت الأعرابى الى النبى .

وقال : يا صبيح الوجه ، يارشيق القد ، أتهزأ بى لكونى أعــرابيا ؟

والله لولا صــباحة وجهــك ، ورشاقة قدك ، لشــــــكوتك الى حبيبى محمد ــ صلى الله عليــه وســـلم ــ .

فتبسم النبى ، وقال : « أمــا تعرف نبيك يا أخا العرب » ؟

قال الاعرابى : لا .

فقال النبى : «فما ايمانك به »؟

قال : آمنت بنبوته ولــم أره ، وصدقت برسالته ولم ألقه .

فقال النبى : « يا أعرابى اعلم أنى نبيك فى الدنيا وشــفيعك فى الآخرة » .

فأقبل الأعرابى يقبل يد النبى .

فقـــال النبى : « مه يا أخــــا العرب ، لاتفعل بى كما تفعـــــل الأعاجم بملوكها ، فان الله سبحانه وتعالى بعثنى لا متكبــــرا ، ولا متجبرا ، بل بعثنى بالحق بشــيرا ونذيــرا » .

« هكذا زهد ٠٠ كلا بنا »

قال ابراهيـــــــم بن أدهم : ما غلبنى غير فتى من ســــمرقند لقيته فى موسم الحج فقال : «أنت ابراهيم بن أدهم » ؟ قلت : نعم ، قال : « ما حد الزهد عندكم » ؟

قال : « نحن اذا حرمنا صبرنا، واذا أعطينا شكرنا » .

قال الفتى : « هكذا تفعل كلاب سمرقند عندنا » !

قال ابراهيم : فما حد الزهد عندكم ؟

قال : « أما نحن فاذا حرمنا شكرنا ، واذا أعطينا آثرنا !! »

قال ابن أدهم : ماغلبنى غير هذا الفتى من سمرقند .

« الدراهم أربعة »

الدراهم أربعة : درهم اكتسب بطاعة الله وأخرج فى حق الله فذاك خير الدراهم ، ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج فى بمعصية الله فذاك شر الدراهم ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأخرج فى أذى مسلم فهو كذلك ، ودرهم اكتسب بمباح وأنفق فى شهوة مباحة فذاك لاله ولا عليه هذه أصول الدراهم ويتفرع عليها دراهم أخر : درهم اكتسب بباطل وأنفق فى حق فانفاقه كفارته ، ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق فى طاعة ، وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذم باخراج الدرهم فكذلك يتعلق باكتسابه ، وسيسأل عنه من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟

« دعنى لمن خلقنى »

دخل أحد الصحابة مسجدا يصلى ، فاستوقف نظره طفل لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، قائم يصلى بكل خشوع ، ويركع ويسجد فى هدوء واطمئنان ، فلما فرغ الصبى من الصلاة ، تقدم منه الصحابى وسأله : ابن من أنت يا هذا ؟

فرد عليه الصبى ، وقال: انى يتيم فقدت أبى وأمى .

قال الصحابى : أترضى أن تكون لى ولدا ؟

فقال الصبى : هل تطعمنى اذا جعت ؟

قال الصحابى : نعم .

فقال الصبى : وهل تسقينى اذا عطشت ؟

قال الصحابى : نعم .

فقال الصبى : وهل تكسونى اذا عريت ؟

قال الصحابى : نعم .

فقال الصبى : وهل تحيينى اذا مت ؟

فدهش الصحابى ، وقال : هذا ماليس اليه سبيل ، فأشاح الصغير بوجهه ، وقال : فاتركنى اذن للذى خلقنى ثم يرزقنى ثم يميتنى ثم يحيين .

فانصرف الصحابى وهو يقول : لعمرى من توكل على الله كفاه .

((من وصايا الحكماء))

لقى رجل حكيما فقال : كيف ترى الدهر ؟

قال : يخلق الأبدان ، ويجدد الآمال ، ويقرب المنية ، ويباعد الأمنية .

قال : فما حال أهله ؟

قال : من ظفر به منهم تعب ، ومن فاته نصب .

قال : فما الغنى عنه ؟

قال : قطع الرجاء منه .

قال : فأى الأصحاب أبر وأوفى ؟.

قال : العمل الصالح والتقوى.

قال : أيهم أضر وأردى (١) ؟

قال : النفس والهوى .

قال فأين المخرج ؟

قال : سلوك المنهج .

قال : وما هو ؟

قال : بذل المجهود ، وترك الراحة ، ومداومة الفكرة .

قال : أوصنى ؟

قال : قد فعلت .

---

(١) الردى : الهلاك .

« ماترك الاعرابى لنا عذرا »

قيل ان بعض وفود العرب قدموا على أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز ــ **رضى الله عنه ــ** وكان فيهم شاب ، فقام ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أصابتنا سنون عجاف ، سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة دقت العظم ، وفى أيديكم فضول أموال فان كانت لنا فعلام تمنعونها عنا ؟ وان كانت لله ففرقوها على عباد الله ،وان كانت لكم فتصدقوا بها علينا **« ان الله يجزى المتصدقين »** .

فقال عمر بن عبد العزيز ــ رضى الله عنه ــ : ما ترك الأعرابى لنا عذر فى واحدة .

« الانسان بين أعدائه »

كيف يسلم من له زوجة **لاترحمه** وولد لا يعذره ، وجار لا يأمنه وصاحب لاينصحه ، وشريك لاينصفه ، وعدو لاينام عن معاداته ، ونفس أمارة بالسوء ، ودنيا متزينة ، وشهوة غالبة له وغضب قاهر ، وشيطان مزين ، وضعف مستول عليه ، فان تولاه الله انقهرت له هذه كلها ، وان تخلى عنه ووكله الى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة .

« كم نعمة مطوية »

قال سعيد بن حميد الكاتب :

لا تعتبن على النوائب
فالدهر يرغم كل عاتب
واصبر على حدثانه
ان الأمور لها عواقب
كم نعمة مطوية
لك بين أثناء النوائب
ومسرة قد أقبلت
من حيث تنتظر المصائب

« ثلاثة »

ثلاثه : ينبغى أن يجلو وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والاخوان .

فمن استخف بالعلماء أضاع دينه .

ومن استخف بالأمراء أضاع دنياه .

ومن استخف بالاخوان أضاع مروءته .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

كتاب الشهر

التوراة والإنجيل والقرآن والعلم

تأليف الكاتب الفرنسي : موريس بوكاي

ترجمة نخبة من الدعاة

عرض : للأستاذ السيد حسن قرون

موضوع هذا الكتاب كما يفهم من عنوانه دراسة نصوص الكتب المقدسة ، وهى التوراة والانجيل والقرآن وعرضها على معطيات العلم الحديثة والمقارنة بينها ، وتنبيه المؤمنين بها الى حقائق يجب معرفتها والسير فى ضوئها ، وهى دراسة حديثة تتسم بالموضوعية ، والتخلى عن نزعات الهوى والرواسب النفسية التى تحول بين الانسان والرؤية الصائبة البصيرة . ويعلن المؤلف (موريس بوكاى) فى مدخل الكتاب وهو المقدمةمقصده من دراساته ومالاقاه فى سبيل ذلك ، « فاعتبار المعطيات الموضوعية لتاريخ الديانات يضع العهد القديم والانجيل والقرآن فى مستوى واحد كمجموعة من الوحى المكتوب ، بيد أن هذا الامر وان كان مبدئيا مقبولا لدى المسلمين فهو لدى مؤمنى بلادنا الغربية المتأثرين باليهودية والمسيحية المسيطرة غير مقبول ، بل يرفضون اعطاء القرآن سمة الكتاب الموحى به . »

ذلك أن لليهودية كتابها المقدس (التوراة العبرية) ولا تعترف بأى وحى جاء بعد وحيها ، وللمسيحية أناجيلها الأربعة القانونية ، ولا تعترف بأى وحى جاء بعد عيسى ورسله . أما الوحى القرآنى الذى نزل بعد ستة قرون من المسيح فقد احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والانجيل اللذين أكثر من ذكرهما ، بل فرض على كل مسلم الايمان بالكتب السابقة (سورة ٤ آية ١٣٦) كما عنى بالرسل السابقين مثل نوح وابراهيم وموسى . وعيسى الذى كان فيهم فى مقام مرموق ، وقد أظهر القرآن ولادته كما كرم والدته مريم تكريما خاصا ، وأطلق اسمها على السورة رقم ١٩ يقصد سورة مريم .

ومن ثم فان مثقفى الغرب

ــ كمـــا يقول المؤلف ــ **يعنون** بمقومات الاسلام الفلســــفية والاجتماعية والسياســــية ، ثم لا يتساءلون كما هو الواجب عــن ماهية الوحى المحمدى ، لأن قرونا متطاولة تباعد فيها الغرب عــــن الاعتراف به (١) « لقد لمست ذلك عندما حاولت عقــد حوار للمقابلة بين نصوص توراتية ونصــــوص قرآنية تتناول موضوعا واحــدا ، ولاحظت الرفض المبدئى لمجــرد اعتبار مايتضــــمنه القرآن فى الموضوع المطروح كما لو كـــان الاستشهاد بالقرآن بمثابة انتمــاء الى الشيطان » ٠

ولكنه يقول : الأمور تغيرت فى أيامنا هذه ، والوثيقة التى صدرت عن أمانة الفاتيكان ووزعت لغــير المسلمين ، وكانت ثالثة طبعاتهـــا بتاريخ ١٩٧٠ تشهد بعمق التغيير فى المواقف الرســـمية ، وتوالت نوعيـــات التقـــارب بين الغرب المسيحى والشرق الاســـلامى ، بين الفاتيكان وجامعة الأزهر وكبار علماء الجزيرة العربية الســعودية حيث تهيأت الفرصــــة لحوار بين المسلمين والمسيحيين عن « حقوق الانسان الثقافية فى العالم » وهذا التقارب فى المستوى التخصصى لم يبلغه مستوى العامة فى الشعوب الغربية لانشـــغالهم بدنيـــاهم ولاكتفائهم بما وصل اليهم مـــن الثقافة الدينية ٠

وبعد أن يفيض فى هذا الشـــأن الذى حبب اليه ورغب فيه يتجــه الى ما وضعه نصب عينيه من نقد النصوص المقدســـة فى الاديان الثلاثة واضعا الاناجيل فى مستوى الاحاديث ، لأنها دونت بعد موت محمد بعشرات السنين تماما كمــا كتبت الاناجيل بعد مــوت عيسى بعشرات السنين ، وفى الحالين لم تكن الاحاديث والاناجيل ســوى شهادات بشرية عن وقائع ماضية ، واذا كانت الاحاديث تناقش لمعرفة

---

(١) ص ٨ مدخل الكتاب ٠

أصالة هذا الحـــديث أو ذاك فان الكنيسة اعتبرت أربعة أناجيل فقط « رغم وجود التناقض فيما بينها ، والفارق الواضح هو غياب النص الموحى به عند المسيحيين واليهود ، بينما يملك الاسلام القرآن الذى يحقق هذا التعريف .. ان القرآن هو نص الوحى المنزل الى محمــد من سيد الملائكة جبريل » .

ولهذا كانت مقابلة نصــوص الكتب المقدسة بمعطيات العلم موضع تفكير الانسان ، لأن مقياس النص على العلم يعطى راحة الانسان نحو أصالة النص ، وأنه من الوحى لا من صنع البشر ، ومن هنا حدد المؤلف منهجه بالنسبة لمعطيات العلم فهو لا يعتمد منها الا ماثبت ثبوتا لا يحتاج بعده الى كشف جديد ، واعتمد بصورة نهائية ، وبهذه القاعدة من منهجه ثبت خطأ التقويم العبرى المبنى على مبدأ ظهور الانسان على الارض منذ ٥٧٣٦ سنة كما شاء التقويم العبرى سنة ١٩٧٥ م لأننا اكتشفنا ــ كما يقول المؤلف ــ آثار أعمال انسانية ترجع دونما ريب الى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ، فلا يجوز اذن اعتبار النص التوراتى لسفر التكوين كما لو كان صحيحا . اذ يذكر السلالات البشرية والتواريخ التى تحدد بداية الانسان (خلق آدم) أنها ترجع الى سبعة وثلاثين قرنا قبل المسيح ، وبامكان العلم أن يقوم فى المستقبل بتدقيقات فى التأقيت اعظم من التقديرات الحالية .. ويبين جهده فى هذا الشأن فيقول : « بعد تدقيق النص العربى بامعان شديد قمت بجردة شاملة استبان لى منها أنه ليس فى القرآن تأكيد يمكن أن ينتقد من الوجهة العلمية فى هذا العصر الحديث » وأن التدقيق نفسه اتخذه بالنسبة للعهد القديم والاناجيل فاستبان له منه التناقضات مع المعارف الحديثة . « فكيف ندهش من ذلك ونحن نعلم أن الاسلام ينظر الى العلم والدين كتوأمين ، وأن تهذيب العلم كان جزءا من التوجيهات الدينية من البداية ، وأن تطبيق تلك القاعدة أدى الى التقدم العلمى العجيب فى

عصر الحضارة الاسلامية العظمى التى استفاد منها الغرب قبل نهضته » هكذا قال فى ختام « مدخله » ومن المدخل تلحظ أنه يجعل دراسته تنصب على الظواهر الطبيعية والمعلومات التى تحتاج الى تفسيرات ويمكن للعلم أن يصل اليها ويفسرها ، فالعلم مثلا لا يجد تفسيرا لكيفية تجلى الله لموسى أو السر الذى يحيط بمولد عيسى ومجيئه الى العالم من دون أن يكون له أب طبيعى • ولاينسى أن يشير الى أن ثروة الوحى القرآنى فى موضوع الظواهر الطبيعية بالذات كثيرة ومطابقة لمعطيات العلم الحديث • وحين قرأت هذا الكتاب مرة ومرة بدا لى أن أسير فى معطياته حسب موضوعاته لا حسب تاريخ ، الديانات ، فمثلا مسألة (الخلق) اعالجها فى الاديان الثلاثة مقارنا وموازنا ولكنى آثرت مجاراة المؤلف فى أقسامه الثلاثة وفصول كل منها ، فالقسم الاول للتوراة والقسم الثانى للأناجيل الأربعة والقسم الثالث للقرآن ، فالكتاب مؤلف من تلك الاقسام ومدخل فى الاول وخاتمة •

وكنت أود أن أعطى للقارىء صورة موجزة عن المؤلف الكاتب الفرنسى موريس بوكاى : نشأته ومسقط رأسه والعلوم التى درسها ولكنى لا أملك المراجع التى تؤهلنى لمثل هذا الامر الشائق ، وكان ينبغى على النخبة التى ترجمت كتابه أن تترجم حياته ، والرجل مازال يزاول دراسته وهو مستشرق يشترك مع رجال الفكر والدين فى المؤتمرات واللقاءات التى ترغب فى الحوار لتقارب الغرب والشرق فى الديانات •

العهد القديم

أعلن بادىء ذى بدء فى صدر حديثه عن العهد القديم متسائلا : من هو مؤلف العهد القديم ؟ وكان جوابه : كم من قارىء للعهد القديم يلقى عليه هذا السؤال فلا يحير جوابا الا مرددا ما قرأه فى مدخل التوراة بأن مؤلف هذه الكتب المقدسة كلها هو الله مع أن الذين كتبوها هم بشر من الذين أوحى الروح القدس اليهم • وبعد جولة

تاريخية مع عمل الكنيسة نحو هذه الكتب من القرن الرابع الى العصر الحديث ينقل عن الاستاذ (أدموند جاكوب) كثرة النصوص للتوراة ، وأنه كانت هناك نحو القرن الثالث قبل المسيح ثلاثة أشكال لنص التوراة العبرى على الاقل : منها نص الشارحين اليهود والذى استخدم على الاقل فى جزء من الترجمة اليونانية ، والاسفار السامرية الخمسة ، لقد كان الاتجاه فى القرن الاول قبل المسيح الى تثبيت نص مفرد ، ولكن كان لابد من الانتظار قرنا آخر بعد المسيح لكى يصبح نص التوراة محددا .. ولو كانت الاشكال الثلاثة باقية لأمكن الوصول بالموازنة والمقارنة الى نص يصح أن ينسب الى الوحى . ويقول فى هذا الصدد : « لقد أنجزت مجموعات متوازية متقاربة فى لغات مختلفة تورد جنبا الى جنب النصوص العبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، والسريانية ، والآرامية ، حتى العربية مثل توارة (والتون) الشهيرة ، ولنكمل المطاف نضيف أن المدركات التوراتية المتباينة كانت بين مختلف الكنائس المسيحية سبب رفضها جميعها نفس الأسفار ، كما أنها حتى الآن ليس لها فى اللغة الواحدة الأفكار الواحدة عن الترجمة ... وهكذا يبدو اسهام الانسان فى نص العهد القديم عظيما » .

وحين يتحدث عن « أصل التوراة » قبل أن تصبح مجموعة أسفار يقول عنها : انها كانت تقليدا شعبيا يرتل عفويا من الذاكرة التى كانت فى الاصل الوسيلة الوحيدة لتداول الافكار .. ويعلن أن العهد القديم مجموعة مؤلفات غير متساوية الطول ومختلفة النوع كتبت خلال أكثر من تسعة قرون فى لغات عدة أخذا بالسماع ، ويفصل هذا الاجمال بذكر تاريخ الشعب الاسرائيلى ليبين عمل كل عصر فى تلك المؤلفات التى هى أسفار العهد القديم ، ويجعل للأنبياء قبل النفى الى بابل اسفارا ، والنفى حدث سنة ٥٨٥ قبل الميلاد ، وبعد النفى مشيرا الى ازدهار الكتابة فى عهد المملكة الشمالية

والجنـــوبية لهذا الشـــعب الـــذى « أنشـــد كثيرا وأجـــاد » ويخص أســـفار موسى بالحديث (التوراة بالاسم الســـامى) وهى خمســـة أسفار أو خمسة أجـــزاء : ســـفر التكوين وسفر الخروج وســـــفر الاخبار ، وسفر العدد ، وســـفر التثنية ، وهى التى تشكل العناصر الخمسة الاولى من مجموعة التسعة والثلاثين كتابا من العهد القـــديم ، وقد مهد لهذا قبـــلا قائلا : « فقـــد اختلط الوحى بكل هذه الكتـــابات ولا نعرف اليوم الا ما تركه لنا منه الذين عالجوا نصـــــوصه حسب هواهم وفقا للظروف التى وجدوا فيهـــا ، والضـــــرورات التى واجهوها • » ويعلق المترجمون على هذا القول : (١) بأن هـــذا الكلام من الأهمية بمكان ، وأن على الذين يقرءون هذه الكلمات التى يكتبهـــا فرنسى فى أواخر القـــرن العشرين أن يروا فيها شـــهادة مشـــــاهدة على اعجاز القرآن ، وأنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعلى صـــدق دعوة محمد صلى الله عليه وســـلم وأن يعترفوا بالحق ، وصـــــدق اللـــه تبارك وتعـــالى اذ يقول **« فويل للذين يكتبون الكتـــاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنـــا قليـــــلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكســـبون »** البقرة ٧٩ •

والكاتب الفرنسى نفسه يقول : « ذهبت اليهودية والمســـيحية عبر قرون طـــويلة الى أن مؤلفها هـــو موسى نفسه » ونحن ــ المسلمين ــ لا نقـــر بأن موسى هو مـــؤلف التوراة ولكنـــا نعتقـــد أن تغييرا ماحدث فى آياتها • وبعد ســـياحة منه فى تاريخ الشـــعب اليهـــودى والكتابات المتوالية بتولى العصـــور قام بوضع قائمة يبين فيها بالدراسة والمـــــوازنة مـــا يخص (النص اليهودى (الله) والنص الكهنوتى من ١ الى ١١ من ســـفر التكوين ، ولسنا فى حاجة الى ايرادها مكتفين بما سجله من تناقضات سنشير الى

---

(١) ص ٢٢ من الكتاب •

بعضها مما كتبه هو وسجله فهو يقول : ان فى سفر التكوين تناقضات صريحة مع العلم المعاصر وهى فى الموضوعات الآتية :

(أ) خلق العالم •

(ب) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض •

(جـ) رواية الطوفان •

وقد تناول هذه الموضوعات بحيدة تامة كما هو منهجه ، ففى « خلق العالم » قال : فى سفر التكوين روايتان متقاربتان : الرواية الاولى فصلت عمل الاله الذى تم عمله فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع • رفض المؤلف هذه الرواية لم ؟ يؤكد أنه من الجلى أن الاستراحة التى أخذها الله بعد عمل دام ستة أيام هى أسطورة وهى كهنوتية من الأحبار ، وغير مقبولة من وجهة النظر العلمية ، « اننا نعلم تماما فى أيامنا أن تكوين العالم والارض قد أنجز فى مراحل ممتدة فى عهود زمنية متطاولة جدا لا تسمح المعطيات المعاصرة بتحديد مداها حتى التقريبى •• بل ولو انتهت الرواية فى اليوم السادس ولم تذكر السابع السبت الذى استراح فيه الله — جل الله وتعالى عن ذلك — كما يقول المترجم • بل ولو كان هو الحال بالنسبة للرواية القرآنية، قد سمح بالاعتبار بأن المراد فى الواقع فترات غير محدودة ، لا أيام بمعناها الحرفى ، فان ذلك كله لا ينقص من ضرورة رفض الرواية الكهنوتية ، لأن تتابع هذه الاحداث هو فى تناقض صريح مع القيم العلمية الاولية » وواضح من سياق الرواية أن الاحبار يريدون أن يجعلوا من السبت يوما مقدسا للراحة موصولا بالله الخالق ولم تتعرض الرواية الثانية للتدقيق الذى سجلته الرواية الاولى (فصلت اليوم الاول خلق كذا واليوم الثانى خلق كذا الخ) ولم ينقد منها مفندا الا تلك الآية : « زرع الله بستانا فى الوقت الذى خلق فيه الانسان » فقد نبه على الخطأ بقوله : وهكذا كان ظهور النبات فى الوقت ذاته الذى ظهر فيه الانسان على الأرض ، وهذا ليس بصحيح علميا ، فقد ظهر

الانسان على الارض بعد وقت طويل جدا من حملها النبات مع العلم بأننا لا نعرف كم من مئات الملايين من السنين كانت قد مضت بعد ظهور الحدثين .

وينتقل المؤلف الى « تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الأرض » فيرفض التقويم العبرى الذى يفيد أن الانسان ظهر منذ ٥٧٣٦ فى سنة ١٩٧٥ من خلق العالم — كما أشار الى ذلك فى المدخل — وبعد أن يغض النظر عن الفارق بين الحساب القمرى والحساب الشمسى يقرر « أننا (١) نحدد وضع خلق العالم فى هذا التقدير العبرى بنحو سبعة وثلاثين قرنا تقريبا قبل المسيح . فماذا يعلمنا العلم الحديث ؟ انه لمن الصعوبة بمكان الاجابة عما يتعلق بتكوين العالم ، وكل ما يمكننا تحديده هو عصر تكوين النظام الشمسى القابل بأن يوضع فى الزمن بصورة تقريبية مقنعة ، والمقدر أن الزمن الذى يفصلنا عنه هو أربعة مليارات ونصف من السنين ، وهكذا نقيس اذن الخط الذى يفصل الحقيقة المؤكدة اليوم عن المعطيات المستخلصة من العهد القديم .. »

وقد عنى المؤلف بنسب ابراهيم حسب ما جاء فى التوارة ، وبدأ بموت آدم سنة ٩٣٠ وانتهى بموت ابراهيم سنة ٢١٢٣ واستخلص من الانساب الواردة فيها أن مولد ابراهيم بعد آدم بـ ١٩٤٨ سنة ، وهذا التدقيق فى اثبات آباء ابراهيم الى آدم لا أصل له فى المعتقد الاسلامى الا فيما يتعلق بحياة نوح ، فقد ثبت بالقرآن أنه لبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما . والتوارة جعلت تاريخ ولادته ١٠٥٦ بعد آدم ومدة حياته ٩٥٠ عاما وتاريخ وفاته بعد خلق آدم سنة ٢٠٠٦ ، لكن هذا التدقيق فى السلالة وتقدير زمن كل أب لم نجده من ابراهيم الى العصر المسيحى كما كان قبل ابراهيم ، وبعد أن يفيض فى الحديث عن نسخ التوارة ومعطياتها التاريخية

---

(١) ص ٤٠ من الكتاب .

«الخاضعة للهوى» يعلن أنه لم يعد بالامكان عقليا فى القرن العشرين تقدير الزمن اســـتنادا لمثل هذا الوهم • ويقول ويمكن الاقتناع بأن الانسان وجد على الارض بكفايته الذهنيــة والعمليــة التى تميزه عن الكائنات الحية المشابهة له بعـــد تاريخ يمكن تقديره ، ولكن أحـدا لا يملك أن يحدد تاريخ ظهـــوره بدقة • ويمكن التأكيد بأنه وجدت فى هذه الأيام آثار انسانية مفكرة فاعلة بحسب قدمها فى وحـــدات زمنية وقوام كل منهـــا عشرات الآلاف من السنين •• فهناك اذن تناقض واضـــح بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الرقمية من سفر التكوين فيما يتعلق بتـــاريخ ظهور الانسان على الارض والمعارف العلمية الاكثر ثبوتا فى هذا الزمان •

ويتحدث عن « الطوفان » وينقل عن سفر التكوين روايتين ذكرتا فى انفصول ٦ ، ٧ ، ٨ منه ، وينص على التناقض الذى أرجعه الى أنه ناتج من وجود مصدرين متمايزين : المصدر اليهوى ، والمصدر الكهنوتى وقد توالت عناصر كل مصدر مـــع عناصر المصدر الآخر ممـــا غش الحقيقة بالخطـــأ •• والرواية فى مجملها : لما كان فساد الناس قد عم، فقد عزم الله على افنائهم مع جميع الخلائق الاخرى فأخبر نوحا وأمره أن يصنع فلكا وأن يحمل فيه زوجته وأولاده الثلاثة مع زوجاتهم الثلاث وغيرهم من المخلوقات الحيـــــة الاخرى والمؤلف لا ينساق مـــع الرواية بل يرجع الى المصـــدرين ناقدا ومعلقا هكذا : المصـــدران يختلفان بالنسبةالى هذه الاخيرات، فبينما يشير فى مقطع من الرواية (هو من أصل كهنوتى) أن نوحا قد أخذ معه زوجا من كل نوع يثبت فى مقطع آخر (من أصل يهوى) أن الله أمره بأن يحمل معـــه من الحيوانات الطاهرة فقط سبعـــة من كل نوع ذكـــرا وأنثى ، ومن الحيوانات النجسة زوجا واحدا •• وبعد قليل يثبت أن نوحا لم يدخل معه فى الفلك الا زوجا واحدا من كل واحـــد من الحيـــوانات •• والاختصـــاصيون مثل (دوفو) يؤكـــدون بأن المعنى هـــو مقتطـــع من الرواية الكهنوتيـــة

المحرفة ، ويعلق المترجم هنا قائلا : انا كمسلمين نعتقد بما ورد فى القرآن ولايزيد وهو قوله تعالى : **« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول »** وأضيف الى ذلك أن القرآن قد جعل الطوفان خاصا يقوم نوح ولم يجعله عاما كما أنه انفرد بذكر ابن نوح الضال ، وهذا يغنى عن ذكر الطوفان فى الجزء الثلث وقد عالجه المؤلف بتوسع واعجاب •

ولنساير المؤلف فى عطائه الفكرى فهو يسوق لنا أن فقرة (من أصل كهنوتى) تظهر أن سببه ماء المطر وينابيع الارض معا ، وقد غمرت المياه الارض كلها حتى أصابت ذرا الجبال ، وانعدمت فيها كل حياة ، وبعد أن غيض الماء خرج نوح بعد سنة من فلكه التى استوت على جبل (أرارات) وأضاف أن الطوفان بحسب المصادر كان ذا مدة مختلفة هى أربعون يوما حسب الرواية اليهودية (١) ومائة وخمسون يوما حسب الرواية الكهنوتية ، والرواية اليهوية لا تحدد الوقت الذى جرى فيه الحادث فى حياة نوح ، ولكن الرواية الكهنوتية تذكر أنه وقع ، ولنوح من العمر ستمائة سنة ، وهذه الرواية بالذات توحى ببعض الملاحظات على أقلمتها فى أنسابها بالنسبة الى آدم وابراهيم ، فلما كان نوح قد ولد حسب الحسابات المجراة فى افادات سفر التكوين بعد ١٠٥٦ سنة من آدم فيكون الطوفان قد حدث بعد ١٦٥٦ سنة من خلق آدم • هذا ويذكر سفر التكوين أن الطوفان حصل قبل ٢٩٢ من ولادة ابراهيم وأن الطوفان أصاب النوع البشرى وقضى على جميع الكائنات الحية ، ثم أعيد بناء الانسانية انحدارا من أبناء نوح الثلاثة وزوجاتهم بحيث انه لما ولد ابراهيم بعد ثلاثة قرون تقريبا كانت قد تكونت مجتمعات ، فكيف فى هذا الزمن القليل يكون وجود تلك المجتمعات التى عاصرها

---

(١) الله باللغة العبرية•

ابراهيم ؟ ويعلن أنها تناقض المعارف العلمية . وللتمثيل على ذلك نسوق الفترة التى سبقت المملكة الوسطى (٢١٠٠ قبل المسيح تقريبا) فى مصر ، وهى تاريخ المرحلة الاولى المتوسطة قبل الاسرة الحادية عشرة ، بينما كان فى بابل الاسرة الثالثة (لأور)ونحن نعرف تماما بأنه لم يكن ثمة من انقطاع فى هذه المدنيات ، وبالتالى ليس من فناء عام أصاب الانسانية جمعاء كما أرادت التوراة .

وعلى هذا فانه لا يمكن اعتبار ما جاء فى التوراة كما لو كانت حاملة سردا مطابقا للحقيقة ، والله لا يعلم الناس بواسطة الاوهام — هكذا يقول — الامر الذى ينتهى بنا الى الوصول بصورة طبيعية الى آثار افتراض تشويه حصل بواسطة الناس أو تقاليد نقلت حرفيا من جيل الى جيل .

وكما تحدثت الأديان عن الطوفان تحدثت الأساطير ، وقد نقل الينا الكاتب عباس العقاد فى كتابه « أبو الأنبياء » قصة الطوفان وان كانت أسطورة الا أنها تشير الى وقوع الحادث ، وسأذكرها هنا لطرافتها . يقول العقاد :

تؤلف قصة الطوفان البابلية من اثنى عشر فصلا على حسب البروج ، وراوى القصة يسمى (أسديار) وقد عبر بحر الموت ليصعد الى السماء ويلقى (زستور) الذى ارتفع اليها بعد نجاته من الطوفان . والباقى من ألواح هذه القصة فى المتحف البريطانى يحكيها على هذا المثال :

« ابن بيتا واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان ، واخزن البذور، واخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة وليكن طولها ستمائة قدم فى ستين عرضا ... وتدخل السفينة وتحكم اغلاقها ، وتضع فى سطحها الحبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند ، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها ... وقال الله ليلا : انى سأرسل السماء مدرارا ، فأدخل الى جوف السفينة ، وأغلق عليك بابها ، وتغطى وجه الأرض ، وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء ،ولم ينتظر أخ

أخاه ولم يعرف جار جاره ، ستة أيام وست ليال والريح تعصف والأنوار تطفىء ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر ، وسكتت العاصفة ، وانحسر البحر وانتهى الطوفان . وعج البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طينا ، وطفت أجسادهم على وجه الماء . ثم استوت السفينة على جبل (نيزار) ... وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد من مقر تهبط عليه ، فأرسلت عصفور السمانة فعاد وما هبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ، ثم أطلقت الحيوانات فى الجهات الأربع ، وبنيت على رأس الجبل مذبحا فقربت لديه قربانا وفرقته فى آنية سبعة وفرشت حوله الريحان ، وشمت الأرباب رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعاظم الأرباب من بعيد ، وارتفعت أقواس السحاب تحييها عند اقترابها » ص ٢٠٣ من كتاب « أبو الانبياء » ويعلق العقاد على القصة : وقد حلم المنقبون أن هذه القصة منسوخة من مصدر قديم أقدم منها ، فهذه الألواح لا يقل تاريخها عن ألفين وخمسمائة سنة ، والمصدر الذى نقلت منه يرجع الى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

وهذه القصة البابلية فيها مشابه مما ذكرته التوراة غير أنها تؤيد الكاتب الفرنسى من حيث البعد الزمن ، واستواء السفينة أخذ أسماء متعددة ، (أرارات) كما ذكرت التوراة ، (والجودى) كما ذكر القرآن و (نيزار) كما ذهبت القصة البابلية وهذه الاسماء لجبل فى شمال العراق حوى هذه امكنة ، وكلها تفيد وقوع الحادث فى بلاد النهرين .

على أن موقف المسيحيين من الأخطاء العلمية لنصوص التوراة أخذ مساحة كبيرة من الجدل بين مؤيد ومعارض فى دراسات كثيرة ومتصلة ، والذى يعنينا قول المؤلف فى هذا الموقف : « ان ذكر كل هذه المواقف من الكتاب المسيحيين تجاه الاخطاء العلمية فى نصوص التوراة يوضح جيدا الاستياء الذى تجلبه ، واستحالة

تحديد موقف منطقى غير موقف الاعتراف بمصدرها البشرى ، واستحالة قبولها على أنها جزء من الوحى •• » •

المسيحية والأناجيل

فى بحث عميق ضاف تناول الكاتب الفرنسى موريس بوكاى المسيحية مؤرخا لها ، مبينا نشأتها متحدثا عن صراعاتها ، دارسا أناجيلها ، مستخدما المعطيات الحديثة فى نقد نصوصها ، ناقلا عن آباء الكنيسة حينا ، وعن المفكرين حينا آخر ، وانك ستجد تحت كل عنوان من العنوانات الآتية معلومات قيمة يحسن الوقوف عليها مثل : « عودة تاريخية اليهودية — المسيحية والقديس بولس » « والاناجيل الاربعة مصادرها وتاريخها » (انجيل متى) و (انجيل مرقس) و (انجيل لوقا) و (انجيل يوحنا) وهى الأناجيل القانونية المعترف بها من الكنيسة ، والمتعبد فى ضوئها « مصادر الاناجيل » و «تاريخ النصوص» و «الاناجيل والعلم الحديث » و « تضاد الروايات واستحالاتها » وأخيرا « الخلاصة » ودراسة هذا القسم بفصوله وبحوثه يقفك على كثير من معالم الديانة المسيحية ، وموقف الدارسين لها ولاسيما فى العصر الحديث حيث أتيح لكل ذى رأى صائب أن يدلى به وأن ينشره ، لأن أزمانا متطاولة مرت وعملت أن تكتب الرواية وأن تزيد فيها أو تنقص حسب « النضال » أو « المناسبة » كما يقول الكاتب•

وأول مايطالعك به نشأة المسيحية والاتجاهات التى كان لها تأثير فيها ،ومن الغريب أنه يصدم المؤمنين بالأناجيل على أنها شهادات لا ريب فيها عن الأحداث التى شغلت وجود المسيح ووعظه — يصدمهم « بأن هذا الاسلوب لابراز الاشياء لايتفق مع الواقع أبدا •• » « وينبغى أن يعرف فيما يخص عشرات السنين التى تلت رسالة المسيح بأن الاحداث لم تجر مطلقا كما قيل ، وأن مجىء (بطرس) الى (روما) لم يركز أبدا الكنيسة على أسسها ، بل على العكس ، لقد شاهدنا خلال أكثر

من قرن بين الفترة التى ترك فيها المسيح هذه الارض وحتى منتصف القرن الثانى معركة بين اتجاهين : بين مايمكن أن نسميه المسيحية البولسية (نسبة الى بولس الرسول) واليهودية — المسيحية (نسبة الى من اعتنقوا المسيحية من اليهود) .

والاتجاهان بدت بينهما العداوة الى درجة أن اليهود المسيحيين وقد بقوا اسرائيليين أمناء وصفوا (بولس) بالخيانة والعداء والازدواجية المداهنة ، ويفهم من مجرى الحوادث أن اتجاه (المسيحية اليهودية) كان لايريد الانفتاح على الوثنيين على أن بولس يرى عكس ذلك ، فقد أسقط بولس الختان والسبت ومراسم المعبد حتى بالنسبة الى اليهود ، وقد كان على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسى الدينى لتنفتح على الوثنيين أى على غير اليهود .

ويؤرخ الكاتب لانتصار « المسيحية البولسية » بقوله :

« لما كانت اليهود قد ضعفت فى الامبراطورية (الرومان) فقد اتجه المسيحيون الى الانفصال عنهم (عن اليهودية المسيحية) فهيمن المسيحيون اليونان ، وحقق بولس نصرا بعد موته ، وتخلصت المسيحية اجتماعيا وسياسيا من اليهودية المسيحية المهيمنة ثقافيا حتى الثورة اليهودية الاخيرة سنة ١٤٠ م .

وبعد هذا مباشرة يؤرخ لظهور الأناجيل الاربعة المعتمدة من الكنيسة فيقول : « (١) ومنذ سنة ٧٠ حتى مرحلة هى قبيل سنة ١٤٠ م ظهرت أناجيل مرقس ومتى — ولوقا ويوحنا ، فهى لاتمثل الوثائق الثابته الاولى للمسيحية لأن رسائل بولس سابقة جدا عليها ، اذ يرى (كولمان) أن بولس قد حرر رسالته الى أهل (تسالونيك) عام ٥٠ م ولكنها اختفت على الأرجح قبل بضع سنوات من انتهاء انجيل مرقس »

وينقل المؤلف عن الكاردينال (دانييلو) نهاية اليهود المسيحيين

---

(١) ص ٥٧ من كتاب التوراة .. الخ .

مسجلا : « (١) بمجرد أن فصلوا من الكنيسة الكبرى التى تحررت تدريجيا من ارتباطاتها اليهودية قضى عليهم فى الغرب سريعا ، وتتبعت آثارهم فى الشرق من القرن الثالث حتى الرابع ، وبخاصة فلسطين والجزيرة العربية ، وشرق الأردن ، وسوريا وبلاد ما بين النهرين ، واندمج بعضهم فى الاسلام الذى كان وريث قسم من تعاليمهم ، بينما ارتبط البعض الآخر بأرثوذكسية الكنيسة الكبرى محتفظين بترسب ثقافى سامى ولايزال شىء منها موجودا فى الكنيسة الأثيوبية والكلدانية » .

ونعود الى الأناجيل فنراه يذكر أنها نقلت من الروايات الشفوية التى كانت سائدة بعد انتهاء عمل المسيح على الارض بسنين كثيرة ولا يعطى الكاتب تأكيدات الكنيسة التاريخية للأناجيل صفة الموافقة ، فينقل عن الأب (٢) (كننغسر) قوله : « لاينبغى الأخذ حرفيا بالأناجيل وهى « مكتوبة بالمناسبة» أو «للنضال» والتى « أورد الكتاب خطيا روايات جماعاتهم عن المسيح » ان الأناجيل نصوص « تندمج فى أوساط مختلفة ملبية حاجات الكنائس ، معبرة عن تفكير فى الكتب المقدسة مصححة الاخطاء ومجيبة حتى فى المناسبة على حجج الخصوم .. هكذا جمع الانجيليون كل مانقل اليهم رواية وكتبوها حسب رؤيتهم الخاصة » « ترجمة مسكونية للتوراة » .

ومن هنا بدأ يفرد دراسة خاصة عن كل انجيل ، والتعريف بمن نسبت اليهم ، وجعل (انجيل متى) أولا ، وان كان (انجيل مرقس) أقدمها ، لأن انجيل متى « فى صورة ما ليس الا امتدادا للعهد القديم ، انه قد كتب ليعرف بأن عيسى يكمل تاريخ اسرائيل » كما يفيد شراح الترجمة المسكونية .

وانجيل متى يبدأ بنسب المسيح

---

(١) ص ٥٨ المصدر نفسه .

(٢) ص ٦٢ من المصدر نفسه .

ويرجعه الى ابراهيم بواسطة داود ، وفى سرده يركز على الأسس الكبرى من صلاة وصوم وصدقة ـ كما هو القانون اليهودى ـ ويقول المؤلف : « (١) يريد عيسى أن يوجه تعليمه أولا الى شعبه وبالأفضلية فيقول الى الاثنى عشر رسولا : « لاتسلكوا طريقا الى الوثنيين ، ولا تدخلوا مدينة للسامريين ، بل اذهبوا نحو الخراف الضالة من آل اسرائيل » (متى ١ ، ٥ ، ٦) « لم أرسل الا الى الخراف الضالة من آل اسرائيل » (متى ١٥ ـ ٢٤) وفى ختام الانجيل يعرض متى لكل الأوطان رسالة تلاميذ المسيح الأوائل معطيا اياهم من هذا التوجيه : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم » (متى ٢٨ ـ ١٩) ولكن ينبغى تفضيل الذهاب نحو « بيت اسرائيل » ويقول (أ ـ تريكو) عن هذا الانجيل « من تحت الكساء اليونانى فان الكتاب يهودى لحما وعظما وفكرا له منه الرائحة والعلامات المميزة » فكأن متى يريد أن يجعل رسالة المسيح خاصة لاعامة .

ويميل المؤلف الى أن تأليف الانجيل قام به متى فى سوريا . ويمكن أن يكون فى أنطاكية أو فى فينيقيا لأنه كان يعيش فى هذه المناطق عدد كبير من اليهود ، ويصف منهجه فى الكتابة « بأن متى تصرفبالنصوص بحرية جادة فيما يخص العهد القديم عند ذكر نسب عيسى الذى صدر به انجيله فأدخل فى كتابه روايات لاتصدق» ويقول فى موضع آخر « هذا ويضرب متى فى روايته لأحداث رافقت موت عيسى مثلا آخر لتحرره اذ يقول : « واذا ستار الهيكل قد انشقشطرين من الأعلى الى الاسفل وزلزلت الارض وتصدعت الصخور وتفتحت القبور ، فقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ، فدخلوا المدينة المقدسة ، وتراءوا لأناس كثيرين»

---

(١) ص ٦٢ المصدر نفسه .

ويعلق المؤلف على تلك الروايـــة بقوله : ان هذه الفقـــرة من متى (٢٧ ــ ٥١ ــ ٥٣) لامثيل لها فى الأناجيل الاخرى . أنا لا أفهـــم كيف أن أجساد القديسين المعنيين بعثت من موتها ساعة موت المسيح (ليلة السبت تقول الأناجيل) ولم تخرج من قبورها الا بعد قيامته (فى اليوم التالى ليوم الســـبت حسب نفس المصـــادر) ويناقش المؤلف المدة التى مكثها المسيح فى قبره ، وينهى حديثـــه عن هـــذا الانجيل بقوله :وزيادة عما يختص به انجيل متى من الاســـتحالات فانه قبل كل شىء انجيل طائفـــة يهودية ــ مسيحية » .

وحين يتحدث عن (انجيـــل مرقس) يصفه « (١) بأنه أقصر الأناجيل الاربعة وأقدمها ، ولكنه ليس كتاب رسول ، وكل مافيـــه أنه كتاب محرر من تلميذ رسول » ويؤرخ لتأليف انجيل مرقس بأنه « على أقرب تقدير ما بين ســـنة ٦٥ وسنة ٧٠ بحســـب الترجمة المسكونية وحوالى سنة سبعين فى نظر (كولمان) ويصف قدرة مرقس فى التأليف ناقلا عن الاب روغيـــه « كاتب غير ماهر » « انه أسخف الانجيليين طرا » ويجعله فى بعض الوقائع على خلاف مع متى ولوقا بالنسبة لمعجزات المسيح ، وضرب مثلا بآية يونان (يونس) فمتى يروى بينما عيسى وســـط كتبة وفريسيين يحدثونه قائلـــين : « يامعلم نريد أن نرى منك آية » أجابهم « جيل فاسد فاسق (هكذا) يطلب آية ، ولن يجعل له ســـوى آية النبى يونان . فكما بقى يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال فكذلك يبقى ابن الانســـان فى جوف الارض ثلاثة أيام وثلاث ليال » (نص الترجمة المسكونية) .

أما مرقس فيروى كما يقـــول المؤلف حادثة لاتصدق (٨ ، ١١ ، ١٢) « فأقبل الفريسيون وأخذوا يجادلونه طالبين آية من الســـماء ليجربوه فتنهد من أعماق نفســـه وقال : « مابال هذا الجيل يطلب آية . الحق أقول لكم . لايجعل لهذا الجيل آية . وتركهم وعـــاد

---

(١) ص ٦٦ من الكتاب نفسه .

الى السفينة فركبها وعبـــر الى الشاطىء المقابل » وكان تعليـــق المؤلف على تلك الرواية : « انـــه تأكيد من عيسى نفســـــه وبنيته بألا يأتى أى عمل يمكن أن يبدو خـــارقا للعادة ، ولذلك فان شراح الترجمة المســـكونية للانجيل حين يندهشون من اعـــلان متى بأن عيسى لايعطى سوى آية واحدة هى آية يونان يرون من الغـــريب أن يقول مرقس : « ان هذا الجيل لاتكون له آية » فى الوقت الـــذى لاحظوا فيه بعد ذلك « المعجزات التى يقدمها عيسى نفسه كآيات » (لوقا ٧ ، ٢٢ ، ١١ ، ٢٠) •

ونأتى الى (انجيل لوقا) فنجد المؤلف الفرنسى يصدر كلامه عنه بقوله : ان لوقا فى نظر كولمان مؤرخ وفى نظر الاب كننغسر « قصاص بارع » انه يخبـــرنا فى افتتاحيته الموجهة الى (تيوفيل) بأنه بعـــد آخرين جمعوا أخبارا عـــن عيسى سيكتب بدوره سيرة عـــن نفس الوقائع مستعينا بهذه الأخبـــار ، وبمعلومات الشهود (وهذا يعنى أنه لم يكن واحدا منهم) وكذلك المعلومات المأخوذة من مـــواعظ الرسل فهو عمل منظم اذن يقدمه فى عبارات تفيد نقله عن غـــيره متوخيا تتبعها كلها من اصولها غاية التتبع ، كاتبا لها مرتبـــة ليتيقن تيوفيـــل صـــــحة ما تلقى من تعليم (١) •

ويقرر أن لوقا كان أديبا وثنيا اهتدى الى المسيحية ، ولأنه وثنى دخل المسيحية يهتم بغير اليهـــود مخالفا متى ومرقس اليهـــوديين اللذين دخلا المســـيحية ، فمتى يطلب البعد عن الســـامريين على حين لوقا يحسن علاقاته بهـــم « وهذا مثل رهيب من كثير يوضح لنا أن الانجيليين كانوا يقـــولون المســـيح ماينـاســـب رؤاهم الشخصية •• » •

ويترجـــم لوقا بأنه طبيب ، ويستدلون على مهنته بألفاظـــه ، ويعود فيشكك فى هذه المهنة قائلا: « والمفردات التى يستعملها هـــى

---

(١) ص ٦٩ المصدر نفسه •

ذاتها التى يستعملها كل انسـان مثقف فى زمانه » وقد كان يلازم بولس فى سفره رفيق اسمه (لوقا) فهل هو نفس هذه الشخصـية ؟ ويحدد تاريخ انجيله « بأنه كـان غالبا مابين (سنتى ٨٠ و ٩٠)وان كان كثير ينسـبونه الى تاريخ أقدم » ويذكر أنه يختلف عـن الانجيليين فيما يدونه من أخبار ، فأخبار طفولة عيسى خاصـة به ، لأن متى يختلف عنه فى سردها ، ولايذكر مرقس كلمة واحدة عنها ، وهكذا ، فان أنساب عيسى لـدى كل من متى ولوقـا مختلفة ، فالتضـاد بارز والاستحالة ظاهرة بالنسـبة للنظرة العلميـة ••• »

هـذا وان مؤسسـة سر القربان المقدس (الأفخارسيتيا) التى هى ذات أهمية أساسية هى أيضـا موضـوع خـلافات بين لوقا والانجيليين الآخـرين » وكـذلك يختلف معهم فى قيامة عيسى (١) •

أما (انجيل يوحنا) فهو ــ كما يقول المؤلف يختلف فى الأصل عن الثلاثة الأخـر الى درجة أن الأب روغيه قال عنه فى كتابه : « مدخل الى الانجيل » « انه عالم آخر » وينبه الأب روغيـه الى أنه فى الوقت الذى تنقل فيه اللـوائح كلمات المسيح بأسـلوب « مؤثر أكثر قربا من الأسلوب الشفوى » فانها عند يوحنا فى التأمل لدرجـة « أنا نستطيع أن نتسـاءل أحيانا عما اذا كان عيسى هو الذى يتكلم أو أن أحادثيه قد وسعت دونمـا شعور من الانجيلى » •

من هو الكاتب ؟ انه سـؤال موضوع جدال ، اذ الآراء تختلف كثيرا فى هذا الموضوع ، وملخص ماذكره المؤلف فى هذا الشأن هو : يذهب (أ ــ تريكـو) والأب (روغيه) الى أن انجيل يوحنـا عمل شاهد عيان ، أنه يوحنـا بن زبدا وأخو يعقوب الرسـول والصورة الشعبية تمثله قريبا من عيسى كما فى زمن العشاء السرى قبل الآلام ، وكتابة هذا الانجيل فى زمن متأخر ليس حجة مقبولة

(١) ص ٧٠ من الكتاب نفسه •

ضد هذا الموقف ، وقد كتب نحو نهاية القرن الأول ، وتحديد موعد الكتابة هذه بعد ستين سـنة من المسيح يتفق مع وجود رسول فى شرخ الشـباب زمن عيسى عاش حوالى القرن .

وقد توصل الأب (كننغسر) فى دراسته عن القيامة الى أن أى كاتب من كتاب العهد الجديد (الاناجيل) ماعدا بولس لايمكنه أن يدعى أنه شاهد عيان لقيامة المسيح ، ومع ذلك فان يوحنا يروى الظهـور للرسل المجتمعين . وتؤكد الترجمة المسكونيةللتوراة أن أغلبية الناقدين لاتتبنى فكرة التحرير من الرسول يوحنا ، ولكن كل شىء يوحى بأنه كان للنص المنتشر حاليا كتـاب عـديدون ، « وان من المرجح أن الانجيل كما هو بين أيدينا نشره تلاميذ الكاتب الذين أضافوا الفصل ٢١ وبعض الحـواشى كمـا فى (٤ ، ٢) .

وانجيل يوحنا ينفرد بأخبـار ، وينقص عن غيره أخبارا ، وممـا نقصه خبر تأسيس الافخارستيا ، وينفرد برواية ظهور عيسى القائم من القبر لتلاميذه على صفحة طبريا (يوحنا ٢١ ، ١ ، ١٤) .

« وثمة خلاف هام آخر بـين انجيل يوحنا والاناجيل الثـلاثة الاخرى هو مدة مهمة عيسى، فبينما يحددها مرقس ومتى ولوقا بسنة فان يوحنـا يطيلها الى اكثر من سنتين ... » ويختم بحثـه فى انجيل يوحنا بقوله : « فمن يجب علينا أن نصدق اذن مرقس أو متى أو لوقا أو يوحنا ؟ » .

ويبدو لى من دراسة ما خطـه الكاتب فى بحث (١) « مصـادر الاناجيل » أن هناك دراسـات موسعة معاصرة فى هذا الامر ، وما من شك فى أنه كانت روايات شفوية قبل ظهور الاناجيل ، وأن لليهـود الذين دخلوا فى المسيحية اتجاهـا يميل بهم الى مسلك العهد القـديم وأن الأمميين (غير شعب اسرائيل) لهم اتجاه آخر ، وأن الروايـات صارت مدونات هى الاناجيل الكثيرة

---

(١) ص ٧٤ من المصدر نفسه .

ومنها الاناجيل الاربعة المعتمدة من الكنيسة والتى سبق الحديث عنها فى ضوء معطيات المؤلف القائل « ولقد عولج موضوع المصادر بأسلوب مبسط جدا فى عصر آباء الكنيسة فكانت المخطوطات الكاملة تشهد لانجيل متى بأنه الاول كما كان يعتبر بأنه المصدر الوحيد لتاريخ المسيحية فى القرون الاولى وقد طرحت مسألة المصادر فقط بالنسبة لمرقس ولوقا أما يوحنا فقد كانت له حالة خاصة ، وقد كان القديس (أواغسطين) يرى أن مرقس وهو الثانى فى الظهور فى ترتيب العرف قد اقتبس من متى ولخصه ، وأن لوقا وقد حل ثالثا فى المخطوطات قد استعمل معطيات الاثنين •• » وبمطابقة النصوص فى الأناجيل وترقيم آياتها جاءت المطابقة كالآتى :

آيات مشتركة بين اللوائح الثلاثة ٣٣٠ •

آيات مشتركة بين مرقس ومتى ١٧٨ •

آيات مشتركة بين مرقس ولوقا ١٠٠ •

آيات مشتركة بين متى ولوقا ٢٣٠ •

بينما يجعلون الآيات الخاصة بكل واحد من الانجيليين الثلاثة الأوائل هى ٣٣٠ لمتى و ٥٢ لمرقس و ٥٠٠ للوقا •

يقول المؤلف : وقد مضت ألف وخمسمائة سنة منذ آباء الكنيسة حتى نهاية القرن الثامن عشر دون أن تثار أية مشكلة جديدة عن مصادر الانجيليين ، وذلك لانهم كانوا يخضعون للتقليد •

وبعد الابحاث المعمقة فى العصر الحديث وايراد نقد كولمان للمصادر فى نقطتين هما أن مرقس الذى اقتبس منه لوقا ومتى ليس هو انجيل مرقس ، بل هو كتاب سابق وأنه ليس فى هذه الصورة (التى جاءت فى المصادر) اهتمام كاف بالرواية الشفوية التى احتفظت خلال ثلاثين أو أربعين سنة بكلمات عيسى وأخبار رسالته فى الوقت الذى لم يكن فيه كل انجيلى الا ناقل كلمة الطائفة المسيحية التى ضبطت العرف الشفوى • وبعد جولات وجولات يخرج علينا

بخلاصة كل هذا « أننا لدى قراءة الانجيل لانوقن بأننا نتلقى كلام عيسى ، وأن الأب (بنوا) ليتوجه لقارىء الانجيل ويحذره من ذلك ويقدم له بديلا ، فيقول : « اذا كان لابد لأحدنا من التخلى عن سماع الصوت المباشر لعيسى فى أكثر من حال فانه يسمع صوت المعلم الكنيسة ويثق بها ، وكأنها تكلمنا فى مجده بعد أن كلمنا قديما فى الارض » ويعلق على ذلك : « فكيف يمكن التوفيق بين هذا التأكيد الصريح عن عدم أصالة بعض النصوص مع عبارة الوثيقة الايمانية عن الوحى الالهى فى المجمع الفاتيكانى الثانى التى تؤكد لنا على العكس النقل الامين لعبارات عيسى ؟ ويدخل فى بحث « الاناجيل والعلم الحديث » فيصدره بنسب المسيح ويسوق تحفظا قبل أن يفند التناقضات التى جاءت فى سلسلة النسب بين انجيل متى وانجيل لوقا فيقول : « وينبغى أن يلاحظ أولا أن هذه الأنساب المتعلقة بالذكور غير ذات معنى بالنسبة للمسيح ، بل انه كان يجب تحديد نسب له وهو ابن مريم العجيب والذى ليس له أب بيولوجى ، فينبغى أن يكون نسبا لأمه مريم ... » ولو أن هذا التحفظ سلكه واهتم به لكان أولى من دراسة النسب فى كل من الانجيلين ، ولكنه بصدد أن يبين التناقضات التى جعلته يقول فى ختام حديثه : « ولعل أنساب عيسى فى الانجيل هى الموضوع الاهم الذى أثار بهلوانيات الشراح المسيحيين الفلسفية البارزة بنسبة تصرفات لوقا ومتى المستندة الى الهوى » (١) ولأغناء ما ذكره فى القسم الثالث حين عقد (٢) « موازنة بين القرآن والاناجيل والمعارف الحديثة لقد وضع القرآن عيسى من خلال نسبه الامومى على خط نوح

(١) ص ٩٣ من الكتاب نفسه .
(٢) ص ١٨٢ من الكتاب نفسه .

وابراهيم ووالد مريم (عمران كما هو فى القرآن) (سورة ٣ آية ٣٣ ــ ٤٣) .

« ان اللـــه اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمـــــرأن على العالمين ، ذرية بعضـــها من بعض » بل هناك أخبار كثيرة عن عيسى فى القرآن أسرة عمران وأخبار مـــريم بولادتها المعجزة لعيسى ، ورسالة عيسى ومعجزته ، وقد ابتعد القرآن عن سلسلة الانساب التى يرجعها الانجيل الى الآباء ولاتذكر مريم ، ويسجل أنه « لاتوجد فى القرآن أخطاء الاناجيل الاســمية المتعلقة بنسب عيسى ، واستحالات النظام النسبى الذى لدى العهد القـــديم فيما يتعلق بنســـب ابراهيم الذى درسناه فى الجزء الاول والثانى من هذا الكتاب » وينحى باللائمة على « الذين يدعون دونما ســـــند أن محمدا كاتب القرآن وأنه توســـع فى النقل عن التوراة ، اننا نتساءل هنا عن الحجة وعمـــــن صرفه أن ينسخها ، على الاقل فيمـــا يخص نسب عيسى ليدرج فى القرآن بدلا منه التصحيح الذى جعل نصــه بعيدا عن كل انتقاد يثار من المعارف الحديثة ، بينما نصوص الاناجيل بالمقابل ونصوص العهد القديم هى من هذه الزاوية غير مقبولة أبدا » وليعذرنى القارىء اذا خالفت منهج المؤلف هنا ، فتحدثت عن نســـــب المســـــيح جامعا الأقسام فى حيز واحد ، ولاعفى نفسى والقارىء من لائحة النسب فى كل من انجيل متى ولوقا .

ويدخل فى « تضــــــاد الروايات واستحالاتها » فى الاناجيـــــل ، فيناقش روايات الآلام ذاكرا قول الأب روغيه نفســـــه الذى يحدد الخلاف بأن (الفصح) فى الاناجيل الثلاثة مختلف زمنيا مع عشـــــاء المسيح الاخير مع الرسل عنه فى الانجيل الرابع ، فبينما يضع يوحنا العشاء الاخير السرى قبل عيـــــد الفصح يضعه الثلاثة الآخرون أثناء الفصح نفسه ، وهو اختلاف صريح مع الحقيقة ، ولا يمكن قبول هذه الواقعة بسبب وضع عيد الفصـــح المعين بالنسبة اليه ، « وعند مانعلم أهمية الفصح فى الطقوس الدينية اليهودية ــ وأهمية عشــاء المسيح

الوداعى مع تلاميذه ، فكيف يتصور أن تفقد الذاكرة مركز أحدهما بالنسبة الى الآخر فى الرواية المنقولة فيما بعد عن الانجيليين ؟» •

وتختلف روايات الآلام بصورة عامة بين الانجيليين ، وبخاصة بين الاناجيل الثلاثة الاول وانجيل يوحنا ، ويشغل العشاء الآخير للمسيح والآلام حيزا كبيرا فى انجيل يوحنا يكاد يكون ضعفى الحيز الذى عند مرقس ولوقا •• ويروى يوحنا خطابا طويلا جدا للمسيح يملأ من انجيله أربعة فصول (٤ — ١٧) أعطى فيه تلاميذه الذين يودعهم آخر توجيهاته ووصيته الروحية ، بينما لاتجد لذلك أى أثر فى الاناجيل الاخرى • وهذه الاناجيل تروى صلاة المسيح فى حديقة الزيتون التى لايتكلم عنها يوحنا •

والحدث الاهم الذى يصدم قارىء قصة الآلام فى الأنجيل يوحنا أنه لا يتعرض لأى ذكر لتأسيس سر (الأفخارستيا) خلال عشاء المسيح الاخير مع الرسل ، ويخرج من ذلك الى « أننا ندهش من صمت يوحنا عما يرويه الثلاثة الآخرون ، وصمت هؤلاء عما بشر به المسيح برواية يوحنا » ولايقبل محاولات التقريب بين يوحنا والانجيليين الاخرين للنقص الاكثر اضطرابا فى انجيل يوحنا •

ويسوق الاختلاف بين الاناجيل حول « قيامة عيسى وصعوده » بعد حديثة عن « ظهور المسيح المبعوث من الموت » ذاكرا نصوص الاناجيل مبينا اتجاه كل منها ، والتأويلات التى تعمل للتقريب بينها ثم يصل بنا الى •

أحاديث عيسى الاخيرة وبارقليط انجيل يوحنا

والبارقليط شغل مساحات كبيرة مكانية وزمانية ، وها هو ذا الكاتب الفرنسى يعالج أمره بمقتضى ما يهدف اليه ، ومن قبله تصدى له أناس كثيرون علهم يقفون على حقيقة أمره ، وكشف موقف رجال الدين منه ، ويوحنا هو الانجيلى الوحيد الذى نقل فى نهاية عشاء المسيح السرى وقبل توقيفه واقعة الأحاديث الختامية مع الرسل التى ختمت بخطاب

طويل جدا خصص له أربعة فصول من انجيله ، أشرنا اليها سابقا ، وهذه الفصول تعالج عند يوحنا مسائل أولية فى رؤى المستقبل ذات أهمية أساسية معروضة بأسلوب فخم واطار عظيم يتميز بها هذا المشهد الوداعى بين المعلم وتلاميذه •

وقارىء الأناجيل متعبدا بها وقارئها للمعرفة لابد أن يدور فى خلد كل منهما لماذا انفرد يوحنا بنقل ذلك الخطاب فى عشاء المسيح السرى دون غيره من انجيليين ؟ لذا كان من الطبعى أن يتساءل المؤلف الفرنسى :

هل كان يوجد النص ابتداء لدى الانجيليين الثلاثة الأوائل ؟ هل حذف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ يقول : ولنبادر الى القول بأنه لاجواب على ذلك ، وسيبقى السر كاملا فى هذا النقص الضخم فى رواية الانجيليين الثلاثة اوائل •

موضوع الخطاب صورة مستقبل الناس التى نوه عنها عيسى ، وهاجس المعلم الذى يوجه تلاميذه وينصحهم ويأمرهم ويصف لهم بالتحديد ، من سيكون المرشد الذى يجب على الناس اتباعه بعد اختفائه ؟

ومن ثم كان « انجيل يوحنا هو وحده الذى يعينه بوضوح بالاسم اليونانى (بارقليطس) الذى أصبح باللغة الفرنسية حسب الترجمة المسكونية للتوراة ، العهد الجديد ، المقاطع اساسية « اذا أحببتمونى فستجتهدون فى المحافظة على أوامرى ، وسأعود الأب ، وسيرسل اليوم بارقليطا آخر « وهنا يدخل المؤلف فى الصميم :

ما معنى بارقليط ؟ يوضح معناه النص الذى بين أيدينا اليوم من انجيل يوحنا فى هذه الكلمات « البارقليط هو روح القدس الذى سيرسله الأب باسمى ، وسيعرفكم على كل شىء وسيذكركم بكل ماقلته لكم (١٤ — ٢٦) وسيشهد لى (١٥ — ١٦) انه فرصتكم حين ذهابى » « وفى الحقيقة فان البارقليط لن يأتى اليكم اذا لم أذهب • وعلى العكس فانى ان ذهبت فسأرسله اليكم ، وسيدهش بمجيئه العالم وسيفحمه

بمادة الخطيئة والعدل والحكم••» (١٦ ، ٧ — ٨) « وعندما سيأتى روح الحق فسيحملكم على الارض بالحـــق كاملا لأنه لن ينطق عن الهوى ، ولكنه سيقول ماسيسمعه وسيعرفكم بكل ماسيأتى » ولسوف يمجدنى » (١٦ ، ١٣ — ١٤) •

ويضع ملحوظة هى (للتذكير فان المقاطع غير الموردة هنا من الفصول ١٤ حتى ١٧ من انجيل يوحنـــا لا تغير مطلقا المعنى العـــام لهذه الافادات •

وقبل أن نورد مناقشات المؤلف نذكرك بأن النقاش كله حول معنى بارقليط ووصفه بالروح القدس ، ولذلك يقول المؤلف «لو قرأنا بسرعة النص الفرنسى المثبت لتطابق كلمة بارقليط اليونانية مع الروح القدس فانه غالبـــا لايستوقف الانتباه ، فضلا عن أن العناوين الصـغرى للنص العام المستعملة فى الترجمات وعبارات الشراح الموجـــودة فى المؤلفات المعدة للعامة توجه القارىء الى المعنـــى الـــذى تريـــد (الأرثوذكسية) الطيبة أن تضفيه على هذه المقاطع » •

ماذا تريد الارثوذكسية ؟ وماذا يريد المؤلف ؟ يدخل بنا المؤلـــف فى شروح ناقلا شرح (أ — تريكو) مبينا عدد المرات التى ذكر فيهـــا بارقليط بأنها أربع مرات تنطبق هذه الكلمة فى انجيل يوحنا على «الروح القدس » وفى الرسالة الى المسيح وقد كانت كلمة « بارقليط » رائجة بين اليهود الهللينيين من القـــرن الأول بمعنى « الشفيع والنصير » « وقد أعلن عيسى بأن الاب والابن سيرسلان الروح ، وستكون مهمته الخاصة أن يقوم مقام الابن الذى كان له دور المنقذ طيلة حياته الفانية فى صالح تلاميذه ، وسيأتى الروح ويتصرف كتابع للمسيح وبصـــفته بارقليط أو الشفيع القادر على كل شىء • يجعل هــــذا الشرح من « الروح القدس » اذن المرشـــد النهائى للناس بعد اختفاء عيسى ، فهل يتفق مع نص يوحنا ؟ ينبغى أن يطـــرح هذا السؤال، لأنه أولا يبدو عجيبا أن نتمكن من نســـبة الفقرة الأخيرة الواردة آنفـــا الى الروح القدس « انه لن ينطق من تلقاء نفسه ، ولكنه سوف يقـــول

ماسيسمعه ، وسيعرفكم على كل ما سيكون ، فكأنما يبدو غير قابل للتصور أن تنسب الى الروح القدس قدرة التحدث بكل مايسمع» وهذا السؤال لم يكن على العموم هدف شروح • هكذا قال المؤلف •

ولايترك الأمر عند هذا الحد بل يدخل فى مناقشات لفظية حول كلمة سمع وكلمة تكلم فى اللغات الفرنسية والانجليزية واليونانية ، ويخرج من بحثه بالنتائج الآتية :

١ — ان المقطع من انجيل يوحنا غير مفهوم مطلقا اذا قبلناه بكليته مع كلمتى « الروح القدس » الذى ينص على أن : « البارقليط » الروح القدس الذى سيرسله الاب باسمى وهى جملة تثبت الوحدة بين البارقليط والروح القدس وبحذف هاتين الكلمتين « الروح القدس » يصبح النص معبرا عن معنى شديد الوضوح ، وهو سيرسل الله الى الناس ببارقليط آخر أى شفيعا آخر للاصلاح •

٢ — وجود كلمتى الروح القدس فى النص كان حسب التقدير باضافة لاحقة مقصودة وهادفة الى تحريف المعنى الأساسى للمقطع الرابع الذى يخبر بمجىء رسول بعد المسيح يتضاد مع تعليم الكنائس المسيحية الناشئة التى تريد أن يبقى المسيح آخر الرسل •

وما ذهب اليه المؤلف أخبر به القرآن منذ أربعة عشر قرنا • قال تعالى : « **واذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى أسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** » الصف آية ٦ •

ويقول محمد لطفى جمعة رحمه الله فى كتابه « ثورة الاسلام » بعد أن شرح كلمة « البارقليط بأن معناها المعين والمدافع والنصير والمواسى فى اللغة اليونانية أن خبر المسيح « وسيعرفكم بكل ما سيأتى • ولسوف يمجدنى » ينطبق على النبى العربى محمد لأن رسالته كاملة وشريعته تامة ، وهو الذى مجد عيسى وعظمه وكرمه ونفى عنه كل المعايب التى ألصقها خصومه به وبأمه السيدة الصديقة

العذراء صفحة ٥١٠ من كتـــابه **بتصرف القرآن والاحاديث والعلم الحديث .**

من أول وهلة حين تناول الكاتب الفرنسى الوحى الاسلامى تحدث عن تيارين متوازيين : دهشته من توافق القرآن مع معطيات العـلم الحديث ، وموقف الغرب المعـادى لذلك الوحى ، فقد جاءت أحـكام الغرب ضالة كل الضلال متناقضة مع الحقيقة الى درجة الاعتقاد بأن الله (اله المسلمين) كمـا لو كان المسلمون يؤمنـــون باله غير اله المسيحيين .

وينبرى الكاتب للدفاع عن عقيدة المسلمين فيقول : « ان لفظة «الله» فى العربية تعنى الألوهية الواحدة، وهو معنى لا يستطيع النقـــل الفرنسى الدقيق ترجمته الى المعنى الصحيح للكلمة الا بمساعدة لفظة (الاله) والله هو بالنســـبة الى المسلمين نفس اله موسى وعيسى .

ونحن المســـلمين نقول : ان عجزهم عن فهم لفظ الجلالة اللـــه أتاهم من ضعفهم عن ادراك معانى ألفاظ اللغة العربية واستعمالاتها ، فخذ أصغر معجم وليكن مختـــار الصحاح مثلا تجده يقول (أله ياله بالفتح فيهما الاهة أى عبد ومنه قولنا « الله » وأصله (الاه) على فعـــال معنى مفعول ، لأنه مألوه أى معبود .. فلما أدخلت عليـــه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفا لكثرته فى الكلام ، فالله هو الاله (١)

ويستطرد الكاتب الفـــرنسى فى حديثه عن تجافى الغرب عن ادراك وحى الاسلام، ويذكر التقارب الذى قام فى أيامنا هـــذه ، وينوه بالملك فيصل عاهل السعودية الراحـــل ، ويذكر فضله بترغيبه فى معرفة اللغة العربية ليقف على جلية الامر فيما يضطلع به من التعرف على الاسلام وأصوله ، ويختم ثناءه عليـــه بتلك الجملة التى تعد عرفانا بالجميل : « وسيبقى كل ذلك منقوشـــا فى ذاكرتى الى الأبد ؟ لأن مجـــرد حصولى منه ومن يحيطون به عـــلى معلومات قيمة كان ذا اعتبار خاص»

(١) هناك اشتقاقات لمعان أخرى تلتقى كلها لتعطى الاله المعبـــود، والله علم على الرب ويقال انه الاسم الاعظم لانه يوصف بجميع الصفات ويرى بعضهم انه غير مشتق .

وبعد أن بين حقيقة الاســـلام وأنه يدعو الى العلم ويحض عليه موردا قول الرسول : « اطلب العلم ولو فى الصين » يدفع قالة السوء من أن الاســـلام أدى الى تخلف المسلمين بأنه بعث أمة وحضـــارة تتلمذ عليها الغرب دخل فيما تصده وهو معطيات القرآن وتوافقها مع معطيات العلم الحديث كمدخـــل آخر غير المدخل الأول (المقـــدمة)

ويشير الى موقف الغرب مـــن العلم وموقف المسلمين منه مسجلا: « ينبغى أن تذكر أنه ما بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر الميلادى فترة عظمة الاســـــلام حيث كانت التغييرات العلمية مفروضـــــة فى بلادنا المسيحية كانت كميات معتبرة من الابحاث والاكتشافات قـــــد حققت فى الجـــامعات الاسلامية » وبعد أن يؤكد أن الفترة النشيطة للمدنية الاسلامية مع النهضة العلمية التى واكبتها كانت لاحقة على نهاية الوحى القرآنى ، وأن القرآن ليس كتابا هدفه عرض بعض أنظمـــة الكون ، بل هو فى الأساس كتـــاب ذو هدف دينى يوضح أن ماجاء فى القرآن بالنسبة لنظام الكون لم يكن انسان القرون الماضية قادرا على أن يكتشف من ذلك الا ظاهر المعنى الذى قد يحمله فى بعض الاحوال على الوصول الى نتائج غير صحيحة نظرا لعدم اكتمال معرفته اذ ذاك ، ويورد جهده فى هذا السبيل فيقول : وقد عثرت أحيانا فى بعض الكتب على تفسيرات علمية لا يبدو لى أنها صحيحة ، وقمت بانتقائها وتفسيرها تفسيرا شخصيا باستقلال فكـــرى واخلاص تامين(١) لقد بحثت أيضا فيما اذا كان فى القرآن اشارات الى وجود كواكب شـــبيهة بالارض ، ويجب القول بأن عددا من العلماء يعتبرون هذا مقبولا تماما ، ولو لم تكن المعطيات الحديثة قد توصلت حتى الآن الى أقل تأكيد لها ، فرأيت أن على أن أعرضه مع كامـــــل التحفظات •

وقد باشر تلك الدراسة منـــذ ثلاثين سنة تقريبا ووصل من دراسته

(١) ص ١١٥ من الكتاب نفسه •

الى أن فى القرآن اشارة الى غزو الفضاء ، ويعود الى تحفظه فى هذا الشأن لكى تكون المواجهة بين القرآن والعلم الحديث مقبولة وصحيحة « أن يكون السند العلمى الذى ترتكز عليه كامل الثبوت ولا يحتمل أى شك » وقد أعلنه كشرط لبحثه فى المقدمة ، ولهذا استبعد آية قرآنية فكر عالم بالطبيعة مسلم بأنها تعلن مفهوم (اللامادة) وهى نظرية يدور الجدل حولها حاليا « وعلى العكس فانه يمكن شرعا انتباهه الى آية من القرآن تذكر « أصل الحياة المائى » وهى ظاهرة لا يمكننا اثباتها مطلقا وان كانت تلتقى عليها أراء كثيرة ، أما بخصوص عوامل الملاحظة كتطور الجنين فانه يمكننا أن نواجه تماما مختلف المراحل الموصوفة فى القرآن بمعطيات علم الجنين الحديث .. » ويستمر فى مقدمته للحديث عن القرآن ، فيشير الى أنه يقصد مقارنة بين التوراة والقرآن فى مسألتين . الخلق والطوفان ، وقد وضح أن التوراة اختلفت مع معطيات العلم الحديث مع قبول معطيات القرآن فى هذا الشأن . ثم لا يقبل قول الغربيين أن محمدا قد نسخ التوراة وهو حكم مطلق مجرد من أى مستند ، ويرى هو أن الاحاديث كالاناجيل روايات عن أفعال وأقوال النبى ليس كتابها شهود عيان .

والمترجمون (١) يردون عليه ، لقد ثبت أن بعض الصحابة كتب بعض الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عبد الله ابن عمرو بن العاص ، ورأيه مقبول فى نظرى ، لانه يتحدث عن الاحاديث ككل ، ثم ان ما كتب مختلف فى بقائه ، فقد نهى النبى عن كتابتها حتى لا تختلط بالقرآن ، وهو يصر على أنها كتابات لا تؤلف فى أى نوع منها كتبا حاوية الوحى المكتوب . وهو رأى جدير بالتقدير والدراسة ، ويعلل لرأيه بأننا نرى فى الكتب المنتشرة يقينيات تحوى أخطاء من وجهة النظر العلمية وبخاصة الوصفات الطبية « فلنوضح أساسا ما يميزها من

(١) ١١٧ المصدر نفسه .

وجهة النظر هذه عن القرآن الذى لا يحوى أية يقينية علمية غـــير مقبولة » ويختم تلك المقدمة بقوله :

ان الاعتبارات التى سيتوسـع فيها فى هذه الدراسة ستوصلنا مـن وجهة النظر العلمية فقط الى الحكم بأن من المستحيل تصور رجل عاش فى القرن السابع الميلادى واستطاع أن يورد فى القـــرآن أفكارا فى موضوعات متنوعة جدا ليست أفكار عصره تلتقى مع ما سيكتشفه الناس منها بعد قرون متأخرة عنه ، أمـا بالنسبة الى فليس للقرآن أى تفسير بشرى • يريد أن يقول انه مـن عند الله ، وليس للبشر أى دخـل فى آياته •

وليؤكد ما يقوله يضـع عنوانا هو « أصالة القرآن » تندرج تحته عنوانات فرعية : تاريخ تدوينه ، دورات الخلق الستة القــرآن لم يحدد نظام تتابع فى خلق السموات والارض ، التتابع الزمنى الذى هو أساس تكوين العالم وانتهاؤه ببناء العالمين • النظام الشـــمسى • المجرات • تكوين وتطوير المجرات والنجوم وأنظمة السيارات • فكرة تعدد العوالم المواجهة مع معطيات القرآن عن الخلق • علم الفلك فى القرآن الى آخر ما ذكـــر من المخلوقات كالنبـــات والحيوان والطير • وعن الحديث عن تدوين القرآن يقول : ان لأصالة القرآن مكانة متفردة بين كتب الـــوحى لا ينازعه فيها الغهد القـــديم ولا العهد الجديد • لماذا ؟ لأن العهـد القديم والاناجيل طرأت عليهـــا تعديلات ، أما القرآن فليس كذلك لأنه ثبت فى عهد الرسول بالذات ، بالحفظ والكتابة والتلاوة والترتيل، ويبين لك أن تسجيل القرآن بدأ منذ نزوله ، ويستدل على صحة رأيه من القرآن نفسه قائلا : ان هناك أربعا من السور المكية تشير الى كتـابة القرآن قبل الهجرة الى المدينة سنة ٦٢٢م ، ومما استشهد به سورة ٢٥ آية ٥ « وقالوا أســاطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا» وهذه الآية تشير الى أن المســجل كتابة « وهو (١) ما يعترف به حتى خصوم محمد » ويشـــير الى أن

---

(١) ص ١٢١ من الكتاب نفسه •

الرســـول كان يعرض القرآن مع جبريل كل سنة فى رمضان ، وأنت تعرف من كتب السيرة قصة اسلام عمر بن الخطاب مع أخته فاطمة حين أعطته صحيفة فيها صدر ســورة (طه) وكان ذلك فى مكة أسوقـــه تأييـــدا للكاتب • أما الكتـــابة فى المدينة فهى معروفة موصـــوفة •

ويتحدث عن الخلفاء وجهودهم فى الحفاظ على القرآن بعـــد وفاة (الرسول بقليل سنة ٦٣٢ م) وينهى حديثه فى أصالة القرآن بقولـــه : « ويمكن أن نتساءل عن الاسباب التى حدت بالخلفاء الثلاثة (أبى بكر وعمر وعثمان) وعثمـــان بالذات باجراء المراجعات على نص الكتاب وللاجابة نقول : لقد كان انتشـــار الاسلام فى السنوات العشر الاول عقب وفاة الرسول بسرعة عجيبة وبين شعوب تتكلم بأكثر من لغـــة غير اللغة العربية فكان لابد مـــن الاحتياط الضرورى فى تناقل النص للمحافظة على صفائه وأصالته، وهذا ما كان من هدف مراجعة عثمان » وأرجو أن يكـــــون معلوما أنى لاأستطيع عرض ما جاء عن القرآن وتوافقه مع المعارف الحديثة لكثرتها وكثرة مناقشتها فلا كتف بما يصور مقاصد الكاتب من دراســـــاته وموازناته بين الكتب المقدســـة ، وكأنما هى مقتطفات مما دبجـــه يراعه العلمى ، فالجزء الثالث أخذ من كتابه أكثر من نصفه ، اذ يبـــدأ من صفحة ١٠٦ الى ٢١٧ وهو آخر الكتاب •

ولنعد الى بحثه ، فتحت عنوان « تاريخ السموات والارض » يعقد موازنة بين خبر التـــوراة وخبر القرآن ، والغربيون يجـــدون فى الموازنة والمقابلة متعة وحبورا ، لأنهما يتقاربان جدا ، ولكن هـــذا التقارب عنده يستحق الوقوف لأن التوراة تذكر (الخلق) دونما ابهام فى ستة أيام متبعة بيوم الراحـــة (السبت) بالتماثل مع أيام الاسبوع « وكل يهودى مفروض عليه الراحة يوم السبت اتباعا لله الذى استراح بعد عمل دام ســـــتة أيام من الاسبوع » والسبت معناه الراحة كما يقول المترجمون •

ومفهـــوم كلمـــة يوم فى التوراة محدد بالمسافة الزمنية المعتبرة مـــن

مطلعين للشمس أو مغربين لهـــا متتابعين بالنسبة الى سكان الارض واليوم المحدد على هـذه الصـور هو حصيلة دوران الارض حـول نفسها •

ومن الواضح أنه لا يمكن منطقيا التحدث فى اطار هذا التحديد لمعنى الأيام ؟ لأن الكون لم يكن عـلى ما نشاهده فى دورات الخلق الاولى حسب رواية التوراة • والتـوراة تجعل اليوم الرابع لخلق الأجرام المضيئة على حين تجعل النور لليوم الاول ، فمن المستحيل أن تكـون انارة فى اليوم الاول (انظر صفحة ٣٥ من الكتاب) •

واذا كان الوحى المحمدى حدد استمرار الخلق بستة أيام فهـو لا يعنى الايام التى حددتهـا التوراة ، ويأخذ على المفسرين أنهم لم يعرفوا مدلول القرآن ، لان ذلك لا يرجع الى اللغة ، وانما يرجـع الى الدراسات العلمية ، فالمقصود بالايام دورة زمنية غير محـددة ، وهذا المعنى يمكن أن يكون للكلمة موجود فى أكثر من موضـع فى القرآن • واقرأ ما يأتى :

« يدبر الأمر من السـماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعـدون »

سورة ٣٢ آية ٥ وتجدر الاشـارة هنا الى أن الآية التى سبقت الآية خمسة هذه تذكر الخلق فى سـتة أيام •

« تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة »

سورة ٧٠ آية ٤ •

ان استعمال كلمة يوم هنا بمعنى دورة من الزمن المخالف كل المخالفة لمعناه الدارج قد أذهل كثيرا مـن المفسرين القدماء الذين لم يكونوا يملكون المعارف الحديثة •• وقـد ظل الامر كذلك الى أن تنبه اليه فى القرن السادس عشر بعد الميـلاد المفسر أبو السعود الذى لم يكن بعد قد حصل على تعريف اليوم الذى تحدد فلكيا نتيجة لدوران الارض ، فكر بأنه ينبغى فى موضوع الخلق اختيار تقسيم زمنه الى أيام بمعنى « نوبات » بالمعنى الذى اعتـدنا استعماله • وهكذا فتح البـاب للمفسرين بعده • ويؤكد المؤلف أن الأيام دورات طويلة من الزمن ،

ويعتبر فهمنا للفظة الايام الواردة فى القرآن بالمعنى الذى ندركه عادة مهزلة • وهنا يقول :

وقد ذكر القرآن الخلق فى أطول مقاطعه التى عالجت موضوعه وهو يسرد وقائع وجود الارض مقابل أخرى لوجود السموات • يقول الله مخاطبا الرسول سورة ٤١ آية ٩ — ١٢ يقصد سورة فصلت :

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » •

ويعلق على هؤلاء الآيات قائلا : هذه الآيات الاربع من السورة ٤١ تبرز مشاهد متعددة : الحالة الغازية البدائية لمادة السماء ، والتحديد الرمزى لعدد السموات السبع ، والحوار الرمزى بين اللـه من جهة والسماء الدنيا والارض البدائيتين من جهة ثانية • والمراد خضوع السماوات والارض بعد تشكلهما لاوامر اللـه •

ويدفع اعتراض القائل بأن العدد ثمانية أيام المتحصل من اضافة دورتى تكوين الارض الى الدورات الاربع والدورتين المخصصتين لتكوين السماء فالمجموع ثمانى دورات وهو ما يتخالف مع عدد الستة المحدد من قبل ، يدفع هذا الاعتراض بأن هذا النص الداعى الى التفكير فى القدرة الالهية يمثل جزأين موصولين بلفظه ثم المترجمة الى زيادة ولكنها تعنى « بعد ذلك » أو « تبعا لذلك » أكثر مما تعنى « فيما بعد » فهى اذن تفرض معنى تتابع مترتب على تتابع أحداث ، ويمكن أن يراد مجرد ذكر عادى ، وينتهى الى أنه لا تعارض ، وأن التكوين حدث فى ستة أيام أى ست دورات أو مراحل •

وتوضيح تفسيره هوأن الله خلق الارض فى يومين ، وخلق ما ذكره من الرواسى الى وقدر فيها أقواتها

فى تتمة أربعة أيـــام ، فالأرض وما عليها وتقدير الارزاق فى أربعـــــة أيام وبقية الستة كانت يومين لخلق السموات ، ولذا استخدم ثم للفصل بين المجموعة الاولى والمجموعـــة الثانية ، الاولى لها أربـــع دورات والاخرى لها دورتان حسب رأيه العلمى .

وقـــــد ذكر المفسرون أمثلة توضيحية لهذه المســـــألة منهم فى القديم (النسفى) ومن المحدثين الشيخ متولى الشـــعراوى الذى مثل بالآتى :

« أقول وضعت أساس العمارة فى ثلاثة أشهر وأتممت بناءها فى عام ، هل معنى ذلك أن العمـــــارة استغرقت عاما وثلاثة أشهر ؟

لا . لقد أتممتها فى عام ولكن جزء الاساس استغرق ثلاثة أشهر منعام البناء، هنا تحدثت بالتفصيل والجزء من الكل ليس منفصـــــلا ولا زائدا عنه (١) .

ثم يذكر أن القرآن لم يحـــدد نظام تتابع فى خلق السمـــــوات والارض » بمعنى أيهما خلق أولا ، ويورد آيات كثيرة من القرآن ويذكر رأيا ارتاه قائلا : وقـــد بدا لى أن فى القرآن مقطعا واحدا ذكر فيـــه تتابع واضح بين أحداث متنوعـــة للخلق وهى الآيات ٢٧ ــ ٣٣ من السورة ٧٩ (النازعات) :

« أأنتم أشد خلقا أم الســـــماء بناها . رفع ســـمكها فســـواها . وأغطش ليلها وأخرج ضـــحاها . والارض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبـــــال أرساها . متاعا لكم ولانعامكم » .

ثم يتحدث عن « التتابع الزمنى الذى هو أساس تكوين العـــــالم وانتهاؤه ببناء العالمين » عارضـــا آيتين من القرآن فيهما خلاصة من الاحداث التى ألفت التتابع الزمنى الذى هو أساس لتكوين العالم :

« أو لم ير الذين كفـــــروا أن الســـــموات والأرض كانتا رتقـــا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون» سورة ٢١ آية٣٠

« .. ثم استوى الى الســـماء

---

(١) معجزة القرآن ص ٧٢ .

وهى دخـــان فقال لها وللأرض » سورة ٤١ آية ١١ اللتين أطاعتـــــا الاوامر بالخضوع ونســـــتنتج الآتى :

١ ــ وجود طبقة غازية مشحونة بذرات دقيقة ، لانه كذلك ينبغى تفسير كلمة « الدخان » فى العربية •

٢ ــ ذكر تتابع زمنى للفتق من كتلة واحدة أساسية ملتئمة العناصر فى الاصل (الرتق) و (الفتق) فى العربية هو الكسر والفصل والشق ، والرتق هو الجمـــع واللأم بين العناصر لتكوين كل متجانس •

٣ ــ رقم (٧) الوارد فى القرآن أربعا وعشرين مـــرة لمعدودات مختلفات معناه فى الغالب هو الكثرة، وبدون الآيات التى ورد فيها رقم ٧ ومنها تلك الآية :

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامـــر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن اللــه قد أحاط بكل شىء علمـــا » • ويجعـــل منها دليلا على وجود سموات كثيرة وأراض كثيرة ووجود خلق وسيط بين الســـموات والأرض ، ويستدل بقوله تعـــالى **« الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام »** •

وهـــكذا يمضى فى تناوله للوحى القرآنى عارضا معطياته مـــــع المعارف الحديثة وفى كل حالـــة لا يتناقض أبدا مع تلك المعـــارف الحديثة واليك لمحات مما ســـجله فى كتابه ، وهى ومضات علمية تمثل منهجه فى تناول الآيات القرآنية ، ولا تغض من معارفنا التفسيرية :

١ ــ « أصل الحياة » •

شغلت هذه المسألة الانسان فى كل زمن ، ومع تعرض القرآن لاصل الحياة فى خطها العام فانه يوجـــز ذكره جدا فى آية تعنى أيضا بموضوع تكون الخلق ســـورة ٢١ آية ٣٠ **«أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهمـــا وجعلنـــا من المـــاء كل شىء حى أفلا يؤمنون »** ان مفهوم أصـــل الاشياء ليس موضع شك ، اذ يمكن أن يفهم من هذه الآية أن الماء مادة أساسية فى صنع كل شىء حى ، أو أن الماء هو أصل كل شىء حى ، وهذان المعنيان الممكنان متوافقـــان تماما مع المعطيات العلمية ، فقـــد

عثر على أن أصل الحياة مائى وأن الماء هو العنصر الاول لكل خليهحية وأنه لا سبيل الى الحياة دون الماء ، وعندما ندرس امكانية الحياة على أى كوكب نبادر الى التساؤل : هل يحتوى هذا الكوكب المـــاء بكمية كافية ؟ ويسير فى مفاهيمه ذاكـــرا العثور على النبات المائى من العصر السابق (لكامبرى) أى الاراضى الاكثر قدما فى علمنا •• الى أن يقول : وهكذا فان كل آيات القرآن المتعلقة بأصل الحياة ســواء كان يراد أصل الحياة العامـــــة ، أو العنصر الذى ينبت الزرع أو البذرة الحيوانية متفقة مع المعطيـــات العلمية الحديثة كل الاتفاق •

٢ ـ « منشأ مركب الحليب » ولنذكر الآية • قال تعالى :

« وان لكم فى الانعـــام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » سورة النحل آية ٦٦ يقول الكاتب الفرنسى : ان وصف القرآن لمنشأ مركبات الحليب الحيوانى متفـــق تماما مع معطيات المعرفة الحديثة فى تلك الآية ، وطريقة التفسير هى شخصية محصنة : لأن الترجمات حتى المعاصرة تنسب اليها عــادة معنى غير مقبول • ويسوق لنا مثلين مما لم يقبل من التفسير •

١ ـ ترجمة (بلامشير)«فى الحقيقة ان لكم بالتأكيد عبرة فى أنعـــامكم نسقيكـــــم من حليب نقى سائغ للشـــاربين من هذا الذى فى بطونها وبين الغذاء المهضوم والدم » •

٢ ـ ترجمة (حميد الله) « نعم لاشك أن ثمة ما يستوعى تفكيركم فى الانعام وما بطونها نســقيكم من خلال البراز والدم حليبـــا صافيا سائغا للشاربين » •

ويعلق على هذين التفسيرين بأن هذه الترجمة غامضـــــة جدا ولا تنســـجم مـع المفاهيـــم الحديثة حتى البدائية • ومع أن هذه الاسطر من صنع أكابر علماء العربية الا أننا نعلم جيـــدا بأن المترجم مهما كان بارعا عرضـــة لارتكاب خطأ فى ترجمـــة المفاهيم العلمية الواردة فيهـــا اذا لم يكن اختصاصيا فى المادة المعينة هنا • والترجمة التى تبدو لى صحيحـــة هى :

« فى الحقيقة ان لكم فى حيوانات قطعانكم عبرة تعطيكم للشرب مما فى داخل جسمها والذى ينتج من الصلة ما بين محتوى الامعاء والدم حليبا صافيا سائغا للشاربين » وقد تخالفه فى رأيه هذا أو توافقه فللرجل فهمه ، وهو لا يقف عند هذا بل يقول: ان هذه الترجمةقريبة مما يوضحه المنتخب فى طبعته المنشورة سنة ١٩٧٣ م من قبل المجلس الاعلى للشئون الاسلامية فى القاهرة الذى يعتمد على معطيات من علم اعضاء الحيوان الحديث •

وبعد أن يوازن بين الكلمات فى الترجمات التى قدمها فى اللغة الفرنسية وما يقابلها فى العربية يفسر لنا معنى الآية علميا قائلا : ينبغى لالتقاط معنى هذه الآية من وجهة النظر العلمية أن نذكرمفاهيم فى علم الاعضاء الحيوانى ، تتكون المواد الاساسية التى تؤمن تغذية الجسم بوجه عام من تحولات كيمائية تجرى فى طول القناة الهضمية ، وهذه المواد تأتى من عناصر حاضرة فى محتويات الامعاء، وعند ما تصل الى المرحلة المراد فيها التحول الكيمائى تمر عبرة غشاوة نمو الدورة الدموية العامة ، وهذا العبور يتحقق بطريقتين : اما بطريقة مباشرة بواسطة ما نسميه الشرايين اللمفاوية ، واما بطريقة غير مباشرة بالدورة التى تسوقها الى الكبد أولا حيث تتلقى بعض التحويرات ثم تبرز لتصل اخيرا بالدورة الدموية العامة ، وبهذه الطريقة كل شىء يمر أخيرا عبر الدورة الدموية •

ان مركبات الحليب ترشح من الغدد الرضيعة التى تتغذى ــ اذا أمكن القول ــ من حصيلة هضم الاغذية التى تصلها بواسطة الدم السائل ، اذ يلعب الدم دور المصدر والمورد للمواد المستخلصة من الاغذية ليجلب الغذاء للغدد الرضعية المنتجة للحليب كما تجلب لغيرها من الاعضاء الاخرى •

وهنا كل شىء ينشأ من منطلق وضع المحتوى المعوى بحضرة الدم فى مستوى الجدار المعوى ذاته • هذا المفهوم الدقيق يرجع الى أبحاث كيمائية وعضوية فى عملية الهضم ، وقد كانت مجهولة تماما

فى زمن الرسول ومعرفتها تعــود الى الفترة الحديثة ، كما أن الدورة الدموية هى من توضيح (هارى) الذى ظهر بعد الوحى القرآنى بما يقارب عشرة قرون • وفى رأيى أن وجود الآية التى تشير الى هــذه المعلومات فى القــرآن لا يمكن أن يكون له تفسير بشرى بســـبب العصر الـــــذى أعطيت فيه • والمترجمون (١) يعلقون : يعنى أنها لا يمكن أن تكون من كلام البشر •

٣ ــ غزو الفضاء •

وقف المؤلف مدهوشا أمام آيات ثلاث تستحق أن تجتذب كل انتباه من وجهة النظر العلمية :

الأولى، تذكر دون لبس مايمكن أن يفعله الناس فى مضمار غــزو الفضاء وسيفعلونه • أما الأخريان فيذكر الله فيهما لكفار مكة الدهشة التى ستصبهم اذا عرجوا فى السماء مشيرا بهذا الى فرضية يســتحيل عليهم تحقيقها :

الآية الاولى : ٣٣ من السورة ٥٥ **« يـــا معشر الجــن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطـــار الســـموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان »** ســـورة **الرحمن** •

وهنايذكر الترجمة ويبين معنى اذا وان ولو وما يقابلها فى اللغــة الفرنسية ويخلص الى أن هذه الآية تشــير الى الامكانية التى سيحقق بها الناس مانسميه فىعصرنا ــ على سبيل **التجوز** ــ « غزو الفضاء » وينبغى التنبيـــه الى أن النص القرآنى لا يتعــرض فقط الى النفوذ من أقطار السماء فحسب ، بل من أقطار الارض أيضا ، وهذا يعنى سبر الاعماق ، ويسبق هــذا قوله • ويبدو أن السلطان الذى يملكه الناس ليحققوا هذه الخطوة مستمد من القادر على كل شىء •

أما الآيتان الأخريان فى السورة ١٥ آية ١٤ ــ ١٥ فيتحــدث اللــه فيهما عن كفار مكة كما يـــدل عليه سياق النص فى الســورة « ولــو **فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون • لقالوا انما سكرت**

---

(١) ص ١٧٢ من الكتاب نفسه •

أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »
انه تعبير عن الاندهاش أمام مشهد غير منتظر مخالف لمـــا كان يمكن للانسان أن يتصوره ، لقد بدئت الجملة الشرطية بحرف « لـــو » الذى يفرض معه استحالة تحقيق المطلوب من المخاطبين ، ولذلك فانا نجد أنفسنا اذن بمناسبة غزو الفضاء أمام فقرتين من القرآن : احداهما لما سيتحقق يوما ما بفضـل القوى التى سيمنحها الله للذكاء والبراعة الانسانيين ، وتذكر الاخرى حدثا لن يراه كفار مكة ، لان مفهـــوم الشرط هنا هو لما لا يتحقق قريبا، وان كان سيراه آخرون كما تسوغ الآية الأولى افتراضه وتصف ردود الفعل الانسانية أمام المشــــهد المفاجىء الذى سيواجه المسافرين فى الفضاء ، أيضا مضطربة مسكرة، وشـــعور بأنهم مسحورون •• وقد عاش هذه الدهشة رواد الفضـــاء منذ سنة ١٩٦١ وما بعدها •

ويختتم كلامه مظهرا دهشـــته راضيا بماوصل اليه : وكيف لا نجد أنفسنا هنا أيضا عند مقابلة نص القرآن مع المنجزات الحــــديثة متأثرين بهذه التحقيقـــات التى لا يمكننا أن نفترض ظهورها مـــن فكر انسان عاش منذ أربعة عشر قرنـــا ؟

وهكذا يبدى رأيه حرا طليقا فى جميع ما تعرض له بسواء فى العهـــد القديم أو العهد الجديد أو القرآن واضعا نصب عينيه الحقيقة ، وقد فاز القرآن بشهادة من رجل منصف، وان كان القرآن فى غنى عن العالمين الا أن كلمة الحق يرضاها اللـــــه ، والحق أحق أن يتبع • وما من شك فى أن قارىء هذا الكتاب «التوارة والانجيل والقرآن » يحصل منـــه على فوائد تكشف له عن معلومات تجلـــو البصر والبصـــيرة ان صح التعبير ، وتدعو الى مواصلة البحث واثراء المجال الفكرى ، والواقـــع أنى لم أقل فيه ما يكشف عن مراميه ولكنى ألقيت لمحـــات ، واقتطفت مقتطفات قد تجد عند القراء اثارة لهم ليقرءوا الكتاب فى ترجمته أو فى أصل فى لغته الفرنسية •

ولو خلا الكتاب من كلمات ابن الله ، وموت عيسى وما الى ذلك لاقترب من التعاليم الاسلامية ،

ولكنحسبه أنه أبرز فى سلامةنظر، وبراءةفكر أصالة الوحى القرآنى، وجعله الوثيقة الوحيدة من عند الله لهداية البشر التى جاءت الينا منه دون تدخل من صنع البشر ، أليس هو القائل عنه فى الخاتمة : « أنه يبرز للذى يمارس اختباره وتحليله بموضوعية كاملة فى ضوء العلم ذاتيته الخاصة به ، وهى الاتفاق التام مع المعطيات العلمية لحديثة، ويكشف حقائق من النوع العلمى تجعل من المستحيل على رجل فى عصر محمد أن يكتبه » .

انه الكاتب الفرنسى موريس بوكاى المستشرق الأمين يحسن أن تقرأ كتاباته وكتابه الذىبين أيدينا صورة من عطائه وسداد تفكيره .

السيد حسن قرون

فهـــرس العـــدد

الموضـــوع — صـــفحة

- **كلمة افتتاح العدد**
  للأستاذ محمد صـــابر البرديسى ٦١٣
- **لقاء مع فضيلة الأمام الأكبر**
  الاستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصـــار ـــ شـــيخ الازهر ٦١٥
- **مكانة الحديث فى التشريع الأسلامى**
  للدكتور الحسين هاشم
  الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية ٦٢٤
- **انتشار الاسلام خارج بلاده ـــ لا تزرعوا السموم فتقتلكم**
  لفضيلة الشيخ مصطفى الطير ٦٣٧
- **نظرات قرآنية : من الجديد عن أصحاب الكهف**
  للدكتور محمد رجب البيومى ٦٥١
- **المشكلة الاقتصادية فى ضوء تعاليم الاسلام الحنيف**
  دكتور رءوف شلبى ٦٥٨
- **فى مواجهة الألحاد العلمى ـــ منشأ القصور فى المنهج العلمى**
  للدكتور يحيى هاشم ٦٧١
- **القرآن والدراسات النفسية**
  للدكتور عبد الغنى الراجحى ٦٨٥
- **مع العلاقة الندوى فى روائع أقبال**
  عرض للاستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى ٦٩٣
- **الباحث عن الحقيقة**
  للمرحوم « محمد عبد الحليم عبد الله »
  من منظور الفن الروائى
  للدكتور فتحى محمد أبو عيسى ٧١٧
- **القرآن الكريم وحرية الرأى**
  للدكتور عبد الحليم حفنى ٧٢٦
- **اللغة العربية والبيان القرآنى آلفاظ القران**
  للدكتور ابراهيم عوضين ٧٣٦

الموضـــوع صـــفحة

- **ملامح الأصالة فى الفكر العربى الاسلامى**
للدكتور عبد الحميد محمد العبيسى ٧٤٥
- **الأزهر جامعا وجامعة أو مصرف ألف عام**
للاستاذ محمد كمال السيد ٧٥٤
- **قيس بن عاصم : سيد أهل الوبر**
للدكتور عفيفى عبـــد الرحمن ٧٧٠
- **باب الفتاوى**
للاستاذ عبد الحميد شـــاهين ٧٩٦
- **حكم وطرائف**
اعداد الاستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ٨٠٠
- **كتاب الشهر ـــ التوراه والأنجيل والقرآن والعلم**
عرض للاستاذ / الســـيد حسن قرون ٨٠٥